

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثالث)

١٤٥٣-١٩٢٨م

أسد رستم



كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثالث)

١٤٥٣-١٩٢٨ م

تأليف
أسد رستم



كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثالث)

أسد رستم

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٠٦ ٦

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٨.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الباب الرابع: النصرانية في دار الإسلام
٩	١- الفتح العثماني
٢١	٢- طمع واضطراب ووجل
٥٥	٣- البطريرك مكاريوس الثالث
١٠٥	٤- الروم الكاثوليك
١٥٧	٥- وصول البروتستانت إلى الشرق واتساع الجبهة
٢٠٥	٦- اليونان والروس
٢٤٥	٧- اسبيريدون وملاتيوس
٢٨١	٨- ملاتيوس الثاني
٣٢٧	٩- غريغوريوس الرابع
٣٨٧	١٠- النظم والقوانين
٤٠٥	الفهارس
٤٠٧	سلسلة البطارقة

الباب الرابع: النصرانية في دار الإسلام

١٩٢٨-١٤٥٣

الفصل الأول

الفتح العثماني

سقوط القسطنطينية (١٤٥٣)

وفي آذار السنة ١٤٥٢ بدأ محمد الثاني السلطان العثماني بإنشاء قلعة بالقرب من القسطنطينية أطلق عليها اسم «روم إيلي حصار»؛ ليهدد بها الإبحار من مرفأ القسطنطينية. فقامت هذه القلعة في الساحل الأوروبي مقابل كوزل حصار التي كان بايزيد قد أنشأها على الشاطئ الآسيوي، فأرسل قسطنطين الحادي عشر وفدًا يحتج على ذلك، فأمر محمد بهم ففُطعت رءوسهم!

فرم قسطنطين الأسوار وذخر المؤن وراسل يوحنا هونيادي وألفونز الخامس، ولوّح بامتيازات هامة لكل من البندقية وجنوا، وكتب إلى البابا نيقولاوس الخامس. ولكنه لم يتلقَ من الغرب شيئًا سوى شخص أسيدورس الذي كان قد أصبح كردينالاً؛ فإنه جاء من رومة موجباً إعلان اتحاد الكنيستين في كنيسة الحكمة الإلهية وذكر البابا في الذبتيخة. فضغط الفسيلفس على بعض كبار الإكليروس وأقام في الثاني عشر من كانون الأول سنة ١٤٥٢ قداساً حافلاً في كنيسة الحكمة الإلهية بموجب الطقس اللاتيني. وما إن فعل حتى ضجت المدينة بالاحتجاج. وتزعّم سكولاريوس هذه المعارضة. وقال نوتاراس الدوق الكبير قوله المشهور: «عمائم الشيوخ ولا تيجان الكرادلة!» وبدأ الحصار، وظل قسطنطين يسعى لاستدراار المعونة من الغرب، ولكنه لم يلقَ سوى سبعمائة محارب بقيادة يوحنا الجنوي. وألح سفير البندقية والكردينال أسيدورس على الأميرال تريفيزانو الذي كان قد واكب الكردينال أن يبقى في مياه القسطنطينية، ولكن ربابنة البوارج آثروا الخروج على البقاء، وحذا حذوهم أهل الحل والربط من رجال الجالية الجنوية، فقالوا بأن بقاءهم على الحياد يكون في صالح الروم!

ويُستدل من أفضل المراجع الأولية على أن عدد المحاربين الروم لم يتجاوز الـ ٤٩٧٣ رجلاً، وأن عدد الأجانب المقاتلين معهم تراوح بين الألفين والثلاثة آلاف، وأن سلاح هؤلاء كان أبيض، وأنه لم يكن لديهم سوى بعض المدافع المتوسطة الحجم، وأن القوة البحرية كانت مؤلفة من سبع بوارج، وأن الذخيرة لم تكن كافية، وأن الفسيلفس اضطر أن يسك النقود من فضة الكنائس.^١

وفي الثاني من نيسان سنة ١٤٥٣ مَدَّ الروم السلسلة العظيمة فأقفلوا بها مدخل القرن الذهبي. وفي الخامس منه وصل محمد الثاني بستين ألف مقاتل وبعدهد كبير من الدراويش والتجار والفلاحين الذين استهواهم النهب والسلب. وفي السابع أُنذر السلطان الفسيلفس بوجوب تسليم المدينة فرفض فبدأ الحصار. وفي الثامن عشر من نيسان أمر السلطان بهجوم عام ولكنه نكص على أعقابهِ، وحاول اقتحام مداخل القرن الذهبي بأسطوله الكبير فلم يُفلح. وفي العشرين من نيسان أطل أسطول غربي مؤلف من أربع بوارج وثلاث ناقلات كبيرة، فأمر السلطان بصددهم عن الوصول إلى القسطنطينية، ونشب القتال بين الطرفين وانتصر الأسطول الجنوبي ووصل إلى القرن الذهبي ناقلًا حبوبًا من صقلية إلى المدينة الخالدة.

وقام السلطان في السابع من أيار وفي الثاني عشر منه بهجومين عنيفين، ولكنه أخفق في المرتين. ورأى البطريرك المسكوني والوجهاء أن يغادر الفسيلفس العاصمة ليجيش الروم في المورة وغيرها ويستدر المعونة من الغرب، ولكن قسطنطين الحادي عشر أثر الموت مع قومه في الدفاع عن النفس. وفي الثالث والعشرين من أيار أوفد السلطان أمير سينوب يفاوض الفسيلفس في تسلم المدينة مقابل خروجه منها وخروج من رغب في ذلك، فلم يرَ قسطنطين في ذلك سوى فخ منصوب فرفض. وفي التاسع والعشرين عاد الأتراك إلى الهجوم، وكان قد تهدم السور الخارجي بالقرب من باب أدرنة فتسلل الانكشاريون من هذه الثغرة إلى السور الداخلي، وعلموا من أعوانهم في داخل القسطنطينية أن الباب الخفي الصغير كيركوبورته الذي كان يطل على الخندق في هذا القاع كان مهملاً، فاقتحموه ونفذوا منه إلى داخل المدينة؛ فدب الذعر في العاصمة. وكان القائد غوسطنياني قد جُرَّح فنُقل إلى جزيرة خيوس وتوفي لدى وصوله إليها. وتابع قسطنطين الجهاد وما فتئ يحارب حتى

^١ Phrantzes, III, 338; Léonard de Chio, Lettre au Pape Nicolas V, P G., Vol. 159. Col.

خرَّ صريعاً في ميدان الشرف. وأباح السلطان المدينة ثلاثة أيام لبلياليها، ثم دخلها وذهب تَوًّا إلى كنيسة الحكمة الإلهية فعلا الأمبون وصلى وجعل الكنيسة مسجداً ثم استقر في القصر المقدس.^٢

امتيازات البطريرك المسكوني

ودخل الروم في «ذمة» الفاتح فدفعوا الجزية وأمنوا على دمائهم وعرضهم وأموالهم. وتوقع الفاتح مقاومة البابا وأمراء أروبة الغربية والوسطى وملوكها، وخشي حرباً صليبية جديدة فتجهز، ورأى من الحكمة أن يظل الشقاق قائماً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية،^٣ وكان والده مراد الثاني قد اتَّبَعَ الخطة نفسها فلم يرضَ عن مفاوضات فراري فلورنسة، كما سبق وأشرنا.

وتوفي غريغوريوس الثالث (مماس) مُوالي رومة في السنة ١٤٥٣، فرأى الفاتح أن يوصل إلى السدة البطريركية شخصاً معارضاً لا يرضى عن الاتحاد. وكان جاورجيوس سكولاريوس قد تزعم هذه المعارضة بعد وفاة مرقس متروبوليت أفسس،^٤ فانتخب المجمع سكولاريوس في أيار أو حزيران السنة ١٤٥٣^٥ وأعلنه بطريركاً مسكونياً باسم جناديوس الثاني (١٤٥٣-١٤٥٧)، وحل الفاتح محل الفسيلفس فاعترف به بطريركاً مسكونياً قائلاً: «كن بطريركاً حرسك الله وسأوليك عطفي، وتمتع بجميع الحقوق التي مارسها سلفاؤك.»^٦ وزار السلطان البطريرك في دير الباما كاريستوس Pammakaristos وحديثه

^٢ Critobule d'Imbros, Hist. I, 68; Doukas, Chron., P. G., Vol. 157, Col. 1112; Annales Sultanorum Othomanidarum, P. G., Vo. 159, Col. 573-650; Pears, E., Destruction of the Greek Empire, 1903; Amantos, C., La Prise de Constantinople, Athens, 1953; Babinger, F., Mehemed der Eroberer und seine Zeit, Munich, 1953; Guerdan, R., Vie, Grandeur et Misères de Byzance, Paris, 1954, 205-247.

^٣ Paparrhigopoulos, C., Istoria Ellenichou Ethnous, V, 504, 522, Elliot, Sir Charles, Turkey in Europe, 242 ff.

^٤ Petit, L., Oeuvres Complètes de Scholarios, III, 117 ff.

^٥ Papadopoulos Kerameus, Ereuna peri Chronias, Nea Hmera, 1910, 1851; Papadopoulos, Th., Hist. of Greek Church and People, 2, n. 1.

^٦ Souvorov, N., Manuel de Droit Ecclésiastique, 78; Papadopoulos, Th., op. cit., 2, n. 2.

في الدين المسيحي. ثم أعد البطريرك بياناً في الدين المسيحي جاء في عشرين فصلاً^٧ وقدمه إلى السلطان، فسُر السلطان به وعطف على «الأمة المسيحية» وأمر بحمايتها.^٨ ويرى رجال الاختصاص أن السلطان الفاتح أصدر براءة ضَمِنَ فيها احترام شخص البطريرك وعدم التعدي عليه وإعفاءه من جميع الضرائب واستقراره في كرسيه وحريته، وانتقال امتيازاته إلى خلفائه من بعده، وامتداد سلطته لتشمل الرؤساء الدينيين الخاضعين له.^٩

واعتبرت السلطات العثمانية البطريرك المسكوني مسئولاً عن الملة المسيحية فحولته سلطة زمنية على المسيحيين علاوة على سلطته الروحية، فأصبح من حقه النظر في «الخصومات التي قد تنشأ بين الروم من رعايا السلطان، وأن يستمع إلى الشهود ويجري الأقسام وينهي المشاكل»، وأمسى من واجبه جمع الضرائب المفروضة على الروم وكنائسهم، ومن واجب الموظفين المدنيين تسهيل أموره،^{١٠} وقول بعض رجال البحث إن صلاحيات البطريرك انحصرت في أمور الإكليروس الأرثوذكسي قول ضعيف لا يتفق وصراحة النصوص.^{١١}

وعاد عدد كبير من الروم إلى القسطنطينية واستقروا حول البطريركية. وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ومن براعتهم في السياسة ما ضمن لهم مركزاً رفيعاً في مختلف العهود.

البلقان في حوزة الأتراك

وهدد المجر الفتوحات العثمانية في البلقان فتحتم القضاء على استقلال الصرب، فقام محمد الثاني بنفسه إلى بلغراد وضرب الحصار عليها، فاندفع هونيادي عبر الدانوب على رأس جيش مختلط من الصليبيين فوقَّ إلى القضاء على هجوم العثمانيين واضطر محمد إلى

^٧ Confessio Fide, Pol. Ist. Kunst. Petit, L., Oeuvres, III, 434–452, 453–484

^٨ Turcograeca, 120

^٩ Phrantzis, Chronicon, III, 11; Papadopoulos, Th., op. cit., 4–7; Papadopoulos, C., Les

Privilèges du Patriarcat Oecuménique dans l'Empire Oltoman, 24

^{١٠} De Testa, I., Recueil, V, 162–170

^{١١} Mathieu, H., La Turquie et ses Différents Peuples, II, 104

الانكفاء (١٤٥٦). وتوفي هونيادي، ثم مات ملك الصرب واصطرع وارثوه، فنهض محمد الفاتح في السنة ١٤٥٨ إلى بلاد الصرب فحطم المقاومة وأخضع السكان وأدخل البلاد في حوزته.

وقضى السلطان في هذه الآونة نفسها على إمارتي الروم في المورة وعلى دوقية أثينا اللاتينية، فأمست بلاد اليونان في معظمها ولاية عثمانية. وفي السنة ١٤٦٤ استولى السلطان على إمبراطورية طرابزون الرومية الكومنينية. وكان خان التركمان أوزون حسن قد شيد دولة فتية في أرمينية وضم إليها فارس والجزيرة الفراتية، فلما دخل محمد الفاتح في حرب طاحنة ضد البندقية حالف البنادقة أوزان حسن وزجوا خصمهم العثماني بين نارين، ولكن الفاتح خرج منتصراً على خصميه في آسيا وأوروبا.

وبعد فتح القسطنطينية انطلق الأسطول العثماني إلى بحر إيجه فاستولى على جزائر تاسوس وسموتراقية وإمبروس وملتوس وفوق الجديدة بالقرب من إزمير. أما رودوس فإنها صمدت في وجه هذا الأسطول وأكرهته على التراجع (١٤٨٠)، وأمر السلطان بإعادة الكرّة في العام التالي فعاجلته المنية وقضى نحبه في معسكره في آسيا الصغرى في الثالث من أيار سنة ١٤٨١.

وأوصى محمد بالخلافة لابنه الأصغر جم فتار الانكشاريون واندلعت نيران الفوضى، فاضطر بايزيد أكبر الأمراء سناً أن يغفر لهم فظائعهم ويزيد في أعطياتهم. واقترح جم على أخيه بايزيد اقتسام الإمبراطورية فلم يرض، بل هجم عليه وهزمه عند يني شهر، فالتجأ جم إلى قايتباي سلطان الممالك وحاول قلب الحكم في آسيا الصغرى بالتعاون مع قرمان أوغلو قاسم بك فأخفق، فالتجأ إلى رودوس حيث حاول التحالف مع فرسانها وبعض دول أوروبا. وفي السنة ١٤٨٨ أسلم الفرسان هذا الأمير التركي إلى البابا أنوشنسيوس الثامن لاهتمامه بصليبية جديدة. وحاصر شارل الثامن ملك فرنسا رومة واستولى على جم. وكان بايزيد قد حرّض البابا على قتل أخيه فمات جم مسموماً في نابولي في شباط السنة ١٤٩٥. واصطفى بايزيد (١٤٨١-١٥١٢) ابنه أحمد وأحب أن يتخلّى له عن العرش، فطالب ابنه سليم بأن يتولى إدارة إحدى ولايات أوروبا بدلاً من طرابزون، وكان جندياً بالفطرة شجاعاً مقداماً فأحبه الجنود. وفي السنة ١٥١١ هدد أدنة على رأس خمسة وعشرين ألفاً، ثم هزم بايزيد ابنه سليماً وأكرهه على الفرار فالتجأ إلى خان القرم. وعاد في السنة ١٥١٢ فظهر أمام أبواب القسطنطينية، فاستقبلته الحامية استقبلاً حماسياً فأكره والده على التنازل وأمر به فدس له السم فتوفي في هذه السنة نفسها.

العثمانيون والمماليك (١٥١٦-١٥١٧)

وكان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) من أعظم سلاطين العثمانيين وأكثرهم انتصارًا وفتحًا. وتنازعت فرنسا والنمسة السيادة في أوروبا واندلعت نار الشقاق الديني بين الكاثوليكين والبروتستانت، فانتهاز العثمانيون هذه الفرصة السانحة واتجهوا بفتوحاتهم شطر آسية. وكان على عرش فارس حينئذٍ الشاه إسماعيل الصفوي الشيعي قطع في مناطق الحدود بينه وبين الأتراك العثمانيين، وحرّض الشيعة في آسية الصغرى. فعزم سليم على غزو فارس وخرج في السنة ١٥١٤ بجيش عظيم مارًا على ديار بكر وكردستان، فترجع الفرس إلى وادي جلديران قرب تبريز، ولكنهم لم يقووا على مقاومة الانكشارية والمدفعية العثمانية فانهمزموا. فدخل السلطان تبريز حاضرة الفرس آنئذٍ، ثم اضطر إلى التراجع لتمرّد الانكشاريين عليه، واكتفى بضم ديار بكر وكردستان.

وصادق السلطان الظاهر برقوق (١٣٨٢-١٣٩٢) معاصره السلطان يلدرم بايزيد العثماني، ودامت هذه الصداقة حتى أيام بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح. ودارت بين سلاطين الطرفين رسائل الوداد وعقود المهادنة. وكان ما كان من أمر الأمير جم ففر إلى الأشرف قايتباي (١٤٦٨-١٤٩٨) ملتجئًا فأجاره، وطلب بايزيد تسليمه فلم يُجبه قايتباي فحقد بايزيد، وانضم هذا الحقد إلى نزاع حول إمارة أبناء ذي الغادر. وكانت هذه الإمارة تركمانية قائمة في أرمينية وكردستان، وكان لا يتولى أمير فيها إلا بإذن صاحب مصر، وكانت الدولة العثمانية قد تدخلت في شئون هذه الإمارة وادعت حمايتها. وبلغ بايزيد أن قيتباي أخذ من رسول ملك الهند هدايا كان أرسلها إلى السلطان العثماني، فجهز بايزيد جيشًا وتوغّل في أرض المماليك حتى مداخل حلب، فصمد المماليك في وجهه وهزموه، فأُتبعه بايزيد بجيش آخر فكانت عاقبة وخيمة. فزحف المماليك عبر الحدود العثمانية فالتقوا بجيش عثماني جديد فكانت الحرب سجالًا ثم انتهت بالصلح، ولكن الطرفين أصبحا في تنافس وتزاحم على النفوذ والزعامة في العالم الإسلامي.

ثم أخذ العثمانيون يحرضون القبائل والإمارات الخاضعة لمصر على التخلص من سيادتها، وبدعوا يضعون العراقيل في سبل تجارتها مع فارس وما وراءها، مما جعل ورود الصوف ومنسوجاته وأنواع الفراء نادرًا، ومنعوا تجار الرقيق من أخذ المماليك الشراكسة إلى مصر، فكان عملهم هذا شديدًا على سلاطين المماليك؛ لأن المماليك الشراكسة كانوا آنئذٍ مادة الجيش المصري ورجال الحكومة فيها. وأخذ سلاطين المماليك يجيرون كل من التجأ

إليهم من أبناء السلاطين العثمانيين والأمراء والأعيان الفارين من وجه الدولة العثمانية. واسترسلوا في هذه السياسة فهبوا يوادون من عادي العثمانيين أمثال أوزون حسن ثم بعده الشاه إسماعيل وغيرهما. وحاول الشاه الصفوي تحويل هذه المودة إلى محالفة فلم يُفلح للفرق في المذهب. واستطار شرر هذه الأحقاد بسماح قانصوه الغوري (١٥٠١-١٥١٦) بأن يمر الوفد الفارسي المفاوض في سورية بطريقه إلى البندقية ليعرض عليها اتحاداً ضد الأتراك العثمانيين، وبإجارة السلطان الغوري للأمير قاسم ابن أخي السلطان سليم الأول العثماني وإجارة الشاه إسماعيل للأمير مراد أخي قاسم. وأراد السلطان سليم قتل هذين الأميرين فطلبهما فلم يجيباه. وخشي سليم تحول المودة بين مصر وفارس إلى حلف، فأعلن الحرب على فارس، كما سبق وأشرنا، ثم على مصر. ولما زحف سليم على فارس أتلف الشاه إسماعيل كل ما خلفه في مدنه وقلاعه من المئونة والذخائر وانتظر سليم ورود غيرها من بلاده فعلم أن قبائل التركمان وإمارة الغادرية التابعة لمصر قد أغارت على قوافله ومنعت وصولها إليه، فاضطرب جيشه فحرمه ثمرة انتصاره في جلديران.

وعاد سليم من فارس إلى بلاده فانتقم من إمارة الغادرية فقتل أميرها علاء الدين وضم الإمارة إلى ملكه، واحتد السلطان قانصوه الغوري على ذلك فقابل سليم احتجاجه بإرسال رأس علاء الدين إليه، فعلم الغوري أن الحرب واقعة.

وكانت مملكة البرتغال قد قطعت طريق التجارة الهندية الشرقية على مصر؛ فنضبت أهم موارد الثروة. وكان الفساد قد دبَّ في أخلاق الممالك وقلَّ ولاؤهم، وكان قد جرَّأهم على ذلك ميل الغوري إلى مماليكه الذين جلبهم لنفسه، فلما أراد أن يستجمع كل ما عنده من قوة تخاذل الممالك القدماء وتعللوا بقلّة النفقة. وبعد تساهل من الطرفين تمكن الغوري في شتاء السنة ١٥١٥-١٥١٦ من إعداد جيش يخرج به إلى حدود العثمانيين، وجمع في هذا الجيش قوة مصر الأدبية؛ فخرج فيه الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة وأشياخ الطرق وكبار العلماء والأعيان ورؤساء المغنين والموسيقيين وأرباب الصناعات. وبلغه أن الأسطول العثماني يقصد الإسكندرية فعزز حاميتها وحصَّن قلاعها بنحو مائتي مدفع، وأتاب عنه الدودار الكبير طومان باي ابن أخيه. وخرج جيش الممالك من القاهرة في صيف السنة ١٥١٦ فقاسى الجنود الشدائد في اجتياز صحراء سيناء، ثم دخلوا دمشق وحماة وحلب.

وخرج السلطان سليم الأول من القسطنطينية بجيش بلغ مائة وخمسين ألفاً مسلح بكثير من الأسلحة النارية بالمكاحل والمدافع والبنديقيات، فلما صار على حدود الممالك استمال خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة، ووعد الأول بولاية مصر والثاني بولاية سورية. وعرف الغزالي اللبنانيين وما تحلوا به من شجاعة وبأس وحذق في أساليب القتال، فاستمال المعنيين ومن شد أزهرهم من المشايخ والأعيان. وأراد سليم أن يخدع الغوري ويصرفه عن القتال فأرسل إليه بتوسط نائب حلب رسالة يعتذر فيها عما فرط ويعده بالخير، ثم أرسل إلى حلب وفداً يؤكد إخلاص السلطان شرط ألا يتدخل الغوري في النزاع القائم بين العثمانيين والصفويين. فأكرم الغوري أعضاء هذا الوفد وأرسل يعرض توسطه في الصلح بين سليم وإسماعيل، فغضب سليم وهم بقتل الرسول، ثم قال: قل لأستاذك إن إسماعيل الصفوي خارجي وأنت مثله وسأبدأ بك قبله وموعداً مرج دابق على بُعد يوم عن حلب. والتقى الجحفلان في مرج دابق وكاد الغوري ينتصر، فعمل خير بك والغزالي والأمير فخر الدين المعني على تثبيت الهمم فتحول النصر إلى انهزام، وفُلج الغوري لساعته وسقط عن جواده، وشاع موته فتفرق جيشه.

وانتظر أهل حلب قدوم السلطان سليم فسلموه المدينة وخطبوا باسمه في مسجدها فجعلوه حامي الحرمين الشريفين، فاغرورقت عيناه بالدموع ونهض لساعته وخلع على الخطيب فألبسه فِراءً! وانضم إلى العثمانيين خير بك والغزالي والأمير فخر الدين وغيرهم، واستولى السلطان على دمشق وجميع مدن سورية. ورجع المنهزمون إلى مصر فكابد طومان باي المشقات في جمع شتاتهم، وكانت موقعة غزة فالريدانية ١٥١٧، فدخلت مصر أيضاً في حكم الأتراك العثمانيين وكذلك الحجاز.

نظام الحكم

وبعد أن أتم السلطان العثماني فتح مصر ووضع نظاماً لإدارتها عاد إلى دمشق ليُعنَى بتنظيم الإدارة في سورية ولبنان وفلسطين. فأبقى على نظام النيابات وعين على نيابة حلب حاكماً تركياً ثم جعل سائر النيابات في يد جان بردي الغزالي. وعطف على الأمير فخر الدين المعني فعزز سلطته على لبنان وخطاً من قَدَر غيره من الأعيان، وأبقى القديم على قدمه فجاء فتحه يسيراً. وأخلص الغزالي الولاء لسليم فحارب البدو والحرافشة وغيرهم ممن عاون المماليك في أثناء أعمال الفتح ووطد السلطة والأمن في البلاد.

ثم مات سليم في السنة ١٥٢٠، فأعلن الغزالي استقلاله في الجامع الأموي في دمشق متخذاً لنفسه لقب الملك الأشرف. فأنفذ السلطان سليمان حملة لتأديبه بقيادة فرهاد باشا، فكانت موقعة القابون في السابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٥٢١. وكان تأديب على طريقة التتر وتيمورلنك، فاستغنت السلطات التركية عن خدمات كبار الموظفين المحليين وأسندت أعمالهم إلى أتراك عثمانيين. ولا نعلم بالضبط متى ألغت الحكومة العثمانية النيابات القديمة وما تبعها من أنظمة، ولكن تقارير قناصل الدول الأجنبية تُشير إلى باشاويات ثلاث تم تنظيمها قبل نهاية القرن السادس عشر؛ وهي باشاوية حلب وباشاوية دمشق وباشاوية طرابلس، وجاء في تقرير رسمي يعود إلى عهد السلطان أحمد (١٦٠٣-١٦١٧) أن هذه الباشاويات كانت مقسمة إلى سناجق أهمها في جنوب البلاد سناجق غزة والقدس ونابلس وتدمر وصيدا وبيروت، ومنها في الشمال سناجق طرابلس وجبله وحمص والسلمية، وشملت باشاوية حلب تسعة سناجق مماثلة. وأنشأت الدولة العثمانية باشاوية صيدا في السنة ١٦٦٠ للإشراف على لبنان ومراقبته!

وجاء على رأس كل باشاوية وال يعينه السلطان لسنة واحدة، وكان ينوب عن الوالي في كل مدينة حاكم إداري يُدعى متسلماً. أما الريف فإنه كان مقسماً إلى زعامات وتيمارات وموزعاً على ضباط عسكريين مدة حياتهم، وكان على هؤلاء أن يلبوا الدعوة للحرب بشروط معينة وعلى نفقتهم الخاصة، وأن يقوموا بأعباء الحكم في مقاطعاتهم.

وكان يحيط بالباشا في عاصمة الباشاوية (الإيالة) رؤساء الجند وهم قواد الفرق التي كانت تشكّل حامية الباشاوية، وتألّف من اجتماع هؤلاء الرؤساء ديوان الوالي. وكان لهذا الديوان سلطة واسعة؛ إذ لم يكن في وسع الوالي أن يبرم أمراً هاماً إلا بموافقة الديوان، وكان إذا وقع خلاف بينه وبين الديوان رفعه إلى الآستانة للفصل فيه، وكان للديوان أن يطلب عزل الوالي إذا شاء. وأحاط الباشا نفسه في غالب الأحيان بعدد من الجنود غير النظاميين «باش بوزق» يتناسب ومقدرته على الإنفاق، منهم الكردي والكريتي والأناضولي والأرناؤوطي والمغربي.

وقضت قوانين الدولة بأن يقترح «قاضي عسكر» الأناضول تعيين من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لتولي القضاء في باشاويات آسية، فتصدر بذلك فرمانات رسمية. فكان يعيّن في كل سنة «مولى خلفه» من علماء الأتراك في كلٍّ من حلب ودمشق وطرابلس والقدس، وكان يعيّن هذا المولى خلفه بدوره نواباً في سائر مدن الباشاوية التي ولي القضاء

فيها. وكان يتولى الإفتاء في كلٍّ من حلب ودمشق مُفْتُونَ أربعة من المذاهب الأربعة يجيبون عما يُلقى إليهم من المسائل المشكوك في أحكامها.

مذهب الدولة

وقال السلطان العثماني بالمذهب الحنفي، فأصبح هذا المذهب هو المذهب السائد، يحق للمتداعين أن يطلبوا تطبيقه إذا رأوا في تطبيق غيره إجحافاً بحقوقهم. وأقبل العلماء على درس هذا المذهب وصنفوا فيه، وأشهر ما صُنّف من هذا القبيل في القرن السادس عشر كتاب «الملتقى»، للشيخ إبراهيم الحلبي مفتي السلطان سليمان القانوني.

الشرع والقانون

وخضع السلطان العثماني للشرع الشريف واعتز بحكمه وأحكامه، ولكنه قال في الوقت نفسه بالعادة والعرف والقانون. والعادة هي ما استمر الناس عليه عند حكم العقول وعادوا له مرة بعد أخرى. والعرف هو ما استقر في النفوس من جهة شهادات العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول. والعرف عند الأتراك العثمانيين كان إرادة السلطان السّنية، وهو من المعاني الخصوصية التي انفردوا بها.^{١٢} والقانون هو العرف المدون بأمر السلطان أو هو مجموعة الإرادات السلطانية المدونة. وهذه الإرادات السّنية كانت لا تصدر قبل مشاورّة العلماء المقربين من السلطان العارفين المطلعين الذين كانوا يجارون السلطان في فتاويهم للمحافظة على المصلحة السياسية والاجتماعية ومقتضى الظرف، ومن هنا هذه الامتيازات التي حَصَّ بها محمد الفاتح وخلفاؤه بطاركة القسطنطينية.

البطريك المسكوني والبطاركة

وكانت قرارات المجامع المسكونية قد قضت بتقدم بطريك القسطنطينية على بطاركة الشرق الثلاثة وباعتباره الثاني بعد بطريك رومة. وكان قد سبق لهؤلاء البطاركة الثلاثة

^{١٢} Hammer, Joseph von, Staatsverfassung, 30; Heidborn, A., Manuel de Droit Public et Administratif de l'Empire Ottoman, 37 ff; Fehmi, Y., Hist. de la Turquie, 237; Lybyer, A., Government of Ottoman Empire, 152-159.

أن اعترفوا بهذا التقدم في الكرامة. وكان بطريرك القسطنطينية قد اتخذ لنفسه لقب البطريرك المسكوني بمعناه البيزنطي؛ أي بطريرك الإمبراطورية، فوافق بطاركة الشرق على ذلك واعترضت رومة. وكان بطريرك القسطنطينية قد حاول في الربع الأول من القرن الحادي عشر أن يصبح ذا سلطة شرعية على بطاركة الشرق، فطلب إلى رومة الاعتراف بذلك، فكادت تعترف ثم أبت. وقد سبق الكلام في هذا الموضوع عند الكلام عن بدء الانشقاق، ثم وقع الشقاق ووسَّعته الحروب الصليبية وثبتته الحملة الصليبية على القسطنطينية، فخرست رومة ما تبقى من نفوذها في الشرق.

واستولى الأتراك على القسطنطينية ثم على جميع أبرشيات البطريركيات الشرقية، فأصبح بطريرك القسطنطينية بطريرك عاصمة الدولة العثمانية يفاوض باسم البطريركيات الأخرى ويسهل أمورها في عاصمة الدولة، ويدافع عن حقوقها أمام السلطة العثمانية العليا. وكان من الطبيعي جداً أن تعترف السلطات العثمانية بتقدم بطريرك العاصمة على بطاركة الولايات، وأن تمنحه امتيازات إدارية يتميز بها على أقرانه؛ فقد جاء في براءة سلطانية صادرة في أواخر أيلول سنة ١٨٥٥ موجهة إلى البطريرك كيرلس خلف أفتميموس أنه إذا أمَّ القسطنطينية بطاركة البلدان الأخرى لترتيب أمورهم يتوجب عليهم أن يفعلوا ذلك بواسطة البطريرك المسكوني والمطارنة،^{١٢} وجاء في قرار اتخذه في السنة ١٧٦٧ البطريرك المسكوني صموئيل أنه عملاً بالامتيازات القديمة التي تخوله حق الرئاسة Ephoros والإشراف Epistates على عرش أحد البطاركة لدى وفاته، وعملاً برئاسته وإشرافه في جميع كنائس المسيح وبصفته رأس الجسم كله؛ ونظراً لطلب كيريسوس فيليمون الخطي بأن يخلفه على كرسي أنطاكية كيريسوس دانيال، ولما كان أخوه في النعمة كيريسوس أفرايم بطريرك أورشليم يرى الرأي نفسه، وكذلك مجمع الأساقفة المقدس فإنه يعلن حق كيريسوس دانيال بتولي العرش الأنطاكي،^{١٤} ولكنه جاء أيضاً في قرار أصدره البطريرك المسكوني نيوفيطوس في العاشر من كانون الثاني سنة ١٧٩٢ أن رعاية مصالح البطريركيات الأخرى واجبة، ولكن التعدي على حقوقها أمر مشجوب لا يجوز التفكير به ولا يليق بالمقام البطريركي.^{١٥}

^{١٢} De Testa, I, Recueil, V, 170.

^{١٤} Appendix I, Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, 194.

^{١٥} Ibid. 196.

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثالث)

آل عثمان.

١٥٢٠-١٥١٢	سليم الأول
١٥٦٦-١٥٢٠	سليمان الأول
١٥٧٤-١٥٦٦	سليم الثاني
١٥٩٥-١٥٧٤	مراد الثالث
١٦٠٣-١٥٩٥	محمد الثالث
١٦١٧-١٦٠٣	أحمد الأول
١٦١٨-١٦١٧	مصطفى الأول
١٦٢٣-١٦١٨	عثمان الثاني
١٦٤٠-١٦٢٣	مراد الرابع
١٦٤٨-١٦٤٠	إبراهيم
١٦٨٧-١٦٤٨	محمد الرابع
١٦٩١-١٦٨٧	سليمان الثاني
١٦٩٥-١٦٩١	أحمد الثاني
١٧٠٣-١٦٩٥	مصطفى الثاني
١٧٣٠-١٧٠٣	أحمد الثالث
١٧٥٤-١٧٣٠	محمود الأول
١٧٥٧-١٧٥٤	عثمان الثالث
١٧٨٩-١٧٥٧	عبد الحميد الأول
١٨٠٧-١٧٨٩	سليم الثالث
١٨٠٨-١٨٠٧	مصطفى الرابع
١٨٣٩-١٨٠٨	محمود الثاني
١٨٦١-١٨٣٩	عبد المجيد
١٨٧٦-١٨٦١	عبد العزيز
١٨٧٦	مراد الخامس
١٩٠٩-١٨٧٦	عبد الحميد الثاني
١٩١٨-١٩٠٩	محمد الخامس
١٩١٨	محمد السادس

الفصل الثاني

طمع واضطراب ووجل

الولاء والجنود

وما كاد الأتراك العثمانيون يستولون على أبرشيات أنطاكية حتى دخلوا في دور من الانحطاط دام طويلاً، فإنهم بلغوا أقصى مجدهم وعظمتهم في عصر سليمان، وبعد وفاته في السنة ١٥٦٦ ابتدءوا في انحطاط مستمر اللهم إلا فترات كانوا ينتعشون فيها ويظهرون بعض علامات القوة والنشاط.

وترجع أسباب انحطاط الأتراك العثمانيين إلى أسباب داخلية وخارجية، وأهم الأسباب الداخلية أنه جاء بعد سليمان القانوني عدد من السلاطين الضعفاء الذين لم يكن لهم همٌ سوى الانغماس في الملذات. فلما أصبح الجنود بلا سلطان شجاع يقودهم إلى النصر في ساحات الوغى سقطت هيبة السلاطين من أعينهم، وشعروا بما لهم من حول وقوة فبدءوا يعزلون ويولون من يشاءون متطلبين الأعطيات الجزيلة مبتزين الأموال الكثيرة.

وأدى استئثارهم بالسلطة على هذا الوجه إلى الانغماس في الترف والفساد، ففقدوا صفاتهم الحربية القديمة، وأصبحت ترقياتهم مشروطة بما يبذلونه من الرشوة لولاء الأمور منهم وليطانة السلطان. وعمّت الرشوة مصالح الحكومة بأسرها وأصبحت جميع الوظائف تُباع وتُشترى، فاضطر الولاة أن يبتاعوا وظائفهم. وكان الواحد من هؤلاء لا يُوفق إلى تجديد مدة ولايته دون أن يُرسل إلى عاصمة الدولة ما يرضي به رؤسائه، فيضطّر والحالة هذه أن ينظر إلى وظيفته كوسيلة لابتزاز المال. وأصبحت مناصب القضاء أيضاً تُباع وتُشترى وتُعرض في أسواق المساومة، فترسو على من يدفع الثمن الأعلى، وكان المولى

خلافة لا يعرف العربية فيشكل في استماع المرافعة إلى مترجم يُصبح هو صاحب القول الفصل في بعض الأحيان.

واستوطن الانكشاريون والسباهيون حلب ودمشق وطرابلس فصيда واستقروا بها، فصار لهم صبغة محلية وكثرت مطاعمهم ومشاكلهم، ولجئوا في غالب الأحيان إلى القوة للوصول إلى ما كانت تصبو إليه نفوسهم، وكانت تغلق الحوانيت ويجري الدم فيضطر كل صاحب مهنة أن يأخذ أسلحته معه إلى محل عمله. وأصبح «أهل الذمة» بحالة يُرثى لها يتكيسون بأصحاب السطوة من المسلمين لصيانة أنفسهم، أو يفرون إلى لبنان ليعيشوا فيه أحرارًا معززين.

بطاركة القرن السادس عشر

ويختلف الرواة في أسماء البطاركة وفي تسلسل سلطتهم ومدة رئاستهم، وليس لدينا من السجلات الرسمية ما نستعين به لإثبات هذه الحقائق التاريخية الأولية، فحوادث السنة ١٨٦٠ في دمشق قضت على كل ما كان قد تجمع في البطريركية من أوراق وسجلات، وأحرقت ما كان قد تبقى من كتب طقسية وديبتيخات في الكاتدرائية البطريركية.

ويقول قسطنديوس القسطنطيني إن دوروثيوس الثالث تولى السدة البطريركية الأنطاكية من السنة ١٥١١ حتى السنة ١٥٢٣، وإن يواكيم الرابع خلفه في السنة ١٥٢٤ فساس الكنيسة ثلاثين عامًا، وإن ميخائيل الخامس جلس اثنتي عشرة سنة (١٥٥٥-١٥٦٧)، وإن يواكيم الخامس ظل متوليًا من السنة ١٥٦٧ حتى السنة ١٥٨٥، وإن دوروثيوس الرابع خلفه فتوفي بعد اثنتي عشرة سنة؛ أي في السنة ١٥٩٧.^١

وجاء في كتاب «الأرج الزكي» مثل ما جاء في لائحة قسطنديوس حتى نهاية عهد ميخائيل الخامس في السنة ١٥٦٧. ثم جاءت بطريركية يواكيم الخامس سنة واحدة تلتها رئاسة يواكيم السادس، فدامت سبع عشرة سنة (١٥٨٥)، ثم بطريركية دوروثيوس الرابع حتى السنة ١٦١٠. وأضاف صاحب «الأرج الزكي» أن الأرشمندريت بولس أبو عضل تكرم عليه بالسلسلة البطريركية، وأن غريغوريوس متروبوليت طرابلس (البطريك فيما بعد) نظر فيها وأجازها.

^١ Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, 179-180

وإذا ما قابلنا هاتين اللائحتين بما صنّفه البطريق مكاريوس (زعيم) وابنه بولس^٢ وبما حَبَّره الخوري ميخائيل بريك، «الخلاصة الوافية في تاريخ بطاركة أنطاكية»،^٣ هالنا التناقض وأرهبنا، وليس في ما ظهر في مجلة «المنار» الأرثوذكسية بقلم غطاس قندلفت أو في ما أورده الأب كرافسكي في «قاموس التاريخ والجغرافية الكنسي» ما يُسكن روعنا ويُخفف جأشنا، ولولا جهود المغفور له السيد خريسوستومس (بابا زوبولوس) رئيس أساقفة أثينا،^٤ وصبر الأب الأرشمندريتي جوزيف نصر الله،^٥ لما تمكنا من رسم الخطوط الرئيسية التالية. وأملنا أن يقوم بعدنا من يُعنى بجمع جميع ما تبقى من الآثار الخطية في اللغتين العربية واليونانية ليتسنى لخلفائنا الوصول إلى استنتاجات سليمة كاملة.

البطريق دوروثيوس الثالث (١٤٩٧-١٥٢٣)

وجاء لبولس ابن الزعيم أن دوروثيوس (ابن الصابوني) كان يسوس الكنيسة الأنطاكية في أيلول السنة ٧٠٠٦ للخليقة (١٤٩٧)، وجاء أيضًا في ذيل إنجيل خطي في السابع والعشرين من آذار سنة ١٥٢٣ تصديق لدوروثيوس يفيد أن هذا الإنجيل أصبح آنئذٍ وقفًا على كنيسة دير عطية،^٦ فنانا مضطرين والحالة هذه أن نجعل مدة رئاسة دوروثيوس الثالث تشمل هذه السنوات كلها. ولكنه ليس في نص بولس ما يمنع القول بابتداء هذه الرئاسة قبل السنة ١٤٩٧، وقد جاء للمغفور له خريسوستومس رئيس أساقفة أثينا في كتابه في تاريخ كنيسة الإسكندرية أن يواكيم بطريق الإسكندرية تسلم عكاز البطريركية المرقسية في دمشق في السادس من آب سنة ١٤٨٧، وهو يستند في قوله هذا إلى مازاركي

^٢ Patrologie Orientale, Vols, 22, 24, 26.

^٣ وقد داعبها ولعب بنصها سليم قبعين في كتابه «الحقائق الوضية في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية»، ثم نقل هذا النص الممسوخ إلى اليونانية بورفير أوسبنكي فنشره في ترويدي أكاديمية كيف سنة ١٨٧٤.

^٤ Papadopoulos, Ch., Istoria Ecclesias Antiocheias, Athena, 1951.

^٥ Nasrallah, J., Chronologie des Patriarches d'Antioche, Proche-Orient Chrétien, 1956, 293-311, 1957, 26-43, 207-217.

^٦ Nasrallah, J., Chronologie, Proche-Orient Chrétien, 1957, 28-29.

ومالشيفسكي،^٧ وجاء لدوسيثيوس في تاريخه «جلاء الأبصار من غشاء الأكدار» أن دوروثيوس الأنطاكي اشترك مع زميليه فيلبيتيوس الإسكندري ويواكيم الأورشليمي في شجب أعمال مجمع فلورنسة في القسطنطينية في السنة ١٤٨٤. ويرى الأب نصر الله أن ما يُنسب إلى دوروثيوس قبل السنة ١٤٩٧ هو من أعمال سلفه ميخائيل، والواقع أنه لا يجوز البت في شيء من هذا، ومراجعنا الأولية لا تزال على ما هي عليه من نقص وغموض.

البطريك ميخائيل الخامس (١٥٢٣-١٥٤١)

ولنا في تاريخ تجليد مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٤١٨، وفي تصديق وقفية الإنجيل الخطي الذي قدمه جرجس بن إلياس الملاتي إلى كنيسة القديس حنانيا في دمشق،^٨ وفي أخبار مجمع قارة الذي التأم في السنة ١٥٣٩ وفي كلام بولس ابن الزعيم ووالده البطريك مكاريوس،^٩ ما يجعلنا نرجح الحدين ١٥٢٣ و١٥٤١ لرئاسة ميخائيل الخامس كما ورد أعلاه، ويلاحظ هنا أن لا أساس لفترة الخلو بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٥٢٣ التي قال بها الأب إسحاق أرملة في مقاله في مجلة «المشرق» سنة ١٩٣٦، وأن لا صحة لما رواه الأب قسطنطين الباشا عن بطريك أنطاكي اسمه ميخائيل جاء في مخطوطة الفاتيكان رقم ١٤٧ بتاريخ ١٩ آذار سنة ١٥٢٢.^{١٠} والبطريك ميخائيل الخامس هو ابن الماوردي الذي زار الأماكن المقدسة تبركاً في السنة ١٥٣٩، وهو الذي ترأس مجمع قارة.

مجمع قارة (١٥٣٩)

ونشأ خلاف في السنة ١٥٣٩ حول حساب عيد الفصح، فاجتمع حول السيد البطريك الأنطاكي ميخائيل في قارة عدد من رجال الإكليروس بينهم يوحنا أسقف يبرود ويوحنا أسقف صيدنايا وجرمانوس أسقف بعلبك وأسقف الزبداني وجماعة من الخوارنة والقساوسة والشمامسة، «ولم يعرفوا كيف يمسكوا من الحدود الذي من العماد إلى

^٧ Papadopoulos, Chrys., Ist. Ecc. Alex., 591

^٨ Vat. Arab., 52

^٩ Vat. Arab., 689, Fol. 127, Voyage, 23, (Nasrallah, J., Chron., P. O. C., 1957, 29)

^{١٠} نخبة من «سفرة البطريك مكاريوس»، ص ٢٢.

مرفع اللحم، واشتبه الحساب عليهم بسبب زود الدقائق الزائدة، فأرسلوا إلى الشمس إبراهيم عطنت في بيروت يستشرونه في الأمر فأجاب: «وأنا اختلف الحساب عليّ!» وعندئذ أحضرني الشيخ إبراهيم بن العكيكة فبرهنت لهم حساب الدقائق وزودها، وجمعت لهم الزود إلى سنة سبعة عشر وسنة ثمانية عشر وتسعة عشر تكون تجعل أيام الخليقة سبعة حتى صح لهم الحساب؛ لأنهم لم يكونوا في زمان الأول يؤرخوا لنا سنة الغلطة، وحسبت لهم أن يرفعوا في تسعة أيام من شباط، وظهر لهم الحق والعيد في ستة أيام من نيسان.» أما طوائف الأراطقة فإنهم أكلوا اللحم جمعة النقية أول جمعة الصوم، وصاموا جمعة الفصح المجيد، وبرطلوا النقاش أمين كنيسة القدس بألف دينار فأشعل لهم القنديل، وأخذتني الغيرة فأخرجت لهم من شبكة يوحنا الدمشقي من سنة سبعة آلاف وسبعة وأربعين إلى سنة سبعة آلاف ومائة وسبعة وثلاثين برهنت فيها كم يكون فيها العيد العظيم، وكم تكون القاعدة الشمسية، وكم تكون عدة صوم الرسل.^{١١}

ويلاحظ هنا أن المشادة نشأت بين الأرثوذكسيين وبين اليعاقبة والأرمن والأحباش والموارنة، وأن الكرج والإفرنج والأقباط وافقوا الأرثوذكسيين على موقفهم من حساب الفصح، ويلاحظ أيضًا أن وجه الصواب التبس على الأب كارالفسكي فظن في مقاله عن أنطاكية في قاموس التاريخ والجغرافية الكنسي أن المشادة المشار إليها وقعت حول اختلاف بين البطريك ميخائيل ويواكيم متروبوليت بيروت.^{١٢}

البطريك دوروثيوس الرابع (١٥٤١-١٥٤٣)

ولا نعلم الشيء الكثير عن دوروثيوس الرابع قبل وصوله إلى السدة الأنطاكية، ولعله كان قسطنطيني المولد والنشأة والترهب، ولعل اسمَه في الرهبنة كان يوحنا.

اتصاله بالموارنة وخلعه

وجاء في رحلة البطريك مكاريوس أن دوروثيوس أحب أن يتفقد شئون الرعية فقام بجولة في أبرشيات الكرسي الأنطاكي، وجاء طرابلس فاتصل ببطريك الموارنة في قرية داريا

^{١١} مأخوذ بتصرف من مخطوط مجهول المؤلف وجده الأب لويس شيخو في حمص في السنة ١٩٠٢، فأضافه إلى مجموعة المكتبة الشرقية في جامعة الآباء اليسوعيين في بيروت، المشرق ١٩٠٢، ص ٩٥١-٩٥٢.

^{١٢} Nasrallah, J., Chron., P. O. C., 1957, 30-33.

من منطقة الزاوية وفأوضه في نوع من التعاون بين الطائفتين، فاقترح تبادل الخدمات الروحية بين الكهنة والسماح بالتزاوج بين الطائفتين مع الاحتفاظ بالعقائد القديمة، ويضيف كاتب الرحلة: «وقد وجدنا هذا كله مدوناً في قلايتنا في حلب، ووجدنا أيضاً الرسالة العربية التي وجهها يواكيم البطريك الإسكندري إلى دوروثيوس التي حرّمه فيها من ممارسة الأسرار المقدسة، وجاء في هذه السنة نفسها أرميا الثاني البطريك القسطنطيني (١٥٢٢-١٥٤٥) أورشليم فاجتمع بجرمانوس بطريركها (١٥٣٤-١٥٧٢) ويواكيم بطريك الإسكندرية؛ فحكموا بخلع البطريك الأنطاكي وشرطنوا يواكيم متروبوليت بيروت بطريركاً محله».^{١٣}

وليس في المراجع المارونية الباقية أي صدّى لهذا الحادث، والبطريك الماروني المعاصر هو البطريك موسى العكاري (١٥٢٤-١٥٦٧). وجل ما هنالك خبر الرسالة التي أرسلها هذا البطريك إلى البابا بولس الثالث التي يرجو فيها إرسال ستة كهنة من رهبان القديس فرنسيس؛ «لينشئوا مدرسة في لبنان لتعليم بعض الشباب اللغة اللاتينية؛ لأنه منذ مدة طويلة لم يأت أحد من قبل الحبر الروماني لزيارتهم، ولا استطاع هو أن يرسل أحداً يعرف اللغة إلى قداسته».^{١٤} وهنالك رواية أخرى تفيد أن سمعان أسقف طرابلس لم يتمكن من الإقامة في طرابلس لما حلّ بالكاثوليكين فيها من اضطهاد،^{١٥} وهنالك أيضاً ما يفيد بمشادة نشأت في عكار بين الروم والموارنة حول بعض الأوقاف،^{١٦} وجاء في رسالة وجهها البابا بيوس الرابع إلى البطريك موسى العكاري بتاريخ أول أيلول سنة ١٥٦٢ «أن يحل البطريك جميع الهرطقة والمشاقين والمارقين سواء كانوا من الموارنة أو من أية ملة كانت».^{١٧}

البطريك يواكيم الرابع (١٥٤٣-١٥٧٦)

وهو يواكيم بن جمعة أبصر النور في دمشق ولبس الأسكيم فيها، ثم انتُخب مطراناً على بيروت وساس هذه الأبرشية إحدى عشرة سنة، وجاء لبولس ابن الزعيم أن يواكيم بن جمعة

^{١٣} Voyage, Vat. Arab., 689, Fol. 127, (Nasrallah, J., Chron, P. O. C., 1957, 34)

^{١٤} «الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل»، للمطران يوسف الدبس، ص ٢٨٦-٢٨٧.

^{١٥} المرجع نفسه، ص ٣١٥.

^{١٦} المرجع نفسه، ص ٣١٧.

^{١٧} المرجع نفسه أيضاً، ص ٢٨٦.

ظل بطريركاً ستين سنة، وجاء له أيضاً أن ابن جمعة تولى الرئاسة ثلاثة وثلاثين سنة،^{١٨} ويرى الأب نصر الله أن ليس في هذين القولين تناقض؛ إذ يجوز أن يكون ابن جمعة قد انتُخب بطريركاً في القسطنطينية في السنة ١٥١٦ فلم يتمكن من الوصول إلى الكرسي قبل خلع دوروثيوس الرابع.^{١٩}

ويتفق مكاريوس البطريرك المؤرخ وابنه بولس ابن الزعيم على أن يواكيم تحلى بالفضيلة والصلاح، وأنه ساس البطريركية بالعدل والإتقان،^{٢٠} واشترك يواكيم الرابع في أعمال مجمع القاهرة في السنة ١٥٥٧ فتعاون مع زميليه الإسكندري والأورشليمي في حل مشكلة كنيسة سيناء. وعاد إلى القضية نفسها في السنة ١٥٧٥ فاعترف مع أرميا القسطنطيني وجرمانوس الأورشليمي بامتيازات هذه الكنيسة.^{٢١}

ونازعه الرئاسة مكاريوس بن هلال أسقف قارة، وانقسمت الرعية حزبين فكان يواكيم وجماعته يصلون في كنيسة كبريانوس ويوستيني ومكاريوس وأتباعه يصلون في كنيسة حنانيا. ودام هذا الشقاق سبع سنوات، ثم مرض مكاريوس فأرسل في طلب يواكيم وسأله الصفح وتوفي، فعادت الألفة إلى صفوف الأرثوذكسيين وأصبح يواكيم وحده بطريركاً.^{٢٢}

نقد البنات والأرامل

«وكان من عادة الدمشقيين أن يكثرُوا نقد بناتهم، فكان الخطيب مهما قدّم إلى خطيبته لا يقنع به أهلها، بل يطلبون المزيد، وكان في حارة حنانيا رجل غني له ابنة مخطوبة، وكان خطيبها قد قدم لها أموالاً وهدايا كثيرة، فلم يقنع أبوها ومنع زواجها حتى يرضيه. ولما تمادى الأمر على ذلك حجت البنت، وكان لهم جار جندي فأرسل إليها وخدعها مع امرأة على أن تتزوج به، فرضيت وخرجت إلى الحاكم فأسلمت، وعقد لها على ذلك الجندي، ثم أحضرت أباهها إلى المحكمة وأخذت منه نقدها سبعة آلاف غرش.»

^{١٨} Voyage, 34, 36; Vat. Arab., 689, Fol. 128

^{١٩} Chronologie, P. O. C., 1957, 38

^{٢٠} Vat. Arab., 689, Fol. 128

^{٢١} Cheikho, L., Les Evêques de Sinai, 414, (Mel. Fac. Or. II)

^{٢٢} «الحقائق الوضعية» (تاريخ الآباء بطاركة أنطاكية)، للخوري ميخائيل بريك)، ص ٥١-٥٢.

«وحينئذ أرسل البطريرك فجمع رؤساء كهنة الأبرشية وعقدوا مجمعاً مكانياً في داخل دمشق، وأوجبوا أن يكون نقد البنات والأرامل أربع طبقات، الطبقة الأولى عشرة غروش صاغ ويتبعها غرشان، والثانية عشرون غرشاً يتبعها أربعة غروش، والثالثة ثلاثون غرشاً يتبعها ستة غروش، والرابعة أربعون غرشاً يتبعها ثمانية غروش، وهي الهدايا والأعياد وغير ذلك. وكتب هذا القانون على الحجر المشهور بباطن كنيسة دمشق كما يُرى إلى يومنا هذا، وكان ذلك سنة ١٥٧٣، ومكث هذا البطريرك في الكرسي ثلاثاً وثلاثين سنة وتوفي سنة ١٥٧٦». ٢٢ وكتب يواكيم إلى زملائه بطاركة القسطنطينية والإسكندرية وأورشليم يطلب الموافقة على قرار مجمع دمشق، فوافقوا. ٢٤

البطريرك ميخائيل السادس (١٥٧٧-١٥٨١)

ولدى وفاة يواكيم الرابع التأم المجمع الأنطاكي المقدس ففوض غريغوريوس متروبوليت حلب ومكاريوس متروبوليت أفخائية ٢٥ ودوروثيوس متروبوليت طرابلس أمر انتقاء البطريرك الجديد، فآثر غريغوريوس الراحة في حلب على متاعب البطريركية فرشح مكاريوس متروبوليت أفخائية، فاضطر دوروثيوس أن يوافقه على ذلك، ففاز مكاريوس بالبطريركية بالإجماع. وصدق المجمع على هذه اللجنة فسيم مكاريوس بطريركاً على أنطاكية في مطلع السنة ١٥٧٧، واتخذ لنفسه لقب ميخائيل السادس، ٢٦ وحرر رسائل الجلوس إلى إخوته البطاركة فاعترفوا به. ٢٧

وهو مكاريوس بن وهبة بن عيسى الصباغ، أبصر النور في حماة ونشأ وترعرع فيها، ثم سيم على أبرشية أفخائية المجاورة فإذا به يجيد العربية والسريانية واليونانية ٢٨ ويتقن الخط فينسخ عدداً من المخطوطات لا يزال بعضها باقياً حتى يومنا هذا، ٢٩

٢٢ المرجع نفسه، ص ٥٢.

٢٤ Vat. Arab., 689, Fol. 128.

٢٥ أبرشية عامرة في العصور الوسطى مركزها محردة، ثم تضاءلت فضم قسم منها إلى أبرشية حماة والقسم الآخر إلى أبرشية حمص، وهي ليست أفخائية غلاطية كما توهم صاحب «الأرج الزكي».

٢٦ «الحقائق الوضعية»، ص ٥٢، و«المجموع اللطيف»، لمكاريوس، ص ٦٢١.

٢٧ Crusius, Turco Graecia, IV; Lequien, Or. Christ., II, Col. 771.

٢٨ Zygomolas, Th., Lettre a Crusius, Lequien, Or. Chr., II, Col. 772.

٢٩ Vat. Arab. 54; British Museum, Syr. 418; Nasrallah, J., Chron, P. O. C., 1957, 208-209.

وأفخائية اسم يوناني أطلق على بلدة حناك، وقد ذكرها مكاريوس الحلبي فجعلها قرب معرة حلب، وشملت أبرشيته محردة ومعلقا وأفيون والبيا ويسارين. ونقل مكاريوس عن أحد كهنة حماة الشيوخ أنه كان على زمانه في محردة أربعة آلاف إنسان، وكان يقيم فيها مطران أفخائية، وأن آخر من شرطن عليها ملاشيا. وتمر السنوات الأربع الأولى من بطريركيته هادئة خالية من كل ما يُقلق البال، فيطيب خاطر البطريرك الجديد ويهتم بشئون الكنيسة الجامعة خارج أبرشيته، فيشارك في السنة ١٥٧٩ مع زميله أرميا القسطنطيني لحل نزاع نشأ في أورشليم بين جرمانوس البطريرك الأورشليمي ورهبان دير القديس سابا وأنطوشه مار ميخائيل في أورشليم وبين يواكيم متروبوليت بيت لحم، ويقوم بمهمة التدقيق والتحقيق دوروثيوس متروبوليت طرابلس بالنيابة عن البطريرك المسكوني، وسيماون أسقف صيدنايا بالنيابة عن البطريرك الأنطاكي.^{٢٠}

وفي السنة ١٥٨٠ تحامل على البطريرك ميخائيل قوم من رعيته فاتهموه بإثم قبيح ورفعوا أمرهم إلى القاضي، وجاءوا براهب فشهد عليه بذلك، «وأوجبوا عليه السقوط من كهنوته، وكتبوا عليه صكاً بذلك»، فخرج من دمشق ورجع إلى حماة وأقام فيها، وعلم غريغوريوس متروبوليت حلب بذلك فَلَامَ البطريرك «على نزوله عن بطريركيته بغير حق وبغير مجمع بطاركة»، فندم ميخائيل واحتفل بالقداس الإلهي مع جماعة من رؤساء الكهنة والكهنة وحرّم الدمشقيين.^{٢١}

وأقام الدمشقيون دوروثيوس متروبوليت طرابلس بطريركاً (١٥٨١) باسم يواكيم الخامس، فانقسمت الرعية وتراشق الطرفان بالحرّم، وأيد ميخائيل أساقفة الشمال وشدّ أزر يواكيم أساقفة الجنوب، «فكان بين الفريقين شقاق عظيم وغرامات لا تُحصى، واضطر البعض إلى جحد إيمانهم لشدة ما نزل بهم من الضيق وقتل أناس في هذه الفتنة ظلمًا».^{٢٢} واضطر ميخائيل أن يلجأ إلى السلطات العليا، فأقام غريغوريوس متروبوليت حلب نائباً عنه وألبسه الصاكون لأول مرة، «ولم يكن أسقف حلب يلبس الصاكون»، وسار ميخائيل إلى القسطنطينية وشكا أمره إلى زميله البطريرك المسكوني، فنظر المجمع

^{٢٠} هامش المخطوط في تفسير سفر التكوين ليوحنا الذهبي الفم الذي قدمه البطريرك غريغوريوس الرابع إلى القيصر نقولا الثاني، راجع «المشرق»، ١٩٢٤، ص ٦٧٣-٦٨٥.

^{٢١} «الحقائق الوضعية»، ص ٥٢-٥٣.

^{٢٢} المرجع نفسه، ص ٥٣.

القسطنطيني في المشكلة الأنطاكية وحكم لميخائيل، فاستصدر البطريرك المسكوني أرميا أوامر سلطانية بتأييد ميخائيل وأعادته إلى حلب معززًا بالقوة العسكرية، فتفاهم الشر واستطارت الفتنة وكثر الاعتداء وتنوعت المصادرات، «فعاد ميخائيل إلى القسطنطينية (١٥٨٥) فحكم عليه بالنزول عن كرسيه وبالعودة إلى مركزه في أبرشية أفخائية». فعاد في البحر، ولدى وصوله إلى جزيرة رودوس توفي فيها يوم عيد الميلاد سنة ١٥٩٢،^{٣٣} وندم الراهب المفترى واعترف بذنبه أمام يواكيم واستغفر، فأرغشت يدا يواكيم واصطكت ركبتاه وصاح لساعته: كل خامس يحرم وأنا يواكيم الخامس.^{٣٤}

رومة تواصل وتحادث (١٥٨١-١٥٨٤)

وضرب لوثيروس ضربته المؤلمة وصارح غيره كنيسة رومة وكاشفها بالخروج، فانجلت الشبهات وتنادى الآباء الغربيون وشحذوا للأمر عزيتمهم واجتمعوا في تريندنتوم في التيرول سنة ١٥٤٥ وفي غيرها، واتخذوا قرارات من شأنها إصلاح الكنيسة ودرء الخطر البروتستانتي عنها، ولم تنته أعمالهم المتقطعة قبل السنة ١٥٦٣، فأصدروا في السنة ١٥٦٤ بياناً بالعقيدة الكاثوليكية الصحيحة عُرف فيما بعد بالبيان التريندنتي، وتريندنتوم هي ترانت الحديثة.

وفي السنة ١٥٥٩ اتصل اللاهوتي الألماني ميلانكتون بالبطريرك المسكوني يواصف الثاني (١٥٥٥-١٥٦٥)، ودعاه إلى إبداء رأيه في المشادة اللاهوتية القائمة بين البروتستانت والكاثوليك، وكان ميلانكتون يعطف على لوثيروس كثيرًا، ولكنه كان يسعى لتوحيد الصفوف، فأرسل البطريرك يواصف شماس ديمتريوس إلى ويتنبرغ Wittenberg للبحث والتدقيق، وعاد الشماس حاملاً بيان أوغزبورغ Augsburg الشهير، وما إن اطلع البطريرك عليه حتى نفر فأعرض وابتعد. وعاد علماء ويتنبرغ إلى المواصلة راغبين في تأييد الكنيسة الأرثوذكسية، فكتبوا في ذلك إلى البطريرك المسكوني أرميا الثاني (١٥٧٢-١٥٩٥)، فألف في الرد رسائل طويلة طافحة بالتعاليم الصحيحة المشتركة بين فرعي الكنيسة الجامعة، فخبب أمهم وأثبت وحدة الاعتقاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في ما أنكره لوثيروس وأتباعه.

^{٣٣} Note, Bodleian Collection, Ms. 92, (Nasrallah, J., Chron., 1957, 211).

^{٣٤} «المجموع اللطيف»، ص ٦٢٣.

وأدى هذا كله إلى تيقظ رومة، فأصدر البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠-١٥٥٥) في الثالث من تموز سنة ١٥٥٣ البولة Cum Praesertim، فأمر بموجبه الرهبانية اليسوعية بفتح ثلاث مدارس في الشرق؛ في أورشليم والقسطنطينية وقبرص «لترميم جدران الكنائس الشرقية وإعادة رونقها القديم».^{٣٥} وجاء البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥) فأنشأ مدرسة القديس أثناسيوس اليونانية في رومة في السنة ١٥٧٧ لقبول الطلبة الروم، وعزم على تجديد العلاقات الودية مع الموارنة، فأوفد في السنة ١٥٧٨ الأب اليسوعي يوحنا إليانو للقيام بهذه المهمة. وكان الأب إليانو يجيد العربية والسريانية فجال جولة موفقة في ربوع الموارنة ووضع تقريراً ضافياً في الحالة الدينية الراهنة آنئذ،^{٣٦} وعاد إلى رومة فأثنى البابا على غيرته وفطنته وطول أناته، وأكد أنه سيبذل الجهد لتنفيذ توصياته وأنه مصمم على إيفاده ثانية إلى لبنان. وعاد الأب إليانو ورفيق له اسمه الأب برونو في منتصف أيار سنة ١٥٨٠ ووصلا إلى قنوبين في التاسع من تموز، وكان مجمع في قنوبين وكان احتفال رائع بزيارة القاصدين، وقضى الأبوان سنة كاملة (آب ١٥٨٠-أيلول ١٥٨١) يطوفان في ربوع لبنان ساعين لنشر قرارات مجمع قنوبين وتعميمها. وفي خريف السنة ١٥٨١ أبحر المرسلان من طرابلس إلى يافا لزيارة القبر المقدس والتبرك بمشاهدته، وعادا إلى لبنان في أواسط كانون الأول عن طريق البر ليزورا الموارنة في دمشق ويتصلا بالبطريرك الأنطاكي كما أوصاهما الكردينال سان سفيرينو. ولدى وصول الأبوين المرسلين إلى دمشق كتب أحدهما - الأب إليانو - إلى البطريرك يواكيم الخامس أن يسمح له بزيارته مع الأب برونو باسم حبر رومة غريغوريوس الثالث عشر وباسم الكردينال سان سفيرينو «محامي الطائفة اليونانية»، فعين البطريرك الأنطاكي يوماً استقبلهما فيه مع أعيان الطائفة ورحب بهما، فدار الحديث عن محبة غريغوريوس الثالث عشر لطوائف الروم واليونان، وعن المدرسة التي أنشأها في رومة لتخريج الشباب الروم، ثم عن رغبة حبر رومة في اتحاد الكنائس. فأجاب البطريرك الأنطاكي أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل الاتصال بالبطريرك المسكوني، وكتب رسالة إلى غريغوريوس الثالث عشر شكر له فيها لطفه وذكر سروره بمشاهدة المرسلين وشفعها

^{٣٥} Lammens, H., Cum Praesertim, Etudes, Jan. 1879.

^{٣٦} «الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية»، للأب لويس شيخو، ص ١٣-٣٢.

برسالة ثانية للكردينال سان سفرينو،^{٢٧} وفي صيف السنة ١٥٨٢ قام الأب إيلانو إلى حلب لزيارة المواردية فيها. وكان بطريرك اليعاقبة أغناطيوس نعمة الله المارديني قد وقع في جدل مع بعض علماء المسلمين فاتهموه بالكفر وأصدروا عليه الحكم بالإعدام، فحمله خوفه على الخروج وتظاهر بالإسلام. وكان قد وخزه ضميره ففر من ديار بكر إلى رودوس ومنها إلى رومة سنة ١٥٧٨، وكان قد أعلن توبته ووعد برد طائفته إلى العقيدة الكاثوليكية. فاتصل الأب إيلانو بدادود شاه أخي البطريرك الجاحد والنائب البطريركي اليعقوبي فسوّفه داود ووعد وعودًا عرقوبية. واجتمع الأب إيلانو في أثناء إقامته في حلب بالبطريرك ميخائيل السادس مناظر البطريرك يواكيم الخامس، وفاتحه كلامًا في اتحاد الكنائس «فاكتفى ميخائيل ببعض الوعود الطيبة».^{٢٨}

وفي السنة ١٥٨٣ سام غريغوريوس الثالث عشر الأب ليوناردو آبل المالطي أسقفًا شرفيًا على صيدا وأنفذه إلى الشرق ليعمل في سبيل الاتحاد ويدعو للتقويم الغريغوري الجديد. ووصل الأسقف ليوناردو إلى طرابلس واتصل ببعض الأرثوذكسين فيها، ثم قام إلى حلب وجالس ميخائيل البطريرك الصاحب وفاتحه كلامًا في أمر الاتحاد. ويقول ليوناردو إن ميخائيل شكّا الظلم الذي لحق به والحيث الذي جره عليه بطاركة اليونان، ورجا المعونة من الكرسي الرسولي، وأنه لأجل هذا يرسل بيانًا بإيمانه مرفوقًا بالرسائل اللازمة.^{٢٩} وجاء في هامش «سفرة البطريرك مكاريوس» الحلبي التي نشرها الخوري قسطنطين الباشا سنة ١٩١٢ أن الأب قسطنطين وجد في مكتبة الفاتيكان تحت الرقم ٤٨ من المخطوطات العربية نص الرسالة العربية التي وجهها البطريرك ميخائيل إلى الكردينال سفرينو، وإليك قراءة الأب قسطنطين:

المجد لله دائماً، لحضرة الأب الكردينال سنتا سافرينا وكيل ومدير الشرقيين بمدينة رومة. أقبل الطلعة الأقدسية الخاشعة الماسكية الناسكية العاملة العاملة فخر الملة المسيحية الأب الأقدس والإناء غير المدنس الأب الكردينال سانتا سافرينا وكيل ومدير جميع الشرقيين بمدينة رومية العظمى، أدام الرب الإله رياسته وسني حياته ويرحم ضعف الحقيير بمقبول صلواته، آمين.

^{٢٧} الطائفة المارونية أيضاً، ص ٦٢-٦٣.

^{٢٨} المرجع نفسه، ص ٦٨.

^{٢٩} Rev. Or. Chrét., 1898, 5-6.

بعد تقبيل الطلعة الأقدسية وإهداء السلام الروحاني والوحشة الزائدة إليها قرب الإله الاجتماع بها بخير وعافية وسلامة، فإنه على كل شيء قدير. ليس بخافي عن محبة قدسكم حضور المحب الكامل العالم العامل المحقق المدقق فريد دهره ووحيد أهل زمانه وعصره الأسقف كير ليونارضو أسقف مدينة صيدا إلى البلاد، وأنه أنشأ محبة وسلامًا وصلحًا مثل الرسول بولس، وكل ذلك لأجل انتضاعه ومنطقه الحلو، ولأجل محبته الزائدة أثر الحقيق أن يصحبه مسافرًا معه إلى عند قدسكم، ويشاهد طلعة قدس أب الآباء كير سيسطوس البابا الجزيل قدسه بمدينة رومية العظمى وقدسكم أيضًا، وما قطعنا عن السفر إلا الضعف في مدينة حلب وشيء من الشيخوخة وعدم القوة وشيء من عدم قوة الباصرة، ونرجو من الله أن يكون في العمر فسحة ويريد الله أن نحضر بين أيديكم إن شاء الله تعالى وبركة صلواتهم، آمين.

ونطالع قدسكم لا تسلك عما جرى على هذا الحقيق من الامتحان والشدائد، وأخذني الروم مرتين بشاويش، وصار على الحقيق شيء ما صار على الشهداء. ولكن الشهداء جرى عليهم من الملوك عبادة الأصنام، وأما نحن صار علينا هذا من أبناء جنسنا وعشيرتنا من جماعة الروم، وقدس الأخ الأسقف يعلم ذلك، وفي مطالعة الأب البابا مسطر ذلك. وصبرنا على ذلك جميعه وقبلناه بشكر وشكرنا الله عليه ونحن أضعف عباده. وفي التواريخ كما في شريف علمكم جرى على آباء وقديسين كانت أشباحهم تقيم الموتى، وكل ذلك سمح الله به لأجل خطايانا وقلة محبتنا لبعضنا بعض وتعدينا على النواميس المقدسة؛ إذ صارت البطريركية والكهنوت ينباعوا بالمال ويؤخذ عليهم الرشا. ويا ليت ينباعوا من النصارى، بل من الأمة الغربية، وجميع ما كتبناه وعرفنا به قدسكم من تعدي النصارى ما هو قيراط من أربعة وعشرين، ونعرف قدس الأب أن من عظم ما عملوا مع الحقيق أنه لم يعد يقدر على القوت واللباس بشهادة الله.

بعد تقبيل طلعة قدس الأب ثالثًا وطلعة من يلوز بالولاية والأماكن المعمورة والمحلات السعيدة، زمان طويل ... بشفاعة سيدتنا السيدة البتول والقديس مار بطرس الرسول صاحب الكرسي الروماني وجميع القديسين، آمين. سطر في تاريخ شهر أيار سنة ١٥٨٥ الحقيق البطريرك ميخائيل.^{٤٠}

^{٤٠} النخبة المشار إليها [الفصل الثاني: طمع واضطراب ووجل - الهوامش ٥٢-٥٩].

ويلاحظ أنه ليس في هذا النص ما يخولنا القول إن ميخائيل دخل في طاعة رومة أو إنه قال قولها في أمر الانبثاق وغيره من الأمور التي بحثها مجمع فلورنسة. ويلاحظ أيضاً أن رسالته إلى البابا ضائعة، وأنه ليس لدينا من الروايات ما يثبت خضوع ميخائيل ودخوله في طاعة البابا سوى رواية الأسقف ليوناردو، ورواية ليوناردو فريدة في بابها ضعيفة في عدلها.

وقصد الأسقف البطريك الجالس يواكيم الخامس للتفاوض معه في أمر الاتحاد فوجده قابلاً في عيتا البقاع مبتعداً عن السلطات العثمانية المحلية، فتحدث إليه في أمر الاتحاد فأرجأ البطريك البحث إلى اجتماع آخر يعقد في طرابلس بعد حين. وشددت السلطات على البطريك في أمر المال المطلوب فانتقل من عيتا إلى صيدا ومنها إلى القسطنطينية في طلب المعونة.

وعاد الأسقف ليوناردو إلى طرابلس فالتفَّ حوله كلُّ من يوحنا بن إلياس النحوي ويوحنا بن نصر الله وسليمان بن مرتيه وثلاثة آخرون؛ ميخائيل وفضل الله ووهبة، فوافقوه على الاتحاد وكتبوا بذلك إلى حبر رومة غريغوريوس الثالث عشر مؤكدين الطاعة مستمدين البركة:

والذي يطالع به قدس سيدنا هو أن الأب الأقدس والإناء المقدس أبينا وسيدنا كير دونلردو أسقف صيدونيا خبرنا عن جميع إحسان قدسكم وحنوكم ومراحمكم، والخير الذي تفعلوه مع سائر الطوائف المسيحيين وبالأكثر لطايفتنا عبيدك الملكية. وبعدها سافر من عندنا السيد كير دونلردو المشار إليه من طرابلس إلى حلب ثم رجع إلى مدينة الشام واجتمع مع سيدنا وبطريكنا كير يواكيم البطريك الأنطاكي بطريك الملكية في قرية من قرى الشام تُدعى عيتا، واتفق معه أن يجتمع عندنا في طرابلس في بيت الحقير تلميذكم. وكان الاتفاق بين سيدنا البطريك وبين كير دونلردو أن «يكون» تمام المحبة والطاعة إلى الكرسي البطريكي الروماني على ما رتبوه الآباء القديسين الثلاثمائة وثمان عشر في مدينة نيقية، وأيضاً على ما رتبوه الآباء القديسين في مدينة فرنسيا، وعلى أن الاتحاد يكون واحد والأمانة واحدة وهي الأمانة المستقيمة الكاثوليكية الأرثوذكسية تكون واحدة والمحبة واحدة. وأيضاً خبرنا عن سبب القاعدة الجديدة التي صارت في كنيسة رومة المقدسة، وهي قاعدة الأعياد والمواسم تكون عند جميع الطوائف.

ولكن ما قسم نصيب في الاجتماع في هذه المدة لكون أن سيدنا البطريرك كير يواكيم صار عليه حيف كثير وخسر خصاير كثير وتدين مبلغ له صوره، وليس له قدرة على وفاء دينه وخشي من أصحاب الديون لا يحبسوه، فما قدر أن يحضر إلى طرابلس، فنزل في البحر وسافر إلى مدينة القسطنطينية إلى عند بطرك القسطنطينية شكى حالته وضرورته إلى إخوته الأساقفة والأراخنة والكهنة لعل يجمعوا له شيء يوفي به دينه. وعن قريب إن شاء الله تعالى يحضر إلى عندنا ونتكلم معه ونتمم ما في خاطركم وما رسمتم به.^{٤١}

ويلاحظ هنا أن يواكيم البطريرك الجالس لم يفعل ما فعله مناظره ميخائيل البطريرك المخلوع، ولم يكتب شيئاً إلى رومة، وأنه أرجأ البحث مع الأسقف ليوناردو إلى موعد آخر، وسافر إلى القسطنطينية قبل الاجتماع به مرة ثانية. ولعله رأى من المصلحة الملحة أن يكتب غيره إلى رومة كتابة لطيفة تجعل حبرها يؤجل الاعتراف بميخائيل. لعل هؤلاء الطرابلسيين كتبوا بدون استشارته. ويلاحظ أيضاً أن أنسطاسيوس متروبوليت طرابلس الذي ساس آنثذ أبرشيات طرابلس وبيروت وصيدا وصور صنف في السنة ١٥٨٣ نفسها رسالة ردّ فيها على ما جاء في رسالة البابا إلى البطريرك يواكيم، وأن هذا الأسقف لم يكن يونانياً، بل وطنياً نشأ وترعرع في مرمريتا في وادي النصارى.^{٤٢} ويلاحظ كذلك أنه على الرغم من هذا كله ترى الأب اليسوعي بوسيفينو Possevinو رسول البابا غريغوريوس الثالث عشر إلى القيصر الروسي إيفان الثالث يَسْتَبِقُ ما جرى في حلب في السنة ١٥٨٤، فيؤكد في السنة ١٥٨١ أن بطريرك أنطاكية اعترف بسلطة البابا وطلب تثنيته!^{٤٣}

البطريرك يواكيم الخامس (١٥٨١-١٥٩٢)

ووصل يواكيم إلى القسطنطينية في السنة ١٥٨٤ فوجد حبرها أرميا منفيّاً إلى رودوس ووجد خلفه باخوميوس طماعاً شرهاً لا يرى في الرئاسة إلا وسيلة لجمع المال، فتابع السير إلى كيف ومنها إلى موسكو. ولدى وصوله إلى عاصمة الروس جابهه صاحبها

^{٤١} Rabbath, A., Documents Inéditc, I, 183-186.

^{٤٢} Tornberg, C., Codices Arabici, (Upsala, 1849); Nasrallah, J., Chron, P. O. C., 1957, 213.

^{٤٣} Musset, H., Hist. du Christ., II, 48; Nasrallah, J., op. cit., 213.

القيصر فيدور بوجوب الاعتراف ببطيركية روسية والسعي لدى سائر البطاركة لتأييد هذا الاقتراح. ثم زار يواكيم روثينية ونظر في شئون الكنيسة فيها، فأسس رهبانية ونهى الكهنة عن الزواج بعد وفاة زوجاتهم.^{٤٤} وعاد إلى مولدافية في السنة ١٥٨٧ فاتصل بأسقفها جاورجيوس (موغيلة) وأهداه أيقونة لا تزال محفوظة في دير سوكيفيتة حتى يومنا هذا.^{٤٥} وقام يواكيم من مولدافية إلى تسالونيكية فأبحر منها إلى طرابلس فدمشق.^{٤٦} ويشير الأب نصر الله إلى عبارة وردت في تاريخ المخطوطة الخامسة والثلاثين من مجموعة دير مار يوحنا الشوير جاء فيها أن ميخائيل أسقف طرابلس والكورة انتهى من نسخها في ١٣ نيسان سنة ٧٠٩٤ يوم كان في أميون ينظر في قضية البطريك يواكيم نقول يشير إلى هذا كله، فيظن أن الأمور لم تكن على ما يرام في أثناء غياب يواكيم في روسية.^{٤٧}

بطيركية موسكو (١٥٩٠-١٥٩٣)

وضعف نفوذ المغول وازداد نفوذ أمراء موسكو. وفي السنة ١٤٨٠ تجرأ إيفان الثالث أمير موسكو على قتل رسول المغول الذي كان مكلفاً بطلب الضرائب، وعندئذٍ شرع أمراء موسكو في التغلب على أمراء الروس الآخرين وجمع السلطة في أيديهم إلى أن كُونوا مملكة عظيمة متحدة الكلمة.

وفي السنة ١٥٤٧ والسنة ١٥٤٩ التأم في موسكو مجمعان روسيان للبحث في أمور وأمور، أهمها مسح إيفان الرابع «القاسي» فسيلفساً واعتبار موسكو رومة ثالثة. وتم المسح في السنة ١٥٤٧ ونودي بإيفان فسيلفساً بدون استئذان البطريك المسكوني. ثم طلب إيفان الرابع إلى البطريك المسكوني يواصف الثاني الاعتراف بما تم، فوافق هذا البطريك في السنة ١٥٦٢، ولكنه اعترض على طقس المسح.^{٤٨} وفي السنة ١٥٨٦ فاتح

^{٤٤} Ecclesiasticos Pharos, Alexandrie, 1924, 308; Nasrallah, J., Chron., P. O. C., 1957, 216, n. 40.

^{٤٥} Radu, B., Patr. Or. XXII, 36.

^{٤٦} Kratchkovsky, I., Izvestija Kavskogo Istoriko-Archeologicheskogo Instituta, 1927, 21-30.

^{٤٧} Nasrallah, J., Chron., P. O. C., 1957, 217.

^{٤٨} Regel. Analecta Byzantino-Russica, LIII-LVI.

القيصر فيدور البطريك الأنطاكي يواكيم كلامًا في رفع متروبوليت موسكو إلى رتبة بطريك، كما سبق وأشرنا. ثم عاد أرميا الثاني البطريك المسكوني إلى كرسيه في السنة ١٥٨٨ فوجد الخزينة فارغة والأملak مُصادرة، فأَمَّ موسكو في طلب المعونة، فطلب فيدور إليه ما كان قد طلبه من يواكيم البطريك الأنطاكي. فوافق أرميا ونصَّب في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٥٨٩ أيوب متروبوليت موسكو بطريركًا على موسكو. وفي أيار السنة ١٥٩٠ التأم مجمع في القسطنطينية اشتركت فيه الكنائس الرسولية الأربع، وبعد البحث في قضية البطريكية الروسية تقرر الاعتراف بأيوب بطريركًا على موسكو والاعتراف بحق المجمع الروسي في انتخابه واعتباره الخامس رتبةً بعد البطريك المسكوني وسائر البطاركة الأرثوذكسين. ووقَّع هذا القرار كلُّ من أرميا بطريك القسطنطينية ويواكيم بطريك أنطاكية وصفرونيوس بطريك أورشليم.^{٤٩} ولم يرضَ فيدور عن رتبة بطريكه وساءه أن بطريك الإسكندرية لم يوقع قرار القسطنطينية، فعاد البطاركة إلى الاجتماع في شباط السنة ١٥٩٣ وجددوا القرار السابق ووقعه كل من أرميا الثاني البطريك المسكوني وصفرونيوس بطريك أورشليم وملاتيوس بطريك الإسكندرية بالأصالة عن نفهه وبالنيابة عن بطريك أنطاكية،^{٥٠} وكان يواكيم قد تُوفي في السابع من تشرين الأول سنة ١٥٩٢.

البطريك يواكيم السادس (١٥٩٣-١٦٠٤)

وهو الملقب بابن زيادة «وكان مطرانًا على حمص فأقاموه بطريركًا ومكث إحدى عشرة سنة، وفي أيامه خرج واحد من أبناء دمشق يُعرف بابن الكباب فتزيا بزي راهب وجعل يطوف في البلاد حتى انتهى إلى بلاد الكمخ»^{٥١} وما والاها من بلاد المشرق، وادعى أنه مطران مرسل إليهم من قبل بطرك أنطاكية، وكانت معه كتب مزورة عن البطريرك فقبلوه عندهم وأكرموا، وأقام يقدس عندهم وجعل منهم كهنة وشمامسة ورهبانًا، وعمل كل ما يعملهُ رؤساء الكهنة، ونمي أمره إلى البطريرك فاغتاظ غيظًا شديدًا، ولا سيما حين علم

^{٤٩} Ibid., 98-100.

^{٥٠} Dositheos, Tomos Agapes, Jassi, 1698, 541.

^{٥١} ولعل المقصود بلاد الكرج.

أنه قد جمع منهم مقدارًا جزيلاً من المال، وكان النصراني في تلك الناحية يعادلون بقية النصراني في سائر الكرسي الأنطاكي، فأرسل مكاريوس بن خلف مطران حلب بكتاب منه إلى غريغوريوس بطريرك القسطنطينية يعلمه بالأمر، فاستعان بطرك القسطنطينية بالوزارة وبعث فاشخص بن الكباب إلى هناك ورافعه إلى مقام الوزارة، وطالبه بالمال المجموع فجحد إيمانه واعتصم بالإسلام، فلم يحصل البطرک منه على طائل، ولشدة ما ناله من الغيظ مرض وتوفي، وأما الكهنة والشمامسة الذين أقامهم ابن الكباب فحكم البطرک ومجمعه في دمشق أن تعاد شرطونيتهم؛ لأن ذلك المحروم لم تكن عليه شرطونية.^{٥٢}

ومن أخبار هذا البطريرك أنه طبخ الميرون المقدس وكرسه كالعادة يوم الخميس الكبير سنة ١٥٩٤، وأنه وافق على تقسيم أبرشية أفخائية في السنة ١٥٩٧ بين مطراني حمص وحماة،^{٥٣} ومن أخباره أيضًا أنه تدخل في شئون كنيسة قبرص وطالب بخضوعها إلى الكرسي الأنطاكي متذرعًا بما أسماه القانونين السابع والثلاثين والثاني والأربعين من قوانين المجمع المسكوني الأول مبررًا نصًا عريبًا قديمًا بذلك، فأقنعه زميله الإسكندري البطريرك ملاتيوس (بيغاس) بأن هذه النصوص مدسوسة على قرارات نيقية، وكان السبب في تدخله في شئون قبرص الاضطراب الذي نشأ فيه من جراء الاختلاف بين مجموعها المقدس وبين رئيس أساقفتها أثناسيوس (١٥٩٢-١٥٩٨).^{٥٤}

دير البلمند (١٦٠٣)

وبقي دير البلمند خرابًا بعد خروج الصليبيين حتى أوائل القرن السابع عشر، فقد جاء في كراس قديم بخط سيميون القس الراهب الذي اشترك في حفلات افتتاحه ثانية ما نصه:

بسم الله الخالق الحي الأزلي الناطق، لما كان بتاريخ شهر أيلول المبارك سنة سبعة آلاف ومائة وأحد عشر لكون العالم (١٦٠٣) اتفق على بركة الله وحسن توفيقه تاريخ فتوح دير ستنا السيدة ومار جرجس المعروف بدير الفالاند بإشارة السيد المطران أيواكيم مطران محروسة طرابلس، وأنه اعتنى وأشار

^{٥٢} ميخائيل بريك: «الحقائق الوضعية»، لسليم قبعين، ص ٥٣-٥٤.

^{٥٣} نخبة من «سفرة البطريرك مكاريوس» الحلي للخورى قسطنطين الباشا، ص ٣٥ و ٢٦-٢٧ هامش.

^{٥٤} Chrysostomos, (Papadopoulos), Ist. Ecc. Autiocheia, 1001-1002

بعمارتها، وأنه طلع لعند الحقير مكاريوس الديراني الذي كان سابقاً رئيساً على دير ستنا السيدة الذي يُعرف بدير كفتون، وأنه أجاب الأب الحقير بإشارة السيد المطران كير أيواكيم مطران ثغر بيروت برأي المشايخ أبو صالح والحاج سليمان ياضجي يوسف باشا سيفاً ومشايخ قرية فيع الحاج فرحات والحاج بطرس، وابتدئنا بفتوحه؛ لأنه كان خراب دأشر من زمان دخلوا الإسلام إلى البلاد وهو تاريخ ثلاثمائة وثلاثين سنة.^{٥٥}

حرص يباعد

وعُني البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥) بالمؤمنين في الشرق عامة، وخصَّ المواردنة برعايته فاستقصى أخبارهم واستجلى غوامضهم، ثم أوصى وأمر بالتنفيذ. وحذا حذوه إقليمس الثامن (١٥٩٢-١٦٠٥) فأعاد البحث وكرر التوصية. وغالى الحبران في العناية وتطرفا في الحرص فنفّرا الأرثوذكسيين وزادا الانشقاق اتساعاً.

«والأغلاط التي كانت لا تزال تعزى إلى المواردنة هي قولهم أن في المسيح طبعاً واحداً ومشية واحدة وفعل واحد، وأن الروح القدس ينبثق من الأب وحده، وأن التقديسات الثلاث (تريساغيون) تدل على صلب الثالث بجملته، وأن لا وجود للمطهر ولا للخطيئة الأصلية، وأن النفوس لا تنال ثواباً أو عقاباً قبل الدينونة، وأنه يجوز إنكار الإيمان ظاهراً، وأن سرّ التثبيت لا يمتاز عن المعمودية، وأنه يلزم خلط الميرون بغير البلسم أيضاً، وأنه يلزم التقديس على الخمير، وأن المسحة تكون بالزيت الذي يُباركه الكاهن لا الذي يباركه الأسقف، وأن طلاق الزوجة لعله الزنى والمرض جائز، وأن صور الأسرار ناقصة وأنها ابتهالية.»^{٥٦}

والتدقيق في هذه الأمور وغيرها تم على يد الآباء اليسوعيين إليانو وراجيو في السنة ١٥٧٨ ونديني وبرون في السنة ١٥٩٦. وأوصى هؤلاء الآباء بأشياء وأشياء ووافقت رومة على معظم هذه التوصيات. والتأم مجمع ماروني في قنوين في السنة ١٥٨٠ وفي

^{٥٥} مطبعة دير البلمند، لعيسى زريق: «المنار»، ١٩٠٢، ص ٢٦٣-٢٦٤، و«تاريخ سورية»، لجرجي يني، ص ٣٩١.

^{٥٦} كتاب «المجمع اللبناني»: الذيل، ص ٩ و«تاريخ سورية المذهب»، ج ٧، ص ١٤٠-١٤١.

السنة ١٥٩٦، فكان إجماع على القول بالطبيعتين والمشيئتين وعلى حذف العبارتين: «يا من وُلدت لأجلنا، يا من صلبت لأجلنا» من التريساغيون وعلى تحريم جحد الإيمان،^{٥٧} وكان بالتالي تقارب من الأرثوذكسين. ولكن هذه التوصيات الرومانية أوجبت على المواردنة القول بالانيثاق من الآب والابن والاكثفاء بذكر كلمات السيد لأجل الاستحالة والابتعاد عن مناولة الأطفال، وحظرت زواج المارونيات من «المشاقين» والبحث عن كتب المشاقين وحفظها عند البطريك في مكان مغلق، وعدم السماح بمطالعتها إلا للعلماء فتجانبت وباعدت،^{٥٨} ثم جاءت السنة ١٦٠٦ فأمر البطريك يوسف الرزي باتباع الحساب الغريغورياني، فبعد المواردنة في طرابلس والجبة والبترون وجبيل مع الإفرنج وقبل الطوائف الشرقية بعشرة أيام. ثم اتبع باقي المواردنة هذا الحساب في دمشق وحلب وسائر المدن والقرى. أما مواردنة قبرص فإنهم أصروا على اتباع الحساب القديم واستمروا في ذلك مدة أخرى من الزمن.^{٥٩}

مدرسة للمواردنة في رومة (١٥٨٤)

وأحسن بطاركة المواردنة بحاجة طائفهم إلى كهنة مثقفين فبدءوا يرسلون منذ السنة ١٥١٥ إلى رومة أحياناً يتعلمون اللاتينية ويدرسون تعاليم الآباء. ومن هؤلاء بعثة البطريك شمعون الحدثي سنة ١٥١٥ وبعثة البطريك ميخائيل الرزي سنة ١٥٧٨، فبعثة أخيه سركيس سنة ١٥٨٣.

وفي السنة ١٥٨٤ بلغ عدد الأحداث المواردنة المرسلين إلى رومة لتلقي العلوم الإكليريكية فيها عشرين طالباً، فأفرد البابا غريغوريوس الثالث عشر داراً وكنيسة لهم. وفي الخامس من تموز من هذه السنة نفسها وافق على نظام تدريس هؤلاء الطلبة بالبولة Humana sic ferunt. وقد جاء في هذه البولة ما حمل البابا على أفراد المنزل السابق للطلبة المواردنة وجعله مدرسة وما كان يتوقعه منها من الفوائد، ثم عدد المداخل وشروط الالتحاق

^{٥٧} والإشارة هنا إلى فرقة البياضية من المواردنة الذين سكنوا العرقوب وقالوا بالنصرانية باطنياً وتظاهروا بالإسلام وتعمموا بعمائم بيضاء (الدبس أيضاً، ج٧، ص١٣٤).

^{٥٨} De Clercq, Ch., Hist. des Conciles, XI, 3-27; Dib, Mgr. P., Les conciles de l'Eglise Maronite de 1557 a 1644, Paris, 1926.

^{٥٩} «تاريخ سورية»، للدبس، ج٧، ص١٣٣.

وغير ذلك من النظم، وجعل المدرسة تحت نظام محامي الطائفة المارونية، وكان هذا آتئذٍ الكردينال كرافة. ولا تزال قوانين هذه المدرسة محفوظة في سجلات الرهبانية اليسوعية التي تعود إلى ذلك العهد، وقد نقل الأب شيخو شيئاً منها إلى اللغة العربية.^{٦٠}

البطريك دوروثيوس الخامس (١٦٠٤-١٦١١)

وشاخ يواكيم السادس وذهب ضوء عينيه فامتنع عليه أمر الإدارة وأعجزه وأعياه، فطلب إليه أعيان الطائفة في دمشق أن يرسم أسقف قلاية يقوم بتدبير أمورهم، فسام عبد العزيز بن الأحمر شماساً في السنة ١٥٩٥ ثم قساً ثم خورياً ثم أسقفًا على قلاية البطيركية ودعاه دوروثيوس، وقام الأسقف دوروثيوس بأعماله الإدارية خير قيام وأصبح هو البطريك. وذهب يواكيم إلى السيسانية مسقط رأسه في منطقة حصن الأكراد، ثم عول على العزلة في دير القديسة كاترينة في طور سينا فقام من السيسانية إلى مصر، ولدى وصوله إلى القاهرة لبي دعوة ربه فيها في السنة ١٦٠٤ فنقل جثمانه إلى طور سينا ودُفن فيه، فخلفه دوروثيوس.^{٦١}

وجاء في التختيكون للقس يوحنا العجيمي أن دوروثيوس لم يكن من ذوي العلم الواسع، ولكنه كان غيورًا شجاعًا، فرمم دار البطيركية في دمشق ووسعها ورفع الضرائب عن الكهنة والرهبان وخفف وطأة البلص والظلم، وجعل جباية الأموال الأميرية من النصارى الأرثوذكسين بيد جباة أرثوذكسين، وصمد في وجه الطغاة من الحكام وقاومهم، وذهب إلى الآستانة نفسها ليقترض من متسلم أنطاكية وعاد منها حاملاً أمراً عاليًا بعزله من منصبه. وذكر بالاماس صاحب «تاريخ مدينة أورشليم اليوناني» (٤٨٨) أن دوروثيوس الخامس زار أورشليم في ١٦٠٨ فاشترك مع كيرلس البطريك الإسكندري في تنصيب ثيوفانس البطريك الأورشليمي.^{٦٢} وخرج من دمشق ليتفقد شئون النورية

^{٦٠} «الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية»، للأب لويس شيخو، ص ٦٩-٨٠.

^{٦١} «الحقائق الوضعية»، ص ٥٤، ونخبة من «سفرة البطريك مكاريوس»، للخوري قسطنطين الباشا، ص ٥٥.

^{٦٢} «أسرة آل فرعون»، للخوري قسطنطين الباشا، ص ٤١-٤٤، و«الحقائق الوضعية»، ص ٥٥.

(أبرشيات الكرسي) ولدى وصوله إلى حاصبيا أقام قداسًا وشرطونية، وحين خروجه من القداس تُوِّفي فجأة دفن في حاصبيا.

البطريك أثناسيوس الثالث (١٦١١-١٦١٩)

واختلفت الآراء فيمن يخلف دوروثيوس وكثير عدد «المنتدبين»، وكان خلاف وكانت «مشاحة» شديدة. ثم برز أثناسيوس — ابن الدباس — متروبوليت حوران وطلب البطريكية لنفسه، ووعد بأنه «يؤدي عنهم في كل سنة ما يتبقى من جوالي المسيحيين، فرضوا وكتبوا عليه خطأ في ذلك» وأقاموه بطريركًا عليهم.^{٦٣} وكانت حوران آنئذ تغذي الجالية الأرثوذكسية في دمشق بالرجال والأنفس، فكثرت عدد الحورانيين في المركز البطريكي ونفذت كلمتهم، وكانت أسرة بيت الدباس من أعز الأسر النصرانية في دمشق، فرحب الروم بالبطريك الجديد وعقدوا به حبل أمانهم. ثم خرج البطريك في جولة رعائية فزار حمص وحماة وحلب وأدنة، وسار إلى القسطنطينية لمحاكمة ملاطيوس مطران حلب، وعاد إلى دمشق. وحان أجل الجوالي فأدى الدمشقيون وغيرهم ما تيسر منها وطالبوا البطريك بالباقي بموجب الاتفاق الخطي، فامتنع عن أدائه، فشكوا أمرهم إلى الوالي فحكم على البطريك بالحبس في القلعة فافتدى البطريك نفسه بمبلغ من المال، وخرج إلى نواحي طرابلس وتوفي هناك في الصوم الكبير ودفن في دير كفتين.^{٦٤}

البطريك أغناطيوس الثالث (١٦١٩-١٦٣٤)

وبعد وفاة أثناسيوس الثالث حضر أخوه كيرلس متروبوليت حوران إلى طرابلس، واستعان بالحاج سليمان النصراني كاخية يوسف باشا حاكم طرابلس وجهاتها، فأسعفه بما طلب وأرسل جماعة من الجند فأحضروا سيمانون متروبوليت حماة وعازر متروبوليت حمص وديونييسيوس أسقف الحصن وأكرههم على تنصيب كيرلس بطريركًا، ففعلوا ونصّبوه في أميون، وأقام في طرابلس يسانده يوسف باشا.

^{٦٣} «الحقائق الوضعية»، ص ٥٥.

^{٦٤} المرجع نفسه، و«سفرة البطريك مكاريوس»، ص ٣٦.

وكان أهل دمشق قد انتدبوا إلى البطركية لدى وفاة أثناسيوس الثالث أغناطيوس عطية) متروبوليت صور وصيدا، وكان أغناطيوس قد سافر إلى القسطنطينية على رأس جماعة من الأعيان، فاستقبله بطريركها تيموثاوس بكل ترحاب وأقامه بطريركا على أنطاكية في اليوم نفسه الذي تسلم فيه كيرلس عكاز الرعاية في أميون، وعاد أغناطيوس إلى دمشق حاملاً براءة سلطانية فاستقبله الدمشقيون بفرح واحتفال عظيمين.

وأرسل كيرلس ابن عمه جرجس إلى القسطنطينية فأخرج له أمراً عالياً بعزل أغناطيوس ونفيه إلى قبرص، فدفع أتباع أغناطيوس أموالاً طائلة فأبقوه في كرسيه، فقصد كيرلس سميّه كيرلس (لوكارس) بطريك الإسكندرية وشكا الدمشقيين إليه، فكتب هذا إلى الدمشقيين يلومهم فأجابوه جواباً جافياً ولم يسمعوا له في ذلك قولاً. وجاء لغطاس قندلفت أنهم قالوا: «لا نريد كيرلس ولا نرضاه، وأما أنت فانظر إلى حالك وليس لك أن تلزمنا وتحكم علينا في شيء لا نرضى به.»^{٦٥} وازداد التعصب والشر وتوفي ابن سيفا حاكم طرابلس، فهرب كيرلس من طرابلس خوفاً من ابن معن، وقام إلى حلب ونزل في دار المطران ملاتيوس، وأقام هناك اثنين وأربعين يوماً، ولم يدعه المطران إلى القداس ولا شارك أحدهما الآخر في ذلك.

ثم خرج كيرلس من حلب إلى القسطنطينية، وكان كيرلس بطريك الإسكندرية قد أصبح بطريركا مسكونياً، وكان جراسيموس قد خلفه في كرسي مرقس، ففرح كيرلس الإسكندري بمقدم كيرلس الأنطاكي وأرسله إلى بلاد الفلاخ والبغدان وأصبحه برسائل منه إلى أكابر تلك البلاد فأكرموا. ثم عاد إلى القسطنطينية واستخرج أمراً سلطانياً بعزل أغناطيوس، فتجددت الغرامات في دمشق وأنفق أهلها أموالاً جزية واستخرجوا أمراً بعزل كيرلس، ففعل هذا مثل ذاك، وهكذا حتى اضمحلت أحوال المسيحيين في الأبرشية كلها، ولا سيما في دمشق. وتكاثر الضغط والضيق فاضطر الكثيرون إلى الاختفاء، وتوارى الكهنة عن الأنظار، وتوفي أحد الأكابر فلم يجدوا كاهناً يتولى دفنه، وكان أغناطيوس في هذه المدة كلها في بيروت وصيدا.

وعاد كيرلس من القسطنطينية إلى حلب في السنة ١٦٢٤ فنزل في دار أحد أكابر الأرمن؛ لأن ملاتيوس لم يقبله في دار المطرانية. وأدب كيرلس مآدبة فاخرة ودعا إليها أكابر المدينة من الأشراف والجند (الانكشارية) وبطريكي الأرمن والسرمان وكانا يومئذ

^{٦٥} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، «المنار»، ج ١، ص ٢٣١.

في حلب مع حاشيتهما وأكابر الإفرنج وغيرهم، فأرسلوا وأحضروا ملاتيوس من قلايته وحضوه على مشاركة كيرلس في القداس فأبى وانصرف وتمارض، فأرسل كيرلس يطالبه بواسطة مجلس الحاكم بمال اثنتي عشرة سنة، فأمر الحاكم فجلد ملاتيوس ثمانين جلدة وحمل على بساط وحبس اثني عشر يومًا، ففدى نفسه بمال كثير وخرج واختبأ في بيت أحد شيوخ المسلمين. وفي السنة التالية جمع كيرلس مجمعًا عظيمًا آخر وخاطب ملاتيوس في شركة القداس فأبى وانصرف إلى القسطنطينية. فتابعه كيرلس إليها وجرت بينهما مخاصمات كثيرة، ثم عاد ملاتيوس إلى حلب وعاد كيرلس أيضًا إليها في السنة ١٦٢٨، وترافعا إلى الحاكم، فحبس الحاكم ملاتيوس في القلعة وسجن سبعة وعشرين من أتباعه في سجن المتسلم، وغرّمهم بمال كثير.

مجمع رأس بعلبك (١٦٢٨)

وسار كيرلس بعد ذلك إلى دمشق، فلم يقوَ الدمشقيون على مقاومته، فأرسل يسأل ابن معن أن يأمر بعقد مجمع من رؤساء الكهنة لينظر في المشكلة القائمة بينه وبين أغناطيوس، فأجابته الأمير إلى ذلك. وقام أغناطيوس سنة ١٦٢٨ إلى قرية رأس بعلبك إلى دير السيدة بجوارها وتوافد رؤساء الكهنة أيضًا، ولكن كيرلس توانى فأحضره الأمير بالقوة، ونظر الأساقفة في أمره فأجمعوا على قطعه وإفرازه؛ «لأنه صار بغير رضا أهل أبرشيته ولكثرة أذاه وضرره»، وثبتوا رئاسة أغناطيوس. وغضب فخر الدين بن معن على كيرلس فنفاه إلى مغارة الراهب بالقرب من الهرمل «وفيها كان قبره».

ووضع الرؤساء المجتمعون في رأس بعلبك قوانين كيفية انتخاب البطارقة والمطارنة وانتداب الكهنة، وحرّموا بعض العادات بين المسيحيين تتعلق بالزيجات والأعراس والأديار، وجعلوا قوانينهم في عشرين مادة. وكان عدد رؤساء الكهنة أحد عشر، وهم: سمعان متروبوليت حماة ويواكيم متروبوليت حمص وملاطيوس متروبوليت حلب، ومكاريوس أو مرقس متروبوليت صور وصيدا ونقولاووس متروبوليت حوران وأبيفانيوس متروبوليت بعلبك، ويواكيم متروبوليت طرابلس وأغناطيوس متروبوليت باياس من أعمال قيليقية وسمعان أسقف صيدنايا، ويواكيم أسقف الزبداني ويواصف أسقف قارة. وكان يحيط بهم عدد من وجهاء الملة، وكان ذلك في حزيران السنة ١٦٢٨، وجاء لبولس ابن الزعيم أن الرؤساء كتبوا بذلك «صورة» حفظوها في خزانة كتب البطريركية، وأنه كان لديه نسخة

عنها، وجاء لغطاس قندلفت أنه عرف هذه الأحكام، وأنه سينشرها في مقال عن تاريخ نظام الكنيسة.^{٦٦}

أولاً: كان للمسيحيين عادة ردية؛ إذا مات البطريرك يحضر رئيسي كهنة أو ثلاثة ويصلوا عليه بغير حضور باقيهم، فمن الآن لا يجوز أن يصير بطرك إلا بحضور رؤساء كهنة الأبرشية جميعهم والمتروبوليت الأكبر. وإن صار بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمة.

ثانياً: كان لهم عادة يصير بطرك بغير قرعة حسبما يأمر في النواميس المقدسة، فمن الآن لا يجوز أن يصير بطرك بلا قرعة وبغير رضا الشعب، بل إذا حضر جميع رؤساء الكهنة ينتخبوا ثلاثة منهم يكونوا تربوا بالعفة والتولية، والذي تقع عليه القرعة من الثلاثة يصير بطرك. وإن صار بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمة.

ثالثاً: كان لهم عادة ردية؛ يصيرون بطرك بغير مشورة، وبسبب ذلك يصير انشقاقات وشُرور وفتن، فمن الآن لا يجوز أن يصير بطرك بغير مشورة، بل يكون برضا الشعب؛ لأن البطريرك خليفة المسيح والمسيح هو فخر السلامة. وإن صار بطرك على غير ذلك وعمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تُحرمة.

رابعاً: كان لهم عادة ردية أن أعوام المسيحيين وبعض كهنة يدخلوا في أمر البطريركية ويعملوا بطرك على مرادهم وشهوتهم، فمن الآن لا يجوز لأحد من العوام المسيحيين ولا من الكهنة أن يتدخلوا في أمر البطريرك بالكلية، بل إن كان في أمره شغب فليؤخذ رأي الأكثر منهم. ومن عمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تُحرمة.

خامساً: كان لهم عادة ردية؛ إذا مات البطريرك قبل أن يلتم رؤساء الكهنة يعملوا بطرك ويصلوا عليه ويحتجوا بخدمة الحاكم. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك، بل يمهلوا الحاكم حتى يحضروا رؤساء الكهنة كلهم، وإذا حضروا كافتهم يرموا قرعة ويصلوا على واحد ويصيروه بطرك، وهو يعطي الخدمة كالعادة. ومن عمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تُحرمة.

^{٦٦} «تاريخ البطاركة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت: مجلة «المنار»، ج ١، ص ٢٣١، و«سفرة البطريرك مكاريوس»، للخورى قسطنطين الباشا، ص ٣٨، و«الحقائق الوضعية»، ص ٥٥-٥٨.

سادسًا: كان لرؤساء الكهنة عادة ردية؛ إذا مات البطرک يسبق واحد منهم حتى يعمل بطرك بأمر الحاكم قبل ما يجوا رفقته، ويكون غير مستحق البطرکیة، وآخر يتأخر عن الحضور خوفًا من التعب والنَّصَب. فمن الآن لا يجوز لأحد أن يسبق ليأخذ البطريركية بأمر الحاكم، ولا يجوز لأحد أن يتأخر كسلًا منه وتهاونًا بالمجمع. وهذه المهلة التي يحضروا فيها رؤساء الكهنة شهر من الزمان والكثير شهرين، وإن زاد عن ذلك ثلاثة شهور على ما في الناموس المقدس. ومن عمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمة.

سابعًا: كان لهم عادة ردية أن البطرک يأخذ على الشرطونية من الرؤساء الكهنة ورؤساء الكهنة يأخذوا من الكهنة والشمامسة. فمن الآن لا يجوز لبطرك ولا لمطران ولا لأسقف يأخذ على الشرطونية ولا أحد يعطي على الشرطونية؛ لأن ذلك في الشرطونية خطيئة واصله إلى الله، وهي كالتجديف على الروح القدس وأعظم من تسليم يوحنا للمسيح، وأكثر كفرًا من أبوليناريوس وأعظم تجديفًا من مكدونوس. فمن أخذ على الشرطونية فجماعة السينودس تحرمة.

ثامنًا: كان لرؤساء الكهنة عادة ردية؛ إذا جاء إليهم إنسان ليرسم كاهن وكان مشهور بالاسم ما يبحثوا عنه ولا عن سيرته، بل بشرطونه بغير فحص ويعتقدوا أن الشرطونية تغفر الخطايا الكبيرة. فمن الآن لا يجوز أن يصير كاهن بغير فحص لئلا يكون سقط في خطيئة من الخطايا التي تمنع الكهنوت، بل يكون حر طاهر من بيت أحرار ولا يكون أمي، بل كامل بالعلم والعمل. وكل من عمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمة.

تاسعًا: كان لهم عادة ردية؛ يأخذوا رشوة على الزيجة الحرم سواء كانت جسدية أو روحانية بالششبونوية، وتكون ناقصة وجه ويسمو الرشوة قانون ويقولوا نعطيه للفقراء. فمن الآن لا يجوز لأحد أن يحلل الزيجة الناقصة وجه لا جسدية ولا روحانية أعني الششبونوية؛ لأن قرابة الميرون الروحانية أعظم من القرابة الجسدية. فكل من رشى أو ارتشى وعمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمة.

عاشرًا: كان لهم عادة ردية أن في عماد أولادهم يهدوا لهم أشابينهم هدية إما ذهب وإما فضة وإما قماش أو غير ذلك، ويعملوا يوم العماد ويوم الأسبوع ولائم وضيافات للأكل والشرب والسكر، والمصيبة الكبيرة أنهم يطلقون للأشابين أن يكون راهن من

غير مانع. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك جميعه، ومن عمل بخلاف ناموس الله فجماعة السينودس تحرمه.

حادي عشر: كان لهم عادة رديّة؛ يغلوا صداق البنت ويأخذوا في عربون الخطبة إما أساور ذهب وإما مبلغ له صورة أو غير ذلك من المتاع. وكذلك في الصداق يطلبوا مال كثير حتى إن البنت كانت تقوم مقام النساء ولم تُخطب، والرجل يشيب ولم يتزوج؛ فلذلك عملنا للبنات صداق حد محدود، فحددنا لرؤس الطبقات أربعون غرشاً وعربون أربعة غروش، والحد الأوسط ثلاثين غرش وعربون ثلاثة غروش، والحد الذي دونه عشرين غرش وعربون غرشين، وأقل ذلك عشرة غروش وغرش عربون. وأما الهدايا في الأعياد تكون بالقناعة بغير حيف على العريس مدة الخطبة ثلاث سنين كما في الناموس. ومن خالف ذلك فجماعة السينودس تحرمه.

ثاني عشر: كان لهم عادة ردية؛ أن الكهنة يدخلون إلى الأعراس التي فيها الطبل والزمير ويجلسون في الولايم والعزائم ويشربون إلى أن يسكروا بالخمير. فمن الآن لا يجوز لكاهن من الكهنة ولا لشماس من الشمامسة أن يفعلوا مثل هذه الأفعال المذمومة؛ لئلا يبيكتهم الكتاب القائل: «إذ كان الطعام في أفواههم طلع عليهم رجز الله وقتل أكثرهم وعرقل مختاري إسرائيل». والكتاب الآخر القائل: «لا تشربوا الخمر لئلا تنسوا الحكمة». والرسول الإلهي قال: «إن السكيرين بالخمير لا يدخلون ملكوت الله». ومن سكر وعمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمه.

ثالث عشر: ثالث عشر: كان لهم عادة ردية؛ أنهم يكللوا العريس والعروس من المساء وفي الليل برا الكنيسة، ويكون الكاهن فاطر والعريس والعروس فاطرين وينقشوا يديها ورجليها بالماشطة مثل الأمم، ونسيوا أن الأكالييل مثل القداس الإلهي وجهلوا أيضاً أنه لا يجوز الإكليل إلا في الكنيسة، ويكون الكاهن صائم والعروس والعريس صائمين وغير مزينة بالماشطة حتى يحل عليهم الروح القدس. فمن الآن لا يجوز أن يصير إكليل برا الكنيسة إلا عن ضرورة، ويكون الكاهن صائم والعريس والعروس صائمين وغير مزينة بالماشطة. فمن عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمه.

رابع عشر: كان لهم عادة ردية؛ أن الكهنة يكتبوا الحروز والعوام يعلقوا الحروز والتعاويذ على رؤوس أولادهم ويقرءوا صلاة السيدة ويعلقوها على أولادهم وكثير من المسيحيين، ويصدقوا المنجمين والرقائين، وربما أنهم يرقوا رَقَوَات مثل الأمم ويفتحوا الفال ويمضوا إلى عند السحرة. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك؛ لأن الكتاب الإلهي

يقول: لا يكون فيكم من يفتح الفال، ولا من يقول بالرقا، ولا من يكتب الحروز، ومن فعل ذلك إن كان كاهن يقطع من كهنوته، وإن كان علماني يفرز من بيعة الله. فمن عمل بخلاف ناموس الله جماعة السينودس تحرمه.

خامس عشر: كان لهم عادة ردية؛ أن الرجال ينামون في ديورة النساء، والراهبات يختلطن في الرجال، فمن الآن لا يجوز فعل ذلك؛ لأن الشيطان له مدخل عظيم في مثل هذا الأمر. فمن تعدى ذلك وعمل بخلاف ناموس الله جماعة السينودس تحرمه.

سادس عشر: كان لهم عادة ردية؛ بغير معرفة وجهلاً منهم يدخلوا كتب الأراطقة إلى الكنيسة ويظنونها كتب الأرثوذكسين ويقرأونها قصص وأخبار وميامر وغير ذلك. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك على ما يأمر به الناموس المقدس، فمن عمل بخلاف الناموس فجماعة السينودس تحرمه.

سابع عشر: كان لهم عادة؛ يأخذوا على التوبة والاعتراف دراهم ويسموها قانون، ويحتجوا حجج بليدة ويقولوا ما نأخذ لنا، بل صدقة للفقراء أو ثمن قدّاسات أو ثمن خام للمحتاجين. فمن الآن لا يجوز لمعلم اعتراف أن يعمل سوى صوم وصلاة ومطانيات وإن أمر بصدقة للتائب أو بقداسات فيقول للمعترف أن يعطي ذلك للفقراء من يده إلى يدهم وعلى يد معلمه. ومن عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمه.

ثامن عشر: كان لهم عادة ردية؛ الرهبان المرسومين على دير ينتقلوا إلى دير غيره والرهبان الكهنة والرهبان العامية يدوروا في المدن والقرى ويقبلوا أولاد من المعمودية، ومنهم أناس يلموا دراهم ويأخذوا ندوة على اسم كنيسة قديس من القديسين أو على اسم دير من الديورة، ويكون معهم كتب من غير منشور بطك الأبرشية. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك، ومن عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمه.

تاسع عشر: كان لهم عادة ردية؛ أن البطريرك يرسم شماس أو قس من غير أن يكون معهم منشور من رئيس كهنتهم ولا كتاب في خطوط أيادي أهل بلدهم بأنهم مستحقين للكهنوت. وأشر من ذلك أن بعض كهنة يكونوا مرسومين على كنيسة فيتركوها وينتقلوا إلى كنيسة غيرها. فمن الآن لا يجوز فعل ذلك، وكل من عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمه.

العشرون: كان لهم عادة ردية؛ أنهم يعملوا في كل موضع مرتشي لأجل قبض البرطيل الذي سموه قوانين الذي يأخذوها على زيجات الحرام ويسمو المرتشي وكيل البطريرك.

والمصيبة العظيمة يكون الوكيل عامي من أعوام الناس ويدخل في أمور الكهنوت ويعترض على رئيس كهنة البلد في أمور الدين! فمن الآن لا يجوز يكون مثل هذه العادة الردية، ولا يصير وكيل بطرك في بلد التي فيها رئيس كهنة. فمن عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمة.

الخاتمة: ولتعلم جماعة المؤمنين أن أعراس المسيحيين لا يجوز فيها الطبل والزمر والدق والرقص، ولا الأكل والشرب والسكر وغير ذلك. وبالجمله إن الكلفة على مثل ذلك حرام وبفعله يسخط الله، وقد بطلنا هذا جميعه وأقصيناه ورنلناه. ونوصيكم بحفظ جميع هذه السنن، وبحفظ جميع وصايا الله، وأن لا تحيدوا عن الناموس؛ لأن الإحادة عن الناموس تقفر الأرض كلها، وافتعال الشر ينقض كراسي المقتدرين. إلى ها هنا انتهى كلامنا، فمن عمل بخلاف الناموس جماعة السينودس تحرمة.

البطريرك أفثيمىوس الثالث (١٦٣٥-١٦٣٦)

وعاد أغناطيوس إلى دمشق ودار دفة الرئاسة سبع سنوات متتالية، وتوفي مرقس متروبوليت صيدا ١٦٣٤، وكان أغناطيوس البطريرك في بيروت فقام إلى صيدا ليرأس الصلاة عن نفس مرقس، ثم عاد إلى بيروت ليلاً بزي تتري؛ لأن الحرب كانت قد اندلعت بين فخر الدين وبين الأتراك العثمانيين. وكان رجال الأمير قد علموا أن تترياً قدم إلى صيدا حاملاً بريد السلطان إلى الوزراء، فكمنوا لهذا التتري في السعديات، ومراً البطريرك فظنه هؤلاء التتري المنشود، فأطلقوا عليه النار فوق عن فرسه فتقدموا لسلبه فدهشوا وأسفوا، ثم حملوا البطريرك إلى الشويفات، فدُفن فيها.^{٦٧}

وكان ملاتيوس متروبوليت حلب قد رعى أبرشيته بالتقوى والحكمة متمسكاً بالقانون مناضلاً في سبيل الإيمان الأرثوذكسي. فلما بلغ الدمشقيين خبر أغناطيوس أرسلوا وفدًا من أكابرهم ووجهائهم إلى حلب يرجون ملاتيوس القبول بالبطريكية، ثم أتوا به إلى دمشق بوافر الإكرام والاحترام واحتفلوا بدخوله إلى مركز البطريكية احتفالاً شائقاً، ودعي أفثيمىوس الثالث ولقب بابن كرمة.

^{٦٧} «سفرة البطريرك مكاريوس»، ص ٣٩، «طائفة الروم الملكية»، للخورى قسطنطين الباشا، ج ١،

وُلد ملاتيوس في مدينة حماة سنة ١٥٨٦ من أبوين تقيين حوران وسعادة، وتُوفي والده وهو لا يزال صغيراً، فعنيت والدته به عناية مسيحية فشَبَّ على التقوى وزار أورشليم، فقدم النذر في دير القديس سابا ودعي أفثيميوس. ثم استدعاه سمعان متروبوليت حماة فرسمه شماساً ثم قَسّاً وعينه واعظاً، فأحرز محبة الجميع بشدة تقواه وكثرة فضائله، وتميز في غيرته على أعمال البر والإحسان. وتراكت الأموال الأميرية على المسيحيين فأرسله سمعان إلى حلب ليسترحم من واليها تخفيفها فاستجاب الوالي التماسه، وأقام أفثيميوس في حلب مدة من الزمن يعلم ويقضي فأحبهه الحلبيون. وكانت أبرشيتهم قد ترملت فانتدبوه مطراناً عليهم، وطلبوا إلى أثناسيوس الثالث السيد البطريرك أن يوافق على ذلك، ففعل وسامه مطراناً على حلب في دمشق ودعاه ملاتيوس وذلك في السنة ١٦١٢. وعاد ملاتيوس إلى حلب فرعى أبناءها في مراعي الخلاص، «وأغنى فقر نفوسهم بالغنى الروحاني، وأسعدهم بحسن تدبيره الجسداني، فأقبل المؤمنون على حلب وغرسوا بها فأينعوا وأثمروا وزادوا وتكاثروا.» وأنشأ ملاتيوس منزلاً في قلاية المطرانية «متقن البنيان عالي الجدران» بديعاً متيناً ووقفه على مَنْ بعده من رؤساء الكهنة. ونقل إلى العربية كتاب «القنداق» و«الأفخولوجيون» و«السواعي» و«السنكسار» وغيرها من الكتب الكنسية، وسعى لطبعها في رومة مركز الطباعة العربية آنئذ.^{٦٨}

وقد قال رحمه الله في مقدمته لكتاب «التبييكون»:

أما بعد؛ فإنني لما رأيت اختلاف كنائس المسيحيين في الترتيب والطقس والنظام وما دخل على أهلها من النقص في السجود والركوع والصيام، وما قد أبطلوه من فرائض الكتب المحقة الصادقة، وما قد أثبتوه من عوايد المخالفين وسنن الأراطقة ... فلم أزل أفحص عن أصل مخالفتهم فحَصّاً شافياً، وأبحث عن علة تعديهم بحثاً كافياً حتى وجدت أصل هذا الغلط؛ وعَلَّتْه عدم وجود تبييكون رومي قديم ... فلما وجدت تبييكون تأليف القديس سابا العظيم الذي كمله القس يوحنا الدمشقي الحكيم، فبالغت أنا الحقير ملاتيوس بالكد والجهد والطلب، وأنا يومئذٍ مطران مدينة حلب فأخرجته من اللغة الرومية إلى لغة الأعراب، وذلك بتاريخ سنة ٧١٢٠ لكون الدنيا الموافق ١٦١٢ لتجسد سيدنا يسوع المسيح.

^{٦٨} «سفرة البطريرك مكاريوس»، ٣٩-٤٠، و«الحقائق الوضعية»، ص ٥٨-٥٩.

وجاء في مقدمة كتاب «الأفخولوجي»:

أجهدت نفسي في ترجمتها وتفسيرها وأخرجتها إلى اللغة العربية وأنا يومئذٍ مطران في مدينة حلب، وحررتها بتاريخ سنة ١٦٣٤ لسيدنا يسوع المسيح.^{٦٩}

وشرطنه رؤساء الكهنة بطريركًا في أول شهر أيار فازداد حرصًا على التعاليم الإلهية واندفاعًا في سبيل المؤمنين، وحث الشعب على التعرف إلى الله، وعلى العمل الصالح، وأثمر وعظه في دمشق فرد الخطاة إلى الله وجعلهم آنية طاهرة. وشرطن في حياته بابا غفرائيل الفاضل مطرانًا على بایاس. وبعد مدة يسيرة مرض فاستدعى الكهنة والإكليروس وباركهم، وانتدب في حياته بابا ملاتيوس الصاقرزي بطريركًا أنطاكيًا، وانتقل إلى الرب بسلام في اليوم الأول من شهر كانون الثاني.^{٧٠}

البطريرك أفثيمیوس الرابع (١٦٣٥-١٦٤٨)

وأثر بابا ملاتيوس أن يحمل اسم سلفه، فقلّده عصا الرعاية كلُّ من فيلوثيوس متروبوليت حمص وسمياون أسقف صيدنايا ويواكيم أسقف الزبداني ودعي أفثيمیوس الرابع. وبابا ملاتيوس بدأ حياته الروحية راهبًا في دير القديس سابا وبرع في رسم الأيقونات، فلما تبوأ أفثيمیوس الثالث السدة البطريركية استدعاه إلى دمشق وطلب إليه أن يزين الكنيسة الكاتدرائية فيها، واقتدى أفثيمیوس الرابع بسلفه الصالح فكان مثال الوداعة والتقوى، وطاف الأبرشيات مرارًا واعظًا ومرشدًا مدبرًا.

وأهم أخباره أنه أيد ملاتيوس سيریغوس Syrigos في موقفه من مصنف بطرس موغيلة متروبوليت كيف في العقيدة الأرثوذكسية، فاستمسك بالأبيلكسيس في سر الاستحالة وامتنع عن القول بالمطهر، واشترك مع أخوته البطارقة الثلاثة سنة ١٦٤٣ في قبول مصنف موغيلة بعد هذا التنقيح.^{٧١} ومن أخباره أيضًا أنه وكل تثقيف ابن أخته

^{٦٩} «حياة البطريرك أفثيمیوس كرامة» بقلم تلميذه البطريرك مكاريوس الحلبي لناشرها الأب لاونديوس كلزي، مجلة «المسرة»، ١٩١٣، ص ٨٦-٨٨.

^{٧٠} المرجع نفسه، ١٩١٣، ص ١٤٣-١٤٤.

^{٧١} Moghila, Confession de, Dict. Théol. Cath., X, Col. 1070-1081

الذي أصبح فيما بعد البطريك نوفيطوس إلى الأب اليسوعي أيرونيوس قيوط، وذلك في السنة نفسها التي أكد فيها موقفه من بعض نقاط الاختلاف بين العقيدتين الكاثوليكية والأرثوذكسية.^{٧٢}

الكثلكة تنحصر في الموارنة

وكانت كنيسة رومة قد بدأت منذ السنة ١٦٢٧ تعمل في أوساط اليعاقبة والأرمن والأرثوذكسيين في حلب لتدخلهم في طاعة البابا، فوكلت أمر اجتذابهم إلى الآباء الكبوشيين أولاً ثم إلى الآباء اليسوعيين والكرمليين.^{٧٣} وكانت الكثلكة آنئذٍ لا تزال محصورة في الأوساط المارونية دون سواها.^{٧٤} وتذرع الآباء المبشرون بالتطبيب وبالوعظ الفردي والإقناع السري، ثم لجئوا إلى المدرسة والتعليم ليبثوا في صدور الأحداث تعاليم رومة وموقفها من الأرثوذكسيين وغيرهم،^{٧٥} ثم استغلوا القحط والجوع والفقر ونفوذ فرنسة للغاية نفسها.^{٧٦}

جاء في تقرير وضعه الأب يوحنا أميو Jean Amieu اليسوعي في السنة ١٦٥٠ أن هنالك مجالاً لتثبيت أواصر «الصدقة» مع بطريك الروم الذي «يدعي أنه بطريك أنطاكية»، وأن سلف هذا البطريك تُوّفي كاثوليكيّاً، وأنه يظن أن بعض رهبان الروم دسوا له السم؛ لأنه جهر بطاعته للبابا. وجاء أيضاً أن أفثيميوس الرابع أكد لهذا الأب اليسوعي أنه يعترف بالبابا ويدين له بالطاعة، ولكنه لا يجروء أن يجهر بذلك خشية أن يحل به ما حلّ بسلفه،^{٧٧} ويلاحظ هنا أن رواية السم ضعيفة ينقصها شيء كثير من العدالة والضبط، وبالتالي فإنه لا يجوز إثباتها والقول بها. ويلاحظ كذلك أن الأب أميو نفسه لم يرَ في أفثيميوس الرابع سوى صديق مصادق، وأن أفثيميوس الرابع نفسه

^{٧٢} Besson, P., La Syrie Sainte, 68; Nachi, Lettres Edifiantes, 226

^{٧٣} Relation de la Mission d'Alep. Rabbath, A., Doc. Inéd., I, 451

^{٧٤} Philippe de la T. S. Trinité, Rabbath, A., op. cit., I, 445, 446

^{٧٥} Alexandre de Saint-Sylvestre, Rabbath, A., op. cit., 434

^{٧٦} Relation de la Mission d'Alep, op. cit., 452-458

^{٧٧} Ibid., I, 401-402

جهر في السنة ١٦٤٣ بتمسكه بالعقيدة الأرثوذكسية، كما سبق وأشرنا. بيد أنه لا بدّ من الإشارة هنا إلى تساهل هذا البطريرك في أمر المدرسة التي أنشأها الآباء اليسوعيون في دمشق، وإلى سيطرة هؤلاء على عقول الأحداث وما نشأ عن ذلك من استعداد في بعض الأوساط الأرثوذكسية للدخول في طاعة رومة في الربع الأول من القرن الثامن عشر.

الفصل الثالث

البطريق مكاريوس الثالث

البطريق مكاريوس الثالث (١٦٤٨-١٦٧٢)

ومرض أفثيمىوس مرضة شديدة وأثخنه وأوهنته، فاجتمع الإكليروس حوله وعملوا له زيتاً مقدساً واستشاروه في أمر خلفه، فقال: «إن كنتم تريدون إصلاح أموركم وتوفيق أحوالكم فلا تجعلوا غير مطران حلب بطريقاً عليكم.» فكتب الإكليروس بذلك إلى مكاريوس متروبوليت حلب وعرضوا الكتابة على البطريق فعلم عليها بيده، ووجهوا بها ساعياً وحثوه على السير، ووصل الساعي إلى حلب، ولكنه لم يجد مطرانها؛ لأنه كان فرّ من جور واليها قره حسن باشا والتجأ إلى المعرة وكلس. وما فتئ الساعي يسعى حتى اتصل بمكاريوس وسلمه الرسالة، فاعتذر ولم يحضر، فاغتاظ البطريق وهدد بالقطع. فقام مكاريوس إلى الشام يرافقه ابنه الشماس بولس، ولدى وصولهما إلى حماة التقيا بساعٍ ثالث يحمل خبر انتقال أفثيمىوس في الحادي عشر من تشرين الأول سنة ١٦٤٧، وإلحاح الأعيان بوجوب الإسراع إلى دمشق لتسلم عكاز الرعاية، وتدارك ما قد ينجم عن التأجيل والتأخير من اختلاف في الرأي وتفرق في الكلمة.

ووافق كل من ملاتيوس متروبوليت حماة وفيلوثيوس متروبوليت حمص على ارتقاء مكاريوس ورافقه إلى دمشق، وانضم إليهما أسقف قارة يواصاف. ولدى وصولهم إلى دمشق وجدوا فيها غريغوريوس متروبوليت حوران، فنصبوا البطريق الجديد في الثاني عشر من تشرين الثاني سنة ١٦٤٧، وتشاور الآباء في الديون التي خلفها أفثيمىوس فوجدوها ستة آلاف غرش، وبلغ مجموع ما أنفق على دفنه و«حشره» وما قدم إلى الباشا محمد كوبرلي لاستصدار البيورلدي باسم البطريق الجديد أربعة آلاف غرش.

فرهنوا التيجان الأربعة القديم والكبير والحلبي والاستنابولي وبقية البدلات والأواني المقدسة. ثم وجد رسائل الجلوس «وأرسل البركة والدعاء إلى سائر البلاد»، وشطرن الخوري ميخائيل ابن القسيس بشارة الحلبي مطراناً على حلب ودعاه متروفانس، وسام ابنه بولس أرشدياكوفاً على مدينتي دمشق وحلب وسائر بلاد العرب.^١

وهو يوسف ابن الخوري بولس ابن الخوري عبد المسيح البروطس المشهور «ببيت الزعيم». وُلد في حلب ونشأ فيها وتلقى علومه الإكليريكية على البطريرك أفثيميوس الثالث، وتزوج من امرأة ناموسية فرزق أولاداً، ثم ترمّل فرسم قساً، ولما رقي معلمه أفثيميوس الثالث السدة البطريركية سامه خلفاً له مطراناً على حلب: وأما ما كان من أمر أهل حلب فإنهم يوم عيد الصليب افتتاح السنة ٧١٤٤ للعالم (١٦٣٥) اجتمعوا في قلاية المطرانية الكهنة والأراخنة والإكليروس مع باقي المسيحيين، واستخاروا الخوري يوحنا والدي ليكون عليهم مطران. وأرسلوه صحبة القفل إلى الشام ووجهوا معه رفقة من كهنة وأعوام. وبعد أن وصل بالصحة والسلامة شرطنه الأب السيد البطريرك أفثيميوس المذكور مطراناً على حلب سابع وعشرين يوم خلت من شهر تشرين الأول يوم الأحد، ولكثرة وده له ورعايته لخطر المرحوم معلمه ووصيته له جعله كاتوليك مشرفاً على سائر نوريته وصيره إكسرخوساً؛ أي وكيلًا وناظرًا على بلاد آمد وما يليها وأنطاكية التي هي كرسي البطريركية ونواحيها، وأذن له أيضاً أن يقدس فيها إذا مضى إليها.^٢

وساس مكاريوس أبرشية حلب اثنتي عشرة سنة «مقتفياً في ذلك آثار السادة السالفين متمماً وصايا الله تعالى بغير انتقاص، فازداد بنيان الجماعة واستعمارهم عما سلف». واشترك في السنة ١٦٣٩ في استقبال السلطان مراد الرابع الذي أمَّ حلب استعداداً للزحف على بغداد وضرب قزل باش الذي امتنع بها. وفي التاسع من آب سنة ١٦٤٠ زاره في حلب البطريرك أفثيميوس الرابع وشرطن فيها الخوري يوسف الحلبي مطراناً على عكار ورحبة وأوفده إلى «بلاد المسيحيين حد بلاد المسكوف». وأقام البطريرك مائة يوم في حلب استوفى في أثناءها النورية، وخرج منها في الثاني عشر من تشرين الثاني فرافقه مكاريوس وابنه حتى حماة. وفي السنة ١٦٤٢ قام مكاريوس لزيارة الأماكن المقدسة على

^١ «سفرة البطريرك مكاريوس»، ص ٥١-٥٥.

^٢ «سفرة البطريرك مكاريوس»، ص ٤٣-٤٤.

رأس جماعة من الحجاج الحلبين، وأقام في دير القديس سابا يومين وشاهد بأمر عينه ألوف القلايات المنقورة في الصخر، وعاد إلى حلب يوم خميس الصعود.^٣

جولة بطريركية رعائية (١٦٤٨-١٦٤٩)

ولما كانت الديون قد تراكمت على الكرسي تقرر أن يخرج مكاروريوس ويطوف في أبرشيات الكرسي الأنطاكي لتفقد شئون الرعية وجمع التبرعات والحسنات. وبعد أن زار العذراء في صيدنايا تبرگا والتماسًا عاد إلى دمشق. وفي السادس من تموز سنة ١٦٤٨ خرج منها إلى الديماس وعيتا والقرعون ومشغرة وكفر ملكي فصيدا، وخرج من صيدا إلى عبرا ووادي الليمون وبرتي وكفر بيت وكفر حتا وبسري وعنبال. ثم زار الأمير ملحم بن معن في بعقلين وعاد إلى عنبال وغريفة والمزرعة وعين قنية وعماطور وباتر ونيحا، ثم بعذران والخريبة والمعاصر وبتلون والفريديس والباروك وعين زحلتا وبصين وبريح وعين وزيه والسماقانية ودير القمر والشويقات. وقُدس في الشويقات الأحد الثالث عشر بعد العنصرة. وانتقل إلى بيروت في الحادي والعشرين من آب، وخرج منها في الحادي والعشرين من أيلول، وصعد إلى بكفيا والمحيدثة، وقُدس في كنيسة نهار الأحد الأول من لوقا، وزار دير مار إلياس والشوير وبسكنتا وقُدس في كنيسة، وقام منها إلى كفر عقاب فكُرْس كنيسة بعد تهدم هيكلها وقُدس فيها. وعاد إلى بيروت في السادس عشر من تشرين الأول، وفي الثامن عشر منه أُلْع بحراً إلى طرابلس يرافقه يواصف متروبوليت بيروت، فاستقبله في ميناء طرابلس يواكيم مطرانها وجميع المسيحيين فصلى ثم قدس.

وزار كفتين في التاسع عشر من تشرين الثاني وقُدس فيها وشرطن فيها الخوري إلياس المرمريتي مطراناً على صُور وصيدا وسماه أرميا. وفي العشرين من الشهر نفسه قام إلى دير القديس يعقوب المقطع وقُدس فيه عيد دخول السيدة إلى الهيكل. ثم زار دير البلمند وقلحات وفيع وبطرام المشهورة بنساخها، ثم دير سيدة الرأس وبدبا وأميون المشهورة بعلمائها وأقام فيها أسبوعاً، وخرج منها إلى كفر عكا وكوسبا ودير حماطورة ودير مار جرجس وقرية كفر قاهل فدير مار إلياس النهر فالبلمند فدير الناطور، ثم أنفة وحامات وسيدة النورية والبرج، وعاد إلى طرابلس وقُدس عيد الميلاد والغطاس (١٦٤٩).

^٣ المرجع نفسه، ص ٤٥-٥١.

ثم خرج إلى البترون وعبرين وكفر حلدا والكفور حيث أعشاش النسور، وفيها اصطادوا له نسرًا فاستخرج دهنه، ثم قام إلى دوما وتولا «قرية المقدم علي»، ومنها إلى بخعاز وغرزوز وشيخان وجبيل وغزير. وعاد إلى طرابلس وخرج منها نهار الخميس من الجمعة الثانية من الصوم، وتوجه إلى بقرزلا وعرقه وجبرائيل «ذات الكنيسة اللطيفة التي يخرج من تحت مائدة هيكلماء تجري في وسطها إلى خارجها تبزي المرضي». ثم قام إلى خنيقة ورحبة وبقي فيها أسبوعين وخرج منها عياث وعين يعقوب وبزبينا «وكانوا خرابًا». وفي يوم الإثنين من الجمعة الخامسة من الصوم ذهب إلى السيسنية والبويضة وصافيتا وقُدس فيها في كنيسة مار ميخائيل «المعظمة» في البرج، ثم ذهب إلى تنورين وممرمريتا والحصن وتفرج على قلعتها «نجمة الصبح» وقام منها إلى عناز، وقُدس أحد الشعانين في مار جرجس الحميرة، ويوم الإثنين الكبير ذهب إلى رباح وافيون. وفي الحادي والعشرين من آذار سنة ١٦٤٩ دخل حماة وعيّد فيها عيد الفصح. وفي الخامس والعشرين من نيسان شرطن الخوري عطا الله الأمدي مطرانًا على آمد وما يليها وسماه ثيودوسيوس، وذلك «بحسب استيهاله واختيار ورضا أهلها وإرسالهم إياه». وكان خبر الاختلاف بين متروفانس متروبوليت حلب وبين رعيته قد فشا وتفشى. وكان البطريرك قد قطعه ثم حرمه، فلما وصل البطريرك إلى حماة قصده متروفانس وطلب عفوه وكتب «تمسكًا بخط يده وحلف عن الخمر والمسكر وعن سائر ما نقل عنه»، واستغفر عما صدر منه، فباركه البطريرك وحله وصفحه عنه. وقام البطريرك إلى حلب وأقام فيها إلى أن هدأ الهياج، ثم خرج منها يوم عيد دخول المسيح إلى الهيكل، ووصل إلى دمشق في الحادي عشر من شباط سنة ١٦٥٠.

«وحاسب البطريرك الكهنة والأعيان والإكليروس على ما أورده في هذه الدورة فبلغ ستة آلاف غرش، فدفعوا جانبًا من أصل الدين والباقي قدموه رباء ومكاسب.»^٤

مكاربوس ومشكلة الجحود

وجاء في تقرير رفعه تلميذ مكاربوس المطران أفتمبيوس الصيفي إلى مجمع انتشار الإيمان ° أنه فتش عن الخلل الذي أدى إلى دخول النصارى في دين الإسلام في زمن

^٤ «سفرة البطريرك مكاربوس»، ص ٥٩-٦٥.

° ج ٧٥، عدد ٣٨٨.

مكاروريوس وكيرلس، فوجده ناجماً عن الفقر وقلة المعاش ومخالطة الأمم وكثرة الأصوام. ومما جاء في هذا التقرير قوله إن الأصوام بلغت في ذلك العهد ثلاثة أرباع السنة؛ أولاً: الأربعاء والجمعة على مدار السنة، وثانياً: الصيام الكبير المقدس، وثالثاً: صوم الرسل، ورابعاً: صوم العذراء، وخامساً: صوم الميلاد، وسادساً: صوم الصليب، وسابعاً: صوم القديس ديمتريوس، وثامناً: صوم رئيس الأجناد، وتاسعاً: نسكيات سكان البراري والرهبان. وقد ألزم العوام بها. ويؤكد أفثيميوس أن هذه الأصوام العديدة دفعت ألوفاً من الأرثوذكسيين في قيليقية إلى الدخول في الإسلام وألوفاً غيرهم من الأرثوذكسيين في بر حماة إلى النكران والخروج، ولعل هؤلاء هم قبيلة الصليب كما ارتأى الأب أنستاس الكرملي،^٦ ويفيد أفثيميوس أنه «من مدة خمسة وخمسين سنة وأنا في الشام صار غلاً عظيم وكان في قرية عين التينة مقدار خمسمائة نفس نصارى، فمن شدة الغلا وفقرهم طلبوا من البطرك مكاروريوس جد البطرك كيرلس أن يطلق لهم أكل الألبان في زمان الصيام، وراجعوه مرات فما أمكن يسمح لهم، وكان مُد القمح بقرش، فمن أجل هذه الضيقة العظيمة والقساوة الظالمة مضى كهنة الضيقة أربعة مع رعاياهم كلها ودخلوا في دين محمد، والكهنة صاروا لهم خُطباً وعملوا كنيستهم جامعاً، وهذا نظرت به بعيني ما عدا الذين يفعلون ذلك بالإفراد والتدريج من ضيق العيشة وغير أسباب.»

وقصد جماعة من أهل غزة مكاروريوس وشكوا تتأقل ضريبة الخراج، فقالوا إنها كانت تُفرض على أربعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، وإن معظم هؤلاء «خرجوا من الديانة»، وإنه لم يبقَ من المسيحيين في قريتهم بين مسكين وغائب وحاضر أكثر من ثلاثين، وإن السلطات لا تزال تفرض عليهم خراج الأربعمائة والخمسة والثمانين! «وأعلنوا للبطريرك بأنه إن لم يتحنن عليهم ويخفف ويُسقط هذه الأسماء الزائدة وإلا يرحلوا ويتركوا مواطنهم أو يخرجوا من دينهم حسبما فعل غيرهم.» فتحزن البطريرك وخشي أن تستولي الأمم على كنيستهم الرومانية القديمة التي عمرها القديس بورفيريوس مطرانها، فاستعطف الوالي بشير باشا واعتمده، فأجاب سؤله وأسقط عن هؤلاء مائة وواحدًا وأربعين اسمًا. وأنفق البطريرك لهذه الغاية ألفين غرش، فقال أهل الشام نحن أولى؛ لأننا رعيته. فجد واجتهد وأسقط مائة وعشرين اسمًا عنهم وخمسة عشر اسمًا عن أهل قارة وثلاثين عن أهل يبرود وخمسة وثلاثين عن أهل دير عطية.^٧

^٦ «المشرق»، ج ١، ص ٦٧٣.

^٧ «سفرة البطريرك مكاروريوس»، ص ٦٥-٦٧.

بيروت وبعلبك والزبداني (١٦٥٠-١٦٥١)

وشرطن مكاروريوس في الثالث عشر من تشرين الأول سنة ١٦٥٠ الخوري فرح البيروتي مطراناً على بيروت وسماه فيليبوس. وسام في العاشر من كانون الثاني سنة ١٦٥١ الخوري عازاريا الطرابلسي مطراناً على بعلبك ودعا أنطونيوس. ورسم في السادس عشر من أيار من السنة نفسها تلميذه جراسيموس مطراناً على الزبداني والفرزل، وأقام الخوري سليمان بن الخوري فرج الله الحلبي كاثوليكا على القلاية البطريركية في دمشق ودعا سيليفستروس.^٨

السفر إلى بلاد المسيحيين (١٦٥٢-١٦٥٩)

وبلاد المسيحيين في عُرف مكاروريوس وابنه هي بلاد البلقان وروسية بلاد الأرثوذكسين المستقيمي الرأي. وكانت الديون لا تزال متراكمة، وكان أمراء الفلاخ والبغدان (رومانية) قد وفوا ديون الكرسي الأورشليمي وكرسي القسطنطينية والكرسي الإسكندري، فلما كتب باسيلي ابن أمير البغدان إلى مكاروريوس يستدعيه إليه أدى البطريرك للسفر رامياً هذا الأمير الأرثوذكسي بآماله. وبعد أن أقام سيليفستروس كاثوليك القلاية البطريركية نائباً ووكيلاً خرج من دمشق في الحادي عشر من شباط سنة ١٦٥٢ طالباً حلب، وما إن وصلها حتى بلغه خبر وفاة نائبه بالطاعون، ففوض تلميذه جراسيموس متروبوليت الفرزل والزبداني تدبير شئون البطريركية في أثناء غيابه، وسام قبل خروجه من حلب الخوري ناصر الحموي مطراناً على عكار ورحبة وسماه نيقولاوس، وبعد ذلك بثلاثة أيام رسم الخوري ميخائيل مهنا الحلبي مطراناً على طرابلس وسماه ملاتيوس.^٩

وفي اليوم الخامس من آب سنة ١٦٥٢ خرج مكاروريوس من أنطاكية قاصداً القسطنطينية، ووصل إلى الإسكندرونة ليلة عيد التجلي، فاستقبله القبارصة وحضر الأغربية في كنيستهم. وعند الأيصون دخل الكهنة وأخذوا الكيرون و«داروا في الأيصون حسب عادتهم مصلين: أيها النور البهي.» وقُدس البطريرك قداس السحر ثم خرج إلى

^٨ المرجع نفسه، ص ٦٧.

^٩ المرجع نفسه، ص ٦٩-٧٠.

باياس وقدس فيها الأحد الثامن بعد العنصرة، وبلغ القسطنطينية في العشرين من تشرين الثاني وزار كنائسها وآثارها القديمة.

وفي السابع من كانون الثاني سنة ١٦٥٣ خرج من القسطنطينية إلى ياسي عاصمة البغدان وأقام فيها تسعة أشهر ضيقاً على باسيلي بك. وكانت الحرب قد اندلعت بين البغدان والقوزاق فلم يوفق البطريق لنيل ما تمنى، فذهب إلى طرغشتة عاصمة الفلاح الصيفية وأقام فيها نصف سنة ضيقاً على أميرها متى. ثم قام إلى كيف عاصمة القوزاق ومنها إلى موسكو، فاستقبله القيصر ألكسيوس ميخائيلوفيتش بكل ترحاب واحترام وساعده كل المساعدة في احتياجاته، فعاد إلى رعيته في السنة ١٦٥٩ ووفى قسمًا كبيراً من الديون التي كانت على الكرسي.

يوداص الثاني وقطعه (١٦٥٩)

ويوداص الثاني في نظر مكاريوس وابنه بولس هو أثناسيوس متروبوليت حمص نسيب متروفانس متروبوليت حلب. فقد جاء في أخبار سفرة مكاريوس المشار إليها أن الدمشقيين دعوا أثناسيوس متروبوليت حمص ليكون بينهم نائباً بطريكاً في أثناء غياب البطريق، وأنه ما كاد أثناسيوس يصل إلى كرسي النيابة حتى «قدس في الكرسي البطرسي في الصاكو وشرطن ووقف في الكاتدرا وزوج زيجات حرام وفعل قبائح عظيمة أكبر من قبائح ابن حماة مطران حلب. ولما سمع بقدم سيدنا البطرخ خزي؛ لأنه كان يصيت علينا بأننا متنا كلنا، وبأن ما بقي يجي قطعاً، وأنه هو يتبطرك عليهم. وجاء أيضاً أن أثناسيوس خرج من دمشق قبل وصول البطريق إليها، وأنه أقام في صيدنايا وأرسل عوانات للحكام لأجل ضرر الدمشقيين المسيحيين».^{١٠}

ولما وصل مكاريوس إلى حمص خرج أثناسيوس لاستقباله، فضمه البطريق إلى حاشيته وأخذه معه إلى دمشق وعاتبه في الطريق وذكر له قبائحه واحدة واحدة، فأنكر أثناسيوس وتلمل. ولدى دخول البطريق إلى دمشق في أول تموز وفي خمسة عشر ألف غرش، وقدم للبasha ولبقية الأكابر ما قيمته ثلاثة آلاف غرش.

وفي الثامن والعشرين من آب سنة ١٦٥٩ التأم المجمع الأنطاكي المقدس للنظر في قضية أثناسيوس بن عميش فنبت عليه أنه وقف في الكاتدرا، وأنه بدّل في النرتكس

^{١٠} «سفرة البطريق مكاريوس»، ص ٨١-٨٢.

مع «طون نسبوتين»، وأنه شرطن كهنة وشمامسة، وأنه رهَّب راهبة بعد وفاتها لأجل متخلفاتها، وأنه كان يقول: «أنا بطرككم». وأنه زوج زيجات حرام في المدينة والبر لقبض الدراهم. فحكم عليه المجمع بالقطع من كهنوته والحرم إلى أن يتوب، وكتب استاتيكونًا بذلك وأذاعه في أبرشيات الكرسي، وإليك نصه:

المجد لله دائماً: مكاريوس برحمة الله البطريرك الأنطاكي وسائر المشرق، أنه لما كان بتاريخ نهار الأحد ثامن وعشرين شهر آب سنة ٧١٦٧ لكون العالم (١٦٥٩)، الموافق أول شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٠٦٩ للهجرة الإسلامية صار مجمع مقدس بحضور الحقيير الواضع خطي وعلامتي أعلاه وأدناه، وبحضور رؤساء كهنة أبرشية النورية الأنطاكية الواضعين خطوطهم أدناه بمدينة دمشق الشام في كنيسة القديس نقولاوس، وكان إجماعهم ودعواهم على أثناسيوس مطران حمص بأنه جا إلى دمشق وتوطأ كرسي البطريركية بغير أمر البطريرك وبغير شورهم ورضاهم، وأنه قدس في كنيسة البطريركية ولبس بدلته خارجاً في النرتكس، وأنه شرطن قسوس وشمامسة بغير إذن صاحب الكرسي، وأنه وقف في الكاتدرا التي لا يصعد عليها غير البطريرك، وأنه حمل على إخوته رؤساء الكهنة بالافتراء، وأنه زوج زيجات حرام في المدينة والبر وحلل ذلك بقبض الدراهم. وبعد إثبات ذلك وجهه واحدة فواحدة بحضور المجمع المقدس وكهنة البلد ووجوه الإكليروس وأعيان الشعب، وأيضاً أنه مضى إلى دير صيدنايا وطلع إلى الكرسي وقدس بغير إجازة بعد أن أرسلوا له الكهنة والإكليروس وأعيان الشعب وأنهوه عن ذلك فلم ينتهي. وقد ظهرت عليه قبل ذلك قبائح كثيرة مدونة في دفاتر عليه وثبتت عليه في وجهه.

فبموجب ذلك قد حكمت عليه أنا الحقيير مكاريوس البطريرك الأنطاكي حالاً بموجب ما تأمر الشريعة المسيحية بأمر الرحمان والسلطان أن هذا الرجل المدعو أثناسيوس المذكور فيكون مقطوعاً من سائر درجات الكهنوت، وليس له تصرف في قدّاس ولا في غيره، ولا أن يضع بطرشيّل في عنقه، وإن تعدى ما حدّناه فيكون محروماً مفروراً من مجد الآب والابن والروح القدس ومن المجمع المقدسة إلى أن يرجع ويتوب ويخلص نفسه وذمته مما اختلسه لنفسه من البطريركية والكنيسة والوقف والقوانين من الأحياء والأموات.

وعلى هذا الاصطاتيكون وقد فصلناه من مجمعنا المقدس المحرر في اليوم الأحد ثامن وعشرين شهر آب المبارك لشهور سنة ٧١٦٧ للعالم الموافق للهجرة الإسلامية سنة ١٠٦٩، وبالله التوفيق.

المجد لله دائماً: ملاتيوس مطران طرابلس، فيليبوس مطران بيروت، غريغوريوس مطران حوران، أرميا مطران صيدا، جراسيموس مطران الزبداني، ناوفيوس مطران اللاذقية، نقولاوس مطران عكار، الأرشدياكون الشماس بولس.^{١١}

طبخ الميرون (١٦٦٠)

وقلّ الميرون المقدس الذي طبخه يواكيم السادس البطريق الأنطاكي ولم يبقَ منه سوى زجاجة واحدة، فكتب مكاربيوس أنواع الأدوية والعقاقير في دفتر وأمر بجمعها. وأرسل إلى مصر لاستحضار دهن البلسم. وسجد الأرشدياكون بولس لوالده البطريق واستمد البركة وشرع في إعداد المواد اللازمة، ثم دقها في الهاون وجعلها خمس طبخات، ووضع كل طبخة في ورقة كبيرة وكتب عليها اسمها وحفظها حتى جمعة الشعانين.

وهذه أجزاء الطبخة الأولى: دار شيشعان وهو نوار؛ أي زهر القندول، مائة وعشرون درهماً وعود سليخة حمرا ستون درهماً، وحماما ياقوتية ستون درهماً، وأصول السوسن ثلاثون درهماً، وقصب الذريرة ثلاثون درهماً. ثم إننا رَضَّينا منها ما وجب رَضُّه كما يعيَّن في الكتاب، وتنقع بماء مقدس وخمر عتيقة بمقدار ما يغمرها، وأزود بأصبعين أو ثلاثة في وعاء نظيف إلى عشية أحد الشعانين لتطبخ في الغد. ففي نسخة الأصل يعين جزءاً واحداً؛ أي مثلاً من زهر القندول أربعون درهماً، فنحن جعلناه ثلاث مثاله؛ أي مائة وعشرون درهماً، ومثل ذلك من غيره. وعلى هذا فِقُس، وسيأتي ذكر بقية الطبخات بعد هذا.

وفي يوم الجمعة قبل سبت العازار قام البطريق ورؤساء الكهنة والكهنة بعد صلاة السَّحَر إلى كنيسة مار نقولاوس، فصلُّوا على الموقد وعلى الأجيازاموس والموقدين

^{١١} «سفرة البطريق مكاربيوس»، ص ١٠٤-١٠٧.

القائمين في وسط الكنيسة الموجهين نحو الشرق، ووضعوا على الموقدين ماعونين نحاسيين كبيرين مبيضين. وصباح الإثنين العظيم وضع البطريك حوائج الطبخة الأولى في الماعون الكبير وأفرغ عليها ثمانية وعشرين رطلاً من الزيت الصافي وخمراً عتيقاً وماء مقدسة. وكان كلما وضع جزءاً من الأجزاء يترنم ويقول على اسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. ثم وضع ورق الغار وورق الآس وورق الحصلبان وكمشة من الحصلبان الذكر فالخمر العتيق والماء المقدسة. ثم تناول سيدنا البطريك ثلاثة عيدان وثلاثة أعواد من القنب وثلاث شمعات مشتعلة ووضعهم في الموقد، وبلاً جانباً من الحطب بماء مقدسة سخنة، وألهب النار وجلس أحد الكهنة مقابل الموقد يوقد ويبل الحطب بالماء السخنة ويوقده قليلاً قليلاً، وكان يحرك الزيت بمغرفة من الخشب ويضيف شيئاً من الماء السخنة. وكان البطريك لابساً بطرشيته والأموفوريون وكذلك رؤساء الكهنة، ولبس الكهنة كل بطرشيته والشماسة زنايرهم، والجميع مكشوفو الرؤوس يرنمون الرسائل والنبوات والمزامير، والشماسة يروّحون بالمرّاح.

بيان أجزاء الطبخة الثانية: من الميرون المقدس: قُسط مُر جيد ستون درهم، وورد أحمر عراقي أو جورى منزوع الأقماع ستون درهم، وصندل مقاصيري ستون درهم، ولادن وبخور جاوري وزنجيل وقرفة القرنفل وعيدانه من كل واحد ستون درهم، وقسط يابس ثلاثون درهم. يُرَضُّ الجميع ويبالغ في رَضِّ الصندل، ويصب عليها من الماء المقدس ما يغمرها. ونقعناها من ظهر يوم الإثنين العظيم إلى سَحَر الثلاثاء، ثم إننا جبناه ووضعناه على الزيت الذي طبخ بالأمس، وأوقد البطريك النار كما ذكرنا أولاً والتحرك عمال وكان يزداد إذا احتاج قليلاً من الماء المقدس. وطبخ أربع ساعات زمانية، ثم نزلناه وركناه إلى العصر حتى برد وصفيناه، ورؤساء الكهنة والكهنة يصلُّون والشماسة بالمرّاح يتبادلون إلى النهاية. وكنا قد نقعنا حوائج الطبخة الثالثة من سَحَر هذا اليوم، وأتيناه بها ووضعناها فوق الزيت المصفى وأوقد البطريك النار ثانياً.

بيان أجزاء الطبخة الثالثة: زرنب ستون درهماً، وقشور السليخة الحمراء المختارة أحد وعشرون درهم، وجوز طيب خمسة عشر درهم، وسنبل الطيب العصافيري الجيد ثلاثون درهم، وقرنفل جيد عشرون درهم، وبسباسة ثلاثون درهم. وطبخناها من عصر الثلاثاء إلى العشاء، فنزلناه عن المستوقد إلى أن برد وصفيناه سَحَر الأربعاء

كالعادة، وعزلنا الإفادة ناحية بعضها على بعض، وكنا قد دقينا أجزاء الطبخة الرابعة من يوم الثلاثاء.

بيان صفة الطبخة الرابعة: دار صيني طيب عالٍ أو قرنفل ثلاثون درهم، مُر أحمر جيد عربي ستون درهم، عود هندي خالص وهو بخور العود ثلاثون درهماً، زعفران شعري عراقي جيد ثلاثون درهم. ثم رصّينا منها ما وجب رصّه وصبينا عليها من الماء ما غمرها وزيادة ونقعناها ليلة الأربعاء في ماء مقدس أيضاً إلى سحر الأربعاء، ووضعناها فوق الزيت المطبوخ ثلاث مرات، وطبخناها بنار لينة كالعادة من سحر إلى الظهر، والطقس الأول عمّال من القراءة والمراوح وغير ذلك، ونزلناه عن النار إلى أن برد، وصفيناه وعزلنا الإفادة على بعضها بعض، ثم جمعنا أجزاء الطبخة الخامسة.

بيان صفة الطبخة الخامسة: الاصطراك الجيد الأحمر الفلكي مائة وعشرون درهم ووضعناها في الزيت المطبوخ مع ثلاثة أرطال عسل منزوع الرغوة وماء مقدس أيضاً. ووضعناه في الزيت على النار بعد ظهر يوم الأربعاء إلى المساء حتى ذهبت منه رطوبة الماء جميعها وهديت عنه البقبة بالكلية وطابت رائحته، وعلامة تجربة ذلك هو أن الحكيم الذي كان يدبر هذا العمل جاب فتيلة قطن وغطها في الزيت المطبوخ وقدمها للشمعة فلم تطشّطش، فعلمنا حينئذٍ أن الرطوبة قد ذهبت. ثم نزلناه عن النار، وفي أثناء ذلك كنا قد دقينا أجزاء الطبخة السادسة.

بيان صفة الطبخة السادسة: دار صيني؛ أي القرفة، مائة وثمانون درهماً، ومن سنبل الطيب الجيد العصافيري ستون درهم، ومن قشور السليخة الحمراء الجيدة ثلاثون درهم، ومن البسباسة أربعة وعشرون درهماً، ومن العود الهندي القافلي خمسون درهم. وسحقنا الجميع ونخلناهم في كريشة حرير، ووضعهم البطريق في الزيت المطبوخ ودافهم به. ثم أضاف الحكيم دهن البلسان وكان نحو من مائة وخمسون درهم في وعاء من نحاس على نار حتى ذاب، وأضاف معه أربعة عشر مثقالاً من المسك الخالص المسحوق ومن العنبر الجيد أيضاً إلى أن اختلط في بعضه بعض، وحصّة من الميرون القديم ووضع البطريق على الزيت المطبوخ أيضاً، وحرك الجميع وغطيناها إلى الغد.

وفي هذه الليلة ظهر سر برهان عظيم من بعض الأيقونات التي على باب هيكل هذه الكنيسة؛ وذلك أنهم من أول الليل نضحوا حيل كان يزرّب منهم كساقية وانذهلنا. وضحوه نهار الخميس حضر البطرك وبدأ يعي الميرون في أواعي الزجاج الجدد ولم

يكن وضع فيهم شيء، والجميع مكشوفو الروس مترنمين بالطروباريات: الرب يرعاني فلا يعوزني شيء، وغير ذلك، وعزلناهم على حدة.

ونقل البطريرك والأساقفة والكهنة والشمامسة الميرون المقدس بباعوث ورتلوا: ارحمني يا الله، بتمامها، ودخلوا إلى الكنيسة المريمية ووضعوا الميرون على المائدة المقدسة وابتدءوا بصلاة القداس. وعند دورة الجسد حمل الكهنة الميرون أمام الجسد وداروا به وأعادوه إلى المائدة، وأحنى البطريرك رأسه وتلا الأفاشين المعينة. وبعد القداس وضع الميرون تحت المائدة إلى سحر الفصح المجيد، ثم نُقل إلى خزانة الميرون في الكنيسة المريمية.^{١٢}

عودة إلى بلاد المسيحيين (١٦٦٦-١٦٦٩)

وتولى نيقون في السنة ١٦٣٢ رئاسة كنيسة موسكو وتوابعها، فحضر المؤمنين على العمل الصالح والاستمسك بالإنجيل وقوانين الرسل وقرارات الجامع المسكونية، وقال باستقلال الكنيسة عن الدولة. ثم ذهب إلى أبعد من هذا فأجاز للبطريرك التدخل في شئون الدولة بشكل غير مباشر لما لشئون الدولة من علاقة مع الدين وخلص النفوس. ونسبة الكهنوت للدولة في نظره كنسبة النفس للجسد والشمس للقمر. وحاول نيقون الانتقال من القول إلى الفعل فاصطدم بمقاومة القيصر ألكسيوس ميخائيلوفيتش، وأدت المشادة بين هذين الكبيرين إلى تدخل البطاركة. وتفصيل ذلك أن القيصر وجّه إلى البطاركة خمسة وعشرين سؤالاً يستفتيهم في أمر نيقون وموقفه من السلطات الزمنية، فاتخذ المجمع القسطنطيني المقدس قراراً قضى بتكليف بائيسيوس البطريرك الإسكندري ومكاريوس البطريرك الأنطاكي القيام إلى موسكو لمعالجة الموقف.

ووفد البطريرك الإسكندري على أخيه الأنطاكي فقاما إلى أضروروم في السنة ١٦٦٦ وانتقلا منها إلى بلاد الكرج. فافتقد مكاريوس شئون الرعية الأنطاكية وعلم أن الكهنة كانوا قد اكتفوا بالميرون في ممارسة سر العمادة، فأعاد تعميد الكرجيين جماعات جماعات بالماء والميرون وباسم الآب والابن والروح القدس. ووصل الكيبران إلى موسكو بطريق استراخان واتصلا بالأساقفة الروس واشتركا في أعمال مجمع موسكو في السنة ١٦٦٧،

^{١٢} «سفرة البطريرك مكاريوس»، ص ٩٢-١٠١.

فأقر المجمع استقلال الكنيسة، ولكنه لم يرضَ عن تدخلها في شئون الدولة وأوجب تنحي نيقون عن الكرسي البطريركي.^{١٣}

النظم والقوانين

وجاء في رسالة صغيرة أعدّها مكاربوس نفسه ونشرها كل من الأب نيوفيطوس إدلبي وحبيب الزيات،^{١٤} أن كنيسة أنطاكية شملت في عهد مكاربوس الأبشيات التالية: حلب وصور وصيدا واللاذقية العظمى وطرابلس وآمد وحران وحمص وحماة وبيروت وبإياس وبعلبك وعكار والزبداني وصيدنايا وأرضروم. وجاء أيضًا أن ترتيب هذه الأبشيات هو «بمقدار المدينة وكثرة أهلها»، وأن تغيير هذا الترتيب جائز كما جرى في كنيسة القسطنطينية. ولا يخفى أن أبرشية عكا سلخت عن كنيسة أنطاكية وضمت إلى كنيسة أورشليم في عهد البطريرك أغناطيوس في أوائل القرن السابع عشر.

ويقول مكاربوس: إن لكل بطريك مديحًا غير مديح الآخر، وإن مديح بطريك أنطاكية هو هكذا: «سنيًا كثيرة يمنحك الرب الإله أيها الكلي الغبطة والجزيل القداسة سيدنا ومعلمنا أب الآباء وراعي الرعاة وريس الرؤساء وثالث الاثنا عشر رسولاً، الأب السيد البطريرك كير فلان بطريك مدينة الله العظمى أنطاكية، وكافة النواحي الثغرية وسائر البلاد الشامية وكل الأقاليم الكرجية وجميع الأقطار الشرقية، سيدنا ومولانا فلان لكما يحرسك الرب الإله سنيًا كثيرة أيها السيد في الارتقاء والرفعة الإلهية بغير مرض ولا سقم ناجيًا من الأسوء، معافي سنيًا جزيلة مكرمًا ممدوحًا معتوقًا من سائر أفعال الشياطين متغالبًا وظافرًا بأعداء المنظورين وغير المنظورين، والله تعالى لأجل صلواتك وطلباتك المغبوبة والجزيلة قداستها يخلص ويشدد كافة المطارنة المحروسين من الله والأساقفة المحبين لله، والكهنة في الرهبان الروحانيين والقسوس الموقرين والإكليروس المكرمين والشمامسة وذوي الحسب والأراخنة والأكابر المنتخبين، وسائر الشعب الأرثوذكسيين شعب المسيح محفوظين سنيًا عديدة، ثبت الله الأمانة المستقيمة إلى الأبد، آمين آمين آمين.»

^{١٣} Gedeon, M., Kanonikai Diataxeis, I, 341–368; Delicanis, Patriarchika Eggrapha, III, 92

اطلب وصف صليب مكاربوس في مجلة «النعمة»: كانون الأول ١٩١٠، ص ٣٩٦–٣٩٧.

^{١٤} Les Sièges Episcopaux du Patriarcat Melkite d'Antioche en 1658, Proche-Orient Chrétien, 1953, 341–350.

ويوجب البطريك الهتاف بعد هذا بالعبارة: «اسبولا أتي ذسبوطا» ثلاث مرات وسجود القارئ للبطريك وتقبيل يمينه ثم السجود له ثانية فالرجوع، «فطرح الذوكسا» وجعلها استيخونات بين الخوروسين كل استيخن في خورس دفعة واحدة فقط، ثم إكمال التاسعة والمكارزمي كالعادة.

وقال مكاريوس: إن التيبكيون قضى ببوليخرونيون للمتقدم، وإن هذا كان «معدومًا» في عصره بالجملة»، وإن الآباء الإلهيين أوصوا به، وأضاف أن لكل رئيس كهنة مديحًا، وأنه اجتهد وتعب وعمل لكل رئيس كهنة «من رؤساء كهنة بلادنا» مديحًا لائقًا بكرسيه وأبرشيته، ثم أثبت نصوص هذه المدائح هكذا:

حلب: فلان المتكامل قدسه والمنطقي مطران المدينة المقدسة، حلب الفائق الإكرام المتسلط على أبرشية سيريا الأولى، الضابط لمدينة منبج وكافة البلاد الفراتية بولا طا أتي.^{١٥}

أما ألقاب سائر المطارنة فهي هكذا: «المسلط على ساير أبرشية بار إلياس»^{١٦} لتروبوليت صور وصيدا و«المسلط على ساير أبرشية ثيودوريادوس» لتروبوليت اللاذقية، و«المسلط على ساير أبرشية فينيكي الأولى» لتروبوليت طرابلس و«المسلط على ساير أبرشية أرمينية الرابعة والضابط لمدينة الرها وبين النهرين» لتروبوليت آمد، و«المسلط على ساير أبرشية فوسطرا أرابية» لتروبوليت «المدينة المقدسة حوران»، و«المسلط على ساير أبرشية فينيكي الثانية» لتروبوليت حمص، و«المسلط على ساير أبرشية سوريا الثانية والضابط لمدينة أبامية الشام» لتروبوليت حماة، و«المسلط على ساير أبرشية فينيكي الأولى» لتروبوليت بيروت، و«المسلط على ساير أبرشيات كيليكيا الأولى والثانية والضابط لمدينة سلفكية أيسورية» لتروبوليت باياس و«المسلط على ساير جبل لبنان» لتروبوليت بعلبك، و«المسلط على جبل لبنان والضابط لمدينة عرقا» لتروبوليت عكار و«المسلط على ساير أبرشية فينيكي الثانية» لتروبوليت الزبداني، و«المسلط على ساير

^{١٥} وجاء باليونانية مثله تمامًا مع اللقبين أكسارخوس سورية الأولى وتوبوتيريش هيرابوليس وكافة البلاد الفراتية.

^{١٦} Paralias الساحلية؛ أي فينيقية الأولى وهي الساحلية.

أبرشية فينيكي الثانية» لمتروبوليت صيدنايا، و«المسلط على ساير بلاد أرمينية الكبرى» لمتروبوليت مدينة ثيودوسيوس؛ أي أرضروم. وتدل أخبار هذا البطريك على أن متروفانس ترأس أبرشية حلب وأرميا أبرشية صور وصيدا ونيوفيطوس أبرشية اللاذقية وملاتيوس أبرشية طرابلس، وثيوفانس أبرشية آمد وغريغوريوس أبرشية حوران، وأثناسيوس أبرشية حمص، وملاتيوس أبرشية حماة، وفيلبوس أبرشية بيروت، وجبرائيل أبرشية باياس حتى السنة ١٦٤٤، وأنطونيوس أبرشية بعلبك، ونيقولائوس أبرشية عكار، وجراسيموس أبرشية الزبداني، ولاونديوس أبرشية صيدنايا، ومكاريوس أبرشية أرضروم.

انتقاء الكهنة والإكليروس

وتفيد الآثار التي خلفها مكاريوس وابنه بولس أن المبادرة في انتقاء الكهنة خدمة الرعية كانت بيد الشعب، فلم يكن البطريك أو المطران يرسم كاهناً إلا بموافقة من كان يخدم من الشعب، وكان المرشح لهذه الرتبة يقدم صكاً من قومه يشهدون له فيه بالسيرة الصالحة والتقوى واستقامة الإيمان والعلم الكافي، ويتعهدون له بالطاعة والدخل اللازم لمعيشته. وكان الكاهن يُنتقى في غالب الأحيان من أبناء الوجهاء والأعيان تشريفاً له ولأسرته، وكان بيته يعتبر بيت الطائفة وديوانها، فيه يجتمعون أعيانها، ومنه تصدر القرارات في الملمات والظروف الاستثنائية، وكان المطران أو البطريك يجهز الكاهن لدى رسامته ببيان يذكر فيه اسم الكنيسة التي ارتسم فيها واسم الكنيسة التي ارتسم لخدمتها ووجوب تقديم الطاعة له والاحترام، وكان هذا البيان يدعى ستاتيكوناً يتلوه الكاهن في كنيسته لدى وصوله إليها وتسلمه الرعاية فيها، وقضت التقاليد الموروثة ببقاء هذا الكاهن في القرية التي رسم لها وعليها وبعدم عزله قبل محاكمته بموجب الناموس والقوانين المقدسة.

أما المبادرة في انتقاء الإكليروس فإنها كانت في يد البطريك أو مطران الأبرشية، فقد يلاحظ هذا السيد أن أحد الشبان يداوم على حضور الصلوات ويشترك فيها بالقراءة والترتيل، فيثبت من رصانته وتقواه ويقربه ويرغبه بالكهنوت، فإذا ما وثق من رغبة أكيدة غني بأمر تعليمه إما بذاته أو بواسطة من يعتمد عليه، ثم رسمه أناغنوسطاً وألبسه الصاية السوداء والقلنسوة الصغيرة، ويظل هو حرّاً في أمر البقاء في الخدمة أو تركها.

وقد يتميز أحد الوجهاء من أبناء الطائفة بالتنزه عما يُعاب وبصون العرض من الدنس وبعفة اليد واللسان والاندفاع في سبيل الكنيسة، فيمنحه البطريك أو مطران

الأبرشية لقب شماس الكنيسة فيزداد هو بهذا اللقب وجاهة وكرامة. وقد يسعى البعض لنيل هذا الشرف رغبة بما يناله من أجر وثواب. وكان الشامسة نوعين: شمامسة قلاية وشمامسة بيت وأعمال. وكان على شمامسة القلاية أن يعيشوا فيها ويقوموا ببعض الخدمات الإدارية والكنسية لابسين الثوب حافظين العفاف. وكان بإمكان هؤلاء أن يخلعوا الثوب ويتزوجوا زوجاً ناموسياً قبل ترقيتهم إلى رتبة شماس إنجيلي. أما شمامسة البيوت والأعمال فإنهم كانوا يزاولون صناعاتهم وتجاراتهم وأعمالهم العادية كسائر أفراد الشعب، ولا يأتون إلى الكنيسة إلا للاشتراك بالصلوات والاحتفالات الدينية.

ولم يذكر بولس بن مكاروريوس في أخبار الزيارة الرعائية التي قام بها والده سنة ١٦٤٨ من الأديرة في سورية سوى دير صيدنايا ودير مار جرجس الحميرة. وذكر دبري مار تقلا ومار سرقيس في جوار معلولة، ولكنه لم يذكر أن والده قدس فيهما. وليس هنالك أي ذكر لدير مار يعقوب قارة، وجاء في أخبار هذه الرحلة أن البطريرك زار دير السيدة كفتين ودير مار يعقوب دده ودير السيدة في البلمند ودير سيدة الرأس ودير مار إلياس شويا (الشوير)، وأنه قدس فيها جميعها. وجاء أيضاً أن البطريرك زار دير سيدة حماطورة ودير سيدة النورية ودير مار إلياس كفر قاهل، ولكنه لم يرد ذكر لإقامة القداس فيها، وأغفل الشماس بولس ذكر مار يوحنا الشوير ومار سمعان كفر عقاب، ولعل السبب في إهمال ذكر بعض الأديار وفي عدم إقامة القداس في غيرها أنها كانت قد أهملت فأمست غير لائقة بزيارة البطريرك أو بإقامة القداس فيها. والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو أن الاضطرابات وقلة الأمن وشدة الفقر كانت قد زعزعت الحياة الرهبانية في معظم هذه الأديار، وأن الديرين الوحيديين اللذين نالا شيئاً من العناية كانا دير صيدنايا ودير البلمند. ولا يخفى أن الأول كان ملجأً الدمشقيين المسيحيين والبطريرك والكهنة في أثناء الضيق والاضطراب وقبله أنظار الأرثوذكسيين في جميع أنحاء الكرسي الأنطاكي؛ لما اشتهرت به سيدته من الحماية والمعونة، وأن الثاني كان ملجأً الطرابلسيين وقد رعاه بعنايته يواكيم متروبوليت طرابلس فجدد بناءه في السنة ١٦٠٣.

المدارس الإكليريكية

ولم يكن هنالك مدارس إكليريكية عالية، وأمست قلايات المطارنة والبطريرك أفضل المدارس لرجال الإكليروس والكهنوت، فكان الأناغностس القائم يدرس في مدرسة الطائفة التابعة لها، فيقرأ الأسفار المقدسة وتفسيرها المعربة عن اليونانية ويُعنى عناية

خاصة بمواعظ القديسين يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير، ثم يعكف على تفهم كتاب المنطق ليوحنا الدمشقي أو غيره، ويتفهم عرض هذا القديس لقضايا الإيمان القويم فيجده في كتاب «المائة مقالة». وكان عليه أن يلم باللغة اليونانية قراءة وكتابة وباللغة العربية، وأن يجيد كتابتها، وأن يتعلم الطب ويمارسه لخير الرعية. ولكي ينال الخطوة والترقية في درجات الكهنوت كان عليه أن يكون سالمًا من كل عاهة بلا عيب، جميل المناقب حلو الشمائل رхим الصوت يجيد الترتيل باليونانية والعربية ليسبح الله في كنيسة و يذكر أمجاده بين المؤمنين، وإذا ما توفرت فيه هذه الشروط أو معظمها وأعظمها رقي إلى درجة شماس إنجيلي، ثم إلى درجة رئيس الشمامسة؛ أي أرشدياكون.

انتقاء الأساقفة

ويتضح من أخبار الأساقفة الذين تمت سيامتهم في هذا القرن السابع عشر أن عددًا كبيرًا منهم جاءوا من صفوف الكهنة المترملين فكانوا عاديين بعملهم وفضائلهم، وكان بعضهم غير لائق لتسليم العرش الأسقفي. ونخص بالذكر من هؤلاء أثناسيوس متروبوليت حمص ونسييه متروفانس متروبوليت حلب. وكانت المبادرة في انتقاء الأساقفة بيد البطريك والشعب، فإما أن يختار البطريك مرشحًا ويتصل بأعيان الأبرشية التي يريده أسقفًا عليها أو أن يتقدم الأعيان من البطريك بمرشح يريدونه أسقفًا عليهم، وكان لا بد من اتفاق الطرفين على المرشح، وقد يكون هذا المرشح كاهنًا مترملًا، وقد يكون راهبًا من رهبان القلايات أو الأديار المهمة في الكرسي الأنطاكي أو في فلسطين أو قبرص أو إحدى الجزر اليونانية أو أي بلد أرثوذكسي آخر. ويلوح لنا أن الكلمة الأولى والأخيرة في انتقاء المرشح كانت للبطريك نفسه، وأنه كان لا بد من اشتراك البطريك في الرسامة متعاونًا في ذلك مع بعض الأساقفة كما قضت شروط الشرطونية في جميع الكنائس، وكان لا بد من إصدار براكسيس بالسيامة يتضمن ذكر الرسامة وتاريخها، والمذبح الذي تمت عليه، والمذبح الذي أُجريت لأجله.

انتخاب البطريك

والبطريك في عُرف الكنائس الشرقية هو خليفة الرسل الأقطار ورئيس الكنيسة المحلية، وهو أيضًا رئيس العشيرة بأكملها؛ أي زعيم الطائفة التي يرأس، كما يدل على ذلك معنى

اللقب نفسه وكما تؤكد المراجع التاريخية. وكان البطريرك أيضًا أسقف كنيسة مدينة أنطاكية نفسها، فكان لا بدّ والحالة هذه من اشتراك أبناء مدينة أنطاكية في انتخاب البطريرك الجديد، ولا بدّ من موافقة أعيان الطائفة جمعاء. وبانتقال المركز البطريركي من أنطاكية إلى دمشق أصبح البطريرك الأنطاكي أسقف أنطاكية وأسقف دمشق أيضًا. ولم يجز أي انتخاب بطريركي أنطاكي بدون اشتراك المطارنة أصحاب الأبرشيات الخاضعة لأنطاكية، فهؤلاء هم الذين نصبوا البطريرك الجديد في عرشه، وهم الذين سلموه عكاز الرعاية، وهم الذين تولوا سيامته أسقفًا على الكتدرا البطريركية إذا كان كاهنًا أو شماسًا.

وكان على البطريرك الجديد أن ينال اعتراف السلطات الزمنية برئاسته ليمارس الحقوق التي نصّت عنها امتيازات محمد الثاني العثماني، وكان هذا الاعتراف السلطاني يصدر ببراءة سلطانية يمهّد لها البطريرك المسكوني ويسهل الحصول عليها، وكانت السلطات تتقاضى بعض الرسوم والهدايا، فلما دب الفساد إلى أداة الحكم تعاضمت هذه الرسوم بعض الرسوم والهدايا، فلما دبّ الفساد إلى أداة الحكم تعاضمت هذه الرسوم والهدايا وتنوعت، فاضطر البطريرك الجديد أن يتحملها لدى وصوله إلى العرش وأن يأخذها فيما بعد من واردات الكرسي، فنشأ عن هذا كله نوع من الدفع والقبض عُرف في الأوساط الإكلييريكية الأرثوذكسية بالسمعانية نسبة إلى سمعان طرابزون أول من تعاطى بها،^{١٧} وهي غير السموننة التقليدية التي نبذتها الكنيسة منذ أيام الرسل الأطهار. وأدى طمع الحكام في المال وطموح بعض الأساقفة إلى الشغب على البطريرك الجالس ومحاولة خلعه وإجلاس غيره محله وإلى غير ذلك من ظواهر الشر والفساد.^{١٨}

سر الاعتراف

وترادفت الأسقام وتوالت الأنصاب «فتخطى» الكهنة بعضهم بعضًا «ودفنوا وعمّدوا وقندلوا» بدون إذن صاحب الجمعة، فمنعهم مكاريوس عن ذلك، ومنع الكهنة الغريباء عن قضاء مصالح أهل المدينة. وكان المسيحيون يهجمون على تناول الأسرار في الأعياد

^{١٧} Papadopoulos, Th., Hist. of the Greek Church and People under Turkish Domination, ١٧

29, n. 2

^{١٨} Ibid., 30-31, 122-158

الكبيرة بدون اعتراف، فصدر أمر البطريك بوجوب إعطاء كل معترف بالخطايا ورقة تنبئ باعترافه يُظهرها في الكنيسة لدى تقدمه من جسد الرب ودمه.^{١٩}

مكاريوس والتعاليم البروتستنتية

واشتد الجدل في فرنسة في منتصف القرن السابع عشر بين أتباع كلوينوس وبين أبناء الكنيسة الغربية، وأنكر الكلوينيون أسرار الكنيسة وسلطانها وغير ذلك من العقائد الكاثوليكية الغربية. ثم انحصر الجدل في حقيقة وجود المخلص في سر القربان الطاهر واستحالة الخبز والخمر إلى جسد سيدنا ودمه. ودار الجدل مدة حول آيات الكتاب فأفحم الكاثوليكيون الغربيون الكلوينيين، فادعى هؤلاء أن هذه العقيدة جديدة في الكنيسة اخترعتها رومة منذ سنين معدودة. ثم اختلفوا في تعيين زمن الاختراع فحصره بعضهم في القرن السابع وآخرون في التاسع، وقال غيرهم: إن القول بالاستحالة لم يُعرف قبل القرن الثالث عشر. وزعموا أن آباء كنيسة الأرثوذكسية الجامعة وآباء الكنائس الشرقية الأخرى ينكرون وجود المسيح وجودًا حقيقيًا في سر الأفخارستية ويرذلون استحالة جوهر الخبز والخمر إلى جسد يسوع ودمه، فسعت الأوساط الكاثوليكية الغربية لدى السلطات الروحية الشرقية في تحصيل شهادات رسمية في معتقد هذه الكنائس الشرقية، فهب هؤلاء للدفاع عن هذا السر المقدس وقدم بطاركة الأقباط والأرمن واليعاقبة ما أثبت اشتراكهم مع رومة في قول واحد بسر الأفخارستية.^{٢٠}

ودبح مكاريوس في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة ١٦٧١ رسالة في الرد على «الأراطقة الحديث ظهورهم الموجودين في بلاد غاليا؛ أي فرنسا وغيرها من البلاد الإفرنجية المقول لهم القلوينيون الذين أنكروا سائر تقاليد الكنيسة الشرقية وغيروا وأبطلوا سائر ما وضعه الرسل الإلهيين والآباء القديسين أصحاب المجامع السبعة المسكونية، وأنكروا عادات الكنيسة الشرقية ونقضوا منها ثلاثة عشر اعتقادات صالحة.» ولا تزال مكتبة باريز الوطنية تحفظ نسخة رسمية عن هذه الرسالة، ولعلها بخط

^{١٩} «سفرة البطريك مكاريوس»، ص ١١٢.

^{٢٠} «الآثار الشرقية في مكاتب باريز»، للأب أنطون رباط اليسوعي: «المشرق»، ١٩٠٣، ص ٥٠٢-٥٠٤.

صاحبها،^{٢١} وقد نشرها الأب أنطون رباط في مجلة «المشرق»، ١٩٠٧،^{٢٢} وإليك خلاصة هذه الرسالة بلغة واضعها:^{٢٣}

الرأس الأول: قولهم عن الأسرار الطاهرة بأنها بعد تقديم الكاهن لها على المذبح وقوله عليها الكلام الجوهرى بأنها تصوير شبه جسد المسيح ودمه، وليس هي بالحقيقية جسده ودمه. واعلم أن الإنجيلية الأربعة كل واحد منهم أخبر بإلهام الروح القدس بعض عجائب المسيح وجزء من وصاياه. وأما عن هذه الأسرار المقدسة فإنهم كلهم أخبروا عنها بإفصاح، وأنه قال عن الخبز والخمر الذي قدمه لهم بأن هما جسده ودمه الخاصيان بالحقيقة، فكيف يكون شبه جسده، فالقائلين هذا الكلام قد كذبوا وكذبوا إنجيل سيدنا يسوع المسيح، وكذبهم فهو تلقين الشيطان وهو ظاهر مثل الشمس.

الرأس الثاني: وقالوا بأن الخبز والخمر في تمام الذبيحة ليس ينتقلان ولا يستحيلان من جوهرهما الخاصي. فاعلم أن السيد المسيح لم يقطع لحمًا من جسده، ولا أخرج منه دمًا وأعطاها لتلاميذه، لكنه قدم لهم خبزًا وخمرًا وقال لهم بأن هذا هو جسدي وهذا هو دمي، فليخزوا إذن القائلين عن هذه الأسرار بأنها شبه جسده ودمه.

الرأس الثالث: ثم ذكروا هؤلاء المخالفين أن عمل القداست ليس فيه منفعة للأحياء والأموات. فاعلم بأن الآباء القديسين أمرونا بأن نذكر الأحياء والأموات في كل صلاة وقداست، وجعلوا قداست أيام السبوت كلها لأجل نياح الراقيين، وقد أمرنا بذلك ديونيسيوس قاضي العلماء وباسيليوس الكبير وغيغوريوس الثاولوغوس ويوحنا فم الذهب وأثناسيوس الكبير، فمن فعلها كان تابعًا لهؤلاء القديسين، والذي ينكرها فهو من الأراطقة المخالفين.

الرأس الرابع: ثم قالوا هؤلاء الأراطقة بأن من يتناول الأسرار المقدسة ليس يتناولها بتمامه حقيقًا. فاعلم بأن قد تقلدنا بأن الكاهن يتناول سائر ما قدمه ذلك اليوم، والعلماني الذي يتناول من الأسرار جزءًا يسيرًا فإن هما قد تناولوا جسد المسيح ودمه

^{٢١} Cat. Mss. Arabes, 224, p. 57.

^{٢٢} «الطوائف الشرقية وبدعة الكلويينيين»، ص ٧٦٦-٧٧٣ و ٧٩٥-٨٠٢.

^{٢٣} وتوقيع حفيده كيرلس الثالث كما جاء في متن رسالة كيرلس إلى البابا إقليمس الحادي عشر بتاريخ ٢٠ آب سنة ١٧١٦، وسيرد نصها كاملاً في الفصل الآتي.

بتمامه وليس جزءاً منه، ومن يتناول شيء يسير من جسد المسيح ودمه يتناول المسيح بتمامه كمثل من ينظر وجهه في المرآة ينظر جسده وصورته بتمامه، وكذلك إذا قطع تلك المرآة فإنه ينظر في قطعة منها صورته بتمامها. والكاهن يقول قبل تناول الأسرار نفصل ونقسم حمل الله تقسيمًا ونأكل منه كل حين وهو غير منتقصًا.

الرأس الخامس: ثم إن هؤلاء الأراطقة ينكرون سائر الأصوام المفروضة علينا من الله. فاعلم يا هذا بأن أول وصية أمر الله بها لأبينا آدم قوله: من هذا كُلْ ومن هذا لا تأكل. فمن ها هنا أبان فريضة الصوم. وموسى صام أربعين يومًا وإيليا صام أربعين يومًا ودانيال صام ثلاثة أسابيع. ثم سيدنا يسوع المسيح اعتمد وصعد إلى الجبل وصام أربعين يومًا. وعلمنا بأن كل معتمد يجب عليه في كل سنة بأن يصوم أربعين يومًا، وهكذا رسله القديسين بعد صعوده إلى السماوات عملوا مجمع مقدس في أورشليم ووضعوا فيه قوانين كثيرة مشهورة، ومن جملتها أمروا المسيحيين بأن يصوموا في كل أسبوع يومي الأربعاء والجمعة، وأن يصوموا الصيام الكبير في كل سنة مثلما صام سيدنا يسوع المسيح. وكذلك الآباء القديسين وضعوا في المجمع المقدسة قوانين كثيرة شرعت لنا الأصوام المقدسة، وهكذا قلدوا أولاد البيعة الأرثوذكسيين جيل بعد جيل أن يحفظوا ذلك إلى انقضاء العالم.

الرأس السادس: ثم إن هؤلاء الأراطقة يقولون أن لا يجب تكريم القديسين؛ لأنهم لا ينفعون أحدًا من الذين يكرمونهم أصلًا بالتجائه وتضرعه إليهم. فاعلم يا هذا بأنه إذا كان تكريم القديسين ليس هو بواجب فلماذا كرمهم الله تعالى في العتيقة وصنع على أيديهم المعجزات العظيمة، وقال عن داود اعضد مدينة أورشليم لأجلي ولأجل داود عبدي، وكيف لا يجب إكرامهم وهم أحباء المسيح وورثاؤه؟ وكيف لا ننشئ هياكل لله باسمهم ونقرب النذور لهم ونكثر التوسل إليهم، ولا سيما سيدتنا العذراء والدة الإله مريم رجاء الذين ليس لهم رجاء.

الرأس السابع: ثم إن هؤلاء الأراطقة يحاربون الأيقونات المقدسة ويدعونها أصنام. فاعلم بأن سيدنا يسوع المسيح شمس العدل استبانت صورة وجهه المقدسة بألوان من الأصباغ على السبنية التي أرسلها أبجر ملك الرها وظهر منها عجائب لا تُرام ولا تحصى. وأيضًا بعد صعود السيد المسيح عمل لوقا أيقونة سيدنا يسوع المسيح ثم أيقونتين الرسولين بطرس وبولص، ثم زوق ثلاث أيقونات على اسم سيدتنا والدة الإله. وبعد تكميلهم ذهب إلى عند والدة الإله؛ لأنها كانت بعد بالحياة وأخبرها بما

فعله وطلب إليها أن تمضي معه وتشاهدهم وتباركهم، فذهبت وحين نظرت تبسمت ثم باركتهم وقالت: النعمة التي خرجت مني وكانت فيّ تكون عليهم وفيهم. وإكرام الصورة وأصل إلى عنصرها الأول كما قال القديس باسيليوس الكبير. والآباء القديسين أصحاب المجمع السابع المسكوني قد افرزوا كل من لا يسجد للأيقونات المقدسة، وأحرموا الذين يزعمون أن المسيحيين يؤلهونها.

الرأس الثامن: ويقولون هؤلاء الأراطقة بأنه لا يجب أن يكون في الكنيسة طغمة الكهنوت. فاعلم بأن الكنيسة تدعى سماء أرضية، وكما أنه في السموات طغمت الملائكة تسعة يخدمون الله ويسبحونه، فهكذا في كنيسة المسيح التي على الأرض طغمت الكنيسة المقدسة يخدمون الله ويمنحون نعمة الكهنوت، وهم منصوبين بأمر الله وينيلون المواهب للمؤمنين، والقديس باسيليوس يقول في قداسه اذكر يا رب الكهنة خدام المسيح وكل طغمت الكهنوت.

الرأس التاسع: وقال أيضًا هؤلاء الأراطقة بأن ليس يجب أن يكون في الكنيسة أسقفًا. فاعلم أن درجة الأساقفة ضرورية ولازمة في البيعة الأرثوذكسية لأجل تدبير المسيحيين؛ لأن الأسقف تفسيره المشرف والراعي للرعية، والسيد المسيح يقول عن نفسه: أنا هو الراعي الصالح، وهو الذي قبل آلامه سام يعقوب الرسول ابن يوسف وجعله أول أسقف على أورشليم، وهو الذي بعد قيامته المقدسة قال لبطرس: ارفع خرافي! وبولص الرسول يقول: تيقظوا لأنفسكم وللرعية الذي أقامكم الله عليها أساقفة!

الرأس العاشر: وقالوا هؤلاء الأراطقة بأن كنيسة المسيح قد أخطت وما أصابت بحيث إنها أفرضت ووضعت قوانين لا يجب حفظها. اعلم بأن بيعة المسيح الكاثوليكية لم تخطئ أصلًا، وهي منظورة دائمًا على الأرض وعادمة للضلالة، وهي أساس الحق وعمده ومعها المسيح إلى انقضاء العالم، وفيها البارقليط وثابت معها إلى الأبد. وهو الذي ألهم ونطق على ألسن الرسل الإلهيين والآباء القديسين بأنهم وضعوا فيها نواميس والقوانين والسنن والفرائض. ولم يخطوا بذلك لكنهم أصابوا، وكانت جميع أقوالهم بالشرعية والحقيقة والطريقة. والقديس باسيليوس الكبير يقول في قداسه نحو الرب: وأيضًا نطلب منك يا رب أن تذكر كنيستك المقدسة الجامعة من أقصى المسكونة إلى أقصاها التي اصطنعتها بدم مسيحك الكرم وسلّمها وثبت هذا البيت المقدس إلى انقضاء الدهر.

الرأس الحادي عشر: وقالوا هؤلاء بأن أسرار الكنيسة السبعة ليس هم حقيقة. فاعلم بأن الأنبياء والرسل تكلموا فيهم وذكروا عن سبعة أرواح الله، وبعضهم دعاهم مواهب وبعضهم نعم. وبالحقيقة إنهم سبعة مواهب؛ العماد والميرون والأسرار المقدسة والاعتراف والزيت المقدس للمرضى وإكليل الزواج والكهنوت.

الرأس الثاني عشر: ثم إن هؤلاء الأراطقة لم يعتقدوا بتحقيق في الكتب المقدسة كلها. فاعلم بأن الكتب المقدسة هي الأساس إلى أمانتنا، وليعلم هؤلاء المخالفين أننا نقبل كافة الكتب المقدسة الإلهية التي ذكرها في مجامع البيعة الأرثوذكسية وفي سائر الكتب التي للآباء القديسين، ومنها الأبوكاليبسيس ورسالة يعقوب أخو الرب وطوبيا ويوديت وسفر حكمة سليمان وسفر الجامعة وباروخ النبي والمكابيين، فجميعهم نقبلهم ونقرؤهم في الكنيسة المقدسة الطاهرة الأرثوذكسية.

الرأس الثالث عشر: ثم إن هؤلاء الأراطقة يشنعون عنا لأجل أننا متمسكون بتقليدات الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة المقدم ذكرها. اعلم أن هذه الرؤوس المقدم ذكرها قد تسلمناها من الرسل الإلهيين والآباء القديسين، ولعرفتنا بأنها اعتقادات صالحة محقة اعتقدنا فيها اعتقادًا كليًا من صميم القلب وبصدق اللسان، وليخزوا القائلين كذبًا عن كنيستنا الطاهرة المقدسة أنها تمسكت باعتقادات رومية فلتخرس أسنتهم. ونحن حين وكدنا الحق كتبناه بخط يدنا وختمناه بمدينة دمشق المحروسة، أنا الفقير مكاروريوس بطريك مدينة الله أنطاكية العظمى في اليوم العشرون من شهر تشرين الأول سنة ١٦٧١ مسيحية، الموافق لسنين أبونا آدم سبعة آلاف ومائة وثمانين وللهجرة ألف واثنين وثمانين. ونحن بالله نستعين له المجد سرمدًا، المجد لله دائماً مكاروريوس برحمة الله تعالى البطريك الأنطاكي وسائر المشرق.

وهذا الاعتقاد المفسر بلسان سيدنا البطريك فهو اعتقادنا نحن جماعة الروم وشهرتُ به أنا الحقير غريغوريوس باسم مطران بصرى وحران، وأنا الحقير يواكيم مطران حمص أقر وأعترف بهذا الاعتقاد، وأنا الخوري يوحنا بن طاشات وأنا أيضًا الخوري يوسف بن صيدح وأنا الخوري عبد العزيز هلال وأنا الخوري مخايل علم وأنا الخوري مخايل نقاش، أقر وأعترف بهذا الاعتقاد. أقر وأعترف بهذا الاعتقاد بقلبي وفمي أنا الحقير في الكهنة الخوري يوحنا المكنى بابن الذيب وأنا الخوري جرجس أقر وأعترف بهذا الاعتقاد بقلبي وفمي ونيتي وأنا القسيس موسى وأنا القسيس يوسف.

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد، وإن بعد وضع ختمنا وخط يدنا على ما شرحنا أعلاه من الرؤوس السابق ذكرها سمعنا عن هؤلاء المخالفين المذكورين أنهم قد زادوا في تجديفهم المتقدم قولنا عنه، وبطلوا رسم الصليب على جبهاتهم ولم يعلموا أن هذه عادة مأخوذة من زمن سيدنا يسوع المسيح؛ لأنه كان حين يكسر الخبز كان يختمه شكل الصليب على ما تقلدنا ذلك من باسيليوس الكبير وغيره من القديسين، وكذلك كانوا يفعلون رسل المسيح، وهكذا القديس أغناطيوس المتوشح بالله بطريك مدينة أنطاكية أمر المسيحيين أن يفعلوا هكذا ومنه اشتهر هذا الأمر في سائر المسكونة. فمن هذه الجهة صار رسم الصليب لازماً لسائر المسيحيين أن يرسموه على جبهاتهم وأجسادهم ليتقدسوا به وتنطرد عنهم الشياطين.

الرأس الثاني: من أجل الرهبنة وشروطها ونذورها وقالوا هؤلاء المخالفين بأن الشيطان قد أبدعها. فاعلم أن قبل مجيء سيدنا يسوع المسيح استساروا بهذه السيرة إيلياس النبي ويوحنا المعمدان، وحين حضر سيدنا يسوع المسيح فأراد أن يثبت هذه العادة الصالحة فقال: من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني.

الرأس الثالث: وقالوا هؤلاء المخالفين بأن ليس لأحد من البطارقة ورؤساء الكهنة المعظمين سلطة بأن يمنح لأحد المسيحيين استغفارات لخطاياهم وتكون نافعة للأحياء والأموات الذين فعلوا جنایات وعليهم قوانين. فاعلم بأن ربنا له المجد في أماكن كثيرة قال لرسله القديسين: كل ما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، ومهما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماء، وثم إنه بعد قيامته نفخ في وجه تلاميذه وقال لهم اقبلوا الروح القدس أن تتركتم لقوم خطاياهم تترك لهم ومن أمسكتموها عليهم فلتمسك.

الرأس الرابع: ثم قالوا هؤلاء المخالفين بأن الله وضع على الناس وصايا ثقيلة لا يقدرון على فعلها، وأنه لا يساعدهم بنعمته ومعونته الكافية. والجواب قال: تعالوا إلي أيها المتعبين والثقيلين الأحمال وأنا أريحكم، احملوا نيري فإنه صالح وحملني خفيف.

الرأس الخامس: وقالوا هؤلاء المخالفين أن المسيح ليس مات عن جميع الناس، بل عن بعض منهم فقط؛ لأنه لم يريد خلاص الكل. فاعلم بأن هذا الكلام مخالف للشریعة المسيحية؛ لأن بولص الرسول يقول: لما كانوا جميع الناس خطاة مات المسيح عنهم ليخلصهم، وقال هو تعالى اسمه ما أتيت لأدعو الصادقين، بل الخطاة إلى التوبة.

الرأس السادس: وقالوا هؤلاء المخالفين بأن زيارة الأماكن المقدسة باطلة. فكيف أمر الله موسى بأن يأمر بني إسرائيل بأن يزورا أورشليم؟ وكيف كان رسل المسيح يطوفون المسكونة ويعودون إلى أورشليم ويسجدون فيها؟ وأكثر القديسين المعظمين ذهبوا إلى هذه الأماكن المقدسة وسجدوا بها وحظوا بنعمة الروح القدس.

الرأس السابع: وذكروا هؤلاء المخالفين بأن الزيجة مسامح بها للرهبان والأساقفة وليس عليهم بذلك خطية. فاعلم بأن كل هؤلاء الأساقفة والرهبان قبل أن يلبسوا الأسكيم الملائكي كانوا قد نذروا على نفوسهم باختيارهم من غير إكراه ولا اغتصاب بأنهم قد أوقفوا أجسادهم هياكلًا لله، ثم إن رسل المسيح والآباء القديسين جميعهم أمروا الأساقفة والرهبان بعدم الزيجة واستعمال العفة والطهارة.

الرأس الثامن: ثم قال هؤلاء الأراطقة بأنه ليس يجوز للمسيحيين بأن يصلوا في كنائسهم بألفاظ غريبة لا يعرفها أهل البلاد، فاعلم بأن الرسل القديسين تكلموا في سائر اللغات وخلفوا لنا بأن نصلي بأفضلها، وأن الشعب تتقدس مسامحه بتلاوة هذه الألفاظ الطاهرة إذا سمعوها الملائكة يحضروا والشياطين يهربون من قوتها، ولأجل ذلك نستعمل اللسان اليوناني والسرياني في كنائسنا ومنازلنا.

ومهما شرحناه في هذه الدروس فهو من اعتقادنا القويم رأيه ووكدنا حقه بخط يدنا وختمناه في مدينة دمشق المحروسة في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٦٧١ مسيحية، الموافق لسنين أبونا آدم سنة ٧١٨٠، المجد لله دائماً مكاروريوس برحمة الله تعالى البطريرك الأنطاكي وسائر المشرق، هكذا آمنت أنا الحقير غريغوريوس مطران بصرى وحواران، وأقر أنا المطران يواكيم بهذه الأمانة.

أمولوغية دوسيئوس أو رسالة البطاركة (١٦٧٢)

وعُني دوسيئوس بطريرك المدينة المقدسة (١٦٦٩-١٧٠٧) بترميم سقف كنيسة المهد، فلما انتهى من عمله هذا دعا في أوائل السنة ١٦٧٢ الكنائس إلى الاشتراك معه في التدشين، فاجتمع في بيت لحم في العشرين من آذار واحد وسبعون إكليريكاً عالياً بينهم البطريرك والمتروبوليت ورئيس الأساقفة والأسقف. وتفاوض المجتمعون في شئون الكنيسة الجامعة فأقروا أموراً أهمها الرد على ما كان قد ذهب إليه كيرلس (لاسكارس) البطريرك القسطنطيني في موقفه من كلوينوس وبعض آرائه الدينية الفلسفية. وأعد هذا الرد

دوسيثيوس البطريك الأورشليمي، فنُسب إليه وعُرف فيما بعد بأمولوغية Omologia دوسيثيوس، وجاء في ثمانية عشر بندًا تتلوها أجوبة أربعة على أربع مسائل. ثم تبني البطارقة في مجمع عقده في القسطنطينية في السنة ١٧٢٣ هذه الأمولوغية فيما أرسلوه إلى الروس وما دعوه الإكثيسيس الأرثوذكسي Ekthesis، واشترك في توقيع هذا الإكثيسيس كلٌّ من أرميا بطريك القسطنطينية وأثناسيوس بطريك أنطاكية وخريسنثوس بطريك المدينة المقدسة وعدد من أعضاء المجمع القسطنطيني المقدس، وأطلق الرؤساء الروحيون في روسية على هذا الإكثيسيس الاسم رسالة البطارقة، فُعُرف به أيضًا منذ ذلك الحين،^{٢٤} وإليك تعريب الأمولوغية كما أعدّه الشماس غفرائيل كرابتاكيس في السنة ١٩٠٤ وأقره البطريك الأورشليمي زاميانوس في التاريخ نفسه:

القضية الأولى: نؤمن بالله واحد حق ضابط الكل لا حدَّ له أب وابن وروح قُدس، أب غير مولود وابن مولود من الأب قبل كل الدهور ومساوٍ له في الجوهر، وروح قُدس منبثق من الأب ومساوٍ للأب والابن في الجوهر. وهذه الأقانيم الثلاثة نسميها ثالوثًا أقدس في جوهر واحد تباركه البرايا بأسرها في كل حين وتمجده وتسجد له.

القضية الثانية: نؤمن بأن الأسفار الإلهية موحى بها من الله؛ ولذلك يجب علينا أن ننق بها غير مرتابين، ونصدقها دائمًا على حسب ما فسرتها وسلمتها لنا الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية. نعم إن أصحاب البدع الرجسة يقبلون هم أيضًا الأسفار الإلهية، ولكنهم يحرفون فيها الكلمات عن مواضعها بادعاء ترادف الكلمات والتأويل والسفسطة بمقتضى حكم العقل والحكمة البشرية، خالطين فيما لا خلط فيه ومتلاعبين فيما لا يباح التلاعب فيه. فلو صح ذلك وانفرد كل واحد بالرأي لما كانت كنيسة المسيح الجامعة حاصلة، مع تمادي الأيام إلى يومنا هذا، على وحدة الرأي من جهة الإيمان والثبات الدائم بدون تزعزع في اعتقاد واحد، ولما كانت الكنيسة عمود الحق وقاعدته ولا خالية من الدنس والعيب، بل كانت تنشق بالبدع إلى فرق شتى فتصبح مجتمع أشرار خبيثاء، وهو ما صارت كنائس الهرطقة والحال ظاهرة بلا إشكال. وهؤلاء مع كونهم قد تعلّموا من الكنيسة الجامعة فإنهم يرفضونها عن خبث ورداءة. أما نحن

Papadopoulos, Ch., Dositheos, Nea Sion, 1907, 97-168; Hardouin, Acta Conciliorum, ^{٢٤}

.XI, 179-274; Florovsky, G., The Orth. Churches and the Ecumenical Mvt., 182-188

فإننا نعتقد أن شهادة الكنيسة الجامعة ليست أقل من شهادة الأسفار الإلهية؛ لأن مبدعها واحد هو الروح القدس. وإذا كان مصدر شهادة الكنيسة؛ أي التقليد الشريف وشهادة الأسفار الإلهية واحدًا فلا مشاحة في أن تعليمها أيضًا واحد. ثم إنه إذا تكلم إنسان أيًا كان من عنده فمن الممكن أن يخطئ ويضل ويضل، أما الكنيسة الجامعة فإن كانت لم تتكلم قط ولا تتكلم أبدًا من تلقاء نفسها، بل إنها تكلمت وتتكلم من الروح القدس «الذي يغني المعلم أيضًا إلى الدهر»، فلا يمكن أصلًا أن تخطئ أو تضل أو تضل، بل هي متفقة مع الكتاب الإلهي، وهي ثقة على الدوام فيما تعلّمه.

القضية الثالثة: نؤمن بأن الله الفائق الصلاح منذ الأزل قد اختار البعض فعينهم للمجد ورفض آخرين فسلمهم للدينونة، ولكنه لم يشأ تبرير الأولين ولا دينونة الآخرين على بسيط الحال وبدون علة؛ فإن ذلك لا يليق بالله جلّ شأنه أبي الكل الذي ليس عنده محابة الوجوه، إن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون (تيموثاوس ٢: ٤)، بل نظر أن الأولين يستعملون حريتهم حسنًا والآخرين رديئًا، فأنال أولئك ما عيّنهم له وقضى على هؤلاء. ونحن إنما نفهم باستعمال الحرية أن النعمة الإلهية المنيرة التي ندعوها إعدادية الموهوبة بفرط الصلاح الإلهي نورًا للموجودين في الظلام الذين يريدون أن ينصاعوا لها؛ لأنها إنما تنفع من يريد لا من لا يريد، وأن يرتضوا بما توصي هي به مما هو ضروري للخلاص، نقول إن هذه النعمة تمنحهم نعمة خصوصية تساعدهم وتقويهم وتجعلهم ثابتين في محبة الله؛ أي فيما يريد الله أن يفعلوه من الخير مما فرضته النعمة الإعدادية، وتكملهم وتبرّهم وتجعلهم معينين للخير بسابق التحديد. أما الذين لا يريدون أن ينصاعوا للنعمة ويرتضوا بها ومن ثم لا يعملون بما يريد الله أن يفعلوه، بل يستخدمون الحرية التي نالوها من الله لاستعمالها طوعيًا في فعل الخير ويستعملونها في الحركات الشيطانية، فهؤلاء يدفع الله إلى الدينونة الأبدية. أما ما يقوله الهرطقة من أن الله تعالى يسبق فيحدد البعض للخلاص والبعض للدينونة بقطع النظر عن أعمال كل منهم، فإننا نعتبره قولًا شنيعًا مردودًا دنسًا جدًّا، فلو كان ذلك صحيحًا لنا قضت الأسفار الإلهية بعضها بعضًا؛ لأنها هي تعلم أن المؤمن يخلص بالأعمال، وأن الله تعالى إنما هو السبب بمنحه النعمة المنيرة قبل الأعمال لكي توضح للإنسان حقيقة الإلهيات، وتعلّمه أن ينصاع لها إن شاء، ويفعل الخير وما هو مرضي عند الله فينال الخلاص، فالطاعة لله أو عدم الطاعة له لا تقتضيان إرادة الإنسان أو عدم إرادته. أوليس هوسًا بل جنونًا الزعم بأن الإرادة الإلهية هي علة للأعمال تفعل

عفوًا أو بدون داعٍ؟ أولاً يكون هذا الزعم وشاية بحق الله جلَّ شأنه، وتظلمًا وتجديفًا عليه تعالى، فإننا نعتزف بأن الله بريء من الشر يريد خلاص الجميع على السواء، وأنه لعدله يسمح بدينونة للذين ضلوا بسوء إرادتهم وصلابة قلوبهم وعدم توبتهم خطاة دنسين، فلا نزع البتة بكون الله القائل إنه يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب سببًا للعذاب الأبدي وينبوع قساوة وعدم تحنن ومقت للبشر، معاذ الله أن نؤمن بمثل ذلك أو يتبادر فهمنا إليه ما دمنا غير فاقدي الشعور، وإننا نوثق الذين يقولون مثل ذلك ويعتقدون به بالجرم الأبدي ونعتزف بأنهم أقبح كل الكافرين.

القضية الرابعة: نؤمن بأن الله المثلث الأقانيم الآب والابن والروح القدس هو خالق كل ما يُرى وكل ما لا يُرى، ونعني بما لا يُرى القوات الملائكية وكل النفوس الناطقة والشياطين، على أنه من المعلوم أن الله لم يخلقهم شياطين، بل هم من تلقاء إرادتهم أمسوا كذلك.

وبما يرى نعني السماء وكل ما تحتها، ولما كان الخالق — سبحانه وتعالى — كلي الصلاح بالطبع صنع كل ما صنعه حسنًا جدًّا، ولا يمكن أن يكون خالق الشر أصلًا، فإن رأينا في الإنسان أو الشيطان شرًّا ما؛ أي خطيئة حادثة على خلاف الإرادة الإلهية فيكون ذلك صادرًا إما عن نفس الإنسان أو نفس الشيطان، فإنه لا شر في الطبيعة مطلقًا، وهي قاعدة صادقة ثابتة أن الله ليس بخالق الشر، وبالتالي فلا يحق أن يحكم على الله بخلق الشر.

القضية الخامسة: نؤمن بأن كل المخلوقات منظورة كانت أم غير منظورة تسوسها العناية الإلهية، فالشرور كيفما كانت يسبق الله فيعرف ويسمح بحدوثها، ولكنها لا تحدث عن عناية له؛ إذ ليس هو خالقها، ولكنه عملاً بصلاحه الإلهي يحولها أحيانًا بعد حدوثها إلى شيء أفضل على قدر طاقة البشر؛ ولذا فإنه يفرض علينا والحالة هذه أن نحمل العناية الإلهية لا أن نبحث في أحكامها المكنونة وغير المعلنة لنا البتة، بل كل ما سلمتناه الأسفار الإلهية عن هذه العناية الإلهية يجب علينا أن نبحث فيه بطيب خاطر وسلامة ضمير؛ لأنه يجدي نفعًا للحياة الأبدية. وبالتالي فإنه يجب أن نقبل المعاني الأولية على الله — سبحانه وتعالى — بدون شك ولا ارتياب فيها.

القضية السادسة: نؤمن بأن الإنسان الأوَّل المخلوق من الله في الفردوس سقط بغواية الحية وخالف وصية الله، فنتجت الخطيئة الجدية بالتسلسل، فلم يولد أحد بدون أن يكون حاملًا على عاتقه هذا العبء ويشعر بعواقب هذه الخطيئة في هذا الدهر. وبقولنا

عباً وعواقب لا نعني الخطيئة كالكفر والتجديف والقتل والعداوة وما شاكل ذلك مما يضاد مشيئة الله لحدوثه لا حدوداً طبيعياً، بل عن خبث إرادة، فإن كثيرين لم يكونوا قد ارتكبوا ما أشبه تلك الزلات كالأجداد والأنبياء وغيرهم وكثيرين لا يحصون عدداً ممن عاشوا في شريعة الظل شريعة الحق مثل يوحنا السابق الإلهي، ولا سيما مريم أم كلمة الله الدائمة، بل بقولنا عباً وعواقب نعني اقتراب الشر منا، وكل ما نال الإنسان بالمعصية من قبل العدل الإلهي قصاصاً له كعرق التعب والضيقات والأمراض الجسدية وأمخاض الولادة والعيشة بالشقاء والأتعاب في دار الغربة هذه، وأخيراً الموت الجسدي.

القضية السابعة: نؤمن بأن ربنا يسوع المسيح ابن الله قد احتمل الإخلاء؛ أعني أنه قبل في أقنومه الخاص البشارة؛ إذ حُبِلَ به من الروح القدس في بطن الدائمة البتولية مريم، وتأنس وولد دون أن يسبب وجعاً أو مخاضاً بمن صارت أمه بالجسد أو أن ينزع بُتوليتها. وأنه تألم وقُبر وقام بمجد في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد إلى السماء وحُبِسَ عن يمين الله الآب، ونحن ننتظر مجيئه الثاني لبيدين الأحياء والأموات.

القضية الثامنة: نؤمن بأن ربنا يسوع المسيح هو الوسيط الوحيد، وأنه بذل نفسه فداء عن الكل وأجرى بدمه الخاص المصالحة بين الله والناس، وأنه يعتني بخاصته فهو المعزي والكفارة عن خطايانا، ونعترف أيضاً بأن القديسين هم شفعاء في صلواتهم وتوسلاتهم إلى الرب، ولا سيما أم كلمة الله الكلية الطهارة والملائكة القديسين الذي نعتبرهم شفعاء لنا والرسل والأنبياء والشهداء والأبرار، وكل الذين مَجَّدَهم الله جلَّ جلاله لكونهم خدماً أمناء له، ونحصى في مصافهم رؤساء الكهنة والكهنة أيضاً لكونهم أشخاصاً دأبهم المثول أمام المذبح الإلهي، وكذلك الرجال الصديقون المختارون بفضائلهم؛ وذلك لأننا نتعلم من الأقوال الإلهية أن نصلي بعضنا من أجل بعض، وأن صلاة الصديق تُقَدِّرُ كثيراً، وأن الله يستجيب للقديسين أكثر مما يستجيب للمنغمسين في الخطايا، ونعترف أيضاً بأن القديسين لا يكونون وسطاء وشفعاء وهم في دار الغربة هذه فقط، بل بعد الموت أيضاً وخاصة متى تخلصوا من المرأة فصاروا يشاهدون عياناً الثالث الأقدس الذي بنوره غير المحدود تنجلي لأذهانهم معرفة شئونا. لأننا كما لا نرتاب بأن الأنبياء وهم بالأجساد يعلمون الأمور السماوية، وبه يوحون إلى الناس المستقبلات، كذلك لا نشك بأن الملائكة أيضاً ومن أصبحوا كالملائكة من القديسين يعلمون أمورنا بواسطة ذلك النور الإلهي الذي لا حدَّ له، بل بالأحرى نؤمن نحن بذلك ونعترف به من دون أدنى ارتياب.

القضية التاسعة: نؤمن بأن لا أحد يخلص بدون إيمان، والإيمان في عرفنا هو الاعتقاد القويم بالله ولا بالهيات، فهذا الإيمان عندما يفعل بالمحبة؛ أي بالوصايا الإلهية، يبررنا لدى المسيح، وبدونه لا يمكن أن نسترضي الله.

القضية العاشرة: نؤمن بأن الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية الأرثوذكسية التي تعلمنا أن نؤمن بها تضم في أحضانها كل المؤمنين بالمسيح عمومًا؛ أي الموجودين في دار الغربه هذه ولم ينتقلوا بعد إلى الوطن السماوي. فبعض الهرطقة يتوهمون أننا نخلط بين الكنيسة التي في دار الغربه هذه والتي في الوطن؛ وذلك لأن أعضاءهما هم خراف لله رئيس الرعاة، وأنهم يتقدسون بالروح القدس الواحد. ولكن زعمهم هذا لا محل له وهو غير ممكن، فالأولى من الكنيستين لا يزال تجاهد إلى الآن وهي في الطريق، والثانية قد حازت الظفر ونالت الجائزة واستقرت في الوطن، ولما كان غير ممكن للإنسان المائت أن يكون رأساً أبدياً لهذه الكنيسة الجامعة كان من الواضح أن رأسها هو ربنا يسوع المسيح نفسه القابض بيمينه على إدارتها ومديرها بالآباء القديسين، ومن ثم جعل الروح القدس لكل كنيسة على حدة من الكنائس التي يحق أن تدعى كنائس، وهي مؤلفة من أعضاء حقيقيين مدبرين ورعاة هم رؤساء على وجه الحقيقة لا المجاز ينظرون إلى رأس خلاصنا مكمله وإليه وحده يعززون إتمام الفعل المختص بالرئيس. إن الهرطقة قد أضافوا إلى بدعهم الشنيعة اعتقادهم بأن الكاهن ورئيس الكهنة هما واحد لا فرق بينهما، وأنه يمكن على ذلك أن يُستغنى بالأول عن الثاني، وأن الكنيسة تُسّاس بواسطة بعض الكهنة فقط، وأن كاهناً يمكنه أن يشرطن كاهناً، وأن عددًا من الكهنة يشرطون رئيس كهنة.

وعن خبث يزعمون متشدين بأن الكنيسة الشرقية تشاركهم بهذا الاعتقاد، أما نحن فاستنادًا إلى رأي الكنيسة الشرقية منذ القديم نعتزف بأن رتبة رئيس الكهنة هي بهذا المقدار ضرورية للكنيسة، حتى إنه بدونه لا يمكن وجود كنيسة ولا وجود مسيحي أو تسميته بذلك، فإن رئيس الكهنة بصفته خليفة للرسول وبنوالة على التسلسل من الرب بوضع الأيدي واستدعاء الروح القدس موهبة الحل والربط الممنوحة لهم، إنما هو صورة لله حية على الأرض وبمساهمته كمال فعل الروح القدس هو مصدر لجميع أسرار الكنيسة الجامعة التي بها ننال الخلاص، فأصبح وجوده في الكنيسة والحالة هذه ضروريًا بمقدار ما التنفس ضروري للإنسان والشمس للعالم؛ ولذلك حق لقوم أن يقولوا في مديح رتبة رئيس أنه كما يعتبر الله في كنيسة الأبكار السماوية والشمس

في العالم، كذلك يعتبر كل رئيس كهنة في كنيسته على حد سوى؛ لأن الرعية تتلأأ به وتزهر وتصير هيكلأ لله.

ومن الواضح أن سر الأسقفية العظيم ودرجتها يمنحان بالخلافة إلى يومنا هذا، فإن الرب بقوله إنه سيكون معنا إلى الأبد، مع كونه معنا على طرق لنعمته وإحساناته غير هذه متنوعة، إنما يقصد أنه يختصنا بذاته ويكون معنا بواسطة شرطونية الأسقفية، وأنه يتحد بنا بواسطة الأسرار المقدسة التي يتممها بواسطة الروح ويرأس حفلتها الأسقف الذي لا يدع أن نسقط في الهرطقة. ولذا قال يوحنا الدمشقي في رسالته الرابعة إلى أهالي أفريقية إن الأساقفة عموماً قد ائتمنوا على الكنيسة بأسرها، وأن كليمنضوس أول أساقفة رومة وأفدويوس أسقف أنطاكية ومرقس أسقف الإسكندرية يعترف بكونهم خلفاء بطرس، والقديس أندراوس أقام استاخيخ خليفة له في كرسي القسطنطينية، وفي أورشليم المدينة العظمى المقدسة أقام السيد له المجد يعقوب خليفة وبعد يعقوب قام أسقف آخر ثم آخر وهكذا حتى يومنا هذا. وعلى ذلك دعا في رسالته إلى بابيانوس كل الأساقفة خلفاء للرسل، وأفسابيوس الملقب بمفيلس يشهد بخلافة الأساقفة للرسل ويكون منزلتهم وسلطانهم رسوليين، ويشهد بذلك الآباء القديسون أيضاً عموماً الذين لا حاجة إلى تعدادهم، وتؤكدها العادة الجارية منذ القديم في الكنيسة الجامعة.

ومن الواضح أيضاً أن درجة الأسقف تمتاز عن درجة الكاهن البسيط، فإن الكاهن يُشرطن من الأسقف، وأما هذا فلا يُشرطن من الكاهن، بل اتباعاً للقانون الرسولي يشرطن من رئيسي كهنة أو ثلاثة، والكاهن ينتخب من الأسقف، وأما رئيس الكهنة فلا ينتخب من الكهنة؛ أي القسوس، ولا من ذوي المناصب والرتب المدنية ولو امتازوا بالفضيلة، بل من مجمع الكنيسة الكبرى التي في الإقليم الواقعة فيه المدينة المراد إقامة أسقف لها أو على الأقل من مجمع الأبرشية التي يقام لها الأسقف، فإن حدث أحياناً أن تنتخب مدينة ما أسقفًا فلا يتم ذلك بمجرد انتخابها؛ لأن الانتخاب يعرض إذ ذاك على المجمع، فإذا رأى الانتخاب قانونياً يشرطن المنتخب بوضع أيدي الأساقفة واستدعاء الروح القدس عليه، وإلا فينتخب المجمع من يشاء فيُشرطن ويرقى إلى درجة الأسقفية، ثم إن الكاهن يحفظ في نفسه فقط سلطان الكهنوت ونعمته التي حصل عليها، وأما رئيس الكهنة فيهبها لغيره أيضاً، ومن نال من رئيس الكهنة رتبة الكهنوت فيحق له أن يتم سر المعمودية المقدسة وصلاة الزيت المقدس والذبيحة غير

الدموية، ومناولة الشعب جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الأقدسين، ومسح المعمدين بالميرون المقدس وتكليل الذين يتزوجون زواجاً شرعياً من الحسني العبادة والصلاة من أجل المرضى، ومن أجل خلاص كل الناس وإقبالهم إلى معرفته، وخاصة من أجل ترك وغفران خطايا الحسني العبادة من أحياء وأموات. وإن امتاز بالخبرة والفضيلة فبعد أن يأخذ السلطان عن الأسقف يسوغ له أن يصلح من يقصده من المؤمنين ويقودهم إلى سبيل الفوز بالملكوت السماوي، ويقام واعظاً في البيعة المقدسة. أما رئيس الكهنة فعلاوة على تتيممه كل ما يتممه الكاهن؛ لأنه مصدر للأسرار الإلهية ومواهب للروح القدس كما تقدم القول، يحق له وحده أن يصنع الميرون المقدس، وله وحده يحق أن يشرطن ويمنح الرتب والدرجات الكنسية، وله وحده يحق على وجه خاص ومن باب أولى أن يربط ويحل، وحكمه حسن القبول عند الله حسب قول الرب وتعليم الإنجيل المقدس، وهو يناضل عن الإيمان المستقيم ويطرده المخالفين من حظيرة الكنيسة كوثنيين وعشارين ويرشق الهرطقة بالحرمة والأناثيما ويبدل نفسه عن الخراف. ومما تقدم يتضح لنا جلياً الفرق بين الكاهن البسيط ورئيس الكهنة، وعدم مقدرة كل كهنة العالم على رعاية كنيسة الله وتدبيرها بدون رئيس كهنة.

وقد أحسن أحد الآباء بقوله إنه ليس بأمر هين أن نجد هرطوقياً حكيماً عاقلاً، فإن الهرطقة بتركهم الكنيسة تركهم الروح القدس فلم يبقَ عندهم حكمة ولا نور، بل ظلام وصلابة قلب، ولولا ذلك لما اعترضوا على أوضح الأمور التي منها سر الأسقفية العظيم حقاً، وقد علمتنا عنه وأثبتته وأكدته لنا الأسفار الإلهية وكل التواريخ الكنسية والآباء القديسون في مؤلفاتهم، ولا تزال الكنيسة الجامعة تتعاطاه وتعترف به.

القضية الحادية عشرة: نؤمن بأن أعضاء الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية إنما هم المؤمنون كلهم، الذين يعتقدون اعتقاداً لا يُخامرهم ريب بإيمان مخلصنا يسوع المسيح الذي لا عيب فيه. وهذا الإيمان قد أعلنه المسيح نفسه والرسل الأطهار والمجامع المسكونية المقدسة، ولئن كان بعضهم قد سقط تحت طائلة خطايا متنوعة؛ لأن مثل هؤلاء لو لم يكونوا أعضاء للكنيسة لما كانت الكنيسة تحكم عليهم. والآن فإذا كانت الكنيسة تحكم عليهم وتدعوهم إلى التوبة والندامة، وتقودهم إلى اتباع الوصايا الخلاصية، فإنهم لعدم قنوطهم وقطع رجائهم ولثابرتهم على الاعتصام بإيمان الكنيسة الجامعة القويم مع كونهم مدنسين بالخطايا لا يزالون أعضاء للكنيسة الجامعة وهكذا تعرفهم هي.

القضية الثانية عشرة: نؤمن بأن الكنيسة الجامعة إنما تتعلم من الروح القدس، فإنه هو المعزي الحقيقي الذي يرسله المسيح من عند الآب ليعلم الحق ويطرد الظلام عن أذهان المؤمنين، وتعليمه يزين الكنيسة بواسطة آباء الكنيسة الجامعة القديسين ورؤسائها، فإنه كما أن الأسفار الإلهية بأسرها هي كلام الروح القدس، وهكذا تدعى لأن الروح القدس نطق بها رأسًا، بل بواسطة الرسل والأنبياء، كذلك الكنيسة تتعلم من الروح القدس المحيي، وذلك بواسطة الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة الذين من المقرر أن دستورهم هو الجامع المسكونية المقدسة، ولا أزال أكرر ذلك مرارًا كثيرة. ولذلك قد اقتنعنا بأن الكنيسة الجامعة لا يمكن أن تخطئ أو تضل أو تؤثر حينًا ما الكذب على الصدق، بل نقر معترفين بصدق أقوالها وصحتها لا محالة، فإن الروح القدس الذي يفصل دائمًا بواسطة الآباء القديسين والرؤساء الخادمين بأمانة يقي الكنيسة من كل ضلال.

القضية الثالثة عشرة: نؤمن بأن الإنسان لا يبرر بمجرد الإيمان، بل بالإيمان المقرون بالمحبة؛ أي بالإيمان والأعمال. وأما الزعم بأن الإيمان الخالي من الأعمال يتم به تبريرنا بالمسيح فنبلغ الخلاص، فمثل هذا الأمر نعتبره بعيدًا عن كل صحة في الاعتقاد وحسن العبادة، فلو كان الإيمان على هذه الصفة لكان شائئًا لكل الناس وكان الكل يخلصون، وهذا كذب محض. فنحن نؤمن بأننا لا بالإيمان وحده نبرر بالمسيح، بل بالإيمان المقرون بالأعمال. وهذه الأعمال ليست بشهود تثبت ميلنا، بل هي أثمار قائمة بذاتها وبها الإيمان يأخذ صورة عمله ظاهرة، لينال كل واحد من المؤمنين حسب الوعد الإلهي ما يقتضيه عمله، وهو في الجسد خيرًا كان أم شرًا.

القضية الرابعة عشرة: نؤمن أن الإنسان قد تهوّر بعصيانته فمائل البهائم وأشبهها؛ أي إنه شوه صورته وسقط من رتبة الكمال وعدم التألم، ولكنه لم يجرّد عن الطبيعة والفاعلية اللتين نالهما من الله الكلي الصلاح؛ لأنه لو تجرد منهما لم يكن بعد ناطقًا، بل لم يكن إنسانًا. ولذا نؤمن بأنه حائز على تلك التي بها خُلق وعلى فاعليتها، وهي الحرية حية فعالة إلى درجة أنه يقدر بطبيعته أن يختار الخير ويكره الشر ويهرب منه. فلا يليق بنا والحالة هذه أن نزعّم أن الطبيعة الصالحة المخلوقة من الله الكلي الصلاح هي عادمة الفاعلية الصالحة؛ لأننا بزعمنا هذا نعتقد بأن الطبيعة رديئة، فإن فاعلية طبيعة الإنسان تكون على ذلك معلقة، وأما طبيعة الخالق فلا، ولئن اختلفت الطريقة. أما كون الإنسان يستطيع أن يعمل الخير من تلقاء طبيعته الذاتية فإن السيد

له المجد أشار إلى ذلك بقوله: إن الوثنيين أيضًا يحبون الذين يحبونهم، وبولس الرسول علّم بذلك في رسالته إلى رومة (١: ١٩) وفي مواضع أخرى حيث قال: إن الأمم الذين ليس لهم ناموس يعملون بالطبيعة بما في الناموس، فيتضح من ذلك أن الخير الذي يعملهُ الإنسان لا يمكن أن يكون خطيئة؛ لأن الخير لا يمكن أن يكون شرًا. على أن الخير عندما يجري بمجرد الطبيعة ويغدو بتعاطيه جسديًا لا روحياً لا يفيدهُ شيئاً، وهو مجرد بدون إيمان لأجل الخلاص، ولا يفضي بالإنسان إلى الدينونة؛ لأن الخير إن كان خيراً فحاشا أن يكون مصدرًا للشر. وهذا الخير عند الذين أعيدت ولادتهم بالنعمة يجعل من يفعله بالنعمة كاملاً أهلاً للخلاص. فالإنسان إذن يستطيع قبل إعادة ولادته أن يميل بطبيعته إلى الخير، وأن يختار ويفعل الخير الأدبي، ولكنه بعد إعادة ولادته فلنكي يعمل الخير الروحي، وإنما نسمي أعمالاً روحية أعمال المؤمنين المسيبة الخلاص المفعولة بنعمة خارقة الطبيعة، يلزمه أن تسبق وتدركه النعمة كما قلنا آنفاً في كلامنا عن سابق التحديد بحيث لا يستطيع الإنسان من تلقاء نفسه أن يعمل عملاً يكون به أهلاً للحياة المسيحية، ولكنه يستطيع على إرادة الرضوخ للنعمة أو عدم إرادة ذلك.

القضية الخامسة عشرة: نؤمن بأن الأسرار الإنجيلية في الكنيسة إنما هي سبعة، وأن عددها في الكنيسة لا ينقص عن ذلك ولا يزيد، وما خالف هذا العدد في الأسرار هو بدعة هوس شنيعة. وهذه الأسرار السبعة قد اشترعها نفسه كسائر عقائد إيمان الكنيسة، فإن المعمودية المقدسة قد فرضها الرب بقوله: اذهبوا وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨: ١٩). وبقوله: من آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يُدان (مرقس ١٦: ١٦).

وسر الكهنوت سلمه بقوله: اصنعوا هذا لذكري (لوقا ٢٢: ١٩)، وقوله: كل ما تربطونه أو تحلونه على الأرض يكون مربوطاً أو محلولاً في السماء. (متى ١٨: ١٨). وسر الذبيحة الأفخارستية الغير الدموية فقد سلمنا إياه بقوله: خذوا كلوا هذا هو جسدي، واشربوا منها كلكم؛ لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد (متى ٢٦: ٢٦-٢٨)، وبقوله: إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في أنفسكم (يوحنا ٦: ٥٣).

وسر الزواج سلمه بذكره ما قيل عنه في العهد القديم بقوله تثبيثاً لذلك: ما جمعه الله فلا يفرقه إنسان (متى ١٩: ٦). وبولس الرسول يدعوه سرّاً عظيماً (أفسس ٣: ٥).

وسر التوبة الذي حليفه سر الاعتراف سلمه لنا بقوله: من غفرت خطايا غفر له ومن أمسكت خطاياهم أمسكت (يوحنا ٢٠: ٢٣)، وقوله: إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون (لوقا ١٣: ٣).

وسر الزيجة المقدس المعروف باليونانية بأفشيليون قد ورد ذكره في مرقس البشير (٦: ١٣)، وأثبتته يعقوب أخو الرب في رسالته جلياً (٥: ١٤ و ١٥).

أما الأسرار فهي مؤلفة من شيئين طبيعي وخارق الطبيعة، وليست هي علامات بسيطة لمواعيد الله، بل نعتز بأننا أثر للنعمة نافذة بالضرورة ومؤثرة فيمن يتلقن معرفة الأسرار. ونرفض الزعم بأن كمال السر يقتضي تناول المادة الطبيعية، ونعتبر ذلك غريباً عن التعليم المسيحي؛ لأنه مناقض لسر الأفخارستية الذي سن بما قاله المخلص نفسه وتقدس باستدعاء الروح القدس، فكملت به استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه. وهذا الكمال يتقدم على تناول؛ لأنه لو لم تكن الاستحالة كاملة قبل تناول لما كان من أساء في تناول يأكل ويشرب دينونة لنفسه متناولاً خبزاً وخمراً بسيطين، فبتناوله إياهما بدون استحقاق إنما يأكل ويشرب دينونة لنفسه، فالسر إذن يكمل لا حين تناول بل قبله. وكذلك نرفض الزعم بأن السر يخسر كماله بتناوله بقلّة إيمان وننبذ ذلك نبذ قذارة ورجاسة؛ فإن الهراطقة الذين بعد رفضهم بدعهم وانضمامهم إلى الكنيسة الجامعة تقبلهم الكنيسة مع عدم كمال إيمانهم تعتبر معموديتهم كاملة، بحيث لا تعيد معموديتهم متى كمل إيمانهم.

القضية السادسة عشرة: نؤمن بأن المعمودية المقدسة المأمور بها من الله التي تتم باسم الثالوث الأقدس هي من أعظم الضروريات، فإنه ليس أحد يستطيع أن يخلص بدونها حسب قول الرب: «إن لم يولد أحد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت السماوات» (يوحنا ٣: ٥). وهي على ذلك ضرورة للأطفال أيضاً؛ لأنهم هم أيضاً تحت طائلة الخطية الجدية وبدون المعمودية لا يمكنهم أن ينالوا المغفرة عنها. والرب تأكيداً لذلك لم يستعمل التقييد في كلامه في ذلك، بل الإطلاق والتعميم قائلاً: من لم يولد، أعني كل الذين يدخلون بعد مجيء مخلصنا المسيح إلى ملكوت السماوات، يجب أن يولدوا ثانية. فإن كان الأطفال بشرًا وكانوا محتاجين إلى الخلاص فإنهم محتاجون إلى المعمودية أيضاً، ومن لا يعتمد منهم فهو لعدم نواله المغفرة عن الخطيئة الجدية لا يزال تحت قصاص الخطيئة الأبدي اللازم عنها؛ وعلى التالي لا خلاص له بدون المعمودية. ومن ثم كان من باب الضرورة أن يعمدوا. وقد ورد عن خلاص الأطفال

قول متى البشير: «ومن لا يعتمد لا يخلص.» فمن الضروري على ذلك تعميم الأطفال. وقد ورد أيضًا في أعمال الرسل (١٦: ٣٣) قوله: إن البيوت برمتها كانت تعتمد؛ أي بأطفالها. وقد شهد بذلك الآباء القديسون شهادة صريحة، منهم ديونيسيوس في مؤلفه المعنون «في الرئاسة الكهنوتية» ويوستينوس في المطلب السادس والخمسين حيث يقول صريحًا عن الأطفال إنهم يستحقون ما يترتب على سر المعمودية من الخيرات بإيمان مقدمهم إلى المعمودية، وأفغوستينوس يقول: «إن من التقليدات الرسولية أن يخلص الأولاد بالمعمودية.» وفي موضع آخر يقول: «إن الكنيسة تجعل للأطفال أرجل الغير لكي يأتوا إليها، وقلوب الغير لكي يؤمنوا، وألسنة الغير لكي يعدوا.» ويقول أيضًا: «إن الأم الكنيسة تمنح أولئك قلوب أمهات.»

وسر المعمودية إنما يجري بالمواد بالماء الصافي لا بسائل آخر، ويتم على يد كاهن. وعند الضرورة القصوى يجوز أن يتم على يد إنسان غيره علماني شرط أن يكون أرثوذكسيًا قاصدًا الغاية الملائمة لجوهر المعمودية المقدسة.

أما فوائد المعمودية فهي بالإجمال هذه؛ أولاً: مغفرة الخطيئة الجدية وكل ما يكون قد ارتكبه المعتمد من الخطايا. ثانيًا: النجاة من العقاب الأبدي الذي يكون مقتضىً به عليه إما بسبب الخطيئة الجدية أو الخطايا المميتة التي يكون قد ارتكبها. ثالثًا: منح غبطة الخلود؛ لأن المعمودية تبرر الإنسان من الخطايا السالفة وتجعله هيكلًا لله فلا يُسمح لنا والحالة هذه بأن نقول إن الخطايا التي يكون الإنسان قد ارتكبها قبل المعمودية لا تحل كلها، بل تلبث ولكنها لا تقوى، فإن هذا الزعم مفع من معظم الكفر وهو منافٍ لحسن العبادة على خط مستقيم. بل نقول إن كل خطيئة سبقت المعمودية أو ارتكبتها الإنسان قبلها تضحل بها وتعتبر كأنها لم تكن أو لم تحدث؛ لأن الرمزين الدالين على سر المعمودية وكل العبارات المقبولة التي تدل على كل منهما تجعل السر كاملاً وتشير إلى كمال التطهير.

ثم إن أسماء المعمودية أيضًا تظهر وتوضح ذلك، فإن كانت معمودية بالروح والنار فمن الواضح أن التطهير للجميع يكون كاملاً؛ لأن الروح يطهر تطهيرًا كاملاً، وإن كان نور فالظلام ينحل وإن كان إعادة ولادة فالقديم يزول، وليس هذا القديم إلا الخطايا. وإن كان المعتمد ينزع الإنسان العتيق فيكون بذلك قد خلع الخطيئة أيضًا. وإن كان يلبس المسيح فيكون قد أصبح بالفعل بواسطة المعمودية بلا خطيئة؛ لأن الله بعيد عن الخطاة، وبولس الرسول يعلم بأجلى بيان قائلًا: لأنه كما أنه بمعصية

إنسان واحد جُعل الكثيرون خطاة؛ كذلك بطاعة واحد يُجعل الكثيرون أبرارًا. فإن كنا أبرارًا فنحن معتقون من الخطيئة؛ لأنه من المستحيل اجتماع الحياة والموت، وإن كان المسيح قد مات حقًا للمغفرة بالروح هي أيضًا حقيقية. فمن ثم يتضح أن كل الأطفال الراقيدين بعد تعميدهم يخلصون لا محالة؛ لأنهم قد أعدوا لذلك من ذي قبل بموت المسيح، فإن عري الأطفال من كل خطيئة من الخطيئة العمومية تخلصهم بواسطة الحميم الإلهي من الخطايا الخاصة لتعذر ارتكابهم شيئًا منها، وهم لا إرادة لهم فعلاً، فلا ريب بأنهم يخلصون. ثم إن للمعمودية تأثيرًا لا يُمحى، فإن من اعتمد مرة معمودية صحيحة لا يمكن أن تعاد معمديته ثانية ولو ارتكب خطايا لا يُحصى عددها، بل لو اتصل إلى جحود الإيمان نفسه، فإنه إن أراد إذ ذاك الرجوع إلى الرب لنال بواسطة الندامة التبني الذي يكون قد أضاعه.

القضية السابعة عشرة: نؤمن بأن سر الأفخارستية الكلي قدسه الذي جعلناه فيما تقدم رابعًا في تعداد الأسرار هو ذاك السر بعينه سلمه الرب في الليلة التي فيها أسلم نفسه فداءً عن حياة العالم، فإنه أخذ حينئذٍ الخبز وبارك وأعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً: «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، وأخذ الكأس وشكر وقال: «اشربوا منها كلكم؛ لأن هذا هو دمي الذي يهرق عنكم لمغفرة الخطايا» (متى ٢٦: ٢٦-٢٧). ونؤمن أنه في تكميل هذا السر يحضر ربنا يسوع المسيح لا على وجه رمزي أو على سبيل التشخيص أو بفرط نعمة كما يحضر في باقي الأسرار، وأنه لا يحضر حضورًا مجردًا كما قال بعض الآباء عن حضوره في سر المعمودية، ولا على سبيل الامتزاج بحيث يتحد لاهوت الكلمة بخبز الأفخارستية أقنومياً كما يعتقد أتباع لوثيروس عن جهل وغرور، بل حضورًا حقيقياً فعلياً، حتى إنه بعد تقديس الخبز والخمر ينقلب ويستحيل ويغدو. أما الخبز فنفس جسد الرب المولود في بيت لحم من الدائمة بُتوليبتها مريم والمعتمد في الأردن والمتألم والمدفون والناهض من بين الأموات والصاعد إلى السماء والجالس عن يمين الآب، والمزمع أن يأتي على سحب السماء. وأما الخمر فيستحيل ويغدو نفس دم الرب الحقيقي الذي أريق عن حياة العالم على عود الصليب. ونؤمن أيضاً أنه بعد تقديس الخبز والخمر لا يبقى جوهرهما المادي، بل يغدوان نفس جسد الرب ودمه تحت هيئة الخبز والخمر.

ونؤمن أيضاً بأن جسد الرب ودمه الطاهرين يناولان ويدخلان في أفواه ومعد المشتركين فيهما سواء حسنت عبادتهم أم ساءت، غير أنهما يَمْنَحَان مَنْ يتناولهما عن

حسن عبادة واستحقاق مغفرة الخطايا والحياة الأبدية، ومن يتناولهما عن سوء عبادة وغير استحقاق فدينونة وعذاباً أبدياً.

ونؤمن أيضاً بأن جسد الرب ودمه يجرآن ويفصلان، ولكن ذلك يجري عليهما على سبيل العرض العارض للخبز والخمر اللذين نظن بأنهما منظوران وملموسان، غير أنهما يلبثان بنفسهما غير منقطعين ولا مقسمين البتة؛ ولذلك تقول الكنيسة الجامعة: «يفصل ويجزأ حمل الله الذي يفصل ولا ينقسم الذي يؤكل دائماً ولا يفرغ أبداً، ولكنه يقدس المشتركين باستحقاق.»

ونؤمن أيضاً بأن كل جزء وقطعة من الخبز والخمر المستحيلين مهما كان صغيراً ليس هو بجزء من جسد الرب ودمه، بل هو كل السيد المسيح بجملته هو بنفسه ولاهوته إلهاً تاماً وإنساناً تاماً. ومن ثم فبإقامته قدايس عديدة في ساعة واحدة في المسكونة كلها لا يكون أجساد متعددة للمسيح، بل يحضر المسيح نفسه الواحد حضوراً حقيقياً فعلياً، ويكون كلاً جسده ودمه واحداً في كل كنائس المؤمنين المتفرقة الأماكن. ولا نقصد بكلامنا هذا أن جسد السيد الموجود في السماوات ينزل ويحل على المذابح، بل إن خبز التقديم المقدمة في كل الكنائس المتفرقة الأماكن يستحيل ويتبدل بعد التقديس فيصير نفس جسده الذي في السماوات؛ لأن جسد الرب في كل الأماكن المتعددة هو واحد لا متعدد؛ ولذلك كان هذا السر عجباً، ويدعى عجباً، وإنما يدرك بالإيمان لا بسفسطات الحكمة البشرية التي ديانتنا الحسنة العبادة والمسلمة من الله ترفض ميلها الباطل الناشئ عن جهل وغباوة إلى استطلاع الأمور الإلهية والتنقيب عنها بنور العقل البشري. ونؤمن أيضاً بوجوب تكريم جسد الرب ودمه الذين في سر الأفخارستية مزيد الإكرام، وأن نسجد لهما سجود عبادة، فإن السجود للرب ولجسد ودم الرب واحد. ونؤمن بأنه ذبيحة حقيقية تكفيرية تقرب عن كل المسيحيين الحسنى العبادة الأحياء والأموات، ومن أجل منفعة الجميع كما ورد في صلوات هذا السر المسلمة من الرسل إلى الكنيسة عن أمر الرب الصادر لهم.

ونؤمن أيضاً بأن الخبز المقدس المحفوظ في مستودعات الهياكل لمناولة المشرفين على الموت بعد تقديسه وقبل تناوله هو أيضاً نفس جسد الرب الحقيقي، لا يفرق عنه أصلاً بحيث يغدو بعد التقديس وقبل مناولته وحال تناوله وبعد تناوله نفس جسد الرب الحقيقي بكل الوجوه.

وبحسب اعتقادنا لا نعني بكلمة استحالة الكيفية التي بها ينقلب الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه؛ فإن ذلك يتعذر إدراكه أصلاً على الجميع ما عدا الله تعالى وينسب

إلى المعتقدين به الجهل والكفر. بل إنما نعني بها أن الخبز والخمر بعد تقديسهما يتحولان إلى جسد الرب ودمه لا على وجه الرسم ولا على سبيل التشخيص، ولا بفرط النعمة ولا بشركة لاهوت الله الوحيد أو حضوره فقط، ولا بطريق العرض؛ أي عرض الخبز والخمر يغدوا عرضاً لجسد المسيح ودمه على سبيل التحويل أو التبديل، بل يغدو حقيقة وفعلاً وجوهرياً، أما الخبز فنفس جسد الرب، وأما الخمر فنفس دمه كما تقدم. ونؤمن أيضاً بأن سرّ الأفخارستية المقدس إنما يتم على يد كاهن حسن العبادة مُشرطناً قد مُنح درجة الكهنوت من أسقف قانوني حسن العبادة على مقتضى تعليم الكنيسة الرسولية، فهذا رأي الكنيسة الجامعة واعترافها الصادق وتقليدها القديم جداً في هذا السر أيضاً على وجه الإيجاز. ولا يجب أن يشوّه مطلقاً على أي وجه كان من قبل حسني العبادة عن رغبة في الأحداث وميل إلى بدع الهرطقة الرجسة وانتحالها، بل يجب أن يحفظ التقليد المفروض المسلّم سالماً ثابتاً غير متزعزع؛ لأن الكنيسة الجامعة ترفض وتحرم كل من يُخالفه.

القضية الثامنة عشرة: نؤمن بأن نفوس الراقدين هي إما في الراحة أو في العذاب بمقتضى عمل كل منهم، فإنها بعد انفصالها عن الأجساد تنتقل في الحال إما للفرح والسرور وإما للحزن وتنفس الزفريات. ومن المقرر أن لا الفوز يكون إذ ذاك كاملاً ولا الدينونة، فإن كل واحد ينال ما يستحقه بفعله من الجزاء كاملاً بعد القيامة العامة حين تتحد النفوس بالجسد الذي سلكت وهي فيه سلوكها الحسن أو الردي. أما الذين فسدوا بخطايا مميتة ولم يرقدوا على اليأس، بل نادمين في حال حياتهم وهم في الأجساد بعد، ولكنهم لم يلحقوا أن يأتوا بشيء من ثمار التوبة كذرف العبرات والسهر في الصلوات والحزن وتعزية الفقراء، وأخيراً إظهار المحبة لله ولل قريب بالفعل، فنؤمن أن نفوس هؤلاء أيضاً تذهب إلى الجحيم حيث تكابد القصاص عما ارتكبتهم من الخطايا، ولكنها تشعر بمستقبل النجاة منه. ونؤمن أيضاً بأن هذه النفوس تخلص بفرط الصلاح الإلهي بواسطة صلوات الكهنة والصدقات التي يعملها أقارب المتوفى من أجله، ولا سيما الذبيحة الغير الدموية التي تقدمها الكنيسة الجامعة الرسولية خصوصاً عنه وذلك بطلب أقاربه وعموماً عن الجميع كل يوم. ومن المعلوم أن زمن النجاة غير معلوم عندنا، ولكننا نعلم ونؤمن أن عتق مثل هذه النفوس من عذاباتها يكون قبل القيامة والدينونة العامة جاهلين تعيين وقته.

هل يباح لكل من المسيحيين عموماً أن يقرأ الكتاب المقدس؟

كلاً؛ لأننا نعرف أن الكتاب المقدس بجملته موحى به من الله ومفيد، وهو بهذا المقدار ضروري بحد نفسه حتى إنه بدونه لا يستطيع الإنسان أن يحسن عبادته على وجه ما، ولكننا لا نرى أن الجميع يمكنهم قراءته بسهولة قراءة تفيدهم، بل الذين بالبحث اللائق يتعمقون في معاني الروح ويعرفون كيف يبحث في الكتاب المقدس، وكيف يقرأ بوجه الإجمال؛ ومن ثم كان من المسموح لكل إنسان حسن العبادة أن يسمع تعليم الكتاب المقدس لكي يؤمن بالقلب للبر ويعترف بالفم للخلاص، ولكنه يحظر عليه أن يقرأ بعض مواضع من الكتاب المقدس، لا سيما العهد العتيق للأسباب السابق ذكرها وما أشبهها. وتوصية عديمي الخبرة بعدم قراءة كل الكتاب المقدس هي موازية تماماً لتوصية الأطفال بعدم اتخاذ قوت قوي.

هل الكتاب المقدس واضح المعنى لكل من يقرؤه من المسيحيين؟

لو كان الكتاب المقدس واضح المعنى لكل من يقرؤه من المسيحيين لما كان الرب له المجد سمح بالبحث عنه للراغبين في نوال الخلاص، ولكان باطلاً قول بولس الرسول: إن موهبة التعليم قد جعلت في الكنيسة، ولما قال بطرس الرسول عن رسائل بولس الرسول: إن فيها ما يعسر فهمه، فيتضح جلياً أن من المعاني ما هو عويص وسام جداً، وأن البحث فيه يختص برجال متألهي الأبواب وذوي علم قانون لإدراكه على وجه الحقيقة ولمعرفته معرفة صحيحة وفهمه فهماً مطابقاً لكل فحاويه ولمقصد مبدعه الروح القدس. وبناء على ذلك فإن الذين قد أعيدت ولادتهم وإن كانوا معتصمين بالإيمان بالثالوث الأقدس وعاملين ومعترفين بتجسد ابن الله وآلامه، وقيامته وصعوده إلى السماء وما قيل عن تجديد الكون والدينونة مما لم يحجم كثيرون منهم عن احتمال الموت لأجلها لا يلزمهم، بل يتعذر عليهم أن يعرفوا تلك الأمور أيضاً التي إنما كشفها الروح القدس للذين تمرنوا بالحكمة وتروضوا بالقداسة.

كيف يجب أن نعتقد بالأيقونات المقدسة وبالسجود للقديسين؟

لما كان القديسون كما قلنا في القضية الثامنة شفعاء — وهكذا تعتبرهم الكنيسة الجامعة — صح لنا أن نقول: إننا نكرمهم كأصفياء لله مبتهلين من أجلنا إلى إله الكل، ونحن

نكرمهم على نوعين؛ الواحد: ندعوه فرط العبودية وهو تكريم أم كلمة الله، فإن والدة الإله وإن تكن أمة للإله الواحد فهي أمه لولادتها أحد أقانيم الثالوث بالجسد، وعلى ذلك تسبح كفائقة على كل الملائكة والقديسين بغير قياس، ومن ثم نقدم لها سجود فرط عبودية. والثاني: إكرام مجرد عبودية نقدمه ساجدين للملائكة والرسل والأنبياء والشهداء وكل القديسين عمومًا.

وكذلك نسجد لعود الصليب المحيي الكريم الذي تألم عليه مخلصنا لخلص العالم، وكذلك لرسم الصليب المحيي، ولذود بيت لحم الذي به خلصنا من البهيمية، ولموضع الجلجلة والقبر المقدس المانح الحياة ولسائر المزارات المقدسة والأناجيل الشريفة والأواني المقدسة التي بها تتم الذبيحة غير الدموية. ونكرم أيضًا القديسين مبجلين إياهم بتذكارات سنوية وأعياد حافلة عامة وبناء هياكل شريفة وتقديم ندور إلهية. ونسجد أيضًا ونكرم ونقبل أيقونة ربنا يسوع المسيح ووالدة الإله الفائقة القداسة وكل القديسين، بل أيقونات الملائكة القديسين أيضًا مصورين إياهم على هيئة ظهورهم لبعض الأجداد والأنبياء، ونصور كذلك الروح القدس على هيئة حمامة كما ظهر.

فإن قال البعض عنا إننا نعبد أوثانًا بسجودنا للقديسين وصورهم وباقي ما ذكر آنفًا، فإننا نعتبر قولهم إفكًا وبهتانًا؛ لأننا إنما نعبد الله المثلث الأقانيم لا سواه. أما القديسون فإننا نكرمهم لسببين؛ الأول: نسبتهم إلى الله؛ لأننا من أجله نكرمهم. والثاني: نسبتهم إلى أنفسهم؛ لأنهم صور لله حية، وتكرميناهم لهم بالنسبة لأنفسهم يُدعى تكريم عبودية كما تقدم. أما تكرميناهم الأيقونات المقدسة فهو تكريم إضافي يتجه إلى الأصل الذي تمثله الأيقونة، فإن من يسجد للأيقونة إنما يسجد للأصل الذي تمثله، وشرف الأيقونة ومن تمثله واحد لا يتميز وذلك كما يكون شرف السفير الملوكي ومن يرسمه.

أما ما يتمسك به مثل هؤلاء من آيات الكتاب المقدس لإثبات رأيهم بأن اتخاذ الأيقونات وتكرميناهم أحداث فلا يجديهم نفعًا كما يرغبون، بل بالأحرى يظهر ملائمتنا لنا، فنحن لدى قراءتنا الكتاب المقدس نبحت عن الوقت والشخص وعن المثل والمرادف والسبب، فنرى أن الله الأحد تارة يقول: «لا تصنع لك تمثالًا ولا صنمًا ولا تسجد لهما ولا تعبدهما». وأخرى يأمر بصنع شاروبيم، وعند معاينتنا ثيرانًا وأسودًا في الهيكل ولا نتعصب في فهم معناها، فإنه لا إيمان في التعصب، بل نعتبر الزمان وباقي ما يلزم اعتباره فنفوز بصحة المعنى والرأي، فقلوه: لا تصنع لك صنمًا ولا تمثالًا هو في اعتقادنا مرادف تمامًا لقلوه: لا تسجد لآلهة غريبة؛ أعني لا تعبد الأوثان. ومن ثم جرت العادة

في الكنيسة من عهد الرسل بالسجود للأيقونات المقدسة سجوداً نسبياً يكون محفوظاً به سجد العباد لله وحده. وكلام الله غير متناقض. وإذا كانت الوصية إنما تتعلق بعبادة الأوثان فإنك ترى أنه قد صُنِعَ قديماً شاروبيم وكذلك صور؛ أي تماثيل للملائكة تمثلهم على هيئة ظهورهم، وكانت تُكْرَمُ ويُسجد لها.

ومن يذكرهم الأضداد من القديسين مدعين أنهم قالوا: إنه لا يسمح بالسجود للأيقونات فإنهم بالأحرى يعضدون معتقداً، فإن القديسين المنوه عنهم أطلقوا كلامهم في نضالهم على المقدمين للأيقونات سجد عبادة الذين أحضروا صور أقربائهم المتوفين لتعليقها في الكنائس فأوجبوا عليهم الأناثيما لا على السجود الصحيح للقديسين وللأيقونات وللصليب الكريم وباقي ما تقدم ذكره، ولا سيما وأن الذين ذكروا وجأهروا في مؤلفاتهم بوجود الأيقونات المقدسة في الكنيسة وبالسجود لها من عهد الرسل هم كثيرون، وقد شاركهم في ذلك فيما بعد المجمع السابع المسكوني المقدس الذي أشهر كل أحداث للهراطقة في ذلك خازياً ممقوتاً.

ولما كان هذا المجمع المقدس قد أفهمنا صريحاً كيف يجب أن نسجد للأيقونات المقدسة، وأوضح كل ما سبق ذكره آنفاً وأوجب الأناثيما على الذين يسجدون للأيقونات سجد عبادة أو ينسبون إلى الأرثوذكسيين عبادة الأوثان بسجودهم للأيقونات، فإننا نوجب نحن أيضاً مع الأناثيما على الذين يسجدون لقديس أو ملاك أو أيقونة أو صليب أو عظم قديس أو إناء مقدس أو إنجيل أو شيء آخر مما في السماء فوق وما في الأرض وفي البحر سجد عبادة، ونقدم سجد عبادة لله وحده المثلث الأقانيم ونوجب الأناثيما على الذين يزعمون أن السجود للأيقونات هو عبادة لها فلا يسجدون لها ولا يكرمون الصليب والقديسين كما قلدتنا الكنيسة.

ونحن نسجد للقديسين وللأيقونات على المنوال الذي تقدم الكلام عنه ونصورها لزيينة الهياكل، ولكي تكون أسفاراً للأغبياء وموضوع قدوة لهم بفضائل القديسين، وذكرى وواسطة لنمو شغفهم بهم وتنبيههم إلى السجود للرب دائماً كسيد وآب، وللقديسين كعبيد له ومساعدين وشفعاء لنا.

على أن الهراطقة يقبحون نفس صلاة الحسنى العبادة إلى الله، ولا نعلم كيف يخصصونها بالنسك فقط. أما نحن فنعترف ونقر بأن الصلاة هي مناجاة الله وطلب للخيرات الملائمة التي نرجو نوالها منه تعالى، والارتقاء بالعقل نحو الله واتجاه الفكر نحوه تعالى عن حسن عبادة، وطلب السماويات وعون للنفس المقدسة وعبادة مكرسة لله وعلامة توبة ورجاء وطيد لا ريب فيه. وهي تتم إما بالعقل فقط أو بالعقل والصوت معاً،

ويعتبر فيها صلاح الله ورحمته وعدم استحقاق الطالب المصلي وشكره وموعد خضوعنا لله في المستقبل. وهي تتضمن إيماناً ورجاءً وثباتاً وحفظاً للوصايا ولا سيما السماويات، ولها ثمار كثيرة لا حاجة إلى تعدادها، وتقام على التواتر بالانتصاب وإبحاء الركب، ومنفعتها عظيمة جداً حتى إنها تعتبر قُوَّةً وحياة للنفس. وكل ذلك يستنتج من الكتاب المقدس واضحاً، حتى إن من يطلب برهاناً عليه يشبه الجاهل أو الأعمى الذي يحاول إنكار وجود نور الشمس في رابعة النهار.

وأما الهرطقة فإذا أرادوا أن لا يدعوا شيئاً مما أوصى به المسيح بدون تهشيم تطاولوا على الصلاة أيضاً، ولكنهم لا يخلون من أن يسيئوا العبادة قاصدين بذلك أن يجعلوا البسطاء يبغضونهم ويعتبرونهم كدنسين ومحدثين، ولا يطيقون أن يتعلموا منهم عقائد الإيمان الحسن القويم. فإن خصمنا الشيطان حكيم في الشر وبصير في الأباطيل ولذلك لا يحلو لأتباعه، ومنهم هؤلاء الهرطقة خاصة، أن يحسنوا العبادة بمقدار ما يتوقون، ويهتمون بأن يتهوروا في هوات الشرور ويتهشمون في أماكن لا يفتقدها الرب. والآن فلنسألهم ما هي صلوات الرهبان على زعمهم؟ فإن قالوا مثبتين إن الرهبان إنما يفعلون من تلقاء أنفسهم أموراً غريبة لا تتلاءم وديانة المسيحيين القويمة ننضم إلى رأيهم فلا نعتبر الرهبان رهباناً، بل لا نعتبرهم مسيحيين أيضاً. ولكن إذا كان الرهبان يذيعون مجد الله وعجائبه في الارتقاء العقلي ويعظمونه على الدوام بلا انقطاع، وفي كل حين على قدر الطاقة البشرية، وذلك بأناشيد التسبيح والتمجيد المتواصلة تارة مرتلين بعض آيات الكتاب وطوراً مقتبسين التسابيح منه، فيصدعون ناطقين بما يوافقه؛ نقر ونعترف أنهم بذلك يعملون عملاً رسولياً ونبوياً وبالأحرى ربانياً.

وعلى ذلك فنحن أيضاً بترتيلنا في كتاب «المعزي» و«التريوذي» و«المناون»، لا نعمل عملاً غير لائق بمسيحيين؛ لأن مثل هذه الكتب تتكلم عن اللاهوت كلاماً إجمالياً ومفصلاً، ونرتل بها تسابيح منها ما هو مقتطف من «الكتاب المقدس» بقصد أن تكون عباراته العبارات الملائمة المؤمنين أكثر ملاءمة وأسهل فهماً. ولكي يتضح جلياً أننا نرتل دائماً محاوي «الكتاب المقدس» نردف كل طروبارية مما نرتل بأية استيخن من «الكتاب المقدس». وإذا كنا نرتل ونقرأ ما لثيقاراً من الصلوات وما وضعه غيره من الآباء القدماء فليقل لنا المضادون أي تجديف وأي شيء مناقض لحسن العبادة أتى به هؤلاء؛ حتى ننبذه ونرفضه معهم.

فإن اقتصر الهرطقة على القول إن مواصلة الصلاة بدون انقطاع مضر بهم وبنا فليخاصموا المسيح، وقد قال مثل القاضي الظالم في وجوب مواصلة الصلاة وعلمنا أن

نسهر ونصلي لكي ننجو من الضيقات ونتمكن من الوقوف أمام ابن البشر، وليخاصموا أيضًا الرسول لِمَا قاله في الإصحاح الخامس عشر من رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي وفي مواضع أخرى كثيرة غيره، وإني أدع زعماء الكنيسة الجامعة الإلهيين من عهد المسيح إلى عهدنا يتكلمون، فإنه يكفي الأصدقاء خزيًا بمتابعة ومواصلة الأجداد والرسل والأنبياء للصلاة.

ولما كانت أعمال الرهبان بمثابة أعمال الرسل والأنبياء، بل بمثابة أعمال الآباء القديسين وأجداد المسيح أنفسهم، كان من الواضح أن صلواتهم هي أثمار الروح القدس فاتح المواهب. أما ما أحدثه الهرطقة مجدفين فيما يتعلق بالله والإلهيات ومفسرين الكتاب المقدس على خلاف معانيه الصحيحة ومحرفين فيه فهو من سفسطات الشيطان واختراعاته.

ثم لا فائدة مما يقوله الهرطقة في أن لا يمكن الكنيسة أن تأمر بالأصوام والامتناع عن بعض المأكول بدون اضطراب ولا اغتصاب. فالكنيسة تقصد أمانة الجسد وكل أهوائه، وقد أحسنت جدًّا بأمرها بالصلاة والصوم اللذين صار الآباء القديسون قدوة لنا فيهما وبهما. ومع النعمة التي من العلي يضمحل خصمنا الشيطان وكل جنوده وقواته بسهولة ويتم الطريق الموضوع لحسني العبادة. ولما كانت الكنيسة الجامعة قد بَنَتْ آراءها في ذلك فهي لا تضطر ولا تكره أحدًا، بل تعزي وتنصح وتعلم تعاليم الكتاب المقدس وتقنع بقوة الروح القدس.

مكارىوس ورومة

ويختلف الباحثون من إخواننا الروم الكاثوليكين في موقف مكارىوس من رومة وأسقفها، فيرى صديقنا المرحوم الخوري قسطنطين الباشا أن مكارىوس اعترف بسلطة رومة وقال قولها، ويجادله في ذلك صديق آخر هو المرحوم حبيب الزيات فيرى أن مكارىوس قال قول رومة واتحد معها، ثم عاد إلى الانشقاق وتوفي غير كاثوليكي.

وتنحصر أدلة الخوري قسطنطين الباشا فيما يلي: (١) أن طائفة الروم لم تكن في عهد مكارىوس منقسمة إلى طائفتين كما هي اليوم، بل كانت واحدة وكان مكارىوس وحده بطريركها لا شريك له فيها. (٢) أن طائفة الروم لم تجهر آنئذ بالانشقاق والانفصال، ولم يناقض أحد من أبنائها تعليم الكنيسة الرومانية في تأليف أو رسالة. (٣) أن الاشتراك في القدسيات مع الروم لم يكن ممنوعًا في ذلك العهد، بل كان مباحًا جاريًا بالفعل.

(٤) أن كنيسة الروم كانت كاثوليكية بتعليمها وصلواتها وسائر طقوسها، بخلاف باقي الطوائف الشرقية من أرمن وسريان وأقباط وكلدان، وأن هؤلاء هراطقة مشهورون محرومون من شركة الكنيسة الكاثوليكية ولم يكن قد دخل إلى كنيسة الروم الأنطاكية عيد فوطيوس ولا عيد غريغوريوس بالاماس. (٥) أن أبحار رومة لم يمنعوا الكاثوليك عن الاشتراك مع الروم إلا بعد أن امتازت كل فئة من هذه الطائفة عن أختها بإكليروسها وصورة إيمانها وتعليمها بشأن قضايا الخلاف. (٦) أن الكاثوليك لم يستطيعوا المجاهرة آنئذٍ باتحادهم مع رومة. (٧) أن السلطات العثمانية اعتبرت الروم وحدهم أهل الذمة واعتبرت الكاثوليك أعداء الإسلام لكثرة الحروب التي شنّها ملوك أوروبا الكاثوليكين على السلطنة. (٨) أن البطريرك مكاريوس كان كاثوليكيًا على هذا الوجه، وإن اشترك في القدسيات مع الروم جريًا على العادة القديمة فإنه لم يشاركهم في انفصالهم، بل بعكس ذلك كان بسلوكة وكلامه وكتاباته كاثوليكيًا تمامًا على ما تقتضيه أحوال تلك الأيام، فإنه أمضى صورة الاعتراف بالإيمان الكاثوليكي بخط يده أمام شهود تقاة، وهي محفوظة في سجلات مجمع انتشار الإيمان، ثم أعلن ذلك مصرحًا بصحة هذا الإيمان في مواقف رسمية في كنيسته أمام بطاركة ومطارنة وقناصل ومرسلين من شرقيين وغربيين أو إفرنج كانوا من معارفه وأصحابه الذين عرفوه تمام المعرفة.^{٢٥}

ولا حاجة إلى تنفيذ هذه التعليمات التي تفتقر إلى التدعيم بالنصوص المعاصرة الكاملة العدالة والضبط. بيد أنه لا بدّ من الإشارة إلى أن المسلمين لم يفرقوا في الاعتراف بأهل الذمة بين أرثوذكسي وكاثوليكي، بل أطلقوا هذا الاصطلاح الفقهي على جميع النصارى واليهود وعلى غيرهم أيضًا. ولا بدّ كذلك من القول إن أقرب دول أوروبا إلى الدولة العثمانية آنئذٍ كانت دولة فرنسة «ابنة الكنيسة البكر»، وأبعدها وأشدّها عداوة كانت روسية الأرثوذكسية.

ويستطرد الخوري قسطنطين الباشا فيقول: ولإزالة كل ريبة ينبغي لنا أن نورد هنا ما بلغ إليه بحثنا من هذه الشهادات الشافية بنصها:

(١) قال الأب ميخائيل نو اليسوعي في الفصل السابع من الجزء الرابع من الكتاب الذي ألفه بالعربية سنة ١٦٧٠ وعنوانه: «احتجاج كنيسة الروم على صحة إيمانها»، ردًا

^{٢٥} نخبه من «سفرة البطريرك مكاريوس» بقلم ولده الشماس بولس، عُني بطبعها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين الباشا: الملحق، ص ١١٩-١٢٣.

على من يعترض فيقول إن البطارقة على خلاف مع البابا: «مَن الذي أخبرك عن رأي البطارقة وأفعالهم؟ وهل اعترفوا عندك بكل سر خفي؟ فقد سمعتُ وقرأتُ أن بعضهم بعدوا عن هذا الرأي الرَّيِّ ورموا الطاعة للبابا على الطريق الممكن لهم.» ونحن نقول إن شهادة الأب اليسوعي ميخائيل نو ناقصة في العدالة والضبط، وإنها ضرب من الدعاية قصد بها صاحبها اجتذاب القراء إلى طاعة رومة، وإنها غامضة مبهمة لا تذكر البطريرك مكاريوس ولا تعنيه.

(٢) أن رئيس الرسالة اليسوعية في الشام الأب يوحنا أميو قال في السنة ١٦٥٠: وبطريرك الروم المقيم هنا في دمشق الذي يلقب بالأنطاكي ليس متعذرًا اتحاده مع رومية نظير أسلافه، وهو رجل صالح يحسن الوعظ وإن لم يكن قد تعلم الفلسفة واللاهوت، وهو يحبنا؛ لأن آباءنا ساعدوه وشفوه من مرضه إذ كان مطرانًا على حلب، وعندما زار صيدا قابلني فيها أحسن القبول. ومن دأبه أن يعظ جماعته بأنه ينبغي أن نحب الإفرنج كأنهم إخوتنا في المسيح، ولا يجوز لنا أن نتجنبهم، وكان لكلامه هذا نتيجة حسنة عند الروم، وهكذا فعل في طرابلس حيث سمعت بذاتي وعظه في كنيستهم، فلو كان متعلمًا لكان أحسن.

ونحن نرى أن الأب قسطنطين تصرف في الترجمة فجاءت غير صالحة للاعتماد عليها، ومثال ذلك قوله بالعربية: «الذي يلقب بالأنطاكي.» والصحيح أن النص الإفرنجي يقول: «الذي يدَّعي أنه بطريرك أنطاكية!» وكذلك عبارة الأب قسطنطين: «ليس متعذرًا اتحاده مع رومية.» والأصل الإفرنجي ينص: «الذي يمكن جعله صديقًا لرومة!»^{٢٦} والواقع أنه ليس في هذا النص ما يخولنا القول إن مكاريوس كان «كاثوليكيًا تمامًا» كما يريده الأب الباشا، وجل ما يجوز استنتاجه أن هذا البطريرك اعترف بفضل الرهبان عليه في حلب فلاطفهم، وأنه اعتبر الرومانيين الكاثوليكين إخوة له في المسيح فلم يرضَ عن مقاطعتهم.

(٣) أن رؤساء الرسائل الكاثوليكية في حلب قالوا: إنه إذ نظر هذا بطريرك الروم اضطر أن يقر أن الدين الحق هو مذهب الرومانيين أو الإفرنج؛ ولهذا دعا القنصل المذكور والمرسلين لحضور قداس حافل في كنيسته، ثم أعلن فيه لشعبه أن الإفرنج سالكون حقًا الطريق المستقيم. ولما عرف أن القنصل عازم على السفر إلى رومية وفرنسة أرسل معه

^{٢٦} Rabbath, A., Doc. Inéd., I, 401, 402

رسالة إلى البابا يعترف فيها بأنه هو الحبر الأعظم العام على الكنيسة الأرثوذكسية، وأنه سيبدل جهده في سبيل إخضاع طائفته كلها للكنيسة الرومانية.

وهنا أيضًا يسيء الأب قسطنطين التعريب، وكان أجدر به أن ينقل خلاصة الفقرة السابقة فيصف الضيق الذي حلَّ بالمسيحيين في حلب في شتاء السنة ١٦٦١ واضطهاد الحكام، وأن يذكر المساعدات المادية التي قدمها المرسلون الرومانيون فيقول: «ولما رأى بطريك الروم هذا اضطر أن يعترف بأن الدين الحقيقي كان عند الرومانيين، وأنه دعا القنصل والمرسلين لحضور القداس في كنيسته حيث أظهر لشعبه بأن الإفرنج كانوا سالكين طريق الخلاص، ثم بعد ذلك علم أن القنصل سيضطر إلى السفر إلى رومة وفرنسا فجاءه برسالة ورجاه أن يسلمها إلى يد صاحب القداسة، وأعلن في هذه الرسالة أنه عرف أن البابا هو سيد الكنيسة القويمة الرأي، وأنه سيبدل جهده لإعادة وصل ملته بالكنيسة الرومانية بعد أن فصلتها العجرفة عنها.»^{٢٧} ويلاحظ أن مكاريوس أحب أن يعترف بفضل القنصل والمرسلين على فقراء الروم في حلب، فأقام قداسًا نوّه فيه بأثر الدين الحقيقي في نفوس الرومانيين، وأبان لشعبه أن هؤلاء سلكوا طريق الخلاص، وكتب إلى البابا يأسف على الانفصال الذي حلَّ بالكنيسة ويعد أنه سيسعى لإزالته!

ويُطلق الأب الباشا عِنان الهوى فيستعين بغير هذه النصوص، ولكنه يستمر في التسكع في بيداء الغواية. وإلى القارئ باقي الأدلة التي يتذرّع بها هذا المؤرّخ نوردها على سبيل الإحاطة وننصح بالتيقظ والتربص. فهو يدّعي في المرتبة الرابعة أن مكاريوس خضع لرومة وقال قولها؛ لأنه «كان من أكبر المساعدين لانتخاب أندراوس أخيجان بطريركًا على السريان الكاثوليك»، ولأنه في المرتبة الخامسة شربَ نخب البابا في وليمة قنصل فرنسة «وسماه رأس الكنيسة العام»، والنص الإفرنسي يقول إنه شرب نخب البابا وقال: «لصحة الأب الأقدس زعيم الكنيسة، وإنني أتوسل ألا يكون سوى راعٍ واحد وقطيع واحد كما كان في الماضي.» ويورد في المرتبة السادسة اتحاد البطاركة الثلاثة وإعلان طاعتهم للحبر الروماني، ولا يذكر ما قاله بطريك السريان الكاثوليك في هذا الصدد عن مكاريوس: «إن بطريك الروم ومعظم شعبه قد بدءوا يعرفون الحقيقة.»^{٢٨} ويهمل

^{٢٧} Rabbath, A., op. cit., I, 459.

^{٢٨} Ibid., 470.

ملاحظة الأب رباط نفسه وشكه في موقف مكاريوس من الاتحاد المزعوم،^{٢٩} ويرى مؤرخنا في المرتبة السابعة أن مكاريوس اتحد مع رومة؛ لأنه قال في رسالته إلى لويس الرابع عشر: «يا أصيل في حسن العبادة والديانة، ونحن من هذا الجنس الأصيل في حسن العبادة من سلالتمكم الطاهرة..» ويلاحظ الأب رباط خُلُوَّ هذه الرسالة من اللفظ «كاثوليك» فيشك في قناعة مكاريوس وإخلاصه.

أما الأب قسطنطين فإنه يرى في هذا النص أن البطريك الأرثوذكسي أراد أن يقول إنه كاثوليكي مثل لويس! وهكذا دواليك إلى أن يقول في الصفحة ١٣٠ من النخبة المشار إليها إنه وجد في مكتبة الفاتيكان نسخة من السواعي تحت الرقم ٦١٨ من المخطوطات العربية وقد كُتِبَ عليها هكذا:

وقد طُبعت في مدينة رومية في عهد مكاريوس الجزيل قدسه بطريك أنطاكية من وجود وإحسان سيدنا البابا ألكسندروس السابع ذي الفضائل الكلية ثبَّتَ الله وجود إحسانه ونِعْمه للأنام، وشيَّدَ معالي فضائله وفواضله للخاص والعام وأجزاه عن فعله بالجوائز الفاخرة بسمو المقام في الدنيا والآخرة، بتاريخ سنة ١٦٦٢ للتجسد الإلهي.

ونحن لا نرى في هذا النص أي دليل على خضوع مكاريوس لألكسندروس، ولا سيما وأن كاتب هذه العبارة مجهول. ويورد الأب الباشا أن ألكسندروس كتب في ٢٢ تموز سنة ١٦٦٢ إلى مكاريوس يقول:

علمنا من مکتوبك ومن ولدنا فرنسيس بيكت (قنصل فرنسة في حلب) أنك ليس فقط تابعًا للإيمان الأرثوذكسي، بل إنك تبذل جهدك حتى تجمع كل الشعب الذي تحت سلطتك إلى الكنيسة الرومانية رأس كل الكنائس.^{٣٠}

ويخلص الباشا إلى القول إنه ليس بعد نص هذه الشهادة أوضح دلالة أو أعلى مقامًا. وعندنا أنه لا يجوز قبول هذا النص أو رده ما دامت رسالة مكاريوس إلى البابا ضائعة لا نعلم ما جاء فيها.

^{٢٩} Ibid., 470, n. 1.

^{٣٠} Arch. Vat., 1662, Alex. VII, Breves ad Principes, 224.

ويلاحظ لهذه المناسبة ما يلي: (١) أن مكاروريوس ظل محترماً مكرماً في جميع الأوساط الأرثوذكسية الإكليريكية العالية طوال أسقفيته وبطريركيته. (٢) أن هذا البطريرك تعاون مراراً مع سائر البطارقة الأرثوذكسيين في أمور تتعلق بالكنيسة جمعاء. (٣) أنه ما فتئ يذكر البطارقة في الذبتيخة طوال عهده ولم يُرو عنه أنه ذكر بابا رومة مرة واحدة. (٤) أن ابنه بولس يطلق التعبير «بلاد المسيحيين» على البلدان الأرثوذكسية. (٥) أن مكاروريوس نفسه يشير إلى الكنيسة التي إليها ينتمي باللفظ «الأرثوذكسية»، وحينما يستشهد بالمجامع المسكونية يجعلها سبعة فقط. (٦) أنه يطلق اللفظ «كاثوليكي» على الكنيسة الشرقية فيقول: الكنيسة الشرقية الكاثوليكية، ويقصد بذلك الكنيسة الجامعة التي يرأس هو إحدى فروعها، والتي يسميها أرثوذكسية أيضاً. (٧) يحتمل كثيراً أن يكون مكاروريوس أوسع صدرًا من زملائه في الشرق والغرب فيعتبر الكنيستين اللاتينية واليونانية كنيسة واحدة جامعة «كاثوليكية»، ويرحب بإخلاص بكل ما يؤدي إلى تقريب القلوب والرجوع إلى ما كانت عليه الحال قبل الانشقاق، ولكن هذا لا يعني أنه دخل في طاعة رومة. (٨) لا يوجد في محفوظات رومة أي اعتراف بطاعتها يمكن عزوه إلى مكاروريوس.^{٣١}

مصنفات مكاروريوس

وقد خُلف هذا السعيد الذكر عدة مؤلفات، منها: (١) «سلسلة البطارقة الأنطاكيين». و(٢) «سيرة البطريرك نيقون الروسي وسياسته». و(٣) «سيرة البطريرك أفثيميوس الثالث». و(٤) «شرح الخبر عن ابتدا بدعة محاربي الأيقونات». و(٥) «الرد على الكلونيين». و(٦) «عجائب العذراء». و(٧) «أخبار القديسين». و(٨) «أخبار المجامع المسكونية السبعة». و(٩) «التاريخ الرومي العجيب من عهد آدم إلى أيام قسطنطين». و(١٠) «الدر المنظوم في أخبار ملوك الروم من زمن قسطنطين إلى السلطان مراد الرابع». و(١١) كتاب «النحلة» وفيه أخبار متفرقة دينية وأدبية وتاريخية. و(١٢) كتاب «الكنوز في الأعياد السيدية». و(١٣) رحلته إلى روسية بقلم ابنه الشماس بولس. وجاء في تاريخ قسطنطين باشا أن سلسلة البطارقة الأنطاكيين تُرجمت إلى اليونانية بقلم الخوري ميخائيل بريك، وأن مكاروريوس أُلّف في أثناء رحلته الأولى إلى روسية خمسة

^{٣١} حبيب الزيات: «المشرق»، ١٩٣٢، ص ٨٨١.

كتب في مواضيع مختلفة مفيدة جداً وعشرة في رحلته الثانية وجميعها في اليونانية، فنقلها الخوري ميخائيل بريك إلى العربية. والخوري ميخائيل بريك نفسه في سيرة البطريرك مكاريوس يحسب هذه المصنفات من ترجمة البطريرك لا تأليفه، فقد قال: «وله أتعاب كثيرة من جملتها كتب بخطه في الغيبة خمسة كتب وفي الغيبة الثانية عشرة كتب، وكلها لا أصل لها في اللغة العربية، بل هو نقلها من الرومي إلى العربي، وهي معروفة عند إخواننا أولاد العرب وفيها فوايد عظيمة؛ لأنني أنا الفقير اجتمعت بجانب منها بخطه وبغير خطه نسأل الله أن يجمعنا بالباقي».^{٣٢}

ونقل بلفور الإنكليزي أخبار الرحلة إلى الإنكليزية ونشرها في مجلدين بين السنة ١٨٢٩ والسنة ١٨٣٦، ثم نقلها جرجي مرقس إلى الروسية في مجلدات خمسة وذلك بين السنة ١٨٩٦ والسنة ١٩٠٠. وقام الأب أنطون رباط اليسوعي فنشر رسالة مكاريوس في الرد على الكلونيين في مجلة «المشرق» في السنة ١٩٠٤ تحت العنوان «الطوائف الشرقية وبدعة الكلونيين». ثم نشر الخوري قسطنطين الباشا «نخبة» من رحلة البطريرك مكاريوس سنة ١٩١٢. وتولى في السنة ١٩١٣ الأب لاونديوس كلزي حياة البطريرك أفثيموس كرمة فنشرها في أعداد مجلة «المسرة».

^{٣٢} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغساس قندلفت، مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٤٧-٢٤٨.

الفصل الرابع

الروم الكاثوليك

نيوفيطوس وكيرلس (١٦٧٢-١٧٢٠)

وتوفي مكاريوس الثالث في الثاني عشر من حزيران سنة ١٦٧٢، كما نص بذلك حجر منقوش عرفه الخوري ميخائيل بريك في كنيسة كبريانوس ويوستينة في دمشق، وقيل إن أناساً من أشرار محلة الميدان ائتمروا فسقوه سماً فانتقل إلى جوار ربه.^١

وبعد وفاة هذا السعيد الذكر فضل الدمشقيون قسطنطين حفيد مكاريوس على غيره؛ احتراماً لقدّر جده وإكراماً لورع والده الخوري بولس واعتباراً لصفاته الممتازة، فقد كان فصيحاً لبيباً ذكياً فاضلاً. وقد ذكره قسطنديوس القسطنطيني بقوله: «وأما الدمشقيون فنظرًا لميلهم ومحبتهم للمغبوط مكاريوس وقيامًا منهم بحق الشكر وعرفان الجميل والمنة لفضله الوافر في نجاح الكرسي وتقديمه انتخبوا حفيده بصوت واحد وهو ابن الخوري بولس ابن البطريرك مكاريوس السعيد الذكر، ودعوه كيرلس في شرطونيته وارتقائه إلى السدة البطريركية. ومع حادثة سنّه فإنه كان فصيحاً لبيباً متصفاً بتعقل الشيوخ وحكمتهم».^٢

وجاء لصاحب تاريخ أبرشية بيروت^٣ أن الدمشقيين استصدروا براءة لكيرلس، فلما وصلت شرطنه بطريركاً كلٌّ من غريغوريوس متروبوليت حوران ورومانوس متروبوليت الزبداني ولاونديوس متروبوليت صيدنايا وجرمانوس متروبوليت بمفيلية، وذلك في الثاني

^١ «تاريخ البطاركة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٤٧.

^٢ Constantius, Patriarchs of Antioch; Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, 183.

^٣ ولعل هذا المؤرخ المجهول هو عبد الله ميخائيل طراد.

من تموز سنة ١٦٧٢. وإن قيل كيف أن أساقفة الكرسي وآل دمشق اختاروا هذا الرجل الحدث السن جدًّا مع أنه كان يومئذ في أبرشية الكرسي الأنطاكي أكثر من عشرين أسقفًا؟ ألعله لم يكن بينهم كُفؤ للبطيركية إلا هذا الحدث السن؟ فنجيب: بلى، إنما انتدب هذا وشُرطن لثلاثة أسباب؛ أولاً: احترامًا لقدر جده البطيريك مكاريوس الذي جاهد جهادًا عظيمًا بوفاء ديون كثيرة وانتظمت في أيامه الأبرشية كلها أكثر من أيام سلفائه. ثانيًا: إكرامًا لورع والده الخوري بولس، وكان هو وولده محبين للدمشقيين ومحبوبين منهم جدًّا، وكان هذان الفاضلان ملازمين للقلاية البطيركية، وكانت مداخل كراسي الأبرشية بيد والده الخوري بولس مع جميع متخلفات جده، وليس لأحد سواه معرفة بذلك. ثالثًا: ولئن كان كيرلس حدث السن إلا أنه كان كامل العقل متجملًا بالفضيلة متأدبًا فصيحًا لبيبا؛ فهذه الأسباب الثلاثة كانت تمنع البعض من الأساقفة وسائر المسيحيين وتبكمهم عن التكم غير اللائق بحقه؛ إذ كانوا مشمئزين منه لحداته سنة.

نيوفيطوس (١٦٧٤-١٦٨٤)

ولم يرضَ آخرون ولعلهم الأكثرية عن الخروج على القانون والتقليد، فطعنوا في حادثة سن كيرلس، ونددوا بانتخابه غير الشرعي، وقدحوا في شرطونيته غير القانونية وازدروا بإقامته بطيريكًا بصولة السلطات الزمنية. واتفق أن اجتاز دمشق في أثناء هذه المشادة البطيريك الأورشليمي دوسيتيوس الثاني العالم الشهير والحرير الجليل، ونزل ضيفًا على الدار البطيركية فتسنى له أن يتعرف إلى كيرلس في أوائل عهده في البطيركية. وتحقق بذاته دور الحادثة الذي كان كيرلس لا يزال فيه، فقال عنه إنه «الطفل الصغير»، وإنه «بسطوة السلطة الغاشمة وجبروتها قد جلس على الكرسي».^٤

واجتمع دوسيتيوس بنيوفيطوس متروبوليت حماة فأظهر له نيوفيطوس عدم الرضا عن شرطونية كيرلس وبطيريكته لمخالفتها القانون، وقدم المطارنة عريضة بالعربية إلى الكنيسة المسكونية يشكون فيها أمر كيرلس ووصوله إلى السدة الرسولية الأنطاكية، فعقد البطيريك المسكوني ديونيسيوس الرابع في أوائل تشرين الثاني من السنة ١٦٧٢

^٤ البطاركة الأنطاكيون لدوسيتيوس في مجموعة المقتطفات من مخطوطات القبر المقدس لكرمفس ١: ٢٨٦ (بترسبرج ١٨٩١).

مجمعاً برئاسة وبحضور البطريرك الأورشليمي، وبعد أن أُطْلِع المجمع على عريضة مطارنة الكرسي الأنطاكي وعلى رسائل أخرى شتّى أُصدر بناءً على قانون الرسل ٣٠ والمجمع المسكوني السابع ٣ ومجمع قيصرية ١١ ومجمع ترولو ١٤ قراره بالإجماع بخلع كيرلس وطرده من الكرسي الأنطاكي،^٥ ثم رُشِّح مجمع القسطنطينية للسدة البطريركية الأنطاكية الشاغرة كلاً من نيوفيطوس متروبوليت حماة وغريغوريوس متروبوليت قيصرية وأفجانيوس متروبوليت خريستيانوبوليس. وأخيراً تم انتخاب نيوفيطوس بالإجماع، فطلب رجالات الكرسي الأنطاكي إلى نيوفيطوس أن يتوجه إلى القسطنطينية ويتقلّد البطريركية بموجب كتاب منهم. كما أن المجمع نفسه استدعاه إلى المدينة المملوكة، فقام نيوفيطوس إلى القسطنطينية فأقيم فيها بطريركاً على أنطاكية، وبعد انقضاء عام تقريباً على تنصيبه جاء إلى دمشق وتولّى زمام الكرسي البطريركي.^٦

ثم قام كيرلس إلى القسطنطينية واستصدر براءة سلطانية بالبطريركية وعاد إلى دمشق، فانقسمت الرعية وتفاقم الشر وكثرت المغارم، فعاد نيوفيطوس إلى القسطنطينية واستصدر براءة سلطانية جديدة ورجع إلى دمشق وضبط الكرسي. وبقيت الحال على هذه المنوال تسع سنوات، وترتب على نيوفيطوس دين كبير فقال له كيرلس: أنا أقضي هذه الديون عنك وأتخلّى لك عن اللادقية وتوابعها تقيم بها وتستأثر بدخلها، فرضي نيوفيطوس بذلك، ودخل اللادقية واستراح فيها مدة، وكان يوقع «البطريرك الأنطاكي سابقاً»، وبعد أربع سنوات تُوفي ودفن في كنيسة القديس نقولاوس بهيكل مار موسى الحبشي.^٧

ومن آثار نيوفيطوس اعتراف بالإيمان المقدس لدحض أقوال كلونيوس، فإن الأب ميخائيل نو اليسوعي قابل هذا البطريرك في أيار السنة ١٦٧٣ وشكا إليه أمر الكالوينيين ورجاه تأييد الكاثوليكين، فحرر نيوفيطوس اعترافاً بالإيمان الأرثوذكسي ووقعه معه غريغوريوس متروبوليت حوران وأنطونيوس متروبوليت بعلبك ورومانوس

^٥ السجلات البطريركية ٢: ١٥٩، «نشأة الكثلكة»، لسيادة أغناطيوس متروبوليت البرازيل، «الراعي الصالح»، ج ٥، ص ٣٦ و ٥٢.

^٦ مكتبة فوطيوس تصنيف جناديوس (أراباتزغلو) متروبوليت هيروبوليس وثيرون، (١٩٣٥)، ص ٤٩ و ١٣٨، «الراعي الصالح»، ج ٥، ص ١٨٦.

^٧ «البطاركة الأنطاكيون»، لغطاس قندلفت، «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٦٧، «خريسوفرجي»، ص ٤٣.

أسقف الزبداني وأربعة عشر كاهناً وستة شمامسة وعدد من الأعيان. ثم عرض الأب ميخائيل هذا الاعتراف على كل من أرميا متروبوليت صور وصيدا وفيليبوس متروبوليت بيروت، فاشتركا في التأييد والتوقيع.^٨

بدء رسالة اليسوعيين وغيرهم

وكانت رومة لا تزال تتطلب وحدة الكنيسة عن طريق الخضوع والطاعة لأسقف واحد اعتبرته أسقف الأساقفة، وكانت قد أرهفت لهذه الوحدة غرار عزمها في مجمع تريندنتوم Trent (١٥٤٥-١٥٦٣) وأخذت تتجهز لها وتتذرع، فأصدرت في السنة ١٥٥٣ بولّة بتأسيس كليات ثلاث في أورشليم والقسطنطينية وقبرص. وكان غريغوريوس الثالث عشر قد أسس في السنة ١٥٧٦ كلية للموارنة في رومة أيضاً. وكانت فرنسا قد جعلت من أهدافها الرئيسية في الشرق حماية «الدين الكاثوليكي» في أراضي الإسلام وكشف الهم عن أتباعه «وردّ المسيحيين المشاقيين إلى الطاعة».^٩

وأحب أوربانوس الثامن أن يستغلّ الصداقة القائمة بين فرنسا والسلطنة العثمانية ففاتح حكومة لويس الثالث عشر كلاً في رد المسيحيين «المشاقيين» إلى الطاعة فوافقت، فأصدر أمره إلى الكرملين والكبوشيين واليسوعيين بوجوب إرسال آبائهم إلى الشرق الأدنى، ولا سيما سورية لرد أبنائها المسيحيين إلى الطاعة، وأوصى لويس الثالث عشر بهؤلاء المرسلين فكتب إلى سفيره في الأستانة المسيو ديه سيزي De Césy وحرر هذا بدوره بالمعنى نفسه إلى قناصل فرنسا في الإسكندرية وصيدا ودمشق وحلب. وبدء المرسلون أعمالهم في حلب أهم مدن سورية ولبنان آنئذٍ وأقربها إلى آسية الصغرى والعراق، وأنشئوا فيها في السنوات ١٦٢٥-١٦٢٧ مراكز لأعمالهم متعاونين في ذلك مع الآباء الفرنسيين مستبصرين بخبرتهم الطويلة وإرشاداتهم. ثم انطلقوا من حلب فعملوا في دمشق وصيدا وطرابلس وحيوس وإزمير وناكسوس،^{١٠} «ومارسوا التطبيب مجاناً

^٨ «تاريخ طائفة الروم الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٧٦، هامش ١.

^٩ Rey, La Protection diplomatique et consulaire, 305; Neuville, R., Heurs et Malheurs des consuls de France à Jérusalem, Ronald Press, 1947.

^{١٠} Jock, Th., Jésuites et Chouérites, 3-11: Goyau, G., Francois Picquet Consul de Louis XIV a Alep.

وتدخلوا مع الأساقفة الكهنة، وترددوا إلى الكنائس الأرثوذكسية وإلى بيوت المسيحيين متظاهرين بالمحبة والوداعة ووحدة الإيمان، ناشرين بين العامة أن معتقداتهم أرثوذكسية لا تختلف بشيء أبداً عن معتقدات الكنيسة الشرقية ما عدا بعض فروق ليست بذات أهمية، وكثيرون منهم كانوا يحامون ويدافعون عن أمور كثيرة في المعتقدات والطقوس الشرقية يحسبها الغربيون اليوم خللاً وشوائب. وكانوا يظهرون علناً أنهم ينكرون أهم المعتقدات التي يتمسك بها غير الأرثوذكسيين؛ وهذا ما حمل البطريرك أفثيميوس الرابع الصاقزي أن يأوي البعض منهم إلى دار البطريركية.^{١١} وسمح لهم أن يُعلّموا أبناء الطائفة، وأن يُمارسوا سرّ الاعتراف في الكنائس الأرثوذكسية، وأن يزوروا منازل المسيحيين.

وألقى هؤلاء المرسلون بذار تعاليمهم بوساطة سر الاعتراف، فلم يطلبوا من السذج وجمهور المؤمنين الأرثوذكسيين سوى إيمان آبائهم وقرارات مجامعهم. ولكنهم صارحوا المثقفين في ظروف معينة وأوجبوا رجوعهم عن الخطأ، وإليك ما كتبه أحد الآباء اليسوعيين في السنة ١٦٥٠ عن طريقتهم في اجتذاب النفوس:

عندما يأتي أرثوذكسي ليعترف عندنا نسأله إذا كان يؤمن بما علم به الآباء اليونانيون: باسيليوس وأثناسيوس وغريغوريوس والذهبي الفم والدمشقي، فجيب نعم، فنسأله ما إذا كان لا ينبذ ويلعن كل تعليم يتفق وما علم به هؤلاء الآباء القديسون، فيجيب نعم. ولما كان دستور إيمانهم لا يختلف عن دستور إيماننا إلا بالكلمة «والابن»، ولما كنا نحن نعتبر هذه الكلمة مجرد تفسير للدستور، فإننا نسأله ما إذا كان لا يفهم الدستور كما فهمهم آباء الكنيسة والمجامع المقدسة، فيجيب نعم. وعندئذٍ يتلو الدستور ونحله. وجميع الأرثوذكسيين الأذكياء المتعقلين يعترفون بتقدم البابا؛ لأنهم يقرءون في كتبهم كيف التجأ الذهبي الفم في أثناء محنته إلى البابا، وكيف أعاده البابا إلى كرسيه مهدداً الإمبراطور والإمبراطورة بالحرمان، ويستنتجون عندئذٍ أن الأرثوذكسيين والإمبراطور نفسه خضعوا في عهد الذهبي الفم إلى البابا.^{١٢}

^{١١} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، «منار»، ١٨٩٩، ص ٢٧٨-٢٧٩.

^{١٢} Les Jésuites dans le Levant Vers 1650, L'Unité de L'Eglise, 1934, 64; Musset, H., Hist. du Christ, II, 131-133.

وهكذا فإنه بينما كان الرؤساء الأرثوذكسيون يتخاصمون ويشقُّون الطائفة، كان هؤلاء المرسلون اللاتينيون يعملون لتقريب العقول والقلوب من رومة وحبرها، وكان سفراء الدول الكاثوليكية وقناصلها يعضدونهم بكل ما أمكنهم من الوسائل لتنفيذ رغبة رومة في «الكتلة»!

أثناسيوس الرابع (١٦٨٦-١٦٩٤)

وترملت أبرشية حلب وجَدَّ أبنائها في التفتيش عن إكليريكي لائق، فاهتم المرسلون اللاتينيون للأمر ووجهوا الأنظار شطر المدينة المقدسة مشيرين إلى بروكوبيوس رئيس دير بيت لحم. وكان بروكوبيوس (أو بائيسيوس) قد أبصر النور في دمشق من والدَيْن أرثوذكسين، فنشأ فيها باسم بولس الدباس وتعلَّم عند الآباء اليسوعيين، فقال قولهم في الإيمان، ثم دخل معترك الحياة فاحترف الخياطة مدة من الزمن. وكان جميل الصورة «فخاف على عرضه من الأناس الأردياء». ورحل عن دمشق إلى أورشليم لينذر نفسه لله، فلبس الأسكيم في دير القديس سابا وأتقن اللغة اليونانية والعلوم الدينية وسيم قَسًّا ثم نصَّب رئيسًا على دير الروم في بيت لحم، واتصل بالرهبان الفرنسيين «فتجدد فيه الإيمان الروماني وتمكَّن منه بعد تراخيه من معاشرة المشاقين». ^{١٢} وأمَّ أراخنة حلب المدينة المقدسة تبرُّكا واتصلوا بمرشح المرسلين فوجدوه وديعًا بشوشًا بارعًا في العلوم الدينية متضلعا باللغتين العربية واليونانية، فرغبوا في انتدابه لأسقفية حلب وأقنعوه أن يترك الدير ويرافقهم مارًا بدمشق ليشترطن فيها. فلما وصلوا إلى دمشق وبحثوا الأمر مع البطريك كيرلس رضي ثم عدل، ^{١٤} فحقد الحلبيون وتحرك الرهبان الفرنسيون «وأرادوا أن يقيموا بروكوبيوس بطريركا على أنطاكية لأجل تمكُّنه في الإيمان الروماني المقدس عوض كيرلس الذي كان مشاقًا، فسعوا له في ذلك وأقاموه بطريركا بأمر السلطان». ^{١٥} وكان لبروكوبيوس خال اسمه ميخائيل شامبذيم طرزي من ذوي الوجاهة، ^{١٦} فقام إلى

^{١٢} «ديوان البدع»، للمطران جرمانوس فرحات جليس أثناسيوس وعشيرته في حلب، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخورى قسطنطين الباشا، ج ١، ص ١٢٦-١٢٧.

^{١٤} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٦٨، و«الحقائق الوضعية»، ص ٦.

^{١٥} «ديوان البدع» أيضًا، «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٢٧.

^{١٦} «الحقائق الوضعية»، ص ٦٠.

القسطنطينية حاملاً محضراً موقعاً من وجهاء الطائفة في حلب، وكتب توصية من بعض قناصل الدول الإفرنجية في حلب إلى سفرائهم في القسطنطينية. فلما وصل إليها عرض أوراقه على المجمع، فعزل المجمع كيرلس واستصدر لبروكوبيوس أوامر سلطانية على ما جرت به العادة.^{١٧} وعاد الخال إلى دمشق وأطلع حاكمها وقاضيهما على الأوامر السلطانية. وكان كيرلس يطوف في الأبرشية، فتم في غيابه انتداب بروكوبيوس بطريركاً على أنطاكية يوم الأربعاء في ٢٥ آب سنة ١٦٨٦ بحضور ثلاثة من المطارنة هم لاونديوس مطران صيدنايا، ويواصف مطران نابلس، ومطران حوران. ودعي أثناسيوس، فلما نمت خبر ذلك إلى كيرلس أرسل إلى الأستانة واستحضر أوامر وبراءة سلطانية شريفة ودخل دمشق ووضع يده على دار البطريركية. وأما أثناسيوس فسكن في أمطوش مار ميخائيل ثم انتقل إلى حلب.

وفي العاشر من نيسان سنة ١٦٨٧ كتب أثناسيوس إلى سفير فرنسا في القسطنطينية يؤكد أنه نشأ كاثوليكياً في دمشق بفضل الآباء اليسوعيين، وأنه أرسل منذ بضعة أشهر اعترافه بالإيمان الكاثوليكي على يد الآباء الفرنسيين إلى الحبر الأعظم، ثم يرجو السفير أن يكون بظل حماية ملك فرنسا، وأن يستمد هذه الحماية في وقت الضرورة، وأن يحظى بها حينما يطلبها، ويضيف أنه يلتزم مراقبة خصومه خصوم الكنيسة الرومانية ومنعهم عن إيقاع الضرر به لدى الباب العالي.^{١٨}

وصورة اعتراف أثناسيوس بالإيمان الكاثوليكي كُتبت في الرابع من تموز سنة ١٦٨٦ قبل وصوله إلى البطريركية بسبعة أسابيع، وعنوانها: «صورة اعتراف أثناسيوس البطريرك الأنطاكي على جماعة الروم». وإليك مقتطفات منها أثبتتها الخوري قسطنطين الباشا في كتابه «تاريخ الطائفة الملكية» نقلاً عن الأصل المحفوظ في رومة:

أنا أوّمن إيماناً ثابتاً وأعتقد بكل ما تحويه فصول الأمانة المستعملة في الكنيسة المقدسة الرومانية ... ثم بالمجمع القسطنطيني الرابع وهو الثامن من المجامع العامة، وأعتقد أن فوطيوس اترفص فيه واتحكم عليه بعدل وحق، وأن القديس أغناطيوس ارتد مكانه في الكرسي القسطنطيني ... وبالمجمع

^{١٧} المؤرخ البيروتي المجهول، «تاريخ الطائفة الملكية»، ص ١٣٥-١٣٦.

^{١٨} Rabbath, A., op. cit., II, 106.

الفلورنتيني، وأعتقد بجميع الأمور المحددة فيه؛ أعني الروح القدس هو أزي من الآب والابن وله ذات وماكث مع الآب والابن معًا، وعلى الدوام وهو منبثق من الاثنين كمن مبدأ واحد ونفخة واحدة. ولأجل ذلك إن القول من الابن قد وضع في الأمانة ضروريًا وحقيقة حتى يفسر الحق والضرورة العظمى ... والآن بحريتي وحسن رضائي من كل قلبي أعتقد بها وبالحقيقة والصدق أتمسك بها سالمة من غير عيب إلى آخر نفس من حياتي بثبات بعون الله تعالى، وأحفظها وأعترف بها وأحترص على أن تتمسك وتتعلم وتكرز من الذين هم تحت تدبيري ومن رعيتي والخاضعين لي، أنا أثناسيوس البطريرك الأنطاكي على جماعة الروم أوعده وأنذر وأحلف، وهكذا الله يعينني والأنجيل المقدسة والسبح لله دائماً.^{١٩}

وقامت الشرور والفتن وتحزّب قسم لهذا وقسم لذلك، وحرّم كل منهم الآخر. وفي السادس من حزيران سنة ١٦٨٧ اعترفت رومة بأثناسيوس بطريركًا على أنطاكية «على الرغم من الشذوذ التي أحاطت بانتخابه».^{٢٠} «وانتدب سلفستروس الدهان لأسقفية بيروت فكره أن تكون إقامته على يد أثناسيوس وقال: بطركنا أفرنجي فلا أرضى أن تكون أسقفيتي في يده».^{٢١}

ونجم عن هذا الشقاق خسائر جسيمة واختباطات واضطرابات، وهدد بعض الأساقفة والأعيان بانتخاب بطريرك ثالث،^{٢٢} «فحزن أثناسيوس من هذه الأمور ومن نفقات السياسة، وأحب السلام والهدوء للكنيسة فتنازل لكيرلس في شهر تشرين الأول سنة ١٦٩٤».^{٢٣} وتصالح الطرفان على أن تكون البطريركية لكيرلس، وأن تعطى أبرشية حلب لأثناسيوس يقيم فيها ويعيش من دخلها ودخل إدلب وكلس، وعلى أن يحتفظ بلقب

^{١٩} Scritture Originali riferite nelle Cong. Greci-melchite: «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٤٠-١٤١.

^{٢٠} Dict. Hist. Géog. Ecc., III, Col. 644.

^{٢١} المؤرخ البيروتي، «الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٣٦.

^{٢٢} رسالة مطارنة بيروت وبلبك واللاذقية وطرابلس إلى مطران صيدا، «الطائفة الملكية» للخورى قسطنطين الباشا، ج ١، ص ١٤٤-١٤٥.

^{٢٣} كلام أثناسيوس نفسه كما جاء في «تاريخ بطارقة أنطاكية» الذي أعده باليونانية، «الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٣١.

بطريك إلى أن يتوفى أحدهما فينفرد الآخر بالبطريركية ولا ينتخب لها غيره، وتقرر هذا كله في مجمع الأساقفة ووافق عليه عموم أهالي دمشق وحلب،^{٢٤} ولكن رومة لم ترضَ عن هذا الوفاق، ولم يعترف حبرها أنوشنسيوس الثاني عشر به، بل حَضَّ أناسيوس على العودة إلى الكرسي البطريركي.^{٢٥}

وبعد أن تم الصلح بين كيرلس وأناسيوس قام أناسيوس إلى القسطنطينية والبغدان والفلاخ يستعطف المسيحيين. وذلك في شهر آذار سنة ١٧٠٠ وفي أيام الأمير «الحسن العبادة» قسطنطين، فعطف الأمير وقدم الهدايا، ولما عرف أن كتب الكنيسة الأنطاكية لا تزال مخطوطة أخذته الغيرة فأمر بصنع حروف عربية وتشرفت الطباعة العربية بطبع الليتورجية الأرثوذكسية وكتاب السواعي،^{٢٦} ولما عاد أناسيوس إلى حلب اصطحب هذه المطبعة معه، ثم نقلت منها إلى دير البلمند، والتقليد البلمندي يفيد أن هذه المطبعة انتقلت فيما بعد إلى دير مار يوحنا الشوير مع من أمّه من الرهبان الموالين لرومة،^{٢٧} أما التقليد الحناوي الشويري فإنه يجزم بأن المطبعة الشويرية نشأت مستقلة بهمة الشماس عبد الله زاخر.^{٢٨}

اصطلاحات كيرلس الثالث

واستتبت الراحة بعد الصلح وساد السلام في دمشق ومعظم الأبرشيات، فوجّه كيرلس أنظاره إلى تدبير أمور الرعية، وكان صاحب نفوذ عند الحكام ومحبوباً عند الجميع من مسيحيين وغير مسيحيين فوسّع الكنيسة الكاتدرائية في دمشق وزيّنها وزاد في بنيان البطريركية، ورفع عن المسيحيين مظالم عديدة، وأقام عنده اثني عشر وكيلاً علمانيين من الوجهاء وأصحاب الدراية والغيرة ليشتركوا معه في النظر في شئون الملة وتدبير أحوالها ويهتموا في مساعدة الفقراء وفي العناية بالأوقاف والكنائس.^{٢٩}

^{٢٤} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، «منار»، ١٨٩٩، ص ٢٧٩.

^{٢٥} Musset, H., op. cit., II, 165.

^{٢٦} كلام أناسيوس، «الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ١٣٢.

^{٢٧} مطبعة دير البلمند لعيسى زريق، «المنار»، ١٩٠٢، ص ١٣٣-١٣٦ و ٢٦٢-٢٦٦ و ٣٢٦-٣٢٧.

^{٢٨} مطبعة دير الشوير لأحد أبناء الرهبة الشويرية، «المنار»، ١٩٠٢، ص ٤١٠-٤١١.

^{٢٩} «تاريخ البطارقة»، لغطاس قندلفت، «منار»، ١٨٩٩، ص ٢٧٩.

رومة تكمل رسالتها

واستمسك أثناسيوس بالصلح ولم يسعَ للعودة إلى الكرسي البطريركي، فقامت رومة تكمل خطتها، وفي السنة ١٦٩٧ خصَّ الأب اليسوعي فيرسو Verseau دير البلمند بعنايته؛ لأنه كان أهلاً بالرهبان «وكان للشقاق شأن عظيم فيه بحيث يتناول كل ملة الروم». وحاول الأب فيرسو الدخول إلى البلمند لإيضاح الإيمان الكاثوليكي مرارًا ولكنه أخفق، ثم شعر اثنان من تلاميذ الآباء اليسوعيين بالدعوة الرهبانية واختارا البلمند لخدمة الله فيه، «فأخذ الأب فيرسو يزورهما ويرشدهما منبهاً إلى ما في هذا الدير من خطر»، ثم تحقق أنهما راسخان في الكتلة فاتخذهما وسيلة للدعاية الرومانية بين الرهبان فأكثر من زيارته للدير، وتعرف بسائر الرهبان، وصار يدخل ويشترك في اجتماعاتهم الديرية بدون مانع، «ولكي يرضيهم جميعاً» كان يمدح القديس باسيليوس الكبير ويتلو عليهم أخباره، ثم وضع بين أيادي صديقيه مؤلفات الأب كليسون Clisson والأب نو Nau،^{٢٠} وفي السنة ١٧٠٤ تقدم خمسة من رهبان البلمند بطلب وجَّهوه إلى مجمع انتشار الإيمان جاء فيه ما يلي:

نعرض لجلالتكم البهية أننا نحن عبيدكم مقدار خمسة أنفار من ملة الروم العرب رهبان من طريقة القديس باسيليوس الكبير، قد تربينا منذ صبانا في الديانة الكاثوليكية خاضعون دائماً للحبر الأعظم الكلي قدسه، إلا أننا في هذه الديارة لم نوجد إطلاقاً وعتق لتكميل السيرة لأجل خلاص النفس كما ينبغي في مذهب الرهبانية؛ لعدم تركين البلاد وتسلب الأمم عليها وعدم نظام أحوال الديورة والرهبان. فأعرضنا حالنا على جلالتم السنية حتى إن رسمتم تمنوا علينا وتأمرونا بأن نحضر لعندكم لذلك الطرف، نستمن فضلكم بأن تمنوا علينا من إحسان الكنيسة المقدسة بمكان حقير نتأوى فيه وحدنا داخل رومية أو خارجها، وتتصدقوا علينا هناك بالقوت الضروري والشرب الزهيد كفاف الجسد اللطيف لا غير، حتى نخدم الله بمُكنتنا على الإمكان وندعي لجلالتكم السامية البهية. سطر في دير البلمند من أعمال طرابلس الشام في أول تشرين الثاني سنة ١٧٠٤، عبيدكم مكاريوس الكاهن في الرهبان، عبدكم جرمانوس

الكاهن في الرهبان، عبدكم الحقير حنانيا الكاهن في الرهبان، عبدكم الحقير
نصر الله الكاهن في الرهبان، عبدكم جرجس الشماس في الرهبان.^{٣١}

دير مار يوحنا الشوير

وفي هذه الآونة نفسها وصل إلى البلمند شابان حليبان راغبان في التبتل والزهد، فنصح لهما الأب نصر الله الحلبي «أن يذهبوا إلى جبل لبنان ويفتشوا على مطرح خالي، وبعده نحن نجي إلى عندكم ونعمل رهبنة قانونية؛ لأن في هذا الدير الإنسان ما يحسن يعيش في حرية الإيمان؛ لأن فيه أناس معاندين وعشرتنا معهم لا تصلح. فسمعوا من شوره وراحوا حوشوا دير الذي يقال له مار يوحنا الشوير وأرسلوا أخبروهم عنه.»^{٣٢}

وكان هذا الدير حقيرًا في بدء عهده لا يشمل سوى كنيسة صغيرة على اسم يوحنا الصابغ وغرفة حقيرة أوى إليها زاهد من أبناء أسرة صوايا الشويرية، وكانت الشوير تئن من مشادة عنيفة بين أسرتها الكبريتين آل مجاعص وآل صوايا، فلما نشب الخلاف بين البطريرك أثناسيوس وكيرلس وتحزّب قسم لهذا وقسم لذاك، أيّد آل مجاعص كيرلس، فانبرى آل صوايا لمناصرة أثناسيوس. وشدّ أزر آل مجاعص معظم العائلات الشويرية فامتنع آل صوايا عن الصلاة في كنيسة السيدة كنيسة القرية وأخذوا يصلون في كنيسة مار يوحنا المشار إليها، وهكذا فليس نسبة دير مار يوحنا إلى مجرد وقوعه في خراج الشوير، بل إلى الزاهد الشويري المؤسس وإلى أنسابه الشويريين الذين اتخذوا من كنيسة معبدًا لهم وحموا من التجأ إليه من الرهبان القائلين بطاعة رومة.

رجل رومة الأوحـد

وواحد الأحاد في طاعة رومة والخضوع لأسقفها أفثيموس الصيفي متروبوليت صور وصيدا (١٦٨٢-١٧٢٣)، هو ميخائيل بن موسى الصيفي. ولد في دمشق في حوالي السنة ١٦٤٣ ونشأ فيها، وتعلم في مدرسة الطائفة في دار البطريركية ولقي عطفًا خصوصيًا من الخوري جرجس بريق فتشرب الكتلكة في حادثته، وكان الخوري جرجس

^{٣١} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٣٥٠-٣٥١.

^{٣٢} المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٥٢، اطلب أيضًا: 1903, 178, Echos d'Orient.

المذكور قد سافر إلى رومة وتخمر فيها بالكتلثة. ولما شب ميخائيل تردد على دير الآباء اليسوعيين والكبوشيين ف جذبوه إليهم وزادوه طاعة وخضوعاً، وتقرب إلى نيوفيطوس الصاقزي النائب البطريركي فأخذ اليونانية عنه وفن الموسيقى الكنسي البسلطكية. ولعل نيوفيطوس نفسه رسم ميخائيل شماساً إنجيلياً في السنة ١٦٦٦ ثم كاهناً. وتوفي أرميا متروبوليت صور وصيدا في حوالي السنة ١٦٨٠ فحضر المرسلون اللاتينيون أعيان الروم في صيدا على انتداب الخوري ميخائيل صيفي. ورضي البطريرك كيرلس الثالث فسامه مطراناً على صور وصيدا في السنة ١٦٨٢ ودعاه أفتميموس، وأول عمل هم به هذا الأسقف الجديد أنه أسرع فأرسل مع الأب أكورسيو الكبوشي صورة اعترافه بالإيمان الكاثوليكي إلى البابا أنوشنسيوس الثاني عشر، والأب أكورسيو Accursio كان معلم اعتراف الأسقف الجديد في دمشق، ومما جاء في هذا الاعتراف ما يلي:

لقد رفضت ضلال الروم وشقاقهم منذ زمان واعترفت بالإيمان الكاثوليكي بين أيادي الرهبان المرسلين في دمشق، والآن وقد صرت بنعمة الله مطراناً على كرسي صور وصيدا فيجب عليّ تقديم الطاعة الواجبة لحضرتكم والاتجاه إلى كرسيكم المقدس اقتداءً بالآباء القديسين أثناسيوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم، وسائر الآباء القديسين الذين قبلتهم الكنيسة الرومانية وقت جهادهم واضطهادهم، ولا ينبغي أن أذكر ما احتملته من النفي والحبس والإهانة وخسارة الأموال والتعدي عليّ من الإسلام بسعاية البعض من الروم وإكليروسهم، ولا سيما بطريركهم المدعو كيرلس وذلك لأجل اعترافي بالإيمان الكاثوليكي.^{٣٣}

وكانت أبرشية صور وصيدا واسعة، ولكنها غير عامرة، فعمل الأسقف الجديد على تعميرها بتشجيع النزوح إليها. فاتفق في أيار السنة ١٦٨٦ مع أعيان الروم في صيدا على أن يكتب إلى من أراد من النصارى ليدعوهم للإقامة في صيدا، واستكتب قاضي الشرع صكاً بذلك لا يزال محفوظاً حتى يومنا هذا.^{٣٤} ثم جدد بناء كنيسة صيدا بماله الخاص

^{٣٣} عن الترجمة الإيطالية وعلى ذمة الخوري قسطنطين الباشا في كتابه «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٠٥-١٠٦. ويلاحظ أنه لا يلزم من نص هذا الاعتراف أن أفتميموس كان يُجاهر بالإيمان الكاثوليكي قبل انتخابه ورسمته مطراناً ولا عند رسامته كما يتوهم المرحوم الخوري قسطنطين.

^{٣٤} المرجع نفسه، ج ١، ص ١١٨-١١٩.

وحرر صكاً رسمياً بذلك في الحادي عشر من نيسان سنة ١٦٩٠. ولا يخفى أن مثل هذا الصك كان ضرورياً؛ لأن الشرع الإسلامي حرّم تشييد الكنائس والصوامع، وأجاز ترميم القديم وإبقائه على قدمه.^{٣٥}

وأهم ما قام به أفثيموس في هذه الفترة الأولى من ولايته أنه أنشأ الرهبانية المخلصة لنشر مبدأ الاتحاد مع رومة والخضوع لأسقفها. وبدأ هذا العمل في صيدا حيث جمع قبل السنة ١٧٠٠ عدداً من الرهبان ليعيشوا معه في مزرعة مشموشة بالقرب من جون عيشة مشتركة قانونية. ويرى الأب قسطنطين الباشا المخلصي أن تلاميذ المطران كانوا في أواخر القرن السابع عشر لا يقلون عن عشرة، وأنهم لم يستطيعوا الإقامة في صيدا وجوارها بدون أن يتعرضوا لكل تهمة ولكل بلاء من الجند وسواهم، فاستأجروا مزرعة مشموشة من صاحبها الشيخ قبلان القاضي ليقموا فيها ويستغلوها. وما فتئوا كذلك حتى تمّ لهم بعناية المخلص إقامة ديرهم على اسمه في السنة ١٧١١، ورتب أفثيموس لرهبانه قانوناً خصوصياً ذاع وشاع بين الناس في حياته حتى بلغ حلب، ولا تزال رسالته إلى أحد أصدقائه في حلب تحفظ بعض ما اصطلح عليه الرهبان المخلصيون في بداية عهدهم وبعض ما جاش في صدر أفثيموس من مبادئ. وكان صديق المطران قد كتب يعترض على ما أباحه المطران لرهبانه من أكل الزفر والسبك في الصيام، فأجابه:

ليس خافياً عن معرفتكم إن كان تأملتم ورأيتم ضعف الملة وانحطاطها ثم افتقارها للمعارف الضرورية والعلوم الروحية. وقد رأينا الكثيرين من النحيفي المزاج ذوي غيرة صالحة ولهم بعض معارف، أرادوا يصرفوا حياتهم بعيشة طاهرة مرتبة بحفظ الثلاث نذور التي هي أسس الرهبنات كلها لكي ينفعوا ملتهم بعلمهم وعملهم، فاستمضوا الدخول إلى الرهبة لأجل خشونة معاشها الآن عندنا وتخلفوا عن تكميل قصدهم الصالح. فلما تحققت أنا الحقيّر أن هذا السبب الجزئي مانع لذلك الخير الكلي استعملت أنا الحقيّر سلطان الحل والربط المعطى لي من الله ومن كنيسته لإطلاق أمر، بل لإطلاق جبر مفهوم عند الجميع بسبب وضعه ودخوله، وذلك حتى تكون العبادة في هذا المعنى أمراً اختيارياً لا اضطرارياً، وليس كما هو الآن مستعمل من الآخرين جهراً ومرفوض

^{٣٥} المرجع نفسه، ص ١٢١-١٢٦.

من الأكثرين سرًا. وحتى أيضًا لا نمائل قساوة بعض الرعاة السالفين الذين استعملوا سلطانهم بالربط لا بالحل، وأحرى أن أقول باللعنة لا بالبركة الذين صدق فيهم قول الله بلسان ميخا: «أكلوا لحم شعبي وكسروا عظامهم». فلهذا نرى حالتهم وقد سببوا خسرانًا عظيمًا على هذه الطريقة الطاهرة وعلى الأمانة المسيحية الفاخرة، فأنا أيضًا نيتي أن أتفق هكذا فيكون مثل هؤلاء مفترقين عن الرهبان الآخرين بسكنى والمعاش فقط ومتفقين معهم بحفظ الثلاث نذور وبقية القوانين الآخر إذا كانوا كلهم تحت طاعة رئيس واحد، وإن لم يوجد من تكمل بهم نيتنا فتكون حجة الله على المتعنتين.^{٣٦}

أفتيميوس أسقف الخاضعين لرومة (١٧٠٢)

وأبى بعض الأساقفة الضيم الذي حلَّ بالكنيسة من جراء الشقاق، وعصفت في رءوسهم النخوة فكتبوا إلى أفتيميوس في حوالي السنة ١٦٩٤ ليكون عليهم رئيسًا فتصبح الرعية لرأى واحد.^{٣٧} ثم تمَّ التفاهم بين أثناسيوس وكيرلس وأصبح كيرلس البطريرك الأوحد فطوى فؤاده على عرقلة أعمال المرسلين وعدم تسهيل أمورهم، وامتنع عن إعطاء سلطان الاعتراف إلى الكهنة الذين صادقوا المرسلين وعملوا بإرشاداتهم، ودخل أثناسيوس في دور التراجع عما وعد رومة به في بادئ الأمر. وتولى السدة الرومانية في السنة ١٧٠٠ إقليمس الحادي عشر (١٧٠٠-١٧٢٠)، فكتب أفتيميوس يهنئ البابا الجديد ويجدد خضوعه. وفي الرابع والعشرين من شباط سنة ١٧٠١ أعد رسالة ثانية أوضح فيها أحوال البطريركية الأنطاكية، وطلب أن يكون «وكيل البابا في الشرق» ليعطي سلطان الاعتراف للكهنة الكاثوليكين خارج أبرشيته، وأشار إلى رغبة المطارنة في تنصيبه بطريركًا على أنطاكية وأرفق الوثيقة التي وقعوها، ولكنه قال إنه قصير اليد واللسان لا يتمكن من إجابة طلبهم؛ لأنه يتعلق «بسلطان المسلمين»؛ ولذلك فإنه يطلب «سلطان الذمة» فقط.^{٣٨}

وبحث مجمع انتشار الإيمان طلب أفتيميوس في جلسة عقدها لهذه الغاية في السادس من كانون الأول سنة ١٧٠١، فأجاب طلب متروبوليت صور وصيدا لمدة سبع سنوات

^{٣٦} «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ٢١٨-٢١٩.

^{٣٧} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ١٤٤-١٤٥.

^{٣٨} «تاريخ الطائفة الملكية» أيضًا، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠.

بقرار رفعه إلى البابا. وأجاز إقليس الحادي عشر قرار المجمع وأمر بالعمل بموجبه،
فوردت على أفتميوس الرسالة التالية:

إلى السيد أفتميوس مطران صور وصيدا والروم في كل البطريركية الأنطاكية،
حيث لا يوجد أساقفة كاثوليك. نهار الأربعاء في ١٩ تموز سنة ١٧٠٢ في المقابلة
العادية لحضرة الأب المحترم المساعد منح الأب الأقدس حسبما عرض هذا عليه
للطالب المذكور هذه الحقوق لمدة سبع سنوات، بحيث لا يستطيع أن يمارسها
قطعا خارج حدود البطريركية المذكورة، ولا في الأبرشيات التي يوجد فيها
أساقفة كاثوليك.^{٣٩}

كتاب «الدلالة اللامعة» (١٧١٠)

وكان الأب ميخائيل نو Nau اليسوعي قد لجأ إلى التأليف لإقناع الروم بالخضوع والطاعة
لرومة وصنف في عهد البطريرك مكاريوس كتاباً أسماه «احتجاج كنيسة الروم المقدسة في
استقامة إيمانها وحسن اعتقادها». فلم يقف الآباء الأرثوذكسيون موقف القنوع، ولا سيما
رهبان القبر المقدس، فنقلوا إلى العربية في مستهل القرن الثامن عشر رسالة زخريا أسقف
أدنة في الدفاع عن التقاليد المقدسة وإيضاح منهاج رومة وكشف المورى من أساليبها،
ثم وزعوه في أبرشيات أنطاكية، فاضطربت به الألسنة وتداولته الرواة. فكتب أفتميوس
في العاشر من حزيران سنة ١٧٠٤ إلى مجمع انتشار الإيمان يقول: «إن أصحاب أبرشية
أورشليم المشاقيين أحضروا كتاب زخريا جرجانو أسقف أدنة المفعم تجاديف ضد رأي
كنيسة رومة وأخرجوه إلى العربية وبثوه في بلادنا بأبرشية الكرسي الأنطاكي ليسقوا
السم الذي هو داخله.» وأضاف أفتميوس أنه غني بوضع كتاب يرفع شرف الكنيسة
الرومانية المقدسة ويخزي من عاكسها، وطلب إمداده بمصنفي يوحنا كاريوفيلوس
Cariafili في الرد على زخريا والرد على نيلس التسالونيكي، وبكتب بساريون متروبوليت
نيقيا (الكردينال أوبوسكولا) وكتب ديمتريوس خيدونس وكتاب بطرس الكورفوي في
خدمة الأسرار والمطهر؛ لأنها لازمة له. وأرسل أفتميوس مخطوطه إلى رومة فوافقت عليه
بإشراف الكردينال بربريني، فظهر «كتاب الدلالة اللامعة بين قطبي الكنيسة الجامعة

^{٣٩} المرجع نفسه أيضاً، ج١، ص١٧٦.

المشتمل على اتفاق كنيسة الروم الأرثوذكسية الشرقية مع كنيسة رومية الجامعة الغربية واتحادهما برأي واحد وأمانة واحدة مسيحية» بنفقة مجمع الإيمان برومة سنة ١٧١٠.^{٤٠} ووزع هذا الكتاب توزيعاً فهب أيكونوموس كنيسة حلب ورد عليه برسالة في السنة ١٧١٢ بقيت خطية فيما يظهر. وهذا الأيكونوموس كان في عرف أفثيميوس «صاحب معرفة وحافظاً لطقوس الروم بالكمال ومؤيداً لها ومناصراً».^{٤١} ولفت كتاب الدلالة اللامعة أنظار البطاركة والمطارنة الأرثوذكسيين فأشاروا إليه في الحرم الذي وضعوه في السنة ١٧١٨ على أفثيميوس ومن تاه معه؛ لأنه «أنشأ كتباً من ذاته، واجتذب شهادات كما رأى ونسبها إلى الكنيسة المقدسة الشرقية».^{٤٢}

تحفُّز أفثيميوس وتحزُّمه

وفوّض أفثيميوس أمره إلى هواه فرأى في أيلول السنة ١٧١٣ أن «أبرشية أنطاكية أرض صالحة بدها فلاحين»، وأن كيرلس بطريركها «رجل عادم العلم يبغض الكنيسة الرومانية»، ولكنه لا يجرؤ على تقديم الطاعة قبل بطريرك القسطنطينية والإسكندرية، ورأى أن أسقف صيدنايا جراسيموس الشامي «رجل على باب الله قداسه برطل نبذ وما دام النبذ في قلايته المسيح راضي عليه»، وأن أسقف معلولا وقارة «قبرصي هرطوقي معاند»، وأن أسقف بعلبك «قبرصي سالم من الغرض إن أسعده الله بمعلم ربما يوافق بكلاماً نريد»، وأن أسقف حمص «عاجز بالدين والدنيا»، وأن أسقف حماة «قبرصي قوي بالكفر وبسب الدين للكنيسة ولنا، ومنذ سنتين حضر عندنا في أشغال له فأكرماناه وأعطيناه إحسان وافر ونصحناه بقدر الإمكان، ومنذ ذلك اليوم أبطل المسبات، ولكنه باقى على كفره»، وأن مطران بيروت «كان سابقاً يصدق بالكنيسة ويكرم ويمجد كنيسة الروم، ولأجل ذلك أسدينا إليه بعض إحسانات وطلبناه إلى صيدا وعرفناه النقص والغلط الذي وقعت فيه كنيسة الروم بعد الانشقاق»، وأن مطران طرابلس «كان سابقاً شهد لنا بعض رهبان من المرسلين أنه كاثوليكي، وأما أنا ما قشعت له علامات الكاثوليكية،

^{٤٠} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج١، ص ١٨٠-٢٠٥.

^{٤١} «رسالة أفثيميوس إلى الكرادلة»، المؤلف نفسه، ج١، ص ٢٧٣.

^{٤٢} «مجموعة الآباء اليسوعيين في بيروت»، مخطوط رقم ٥٥٠.

وربما يكون أقر بالحق تحت رجاء، فلما انقطع الرجاء منكم عاد كالكلب إلى قيه»، وأن مطران اللاذقية «صاقزلي هرطوقي جاهل بالدين وبالهرطقة ينبج ويقروش بغير وعي»، وأن بطريرك حلب «معروف عند رومة بأنه كاثوليكي ومعروف عندي بأنه مساقل» وأن مطران أدنة «قبرصي عتي عدو الله وكنيستته»، وأن مطران ديار بكر كذلك قبرصي، وأن مطران أرضروم من أياالتها، ومطران القرص من أيلة أرضروم،^{٤٣} ولا يخفى أن هذه البضاعة كانت رائجة في ذلك الزمان موجودة عند الطرفين.

وهكذا فيكون أفتميموس أسقف رومة الأوحـد في أبرشيات أنطاكية قد حاول اجتذاب المطارنة إلى الكـثـلـكة بأساليب قد لا يكون بعضها مشروعا.^{٤٤} وأما اليعاقبة فإن جذبهم كان بعيدا في نظره «وإنما بطريق القوة أقرب تناول». ^{٤٥} ويلاحظ هنا أن الاتحاد الحقيقي لا يتم بالمال والقوة، بل بالروح القدس والمحبة التي لا تطلب ما لنفسها ولا تظن السوء، بل تتأنى وترفق وتصدق وتصبر.

كيرلس والكثلكة

وذكر أفتميموس أن كيرلس البطريرك الأنطاكي كان عزيز الجانب لا تـلـين قناته لغـامز، فخاطبه في موضوع الاتحاد وجادله، ولكن على غير جدوى. ثم ألح أفتميموس على قنصل فرنسة في صيدا المسيو بولارد Boulard أن يخاطب البطريرك في الموضوع نفسه ففعل. وكتب الأب لورنسيوس رئيس الآباء الفرنسيين في أورشليم رسالة طويلة إلى كيرلس أخبره فيها عما فعل باسم البابا لإعادة بطريرك الموارنة يعقوب عواد إلى كرسيه وإعادة كل حقوقه وشرفه. ثم أشار إلى ما فعله أحبار رومة للبطاركة والمطارنة الشرقيين من هذا القبيل، وذكّر كيرلس كيف تظلمّ جده مكاريوس إلى البابا ألكسندروس السابع من جور الأتراك وصلفهم.

^{٤٣} «رسالة أفتميموس إلى الكرادلة»، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٢٧٢-٢٧٤.

^{٤٤} رسالته إلى البابا: المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٨٣-٢٨٤.

^{٤٥} الملحق لرسالته المشار إليها: المؤلف نفسه، ج ١، ص ٢٧٤-٢٧٥.

ثم أطلت السنة ١٧١٦ فإذا بحبر رومة نفسه يخاطب كيرلس ويدعوه إلى الاتحاد فيقول: بلغنا أن لإخوتك ميلاً عظيماً إلى الاتحاد ففرحنا ورأينا أن نعذك بصوتنا الأبوي أن لا تهمل هذا الإلهام الصالح، وليكن محققاً عندك أنك ما دمت مفترقاً عن الكنيسة الرومانية تبقى في خطر عظيم وأكد، ويجب عليك أن تعظَ إخوتك الأساقفة وشعبك ليفعلوا مثلك، ومتى تحققنا أنك اعتمدت على القبول الثابت لإيمان الحبر الروماني نوضح لك حينئذٍ ما يجب عليك أن تفعل.^{٤٦}

فأوضح كيرلس لرئيس الآباء الفرنسيين أن الكنيسة الشرقية تمت ماسكة شروطها وفرائضها المرتبة منذ القديم، فبعد مدة لما ظهرت طقوس وتراتب غير موجودة في المجامع السبعة الكبار ولا في السبعة الصغار مثل الفطير والانبثاق والمطهر وحظوى القديسين، فلما رأت الكنيسة الشرقية هذه الأمور وحضرة قدس أخونا البابا الذي أبدع هذه الأمور وثبتها وليس هي مدونة في ناموس ولا في قوانين الآباء ولا في المجامع السبعة، فسخت الكنيسة عن الكنيسة الغربية. ومن المجمع السابع إلى الآن الكنيسة الشرقية ماسكة شروطها وما تسلمته من الآباء القديسين وهم باقون على طقوسهم وترتيبهم القديم. وأما قولكم من ميل جدنا المرحوم البطريرك مكاريوس بأن مكتوبه مخطوط في خزانة رومية فليس أنه بعث يطلب التثبيت، ولكن نحن نفهم أنه بعث يخبر قدس عزيزنا وأخونا البابا بسبب القنصل بيكيت ويشهد له عما فعله من الخير في سنة الغلا الذي صار في حلب؛ لأنه كان قد أصرف نحو سبعين كيس دراهم على الفقراء والمساكين. ونسأل الباري تعالى أن يلهمه (أي البابا) حتى يجمع إخوته وأولاده الروحانيين ويخزي الشيطان «من الفريقين».^{٤٧}

ثم وجّه كيرلس رسالة طويلة في العشرين من آب سنة ١٧١٦ إلى إقليمس الحادي عشر اعتبرها بعض مؤرخي الكتلكة اعترافاً صريحاً بسلطة السدة الرومانية وقبولاً واضحاً لجميع تعاليمها، ونحن لا نرى فيها سوى اعتراف بتقديم رومة شرط استمساكها بقوانين المجامع المسكونية السبعة، ولعل كيرلس تطرف في الملاطفة فأخذ كلامه على معنى أوسع

^{٤٦} Mansi, Coll., Vol. 46, Col. 110. «تاريخ الطائفة الملكية» أيضاً، ج ١، ص ٣٠٤-٣٠٥.

^{٤٧} عن النص الكامل الذي نشره الخوري قسطنطين الباشا في كتابه «تاريخ الطائفة»، ج ١، ص ٢٩٨-٣٠٢.

مما أراد. ويلاحظ هنا أنه لا بدّ من أخذ رسالته إلى رئيس الفرنسيين بعين الاعتبار؛ لأنها قريبة جدًّا من تاريخ الرسالة إلى البابا. وإليك نص رسالة كيرلس إلى إقليمس:

المجد لله تعالى دائماً: كيرلس برحمة الله تعالى البطريرك الأنطاكي وسائر المشرق إلى جناب حضرة الأخ الأقدس كير أكليمنضوس البابا الحادي عشر مشرف كنيسة رومية القديمة العظمى حرسه الله لنا زماناً طويلاً.

إلى قداسة أب الآباء وسيد السادات قابل النعمة ومعطي البركة رأس رؤساء الكهنة الأبرار خليفة بطرس الرسول والإناء المختار، فريد عصره الشائع ذكره بالأقطار، قدوة النساك الأطهار وكنز التعليم وقطب الأربعة الأقاليم إبراهيم في سماحته وإسحاق في وداعته ويعقوب في طاعته ويوسف في عفته وإلياس النبي في غيرته، وأشعيا في فصاحته ودانيال في طهارته وسليمان في حكمته وزخريا في كهنوته ويوحنا الثاولوغوس في أقواله ويوحنا المعمدان في كرازته وفم الذهب في تفسيره وإنذاره.

أما بعد؛ فالذي نعرضه لقدسكم هو أن وصل إلينا مكتوبكم الشريف وقريناه وحمدنا الله تعالى على سلامتكم وأن قدسكم بكل خير. وقد بلغكم من المرسلين بأننا قوي رافعين شأنكم وذكركم غير منقطع عندنا في كل صلاة و قداس إلهي، ونطلب من رب البرية أن يحقق المحبة الروحانية بين الخاص والعام؛ لأن بلا محبة ليسل سلام، لأن يعلم الله غاية قصدنا المحبة؛ لأن قد بلغنا من تلاميذ قدسكم أن كل قصدكم أن تكون المحبة والسلامة مع الإخوة والأولاد الروحانيين إلى كنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، ولكن باغض الخيرات دائماً لا يكف ولا يهدأ عن تبليبل الكنيسة حتى إنه من جملة أفعاله أظهر اسم الكنيسة الشرقية والغربية. ولكن في المجمع الأول المسكوني بحضور سلفستروس بابا رومة وضعوا نؤمن بإله واحد، والمجمع الثاني المسكوني كان بحضور دماسيوس بابا رومية، والمجمع الثالث المسكوني كان بحضور كاليستينوس بابا رومية، والمجمع الرابع المسكوني كان بحضور لاون بابا رومية، والمجمع الخامس المسكوني كان بحضور فيجيليوس بابا رومية، والمجمع السادس كان بحضور أغاتون بابا رومية، والمجمع السابع

كان بحضور بطرس وبطرس وكلاء أديانوس بابا رومية ... ولم يكن يصير مجمع مسكوني بدون خاطر بابا رومية.^{٤٨} ومن ذلك الزمان إلى الآن الكنيسة الشرقية تطلب دائماً وتقول كل يوم: من أجل الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية من الرب نطلب، وما نقول كنيسة غربية وشرقية، بل دائماً نطلب السلام للعالم جميعه حتى للذين يبغضوننا والذين يظلموننا. هذا كله مطبوع في كتب الكهنة عندكم، ونشكر الله تعالى على أن كنيستنا على إيماننا الذي نحن ماسكيه من السبعة المجامع المسكونية، ونترحم على البابا أفجانيوس الذي قصد المحبة والسلام في زمان المرحوم الملك يوحنا البالالوغوس وعمل المجمع الثامن وقصد به المحبة والسلام والهدوء. ولكن باغض الخيرات حرك الفتن، والروم من طبعهم العناد ما قبلوا، وبعده حركت نعمة الروح القدس البابا نقولاوس أن كل ما تعب فيه وعمله البابا أفجانيوس قد خربوه الروم ركب بذاته إلى مقابل القسطنطينية وأرسل رسله إلى الملك والإكليروس، فما قبلوا كلامه حتى صار فيهم الذي صار ونحن رحنا بسببهم.

نسأل الله المسيح بكل لغة ولسان أن يعطيك الرب الإله أن تجمع الإخوة والأولاد الروحانيين الذين اشتراهم سيدنا يسوع المسيح بدمه الكريم إلى صيرته الحقيقية. ثم إن جدنا المرحوم البطريرك مكاريوس بعد حضوره من المصكوف كان غاية قصده الحضور إلى رومية ليعمل محبة وسلامة، ولكن بقي يقول إن الإخوة إذا تقاتلوا ما يبقى أحد عاقل بينهم، وإن رحنا إلى رومية يقول الروم البطريرك مكاريوس صار فرنجي، وسابقاً المرحوم جيغالا رئيس أساقفة قبرس لأجل حضوره إلى رومية عملوه بأنه إفرنجي. ربنا يهلك كل من أبدع هذه البدع وفرق الإخوة عن أخوهم الأكبر؛ لأن جميع الناس يقولون الوعاء الكبير يسع الصغير، ولكن كل من قرب إليكم بالظاهر يصير عند الأمم الغربية كافر. وربما بلغكم أخبار بطرك السريان كيف طائفته الأراطقة عملوا معه من المساوي ومات في المنفى وهو بلا شك من القديسين، والأساقفة والكهنة ما خلص منهم

^{٤٨} والكتابة هنا غير واضحة كما صرح بذلك الأب قسطنطين الباشا، «تاريخ الطائفة»، ج ١، ص ٣١٠ هامش.

إلا القليل، ونحن كنا دائماً نرسل مكاتيب إلى تلاميذنا الذين هناك بأن يحسنوا إليهم وهم في الحبس ويخدموهم إكراماً للكنيسة الرومانية، وقنصل فرنسة بحلب لو أنه يعطي خمسمائة قرش ما كان صار فيهم هكذا.

ولكن نحن بقوة المصلوب لما حضر القبجي لعندنا لدمشق وجابنا وقرى علينا الخط الشريف وسألنا عن أتباع البابا عندنا وتوابعهم ردينا الجواب عن الجميع، وبقوة الله منعناه وما خليناه يتحرش في راهب ولا قسيس ولا كاثوليكي وخسرنا من كيسنا مبلغ عظيم ربنا يعرف حتى دفعنا الشر عنهم؛ خوفاً من أن تجري العادات السيئة الجارية في غير بلاد. لكن في هذا الزمان جماعتهم خسيسين الله يرحم القنصل ببيكيت، في زمانه صار أندراوس بطرك على السريان هو وقف بحملته وتكلف تلك السنة نحو سبعين كيس على الفقراء؛ لأنها كانت سنة غلا شديد. ولما نظروا فعل الخير الذي صنعه أرسل جدنا البطريرك مكاريوس وأندراوس بطرك السريان وبطرك الأرمن أخبروا قدس المرحوم البابا بالخير الذي صنعه. فإن كان القنصل طيب ربنا يزيده بركة من فكمم الطاهر، وإن كان تنيح الرب يجعل حظه مع الآباء القديسين، فهكذا كان القناصل يفعلون الخير والناس تميل إليهم وتمجد خبرهم.

وأيضاً المرحوم سلطان فرنسا لما وقع بينه وبين طائفة الإنكليز وقالوا له: نحن تبع الكنيسة الشرقية، بعث طلب اعتقاد الكنيسة الشرقية، فكتب له جدنا البطريرك مكاريوس عشرين باباً في اعتقاد الكنيسة الشرقية، وفي أثناء ذلك توفى جدنا وانتخب الحقيير مكانه والمكاتيب ما كانوا بعد توجهوا فبعثوها إلينا فأمضيناها وحققنا قوله.

وإن شاء الله ما تكون الكنيسة الشرقية ناكرة كنيسة رومية ولا أخذتها بأنها محدثة، وهذا مدون في كتب الكنيسة عندنا، وأن بابا رومية هو الأخ الأكبر، وتذكارات الباباوات في أعيادهم الممتازة موجودة في الكنيسة الشرقية. ولكن هذه الأمور الموجودة اليوم في هذا الزمان ما كانت في القديم؛ لأنه لما ظهر معلمين النجم والرصد فهذه العشرة أيام صار فيها شقاق عظيم؛ إذ يكون مسيحي صائم ومسيحي فاطر. وطائفة الموارنة أعرضوا لديكم بأنهم قلائل والروم ما تجوزهم والأمم ما يجوزوهم، فلكونكم مباركين وما تعرفون الكذب صدقتموهم، فقالوا إن قدس البابا أعطانا دستور أن نتجوز على أربعة وجوه. وأيضاً العلماني إذا ماتت حرمة يتجوز غيرها ويعملونه كاهن. وبهذه

الأسباب وغيرها صرنا عارًا عند الأمم والأرأطقة لكون يبقى نصراني صايم ونصراني فاطر ونصراني متجاوز على سبعة وجوه وآخر على ثلاثة وجوه. وهم كذبوا عليكم ولكونكم ناس مباركين صدقتم قولهم وسودوا عرضكم وقالوا: إن البابا أعطانا دستور بذلك. ونحن ما كنا نصدق بأن ينشر عن قدسكم هذا. وكل هذا صار سبب الافتراق وتسمية كنيسة شرقية وغربية.

ولكن نحن معتقدين ومحققين بأن كنيسة رومية (ماسكة) السبعة المجمع الكبار والمجمع الصغار ورافعين شأنها لكونها كانت أم كنائس الدنيا، ومقرين ومعترفين بكنيسة واحدة ومعمودية واحدة، وبنارك ما باركوه ونحرم ما حرموه. لكن الأميين لما ينظروا صدرت هكذا أمور غير مصدقة، وليس لكم عنها خبر لهذا السبب ينفرون من ذلك وتقع الشكوك ويتم قول الإنجيل المقدس الويل لمن تأتي الشكوك على يده.

فإذا صار من قدسكم مرسوم برفع هذه الأمور الموجودة الآن وارتفعت يكون الروح القدس حقيقة حاضر معكم؛ لأننا صرنا عارًا عند الأمم والأرأطقة، ولو كان الأرأطقة أرأطقة ولو صيامهم وطقسهم وزيجاتهم ما غيروها، بل هي بموجب الناموس المقدس. ونحن نسأل المسيح بكل لغة ولسان بأن يعطيك الرب الإله أن تجمع الإخوة والأولاد الروحانيين الذين اشتراهم المسيح بدمه الكريم الثمين إلى صيرته الحقيقية، ويعطي الرب الإله لكل من يريد السلام والمحبة كما قال السيد: «سلامي أعطيك سلامي أخلفه لكم». فما قال فتنة وعناد وشرور، وناس تقول عملتم كذا، وناس تقول الحق معنا وأنتم ما معكم حق، وتم فينا قول الإنجيل المقدس: نترك الخشبة التي في أعيننا ونقول لأخونا أخرج العودة التي في عينك.

وعند قراءتنا الكتب المقدسة نعدل عن السماع لها كقول يوحنا الإنجيلي حيث يقول: إنك إن كنت تحب الله ولأخيك تبغض باطل قولك؛ إذ كيف الذي تراه تبغضه والذي لا تراه تحبه، وسيدنا له المجد قال: حبوا أعداكم وأحسنوا لمن يبغضكم. ونحن الآن عملنا كله بخلاف ما أوصانا تعالى به.

ونطلب من حنو مراحمه ببركة صلواتكم أن يجعلنا من السامعين الطائعين لما يرضيه ويفرحكم باجتماع الإخوة والأولاد الروحانيين لتقولوا: هؤلاء هم الأولاد الذين أعطاني إياهم الله، ادخلوا إلى فرح ربكم، يكون ذلك لكم بشفاعة العذراء

البتول ومار بطرس الرسول وجميع القديسين آمين. جرى ذلك وحرر في اليوم العشرين من شهر آب المبارك في سنة ألف وسبعمائة وستة عشر بمحرورة دمشق الشام من أخيككم بالمسيح كيرلس البطريك الأنطاكي وسائر المشرق. واستنزل البطريك الأنطاكي بعد هذا غضب الله على كل من يزيد أو ينقص. وأضاف أنه مُرسل مع البادري بلاسيوس والخوري ساروفيم «هدية» حقيرة: عكازًا صدقًا إذا مسكتموها في القديس الإلهي تذكرون حقارتنا ومرتبنا صيني داخل رطل دهن البلسم صافي.^{٤٩}

ويلاحظ هنا أن البطريك الأنطاكي يخاطب الحبر الروماني كأخ ويشير إلى البطارقة باللفظ «الإخوة»، وأنه يؤكد استمساك الكنيسة الأرثوذكسية التي رأسها بقرارات المجمع السبعة، ومثابرتها على الصلاة في كل يوم من أجل الكنيسة الجامعة. ثم يلمح إلى الفتن التي أثارها الشيطان في مجمع فلورنسة وأثر ذلك في الروم الذين من طبعهم العناد. ويشكر لأخيه البابا سعيه للاتحاد ويشير برقة ودقة إلى موقف جده مكاريوس من قضية الاتحاد، فيحبذ الدور الذي لعبه دور الوسيط المصلح بين الحبر الروماني وسائر الأقباط، ثم يصلي «لكل» من يريد السلام والمحبة، ويقدم عكازًا من الصدف هدية للبابا، فأين الاعتراف بسلطة رومة والدخول في طاعتها؟ ولا سيما إذا قرأنا هذا كله على ضوء ما جاء في رسالة هذا البطريك نفسه إلى رئيس أساقفة الآباء الفرنسيين. ويلاحظ أيضًا أن الفرق كبير جدًا بين نص هذه الرسالة البطريكية وبين النص الذي أعده أثناسيوس وأشرنا إليه سابقًا، وبين ذاك الذي أعده جراسيموس مطران صيدنايا في منتصف تموز من السنة ١٧١٦.^{٥٠}

وفي نظرنا لا يجوز القول بدخول كيرلس في طاعة رومة لمجرد تأكيد هذا الخبر في بعض رسائل أفثيموس؛ لأن أفثيموس له مصلحة فيما يروي، وبالتالي فإنه لا يُعتبر شاهدًا عدلًا. ويُستدل من رسالة إقليمس الحادي عشر إلى كيرلس الثالث المؤرخة في ٢١ أيار سنة ١٧١٨ أن هذا الحبر لم يكتفِ بما نُقل إليه من أخبار أفثيموس ورسائل

^{٤٩} عن أصلها المحفوظ في سجلات مجمع انتشار الإيمان بكل ضبط وتدقيق، «نخبة من سفرة البطريك مكاريوس الحلبي»، للخوري قسطنطين الباشا، ص ١٣٩-١٤٧.

^{٥٠} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١.

كيرلس فهو يقول ما يلي، والعهد في ذلك على المترجم الخوري قسطنطين: «على أننا نطلب من أحوثك أن تظهر علناً للجميع بكتابات متصلة واضحة أنك متحد مع هذا الكرسي الرسولي بقلب صادق «بدون مراياة»، وأنت تعهدت بالخضوع له وللحبر الروماني.»^{٥١} وقل أفثيمبوس إن كيرلس وقع أمانة أوربانوس الثامن وختمها بيده وأرسلها يبقف قولاً ضعيفاً إلى أن نعثر على هذه الوثيقة في محفوظات رومة. ويجب ألا ننسى أنه جاء في تقرير رفعه القس جبرائيل فينان إلى كاتم أسرار مجمع انتشار الإيمان بتاريخ ١١ تموز سنة ١٧١٩، أنه اتصل بكيرلس وقدم له هدية البابا وأقام عنده وكلمه مراراً في أمر «الإيمان الروماني المقدس»، فكان تارة يذعن له وطوراً «يجادله جдалاً خفيفاً». وكان يشكو من «عدم تكميل الكنيسة الرومانية طلبته في طبع الكتاب الأفخولوجي ورفع ضرر القرصان وعودة التابعين للكرسي الروماني إلى الحساب الشرقي في تعييد الفصح.» ويخلص الأب فينان إلى القول إن ما أرسله كيرلس إلى رومة جاء إما عن طمع منه في أشياء عالمية أو عن خوف من مشاغبة الكاثوليكين في أبرشيته، وإن البطريرك «رسم مشاقاً على كرسي باياس» نزولاً عند رغبة بطريرك أورشليم.^{٥٢}

كيرلس وأفثيمبوس

ولج أفثيمبوس في كثلكتة فامتنع عن تأدية مال النورية إلى المقر البطريركي واكتفى بتقديم «سمكة بحرية أو أربعين قالباً من الجبن القبرصي». وبعد وفاة مطران بيروت اتصل بالأمر حيدر شهاب واستأذنه في ضم بيروت وتوابعها إلى أبرشيته، وطمع في أبرشية عكة وحض المسيحيين في حوران وشرق الأردن على الدخول في طاعته،^{٥٣} فشكاه بطريرك أورشليم إلى السادة البطارقة وأطلعهم على «مكاتيبه ومراسلاته»، فأرسلوا هذه الرسائل إلى كيرلس وطلبوا ردع أفثيمبوس وإدلاء النصح إليه بالآ «يقارش» أفثيمبوس أبرشية القدس، وقالوا: «نحن ماسكين خاطرك!» فأرسل البطريرك الأنطاكي هذا كله إلى

^{٥١} المرجع نفسه، ج١، ص ٣٣٩.

^{٥٢} المرجع نفسه أيضاً، ج١، ص ٣٩٨-٣٩٩، راجع أيضاً رسالة الخوري أسطفان عطا الله إلى البابا في

المرجع نفسه، ص ٣٩٦-٣٩٧.

^{٥٣} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج١، ص ٣٦٩-٣٩٣.

أفتميموس، وطلب إليه أن يمتنع عن هذه الأفعال فلم يقتنع، وتساهل أفتميموس في أمور الزواج مفسحاً من بعض الموانع وخالف بذلك الناموس الأرثوذكسي، فكان عندما يمنع البطريرك الزواج الحرام يجيزه هو «ويأكل البلعة» بكاملها،^{٥٤} وجاء لغطاس قندلفت في «تاريخ البطارقة» أن أفتميموس اختلس أمتعة تخص البطريرك.^{٥٥}

البطارقة يحرمون أفتميموس (١٧١٨)

وأصر أفتميموس على موقفه فالتأم مجمع في القسطنطينية في خريف السنة ١٧١٨ برئاسة أرميا الثالث بطريرك «رومة الجديدة»، ونظر في قضية أفتميموس فحكم عليه بالخروج على الناموس من أبواب سبعة: تحليل الزواج في الدرجة الرابعة، وشرطنة أناس من غير أبرشيته، وإبطال عظام يوحنا الذهبي الفم في كنيسته، وتحليل أكل السمك في الصوم، وإبطال بعض الترتيبات الكنسية، وإبطال «وضع الزاؤون ورفعهم من الوسط»، ولبس الميتر وغيرها بدون إذن. ووافق على هذا كله بطريرك أورشليم والبطريركان القسطنطينيان السابقان أثناسيوس وكيرلس، فحرم المجمع أفتميموس وقطعه من درجات الكهنوت واستصدر فرماناً بنفيه، ونقلت هذه القرارات كلها إلى العربية في بطركية أورشليم، ثم أرسلت إلى الكرسي الأنطاكي مع أصلها اليوناني.

ولدى اطلاع كيرلس على قرارات المجمع القسطنطيني أبلغ أفتميموس محتوياتها ونصح إليه أن يسترضي الرؤساء المسؤولين بنفسه أو بواسطة شخص آخر يوفده لهذه الغاية، فأبى أفتميموس وامتنع. فسكت كيرلس سبعة أشهر فأقبل الرؤساء عليه باللوم واتهموه بالتواطؤ وقالوا له: «بك تخرب أربع أبرشيات البطارقة!» فاضطر البطريرك الأنطاكي أن يذيع قرارات المجمع القسطنطيني في سائر أبرشيات أنطاكية. وينقل البطريرك كيرلس هذا كله إلى قنصل فرنسة في صيدا، فيخلص إلى القول: «لكن يا عزيزنا إذا كان عندكم في بلادكم واحد كاثوليكي عمل مخالفة في أمور الدين وحكموا عليه بالحرم، ما يتمكنوا حرمه حتى ينظروا إيش يضمّر من طاعته وتوبته وندامته، وفي فهمكم كفاية كل أمر.»^{٥٦}

^{٥٤} رسالة كيرلس إلى قنصل فرنسة في صيدا (٩ تشرين الثاني سنة ١٧١٩)، المرجع نفسه، ص ٤٠٣-٤٠٨.

^{٥٥} مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٨٠.

^{٥٦} «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ٤٠٦-٤٠٨.

وجاء في رسالة كتبها أفثيميوس نفسه إلى مجمع انتشار الإيمان في آخر كانون الثاني سنة ١٧٢٠ أن كيرلس حرّض البطارقة عليه، وأنه استعان بالبادري توما لإظهار خضوعه أمامه، فقام إلى دمشق وقبّل يد البطريرك «وعمل له الطاعة»، فباركه البطريرك وأعلن ذلك في حاصبيا وببروت وطرابلس ونصح إليه أن يترك صيدا ويختبئ في جبل الشوف.^{٥٧}

حرم البطارقة

«أرميا برحمة الله رئيس أساقفة القسطنطينية رومة الجديدة البطريرك الإيكومينيكوس المسكوني إلى حضرة أب الآباء المتقدس ورئيس الرؤساء كير كيرلس، بطريرك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق، وإلى المطارنة ورؤساء الأساقفة المحبين لله الذين هم تحت طاعة قداستكم موجودين محبين وإخوة لنا بالروح منتخبين، وشركائنا في الخدمة والأسرار الإلهية إلى الكهنة الورعين وإلى أولادنا الأحباء، والأراخنة المكرمين والأعيان المبجلين مع بقية النصارى الأرثوذكسيين الذين هم في أبرشية أنطاكية قاطنين وموجودين أولادنا المحبوبين بالرب.

فرحاً لكم وسلامة تشمل كافتكم ورحمة من الله الضابط الكل ومن حقارتنا نعم لكم بركة وغفراناً كاملاً يشمل كافتكم، آمين.

والذي نعلم محبتكم أنه من باب الواجب يكون عند كل إنسان منكم حفظ أمانته غير منصدع ولا متزعزع عن تقليدات آبائنا الحَسَنِي العبادَة المستقيمي الرأي، وتحفظونها وتصونونها حفظاً وثيقاً حكم ما شرعت به شريعة الرسل القديسين والآباء الإلهيين المتفوهين بإلهام الروح القدس التي هي شرائع الكنيسة ونواميسها، وحسب ما هو مسطر في الكتب الإلهية، لأجل ذلك يجب علينا أن نحفظ اعتقادنا بكل حرص واجتهاد نقيين ومن الدرن سالمين ومن الأفكار الردية هاربين وإلى جميع خرافات العالم راذلين. (ويجب أن نحفظ) الأمانة الأرثوذكسية لأمعة بكل شهادة وتثبيت؛ لأن الإنسان إذا كان مائلاً في اعتقاده ويتمجّد بذاته ويقول كلام مخالف غير لائق الذي هو كلام بدع وتجديف في التسليم السابق فذلك من الأباطيل، والكلام غير مسموع وطازه ومخالفته فيه وتحققه لتلاف الناس وتشويش القلب إذ يقول: لا تغيروا التقليدات الأبوية، والقلب المشوش ليس

^{٥٧} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٤٠٨-٤٠٩.

فيه راحة وهو بوق ظاهر وَرَدِي جَدًّا. ومن يكون عنده مثل هذا التشويش فمن كل بد هو فعل شيطاني وإحادة عن المعرفة بمساعدة وطغيان باغض الحق الذي دائماً يسعى في المضادة فرحاناً، ولا يسعى للذين مطابقين رأيه. لكن دائماً يجاهد في ضد المستقيمين الرأي ويضع لهم الشكوك، وهو مبغوض ومردود ومبعود مع من يتبع أفعاله الشيطانية، ومطرود من كنيسة الله؛ لأن البارّي في البار يكون. والذي يريد أن يطرد عنه الخيالات الشيطانية فليفتكر في ذاته ويعرف الحق من الباطل، وأما الذي يكون متعوج وكذوب ومماحك وكلامه غير لائق ويدين غيره يضاد الحق ويبذر أفكاره الشريرة ويلومها حتى لا يسع عقل أحد معنى كلامه.

فمثل هذا تباين وظهر عندنا طغيانه وتجديفه، وتحقق عندنا ذلك من مكاتيبه ورسائله ومن أناس شهود ثقة صادقين، ومن المكاتيب المهورات باسمه وختمه الذين ظهروا في مجتمعنا هذا المقدس الذي بتخلي من الله صار رئيس كهنة، الذي هو الشقي الشرير أفنتيموس المطران بالاسم لا بالفعل، وهو مطران صور وصيدا. هذا الكاذب الطاغى المجدف على الروح القدس، الخافي الغش في قلبه وفي نفسه، الذي الآن ظهر كذبه وطغيانه، المشوش على رعية المسيح وأغنامه الناطقة، والدائس لها والمضل لها في الكذب والافتراء. وكل ذلك قَصَدَ منه السبح الباطل والآراء المزخرفة تابِعًا لهم وضلال رأيهم مقتفياً وماسكاً لتفسحه في طرائق المؤمنين.

ولم يكفاه ذلك، بل إنه يسمي ذاته أرثوذكسي وينشر حاله أنه في اعتقاد الكنيسة الشرقية ثابت، وكل ذلك خدعة منه لِلْحَسَنِ العبادَة وضلالاً شنيعاً لسقوطهم وتهورهم في غوطة الأفكار، وأنشأ كتباً من ذاته، ويجتذب شهادات كما يريد وينسبهم إلى الكنيسة المقدسة الشرقية الأرثوذكسية. ومن استفحصهم على ما ينبغي يفهمهم ويعرف معاناهم. ثم بلغنا الخبر أيضاً أنه صنف بغير معرفة كتباً ضد الدائم الذكر الشيخ كير ضوستاوس البطريك الأورشليمي الذي كان غيوراً للدين الأرثوذكسي الذي حسن عبادته وديانته وعلمه قد انبث في سائر المسكونة، وفي كل الأرض خرج صيت تقويماته، وهو مشابه الرسل القديسين كما تشهد كتبه المصنفة منه بإلهام الروح القدس، وبكل كَدٍّ وتعب في الرأي المستقيم الذي كان عالماً بها ومعلماً نهاراً وليلاً وكارزاً فيها في جميع المسكونة.

فأما هذا الشقي الحظ يظهر (خروجه) على النواميس المقدسة ويدل بهم أنهم مثبتين على الحق والاستقامة. وبالحقيقة ليسوا هم كما يظن، بل هم مصنفات إلى الطغيان. ولم

يفهم معاينهم كما يجب، بل يضل بهم أناسًا كثيرين من قليلي المعرفة السدّج في قلة فهمهم وغلظة ذهنهم وافتخارهم بعلمهم، وهم لم يعرفوا شيئًا، ولا يدرون الطريق المؤدية إلى الخلاص لأجل أنها ضيقة وليس رحبة؛ ولهذا يقبلون قول هذا الطاعي بتفسيحه لهم بالأمور التي لا تجدي نفعًا، ويدخل سيرة الغنم كراعي بالخارج ومن داخل ذيب خاطف يذبح ويشتت بقدر قدرته الباطلة، ويشتد إلى الوسط طغيانًا فاسدًا وكذبًا بهرجًا لعلمه أنهم سدّج أميون لا يفهمون شيئًا، ويبدع بدعًا ويظن أنها من الكتب المقدسة، وكل ذلك من عظمتهم وغروره وافتخاره.

ويقول في أثناء ذلك في إمضاء مكاتبيه من الحقيّر متروبوليت أي من غير المستحق ولم يفهم أن هذه القضية لم تُعطى له، بل هي أُعطيت إلى البطارقة وإلى رؤساء الأساقفة القائمين بذاتهم لا غير كما هي مرتبة من المعلمين الإلهيين.

ولم يكفاه ذلك بل إنه لعظمة غباوته وجهله يتجاسر على غير أبرشيات ويوعظ فيهم من غير إذن ولا دستور صاحب الأبرشية، ويبيان ذلك ليس هو من باب طريق الناموس ولا هو لائقًا ومرتبًا بين رؤساء الكهنة أن يطاء كراسي غيرهم من غير إذنهم، كما هو مشروح في القانون العشرين في «طرلو» المقدسة في المجمع الخامس والسادس المقدسين الذي يذكر فيهم بأن ليس لائق لرئيس كهنة يتقدم في غير أبرشيته أو يعلم فيها، وكل من يتجاسر على ذلك يكون مقطوعًا من كهنوته.

وأيضًا في قانون التاسع عشر والتاسع والعشرين من مجمع أنطاكية العظمى يشرع بالقول: إن كل رئيس كهنة يشرطن بغير أبرشيته أو يوعظ بغير إذن صاحب الأبرشية أو من غير مكاتبه له، فتلك الشرطونية باطلة وذلك المشرطن يكون مقطوعًا من سائر درجات الكهنوت.

لأجل ذلك لما ثبت عندنا أقوال وأفعال وتصريح هذا الشقي الحظ أفثيموس، وتوجيهه وتجديفه على الحسني العبادة، وعلى القوانين المقدسة وتحريمهم مثل ذلك من غير جزع ولا خوف ولا احتشام لكونه خالف شروط القوانين المقدسة؛ لأنه:

أولاً: حلل زواج الزيجة الرابعة وزوّج أختين إلى أخين.

ثانيًا: شرطن أناسًا من غير أبرشيته.

ثالثًا: أبطل تفاسير يوحنا فم الذهب وقال: هؤلاء كانوا رؤساء كهنة وأنا رئيس كهنة مثلهم.

رابعًا: حلل أكل السمك في يومي الأربعاء والجمعة وفي الصيام الكبير المقدس وبقية الصيامات المقدسة ويلعن الذي ما يأكل في الصيام سمك.

خامسًا: أبطل تراتيب الكنيسة وزاد ونقص في قوانينها.

سادسًا: أبطل من القداس إلهي حط الزوان الماء الحار ورفع من الوسط.

سابعًا: بتجبره وكبريائه وافتخاره بنفسه تجرأ وابتدع له ميترا ولبسها من غير أن سبق للمطارنة الذين قبله أن لبسوها بهذا الكرسي، ومع ذلك من غير إذن ومشورة معلمه ومن غير دستوره. وصار قائم بذاته وخالف القوانين المقدسة وأمورًا غيرها قبيح أن نذكر تعاويدها؛ فلأجل ذلك حكم مجمعنا هذا المقدس بالحق أنه مستحق القطع وهو مقطوع من ساير درجات الكهنوت العظيمة والملايكية.

فمن حيث إنه لم يثبت مستقيمًا، بل تعظم في معرفته وشابه طغمة الملائكة التي سقطت من السماء ومائلها. ومن الواجب لكل رئيس كهنة أن يكون نقي طاهر ليس بالقول فقط، بل بالفعل حتى لا يشكوا منه رعاياه ولو بكلمة واحدة صغيرة، ولا يفترى على الاسم القدوس، بل يكون كواحد من الرسل بالقول والفعل والسيط، وكل من فعل خلاف هذا الرأي ويعلم الناس بخلاف ذلك ويطغى عقول السذج فمثل هذا فليسقط من درجته، ويجب أن يُطرد هذا الطاغي من بيننا ويُحذف كما يُحذف الحجر بالمقلع كما معين في شريعة الرسل.

فليعلم الآن كل واقف عليه وسامع رسالتنا هذه فليعتقد بأنه بعد فحص بليغ واستيثاق حريز بهذا المجمع المقدس بحضور البطارقة الدائمين الذكر إخوتنا كير أنثاسيوس وكير كيرلس بطارقة القسطنطينية سابقًا، وبحضور أخونا الأب الأُمجد كريسانطوس البطريرك الأورشليمي، وبحضور من وجد معنا من رؤساء كهنتنا المطارنة والأساقفة المحبين لله، وشركائنا في الخدمة الإلهية الذين سنذكر أساميهم أدناه، بأننا شرعنا جميعنا وحكمنا وحتما بأن هذا الشرير أفثيموس مطران صور وصيدا محروم مفروز مقطوع من سائر درجات الكهنوت، ومعرى من سائر مواهب الروح القدس، وليكن مسقوطًا وخارج من درجة المطرانية، ويكون جزءًا ساقطًا ومطرودًا من سائر أبرشيته. وأما كتبه المصنفات من قبله فليكونوا مردولين وبطالين وليس مع أحد دستور من جميع الحسنِ العبادَةِ أن يعتنى بهم أو يفعل بما فيهم، وكل من تعدى ذلك من المسيحيين وتبع هذا المذكور الكاذب المشوش على كنيسة المسيح الأرثوذكسية الأغنام الناطقة الذي هو متشبه بالشيطان كائنًا من كان يكون مفروزًا.

وهذا الشقي المنكود حظه ليس له «معاوضة» في أبرشيته، ولم يبقَ معه دستور بوضع يده على كنيسته ولا يقارش محصولها من المسيحيين، وليس له سلطان أن يتزيا بزي رؤساء الكهنة، ولا أن يتصرف ويخدم خدمتهم؛ لأنه مقطوع ومسقوط ومنترعة عنه النعمة وسائر درجات الكهنوت. ومن الآن يُسمى أفتميوس فقط لا غير ويكون كواحد من المطروحين. وكل كاهن يقدس معه ويحتسبه كباقي رؤساء الكهنة بمعرفة يكون مقطوع من كهنوته مفروزًا، وكل واحد من العلمانيين يكرمه إكرام رئيس كهنة، ويقبل تلك اليد النجسة الملوثة غشًا قاصدًا بذلك أخذ بركة، فلتكن خطاياهم غير متروكة ولا مغفورة إذا كان بمعرفة منه. وكائنًا من كان منكم أو من غيركم يساعده ويقبله في بيته أو في أوضته أو في حاصله أو يشاركه في مصالحه وفي أفعاله أو يسعى معه أو يساعده كائنًا من كان ذلك الشخص يكون محروم كبير كان أو صغير. ومن الآن كل من يتشرطن من يده يكون مقطوع. والذين يتفقون معه وهم يعلمون أنهم يتفقون ضد الحق فليكونوا محرومين معه ويكون حظهم مع المعوجين كما يقول النبي داود. وكل الذين يضادون وينشقون مائلين إلى طغيانه وتجديفه فليكونوا مغضوبين ومحرومين في هذا الدهر، ويرثون برصًا لا يبرأ دائمًا وفي حياتهم يهتزون مثل قايين ويهلكون ولا يشبعون القوت الضروري، ويمحقون من مصحف الحياة. ويكون لهم وعليهم غضب الآباء المتوشحين بالله الثلاثمائة وثمانية عشر وبقية الجامع المقدسة.

وأما جميع المسيحيين الأرثوذكسيين الذين هم لأوامر كنيستهم سامعين وبها عاملين وممًا يضادها هاربين ولتقليدات الآباء القديسين ورسومهم فيها تابعين، وفي كل عمل صالح ناجحين فليكونوا للمكوت السماء وارثين، آمين آمين آمين. حرّر في شهر تشرين الأول سنة ١٧١٨ أنديكتون الثاني.

برحمة الله أنناسيوس بطيريك القسطنطينية سابقًا أمر بذلك، برحمة الله كيرلس بطيريك القسطنطينية سابقًا أمر بذلك، برحمة الله جريسندوس بطيريك أورشليم أمر بذلك، في طاعة قدسكم أكليمنضوس أيراكليه ورودوستوس، في طاعة قدسكم بائيسيوس نيقوميذية، في طاعة قدسكم أفكسنتيوس كيزيكو، جراسيموس نيقية، أنناسيوس أدرنة، ديونيسيوس أماسية، برتانيوس لاريسوس، نيكوميديس ميليتيني، أبروفنوس متليني، أنناسيوس أيلاصونوس.

نسخ من اللغة الرومية إلى العربية في دمشق على يد أب الآباء ورئيس الرؤساء وراعي
الرعاة كير كيرلس بطريرك أنطاكية وسائر المشرق».^{٥٨}

أثناسيوس الرابع (١٧٢٠)

وشاخ كيرلس الثالث وقרכת رجله وشقت قرحتها، وحضرته الوفاة وبلغ الوصية فدخل
عليه الخوري عبد المسيح وكان ممن قالوا بالكتلكة، وسأله إذا كان يريد أن يعترف،
فأجابته البطريرك: «أي شيء عملت؟! لا قتلت ولا زנית ولا سرقت اقرأ أفسشين».^{٥٩} وفي
يوم الثلاثاء الخامس من كانون الثاني سنة ١٧٢٠ اختار له الله ما عنده ففاضت نفسه
ودفن يوم عيد العماد الشريف في مدفن البطاركة في تل القديس جاورجيوس، «وكانت
مدة رئاسته سبعا وأربعين سنة وستة شهور وأربعة أيام».^{٦٠}

وكان أفتيميوس في دمشق آنئذٍ فأحاط به أنصاره وأرادوا أن ينادوا به بطريركا
واستعانوا بعثمان باشا أبي طوق صديق أفتيميوس وأرادوا أن يستولوا على البطريركية
بالقوة، فعارضهم في ذلك المرسلون الرومانيون في شخص كل من الأب توما دي كامبايا
والأب بطرس فروماج وقالوا: إنه محروم من البطاركة، وإن رائده تغيير الطقوس والعوايد
وتخريب نظام الكنيسة! وفصلا ذلك في أنه «بذء يبطل الماء الحار من القداس ويلزمكم في
أكل السمك ويطعم رهبانكم لحم حتى يحقر كنيستكم!» وأيدا أثناسيوس؛ لأنه سبق له
أن نصب بطريركا، فطالب أفتيميوس بخمسائة غرش دفعها إلى كيرلس لمناسبة شرطته
مطرانا على صور وصيدا فأعيدت له مائة ذهب بندقلي وستة عشر كتابا كنسياً وأشياء
أخرى، فذهب أفتيميوس إلى الكنيسة وأقام اسم أثناسيوس وقال: «كونوا مطمئنين القلب
والخاطر».^{٦١}

^{٥٨} عن نسخة «الآباء اليسوعيين في بيروت» مخطوط رقم ٥٥٠، راجع: «تاريخ الطائفة الملكية» للخوري
قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٤١٢-٤٢٥.

^{٥٩} أفتيميوس إلى إقليس الحادي عشر (أول آب سنة ١٧٢٠)، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين
الباشا، ج ١، ص ٤٤٠-٤٤١.

^{٦٠} النقش الأثري في دار الكاتدرائية البطريركية في دمشق.

^{٦١} أفتيميوس إلى مجمع الإيمان (آخر كانون الثاني سنة ١٧٢٠)، «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ٤٠٩،
وأثناسيوس إلى مجمع الإيمان، المرجع نفسه، ص ٤٥٩.

أما أثناسيوس فإنه بعد الصلح الذي تم في السنة ١٦٩٤ استقر في حلب ودبر رعيته أحسن تدبير، «فمنع عنها ما لا يجوز وأثبت فيها ما يجب إثباته من قطع أسباب الشر وإثبات أسباب الخير.» فأحبه النصارى على اختلاف مللهم ومالوا إليه؛ «لأنه كان ذا عقل وافر وحكيم.»^{٦٢} وكان يُكثر من مطالعة كتب الآباء والتواريخ فلوى عنانه واستقام على الطريقة المثلى واتصل بالقسطنطينية وسافر إلى الفلاخ والبغدان مستجدياً. ولما تُوفي كيرلس نادى جمع غفير من نصارى دمشق بأثناسيوس بطريركاً وكتبوا بذلك إلى أعيان الطائفة في حلب، وكان أثناسيوس غائباً عنها متجولاً في الفلاخ فأجاب نعمة بن توما الخوري الحلبي باسم أعيان حلب برسالة مسهبة أدخل نصها في كتابه «راكب الطريق لمن يرضى بتقليد التفريق». وإليك أهمها:

ومن جهة مكاتيبكم المرسلة على يدنا لكي نرسلها إلى قدسه مع المكاتيب المخصوصته إلى إسلامبول، ففي حال وصولها بذلنا ما يجب علينا من الهمة وبأشرنا تحرير مكاتيب خصوصية وعمومية، ووضعنا الجميع في مغلف واحد وأرسلناهم ضمن مكتوب بولسة صحبة جوقدار حضرة محصل أغا مضمونات الوصول بوجه السرعة ليد المقدسي فرج الله القاري. وأكدنا عليه في مكاتيبنا أنه حال وصولهم إلى يده يمسك ولاق (ساعي) على كيسنا ويرسلهم صحبته إلى الولاء (الفلاخ). وأكدنا على قدسه أن يكون حضوره إلى إسلامبول قبل بيوم وساعة ليقتضي شغله على مراده.^{٦٣}

مجمع القسطنطينية (١٧٢٢)

وعاد أثناسيوس من بلاد الفلاخ وبلغ دمشق في أوائل آب سنة ١٨٢٠، وكان كيرلس قد وقف جميع متروكاته على الكرسي البطريركي، فلما استتب الأمر لأثناسيوس وجد معظمها مندثراً فأخذ الغيظ منه كل مأخذ، وزاده غيظه بما لاحظته من نشاط رهبان الإفرنج وتدخلهم في شئون الكنيسة.

^{٦٢} «ديوان البدع»، لجريمانوس فرحات، «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ١٢٧.

^{٦٣} المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٢٩-٤٣٠.

ولما كانت وسائل أثناسيوس المادية ضعيفة لا تساعد على محاربة رهبان الفرنجة بسلاحهم تذاكر في ذلك مع البطريركية المسكونية، ثم سافر إلى القسطنطينية بنفسه وأجهد في عقد مجمع للنظر فيما يجب اتخاذه من احتياطات بهذا الشأن، فانعقد هذا المجمع في أواخر السنة ١٧٢٢ في القسطنطينية برئاسة أرميا البطريرك المسكوني واشترك أثناسيوس البطريرك الأنطاكي وخريسنتس البطريرك الأورشليمي واثنى عشر مطراناً. وحكم هذا المجمع على التعاليم غير الأرثوذكسية، ولا سيما ما يتعلق منها بالرئاسة والعصمة والانبثاق من الابن والفطير والنار المطهرية وسعادة القديسين والمخنوق وصوم السبت ومنع الميرون والمناولة عن الأطفال. وحررت أعمال هذا المجمع باليونانية والعربية وانتشرت في لبنان وسورية وفلسطين. وقد ذكر السمعاني ذلك في الجزء الثالث من «المكتبة الشرقية» وبندوتي في إضافته على «التاريخ الكنسي» لملاطيوس^{٦٤} وديمتراكوبولس في تاريخه، ص ١٧٠-١٧١،^{٦٥} وكان بطرس الأكبر قيصر روسية يعيد النظر في نظام الكنيسة الروسية فاستشار القسطنطينية في بعضها، فعُني المجمع المنعقد فيها بهذه الأمور. وأهم ما اتخذه من القرارات لهذه المناسبة الإكثيسيس الأرثوذكسي، فتبنى بذلك أمولوغية دوسيئيوس الأورشليمي وأرسلها إلى روسية، فعرفت برسالة البطاركة، وقد سبقت الإشارة إليها ونشرت بتمامها في الفصل السابق.

اختصار صوم الرسل

وكان كيرلس الثالث قد سعى لدى المقامات الأرثوذكسية العالية في اختصار صوم الرسل، فلما استولى أثناسيوس على سدة الرسولين جاءه سينديكون يفوض أمر حلّ هذا الثقل إليه، فأصدر منشورًا رعائياً جعل فيه صوم الرسل اثني عشر يوماً بعدد الاثني عشر رسولاً؛ وذلك «لكي من يصوم لا يدين من لا يصوم ومن لا يأكل لا يدين من يأكل». وبيّن الأسباب التي أوجبت هذا الاختصار فجعلها خمسة؛ أولها: أن من صام هذا الصيام كان يصومه بتذمر وضجر، وثانيها: أن هذا الضجر كان يدفع البعض إلى التجديف، وثالثها: أن بعض المؤمنين كانوا يتعدون الصوم بالخفاء، ورابعها: أن البعض كانوا

^{٦٤} Vendotis, G., Prosth. Ecc. Ist. Meletion, Wien, 1796, 59.

^{٦٥} «البطاركة»، لغطاس قندلفت: «منار»، ١٨٩٩، ص ٢٩١.

يأكلون الزفر من غير حياء، وخامسها: أن أغلب أهل القرى والبر كانوا يتركون المذهب المسيحي وينحازون إلى الأمم؛ لأن «فصل السنة في هذا الصوم مقفر من الخضر والفاكهة ومن المأكّل الصيامية، ومخصب بالحليب واللبن والجبن والبيض، وأن أهل البر لم يكن عندهم غير هذه المأكّل، وهكذا كان أولادهم ينفرون عنهم وينتمون إلى مجاورهم من الأمم، فلم يبق في بعض القرى من المسيحيين أحدًا».^{٦٦}

الليتورجية والأورولوجيون

وعُني أنناسيوس وهو لا يزال بطريركًا سابقًا بالطقوس الدينية فطبع في السنة ١٧٠١ في مدينة بوخارست في حقلين يوناني وعربي بحبر أسود فاحمر كتاب الليتورجيات الثلاث، واعتمد في النص اليوناني ما كان قد طبع سابقًا في مدينة البندقية وتبنى للنص العربي ترجمة ملاتيوس كرمه، فظهر الكتاب في ٢٥٢، صفحة من القطع المتوسط، وجاء في ديباجته ما يلي:

كتاب القداسات الثلاثة الإلهية مع بعض احتياجات أخرى ضرورية للصلوات الأرثوذكسية. قد طبع الآن حديثًا في اللغة اليونانية والعربية بالتماس ومشاركة الأب الطوباني كيريوكير أنناسيوس البطريرك الأنطاكي سابقًا، بمصرف السيد الأمجد الرفيع الشأن متقلد حكم جميع بلاد ونكر وفلاخيا كيركيريوانو قسطنطين بسارابا ويوضا المكرم، في تقليد رياسة كهنوت الأب المطران الكلي الغبطة ثاوضوسيوس للبلاد المذكورة، في دير سيدتنا والدة الإله المكنى بسيناغوفو في سنة ألف وسبعمائة وواحد مسيحية، بيد الكاهن في المتوحدين أنثيموس الكرجي الأصل.

وفي السنة ١٧٠٢ أنجزت هذه المطبعة نفسها كتاب الأورولوجيون بحرف عربي كبير بحبر أسود وأحمر في حوالي سبعمائة صفحة. وجاءت طروباريات وقنداقات أعياد المشاهدة وأعياد الخمسين والتريودي مطبوعة باليونانية والعربية في حقلين متقابلين.

^{٦٦} عن كتاب «عجالة راكب الطريق لمن يرضى بتقليد التلفيق» لنعمة بن توما الخوري الحلبي، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٤٣٦-٤٣٩.

كتاب «صخرة الشك»

ورأى أثناسيوس أن يزود الأرثوذكسيين بما يثبت إيمانهم ويمكنهم من الرد على رهبان الفرنجة وأتباعهم فنقل كتاب إيليا مونيائي إلى العربية وأسماه «صخرة الشك» ونشره مطبوعاً سنة ١٧٢١ ووزعه مجاناً على أبناء الطائفة. وفي هذا الكتاب بيان بدء الانشقاق وأسبابه وانفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية والاختلافات الكلية بينهما،^{٦٧} فاستفز بعمله هذا الشماس عبد الله زاخر، فرد هذا بكتاب أسماه «التفنيد للمجمع العنيد» وبموجز دعاه «مختصر التفنيد»، وقد طبعه الآباء اليسوعيون فيما بعد في بيروت سنة ١٨٦٥، وقام بعده الخوري نقولا الصايغ فصنف في الدفاع عن الكتلثة كتاباً أسماه «الحسن العظيم مقابل المجمع الأثيم»، منه نسختان في مكتبة دير المخلص.

تاريخ البطريركية الأنطاكية

وصنف أثناسيوس تاريخاً لبطريركية أنطاكية من زمن بطرس الرسول حتى السنة ١٧٠٢ ودوّنه باللغة اليونانية فترجم إلى اللاتينية وطُبع في فينة عاصمة النمسة، وشرح كتاب «التعليم المسيحي» وكتاب «الحكيم والعالم»، وألّف في سيرة القديس خريستوذولوس رئيس دير الرسول يوحنا اللاهوتي الذي كان في جزيرة بطمس.^{٦٨}

أثناسيوس وأفتميموس

واعتبر البطريرك أثناسيوس أفتميموس محروماً وأعلن ذلك في أبرشيات الكرسي الأنطاكي، واستصدر فرماناً سلطانياً بنفي أفتميموس وحمل هذا فرمان إلى الولاة رسوياً سلطانياً، فقبض على أفتميموس وعلى ابن أخته الخوري ساروفيم طاناس وأخيه أو ابن عمه منصور الصيفي والخوري خليل خبية والقس إلياس فرعون والخوري فرج الله نصر والخوري سليمان سالم، وقيدوا بالحديد وأودعوا السجن في قلعة صيدا استعداداً لنفيهم إلى أدنة. وجاء إلى صيدا مطران يوناني يحمل ثلاثة أوامر سلطانية قضت بضبط الكرسي

^{٦٧} Demetracopoulos, A. K., Orthosos Ellas, 170, 171, 174

^{٦٨} Sathas, C., Neoelleniche Philologiai, 458

والأملاك وبتأديب من اعترف بسلطة رومة. وزار هذا المطران اليوناني أفثيميوس في سجنه وفأوضه في العودة إلى حضرة الكنيسة فأبى، وكان لأفثيميوس صداقة تُرعى عند والي صيدا عثمان باشا أبي طوق فتوصل بها. وبدلاً من أن يطوقه «أبو طوق» أطواق بره أرسل رجاله إلى السجن يفأوضون السجناء فيما يدفعون فداء أرواحهم! ولما نال مراده منهم شهد بحسن حال أفثيميوس واستصدر عفواً من الآستانة، ثم أطلق سبيل السجناء بعد أن قضوا في القلعة ثلاثة أشهر وثيقاً، وخشي أفثيميوس أن تتقلب الحال عليه بعد أن عزل صديقه عثمان باشا في أواخر السنة ١٧٢٢، فاستصدر حجة شرعية من قاضي صيدا تثبت التحقيق في قضيته وصدور العفو وذلك في حوالي التاسع عشر من حزيران سنة ١٧٢٣،^{٦٩} وجال أفثيميوس جولة رعائية فزار صور وصيدا وبعليك، ثم نهض إلى دمشق فاستولى عليه العياء وكان قد جاوز الثمانين، فتوفي فيها في أواخر تشرين الثاني سنة ١٧٢٣، ودفن في مدفن التل. وفي السنة ١٩٢٦ عثر بعض الفعلة العاملين في المدفن على حجر تاريخ أفثيميوس فنقله بعض الرهبان سرّاً من المدفن إلى محطة القطار في دمشق، فأعلم مدير الشرطة البطريك غريغوريوس الطيب الذكر بذلك فقال رحمه الله: «هم أحق منا بذلك؛ لأن أفثيميوس كان أول أسقف كاثوليكي». فنقل الحجر إلى دير المخلص.^{٧٠}

أثناسيوس وحلب

وذهب أثناسيوس بعد تفرده بالبطريركية إلى بلاد الفلاخ والبيغان لجمع التبرعات للكرسي الأنطاكي، ثم عاد إلى القسطنطينية ومنها إلى حلب. وأقام في هذه المدينة مدة؛ لأنه شعر أن مناخها كان أكثر موافقة لصحته، ولعله أحب أن يكون مركزه الفعلي في أكبر وسط أرثوذكسي، ولعله أيضاً سئم الإقامة في دمشق لكثرة الشغب في أوساطها الأرثوذكسية المائلة إلى رومة.

وألحّ الحلبيون بوجوب رسامة أسقف عليهم منذ السنة ١٧٢٠، فانتهز أثناسيوس فرصة شغور الكرسي فيها واشترع ما يؤمن المحبة والسلام، فأصدر في الخامس والعشرين

^{٦٩} عن رسائل أفثيميوس وساروفيم إلى مجمع الإيمان، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ١، ص ٤٦٣-٤٨١، راجع أيضاً رواية الخوري جبرائيل فينان (٢٥ حزيران شرقي ١٧٢٣) في المؤلف نفسه، ص ٤٨٦-٤٨٧.

^{٧٠} قارن بما أورده الخوري قسطنطين الباشا في «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ١، ص ٤٩٧.

من تموز من هذه السنة مرسومًا بطريركيًا قضى بتأليف مجلسٍ ملي من اثني عشر عيّنًا من أعيان الطائفة، وبتخصيص جميع ما يدخل من النذور وما يرد من تفريق الشمع وما يجمعه صندوق الفقراء وثلاثي دخل القداديس والنياحات إلى الكنيسة يتسلمه مجلس الملة وينفقه برأيه، فيؤمن باتيومية Pateomai وملاقة القضاة وحكر الكنائس والإنفاق على الفقراء والديورة والقندلفت وغير ذلك، وخصص البطريرك دخل الإكليل والخطبة ونصف مدخول الأعياد وثلاث مدخول القداديس والنياحات لرئيس الكهنة بالإضافة إلى مال البطرشيل. وأما النورية فإنها ظلت للبطريرك المتولي كائنًا من كان وفي أي مكان كان.^{٧١} وكان أثناسيوس قد قضى في دمشق أحد عشر شهرًا (١٧٢٠-١٧٢١) ثم أقام الخوري جرجس البلمندي وكيلًا له فيها، ومضى إلى حلب فوصلها يوم عيد الرسل في التاسع والعشرين من حزيران سنة ١٧٢١. ولدى وصوله طلب الشعب مطرانًا عليهم ورغبوا في انتداب ثيودوروس الحناوي الشويري، فلم يرَضَ البطريرك لما كان قد شاع عن ثيودوروس من ميل نحو الكتلكة، فطلبوا أن يكون المطران من أبناء بلدهم فخيرهم بين ثلاثة: الخوري جرجس الشدودي والخوري نقولا الصايغ والخوري جراسيموس (جرجس البلمندي)، فاختراروا جراسيموس فحضر حالًا؛ «لأنه كان متمرمًا من أهل الشام؛ لأنهم بغضوا معلمه».^{٧٢} ورسم البطريرك جراسيموس مطرانًا على حلب ثاني عيد الميلاد ليلاً وأصدر المرسوم التالي:

بعد البركة والنعمة، المنهي أنه لما دعت الضرورة إلى إقامة مطران على مدينة حلب، حيث إننا التزمنا سياسة أبرشية الكرسي الرسولي الأنطاكي المقدس، ولأن الطريقة الكنايسية تقضي أن يصير انتخاب المطران برضا البطريرك واختيار الكهنة وباقي الرعية، ورأينا أن الرعية انقسمت آراؤها في ذلك أقسام قد يتصل إلى انخرام النظام، وآل أمر انتخابهم إلى أربعة أنفار لم يستقر لمجموعهم على أحد قرار، ثم تصفحنا الاثنين من الأربعة فرأيناهم لا يقبلان التقدم إلى هذه الدرجة السامية الشاقة حذرًا من محذورات ضرورتها الفايقة، والثالث ليس بمعلوم أن يكون كُفُوًا ولا تبين أنه يرضى الالتزام بها.

^{٧١} مجموعة نعمة توما الخوري، «عجالة راكب الطريق»، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين

الباشا، ج ٢، ص ٤١-٤٣.

^{٧٢} «تاريخ الرهبانية الشويرية»، المؤلف نفسه، ج ٢، ص ٤٥.

فاستخرنا الله واخترنا لهذه الدرجة العلية والوظيفة الربانية ولدنا الروحي الخوري جرجس البلمندي بما أنه كفو لها من حيث السيرة وحسن التدبير وسلامة الذمة والسريرة؛ ولذا حررنا هذه الوثيقة لإظهار انتخابنا المذكور ورضانا به، حتى كل من اعتمد على رأينا المرقوم يحرر خطه بيده لإثبات ما ألهمنا إليه تعالى من الهداية؛ لأن الجماعة الحلبية بما أنهم أبناؤنا الأخصاء قد التمسوا منا أن نقيم عندهم لسياسة أمورهم ولإظهار محبتنا لهم ما دما في قيد الحياة، وإن اقتضى أمر ضروري لسياسة غيرهم فنذهب لقضائه ونجازه ونعود إليهم، فرأينا أن إجابة طلبهم من وجه المحبة الأبوية واجب ومقبول وحرى بالقبول. فأجبنا التماسهم المرغوب كالمأمول، وهم قبلوا هذا العهد والقرار على هذا المنوال بناءً على أن يثبت المقال بثبات الأفعال وعليه الاتكال.^{٧٣}

وبعد أن ارتقى جراسيموس إلى الأسقفية رفض الذهاب إلى دمشق بوكالة البطريك، فقامت بينهما الضغائن. وكان من الحلبيين قسم وافر قد شرد عن الأرثوذكسية، فلما رأوا ما جرى بين أنثاسيوس وجراسيموس وكانوا ينفرون من الأول نظراً لاجتهاده في مقاومتهم، تحزبوا لجراسيموس ومالوه إليهم. فلما رأى البطريك ذلك أبعد جراسيموس عن حلب وكرم الشماس عبد الله زاخر، فخرج جراسيموس من حلب وأقام مدة في دير البلمند، ثم في دير السيدة في رأس بعلبك ثم في بعلبك نفسها. وما فتئ جراسيموس مبعداً حتى تموز السنة ١٧٢٤، وفيه وهبه البطريك الحل وأعادته إلى كرسيه.

أنثاسيوس ودمشق

وصمم أنثاسيوس على محاربة الكثلكة في دمشق وأصر على ذلك، فكتب في الرابع عشر من كانون الأول سنة ١٧٢٢ إلى لاونديوس متروبوليت حماة ووكيله في دمشق أن يجمع الكهنة والشمامسة والوكلاء والأعيان ويكلمهم فيما جرى، ويأمرهم بالتمسك بالتقاليد الأرثوذكسية بدون زيادة أو نقصان، وبكتابة محضر بذلك يبين واقع الحال ويقنع البطريك القسطنطيني وسائر المطارنة. وأمر لاونديوس أن يفهم الدمشقيين أن

^{٧٣} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ٢، ص ٤٣-٤٤.

بطريركهم يتبع الكنيسة الشرقية والجامع المقدسة السبعة، وأنه يؤمن بجميع ما قالوه وحدوده من القوانين والطقوس والرتب والأصوام والصلوات جميعها، فإن قبلوا هذا الرأي وأعطوا خطوط أيديهم به جاز وبقي هو على ما كان عليه من الاهتمام بهم، وإن لم يمتثلوا فليس على لاونديوس إلا أن يعلم البطريرك بذلك ليرفع يده ويتركهم «يعملون خلاصهم»، وإن طاعوا رضي عنهم. ولكنه يصر على ربط الخوري خليل خيبة والخوري عبد المسيح زبال والقس يوحنا خيبة والقس نقولاسيور، وإن لم يحفظ هؤلاء الرباط البطريركي وقعوا في الحرم بكلمة الرب العزيز، وكذلك من تعصب معهم وشوش فهو محروم أيضًا!^{٧٤}

مجمع دير المخلص

وتوفي أفثيميوس الصيفي في السابع والعشرين من تشرين الثاني حسابًا شرقيًا سنة ١٧٢٣، فاجتمع كهنة الروم الكاثوليك في دير المخلص، وانضم إليهم الوجوه والأعيان وتفاوضوا في أمر خلف يتولى شئون الروم الكاثوليك، فطلبوا إلى الخوري سيرافيم ابن أخت أفثيميوس أن يخلف خاله فأبى؛ لأن نصارى صيدا كانوا لا يزالون يفاوضون البطريرك أثناسيوس في سيامة سيرافيم مطرانًا على صيدا. فاتجهت الأنظار نحو الخوري جبرائيل فينان، فقال: «إن هذا الأمر ليس في يدنا». فقالوا له: «أنتم اسكتوا واقبلوا الدرجة ونحن نعمل شغلنا». فقبل فألح المجتمعون على الأمير حيدر حاكم جبل لبنان أن يوجد مطارنة ثلاثة يرسمون جبرائيل، «فجاب لهم الأمير ثلاثة مطارنة من تحت حكمه الواحد مطران بيروت من طقس الروم، والثاني مطران إلياس الموراني، والثالث مطران إبرام الأرمني».^{٧٥} وسام هؤلاء جبرائيل أسقفًا على بانياس ودعوه باسيلئوس. وأقام باسيلئوس في دير المخلص يدبر شؤونه، ثم كتب في الثاني من آذار سنة ١٧٢٤ إلى مجمع الإيمان يوضح واقع الحال ويرجو «الحلة من الكرسي الرسولي»؛ لأن نيوفيطوس غير كاثوليكي!^{٧٦}

^{٧٤} المرجع نفسه، ج١، ص١٢-١٣.

^{٧٥} والأول نيوفيطوس متروبوليت بيروت والثاني إلياس المحاسب مطران عرقة على الموارنة والثالث إبراهيم العينتايي مطران حلب على الأرمن الكاثوليك.

^{٧٦} باسيلئوس إلى مجمع الإيمان، «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج٢، ص١٦-١٨.

أغناطيوس مطران صور وصيدا (١٧٢٤)

ولم يرضَ أنثاسيوس البطريرك عن رسامة باسيليوس، ولم يثق بسيرافيم لاندفاعه الشديد في سبيل الكتلة وجرائه على الجهر بها. وكان لا يزال يأمل في تسوية الأمور ورد الشاردين إلى الحظيرة، فاتخذ موقفاً وسطاً في رسامة خلف أفتميوس على صور وصيدا، فوافق على ترشيح الخوري أغناطيوس البيروتي، وكان هذا من تلاميذ أفتميوس وقد ناب عنه في أثناء غيابه، ولكنه كان «مسكيناً لين الجانب»، فدعاه إلى حلب، وطلب إلى نيوفيطوس متروبوليت بيروت ونيوفيطوس متروبوليت صيدنايا أن يتوليا أمر رسامته وسمح لهما بالقيام بذلك وحدهما لتعذر وجود مطران ثالث، وقال في مرسومه: إنه عمل بنص القانون العشرين من الكتاب الثالث من قوانين الرسل والفصل السابع والعشرين من كتاب المراسيم الرسولية للقديس إكليمنضدوس تلميذ بطرس الرسول.^{٧٧}

وفاة البطريرك أنثاسيوس (١٧٢٤)

وكبر أنثاسيوس وتجاوز الخامسة والسبعين، وكان قد أصابه استرخاء في مثانته فتوفي في الرابع والعشرين من تموز سنة ١٧٢٤ ودفن في جرن أعده لنفسه في كنيسة حلب. وجاء للخوري ميخائيل بريك أنه مات مسموماً.^{٧٨} وجاء في تاريخ الرهبنة الشويرية أنه احتفل بخدمة القديس في أوائل شهر تموز وقال عند النهاية: «إن بعضاً ألفوا كتاباً ضد مجمعنا (عبد الله زاهر) فليكونوا محرومين هم ومن يقرأ في كتابهم». فشعر وهو يخلع ثوبه الحبري بألم فلزم فراشه.^{٧٩}

وجاء في «تاريخ البدع» لجرمانوس فرحات أنه لما دنت ساعة وفاة البطريرك جاءه الأب فروماج اليسوعي وفاتحه كلاماً في سر الاعتراف، فأبى أن يعترف عنده وقال: لقد اعترفت! وأضاف جرمانوس أن البطريرك اعترف على يد الخوري بطرس الأشقر الأرثوذكسي رئيس دير مار جرجس الحميرة وأنه مات أرثوذكسياً.^{٨٠} وجاء في تاريخ

^{٧٧} مجموعة نعمة توما الخوري: «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ٢، ص ٣٨.

^{٧٨} «الحقائق الوضعية»، ص ٦٢.

^{٧٩} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ٢، ص ٤٨.

^{٨٠} المرجع نفسه، ص ٤٩-٥٠.

الرهينة الشويرية أن أناسيوس بقي مصرًا «على شقاقه» حتى الموت،^{٨١} وجاء للأب جوزف دي ريلي رئيس دير الكبوشيين في حلب أنه ذهب في السابع والعشرين من تموز حسابًا غريبًا لعيادة السيد أناسيوس بطريك الروم ولم يكتف له خوفه من دنو أجله، فرفض قرارات المجمع القسطنطيني وقال: إنه لا يعرف إلا كنيسة واحدة هي كنيسة رومة، وإنه يموت على هذا الإيمان والاعتقاد ما عدا عادات الطقس التي لا تمس الدين، وإنه يقبل كل المجامع المسكونية، ولا سيما المجمع الفلورنتيني، وإنه حل عبد الله زاهر قبل وفاته.^{٨٢} وجاء أخيرًا للمؤرخ المجهول صاحب «تاريخ نشأة الطائفة المعروفة بالروم الكاثوليك» الذي دوّن في حوالي السنة ١٨٢٠ ما يلي:

ويزعم الكاثوليكيون أن أناسيوس تُوفي على مذهبهم، وهو قول شائع بينهم وبين أحزابهم لما علم من عادة هؤلاء القوم من أنه إذا تُوفي واحد منهم أو منا وكان من المعروفين بالتقى والصلاح قالوا إنه مات على رأيهم ولو كان ذلك زورًا وافتراء، ولا إثم عندهم في ذاك ولا حرج!^{٨٣}

ونحن نرى أن شهادة المطران جرمانوس فرحات أولى بثقتنا، فهو مطران الموارنة الموالين لرومة، وهو صديق أناسيوس وجليسه ولا مصلحة له فيما يروي، ومؤرخ الرهبانية الشويرية لا يناقضه في ذلك، ولا يجوز اتخاذ موقف وسط في هذه القضية، فما يصح في علم الرياضيات يصح هنا.

البطريك كيرلس طاناس الكاثوليكي (١٧٢٤)

وبعد وفاة أناسيوس الرابع تشدد المنفصلون وانتهزوا الفرصة لتقوية مركزهم في الكرسي وتعزيز جانبهم برئاسة سيرافيم طاناس ابن أخت أفثيموس الصيفي. وولد سيرافيم في دمشق في نحو السنة ١٦٨٠، وتربى على يد خاله أفثيموس، وأمّ رومة في السنة ١٧٠٢ لتلقي العلوم فيها، ثم عاد إلى صيدا مركز أبرشية خاله في السنة ١٧١٠، فرسمه خاله

^{٨١} «تاريخ الطائفة الملكية» أيضًا، ج ٢، ص ٥٠.

^{٨٢} Barenton, H., La France Catholique en Orient, 179.

^{٨٣} «الحقائق الوضعية»، ص ١٠٤.

كاهناً فعمل بإرشاده وتنقل واعظاً داعياً لرومة في أبرشيات الكرسي الأنطاكي. وانتدبه فريق من أهل عكة مطراناً لهم، فعارضه في ذلك البطريرك الأورشليمي ولم تتم رسامته. ثم انتدبه أهل أبرشية صور وصيدا ليخلف خاله عليهم، فذهب إلى حلب حاملاً صكوك انتدابه طالباً رسامته من يد البطريرك أثناسيوس، فأبى هذا أن يرسمه لما اشتهر به من خضوع لرومة وجهر بوجوب الاتحاد معها. ولما توفى أثناسيوس قر قرار المنفصلين في دمشق وعددهم ثلاثمائة وثمانية وعشرون على انتداب سيرافيم للكرسي البطريركي وكتبوا بذلك صكاً ووقعوه ورفعوه إلى السلطات الزمنية في دمشق، فقالوا:

المعروض بعد الدعاء المفروض بين يدي حضرة أولياء النعم أرباب السيف والقلم جناب الدولة العلية والسدة السنية، أدام الله تعالى ملكها على التأييد وأمدّها بالنصر والتأييد من عبيدهم ومماليكهم النصارى الذميين القاطنين بمحروسة دمشق الشام من طائفة الروم الداعيين لهذه الدولة العلية بالبقاء على الدوام المسطرة أسمائهم أدناه بأنهم قد قبلوا ورضوا واختاروا بأن يكون عليهم المعلم كيرلس بطريركاً ومتكلماً مطاعاً؛ ليسوسهم بالقوانين المألوفة، ويراعي أحوالهم بالسياسة المعروفة على النمط السابق من البطارقة السابقين قبله بالأسلوب المعهود بينهم، فإنه لذلك أهل ومستحق للرياسة عليهم وللبطيركية مستوجب لديهم. ويرجون من مراحم الدولة العلية وإحساناتها المرضية تقرير هذا المعلم في بطيركية أنطاكية في دمشق الشام واستجلاب الدعاء من الخاص والعام. شيد الله أركان هذه الدولة العلية على ممر الليالي والأيام إلى يوم البعث وساعة القيام والدعاء باقي.^{٨٤}

وقدموا هذه العريضة إلى الباشا وكلفوه استصدار براءة سلطانية بذلك ودفعوا له ما توجب دفعه. ثم فاوضوا أساقفة كنيسة أنطاكية في أمر الرسامة، فامتنع الأساقفة، ولم يتوجه منهم أحد إلى دمشق سوى نيوفيطوس أسقف صيدنايا. فاستقدم الدمشقيون باسيليوس فينان من دير المخلص، ولدى وصوله رسم بالاشتراك مع نيوفيطوس الخوري أفتيميوس فاضل أسقفًا على الفرزل ليكون للبطيريك أساقفة ثلاثة يقومون بتنصيبه.

^{٨٤} محفوظات مجمع انتشار الإيمان على ذمة الخوري قسطنطين الباشا، «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ٢، ص ٧٤-٨١.

ولا يخفى ما في هذا العمل من الخروج على التقاليد المقدسة، فأسقفية باسيليوس كانت في أساسها غير قانونية لتدخل الأمير حيدر فيها وضغطه على نيوفيطوس متروبوليت بيروت وإحضاره جبراً، ولاشتراك أسقف ماروني وأسقف أرمني في الرسامة. ومن ظواهر الخروج على التقاليد إقدام نيوفيطوس صيدنايا وباسيليوس دير المخلص على سيامة أسقف ثالث وانفادهما بذلك. ولا يجوز اعتبار سيامة أغناطيوس على صور وصيدا سابقة لمثل هذا الشذوذ؛ لأن البطريرك أثناسيوس وافق على رسامة هذا بالاشتراك مع نيوفيطوس ونيوفيطوس، وأين البطريرك الذي وافق على سيامة أفثيميوس على الفرزل؟! وسيم أفثيميوس في الرابع عشر من أيلول أسقفًا على الفرزل. وفي العشرين من الشهر نفسه رسم الأساقفة الثلاثة الخوري سيرايم أسقفًا باسم كيرلس ثم نصبوه بطريركاً. ولم تأبه رومة لهذا الشذوذ وهذا الخروج على التقاليد الرسولية المقدسة، فأصدر حبرها بندكتوس الثالث عشر براءة رسولية في الخامس عشر من آذار سنة ١٧٢٩ ثبت بها كيرلس طاناس بطريركاً على أنطاكية، وأرسل له بالأيوم (الأمفوري) «بعد وضعه على ذخائر القديس بطرس رمزاً إلى استمداد السلطة منه».^{٨٥}

ووضع كيرلس طاناس يده على المركز البطريركي في دمشق واستوى على عرش الكاتدرائية، «ورفع آيات الشكر لله بذلك، وسمع حينئذ لأول مرة: أوّمن أن الحبر الأعظم الروماني هو نائب السيد المسيح ورأس الكنيسة كلها، وأوّمن أن الروح القدس منبثق من الآب والابن».^{٨٦} وجاء في «الحقائق الوضعية»، ص ٦٤:

وحينئذ أعلنوا الأشياء الخمسة ودخل الإفرنج إلى الكنيسة وذلت طائفة الروم فتعاضم الخطب واشتدت الفتنة وتكاثرت المظالم والمغارم، ودخل جماعة من حاشية الحاكم من المسلمين بقصب الدخان إلى داخل الهيكل والبطرك في التقديس وتكلموا معه.

ورسم كيرلس الخوري مطوديوس الحلبي أسقفًا على القلاية وقلده أمر تدبير أبرشية دمشق لمعاونته في أمرها.^{٨٧}

^{٨٥} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ٢، ص ١٢٩-١٣٠ و ٢١٧-٢١٨.

^{٨٦} «Un Père Capucin de Damas», Damas, 30 Oct. 1724, Rabbath. A., Documents, I, 566-569.

^{٨٧} «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ٢، ص ١٢٠-١٢١.

سلفسترس الأول (١٧٢٤-١٧٦٦)

وكان أثناسيوس قبل وفاته قد أشار إلى المسيحيين في حلب وغيرها أن ينتدبوا خليفة له كاهناً يُدعى سلفسترس قبرصي الأصل، خدم عنده أولاً كشماس ورافقه في كثير من أسفاره إلى بلاد الفلاخ والبغدان وغيرها، ثم تركه وانخرط في إكليروس الكنيسة القسطنطينية. وكان سلفسترس وقتئذٍ مقيماً في الجبل المقدس آثوس متنسكاً متزهداً.^{٨٨}

وراسل كيرلس طاناس المسيحيين الثابتين على الإيمان القومي ليجتذبهم إليه، وحرر أيضاً إلى أساقفة الكرسي الأنطاكي وأعلن لهم أنه قد انتصب عليهم بطريركاً، وطلب إليهم أن يعرفوه ويخضعوا له ويذكروا اسمه، وتوعد من يخالفه بالخلع فلم يجبه المطارنة. وكانوا قبل أن تصل إليهم رسائله حرروا مع الشعب إلى المجمع القسطنطيني الذي كان يرأسه البطريرك بائيسيوس، وأخبروه عن وفاة البطريرك أثناسيوس وعن أعمال كيرلس طاناس وعن كيفية شرطونيته ودخوله بالقوة الجبرية إلى قلالية دمشق وإقامته فيها. وطلبوا إلى المجمع المساعدة الأخوية بما كان له من نفوذ أدبي لدى الحكومة العثمانية، وأعلنوا لهم أنهم انتدبوا سلفسترس بطريركاً، ويرغبون في أن يصير استدعاؤه من جبل آثوس وترقيته إلى الأسقفية ليتبوا السدة الأنطاكية الرسولية، ورمى المسيحيون الأنطاكيون بعملهم هذا إلى الحصول على شخص يجمع بين الخبرة والنفوذ الأدبي، ويأتي كنيسة أنطاكية مصحوباً ببراءة سلطانية وتواصّ تساعده على كبح جماح المخالفين وعلى المحاماة عن الإيمان الأرثوذكسي، فيتمكن من أن يقوي الأرثوذكسية ويزيل الخصام بين مسيحي أنطاكية ويعمل على توحيد قلوبهم.^{٨٩}

فلما وصلت هذه الكتابات إلى المجمع القسطنطيني حرر إلى جبل آثوس واستدعى سلفسترس ورقاه إلى درجة الأسقفية في السابع والعشرين من أيلول سنة ١٧٢٤، وأخرج له براءة سلطانية وأوامر سنية بنفي كيرلس طاناس، وعزل أبو طوق والي دمشق الذي تعهد باستصدار البراءة السلطانية لكيرلس. وشاع خبر سلفسترس وبراءته والأوامر التي بيده، ففر كيرلس حاملاً الملابس والتيجان والصلبان والكثوس والصواني وسائر الأواني

^{٨٨} Constantius, Patriarchs of Antioch, op. cit., 185

^{٨٩} «تاريخ البطاركة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، «منار»، ١٨٩٩، ص ٣٠٢-٣٠٣.

المقدسة التي كان مكاريوس قد أحضرها من روسية، والتجأ إلى جبل لبنان وأقام في دير المخلص.^{٩٠}

وكان كبير سلفسترس رجلاً فاضلاً أقام مدة طويلة في مناسك جبل آثوس، ونظرًا لابتعاده عن العالم كان ساذجًا خفيف العنان سهل الانقياد، ولكنه كان في الوقت نفسه شديد التمسك بالرسوم الشريفة، لا يتزعزع ولا يحيد عنها.^{٩١}

ولدى وصول سلفسترس إلى حلب بلغه ما فعله سيرا فيم فأسرع إلى دمشق وأقام فيها شهرين، ورحب به أهلها وبينهم أنصار كيرلس طاناس، ثم خرج للتطواف. وبعد سنة ونصف سنة اتجه شطر حلب، ولما وصل إلى خان طومان خرج أعيانها الأرثوذكسيون لاستقباله وأعدوا له هناك مائدة نفيسة من السمك مع أنه كان يوم الأربعاء؛ وذلك بناء على الإجازة التي كانوا قد أخذوها من البطريك السابق أثناسيوس، فلما نظر سلفسترس السمك رفس المائدة برجله وحرّم الحلبين وترك الأعيان وذهب تَوًّا إلى قلاية حلب. وحاول الحلبيون استرضاء البطريك، ولكنه لم يصفح، بل انتصب نهار الأحد التالي في الكنيسة وحرّم كل من يجسر في المستقبل أن يتناول سمكًا في يومي الأربعاء والجمعة. ولم يقتصر على هذا الحد، بل حَقَّر وجهاء حلب وشكا المتشيعين منهم إلى الباباوية إلى الوالي فأودعوا السجن ولم يطلق سبيلهم إلا بعد خسائر جمة، فغضب هؤلاء وحقدوا وسعوا لحبس البطريك. وعلم سلفسترس ذلك من قنصل الإنكليز ففر خفية إلى اللاذقية ومنها توجه بحرًا إلى القسطنطينية.^{٩٢}

وشكا الحلبيون أمرهم إلى المجمع القسطنطيني وأدَّعوا أن سلفسترس يضرب الكهنة ويسلم الأعيان إلى الحكام ويعرض أموال الشعب للمصادرة والمغارم ويهدد بالنفي والقتل، «ويتهمهم بأنهم على مذهب الإفرنج»، وأنهم طردوه ولم يعد بإمكانهم قبوله. ووصل سلفسترس نفسه إلى القسطنطينية فشكا الحلبين بدوره، فنصح المجمع باللين والرفقة والإقناع والمحبة وبعث أسقفًا يدعى غريغوريوس وكيلًا عن البطريك سلفسترس

^{٩٠} «الحقائق الوضعية»، ص ٦٤.

^{٩١} Constantius, Patriarchs of Antioch, op. cit., 185; Kyriakos D. Ecc. Istoria, (Athens, 1883)

.327

^{٩٢} Hypsilantis, Athanasios Comnenos, Ecclesiasticon cai Politicon, 326

وأمره بإقامة اسم سلفسترس، فرحب به الحلبيون وعادوا إلى الكنيسة صباح مساء «ولم يظهروا آراءهم».^{٩٣}

وأصدر المجمع القسطنطيني في السنة ١٧٢٥ وبالاتفاق مع البطريرك سلفسترس منشورًا رعايًا موجهاً إلى المسيحيين من أبناء كنيسة أنطاكية وأورشليم، يحضهم على الابتعاد عن التعاليم المحدثّة الغربية التي لا تنطبق على تعاليم المجمع المسكونية والآباء القديسين ويرشق المخالفين بالحرم.^{٩٤}

ومكث غريغوريوس في حلب سنتين، ثم سئم الإقامة بها؛ لأنها ليست من أبرشيته، فاستأذن الحلبين وودعهم وانقلب راجعًا إلى القسطنطينية. فكتب الحلبيون إلى المجمع القسطنطيني بذلك وطلبوا العفو عن جراسيموس أسقفهم الشرعي وإعادته إليهم، فأجابهم المجمع إلى ذلك وأخرج جراسيموس من المنفى بعد أن لبث فيه خمس سنوات ونصف السنة، وأوصاه أن يحسن سلوكه فيهم، وأن يقيم اسم البطريرك سلفسترس، فقبل الوصية وأظهر الطاعة. ولما وصل إلى حلب أحسن الحلبيون استقباله وأكرموه ولبث بينهم يتظاهر بما أوصاه به المجمع القسطنطيني، وكان يذكر في قداسه اسم البطريرك سلفسترس. وكان الحلبيون يؤمّون الكنيسة بشطريهم وكل منهم على رأيه، بيد أن رهبان الإفرنج ما فتئوا يزينون لهم أمر الطاعة والخضوع لرومة ويشحذون عزائمهم على فعله، بل يدفعونهم إليه ويسوقونهم سوقًا. وكان جراسيموس يسكت عن هذه الأعمال؛ لأنه كان يبطن الكتلّة وإن تظاهر بخلافها خوفًا من الرجوع إلى المنفى.^{٩٥}

سلفسترس في بلاد المسيحيين

واجتهد سلفسترس لدى وصوله إلى القسطنطينية في رد الحلبين إلى الطاعة بالقوة، وأنفق في هذا السبيل مبالغ وافرة، ولما لم يتسنّ له الفوز بمرغوبه عاد إلى الكرسي مارًا في بلاد

^{٩٣} «نشأة الروم الكاثوليك»، لمجهول، وهو ملحق بكتاب «الحقائق الوضعية»، ص ١٠٨، ولعل المؤرخ المجهول هو ميخائيل الصباغ معاصر البطريرك سيرا فيم، غطاس قندلفت، مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٣٧٧.

^{٩٤} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، «منار»، ١٨٩٩، ص ٣٧٧.

Rabbath, A., Documents, II, 415-420.

^{٩٥} «نشأة الروم الكاثوليك»، ص ١٠٩، و«تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ٢، ص ١٥٢-١٥٤ و ٣١٦.

أرضروم وما يليها جامعًا بعض الحسنات، ثم وصل إلى دمشق في السنة ١٧٣١ وأقام مدةً بين المسيحيين والسلام سائد، ثم أثار رهبان الإفرنج النزاع بين الفريقين، فتناقلت الديون على الطرفين وساءت الأحوال، ولما رأى أن لا سبيل لإزالة الشرور خرج من دمشق في جولة رعائية ثم عاد إليها وأقام علمانيًا — ميخائيل توما — من ذوي الدراية والنفوذ والمداخلات وكيلاً عنه وتوجه إلى القسطنطينية. وبعد مذاكرة البطريرك القسطنطيني ومجمعه خرج منها إلى بلاد الفلاخ والبعغان؛ لأجل جمع الإحسان ووفاء الديون، وقيل: إن هذه الغيبة استغرقت نحو عشر سنوات. وفي أثنائها عمّر سلفسترس ديرًا في بلاد البعغان على اسم القديس اسبريرون العجائبي ووقفه على الكرسي الأنطاكي.

وطبع سلفسترس في السنة ١٧٤٧ في اللغة العربية في بخارست مجموعة تحوي النصوص التي نُظمت في المجمعين المنعقدين في القسطنطينية بشأن ظهور الكتلكة بين صفوف المسيحيين الأنطاكيين؛ أحدهما: في أواخر السنة ١٧٢٣ برئاسة البطريرك أرميا، والآخر: في السنة ١٧٢٧ برئاسة البطريرك بائيسوس. وحوّت هذه المجموعة أيضًا خمس مقالات بالعربية فيها الردود الأرثوذكسية على القضايا الخمس المستحدثة عند اللاتينيين، وجاء بعد هذه دستور «كنيسة المسيح المقدسة الشرقية»،^{٩٦} فإذا به يتضمن سبعة عشر رأسًا؛ أي فصلًا، وإليك خلاصتها:

الرأس الأول: على كل مسيحي أن يقر ويعترف بالقلب واللسان بالأمانة المقدسة المرتبة بإلهام الروح القدس من المجامع الإلهية كما تعترف به كنيسة المسيح المقدسة الجامعة الرسولية الشرقية هكذا: أؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السماوات والأرض ... إلخ.

الرأس الثاني: وبسبعة مجامع مسكونية فقط لا غير: مجمع نيقية، ومجمع القسطنطينية، ومجمع أفسس، ومجمع خلقيونية، ومجمعي القسطنطينية الخامس والسادس، ومجمع نيقية السابع المسكوني، وسائر المجامع الصغيرة أيضًا.

الرأس الثالث: وبجميع التقليد المسلّم من الرسل القديسين وخلفائهم الآباء الإلهيين المكتوب وغير المكتوب كما تحفظه الكنيسة من غير زيادة أو نقصان.

^{٩٦} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت، «منار»، ١٨٩٩، ص ٣٨٧.

الرأس الرابع: وبأسرار سبعة؛ سر المعمودية وسر الميرون وسر القديس الإلهي وسر الكهنوت وسر الإكليل الناموسي وسر التوبة؛ أي الاعتراف، وسر الزيت المقدس.

الرأس الخامس: وبأن الروح القدس منبثق من الآب وحده وليس من الابن، والزيادة التي أحدثها اللاتينيون غير مقبولة من المجامع المقدسة، وهي سبب الانشقاق والانفصال.

الرأس السادس: وبسر القديس الإلهي وبأن الاستحالة تتم بعد القول: واضع هذا الخبز جسد مسيح المكرم، وأما هذا الكأس دم مسيح المكرم لينتقلان بروحك القدوس ويستحيلان.

الرأس السابع: نبذ العقاب الذي أحدثه اللاتينيون الذي يسمونه مطهرًا، والرأي عندنا في الذين قد توفوا أنهم ينتظرون القيامة في أماكن عديمة التعزية مخيفة محزنة، أما أنفس الصديقين فإنها في أماكن نيرة براحة وطمأنينة تنتظر السعادة المغبوبة.

الرأس الثامن: بأن القديسين لم ينالوا بعد السعادة التامة، وبأنهم ينتظرون حضور سيدنا يسوع المسيح لينالوا السعادة الكاملة بأجسادهم معنا.

الرأس التاسع: بأن النور الذي أشرق على جبل طابور في تجلي المسيح ليس هو مخلوق ولا هو جوهر الله مطلقًا، ولكنه مجد التجسد الإلهي.

الرأس العاشر: بأن المواهب المختصة بالآب والابن والروح القدس ليست مخلوقة، ولكنها مختصة به منذ البداية.

الرأس الحادي عشر: بأن رأس الكنيسة الجامعة الرسولية هو سيدنا يسوع المسيح، وأما بابا رومة فإنه تابع خاضع لأوامر المجامع.

الرأس الثاني عشر: نقر أيضًا بالكتب الإلهية المسلّمة إلينا من الآباء القديسين، ونقبل تفاسيرهم لا تفاسير رومة المحرفة المعوجة.

الرأس الثالث عشر: ونعترف بالغفرانات التي يمنحها البطارقة بتدقيق وتمييز لا كما تمنحها كنيسة الغربيين.

الرأس الرابع عشر: ونعتقد أن الرسل القديسين حرّموا علينا ذبيحة الأصنام كلها والدم المخنوق، وأمرهم هذا مطاع وثابت.

الرأس الخامس عشر: ونقول: إن سر الزواج الناموسي لا ينفك عملاً بقول الإنجيل: ما أزوجه الله لا يفرقه إنسان. أما إذا استبان على المرأة أمر زنى فلرجلها أن ينفصل عنها ويتزوج من غيرها.

الرأس السادس عشر: نحفظ القوانين والتعاليم الرسولية ونثبتها ونؤيدها.

الرأس السابع عشر: هذه هي أمانة المسيحيين الأرثوذكسيين الصحيحة، وهي دين شرعي على كل المسيحيين أبناء جنسنا، ومن يعود راجعاً ويطلب الاتحاد بالكنيسة المقدسة عليه أن يقر ويعترف بجميع هذا الدستور. تحريراً في السنة ١٧٢٧.

منع الاشتراك في القدسيات (١٧٢٩)

وفي السنة ١٧٢٩ أعلن مجمع نشر الإيمان «أن الاشتراك في الإلهيات مع المشاقين والهرطقة ومخالطتهم في طقوسهم غير جائز». وأكد هذا المجمع أن عمله هذا مبني على النظر والخبرة، وأن المخالطة محرمة بموجب الناموس الطبيعي والإلهي.^{٩٧}

كيرلس ودمشق

وأما كيرلس طاناس فإنه بعد أن خرج من دمشق والتجأ إلى لبنان أقام في دير المخلص وأجهد كثيراً في الضغط على الأرثوذكسيين في أبرشيات الساحل وتحريضهم على نبذ الطاعة لرؤسائهم القانونيين. وفي أثناء غيبة سلفسترس التي طالت كثيراً اتفق مع بعض أهالي حلب ورهبان الإفرنج، وعمل على تأليف عرائض من بعض الأهالي وإرسال كتابات من قناصل فرنسة والنمسة في حلب وصيدا إلى سفرائهم في الآستانة لأجل مساعدته في الحصول على براءة سلطانية. وأنفق مبالغ وافرة في إعداد عرائض أخرى يشكو الدمشقيون فيها من إطالة غيبة بطريركهم ويبينون احتياجهم إلى بطريرك يدبر أمورهم الدينية، ويشهرون في الوقت نفسه رضاهم عن كيرلس طاناس ويطلبونه بطريركاً عليهم. وسعى سفير فرنسة ووكيل البابا في الآستانة وقدماً أربعة آلاف ريال روماني للدفتر دار واستصدرا البراءة المنشودة في السنة ١٧٤٥ وأرسلها إلى قنصل فرنسة في صيدا.

^{٩٧} «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٩.

واستلمها كيرلس وأوفد نائباً عنه إلى دمشق فأطلع واليها على الأوامر السنية. وتمكّن من وضع يده على الكنيسة ومن سجن ميخائيل توما وبعض الأعيان. ثم قام كيرلس نفسه إلى دمشق وسجل براءته في محكمتها الشرعية واستولى على الكرسي،^{٩٨} وأفاد ديمتري شحاده نقلاً عن جدته ابنة الخوري ميخائيل بريك أنه لدى عودة كيرلس إلى دمشق اشتد الاضطراب، فكان كلما تلا دستور الإيمان بزيادة «والابن» تظهر العكاكيز ويبدأ الضرب،^{٩٩} وحرّر كيرلس إلى المطارنة يعلن وصول البراءة ويطلب الخضوع. فنبذ الأساقفة أمره وحرروا إلى البطريك المسكوني بائسيوس بما كان من أمر كيرلس طاناس والتمسوا أن يحرر بسرعة إلى سلفسترس ويستعجله بالرجوع إلى الكرسي. فأسرع بطريك القسطنطينية واستعجل سلفسترس وقدّم عريضة بالاتفاق مع برثينيوس البطريك الأورشليمي وثلاثة عشر مطراناً إلى الحضرة السلطانية، بيّنوا فيها مساوئ كيرلس طاناس الذي ادعى أنه بطريك أرثوذكسي، وهو على مذهب الإفرنج، وشهدوا أن البطريك القانوني حي يرزق وبيده براءة سلطانية.

كيرلس يعود إلى دير المخلص

ولما تحققت الحكومة العثمانية مقاصد كيرلس طاناس وسفيري فرنسة والبابا أصدرت لسلفسترس براءة ثانية وفرماناً يأمر بالقبض على كيرلس طاناس ونفيه، فأرسل سلفسترس مأموراً من قبل الباب العالي يعلن للحكومة في دمشق وللمسيحيين ما كان من صدور الأوامر بإلغاء بطريكية كيرلس وتسليم الكنيسة الكاتدرائية والبطركخانة للأورثوذكسيين. ثم عين نيقوفوروس متروبوليت باياس وكيلاً عنه مفوضاً بكل الإجراءات القانونية، وأرسل معه الفرمان والأوراق التي تتضمن الأوامر المشار إليها، فحضر هذا الوكيل إلى دمشق بعد سنة من صدور هذه الأوامر، وقابل أسعد باشا والي دمشق فاستقبله على غاية ما يرام، وساعده بإجراء كل ما من شأنه تعزيز جانبيه.

وعلم كيرلس بعزله قبل وصول المأمور وقبل حضور نيقيفوروس فعاد إلى دير المخلص. أما أتباعه في دمشق فإن بعضهم عادوا إلى الأرثوذكسية وبعضهم تردّدوا إلى

^{٩٨} مجمع رهبان دير المخلص إلى البابا بنديكتوس الرابع عشر (٢٥ حزيران ١٧٤٦)، «تاريخ الطائفة الملكية»، ج٢، ص ٣١١-٣١٣.

^{٩٩} «منار»، ١٨٩٩، ص ٣٨٨.

الكنيسة الأرثوذكسية مدة من الزمن ثم تركوها وصاروا يقيمون الصلاة في دير الإفرنج. وكان قد قدم إلى بيروت رجل من بني الدلال من يافة، وكان يتظاهر بالأورثوذكسية ويطن الكتلثة، فجعل يبت آراء الغربيين في أكل السمك وتقصير الصوم فمال قوم إلى كلامه وعملوا به، وكان من جملة هؤلاء جرجس الدهان وذووه، فاستغل جرجس عطف الأمراء الشهابيين عليه استولى من الجانب الشمالي من الكنيسة الكاتدرائية هيكلاً على اسم النبي إلياس وأقام له قسيساً اسمه ثيودوسيوس دهان لخدم التابعين له. ثم حضر كيرلس طاناس إلى بيروت ودفع مبلغاً من المال إلى الأمير ملحم الشهابي حاكم بيروت آنئذ واستولى على كنيسة مار إلياس كلها، وأحضر أسقفين من الجبل وشرطن ثيودوسيوس مطراناً على بيروت بحياة مطرانها القانوني نيوفيطوس، وأكره نيوفيطوس على النزول إلى الكنيسة ولبس البطرشيل والأمفوري في أثناء سيامة ثيودوسيوس. على أن هذا الاستبداد لم تطل مدته أكثر من أسبوع واحد، فإنه على أثر بلوغ الخبر بقرب وصول سلفسترس مصحوباً بالأوامر السلطانية وبنفي كيرلس أسرع هذا والأسقف الجديد الذي تشرطن منه وهربا إلى الجبل، فاسترجع الأرثوذكسيون كنيستهم ثم كتبوا إلى البطريرك سلفسترس بما جرى وبعجز نيوفيطوس لتقدمه في السن وفقد بصره ورغبته في التنزل عن المطرانية وطلبوا شرطنة أسقف بدلاً منه. وكان سلفسترس قد خرج من القسطنطينية وجاء أرضروم، فأخذ عريضتهم وهو في هذه الأبرشية وشرطن لهم شماسه يوانيكوس القبرصي وأرسله حالاً. وبوصوله استلم الكرسي بكل هدوء بعد أن تنزل له نيوفيطوس،^{١٠٠} وجاء للخوري قسطنطين الباشا أن نيوفيطوس تفرغ عن كرسيه وأبرشيته على يد كيرلس طاناس لثيودوسيوس دهان، ولكنه لم يذكر مراجعة.^{١٠١}

سلفسترس في دمشق (١٧٥٤-١٧٦٦)

وقضى سلفسترس في دمشق اثنتي عشرة سنة انقطعت في غضوناتها القلاقل بينه وبين الباباويين؛ لأنه لاحظ أن المناحرة تكذب الطرفين خسائر مادية جسيمة، ولم يكن هو من الأشخاص الذي يجتذبون الرعايا بالوسائل الأدبية كالإرشاد والوعظ والتعليم وبالمحبة

^{١٠٠} نشأة الروم الكاثوليك: «الحقائق الوضعية»، ص ١١٠-١١٢.

^{١٠١} «تاريخ الطائفة الملكية»، ج ٢، ص ٣١٨.

المسيحية الحقيقية التي تُلاشي البغض والحقد وترفع الكنيسة إلى المستوى اللائق بها. وكان للذين انحازوا إلى الكتلّة في هذه الآونة قسوس يخدمونهم في البيوت أو في كنائس اللاتين أو غيرهم من الطوائف الكاثوليكية. أما أكاليهم ومعمودياتهم وجنازاتهم في المدن والأوساط الأرثوذكسية فإن الكهنة الأرثوذكسيين كانوا يكملونها، وكانت تدفع المعينات عنها إلى المراجع الأرثوذكسية.

وفي أواخر عمل سلفسترس الميرون المقدس في كنيسة القديس نقولاوس في دمشق مع اثنين من رؤساء الكهنة وسبعة عشر كاهناً وعشرة شمامسة. وفي الثالث عشر من آذار سنة ١٧٦٦ انتقل إلى رحمة ربه ودُفن في مقبرة البطارقة في تلك القديس جاورجيوس.^{١٠٢}

^{١٠٢} «الحقائق الوضية»، ص ٦٥-٦٧ و ١١٢ و ١١٨، «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغطاس قندلفت: «منار»، ١٨٩٩، ص ٤١٢-٤١٣.

الفصل الخامس

وصول البروتستانت إلى الشرق واتساع الجبهة

أبرشية حلب (١٧٢٩-١٧٦٦)

وعاد جراسيموس من المنفى في نحو السنة ١٧٢٩. وكان يبطن الكتلكة فيجتذب إليها من استطاع سرًا ويرفع اسم سلفسترس علنًا ويقدم له «النورية والعوايد». ثم علم الكاثوليكيون أن رجلًا حليبيًا مسيحيًا يقال له المنصوري دخل في دين الإسلام في الآستانة وأصبح طبيبًا لدى الباب الهمايوني، وعلموا أن المنصوري هو أخو الراهب ميخائيل الحكيم البلمندي، فاستقدموا ميخائيل إليهم وأكرهوا جراسيموس متروبوليت حلب وصديقه أغناطيوس متروبوليت حمص على سيامة ميخائيل أسقفًا على حلب. وكان أغناطيوس ممن يبطن الكتلكة أيضًا، فسام هذان الأسقفان ميخائيل أسقفًا باسم مكسيموس. وكانوا قد كتبوا إلى المنصوري في فصل أبرشية حلب عن الكرسي الأنطاكي وأن يكون مطرانها مستقلًا بنفسه يدفع مالًا إلى الدولة كأحد البطارقة، فبادر المنصوري أخو مكسيموس إلى إجابة طلبهم، واستصدر أوامر سلطانية سامية بفصل مطرانية حلب واستقلالها على أن تؤدي إلى الباب العالي في كل سنة مائتين وخمسين غرشًا وستين غرشًا للوزير الأعظم والدفتردار، وأرسل الأوامر باسم أخيه. ولما تم لهم ذلك أرسلوا جراسيموس إلى لبنان، فجاء وأقام بدير مار ميخائيل، وأجروا له نفقة حينًا من الزمن ثم قطعوها عنه، فاغتاظ واغتمَّ وألَمَّ به مرض في ركبتيه، فوصف له رهبان الدير نطولًا من مغلي

بعض العقاقير، وجعلوا فيه رجليه فصاح: لقد احترقت! ومات لساعته. ولما صار للحلبين أسقف منهم جاهروا بمذهبهم وأظهروا قسوسهم، وشرعوا في اضطهاد أبناء الكنيسة، فمن هؤلاء من فر نازحاً ومنهم من بقي مستترًا في بيته.^١

وجاء في تقرير الأب سيغوران Seguran اليسوعي المعاصر أنه بعد إفراز أبرشية حلب على هذا الوجه في الثالث عشر من نيسان سنة ١٧٣٠ وبعد دفع خمسة وأربعين كيسًا لهذه الغاية نجح سلفسترس في نقض هذا القرار في السنة ١٧٣٢، وأرسل وكيلاً عنه في ٢٠ تموز سنة ١٧٣٣ حبيباً الأور. ففر مكسيموس إلى جبل لبنان، فأنفق اليسوعيون ثمانية آلاف وخمسمائة غرش وجددوا الأفراز بواسطة والي حلب وقاضيهما بعد أن دفعوا ثانية سبعة آلاف وخمسمائة غرش، فعاد مكسيموس إلى الكرسي في السنة ١٧٣٤. وكلّ سلفسترس وعدل عن المقاومة اثنتي عشرة سنة، «ثم تحرك كيرلس فغضب سلفسترس» فأرسل وكيلاً يضبط الكنيسة وأمرًا بنفي ستة من وجوه الطائفة، «فقاومناه وأرشنا ومنعناه وتكلفنا مقدار عشرة آلاف غرش». فأرسل جنادىوس مطراناً على حلب، فوصل جنادىوس في رابع العنصرة سنة ١٧٤٦ ومعه جوقدار الصدر الأعظم وأوامر بضبط الكنيسة وإرسال اثني عشر كاهناً ووجيهاً إلى الآستانة، «فوقع الهرب وكبس البيوت وضرب العصي إلى حد الألف والإشراف على الموت تحت الضرب، فوزنًا إلى جوقدار الوزير ٧٥٠٠ غرش وإلى حضرة الباشا ٧٥٠٠ ثم ٢٥٠٠. وبوسيلة هذه المصارف والرشوات صرنا نقدر بهيكل خصوصية من غير مشاركته مقدار سنة. وهدد سلفسترس جنادىوس فهرب من حلب، فأخرجنا الكهنة المشاقين من الكنيسة وتسلمناها فدفعنا ١٢٥٠٠ غرش ما عدا الرشوات عند الأبواب، وصرفنا على عرضحال إلى الآستانة ٨٥٠٠ غرش ولأجل بيورلدي في حلب ٥٠٠٠ غرش، ولأجل الصلاة عند الإفرنج ٥٠٠٠ غرش. ثم أرسلنا وكيلاً إلى الآستانة لفرز المطرانية باسم السيد مكسيموس وفوضناه بإنفاق ما يريد. وقبل وصوله جاء ابن ديب وكيلاً من قبل سلفسترس فقبض على ثلاثة من الكهنة وثلاثة من العوام وتسلم الكنيسة في السنة ١٧٤٩. ثم وقفنا إلى من رأف من أرباب الدولة فأخرج

^١ هذا مما أخبر به أغناطيوس متروبوليت حمص، رواه عنه أناس ثقات فأثبتته المؤرخ المجهول (ميخائيل الصباغ) كما سمعه من غير زيادة. «الحقائق الوضعية»، ص ١١٤.

لنا براءة سلطانية بتجديد الأفران، ووصلت هذه البراءة في التاسع من تشرين الأول سنة ١٧٤٩، وتكلفنا على تسجيلها في السراي والمحكمة ١٢٥٠٠ غرش، فيكون جملة الذي وزناه من استيلاء سلفسترس إلى هذه الواقعة ٣٢٢٧٥٥ غرشًا. تحريرًا في ٧ أيار سنة ١٧٥٠.

وفي اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٧٥٠ وصل صفرونيوس «متجلببًا بشعار الرياء والورع المصطنع»، وأظهر انشقاقه وأكد أنه لن يقبل أحدًا يشاركه في قداسة ما لم يستفهم منه ويجادله في حقائق إيمانه، وتكلفنا على تسجيل براءته خوفًا من ضرره ٣٥٠٠ غرش. وفي الثاني من نيسان سنة ١٧٥٢ حبس الباشا جميع الكهنة والشمامسة، ورثى حضرة المُلّا والأعيان وأكابر البلدة لحالتنا وأمروا أن نعرض حالنا لدى الشرع الشريف في أثناء غياب الباشا في الجردة، ففعلنا فحكم المُلّا على صفرونيوس وقسوسه وحبسه في القلاية وحبس القسوس في الحبس العام في باب قنسرين، «فوزنا في هذه الدعوى ٧٥٠٠ غرش» وتسلمنا الكنيسة في ٢٤ أيلول سنة ١٧٥٢. وفي اليوم الثامن من تموز سنة ١٧٥٤ جددنا براءة إلى مطراننا مكسيموس فوزنا فوق الستة آلاف غرش خمسة عشر ألف غرش لتسجيلها في حلب. وجاء مكسيموس في ١٥ تشرين الأول سنة ١٧٥٤ فاستقام عندنا مدة، ثم أخرجوا براءة لصفرونيوس وردت في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٧٥٦ فدفعنا من تكاليف هذه البراءة أربعة آلاف غرش. وقبضوا على سيدنا كير مكسيموس ونفّوه إلى قلعة أدنة في ٨ تشرين الثاني سنة ١٧٥٦، ثم عاد إلى حلب في ١١ نيسان سنة ١٧٥٧. وطلبنا تجديد أفران المطرانية ولكن من الطولة والخوف الذي اعترى سيدنا فرّ إلى لبنان من أول تشرين الثاني سنة ١٧٥٨. وجاءت براءة الأفران، ولكن سيدنا لم يرجع. وما مرّ برهة من الزمان حتى تجددت براءة باسم المطران فيليمون فدخل حلب في ٥ أيار سنة ١٨٥٨.^٢

وتتفق رواية المؤرخ المجهول الأرثوذكسي وما جاء في تقرير الأب اليسوعي في الخطوط الكبرى، ولكنها تذكر لجوء الكاثوليكين إلى الإهانة والرشق بالحجارة والشتم وما إلى ذلك من أعمال غفل عنها صاحب التقرير اليسوعي. وأهم من هذا وذاك قوله إن الطبيب أثناسي الذي رافق الوزير راغب باشا والي حلب مدة ولايته نقل إلى المجمع القسطنطيني

^٢ «تاريخ الطائفة الملكية»، للخوري قسطنطين الباشا، ج٢، ص ١٧٥-١٨٩.

ما شاهده من الفوضى في كنيسة حلب، فأجابه هذا المجمع: «وما عسانا نحن أن نصنع إذا كان بطريركها قد تخلى عنها، أما إذا وجهها لنا نظرنا لعلنا نستطيع أن نصلح شئونها»، فكتب أثناسي إلى البطريرك سلفسترس فوهب أبرشية حلب إلى الكرسي القسطنطيني. فرفع البطريرك القسطنطيني الأمر إلى الباب العالي وطلب إلحاق حلب بأبرشيته، وأن يؤدي هو الأموال المفروضة عليها فأجابوه إلى ذلك وأصدروا له أمراً به.^٣

خضوع حلب للكرسي القسطنطيني

وفي السادس من تشرين الثاني حساباً شرقياً سنة ١٧٥٧ اتخذ المجمع القسطنطيني قراراً ضمَّ به أبرشية حلب إلى أبرشيات الكرسي القسطنطيني. وأهم ما جاء في هذا القرار أن سلفسترس اقترح هذا الإلحاق من تلقاء نفسه نظراً للصعوبات التي لقيها في ضبط شئون هذه الأبرشية، وأن واجبات الكرسي القسطنطيني قضت بحماية جميع الجاليات المسيحية والعناية بشئونها، وأن الامتيازات التي تمتع بها هذا الكرسي حوّلتها الإشراف على شئون جميع المسيحيين للإصلاح والتعصيد. ومما جاء في هذا القرار التاريخي خبر ترشيح الأب الراهب فيليمون بروتوسنكلوس أبرشية دركون Derkon لأسقفية حلب.^٤

البطريرك فيليمون (١٧٦٦-١٧٦٧)

وبعد انتقال السيد سلفسترس تذاكر الأساقفة والوجهاء بشأن انتداب خليفة له، وكان وقتئذٍ في القسطنطينية حبر جليل تميّز بالتقوى والفضيلة والعلم والدراية من أبناء الكرسي الأنطاكي هو السيد صفرونيوس (الكلزي). وكان هذا السيد قد تربّى منذ نعومة أظفاره في العلوم الدينية واشتهر بتضلعه في اللغات العربية واليونانية والتركية. وكان يجيد الخطابة والوعظ في هذه اللغات الثلاث، وكان قد انتدب مطراناً على عكة ثم مطراناً بالوكالة على حلب. وعند وفاة سلفسترس كان قد انتقل إلى القسطنطينية واستقام فيها، فكتب كثيرون من الشعب الأنطاكي والمطارنة إلى البطريرك المسكوني وإلى

^٣ «الحقائق الوضعية»: ص ١١٧.

^٤ Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, Appenix I, 195

متاوس البطريك الإسكندري وبرثانيوس البطريك الأورشليمي يلتمسون إقناع السيد صفرونيوس بقبول السدة الأنطاكية، فلم يقبل صفرونيوس «وأثر الإخلاد إلى الراحة والسكون»^٥ ولم يرَ البطاركة والمجمع القسطنطيني أن يبقى الكرسي الأنطاكي «مهملاً بلا رئيس كالجسد الخالي من الرأس والروح». فعقد البطاركة الثلاثة ومجمع رؤساء الكهنة القسطنطيني مجمّعاً لانتقاء من يصلح لرعاية كنيسة أنطاكية، فوقع انتخابهم على فيليمون «لكونه مجرباً في رتبة رئاسة الكهنوت متصفاً بالمناقب الفاضلة السنية معروفاً بحسن العبادة يحكم ويقضي بحسب قانون الإنجيل والناموس أميناً بالقضايا الكنيسة؛ ولذلك رقي إلى السدة البطريكية وشُـرطن في كنيسة المسيح الكبرى المقدسة وصار بطريركاً قانونياً وراعياً روحانياً، مقدماً على مطارنة كنيسة أنطاكية سيّداً حقيقياً وشرعياً، باقتبال هذه النعمة العظيمة والموهبة الكبرى». وكتب برثانيوس البطريك الأورشليمي مثل هذا وحضّ الإكليروس والشعب الأنطاكيين على استقبال فيليمون بفرح وعلى اعتباره راعياً وبطريركاً، «وهو يسلك معكم ومع الجميع بمحبة وسلامة وهدوء كما سلك سابقاً، والرب الإله الناهض من القبر لثلاثة أيام يبارككم أنتم ونسائكم وأولادكم، ويوفقكم بجميع أعمالكم نفساً وجسداً، ويسبغ عليكم أتم البركات السماوية»^٦.

وفي أواخر تشرين الثاني خرج فيليمون من الآستانة فجاء بيروت وأقام فيها بضعة أيام، ثم ذهب إلى دمشق فدخلها في الثامن من كانون الأول سنة ١٧٦٦، فأَمَّ الكنيسة المريمية وصلى وبارك. وفي اليوم التالي قابل المتسلم والقاضي فقرئت براءته وسجلت وعاد إلى البطريكية، ثم استدعى المطارنة فلبّى الدعوة سبعة واشتركوا معه في صلوات عيد الميلاد مع عدد كبير من الكهنة والشمامسة، «ولكن يا حيف ثم يا حيف ما كمل ذلك اليوم؛ لأنه من بعد القداس انطلق البطريك والمطارنة إلى المائدة وأكلوا لحوماً ودجاجاً محشياً»، وشاركهم الرهبان في ذلك، وبلغ الخبر المسيحيين الأرثوذكسيين «فانغموا جداً

^٥ متاوس البطريك الإسكندري إلى كنيسة أنطاكية (٢٩ نيسان سنة ١٧٦٦)، عن سجل العماد في دار الأسقفية الأرثوذكسية في طرابلس، «النعمة»، ١٩٠٩، ص ٩١.

^٦ برثانيوس إلى المطارنة والكهنة ولفيف الإكليروس والمشايع والأعيان وأرباب الصنائع والمتسبين ورؤساء المراكب والملاحين، وسائر الشعب المسيحي الأرثوذكسي الذين هم في طاعة الكرسي الرسولي المقدس، حرر في أواخر نيسان في أسبوع التجديدات بعد الفصح المجيد سنة ١٧٦٦، «النعمة»، ١٩٠٩، ص ٩٢.

ووقع البلبال من هذا الحال؛ لأنه سابقًا لم تكن العادة أن يأكلوا لحومًا رهبان الروم جهارًا.^٧

مجمع دمشق (١٧٦٧)

وقبل خروج فيليمون من دمشق لتفقد شئون الرعايا عقد مجمعًا مع سبعة مطارنة واتخذ القرارات التالية:

القانون الأول: انتداب رئيس الكهنة يكون برأي المجمع وليس برأي البطريرك فقط. القانون الثاني: إذا اتفق وقدم عرض على رئيس كهنة فمن غير فحص المجمع لا يدان. القانون الثالث: في غياب البطريرك لا يصير وكيل في دمشق إلا بمعرفة المجمع؛ أي لا يصير وكيل للبطريرك رجل عامي. القانون الرابع: المختصين في كل الأبرشيات فليكونوا طائعين لرئيس كهنتهم كما ينبغي. القانون الخامس: السيمونيا لا تؤخذ في الشرطونيات. القانون السادس: ينبغي لكل رئيس كهنة أن يعمل وصية في ممتلكاته ويوهب الجزء الأكبر للكرسي. القانون السابع: حلل رئاسة الكهنوت وفرش الأرض وطقم المطبخ فليبقوا للمطران بعد وفاة مطرانها؛ أي لمطران البلد والباقي يعطى للكرسي. القانون الثامن: عرض كنائسي يجب أن يصير بعلم المجمع وليس برأي واحد. القانون التاسع: بعد نياح البطريرك الأنطاكي الوقتي لا يصير بطريرك آخر بغير فحص المجمع؛ أي رؤساء كهنة الكرسي وإرادتهم وإذا صار فلا يقبل. القانون العاشر: البطريرك الموجود في الكرسي الأنطاكي ليس له أن يتنزل بإرادته فقط، بل بإرادة المجمع. القانون الحادي عشر: مدخول الكرسي ومصروفه جميعه يتحرر في دفتر بخوف الله وبضمير نقي ولا يصير فيه خلل.

وسطّرت هذه القوانين ووقّع عليها جميع مطارنة الكرسي الأنطاكي وأُرسلت إلى القسطنطينية فوقّع عليها البطريرك القسطنطيني السيد صموئيل وقُبلت في الكنيسة العظمى، وأجاب البطريرك القسطنطيني بقبولها.^٨

^٧ «تاريخ الشام»، للخوري ميخائيل بريك، ص ٨٤-٨٥.

^٨ «تاريخ الشام»، للخوري ميخائيل بريك، ص ٨٨-٨٩.

التطواف الرعائي والوفاة (١٧٦٧)

وبقي فيليمون في دمشق ثلاثة أشهر وجعل الخوري ميخائيل بريك وكيلاً على الكنيسة وخرج يتفقد شئون الأبرشيات، ووصل إلى صيدنايا ومعه «وكيله الشرير جرجس، فسلب الدير وعزى الطاقة الشريفة، وقام إلى معلولا وأراد أن يبلس النصارى الكاثوليكين فقاموا عليه وأخرجوه من عندهم بإهانة. وأرادوا أن يقتلوا جريس الوكيل، فعاد جريس إلى دمشق واشتكى على نصارى معلولا وجرمهم وأخيراً صار قتله على يد أستاذهم»^٩ أما البطريك فإنه تابع السير فزار حمص وحماة ومنها إلى حلب فوصلها في السبت الخامس من الصوم. وفي يوم سبت إلغازار شرطن أحد شمامسته نيوفيطوس قساً، وفي اليوم التالي في أحد الشعانين رَقاه إلى مطرانية حلب وكان قد تذاكر بشأنه مع البطريك القسطنطيني، وأقام في حلب إلى خميس الصعود. ثم خرج منها إلى إدلب فاللاذقية، فأقام فيها مدة قصيرة وتوفي يوم الخميس في الخامس من تموز ودفن فيها، وقيل: إن العذراء أمارته سريعاً؛ لأنه سلب ديرها وعزى طاقة الشاغورة من زينتها. وكان مكاريوس (صدقة) مطران صور وصيدا قد حاول في السنة ١٧٦٤ أن يضبط مدخول الدير فأخذ مفتاح الطاقة من الرئيسة نμφيزورة وأعطاه لقسيس كان معه، فخرجت نار من الطاقة وأحرقت القلائد والمعلقات والقون.^{١٠}

كنيسة بيروت (١٧٦٧)

وأنشأ الكاثوليكون في بيروت أمطوشاً وكنيسة وسلموها إلى رهبانهم، وأراد الأرثوذكسيون أن يجددوا بناء كنيستهم؛ لأنها قديمة وضيقة فلم يوافق يوانيكوس المتروبوليت على ذلك. ثم أرسله البطريك سلفسترس بالميرون إلى قبرص، فانتهز الشعب البيروتي فرصة غياب المتروبوليت وهدموا الكنيسة ورسموها متسعة جداً وشرعوا في تجديد بنائها وأتموه سنة ١٧٦٧، ثم بدءوا بتركيب الأيقونسطاس والأمبون. وفي يوم الأحد الثاني من الصوم الكبير الواقع في الرابع من آذار سنة ١٧٦٧ بينما كان المطران يقدس في هيكل السيدة في بيت النساء والشعب كله في داخل الكنيسة سقطت قبة الكنيسة الوسطى وسُمع لها

^٩ المرجع نفسه، ٨٧.

^{١٠} المرجع نفسه أيضاً، ص ٩٠.

صوت كالمصواعق، واندفع الشعب كبارًا وصغارًا طالبين الفرار فمات سبعة وثمانون. وعاد الشعب إلى تجديد البناء بإشراف المتقدم فيهم يونس نقولا فتم ذلك في السنة ١٧٧٢، ولم تقم كنيسة مثلها في البلاد العربية.^{١١}

البطريك دانيال (١٧٦٧-١٧٩١)

وبعد وفاة فيليمون اختلف الأساقفة فيمن يقيمون خلفًا له، فاختار بعضهم يوانيكوس متروبوليت بيروت، وأيد آخرون مكاريوس متروبوليت صور وصيدا وقالوا: إن سلفسترس كان قد انتدبه في آخر أيامه، ومال غيرهم إلى برثانيوس متروبوليت طرابلس واختار غيرهم غير هؤلاء.^{١٢} فكتب الأعيان بذلك كله إلى المجمع القسطنطيني فاتخذ هذا المجمع قرارًا بسيامة بابا دانيال بروتوسنكلوس البطريك المسكوني بطريركًا على أنطاكية وذلك في اليوم السادس من آب سنة ١٧٦٧.

ومما جاء في هذا القرار التاريخي أن فيليمون خشي قبيل وفاته انطفاء نور الأرثوذكسية في كنيسة أنطاكية، فكتب ينتدب بابا دانيال لرئاسة هذه الكنيسة، وأن أعضاء المجمع المقدس القسطنطيني ذكروا أعمال «ذي الاسمين سيراقيم أو كيرلس»، فاستهولوا تكرار هذه الأعمال وإمكانية تهجم أحد المليتين واستيلائه على الكرسي بالرشوة وتبذيره أموال الرعية، وأن كنيسة القسطنطينية رأت من واجبها أن تستعمل صلاحياتها المستمدة من النظام القديم الذي يخولها بصفتها رأس الجميع حق العناية بالجميع والمحافظة على مصلحة الكل، فأقامت بناءً على اقتراح فيليمون كير دانيال البروتوسنكلوس العظيم بطريركًا على أنطاكية بموافقة كير أفرايم البطريك الأورشليمي.^{١٣}

ووصل البطريك الجديد إلى مركزه في دمشق في مطلع السنة ١٧٦٨ فزار الوزير وقدم له هدية فرحب به وأكرمه. وكان «قصير القامة واليد» شحيحًا ضنينًا قصير العنان قليل الخير متعاسًا متراجعًا خافض الجناح متطامن النفس حريصًا يحب المال ويشره إلى كسبه. وأعظم من ذلك فإنه كان يدين بالفائدة فعرف بـ «البطريك المرابي»،

^{١١} «نشأة الروم الكاثوليك»، لجهول، «الحقائق الوضعية»، ص ١١٩-١٢٠، و«تاريخ الشام»، للخوري ميخائيل بريك، ص ٨٩.

^{١٢} «نشأة الروم الكاثوليك»، ص ١١٩.

^{١٣} Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, Appendix, I, 193-194

فشكاه الدمشقيون إلى صفرونيوس البطريك المسكوني «فوقعت الشرور وقامت الضغون وتآلفت الجمعيات.» وشكت دمشق بدورها من قلة الألفة وتقطعت أحزابًا وتفرقت في الرأي والهوى، فتدخل صفرونيوس في أواخر السنة ١٧٧٧.

كاتدرائية دمشق

وقام في جوار البطريكية آنئذٍ كنائس ثلاث: البرانية على اسم القديس كبريانوس والقديسة يوستينة، والجوانية وهي المريمية الكاتدرائية، والثالثة تحت الأرض على اسم القديس نقولاووس، وكان يدفن فيها البطاركة والمطارنة والكهنة قبل أن عادت مقبرة التل إلى ما كانت عليه.

وفي السنة ١٧٥٩ زُلزلت الأرض فتقوضت أركان المريمية، فسندت أقواسها وعُلقت سقوفها وأُمّها المؤمنون للعبادة. ثم أشرفت على الانهيار فصلوا في كنيسة القديس نقولاووس. وفي السنة ١٧٧٩ وافق الوزير محمد باشا العظم على الترميم فاستعان دانيال بربابا مطران صيدنايا وجدد بناء المريمية والبرانية ورفعوا سقف كنيسة القديس نقولاووس.^{١٤} وعُني الخوري خريسطوفوروس المصابني المتوحد بدير القديس جاورجيوس في صيدنايا فأزاح الصخرة التي كانت في داخله واستبدل سقفه الخشبي بعقد حجري، فأصبح «نزهة للناظرين».^{١٥}

فرنسة والكتلكة في الشرق

وجاء في التعليمات التي أعدتها حكومة لويس الخامس عشر إلى سفيرها الجديد في الآستانة الماركيز دي فيلنوف Villeneuve في الحادي عشر من آب سنة ١٧٢٨ أن لحكومة جلالته أهدافًا ثلاثة لنشر الإيمان في تركية: تنصير المسلمين، وهدي المشاقي، واقتلاع بذور الهرطقة. وجاء أيضًا أن أساقفة رومة حذروا المرسلين ونهوههم عن التبشير في الأوساط الإسلامية خشية وقوعهم تحت طائل الشرع الثقيل الوطأة. والروم والأرمن في هذه التعليمات يكرهون اللاتين ويضطهدون الكاثوليكين، وحماية الكاثوليكين واجبة

^{١٤} «تاريخ الشام»، للخوري ميخائيل بريك، ص ١١٠-١١١.

^{١٥} المرجع نفسه، ص ١١٢-١١٣.

إما باللجوء إلى السلطات العثمانية وإما باجتذاب رؤساء الكنائس، واللجوء إلى السلطات أمر دقيق مخطر. وأفضل من هذا أن يصار إلى اجتذاب رؤساء الكنائس اليونانية والأرمنية كأن يقال لهم: إن سلطتهم وطقوسهم لا تُمس، وإنه ليس للمرسلين أي هدف زمني وإن غايتهم إزاحة الحواجز التي تبعد الكنائس بعضها عن بعض لرفع منزلة النصارى في عيون المسلمين وتعظيم قدرهم.^{١٦}

وما كاد هذا المركز يستقر في منصبه في الآستانة حتى أمطره أساقفة الكاثوليك ورهبان الإفرنج وإبلاً من الرسائل يستحثونه فيها على توطيد بطريركية كيرلس خدمة للكتلة في الشرق. فتبصر في طلبهم وتقصى وأعاد النظر وتأمل، فوجد أن القوانين المرعية قضت بأن يرشح بطريرك القسطنطينية لمنصب البطريرك الأنطاكي مَنْ رأى فيه الكفاءة فيوافق السلطان ويعترف. ثم وجد أيضاً أن الروم أغنى من الكاثوليك واللاتين، وأن نفوذهم في القسطنطينية أقوى، وأن الأرمن يناصرون الروم فيزيدونهم قوة؛ ولذلك كله رأى هذا السفير الفرنسي أن مصلحة الكتلة في الشرق قضت بإبعاد كيرلس عن مركز الرئاسة وإبعاد كل إكليركي يشتهر بحبه لرومة وطاعته لها، وبتأييد الإكليركيين الأرثوذكسيين المعتدلين في الرأي المتزنين في العمل، وبردع المرسلين عن غيهم وحبس عنانهم.^{١٧}

وعاد المركز السفير إلى معالجة الموضوع نفسه في السنة ١٧٤٠ فأعد تقريراً مطولاً في موضوع سياسة فرنسة الدينية ضمّنه آراءه على ضوء اثنتي عشرة سنة من الخبرة في شئون الدولة العثمانية ورعاياها المسيحيين، فجاء رأيه بعيد الغور محكماً، فهو يقول إنه ما فتئ يحض الرهبان المرسلين على تطبيق الآية: «باركوا لآبائكم أحسنوا إلى مبغضيك»؛ لأن ما يحق بالمسيحيين من ضيم في ظل الأتراك العثمانيين إنما ينشأ عن مسيحيين آخرين يعاكسون إخوانهم فيشجعون الأتراك بتفرقهم على الظلم والتظلم، وإذا كانوا يتباغضون لاختلافهم في العقيدة، فإن تفرقهم ناجم عن تباغضهم أيضاً. وليس أفضل والحالة هذه من التحلي بالرفق والدعة والمحبة والحكمة، وعلى المرسلين أنفسهم أن يرفقوا ببعضهم أولاً ويتحابوا فيوفروا لسفراء جلالته شيئاً كثيراً من الراحة وعدم الارتباك.^{١٨}

^{١٦} Rabbath, A., Documents, II, 388-389.

^{١٧} L'Ambassadeur au Ministre, (15 Janvier, 1730), Rabbath, A., op. cit., II, 391-394.

^{١٨} Mémoire du Marquis de Villeneuve concernant la Religion, (1740), Rabbath, A., op. cit., II, 563-564.

ومما جاء في التقرير الذي أعده المركز السفير سنة ١٧٤٠ أن الروم والسلطات العثمانية اعترضوا على إقامة المرسلين الرومانيين في المدن الخالية من التجار الإفرنسيين والقناصل، مدعين أن السبب الذي يبرر وجود هؤلاء الآباء هو القيام بالخدمات الروحية لهؤلاء التجار والقناصل. ويضيف السفير أنه إذا كانت المادة الأربعون من امتيازات السنة ١٦٧٣ تثبت إقامة المرسلين حيث كانوا آنئذٍ فإن هذه الامتيازات نفسها تفرض على هؤلاء المرسلين «الانكفاء داخل حدود واجباتهم». وإن الأتراك والروم يفسرون هذا النص بأنه يوجب على المرسلين أن يحصروا ممارسة طقوسهم ضمن أوساطهم الخاصة وأوساط مواطنيهم، وأنه لا يجوز لهم أن يقبلوا رعايا السلطات في كنائسهم، ولا أن يزورهم في بيوتهم أو أن يعلموا أطفالهم في مدارسهم لإخضاعهم إلى سلطة البابا. ثم يفيد المركز أن الروم استصدروا في السنة ١٧٢٥ براءتين أوجبتا منع المرسلين من الدخول إلى بيوت المسيحيين رعايا السلطان، وإكراه الذين اتبعوا طقوس الإفرنج على العودة إلى دينهم وطرد المرسلين من الأماكن الخالية من القناصل. ويضيف السفير أن هذه الأوامر نفذت في ديار بكر والموصل وبغداد وأرضروم، وأنها على وشك التنفيذ في دمشق، وأن ترجمان الباب العالي يوناني يسعى بما لديه من وسائل لحماية مصالح ملته.^{١٩}

الروس والأرثوذكسية

وخطا الشعب الروسي في عهد بطرس الأكبر (١٦٨٩-١٧٢٥) خطوات واسعة في سبيل العمران، وتدريب الجيش على الطرق الحديثة. وكان البحر البلطي لا يزال في قبضة أسوج، والأسوج في يد الترك؛ فكان لا بد من مناوأة أسوج. وبعد حروب طويلة جاءت معاهدة نيستاد سنة ١٧٢١ فتنازلت أسوج لروسية عن ليفونية وأيثونية وأنجيرية وكريلية وغيرها. وأخذ الروس من الترك أزاق في السنة ١٦٩٦، ثم توقف تقدمهم لما نزل بجيشهم من هزيمة في السنة ١٧١١ عند نهر البروث، ولكن ما لبثت هذه الفترة أن انقضت وعادت روسية إلى مناوأة الترك طول القرن الثامن عشر بلا انقطاع.

وكان الشعب الروسي ولا يزال وديعاً مسالماً في طبيعته لا يحب الاعتداء، ولكنه أرثوذكسي في الصميم لا يرى إلا الهدى، شديد التمسك بتقاليد الرسل وقرارات المجامع

^{١٩} Ibid, II, 569-570

المسكونية فَخُور بتراث الآباء يأبى الضيم وتعصف في رأسه النخوة، فرافق النهضة العمرانية شعور بأن موسكو هي رومة الثالثة، وأنها حامية الدين القويم. وفي منتصف القرن الثامن عشر تولى مصطفى الثالث عرش العثمانيين (١٧٥٧-١٧٧٣)، وكان مولعًا بالحروب. فلما رأى أن ازدياد نفوذ الروس في بولونية يتعاضم خشي على بلاده. ورأت ذلك أيضًا الحكومة الفرنسية بالنسبة لبلادها فوافقته على رأيه؛ ولذلك عزم الباب العالي على منازلة الروس. وقوى عنده هذا العزم أن الروس كانوا منذ السنة ١٧٦٥ يحرضون اليونان والبوشناق ونسور الجبل الأسود على الخروج على الدولة. وفي السنة ١٧٦٨ اشتد حنق الباب العالي؛ إذ دخلت الجنود الروسية أملاك الدولة أثناء مطاردتهم لبعض البولونيين الفارين من وجوههم وأحرقوا بلطة التابعة لخان القرم أحد ولاة الدولة، فأعلن الباب العالي الحرب على روسية في السادس من تشرين الأول سنة ١٧٦٨ لذلك، وبجحة الدفاع عن حرية البولونيين.

ولازم سوء الطالع الدولة العثمانية من أول نشوب الحرب، فلم تلبث أن انهزمت أمام الروس على نهر الدنيستر؛ فاحتلت روسية مولدافية (البغدان) والفلاخ وبسارابية والقرم. وفي خلال هذه المدة كان الأسطول الروسي ظافرًا في البحر فانتصر على أسطول العثمانيين في شزمى، ولولا ما أبداه القبودان حسن باشا الجزائري من الشجاعة لأحرق الخطر بالقسطنطينية نفسها. وما زالت الجيوش الروسية تجد في الفتح حتى عبرت الدانوب واكتسحت بلغارية وهددت القسطنطينية من البر، فخشي الأتراك العاقبة وطلبوا الصلح في السنة ١٧٧٤.

الروس حماة المسيحيين (١٧٧٤)

وأبرم الروس مع الأتراك العثمانيين معاهدة كوجوك قينارجة في السنة ١٧٧٤، وهي أهم معاهدة عُقدت بين روسية والدولة العثمانية، وأول طور جدي في تاريخ المسألة الشرقية. ولم تنل روسية بهذه المعاهدة أملاكًا شاسعة؛ إذ كان ما أخذته قاصرًا على كنبورن وكرتش وأزاق والأقاليم المجاورة لها مما ثبت قدمها على شمال البحر الأسود، ولكنها نالت بها حقوقًا سياسية كبيرة كان لها شأن عظيم في المستقبل. فالدولة العثمانية قبلت في هذه المعاهدة أن تضمن لروسية حكومة عادلة وحرية دينية للرعايا المسيحيين، وجعلت لروسية الحق في المطالبة بحقوق هؤلاء الرعايا كلما رأت حاجة إلى ذلك.

فقد جاء في المادة السابعة من هذه المعاهدة ما تعريبه:

إن الباب العالي يتعهد الدين المسيحي والكنائس المسيحية بحماية دائمة،
ويسمح لوزير بلاط روسية أن يحتج متى شاء لصالح الكنيسة المشيدة في
القسطنطينية المشار إليها في المادة الرابعة عشرة ولصالح من يخدم فيها.

وجاء في المادة الرابعة عشرة أنه يحق لبلاط روسية أن ينشئ بالإضافة إلى كنيسة
السفارة كنيسة عمومية في ضواحي غطة تدعى الكنيسة الروسية اليونانية. وفصلت
المادتان السادسة عشرة والسابعة عشرة نوع الحماية الواجب تطبيقها في الأراضي،
والجزر التي احتلتها الجيوش الروسية في أثناء الحرب ووعدت بالجلء عنها.

اضطهاد الروم في بيروت ولبنان

واستفحل في هذه الآونة أمر علي بك الكبير وتاقت نفسه إلى الاستقلال، فأعلن مصر بلدًا
مستقلًا في السنة ١٧٦٩ واستولى على جدة لتكون له مركزًا لتجارة الهند، ولم يلبث
أن سيطر على باقي جزيرة العرب. ثم وجّه همّته لفتح الأقطار الشامية، فأنفذ جيشًا
بقيادة محمد بك أبي الذهب، فكان النصر حليفه، واستولى على كثير من مدن الشام
مستعينًا بالشيخ ظاهر العمر صاحب بلاد بشارة وعكة. ورأى أبو الذهب أن الدولة ربما
التفتت لمصر وأرجعتها إلى سلطانها، فخطب ود الباب العالي وقصد مصر بالجيش الذي
كان معه في بلاد الشام، فاستولى على وادي النيل وفرّ علي بك إلى عكة واحتفى بظاهر
العمر حاكمها. وهنا وجد أسطولاً لروسية ففاوضه بشأن تحالفه معها فأمدّه الأسطول
بالذخيرة والمال. وانحاز الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان إلى جانب الدولة العثمانية،
فقصفت العمارة الروسية بيروت في السنة ١٧٧١ ولم تبتعد عنها إلا بعد أن دفع الأمير
يوسف ٢٥٠٠٠ ريال إلى الأميرال الروسي، ثم عادت هذه السفن بعد سنة لتخرج أحمد
الجزار من بيروت وتسلمه إلى الأمير يوسف وذلك لقاء ثلاثمائة ألف غرش.^{٢٠}

ولدى وصول العمارة الروسية خرج المسيحيون من بيروت إلى الجبل وخرج معهم
رئيس كهنتهم نيوفيطوس، فنُهب أرزاقهم وخربت دورهم. ثم جاء الأمير يوسف فغرم

^{٢٠} «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، للدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد البستاني، ج ١، ص ٩٦-٩٩.

مسيحيي بيروت بنصف ما دفع إلى الروس. وكانت الحرب لا تزال مستعرة بين الروس والعثمانيين، فنشبت فتنة في بيروت أدت إلى فرار أهلها المسيحيين إلى الجبل مرة ثانية، واغتنم الرهبان الكاثوليكيون هذه الفرصة «فأغروا» الشيخ سعد الخوري كاخية الأمير يوسف «وزينوا» له اضطهاد الأرثوذكسيين، «على ما عنده من الميل إلى ذلك»، فأطلق يده في الضغط عليهم وعذب أناساً منهم وصادر آخرين وقتل جماعة من نبلائهم، وأخذ منهم عدة كنائس وسلمها إلى الكاثوليكين، وقتل من المتقدمين بين الأرثوذكسيين اثنين اتهمهما بالخيانة أحدهما عبد الله بن مالك والثاني أسعد إلغازار.^{٢١}

اضطهاد النصارى في دمشق

وتقوى ضاهر العمر الشيعة ونهب جبخانة عثمان باشا والي الشام وأراد أن ينهب الحُجَّاج ويأخذ المحمل. ثم أقبلت العساكر المصرية بقيادة محمد بك أبي الذهب، فطلب عثمان باشا من النصارى مالا كثيراً وجمع في نصف نهار ثلاثين ألف غرش، والتقى الجيشان في سهل داريا فولّى العثمانيون الأدبار وهربوا إلى حمص وحماة، واستولى المصريون والشيعة على دمشق، ثم انسحب محمد بك أبو الذهب «ولم يعلم أحد سبب رجوعه إلى مصر». فعاد عثمان باشا إلى دمشق وعاد معه الأمير يوسف شهاب حاكم جبل الشوف بعساكره، «وتنمروا على الدمشقيين وحصل منهم ثقلة وبهدلة للمسلمين حتى صاروا يدخلوا الدروز والنصارى الذين معهم الجامع الأموي بزرابيلهم ونومسوا النصارى قليلاً». ثم خرج هؤلاء إلى أوطانهم «فتنّمّر المسلمون على النصارى ووقع البلص والعوان والظلم والعدوان شيء لا يوصف حتى إن نصارى كثيرين دسّروا بيوتهم، وأخذوا حريمهم وأولادهم وفروا هاربين إلى الجبل».^{٢٢}

معمودية اللاتين (١٧٥٥-١٧٧٤)

وقال الجميع قبل الانشقاق وبعده بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. واعترف مجمع القسطنطينية الذي التأم في السنة ١٤٨٤ بمعمودية اللاتين، واكتفى الآباء أعضاؤه بمسح

^{٢١} «نشأة الروم الكاثوليك»، «الحقائق الوضعية»، ص ١٢٠-١٢١.

^{٢٢} «تاريخ الشام»، للخوري ميخائيل بريك، ص ٩٤-٩٩.

اللاتينيين العائدين إلى حضن الكنيسة الأرثوذكسية بالميرون المقدس. وشك الآباء الروس في صحة معمودية اللاتين، وأوجب بعضهم تجديد التعميد، ولكن الآباء اليونانيين الذين اشتركوا في مجمع موسكو (١٦٦٦-١٦٦٧) أوجبوا الاعتدال والاكتفاء بمسحة الميرون. ثم شنت رومة هجومها على الكنيسة الأرثوذكسية وبنت رسلها اليسوعيين والكرملين والكبوشيين في أبرشيات أورشليم وأنطاكية والقسطنطينية، فجاءوا مدرّبين مثقّفين مسلّحين بالمال والنفوذ. فاستهال الآباء الأرثوذكسيون الأمر وتروّعوا، ولا سيما وأن المرسل الغربي فاق الكاهن الشرقي بالعلم والثقافة وفن الجدل. فهبّ دوسيثيوس Dositheos البطريرك الأورشليمي (١٦٦٦-١٧٠٧) للدفاع بالعلم فأنشأ في السنة ١٦٨٠ على نفقة الكرسي الأورشليمي مطبعة ياسي اليونانية. ثم جمع النصوص اليونانية اللازمة للدفاع عن الإيمان القويم فنشر في السنة ١٦٩٢ كتاب «الكتلوع»، وفي السنة ١٦٩٨ كتاب «المحبة»، وفي السنة ١٧٠٥ كتاب «الفرح»^{٢٣}، وتوفي قبل أن ينشر «تاريخ بطريركية أورشليم»، فظهر هذا المصنف المفيد في السنة ١٧١٥ بإشراف خريسنتوس نوتاراس Notaras مُدَيِّلًا بترجمة البطريرك المتوفى.^{٢٤}

وتابعت رومة هجومها فضاعفت هيرارخية أنطاكية وأنشأت كنيسة جديدة في الشرق، فلجأ البطاركة الشرقيون اليونانيون إلى الحرم واستعانوا بالسلطات العثمانية والقوة والعنف للصمود في وجه التيار الروماني، واعتبروا الفروقات الخمسة خروجًا كافيًا على التقاليد الموروثة لوصم رومة وأتباعها بالهرطقة، والتعيير بالهرطقة جر أصحابه إلى إعادة النظر في موقف الكنيسة الأرثوذكسية من معمودية اللاتين.

وفي حوالي السنة ١٧٥٠ رغب بعض اللاتين في الانتماء إلى الكنيسة الأرثوذكسية القسطنطينية، فاختلف الآباء في كيفية قبولهم وقال البعض بوجوب تعميدهم وقال آخرون بالاكتفاء بمسحة الميرون Myro Chriesthai. وُرفِع الأمر إلى البطريرك المسكوني كيرلس الخامس فقال بوجوب التعميد، فثار ثائر المرسلين الرومانيين في الشرق واحتجوا وضجوا فوافقهم في موقفهم «عدد كبير» من الأرثوذكسيين،^{٢٥} وأيد البطريرك المسكوني

^{٢٣} Tomos Katallages, Tomos Agapes, Tomos Charas

^{٢٤} Papadopoulos, Chrys, Dositheos Patriarches Ierosolumon, Jerusalem, 1907; Palmieri, A., Dositheos, Dict. Theol. Cath., IV, Col. 1788

^{٢٥} Sathas, C., Meseionice Bibliotheca, III, 204; Papadopoulos, Th., Hist. of Greek Church and People, 161, n. 1

كل من ميثاوس بطريرك الإسكندرية وسلفسترس بطريرك أنطاكية فقالا بوجوب «بتر الأطراف الفاسدة»،^{٢٦} وتدخل بعض الممثلين الدبلوماسيين في هذه القضية فأنكروا على كيرلس فعلته وشددوا عليه الكثير،^{٢٧} واستغل بعض الطامعين في الكرسي البطريركي هذا الظرف، فتعددت حوادث التنفيذ فتنازل كيرلس عن الكرسي في السنة ١٧٥٢ وتبوأ السدة القسطنطينية باثيسوس. وأصبح كيرلس بطل الأرثوذكسية، وأمسى باثيسوس أمام جمهور المؤمنين صديق رومة والكتلكة، وتزعم معارضة باثيسوس راهب زاهد اسمه أوكسنتيوس كان قد نال إعجاب المؤمنين بما تم على يده من المعجزات. وأيد هذا الراهب كيرلس في موقفه من معمودية اللاتين فأوجب تعميداً جديداً، وظن باثيسوس أن لكيرلس يداً في ذلك، فأرسل إلى جزيرة خالكي مقر كيرلس الجديد من فاتحه كلاماً في المعارضة وعلاقته بها. فأقسم كيرلس في كنيسة والدة الإله في خالكي أن ليس له أية علاقة مع الراهب المعارض. ودعا باثيسوس الراهب العجائبي إليه للبحث معه في موضوع معمودية اللاتين، فأبى ظاناً أن البطريرك سيأمر بالقبض عليه ويبعده عن القسطنطينية، فأَمَّ أنصار الراهب ومريدوه الكنيسة يوم الأحد ونادوا بسقوط باثيسوس «صديق الأرمن واللاتين»، وهجموا على البطريرك وأخرجوه بالعنف إلى الشارع، ولولا تدخل الشرطة لحدث ما لا تُحمد عقباة. وذهب المجمع إلى مقر الصدر الأعظم ونادوا بسقوط باثيسوس وإعادة كيرلس إلى الكرسي، وبعد يومين؛ أي في السابع من أيلول سنة ١٧٥٢، وفد كيرلس على مقر الوزارة مصحوباً بالمطارنة فتردّى «الجبة البطريركية» وعاد إلى رئاسة الكنيسة.^{٢٨}

ويذكر مكاريوس المؤرخ المعاصر هذه الأمور جميعها ويشير إلى اضطهاد الأرثوذكسيين في بولونية وطمع اللاتين في الأماكن المقدسة في فلسطين وقيام هيرارخية كاثوليكية مستقلة في أبرشية أنطاكية، فيؤكد أن ما جرى في القسطنطينية كان مظهرًا من مظاهر الدفاع عن الدين القويم.^{٢٩}

وعُني كيرلس بإصلاح الإدارة فألف لجنة شعبية ووكل إليها النظر في الأمور المالية المادية وتفرغ هو للعمل في الحقل الروحي، وكان من أهم ما فعل في هذا الميدان أنه

^{٢٦} Sathas, C., op. cit

^{٢٧} Byzantios, S., Constantinople, II, 33-34

^{٢٨} Papadopoulos, Th., op. cit., 164-166

^{٢٩} Sathas, C., op. cit., III, 216

أنشأ مدرسة عالية في آثوس ودعا عالم اليونان آنثوذ أفجانيوس بولغاريس لتولي شئونها، وشجع تعليم الأسفار المقدسة وشرحها وتفسيرها بموجب تعاليم الآباء.^{٣٠} وظل وصول كيرلس إلى البطريركية يحز في صدور بعض المطارنة والأعيان، فعاد هؤلاء إلى البحث في معمودية اللاتين فشجبوا موقف كيرلس منها ووصموه بالخروج على التقليد المقدس،^{٣١} واتهموه بالعطف على أعداء رومة في الغرب؛ أي على البروتستانت، والسعي للتقريب بين هؤلاء وبين الكنيسة الأرثوذكسية! ثم اتخذوا موقفًا قانونيًا فقالوا: إن البطريرك أوجب تجديد التعميد بدون قرار من المجمع المقدس، فأظهر كيرلس استعدادة لعرض القضية على المجمع المقدس والأراخنة للبت فيها وترك الأساقفة أحرارًا في موقفهم من معمودية اللاتين إلى أن يبت المجمع المنتظر فيها.

والتأم المجمع القسطنطيني في نيسان السنة ١٧٥٥ فشجب موقف كيرلس من معمودية اللاتين كما نبذ تعليم خريستوفوروس أيتولية في الموضوع نفسه،^{٣٢} فرد كيرلس بحرم بطريركي عرف بالـ *Anathematismos* وخاطب به عموم الإكليروس الأرثوذكسي. وأهم ما جاء في هذا الحرم أن كيرلس فتش كتب المجمع والآباء فلم يجد مبررًا للرش بالماء *Rhantismos* في ممارسة سر التعميد؛ ولذلك فالرش في نظره بدعة من البدع لا مبرر لها ولا يجوز السكوت عنها. وجاء في هذا الحرم أيضًا أن المطارنة المجتمعين ضغطوا على البطريرك مهددين، فأبى محافظةً على سلامة الإيمان الأرثوذكسي، وأنه بناء على ذلك يُعلن المحافظة على التقليد سالمًا واعتبار رسالة المطارنة خروجًا وهرطقة، وهو بالتالي يلعن ويحرم كل من يقبل رسالة المطارنة من الإكليروس والشعب مستنزلًا غضب الله داعيًا عليهم بالويلات البشرية.^{٣٣}

وبعد أن رشق كيرلس المطارنة ومن قال قولهم بهذا الحرم أعد بيانًا قانونيًا في المعمودية أسماه الأوروس *Oros* ومنع بموجبه الاعتراف بمعمودية اللاتين والأرمن، ثم أسبغ على هذا البيان صفة كاثوليكية جامعة بما ناله له من تأييد رسمي من بطريرك

^{٣٠} Ibid, III, 218-219.

^{٣١} Rhallis et Politis, Syntagma, V, 143-147.

^{٣٢} Papadopoulos, Th., op. cit., Appendix I, Section 1.

^{٣٣} Ibid, 195.

أورشليم برثانيوس وبطريك الإسكندرية متناوس، وصدر الأوروس في السنة ١٧٥٥ نفسها، ولعل خريستوفوروس الأيتولي عاون البطريك في إعداده.^{٣٤} والله أعلم.

وبدا كيرلس بيانه بإظهار أهمية المعمودية للخلاص، ثم أبان ضرورة التجدد وأهمية الماء في هذا الدور. وانتقل بعد هذا إلى صحة التغطيس ثلاثاً فوجدها في تقليد الرسل وقوانينهم، ثم اعتبر الرش تعديلاً لهذه القوانين والتقاليد وبالتالي دساً وإفساداً، وأوجب اعتبار من يُعمد بالرش نجساً عملاً بقوانين ديونيسيوس وقرارات المجمع البنثكتي Penthekti الخامس السادس.^{٣٥}

واحترار سلفسترس البطريك الأنطاكي في أمره، وكان لا يزال في حاجة إلى تأييد المجمع القسطنطيني في نزاعه ضد رومة وعمالها، فلم يوقع الأوروس، ولكنه لم يعلن موقفه منه. وظل الحال على هذا المنوال حتى السنة ١٧٧٤ عندما تبني نص الأوروس دانيال الأنطاكي البطريك القائم آنئذٍ، وأوجب تعميد اللاتين والأرمن وغيرهم.^{٣٦}

البطريك أنثيميوس (١٧٩٢-١٨١٣)

وأمّ دانيال القسطنطينية في أواخر السنة ١٧٩١ وشكا ضعف جسده وعجزه عن القيام بمهام الكرسي الأنطاكي. وفي الخامس عشر من كانون الأول قدّم استعفاؤه من هذا المنصب الرسولي وأشار بانتداب أنثيميوس أسقف هيلينوبوليس خلفاً له، فوافق المجمع القسطنطيني وقَبِل استعفاؤه ونصّب أنثيميوس بطريكاً على مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق.^{٣٧}

وجاء في سجلات البطريكية المسكونية بتاريخ العاشر من كانون الأول سنة ١٧٩١ أنه نزولاً عند رغبة المسيحيين في حلب، الذين أخذوا الدين البالغ ثلاثة آلاف غرش على عاتقهم، ونظرًا لاستقرار السلم في هذه الأبرشية فإن المجمع القسطنطيني المقدس يعيد

^{٣٤} Rhantismu Stiliteusis, Papadopoulos, Th., op. cit., 393 ff

^{٣٥} Rhallis et Politis, Syntagma, V, 614-616; Oeconomus, C., Soxomena Ecc., I, 478-480;

Mansi, Amplissima, Vol. 38. Col. 647-622

^{٣٦} Lettre a Iacovos Patmios (1755), Nea Sion, 1905, 238-239; Jugie, M., Schisme Byzantin, 307

^{٣٧} Constantius, Patriarch of Antiochs, Neale, op. cit., 188-189

هذه الأبرشية إلى كنيسة أنطاكية، ويوجب على أسقفها أن يذكر اسم بطريرك أنطاكية ويخضع له بالناموس والتقوى.^{٢٨}

وجاء أنثيميوس إلى قبرص مسقط رأسه ومنها إلى اللاذقية فطرابلس فيبروت فعكة، حيث قابل الجزار وأطلعته على نص البراءة السلطانية. ثم انطلق منها إلى دمشق فرضي المجمع الأنطاكي به؛ نظراً لعلمه وفضله وتقواه، وقلّده زمام البطريركية الأنطاكية، ورُتب المجمع معاشاً قدره ألف غرش في السنة إلى البطريرك المستقيل دانيال المقيم في جزيرة صاقز.

وأظهر المسيحيون في أنطاكية رغبةً في تشييد كنيسة لهم في المكان الذي دُعي فيه المؤمنون مسيحيين أولاً، فلاقت رغبتهم استحساناً في نفس أنثيميوس وعاونهم في ذلك فاستصدر لهم براءة سلطانية تخولهم البناء المنشود. واندفع كبيرهم «أبو سابا» فتبرع بجميع المال اللازم وبأشّر الأمر وشرع في البناء. ولم يَرَقِ الأمر القاضي بعض من شد أزره، فادّعى أن النصارى إنما يُنشئون قلعة لا معبداً ورفع شكواه بذلك إلى السلطان، فأمر السلطان بشنق أبي سابا وثلاثة من الكهنة وشماس!^{٢٩}

البطريرك سيرافيم (١٨١٣-١٨٢٣)

وتوفي أنثيميوس في دمشق ودفن فيها، فانتدب الشعب والإكليروس الأنطاكيون سيرافيم متروبوليت أركاذيو بوليس فنصّبهُ المجمع القسطنطيني بطريركاً على أنطاكية. وكانت المشاحنات الأرثوذكسية الكاثوليكية لا تزال ثائرة وكلّ يتذرّع بما عنده من وسائل. وكانت وسائل الروم تنحصر في غالب الأحيان ببراءات سلطانية يستصдرونها من عاصمة الدولة إلى الولاة والحكام المحليين لرد الروم الكاثوليكين إلى طاعة رؤسائهم الشرعيين مطارنة الروم وعلى رأسهم البطريرك، أو لتسليم ما استأثروا به من كنائس معينة أو لدفع عائدات الأكاليل والعمادات والجنازات إلى السلطات الأرثوذكسية المحلية. وكان الروم

^{٢٨} Neale, J. M., Patriarchate of Antioch, Appendix I, 196-198.

^{٢٩} Russian Pamphlet a propos of the Visit of Neophytos of Heliopolis to Russia, Neale, J. M., op. cit., Appendix II, 208.

الكاثوليكيون يقاومون نفوذ الموظفين الأرثوذكسيين في عاصمة الدولة بنفوذ الموظفين من أبنائهم في دوائر الحكم في حلب ودمشق وطرابلس وعكة.^{٤٠}

الكنيسة الكاثوليكيون

وكان قد رافق السعي لانفصال الروم الكاثوليكين شعور بالمسئوليات التي أوجدها هذا الانفصال وإقدام على العلوم ولا سيما الدينية منها. فتميزت الأوساط الكاثوليكية الجديدة بكثرة نسبية في عدد المتعلمين من أبنائهم، وغزا هؤلاء المتعلمون الدواوين الحكومية المحلية في الربع الأول من القرن التاسع عشر فتربعوا في كراسيها، ولا سيما في دواوين أياالة صيدا حيث كانوا جميعهم من الروم الكاثوليك،^{٤١} وأشهر من اشتهر من هؤلاء الكتبة إبراهيم صبَّاغ وأولاده في عكة وعبود البحري وأخوه جرمانوس وحنا عند إبراهيم باشا أوزون قطراغاسي في حلب أولاً وفي مصر بعد السنة ١٨٠٨، والمعلم ميخائيل العورا في صور وابنه حنا وحفيده إبراهيم في عكة. وكان ميخائيل هذا يحسن الإنشاء في العربية والتركية والفارسية، والأخوان إبراهيم و خليل النحاس ابنا عم حنا العورا، وقد كتب الأول في عكة والثاني في صور وفضول الصابونجي وأخوه ونقولا الترك وبطرس كرامة في بيت الدين.^{٤٢}

كنيسة صيدا (١٨١٨)

وفي خريف السنة ١٨١٨ أمَّ عكة زخريا متروبوليت عكار حاملاً فرماناً سلطانياً موجهاً إلى سليمان باشا والي أياالة صيدا، يشير إلى خروج الروم الكاثوليكين عن طاعة رؤسائهم الأرثوذكسيين وأتباعهم طائفة الإفرنج واستثنائهم «بجملة كنائس» منها كنيسة صيدا، ويوجب تخليص هذه الكنائس من يد الكاثوليكين، وأكره هؤلاء على تقديم عائدات الأكاليل والجنازات والعمادات إلى السلطات الروحية الأرثوذكسية. وحمل زخريا متروبوليت عكار

^{٤٠} Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, op. cit., 188-189.

^{٤١} المعلم حنا العورا إلى عبد الله باشا (١٨١٨): «وليس أنا فقط، بل وكل عبيدك الكتَّاب من طائفة الكاثوليك.» «تاريخ ولاية سليمان باشا»، للمعلم إبراهيم العورا، ص ٤٤٧.

^{٤٢} «آداب اللغة العربية في القرن التاسع عشر»، للأب لويس شيخو، ج ١، ص ٧-٨ و ٢١-٢٣.

رسالة من البطريرك سيرايم إلى المعلم حايم اليهودي ذي النفوذ الكبير في ديوان عكة ورسائل غيرها من أخوه حايم وابن عمه سلمون من دمشق توجب السعي الجدي لتنفيذ الأوامر السلطانية.^{٤٣}

وبلغ أمر هذا الفرمان وهذه الرسائل مسامع أعيان الروم الكاثوليك في عكة فاضطربوا. وكان الخوري سابا الكاتب مدير الرهبة المخلصية آنئذٍ في عكة فاتصل بحايم فتثبت من صحة الخبر، «وثاني يوم أخبر الكتّاب والطائفة فراجعوا المعلم حايم واستعملوا سائر وسائل التذلل والخضوع، وذكرُوا حايم بضعف طائفة الكاثوليك، وبأنها منذ القدم مختصة به وبوالده وبعيلتهم، ولكن جميع هذا ما أفاد.»

ويضيف المعلم إبراهيم العورا صاحب «تاريخ ولاية سليمان باشا» أنه في السنة ١٨١١ أبرز بطريرك الروم أنثيميوس مثل هذا الفرمان إلى سليمان باشا نفسه، وكان آنئذٍ والي دمشق وعكة، فاتصل المعلم حنا العورا ولد إبراهيم المؤرخ بالمعلم حايم وأظهر غيظه وعزمه على المقاومة، فقال حايم: «وتربة أبي عندي خاطرك بألف بطرك!» وأوقف التنفيذ، فأظهر البطريرك الحب واللفظ للمعلم حنا، وأرسل له هدية صندوقًا من الشمع الكافوري الأبيض وصندوقًا من الصابون الممسك وطاقيّة جشكلي هندي وساعة ذهبية.^{٤٤} وأطلع سليمان باشا على نص الفرمان الجديد الذي حمّله إليه زخريا متروبوليت عكار فأمر برؤية الدعوى على الوجه الشرعي بحضور القاضي وحضور عبد الله باشا نائبًا عن الوالي. وجاء القاضي وجلس في مجلس خصوصي مقابل ديوان الوزير. ونهض عبد الله باشا وجلس وكيلاً عن الوزير، ودخل زخريا متروبوليت عكار إلى جانب القاضي، ووقف وكلاء الروم الكاثوليك في المجلس «وانفتحت الدعوى». وسارت الدعوى في صالح الروم فنثار ثائر الروم الكاثوليكين ودخل المعلم حنا العورا على عبد الله باشا: «وجده عمال يتوضى وقارب الخلاص، فإذا نظره الباشا قال له: تفضل يا معلم حنا، فتمنى والدي وبقي واقفاً ناحية إلى أن خلص وتنشف وجلس مكانه، فتقدم والدي بكل سرعة ومسك أقدامه وقال له: كنت أتمنى أن البارّي تعالى ينعم عليّ بأن أموت قبل وفاة والدك وليّ نعمتي العادل كريم الشيم صاحب الناموس المضاف، وليس أنا فقط، بل أولادي وعيلتي وكامل طايفتي أوفق وأيسر من أن نشاهد الذل والخراب والأذية في أيامك، الأمر الذي ما

^{٤٣} «تاريخ سليمان باشا»، لإبراهيم العورا، ص ٤٣١-٤٣٢.

^{٤٤} المرجع نفسه، ص ٤٤١-٤٤٣.

كنت أتأمل ولا أفكر أن أصادفه في أوقات ابن علي باشا العادل المشهور، فكيف حسُن عندك تضيع شرف والدك الذي صرف حياته لأجل «تربيته عندي» على الحق والعدل لكي توافق خاطر «أعداء الدين» على من هم عبيدك وأرقاء نعمتك ونعمة أبيك؟ «يا حيف على تعبي عليك ويا حيف على أملي فيك!» وحالاً سقطت دمعه على وجهه.^{٤٥}

واتصل عبد الله باشا بالقاضي وعاد المجلس لسماع الدعوى فتغيرت لهجة القاضي وعمل الروم الكاثوليك بنصيحة المعلم حاييم، فادعوا أن الكنيسة موضوع البحث كانت للسريان الكاثوليك فوهبوا لهم لقلة عدد هؤلاء في صيدا، فحكم القاضي بنصف كنيسة للروم وبنصفها الآخر للروم الكاثوليك. وصدر عن سليمان مرسوم بذلك مؤرخ في الخامس من صفر سنة ١٢٣٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٩ وهذا نصه:

قدوة النواب المتشرعين نايب محروسة صيدا حالاً السيد محمد سعيد أفندي زيد فضله وافتخار العلماء الكرام المأذون بالإفتاء، أفندي زيد علمه وفرع الشجرة الزكية قيمقام نقيب السادات والأشراف أفندي زيد شرفه وقدوة الأمثال والأقران متمسكنا فيها حالاً الحاج سليمان أفندي زيد قدره.

بعد السلام التام المنهي إليكم قبل تاريخه، حضر لطرفنا مطران الذميين القاطنين بناحية عكار بالوكالة عن قدوة الملة المسيحية البطريرق سيراقيم بطريق طائفة الروم الأنطاكي المقيم بدمشق الشام خُتمت عواقبه بالخير، وقرر على مسامعنا بأن البطريرق المرقوم منصوب بطريق من قبل الدولة العلية والسدة الخاقانية صانها رب البرية على طائفة الذميين الروم الكاينين بأنطاكية وطرابلس الشام، والشام وصيدا، وأن ساير كنائس طائفة الروم وأوقافها تحت نظارة المسفور بموجب براءة سلطانية، وأعرض لدينا صورة البراءة مضية.

وَادَّعى أن كنيسة الروم الكائنة في صيدا فهي تحت تصرفه وتحت نظارته، وأن الذميين الكاثوليكين المقيمين بصيدا واضعين يدهم على الكنيسة المذكورة فضولاً من غير مساغ شرعي ولا أمر سلطاني، والتمس استردادها ورفع يدهم عنها، فاقضى أن أحضرنا الذميين الكاثوليكين القاطنين بصيدا،

^{٤٥} «تاريخ ولاية سليمان باشا»، لإبراهيم العورا، ص ٤٤٧.

وهم إبراهيم الزهار وإبراهيم سركيس ويعقوب الزهار وقسطنطين عكاري وإلياس الكركجي وحنا دبانه وجبران بولاد وحنا زكار وسائر وجوه طائفة الكاثوليكين. ورفعنا استماع دعواهم إلى حاكم الشريعة الغراء قاضي محروسة عكة حالاً افتخار القضاة والحكام السيد محمد أبو الهدى أفندي التاجي زيد مجده، بحضور أمير الأمراء كبير الكبراء الفخام ذي القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام كتخدانا ولدنا السيد عبد الله باشا دام إقباله. وصارت المرافعة بينهما، وطلب المطران المسفور رفع يد الكاثوليكين عن الكنيسة المذكورة، فأجابوا أن الكنيسة هذه بالأصل كنيسة إحداهما إلى طائفة الروم والثانية إلى طائفة السريان الذميين، ومن بعد انقراض السريان من قديم الزمان رفعوا الحائط الذي كان بين الكنيستين لأجل التوسع وصارت الكنيسة واحدة، وأن الحصاة التي تخص طائفة الروم لم ي زالوا واضعين يدهم عليها، والذي تخص طائفة السريان الكاثوليكين واضعين اليد عليها وهي بأيديهم. وأن طلب البطريرق المرقوم إلى الكنيسة جميعها فهو بغير حق. فطلب منهم حاكم الشرع بيئةً على إثبات مدعاهم وأحضروا بيئتهم إلى مجلس الشرع.

وقبل تاريخه حضر لنا إعلام من الأفندي المومى إليه بصورة المرافعة الذي حصلت، فاقترضى الآن أن نصدر لكم مرسومنا هذا من ديوان عكا المحمية مرسلين لكم الإعلام الذي حضر لنا من الأفندي المومى إليه بهذا الخصوص؛ لكي تطلعوا على كيفية المادة وتسجلوا مرسومنا هذا والإعلام الشرعي بالسجل المحفوظ، وتخطروا خوري طائفة الروم والرعايا الكاثوليكين أن لا يفارشوا كنيسة الروم في حصتهم المصرف بنظارتها البطريرق المسفور بموجب براءة شريفة سلطانية، وتنهبوا على خوري الروم المسفور في أي وقت أراد يجري دينه لا أحد يتعارضه فيه. وكذلك الحصاة التي تخص السريان تبقى الآن طائفة الكاثوليك يجرؤ دينهم فيها في الوقت الذي يريدوا إجراءه إلى حين يصدر لكم مرسوم ثاني من طرفنا بإعطاء رابطة هذه المادة مع الكاثوليكين بوجه التفصيل، حيث إن هذه الحصاة المتعلقة بالسريان منوطة إلى رأينا، اعلما ذلك واعتمدوه. في ٥ صفر سنة ١٢٣٥. الحاج سليمان والي صيدا وطرابلس حالاً.^{٤٦}

^{٤٦} «تاريخ ولاية سليمان باشا»، لإبراهيم عورا، ص ٤٥٤-٤٥٥.

البطريك مثنوديوس (١٨٢٣-١٨٥٠)

ومضى سيرافيم مستقبلاً وجه البقاء في السنة ١٨٢٣ وانتقل إلى دار القرار في دمشق ودفن فيها. وأجمع الأساقفة والأعيان على قسطنديوس رئيس أساقفة سيناء وكتبوا إلى الكنيسة العظمى القسطنطينية ينتدبونه بطريركاً على أنطاكية. ولكن قسطنديوس تمنع وأعرض فنصّب المجمع القسطنطيني مثنوديوس متروبوليت أنقيرة بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق.

ونهب مثنوديوس من القسطنطينية قاصداً دمشق بطريق البر فاستغرقت رحلته خمسة أشهر وخمسة أيام. وكان قد أرسل أمتعته بحرًا فغرقت مقابل رأس كستيلوريزو. وما إن وصل إلى دمشق وسجل براءته فيها حتى هب لمقاومة الكتلعة، وكان عزيز الجانب شديد الشكيمة لا تلين قناته لغامز،^{٤٧} فبذل قصارى جهده لمقاومة الكتلعة، فلجأ إلى الطرق الاغتصابية واضطهد ونفى.

الدولة تعترف بالأرمن الكاثوليك (١٨٢٨)

وشمل برنامج رومة إدخال الأرمن في الطاعة منذ أوائل القرن السابع عشر، فانشقوا على أنفسهم انشقاق الروم، وتنادوا واختلفت كلمتهم وتشعبت آراؤهم. وانتظم الكاثوليكون منهم كنيسة مستقلة وأقاموا منذ السنة ١٧٤٠ بطريركاً عليهم. ولكن الدولة ظلت تعتبرهم خاضعين في أمورهم الدينية وأحوالهم الشخصية للبطريك الغريغوري القسطنطيني. واستحكم الشقاق بينهم واشتد الاضطهاد، ولا سيما في السنوات ١٦٩٩ و ١٧٠٢ و ١٧٥٩ و ١٧٨٢.

وأغبر الجو وأظلم في السنة ١٨٢٨ وتقوضت دعائم المحبة، فجرى في القسطنطينية نفسها ما لا يمت إلى المسيحية بصله. فرفع برتو أفندي تقريراً بذلك إلى السلطان محمود الثاني، فقبح السلطان وأنكر وعين ناظرًا مسلمًا يُعنى بشئون الأرمن الكاثوليك الزمنية ووكّل أمورهم الروحية إلى القاصد الرسولي نفسه،^{٤٨} ثم حوّل الكاثوليكين من الأرمن حق

^{٤٧} Constantius, Patriarchs of Antioch. op. cit., 189

^{٤٨} Ubicini, A., Lettres Sur la Turquie, II, 255-264, 445

انتداب أسقف يتولى شئونهم الزمنية والروحية. وفي الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٣١ أصدر براءة سلطانية اعترف بها برئاسة الأسقف أغوب وبالملة الأرمنية الكاثوليكية،^{٤٩} وربط السلطان بهذه البراءة جميع الطوائف الكاثوليكية بالأسقف الأرمني المستقل، وخوّله حق قضاء أشغالهم أمام المراجع الحكومية الرسمية ورفع بذلك سلطة البطاركة غير الكاثوليك عنهم.

ممارسة الحقوق المكتسبة (١٨٢٨-١٨٣٤)

ومارس الروم الكاثوليكون هذه الحقوق المكتسبة فرمموا كنائسهم في دمشق وغيرها من المدن والبنادر، ودخل بطريركهم مكسيموس مظلوم دمشق، وعاد الكهنة الروم الكاثوليكين إلى لبس القلايس الممنوعة، وامتنع الشعب الكاثوليكي عن دفع العائدات الروحية إلى السلطات الأرثوذكسية، وأعلن عدد من الأرثوذكسين خضوعهم لرومة في دمشق وحمص وطرابلس وحاصبيا.^{٥٠}

براءة باسيلوس (١٨٣٤)

واستصدر الأسقف المستقل أروتين الأرمني في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة ١٨٣٤ براءة سلطانية باسم باسيلوس مطران مصر وتوابعها على الروم الكاثوليكين. واعترف محمد علي باشا عزيز مصر أنّهُ بمضمون هذه البراءة التاريخية كما يلي:

إن أروتين قدم عريضة مختومة أبان فيها أن الروم المكيين القاطنين في محروسة مصر المتعلقين به ليس لهم رئيس يتصرف بشئونهم، وأن المطران الراهب باسيلوس كفؤ للقيام بمهام الرئاسة، وأنه يحدد خمسة آلاف أخشاية محصول رئاسته المطلوبة، وأن أروتين قدم خمسة آلاف وفوقها عشرة آلاف أخشاية. وأنه ابتداء من اليوم الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٣٤ تبدأ رئاسة باسيلوس على الروم الكاثوليك في مصر.

^{٤٩} .Testa, I., Recueil, V, 138; Young G., Corps de Droit Ottoman, II, 103

^{٥٠} «النبهة»، للبطريرك مكسيموس مظلوم، ص ١-٢.

وأوجب السلطان بعد هذا على الكاثوليكين التابعين لرئاسة باسيلوس أن يراجعوه «بالأمور المتعلقة بعاداتهم وألا يتجاوزوا كلامه الذي بالطريقة وألا يتعدوا ذلك». وأوجب السلطان أيضًا ألا يحول حائل دون تلاوة الإنجيل في بيت المطران المذكور، وألا يعترض أحد على توليع القناديل ووضع الصور والكراسي والتبخير ومسك العكاز، وأن يمتنع الضباط والميرمرانات وطائفة أهل العرف عن تعجيز هؤلاء واستدرار المال منهم بوجه غير شرعي «وأن لا يرفعوا صوتهم عليهم بإعلان الكفر».

ومنحت هذه البراءة الكهنة الكاثوليكين حق الإشراف على الزواج ومنعتهم عن إجرائه بدون إذن المطران، وعن الطلاق وأخذ امرأة على امرأة، وهددتهم بالتأديب في حال المخالفة، ونهت أصحاب القدرة عن إكراه الكهنة بقولهم: «زوجوا هذه الحرمة إلى هذا النصراني!» وحرمت أيضًا إكراه الكهنة على دفن من هم على غير طريقتهم. وإذا أوصى بعضهم بشيء إلى البطريرك أو القسوس لأجل الكنائس، فليؤخذ ما أوصى به من الورثاء بمعرفة الشرع. ومن يتوفى من القساوسة وسائر أبناء الطائفة من غير وارث يتسلم موجوداته المطران، ولا يحق لبيت المال أن يتدخل في ذلك. ولا تسمع الدعاوى المتعلقة بالشرع الشريف التي تقام على المطران أو الكهنة خارج الديوان الهمايوني في الآستانة، «ويجب ألا يغتصب أحد النصارى على الإسلام من دون رضاه». ولا يعارض المطران في حوائجه ولبسه وعكازه أو في محل سكناه.^{٥١}

وأنفذ مكسيموس القس توما القيومجي إلى مصر في السنة ١٨٣٥ ليدير شئون الطائفة الكاثوليكية فيها، وما إن وصل إليها وخرج لقضاء أشغاله فيها لباساً للباس الروم التقليدي حتى قبض «يسقجي» البطريرك الإسكندري عليه وساقه إلى البطريركية. فأمر البطريرك بحبسه وأكرهه على «قلع القلوسة ولف الشال»، فشكا توما أمره إلى العزيز فمنع هذا البطريرك عن التدخل في شئون الروم الكاثوليك عملاً بنص البراءة السلطانية.^{٥٢}

^{٥١} «النبة»، للبطريرك مكسيموس مظلوم، ص ١٤٧-١٥٣.

^{٥٢} المصدر نفسه، ص ١٥٣-١٥٤.

مجمع طرابلس (١٨٣٦)

فشقَّ الأمر على البطريركَيْن الإسكندري والأنطاكي واشتدَّ عليهما، فدعا مثنديوس مطارنة الكرسي الأنطاكي إلى مجمع في «نواحي طرابلس» في آب السنة ١٨٣٦، واتصل الآباء المجتمعون ببطريرك الإسكندرية وجمعوا الأموال من الرعايا وأنفذوا من اختاروه إلى القسطنطينية لدرء هذا الخطر الجديد، وادعوا أن لبس القلايس مختص بهم وطالبوا بمنع الكاثوليكين عن التزيي بأزياء الروم؛ كي يتمكن الشعب من التفريق بين الإكليروسين. فاستدعى كارلوس كرابيد أزيان البطريرك الكاثوليكي في الآستانة وكيل البطريرك مكسيموس الخواجه يوسف حجار وحضه على جمع المال لمقاومة بطريرك الروم في الدوائر الرسمية. وفي أواخر أيار السنة ١٨٣٧ صدر فرمان سلطاني موجه إلى عزيز مصر محمد علي باشا يمنع تغيير المذهب، ويوجب بقاء كل نصراني على مذهبه ويردع القساوسة الكاثوليكين عن التزيي بزي الروم وعن التحرك بجمعية خلاف أطوار الرعية عند انتقالهم من محل إلى محل.^{٥٢}

مثنديوس في مصر (١٨٣٧-١٨٤٠)

وأرسل البطريرك القسطنطيني فرمان السلطاني إلى مثنديوس البطريرك الأنطاكي، فهبَّ هذا لساعته يطالب بالتنفيذ. ولما كان فرمان السلطاني موجهاً إلى محمد علي باشا عزيز مصر، وكان مكسيموس آنثد في وادي النيل يتفقد شئون رعيته طلب مثنديوس إلى محمد شريف باشا حَكمدار الأيالات الشامية أن يأذن له بالسفر إلى مصر لمقابلة العزيز والتحدث إليه في أمر فرمان الجديد، فأجاب الحَكمدار الطلب. وقام البطريرك من دمشق في صيف السنة ١٨٣٧ إلى طرابلس ومنها إلى أهدان لمقابلة إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا وقائد جيوشه. وأصغى السر عسكر المصري إلى ما قاله البطريرك الأنطاكي، ثم أجاب أنه لا يريد التدخل في المسائل الدينية الطائفية، ولكنه مستعد لعرض الشكوى أمام والده في مصر. ورجع مثنديوس إلى طرابلس يرافقه زخريا مطران عكار، وقاما منها إلى بيروت وجمعا الأموال اللازمة وأبحرا إلى الإسكندرية فوصلا إليها في أوائل أيلول،

^{٥٢} المرجع نفسه أيضاً، ص ١٦٢-١٦٧.

ورفعا أمرهما إلى العزيز وتُلي الفرمان السلطاني على مسامعه فأمر بتنفيذه وتسجيله في المحكمة الشرعية.

وسام البطريرك مكسيموس الخوري يوسف الكفوري «مطراناً على قلاية بطريركية الإسكندرية» ودعاه باسيليوس ليوافق نص البراءة التي استصدرها أروتين الأرمني الأسقف المستقل. وشارك البطريرك في وضع اليد يوسف ناتسيو الأسقف اللاتيني العابر الطريق آنثذ وأسقف هالينة النائب الرسولي على طائفة الأقباط الكاثوليكين في مصر، وذلك في الخامس من أيلول سنة ١٨٣٧،^{٥٤} ثم أقام مكسيموس المطران الجديد نائباً بطريركياً له في مصر. وكانت الحكومة الإفريقية قد منحت مكسيموس التبعة الإفريقية منذ السنة ١٨٢٢، فشاور مكسيموس قنصلية فرنسة في المشكلة القائمة، فأشارت بأن يجعل البطريرك نائبه باسيليوس يلتمس إحالة النظر في الدعوى القائمة بين الروم والروم الكاثوليك أمام المحكمة الكبرى أو أمام الديوان الخديوي أو إعطائه مهلة كافية لعرض الحقائق لدى الباب الهمايوني في الآستانة،^{٥٥} فأجاب العزيز أنه لا يتدخل في أمور الديانات، وإنما يأمر بتنفيذ البراءات والفرمانات كما ترد، وأنه ليس على الروم الكاثوليكين إلا أن يستصدروا فرماً جديداً يخولهم الحقوق التي يطلبونها.^{٥٦}

وطالب الروم بتنفيذ الأوامر السلطانية فاضطر مكسيموس وكهنته أن يقيموا في الدار البطريركية، وألا يغادروها خشية التنفيذ الجبري. وأكدت القنصلية الإفريقية في الإسكندرية أنها تعتبر الدار البطريركية الكاثوليكية داخلية في حمايتها بموجب نصوص الامتيازات الأجنبية، واتصل القنصل بالديوان الخديوي ورجا التريث، فأكد حبيب أفندي لمثوديس وقنصل اليونان أن الديوان منفذ الأوامر السلطانية ولكنه لم يفعل.^{٥٧}

مكسيموس رئيس مَرَّص (١٨٣٧)

وفي السادس عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ تسلم مكسيموس بريد الآستانة، فإذا به براءة سلطانية ترخص له السلطة والسيطرة على الروم الكاثوليكين في بطريركيات

^{٥٤} «النبهة»، للبطريرك مكسيموس مظلوم، ص ١٨٠-١٨٢.

^{٥٥} Hajjar, J. Maximos III Mazloum, 88.

^{٥٦} للنبهة أيضاً، ص ١٧-١٨.

^{٥٧} Charon, C., Hist. des Patriarcats Melkites, II, 176-177.

أنطاكية وأورشليم والإسكندرية، وهي مؤرخة في أول شعبان سنة ١٢٥٣؛ أي في الحادي والثلاثين من تشرين الأول سنة ١٨٣٧:

إن الراهب المسمى كرابيد بطريرك الكاثوليك الذين في إسلامبول وتوابعها قدم لدى سدتي السنية عرضاً مختوماً، يذكر فيه أنه قد لزم تعيين مرخص على جميع الروم الملكيين الكاثوليكين الموجودين في أبرشيات أنطاكية والإسكندرية والقدس الشريف الداخلين تحت بطريركية الكاثوليك. وأن قدوة مختار الملة المسيحية المسمى مكسيموس مظلوم المتروبوليت ختمت عواقبه بالخير الحامل براءتي هذه الهمايونية، حيث إنه مقتدر على رؤية أمور المرخصة وإدارتها، فاستدعى أن يعطى له براءة سنية مع درج الشروط فيها بتوجيه لمرخصة المذبورة إلى المتروبوليت مكسيموس المذكور بشرط تقديم مقدار من الدراهم إلى الخزينة العامرة على وجه الهدية، فهذا هو مضمون العرضحال المقدم ذكره. فبعد المراجعة في القيود تبين أنه من مقتضيات الشروط المدرجة في براءتي العلية الشأن التي بيد البطريرك المرسوم، أنه إذا لزم تعيين مرخص للمحلات الداخلة تحت ملل هذه البطريركية حسب المقتضى على موجب عاداتهم، ووضع رسم الهدية على قدر تحمّله واستدعى أن تعطى له براءة مجددة، فتسلم الهدية المعينة نقدًا إلى الخزينة العامرة وتعطى له براءة شريفة مجددة مع درج الشروط فيها. وقد عيّن هو على المرخصة المرقومة في هذه المرة خمسة عشر ألف عثمانى على وجه الهدية، وأعطى له البيان من محلها بتسليم الهدية المذكورة نقدًا إلى الخزينة العامرة؛ فأصدرت براءتي هذه الهمايونية على موجب فرماني العالي الشأن المبرز قبلاً.

وقد أمرت بأن المتروبوليت مكسيموس مظلوم حاملها يدبر مرخصة جميع الكاثوليكين الذين في بطريركيات أنطاكية وإسكندرية والقدس الشريف، وأن الطائفة الذمية الكبار والصغار والقسوس والرهبان والرجال والنساء الذين على المذهب الكاثوليكي الموجودين في المحلات التابعة لمرخصيته يلزم أن يعرفوه رئيساً مرخصاً عليهم ويراجعوه في الأمور المتعلقة بعاداتهم، ولا يتجاوزوا كلامه الذي في محله، ولا يحدث منهم قصور في طاعته.

ثم لا أحد يتعارض المتروبوليت المذكور في بيته ولا في سائر البيوت عن قراءة الإنجيل وإجراء اعتقاده، ولا أحد يقول: أنتم أيها الكاثوليكيون

تجرون في بيوتكم اعتقادكم وتقرءون الإنجيل وتعلقون القناديل وتضعون كراسي وتصاوير وستارات وتبخرون بالمباخر وتمسكون العكاكيز بأيديكم، فلا يتعارضهم أحد في شيء من اعتقادهم جميعها. ولا يُصنع لهم تعللاً وتعجيزاً لأجل جلب المال من طرف الميرميرانات ولا من قبل الضباط كافة، ولا من جهة أهل العرف جميعاً، فلا يصير عليهم أدنى تعدُّ بغير حق مخالف الشرع الشريف.

والذين يموتون من المطارنة والقسوس والرهبان والقسيسات وغيرهم مهما أوصوا به إلى الفقراء، أو لكنائسهم أو لبطيريكهم، تكون وصيتهم نافذة مقبولة ولا تصير من أحد مداخلة بها بوجه من الوجوه، بل تكمل على موجب اعتقادهم وقاعدتهم وبشهود جماعة كاثوليكين من طائفتهم تُسمع دعاويهم شرعاً.

ولا أحد من المتقدمين يتعارض قائلاً للمرخص أرسل هذا القسيس الفلاني بهذا الوجه أو بذاك، ولا يصير جبر أو تعدُّ بهذا الشأن أصلاً. وإذا اقتضى للمتروبوليت المذكور أن يحضر إلى الآستانة لأجل مصلحة، فالقسيس والراهب الذي يوكله عوضاً عن ذاته لا أحد يمانعه أو يتعرض له من طرف أهل العرف ولا من غيرهم بوجه من الوجوه قطعاً. ولا يقول أحد للمرخص المذكور أنا أتبعك جبراً لأجل خدمتك؛ إذ لا رخصة لأحد بذلك. والأشياء المختصة بالمتروبوليت المذكور أو بكنايسه متى بلغت إلى الأساكن أو إلى الأبواب فليس لأحد أن يطلب عليها شيئاً من كمرك أو باج أصلاً. وإذا اقتضى للمرخص أن يرسل من قبله إنساناً لجمع ميريته ومحاصيله من أهالي القرى والأمكنة الأخرى فليعط لهم دليل في الطرقات. ومباح لهم أن يغيروا ملابسهم، وأن يتقلدوا الأسلحة الحربية لأجل تحصين ذواتهم من الأشرقياء. وليس لأحد من طائفة أهل العرف أو من الحكام أن يعترضهم لأجل جلب المال أو عوائد أو هدايا أو بنوع من الأنواع بته، ولا يطالبهم أحد بشيء بخلاف الشرع الشريف أصلاً.

ولا تسمع دعوى على المتروبوليت المذكور ولا على قسوسه ولا على المختصين به إلا في ديواني الهمايوني في آستانة دار السعادة لا في مكان آخر قطعاً. وإذا اقتضى أن يحبس بإذن الشرع الشريف أحد من الرهبان أو من القسوس أو من الراهبات فلا يكن ذلك عند الضابط، ولا يقدر بدون رضاه

أن يحوشه هو، بل إن المتروبوليت يمسكه ويحبسه عنده، ثم لا يجبر الذي على الإسلام أصلاً بدون رضا.

والأشياء الحاصلة للمتروبوليت لأجل مأكولاته من كرومه وأرزاقه، وكذلك الآتية إليه باسم التصديق من حلو أو دهان وعسل وغير ذلك، فوكلاء الكمارك وجماعتهم الذين في الأساكن والأبواب لا يتعارضونهم بالمنع عن الإدخال ولا بطلب شيء برسم كمرك البتة. والحذر من المخالفة! وهكذا مهما يكون مختصاً بكنائسهم وأديرتهم من كروم وبساتين وطواحين وقرى ومزارع ومراعي وأراضي وغيرها، ونظيرها أوقاف كنائسهم من بيوت ودكاكين وأملاك وموجودات وأشجار مثمرة وحيوانات مع سائر مأكولهم، فليكن في ضبطهم وتصرفهم المطلق، ولهم فيه دستور العمل من دون أن يتداخل به أحد أصلاً. ثم إن الكنائس مع الأديرة المختصة بالطائفة المذكورة لا يتعارض أمراً من أمورها أحد من طائفة أهل العرف بتفتيش لأجل بيولردي أو غيره، ولا يحدث لهم بذلك ممانعة أو تجريم، بل تكون كنائسهم وأديرتهم في ضبطهم وتصرفهم.

وبدون إذن المتروبوليت المذكور ومعرفته لا أحد من قسوسه يعقد زواجا لا يكون جائزا في اعتقادهم ومذهبهم. ومن حيث إن الطلاق والزواج بامرأة أخرى عدا المرأة الحية ليس جائزين عندهم، فلا يعطى لأحد منهم رخصة بذلك أصلاً، بل إذا حدث أمر مغاير لمذهبهم فالذين باشره يتأدبون حالاً بالقصاص حسبما يستحقون. وإذا أراد البعض من الطائفة المذكورة أن يعقد زواجا عند طائفة أخرى فلا يعقدوه له. ولا أحد من ذوي الاقتدار يغصب أحداً من القسوس مع عقد زواج لأحد بخلاف اعتقادهم. ثم إذا حدث منازعة فيما بين البعض من الكاثوليكين، إما لعقد زواج أو لأمر من الأمور كافة أو من الاختصاصات جميعها فليحضر المتخاصمون أمام المتروبوليت المذكور أو أمام الذين يعينهم لأجل رؤية الدعاوي مثل ما يقتضي الحال. وإذا لزم أن يحلف يميناً لأحد هؤلاء فيحلفه في الكنيسة على موجب اعتقادهم.

وإذا اتفق البعض من الطائفة المذكورة لأجل مقتضى أغراضهم أن يرفعوا الدعوى إلى القضاة أو إلى الحكام، فلا أحد من طرف القضاة أو الحكام يتعارض أو يتداخل فيها، وإن فعل أحد بالخلاف فيُجرم.

وإذا مات أحد في حالة مخالفة مذهبهم وأراد القسوس أن لا يتعاطوا دفنه لأجل مقتضى مذهبهم فلا أحد من القضاة، ولا من الحكام ولا من الضباط ولا من ذوي المقدرة، يجبر القسوس برفع ذلك الميت ودفنه أو يصنع بهذا الشأن أدنى تعدٍّ.

والتعميرات والترميمات التي تُقتضى لكنائسهم وأديرتهم فيأذن الشرع الشريف أن تعمّر وترمم من غير أن يصير من طرف أحد أدنى تداخل. وإذا كان لأحد دين فليحذر من أن يتعارض بسببه حوائج الكنيسة أو الأديرة حتى ولا بطريق الاسترهان، وإن كان أحد يتجاسر على أخذ شيء من ذلك يرد حالاً بمعرفة الشرع.

والذي يموت من القسوس أو القسيسات بلا وارث فالمتربوليت المذكور كبطريك يستولي على ما يكون للميت، مهما كان من موجودات ودواب وغير ذلك، لجهة الميري له من دون أن يتداخل بذلك أحد من طرف بيت المال أو القسم أو المتولين أو الشوباصية أو يضع يده على ماله أو نقوده أو شيء من سائر مخلفاته.

ولتؤدّ الطائفة المذكورة ما عليهم لمتربوليتهم في كل سنة رسوم ميرية وصدقات وسائر المرسومات البطريركية تمامًا ولا تصير في ذلك مرادة من أحد. وإذا تقدم أعراض من الباشاوات أو القضاة أو النواب في سوء حال المرخص المذكور أو قسوسه أو في عزل أحد منهم أو نفيه، فالشكوى التي تصدر في حق أحد منهم لا تُقبل دون الفحص الكامل والوقوف على صحة الأمر، وبغير ذلك لا يصعّ إلى كلام أحد أصلًا. وفي فرضية إذا صدر فرمان أو أمر شريف بتاريخ مقدم أو مؤخر لا يُعتبر ولا يعمل به في مكانه.

ويكونون جميعًا مرخصًا بإجراء عقائدهم في كنائسهم وأديرتهم وأمكنة زيارتهم المعلومة، ولا تحصل في ذلك ممانعة البتة من طرف أهل العرف، ولا من جهة غيرهم لا في دفن موتاهم ولا في قراءتهم خلواً من معارضة أحد لهم بذلك.

ونظرًا إلى الحيوانات والخيول والبغال المعدّة لمراكيب المتربوليت المذكور وأتباعه فلا يعترضها أحد بنوع من الأنواع، وهكذا الدار التي يسكنها هذا المرخص ليس لأحد من أهل العرف أو من الحكام أو غيرهم أن يطلبها لتستعمل منزولاً أو لأجل نزول عساكر فيها. ثم ليس لأحد عليها ولاية بوجه

من الوجوه، وكذلك لا يقدر أحد من الميرميرانات أو من أمراء اللواء أو من المسلمين أو من النظار أو من أصحاب الولاية أو من الضباط أو من الشوباصية أو غيرهم أن يمانعه في ملابسه أو زيه ولا في العكاز المختصة به المعتاد أن يمسكها بيده، ولا أن يصنع له أدنى مزاحمة أو ممانعة في شيء؛ وذلك حفظاً لشروط براءتي هذه العالية الشأن التي بموجبها يكون دستور العمل في ضبط أموره وحلها وربطها بالحرية الكاملة، من دون أن يتعارضه أحد في جميع التصرفات المختصة به بوجه من الوجوه ولا بسبب من الأسباب. فهكذا اعلّموا جميعاً واعتمدوه على علامتي هذه الشريفة. تحريراً في اليوم الأول من شعبان سنة ١٢٥٣هـ.

وإذا كان في هذه البراءة اعتراف واضح بما كان يعانيه بعض رجال الدين المسيحيين من تضيق وضغط، فإن فيها أيضاً محاولة رسمية لحمايتهم من ذلك، ففيها ترخيص بتعمير الكنائس وترميمها وحرية الملبس وإظهار شعائر السلطة الدينية وحرية التوصية وصلاحيّة النظر في الدعاوي ومنع القضاة والحكام عن التدخل في أحكام الأساقفة، فالبراءة من هذه الناحية تبشر بعهد جديد وإصلاح شامل، وهي من حيث علاقة الروم الكاثوليكين بالروم الأرثوذكسيين تؤذن بالاستقلال التام.

السلطان يبرم وينقض

ثم نقض السلطان ما أبرم، فأصدر في منتصف تشرين الثاني من السنة ١٨٣٧ فرماً جديداً وجهه إلى عزيز مصر، وأوجب به التحقيق في النزاع القائم بين الروم والروم الكاثوليك بحضور العلماء والأعيان وأهل الخبرة، ورفع النتيجة إلى جلالته ليثبت الحق ويرفع الأذى.^{٥٩} فاضطرب مثوذيوس وزميله الإسكندري أيروثيوس وفاوضا السلطات المصرية في مهلة ثلاثة أشهر يتمكنان في أثناءها من الدفاع عن حقوقهما المشروعة. وفي أوائل تموز السنة ١٨٣٨ أصدر السلطان فرماً أوجب فيه قطع القال والقليل وردع

^{٥٨} «النبة»، للبطريك مكسيموس، ص ٢٠٣-٢١١، و«الشهب الصباحية»، ليوسف وردة، ص ١٦٦-١٧١. Charon, C., op. cit., 162-177.

^{٥٩} «النبة»، للبطريك مكسيموس، ص ٢١١-٢١٧.

الروم الكاثوليكين عن التردّي بقيافة الروم وتدبير قيافة تشبه الرهبان الكاثوليكين القائمين في ممالكه المحروسة.^{٦٠} وما فتئ السلطان يقدم ثم ينخل ثم يقر ثم ينقض حتى اضطر الطرفان أن ينتقلا في نزاعهما إلى عاصمة الدولة نفسها. وفي أيلول السنة ١٨٣٨ أصدر البطاركة الأرثوذكسيون الأربعة غريغوريوس القسطنطيني وأيروثيوس الإسكندري ومثوذبيوس الأنطاكي وأثناسيوس الأورشليمي بياناً قبحوا به الليتنة وخروج الروم الكاثوليكين.^{٦١}

وشغل هذا النزاع باريس ورومة وبطرسبرج بالإضافة إلى الآستانة، فإن مكسيموس غادر الإسكندرية في خريف السنة ١٨٤٠ إلى مالطة فرومة فباريس مستجدياً مستنهضاً. ثم عاد تَوّاً إلى الآستانة فوصلها في الثالث والعشرين من آب سنة ١٨٤١ وأقام فيها، وكتب البطاركة إلى السنيودس الروسي واتصلوا بسفارة روسية في الآستانة، فاضطر الباب العالي أن يسعى سعياً حثيثاً للوصول إلى حل مناسب يرضى به الطرفان. وفي أوائل تشرين الأول سنة ١٨٤٧ أصدر السلطان عبد المجيد خطاً همايونياً أوجب به اكتساء المطارنة والكهنة والرهبان الملكيين الكاثوليكين «قلنسوى مسدسة الزوايا بلون مور»، وأوجب أن يكون لون اللاتية فوقها موراً أيضاً.^{٦٢}

مكسيموس بطريرك مستقل (١٨٤٨)

وخسر مكسيموس جولة «القلوسة» ورضي أن تكون هذه القلوسة مسدسة الزوايا بنفسجية اللون لا مستديرة سوداء كقلوسة الروم الأرثوذكسيين، ولكنه فاز باعتراف الدولة به بطريركاً مستقلاً عن البطريرك الأرمني الكاثوليكي الذي كان يتبعه منذ السنة ١٨٣٧ بصفة «رئيس مرخص». ففي الثامن من كانون الثاني سنة ١٨٤٨ صدرت براءة سلطانية تعلن هذا الاستقلال وتعترف به، فقد جاء في مقدمات هذه البراءة:

أن الرؤساء المرخصين القائمين على تدبير أمور الكلدان والسرّيان والموارنة يستمرون في طاعة بطريرك الكاثوليكين في الآستانة. أما طائفة الملكيين فإنهم

^{٦٠} المرجع نفسه، ص ٢١٨-٢٢٣.

^{٦١} Mansi, Amplissima, Vol. 40, Col. 267-276.

^{٦٢} Charon, C., op. cit., II, 207-216; Hajjar, J., op. cit., 93-94.

في حالة خصوصية؛ لأن بطريركهم قائم بهم بالفعل والعملية منذ القديم.» وبما أنه لم يعطَ براءة بهذه الصفة، وبما أن مجلس الأحكام العدلية رأى أن الضرورة تقضي بإعطائه براءة بذلك؛ فإن السلطان أصدر أمره الهمايوني «في هذا الخصوص، وتعلقت إرادته السنية الملوكية بإجراء ما اقتضى.

ولذلك فإنه أعطى مكسيموس مظلوم براءته الهمايونية متضمنة بطريركيته على الروم الملكيين الكاثوليكين الموجودين في أنطاكية وإسكندرية والقدس الشريف وسائر الممالك المحروسة، وعلى هؤلاء كبارًا وصغارًا أن يعرفوه بطريركًا عليهم ويراجعوه في الأمور المتعلقة بعاداتهم ولا يتجاوزوا كلامه الذي في محله ولا يبدوا قصورًا في طاعتهم له. ثم استطرد السلطان فكرر جميع ما ورد في براءة السنة ١٨٣٧ من امتيازات إدارية وسياسية وقضائية وتحريم اجتماعي. وقد أثبتنا نص هذه البراءة الأولى أنفًا فلترجع في محلها. ولا تزال البراءة الثانية محفوظة في دار البطريكية الكاثوليكية في دمشق، وقد أحسن الأب يوسف حجار بنشرها بالزنك في كتابه الأنيق «البطريك مكسيموس الثالث مظلوم» الذي ظهر حديثًا بموافقة سيادة الحبر العلّامة كيريوس فيليبوس متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما.^{٦٣}

البروتستانت

واستقلت المستعمرات البريطانية في أميركة الشمالية وأصبحت الولايات المتحدة الأميركية (١٧٧٦-١٧٨٣). وانتظمت شؤون الدولة الجديدة ودرّت مواردُها فتفتحت أمام قادتها وزعمائها آفاق جديدة، وكثر المهاجرون البروتستانت حتى أصبحوا أغلبية السكان، وقال معظمهم بالبروتستانتية الكلوينية فشعروا بواجب التبشير والدعاية لإيمانهم أكثر من اللوثريين والإنكليكان. وانتظم في وليامستون في إنكلترة الجديدة في السنة ١٨٠٦ جماعة من الأتقياء الذين نذروا حياتهم «للعمل في حقل الرب»، فأسسوا في السنة ١٨٠٨ «جمعية الإخوة»، ثم التحقوا بكلية أندوفر لدرس اللاهوت وبثوا دعايتهم في كلية وليم، وقدّر لهم

^{٦٣} Hajjar, J., Un Lutteur Infatigable le Patriarche Maximos III Mazloum, Harissa, 1956, 99; Steen de Jehay, F. von den, Sujets Ottomans non-Musulmans, 273; Charon, C., op. cit., II, 202-207.

النجاح فنشأت في السنة ١٨١٠ «المفوضية الأميركية للتبشير في الخارج»،^{٦٤} وفي السنة ١٨١٢ اعترف مجلس ولاية مساتشوست التشريعي بهذه المفوضية. واهتم الإخوان والمفوضون لأمر فلسطين منذ اللحظة الأولى، فأرسلوا في السنة ١٨١٩ بلينيوس فسك ولاوي بارسنس للإقامة في أورشليم والعمل على تبشير اليهود.^{٦٥} وأوصوا هذين المبشرين بدرس الموقف لمعرفة ما يمكن أن يُعمل لمساعدة المسلمين والمسيحيين وسكان مصر وسورية وفارس وأرمينية.^{٦٦} وأقام فسك في إزمير مدة وجاء بارسنس أورشليم فوصلها في السابع عشر من شباط سنة ١٨٢١ وأقام فيها يوزع الأسفار ويفسرهما. ثم تُوّفي بداء الديزنطارية في الإسكندرية في السنة التالية. فلما علم رفيقه بلينيوس فيسك بذلك قام من إزمير إلى مالطة يشوق مرسلًا أميركيًا آخر كان يشرف على المطبعة الأميركية في هذه الجزيرة للعمل في أورشليم، فأثر تمبل هذا البقاء في مالطة. وكانت كلية أميرست Amherst الأميركية قد أوفدت يونس كينغ إلى باريز لتعليم اللغات الشرقية في مدرسة باريز على المستشرق الشهير سلفستر دي ساسي، فاتصل فيسك به ودعاه للعمل في الشرق فلبى الدعوة بسرور. وشجعت جمعية التبشير الإنجيلية الإفرنسية^{٦٧} على ذلك فمنحته مساعدة مالية قدرها مائة دولار في السنة لمدة ثلاث سنوات، فأصبح هذا الشاب الأميركي أول المرسلين الإنجيليين الإفرنسيين،^{٦٨} وقام المرسلان من مالطة إلى الإسكندرية فالقدس فوصلا إليها في أوائل السنة ١٨٢٣. ثم التحق بهما إسحاق بيرد موفدًا من قبل مفوضية التبشير الأميركية. وجاء بيروت في السنة ١٨٢٣ لويس واي Way نائب رئيس الجمعية اللندنية للتبشير بين اليهود،^{٦٩} واستأجر مقر الآباء اليسوعيين في عينطورة الزوق وجعله مركزًا لعمله التبشيري، وبعد بضعة أشهر عاد إلى لندن تاركًا لويسهو Lewiswho يعمل لنشر الإيمان.^{٧٠}

^{٦٤} The American Board of Commissioners for Foreign Missions

^{٦٥} Thompson, A. E., A. Century of Jewish Mission, 176

^{٦٦} Strong, W., the Story of the American Board, 80

^{٦٧} Société des Missions Evangéliques de Raris

^{٦٨} Bianquis, J., Les Nouveaux Devoirs du Protestantisme Francais en Syrie, 24

^{٦٩} The London Society for Promoting Christianity among the Jews

^{٧٠} Scherer, G., Mediterranean Missions, Beirut. 1939, 1

البطريك الأورشليمي ينقبض ويقبح (١٨٢٣)

وجاء لنيوفيطوس القبرصي أن المرسلين الأميركيين أقاموا لدى وصولهم إلى القدس عند الأرمن ووزعوا الأسفار المقدسة، ثم أظهروا المحبة لليونان وأقرضوا رهبان القبر المقدس مالا كانوا في حاجة إليه واستأجروا غرفتين أو ثلاثاً في دير رئيسي الملائكة، ثم وزعوا الخبز يومياً على الطلبة الفقراء فبارك الرهبان عملهم الخيري. ولكن المرسلين بدءوا بعد ذلك يُعلمون الأولاد ألا يحترموا الأيقونات والصليب، وألا يصوموا وألا يستشفعوا والدة الإله، فاستدان الرهبان مالا من اليهود وأعادوا إلى الأميركيين قرضهم وطردوهم من الدير والمدارس.^{٧١}

وداعات يونس كينغ

وخرج بلينيوس ويونس من القدس في السنة ١٨٢٥ واستقروا في بيروت وجعلها مركز أعمالهما. وعكف يونس كينغ على درس العربية والسريانية فلزمه أسعد الشدياق لقاء أجر معين. وتوفي بلينيوس فيسك في خريف السنة ١٨٢٥ ودفن في بيروت. واستصدرت السلطات الروحية الكاثوليكية فرماناً سلطانياً يمنع توزيع الأسفار المقدسة ويوجب جمع ما وُزع منها (١٨٢٤)،^{٧٢} واتصل الإكليروس الكاثوليكي الشرقي بيونس كينغ وحضوه على العودة إلى حضن الكنيسة الجامعة. وكان هو قد قرر القيام إلى إزمير والجزر اليونانية فصنف رداً على من دعاه إلى الكتلثة. ونظر المعلم أسعد الشدياق في الرد فسمّاه «وداعات يونس كينغ»، ثم نُشر هذا الرد ووُزع في جميع أنحاء الدولة العثمانية.

وجاء هذا الرد في قسمين رئيسيين؛ أولهما: اثنتا عشرة مادة في الإيمان الكلويني، والثاني: ثلاث عشرة رداً على السؤال: لماذا لا أقبل الكتلثة؟ وعناوين هذه الردود هي ما يلي: (١) لأن المسيح لا البابا هو رأس الكنيسة على الأرض. (٢) لأن رومة توجب التبطل على الإكليروس وهو أمر منافٍ للأسفار. (٣) لأن المسيح هو الشفيح الوحيد، ولأن لدى رومة شفعاء كثيرين؛ العذراء مريم والقديسين والملائكة. (٤) التوراة تحرّم عبادة

^{٧١} Papadopoulos Kerameus, Analekta, II, 458.

^{٧٢} Jessup. H., op. cit., I, 36.

الصور والتماثيل ورومة تُجيزها. (٥) لأن القول بالمطهر يعاكس نص التوراة. (٦) لأن التضرع إلى القديسين لا يتفق والأسفار. (٧) لأن رومة تحرم العامة من كأس الشركة. (٨) لأن رومة تستعمل لغة مجهولة في العبادة. (٩) لأن الإيمان بالبابا يُخالف نص الأسفار. (١٠) لأننا ننال الخلاص بالمسيح لا بالقديسين. (١١) لأن رومة تقر اضطهاد البروتستانت وإفناءهم كما جرى في يوم القديس برتلمائوس عندما سقط ثلاثون ألفاً في يوم واحد. (١٢) لأن رومة لا تسمح للشعب بمطالعة التوراة. (١٣) لأنه لا يمكنني أن أصير رومانياً والتوراة بيدي، ولأني أتمنى لكم جميعاً أن تصيروا مسيحيين ولا أكثر للقب بروتستانت.^{٧٣}

موقف الموارنة والكاثوليك

وقدم في السنة ١٨٢٤ إسحاق بيرد ووليم غودل والتحق بهما في السنة ١٨٢٧ عالي سميت، وبدءوا العمل الإنجيلي فاستمالوا أسعد الشدياق واثنين من أساقفة الأرمن الغريغوريين، وأنشئوا المدارس لتعليم الأولاد فبلغ عددها في السنة ١٨٢٧ ثلاث عشرة مدرسة ضمت ٦٠٠ طالب، فأعد البطريرك الماروني يوسف حبيش حرماً شديداً للهِجَة في الخامس عشر من كانون الأول سنة ١٨٢٦، وأمر به فأعلن رسمياً في كنيسة بيروت المارونية في الرابع عشر من كانون الثاني سنة ١٨٢٧. وجاراه في ذلك بطريرك الروم الكاثوليكين أغناطيوس قطان،^{٧٤} وقُبض على أسعد الشدياق، وسُجن في دير علما ثم في قنوبين، وفرَّ أخوه فارس والتجأ إلى دور المرسلين في بيروت فأرسلوه إلى مالطة.^{٧٥}

البطريرك مثنوديوس والمرسلون (١٨٢٧)

وكتب البطريرك مثنوديوس نفسه في السابع والعشرين من آذار سنة ١٨٢٧ إلى القسين بيرد وغودل يلفت نظرهما إلى أن مدارسهما تبذر الشقاق بين خرافه. ثم أمر

^{٧٣} Ibid., 39-40

^{٧٤} Anderson, R. History of the Missions of the A. B. C. F. M. to the Oriental Churches, I, 44-48; Bird, I, Bible Workin Bible Lands, 215, 222-249; Jessup. H., op. cit., I, 44

^{٧٥} Bird, I, the Martyr; Tracy, J., op. cit., 280; Jessup, H., op. cit., I, 40, 183

جراسيموس متروبوليت صور وصيدا بإقفال المدارس في مرجعيون وحاصبيا،^{٧٦} ولا نعلم السبب الذي حدا بزخريا متروبوليت عكار إلى العطف على المرسلين وأعمالهم، ولعله لم يفعل!

البطريك مثنوديوس وترميم الكنائس

وتميّزت حكومة محمد علي باشا عزيز مصر بعزلها وتسامحها، فاغتتم مثنوديوس الفرصة السانحة ودفع الرعية للعمل على ترميم الكنائس وتوسيعها وإنشاء بعضها إنشاءً جديداً. فالتمس روم السويدية في منتصف تشرين الأول سنة ١٨٣٣ إعادة إنشاء كنيسة فيهما،^{٧٧} وتقدم روم أنطاكية في أواسط أيار سنة ١٨٣٤ يرجون إنشاء كنيسة لهم، فوافق العزيز على ذلك،^{٧٨} وفي السابع والعشرين من آذار سنة ١٨٣٩ رفع روم حماة إلى العزيز عريضة أشاروا فيها إلى الظلم الذي لحق بهم في عهد الحكومات السابقة، وأشادوا بعزل الحكومة المصرية، وأيدوا ذلك برجوع النازحين منهم إلى حماة، والتمسوا السماح بتوسيع كنيسة لهم، فكان لهم ذلك على الرغم من اعتراض المتسلم والقاضي،^{٧٩} وكتب متروبوليت بيروت في هذه السنة نفسها للبطريك الإسكندري يريجه استصدار إذن بترميم دير إلياس التينة في ضواحي بيروت، فأحال العزيز الطلب إلى محافظ بيروت محمود نامي بك وعلى قاضيها الشيخ مصطفى الجمالي لإبداء رأيهما، فوافق المتسلم واعترض القاضي مدعياً أن الشرع الإسلامي لا يجيز ترميم المتهدم من الكنائس والأديار، ويمنع إنشاء الجديد، فضرب العزيز برأي القاضي عرض الحائط متهمًا ووافق على ترميم الدير المذكور،^{٨٠} ووسّع مثنوديوس بناء دير مار جرجس الحصن في السنة ١٨٣٧، كما أنشأ في دير النبي إلياس في ضواحي الشوير عددًا من الغرف الجديدة (١٨٤١-١٨٤٢).

^{٧٦} Bird, I., op. cit., 228-231.

^{٧٧} «المحفوظات الملكية المصرية»، للدكتور أسد رستم، ج ٢، رقم ٣٢٣٢.

^{٧٨} «المحفوظات المصرية» أيضًا، ج ٣، رقم ٤٠٤٦.

^{٧٩} «المحفوظات» أيضًا، ج ٤، رقم ٥٧٢٤ و ٥٧٢٧.

^{٨٠} «المحفوظات» نفسها، ج ٤، ص ٥٩٧٩.

مدرسة البلمند الإكليريكية (١٨٣٣-١٨٤٢)

وشعر الوجوه والأعيان والإكليروس بوجوب الانتباه إلى الرهبان لتصمد الكنيسة في وجه التيار الكاثوليكي وتكسر النصال التي كان قد بدأ يسدها المرسلون البروتستانت إلى كبد العقيدة الرسولية المقدسة. وكان مقدام هذه الفئة الأرشمندريت أثناسيوس (قصير) رئيس دير سيدة البلمند البطريركي. ووافق البطريرك مثنديوس وتسايرت أهواء المطارنة، فأنشأ أثناسيوس في السنة ١٨٣٣ مدرسة في الدير المشار إليه، وجمع بها من التلامذة نحو الثلاثين، وأحضر لها الأساتذة فوكل تدريس الدينيات واللغة العربية للخورى اسبيريدون صروف الدمشقي، واللغة اليونانية والموسيقى الكنسية لديمتريوس فيليبس، وكان من أساتذتها أيضًا الخوري يوسف الحداد والسيد جراسيموس (فرح) الذي صار فيما بعد مطرانًا على باياس ثم على صور وصيدا.^{٨١} وتحلى أثناسيوس بوفرة العلم وسعة المعرفة وثبات العزم والحزم وحسن الإدارة والدراية، فأحيا أملاك الدير القديمة وأضاف إليها أملاكًا جديدة، وجدد كنيسة الدير وجعلها بالأواني المقدسة والملابس الشريفة والكتب الروحية المفيدة، وبنى غرفًا جديدة وجعلها بكل ما يلزم، فهب الشبان الأرثوذكسيون يتقاطرون إلى البلمند من جميع أبرشيات الكرسي الأنطاكي قصد التمرن على السيرة الرهبانية. وزها البلمند واشتهر بحسن النظام والطاعة ومحبة الشغل والتعب وخدمة العلم والمعرفة. وقابل أثناسيوس إبراهيم باشا المصري مرتين واستصدر أمرين؛ أولهما: إعفاء الدير من الضرائب، وثانيهما: منع الأمير بشير الشهابي من اغتصاب مطاحنه.^{٨٢}

وفي خلال السنة ١٨٤٠ زار البطريرك مثنديوس مدرسة البلمند وبمعيته زخريا متروبوليت عكار، فاحتفلت المدرسة احتفالًا شائقًا. وسقطت في أثناء التظاهر بالسرور بادرة لفظية بنى عليها زخريا القصور والعلالي، وقذف في قلب البطريرك أمورًا وأمورًا، فلم يطل الأمر على الأرشمندريت أثناسيوس حتى أئذّر بما ساءه فأبدى الرغبة بأن يستقيل، فأجابه البطريرك أن استعفاءه قبل. وهكذا كفّت يده عن العمل، ورحل إلى أورشليم بصفة واعظ، وانتثر عقد المدرسة بعد أن أخذت تزهر وتزهر، فتبدد تلامذتها

^{٨١} «الأرج الزاكي»، لأمين ضاهر خير الله، ص ٣٧.

^{٨٢} «تاريخ البطارقة الأنطاكيين»، لغساس قندلفت، «المنار»، ١٨٩٩، ص ٤٣٥-٤٣٦.

الرهبان، وذهب البعض منهم إلى دير القديس جاورجيوس، والبعض إلى آثوس أو إلى صيدا، ولم يبقَ منهم في الدير سوى اثنين وعشرين راهبًا ينتظرون إصلاح الحال.^{٨٣}

مثنودايوس يستجدي الروس (١٨٤٢)

وتخوَّف مثنودايوس من اتساع الجبهة ومن لجوء الكاثوليكين والبروتستانت إلى المدرسة والتعليم في أعمالهم التبشيرية، ولم يرَ في مدرسة الأقمار الثلاثة التي حُصِّ على إنشائها في بيروت ما يكفي لدرء الخطر المداهم، فاتصل بالأوساط الروسية ورماهم بآماله، فأشاروا عليه بإرسال مطران إلى روسية يطوف بلدانها لجمع ما يلزم لترميم الأديرة والكنائس وإنشاء المدارس وإعداد الكتب وطبعتها.

فأوفد مثنودايوس في السنة ١٨٤٢ نيوفيطوس متروبوليت بعلبك لهذه الغاية، وزوده بالتعليمات اللازمة وحمله بيانًا بطريركيًا أنطاكيًا بواقع الحال، وأرسل البطريرك مع نيوفيطوس كلاً من الأب الأرشمندريت صفرونيوس والأب الراهب أنثيموس وكاتم أسرارهِ السيد يوحنا باباندوبولو.

ومما جاء في هذا البيان البطريركي أن كنيسة أنطاكية رُزئت منذ القدم بنير الذل والفقر، ثم أحاطت بها الأخطار فقام الرومانيون الكاثوليكون يبثون عقائدهم في صدور المؤمنين، ثم اغتصبوا أفضل الكنائس والأديار ونهبوا هياكل العبادة ودور الكتب، فأمست بعض الكنائس والأديار خالية خاوية وأضحت معظم المعابد القائمة فقيرة تنقصها الأبنية والأغطية، والمؤمنون هائمون في أودية الجهل تائهون في شعاب البربرية لا مدارس لهم ولا معلمون ولا مؤسسات عمومية تُعنى بشئونهم. وإذا ما أجمل المؤمنون الروسيون الصنع وساقوا الجميل فإن ما يجمع منهم سيكرَّس لإنشاء المدارس والمطابع ولترميم كنيسة القديس نقولاوس العجائبي في دمشق وغيرها من الكنائس القديمة والأديرة، ولتشديد بعض الأبنية المسيحية العامة التي لا يستغنى عنها. ووقع هذا البيان البطريركي كلٌّ من البطريرك مثنودايوس ورؤساء الأساقفة مثنودايوس حمص

^{٨٣} State of the Patriarchate of Antioch in 1850, Appendix III, Neole, J. M., Patriarchate of Antioch, 218-219.

وبنيامين بيروت ويوانيكوس طرابلس، وأرميموس اللاذقية وزخريا عرقة وبرنابا حماة ويعقوب سلفكية وأشعيا متروبوليت صور وصيدا.^{٨٤}

أزمة في كنيسة حاصبيا (١٨٤٤-١٨٤٥)

واقصر المرسلون الأميريكيون في بادئ أمرهم على التعليم الابتدائي وتوزيع الإنجيل، ثم قبلوا مسيحيين شرقيين من الروم والموارنة والأرمن في الشركة، فتكونت نواة لطائفة إنجيلية في بيروت (١٨٢٧). وتابعوا أعمالهم التبشيرية، فتسربت عقائدهم إلى القرى، فهبّ أخبار الطوائف المسيحية للدفاع، ومنعوا المؤمنين عن إرسال أولادهم إلى مدارس المرسلين البروتستانت. وفي السنة ١٨٣٢ أمر مطارنة اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا بإحراق المطبوعات البروتستانتية، فتم ذلك باحتفالات علنية في دور الكنائس، واستصدر الآباء اليسوعيون أوامر حكومية رسمية بمنع المنشورات البروتستانتية من الدخول إلى أراضي الدولة العثمانية،^{٨٥} فرد المبشرون الأميريكيون على هذا الإجراء بنقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت (١٨٣٥).

وصادف المرسلون الأميريكيون نجاحًا في حاصبيا، فأَمَّ مدرستهم فيها طلاب من جميع الطوائف والتفَّ حول المعلم المبشر مائة وخمسون شخصًا يدينون بالبروتستانتية. فنشأت مشادة عنيفة بين هؤلاء ومعظمهم من الروم وبين جمهور الروم في حاصبيا وتوابعها، فطالب البروتستانت في حاصبيا برفع سلطة الإكليروس الأرثوذكسي عنهم والاعتراف بهم كنيسة مستقلة، فقام مثوديوس البطريرك الأنطاكي من دمشق إلى حاصبيا في خريف السنة ١٨٤٤ واتصل بزعماء الحركة البروتستانتية، وحاول إقناعهم بالعدول عن مطلبهم والعودة إلى حضن الكنيسة، فأجابوا: «يا سيدنا نحن نريد أن نفحص بالإنجيل فإذا وجدنا طريق الخلاص فيكون المطلوب وإلا نبقي نرجع». وأبصر آخرون رشدهم وثابوا إلى الهدى واستقاموا على الطريقة المثلى، فأصدر البطريرك البركة ورفع الحرم عنهم:

المجد لله دائماً: مثوديوس البطريرك الأنطاكي برحمة الله تعالى. النعمة والبركة
تشملان ابنتنا الروحية المحبوبة بالرب هيلانة زوجة ولدنا الروحي المحبوب

^{٨٤} State of the Church of Antioch, Neale, J. M., op. cit., App. II, 210-212.

^{٨٥} Jessup, H., op. cit., I, 82, 83.

بالرب الشيخ يوسف غره (الكفير). فحيث إن ابنتنا المذكورة قد قيل عنها إنه بادي منها كلام غير لائق، وإنه كان حصل بسببها منع في رجوع رَجُلها إلى الكنيسة؛ ولهذا السبب تغلظ خاطرنا عليها وما أشبه ذلك، فالآن حيث إن رَجُلها ولدنا المذكور قد رجع إلى أحضان أمه الحنونة التي هي كنيسةنا الشرقية الأرثوذكسية المقدسة المستقيمة الرأي، وابنتنا المذكورة هيلانة قد قدمت التوبة الحقيقية بصفاء النية فلتكون مباركة هي ورجلها أيضًا معها من الآب والابن والروح القدس ومنا نحن أيضًا، ويكون أولادها كذلك مباركين وأعمال يدها وجميع تصرفاتها المرضية لعزته تعالى، ونعمته تعالى مع بركاتنا وأدعيتنا تكون شاملة إياها، وإلى رجلها وأولادها وكل من يلوذ فيها، آمين.

أصابع الإنكليز

وكان ريتشارد وود Richard Wood الذي أخرج الموارد عن صداقتهم التقليدية لفرنسة عام ١٨٤٠ قنصلًا بريطانيًا في دمشق، وكان ترجمانه ميخائيل مشاقة وقضت السياسة البريطانية بمقاومة الكتلكة وعرقلة أعمال فرنسة في الشرق، وبإحباط مساعي الروس لاستمالة الرعايا العثمانيين الأرثوذكسين، وقضت هذه السياسة أيضًا بتأييد المرسلين البروتستانتين في الشرق، ولا سيما الأميركيين منهم؛ لأنهم ليسوا من رعايا جلالته البريطانية، ولكنهم يخدمون أغراضها بصورة غير مباشرة، وهكذا فإننا نرى بروتستانت حاصبيا يوجهون عريضة إلى القنصل ريتشارد وود في الثاني عشر من كانون الأول سنة ١٨٤٤ يلتمسون بها رفع الاضطهاد والتضييق الذي حلَّ بهم ويتهمون السلطات المحلية بالتعاون مع البطريرك مثنوديوس وتسهيل مهمته.

فاتصل ميخائيل مشاقة بالأمير أحمد ابن الأمير سعد الدين الشهابي وفاتحه كلامًا في موضوع بروتستانت حاصبيا في التاسع عشر من كانون الأول سنة ١٨٤٤، فأجاب الأمير أحمد أنه مسلم لا «يعنيه اختلاف مذاهب النصارى»، وأنه يؤثر باطنًا البروتستانت على غيرهم؛ لأنهم أقرب في الطاعة، ولكنه مُكره على طاعة أولياء أمره، وأنه لو تظاهر بحماية البروتستانت لشكا خصومه أمره إلى الوزراء بواسطة جنرال المسكوب. فرأى ريتشارد وود أن يكتب إلى سعيد بك جنبلاط في أمر البروتستانت ويحضه على حمايتهم في حاصبيا بواسطة أعيان الدروز فيها، ومن هنا قول المعلم بطرس البستاني في رسالة له

حررها في حاصبيا في ٢٤ حزيران سنة ١٨٤٤ أنه «قبل تاريخه بيوم كان قد ذهب الشيخ أمين شمس وأخوه إلى الدار، وأروا المكتوب الذي جاءهم من الشيخ سعيد جنبلاط وعاتبوه بما أظهره لنحو أبو بشارة وجمهورنا، فأجاب الأمير أنه إن شاء الله ما عاد يصدر منه مثل هذا الشيء.»

رأي المعلم بطرس البستاني (١٨٤٥)

ولوى المرسلون عنانهم وأرادوا أن يقصروا ويكفوا فأخذوا رأي كبير الإنجليبين الوطنيين آنئذٍ صديقهم الحبيب المعلم بطرس البستاني، فحرر رسالة في هذا الموضوع في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٤٥ جاء فيها:

أن ترك أهالي حاصبيا ينتج منه شرور كثيرة:

- (١) أنه يكون ثقله واضطهاد شديد على الذين يرجعون من أهالي بلدهم، وربما يصير خطر على حياة البعض منهم. (٢) إذا تركناهم في هذه الحال يصيرون من أشد أعداء طريقتنا وينسبون خراب بيوتهم إلينا، وهذا مما يكون سبباً لسد الباب علينا ليس في جهات حاصبيا فقط، بل في هذه الجهات أيضاً. (٣) أنه ينقطع عند الأكثرين من أهالي البلاد رجا إعطاء الحرية لأن يكونوا بروتستانت. (٤) إذا رجع هؤلاء إلى محلاتهم مذلولين يتحقق لدى الأضداد والأحباب أيضاً أن الدولة تضاد امتداد البروتستانت في هذه البلاد. (٥) أن المحلات الموجودة فيها بعض أناس منّا تقوى شوكتها علينا، وربما أنهم يفتحون علينا أبواباً جديدة حتى يصوروا عند الدولة وبقية أضدادنا، وربما عند أحبابنا، بأننا منشئون مفساد في البلاد ويمنعون الناس الذين تحت سلطانهم عن مبايعتنا ومخالطتنا، ونرجع إلى الحال القديم وتقوى شوكة الإكليروس على رعاياها. (٦) أن الذين يريدون أن يتبعوا الحق أو الذين هم قريبون إلى الحق إذا أرادوا أن يتظاهروا فيه في أماكنهم تقوم عليهم أهالي بلدهم ويعملون بهم ما عمله أهالي حاصبيا بهؤلاء الفقراء المساكين. (٧) حيث إن حاصبيا هي على نوع ما منتظر الجميع أصحاباً وأعداء، فإذا رأوا انتهاءها على هذه الحال يجعلون يهزون روسهم علينا ويقولون: إيه إيه قد رأيت أعيننا! (٨) أن الناس في حاصبيا إذا سمعوا بتركنا لهؤلاء وعدم السؤال عنهم من

أحد الأرجح أنهم يهجمون على بيوت هؤلاء وبيوت الباقيين هناك ويؤذونهم في مالههم وحالهم. ولكن إذا افتكروا أن مادتهم للآن ممسوكة ولو أن فكرهم وهميًا، فإن الوهم يمنعهم نوعًا عن إتمام كل مقاصدهم الردية. (٩) إذا فشا هذا الخبر هناك وأراد أصحاب الأعيال من هؤلاء أن يأتوا بعيالهم إليهم أو أراد الباقيون هناك أن يرحلوا من البلد يتعرضهم أهاليها خوفًا من رحيل البعض من أقاربهم وأعيالهم معهم، وهذا عندهم مضر لهم ديانة ودنيا. (١٠) متى انقطع حبل الرجا فإن الذين باقون هناك كقسطة المجدلاني وغيره ربما يموت الفكر من عقولهم ولا يعودوا أن يترجوا إمكان تمذهبهم بمذهب البروتستانت هناك، وهكذا يتلاشى هذا الفكر بالكلية ويتركون العادة الحميدة في اجتماع سرًا للصلوات والقراءة معًا، وناهيك أن أضدادهم يبالغون في منعهم عن ذلك. (١١) إن الذين ماسكون في حبل الباقيين هناك مثل المشايخ وبعض الأمراء متى تحققوا لديهم ذلك يخافون ولا يعودون يتجاسرون على حمايتهم وصيانتهم من أعدائهم كما يفعلون الآن حتى ولا يعودون يقبلونهم في بيوتهم. (١٢) متى رأوا ذلك يحرقوا الكتب التي هناك وربما يختلسون الحوايج. (١٣) متى رأت الدولة ذلك ربما أن والي الشام يرسل بطلبهم باجتهاد أو أن والي بيروت يطردهم من كل ولايته.

والنتيجة أن الشرور الناتجة من ذلك هي كثيرة، فمنها ما أراها ومنها ما يراها الناس الفطنون. هذا وإني لا أرى شرًا من حفظهم، وإذا وُجد شيء من ذلك فلا يكون بالنسبة إلى الشرور الناتجة من عكسه شيئًا. وأنا أعلم أن الخسائر التي صارت بسببهم هي كثيرة؛ ولهذا لا يسوغ لنا أن ننسى كل تلك الخسائر لأجل ما نضيفه إليها من خسارة جزئية، وأنا أظن الناس المسيحيين إذا طلبت منهم المساعدة لهؤلاء الفقراء المضطهدين فلا يحبسون إحسان رأفتهم عنهم؛ لأنني أحقق أن محبة الإحسان في كنائس البروتستانت إذا لم تكن أعظم منها في بقية الكنائس فإنها تكون بالأقل مثلها.

والتدبير الذي يظهر لي الآن أنه الأفق هو: (١) أن يعطى كم غرش للمحتاجين منهم على سبيل الإحسان لكي يبعثوها إلى أعيالهم الذي يعرفون جوًا. (٢) أن شاهين غبريل يخدم عند أحد الأمراء أو المشايخ في هذه البلاد،

والأحسن أن يخدم عند الشيخ سعيد جنبلاط. (٢) أن شاهين أبو بركات وناصيف الرئيس يسكنوا في نيجا تحت نظر الشيخ سعيد ويتعاطيا أمر البيع والشرا. (٤) أن يوسف بندر ونقولا عيد ونقولا حصلب يدقون بارود في عبيه أو بحمدون. (٥) أن إلياس غبريل يتعاطى صناعة الصياغة في عبيه أو بيروت. (٦) أن جريس الرئيس وأخوه منصور يتعاطى السكافة في كفر مٲى أو غير مكان بالقرب من عبيه. (٧) أن نقولا أبو ناعسة وأولاده يكونون في نيجا أساكفة. (٨) أن فارس الدبغى يبقى في عمله أو يفتح مدرسة في إحدى ضياع الجبل، وإذا وجد أحد بعد هؤلاء يكون تدبيره كتدبيرهم وكل منهم يجتهد على جلب عياله أو يبيقيهم هناك حسب إرادته. وإذا تعذر تدبير أحد منهم على الطريقة المذكورة فربما يوجد البعض من المشن يريده أن يخدم في بيته، وأنا أظن أنه لأجل نفوذ هذا التدبير لا يلزم أكثر من ألفين غرش التي أنا مستعد أن أجمعها وأساعد فيها من مالي على قدر استطاعتي.

فأرجوكم ثم أرجوكم لا تسدوا آذانكم عن صراخ هؤلاء الفقراء المساكين ولا تحبسوا أحشا رأفتكم عنهم بعد أن عملتم معروفًا جزيلاً وخيراً وفيّاً، وأترجاكم أن تنظروا بعين الرحمة إلى ضيقتهم الحاضرة وتفرجوا منها عنهم على قدر إمكانكم، ولأجل تقدمة ما يجب عليّ لهؤلاء أنا تجاسرت بتقديم أعراضي إليكم لكي تفحصوا ما فيه، وعلى كل حال كل شيء راجع لخاطركم. طالب دعاكم بطرس البستاني.

الأمطوش الأنطاكي في موسكو (١٨٤٨)

وكان فيلارتيوس صاحب التعليم المسيحي المطول ومحب الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة مطراناً على موسكو، فلما طلب مٲوديوس البطريرك الأنطاكي المساعدة في السنة ١٨٤٢ هب فيلارتيوس للعمل وتلبية النداء، فاستأذن المجمع الروسي المقدس بأن تعطى كنيسة الصعود والقديس أيباتايوس في موسكو الواقعة بالقرب من الكرملين للكرسي البطريركي الأنطاكي، فأقر المجمع ذلك ورفعته إلى القيصر فحاز القبول في ٢٢ كانون الأول سنة ١٨٤٨. وفي السنة التالية سلّمت الكنيسة المشار إليها مع جميع موجوداتها وما يخصها من الأراضي المجاورة إلى الكرسي البطريركي الأنطاكي لبناء أمطوش بطريركي في موسكو.

واشترع المجمع الروسي المقدس أن تُستعمل إيرادات هذا الأمطوش لأجل تهذيب الإكليروس والشعب الأنطاكي.

البطاركة والبابا (١٨٤٨)

وتوفي غريغوريوس السادس عشر في حزيران السنة ١٨٤٦، فخلفه على السدة الرومانية بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨). وتحلّى البابا الجديد بالورع والتقوى منذ حادثته وبالوداعة واللفظ والمحبة، وأراد الكنيسة الجامعة واحدة مقدسة، فوجّه في السادس من آذار سنة ١٨٤٨ رسالة إلى البطاركة الأربعة يدعوهم فيها إلى الشركة مع السدة البطرسية، وبدأت رسالته هذه بالعبارة «على السدة البطرسية العليا» In suprema Petri فعرفت بها.^{٨٦} ولكن رومة جهلت الشرق إكليروساً وشعباً وتجاهلت الماضي، فمدّت يدها فارضة سلطتها فرضاً مدعية بصحة كل ما اشترعت بعد الانشقاق، معتبرة كل ما جرى في الكنائس الأرثوذكسية بعد الانشقاق خروجاً وضلالاً. وحضّت البطاركة على الاعتراف بالإيمان الكاثوليكي الصحيح والاحتفاظ بالليتورجية اليونانية ما عدا ما أدخل عليها بعد الانفصال مما لا يتفق والإيمان والوحدة الكاثوليكين. ثم أكدت استعدادها للاعتراف بجميع الدرجات المكتسبة والمساواة التامة بين الكاثوليكين الجدد والكاثوليكين القدماء.^{٨٧} وقد لا يختلف اثنان في حسن النية التي خالجت فؤاد بيوس التاسع، ولكن أسلوب الرسالة جعلها دعوة للدخول في الطاعة لا محاولة حبية للاعتراف بالخطأ الذي ارتكبه الطرفان وإظهار الندامة والتوبة والاشترك في جسد واحد ودم واحد.

واستلم البطاركة الدعوة الباباوية وأنعموا النظر فيها منفردين ومجتمعين وأشركوا المطارنة في ذلك، فلم يتمكنوا من الترفع بالمحبة، بل أعدوا دفاعاً وردوا الكيل كيلين،^{٨٨} ونبشوا الماضي وطعنوا في الادعاءات الباباوية وفي أعمال المرسلين اللاتين في الأوساط الأرثوذكسية، وأشاروا إلى الوحدة التي تربط الكنائس الأرثوذكسية وأكدوا أنهم يتعاونون

^{٨٦} Texte et Traduction, Irénikon, VI, 1929, 666-686

^{٨٧} Aubert, R., Le Pontificat de Pie IX, 21-22, 580; Musset, H., Hist. du Christianisme, III, 50.

^{٨٨} Texte dans Mansi, Vol, 40, Col. 377-418; Popescu, T., Enciclica Patriarhilor Ortodocsi deta 1848, (Bucarest, 1935) "résumé en français"

بالمحبة الأخوية مسترشدين بآراء البطريرك القسطنطيني معترفين بتقدمه وباستمراره بطريركاً في عاصمة الدولة، وفي هذا غمز من قناة البابا لا اعتراف بسلطة السلطان العثماني في أمور الدين والعقيدة كما يزعم بعض المتهورين.^{٨٩} وأكد البطارقة في الرد على البابا أن إيمانهم اكتمل بالمجامع المسكونية السبعة وهو بالتالي لا ينقص ولا يزيد ولا يتغير،^{٩٠} وأضافوا أنه لن يجرؤ بطريرك أو مجمع على تغيير الإيمان المقدس؛ لأن الشعب الأرثوذكسي هو الحامي.^{٩١}

^{٨٩} Pitzipios, L'Eglise Orientale, I, 140.

^{٩٠} Mansi, Vol. 40, Col. 411.

^{٩١} Ibid. Col. 407.

الفصل السادس

اليونان والروس

الروس والدين القويم

وقضت مصالح الروس بالاستيلاء على المضائق والانطلاق منها إلى المياه المتوسطة الدافئة، وعظّم الشعب الروسي الإيمان القويم وأجلّه وأراده منبع الساحة حصين الناحية، لا يناله مبشر بروتستانتتي، ولا يطمع فيه طامع روماني، فاهتم بشأن الرعايا الأرثوذكسيين العثمانيين ولم يدخر عنهم وسعًا.

وسادت السكينة بعد معاهدة كوجك قينارجة فترة من الزمن، ولكن الشعب الروسي ظل متشبّهًا بموقفه التقليدي. وفي السنة ١٧٨٣ نقض الروس العهد وضموا القرم بالرغم من تهادنهم مع الدولة، فخشيت فرنسا وإنكلترة توغل الروس في الأملاك العثمانية ونصحتا للباب العالي بالنزول عن القرم وكوبان، فتم ذلك بمقتضى معاهدة القسطنطينية في كانون الثاني سنة ١٧٨٤. وجدد الباب العالي اعترافه بحق روسية في التدخل في شئون الدولة الداخلية لحماية الرعايا الأرثوذكسيين. ثم خرج الروس في السنة ١٧٨٧ إلى القرم في موكب حافل، ولما وصلوا في طريقهم إلى خرسون كتبوا على أحد أبوابها: «الطريق إلى بيزنطة»؛ فثارت خواطر المسلمين واضطر الباب العالي إلى إعلان الحرب، فجاءت معاهدة ياسي في السنة ١٧٩٢ تثبت معاهدي قينارجة والقسطنطينية وتعترف لروسية بالقرم بكامله وباقي الأراضي العثمانية إلى نهر الدنيستر.

وجاء نابوليون بعد حملته على مصر وسيطرته على ألمانيا والنمسة يقوي تركية ليعتمد عليها ويستخدمها ضد روسية وإنكلترة. ولكن بنيان الدولة العثمانية كان قد أصبح منخورًا يهدد بالانهيار عند هبوب العاصفة. وانتصر نابوليون في موقعة فريدلند على روسية وبروسية فقابل القيصر في تيلسيت سنة ١٨٠٧ ووافق على تقسيم الدولة

العثمانية، ولكنه أصر على أن تبقى القسطنطينية وبلاد الروملي تابعتين للدولة العثمانية، فأصر القيصر على أخذ القسطنطينية، فلم تأتِ المفاوضات بنتيجة. وقامت الحرب بين روسية وتركيا في السنة ١٨٠٩، واستمرت ثلاث سنوات، فعجل القيصر بعقد معاهدة بخارست سنة ١٨١٢ استعداداً لهجوم نابوليون على روسية.

وانعقد مؤتمر فيينا في السنة ١٨١٥ فلم يتعرض للمسألة الشرقية؛ لأن الروس أصحاب النفوذ الأول في هذا المؤتمر خشوا أن يفقدوا حرية العمل المنفرد في الدولة العثمانية. فلما سقطت دولة نابوليون واستتب السلام في الغرب عاد الروس إلى مواصلة مشاريعهم في الشرق، وكانت أسباب النزاع بين الروس والأتراك متوافرة بفضل الحقوق التي كسبتها روسية على رعايا السلطان المسيحيين، فاعتبرت موسكو أن الواجب يقضي عليها بتحرير هؤلاء من حكم العثمانيين.

وهال الباب العالي أن يرى دول أوروبا تدخل في جلف مقدس وتظهر كأنها أسرة واحدة تعمل بتعاليم الأسفار والإنجيل، فخاف أن يكون المقصود من هذا الحلف إثارة حرب صليبية جديدة، فكتب يستفهم من حكومتي لندن وفيينا، فأجاباته بأن يستفهم من موسكو فطمأنته. ولكنها كانت قد أوت قره جورج زعيم الصرب سنة ١٨١٣، ثم ساعدت ميلوش زعيمهم الثاني سنة ١٨١٧، وأدخلت في خدمتها كثيرين من اليونانيين أمثال كابوديسترياس والأخوين أبسيلنتي، وساعدت اليونان على تأليف جمعيتهم السرية «هيتايرية فيليكي»، واتسعت دائرة هذه الجمعية حتى انضم إلى صفوفها في غضون ست سنوات (١٨١٤-١٨٢٠) كل يوناني ذي مكانة.

وأعلنت الثورة على الحكم العثماني في ياشي في السادس من آذار سنة ١٨٢١، وكان زعيمها الأول ألكسندروس إيبسيلنتي ضابطاً في الجيش الروسي. واندلعت نيران الثورة في المورة وبعض الجزر، فألقى الأتراك القبض على غريغوريوس الخامس البطريرك المسكوني وهو يقوم بصلوات عيد الفصح وجروهم إلى باب الكنيسة بثيابه الحبرية وشنقوه، فأتار هذا العمل حنق الشعب الروسي وأضرَمَ غيظه. فأخذت الحكومة الروسية تتحين الفرص لإعلان الحرب والتدخل في الثورة اليونانية. وحاولت بريطانيا تحاشي العمل الروسي المنفرد فكانت معاهدة في لندن أوجبت استقلال اليونان، فلم يُدعن الباب العالي، فجاءت موقعة نوارين البحرية وزحف الجيش الروسي عبر الدانوب، فأكره العثمانيين على الاعتراف باستقلال اليونان (١٨٢٨).

الروس وكنيسة أورشليم (١٨١١-١٨٤٤)

وقضى واجب حماية الدين القويم بتسهيل الحج وحماية الحجاج، وبدأت وفود الحجاج الروس تصل إلى المهد والقيامة في السنة ١٨١١، وتكاثروا سنة بعد سنة، فأنشأت الحكومة الروسية قنصلية لها في القدس في السنة ١٨١٩. وتوفي أثناسيوس الخامس البطريرك الأورشليمي في السنة ١٨٤٤ فذكرت سفارة روسية الباب العالي بالتقليد الأرثوذكسي، وأوجبت انتخاب خلفه في أورشليم نفسها لا في القسطنطينية، فرفعت أخوية القبر المقدس كيرلس الثاني إلى السدة الأورشليمية (١٨٤٥-١٨٧٢). وكانت هذه الأخوية قد قبلت في عداها راهباً روسياً اسمه أرسانيوس. وعُني هذا الراهب بشئون الحجاج الروس وشاهد ما كانوا يقاسونه من الضيق والتضييق في أثناء إقامتهم في القدس. فلما أوفدته الأخوية إلى روسية لجمع الإحسانات دعا لإنشاء مقر للحجاج الروس في القدس. وفي السنة ١٨٣٩ تبنى قسطنطين باسيلي رأي أرسانيوس وألحَّ على تنفيذه، وأشار بتخصيص دير الصليب المقدس أو بترميم دير القديسة تيودورة وإبراهيم وإيواء الحجاج فيهما، ولم يتخلَّ رهبان القبر عن هذين الديرين، ولكنهم تبرعوا بترميمهما على حساب الأخوية. وشاطر المجمع الروسي المقدس المجمعين الأنطاكي والأورشليمي مخاوفهما من اهتمام اللاتين بنصارى الشرق، فأوفد في الرابع العشرين من حزيران سنة ١٨٤٢ الأرشمندريت بورفير يوس أوسبنسكي إلى القدس لدرس الموقف عن كثب، وقام بوفيريوس بالمهمة الموكولة إليه خير قيام وعاد في السنة ١٨٤٤، فأشار على المجمع الروسي بوجوب التدخل الفعلي واقترح إرسال أسقف روسي إلى أورشليم وعدداً من الرهبان المثقفين للإقامة في المدينة المقدسة وإعطاء المثل الصالح في الحياة الرهبانية الحقة، ونقل الكتب الدينية وغيرها إلى العربية وتوزيعها في الأوساط الأرثوذكسية المحلية. فقبل المجمع الاقتراح وأمر بورفير يوس بتنفيذه، ولكنه لم يزوده بالأموال اللازمة.

نبذة روسية عن كنيسة أنطاكية (١٨٥٠)

وعطف الروس حكومة وشعباً على كنيسة أنطاكية منذ أيام البطريرك مكاريوس، وشجعوا العطاء بسخاء في عهد مثوديوس، كما سبق وأشرنا، وازداد اهتمامهم في النصف الأول من القرن الماضي بمصير الأرثوذكسيين والأرثوذكسية في أبرشيات أنطاكية فكثر البحث

وتعددت التقارير. وظهرت في السنة ١٨٥٠ نبذة باللغة الروسية عن كنيسة أنطاكية حوت معلومات شتى مفيدة.^١

البطريك

والبطريك الأنطاكي بموجب هذه النبذة يجب أن يكون من أبناء كنيسة أنطاكية، وأن يُنتخب انتخاباً من الشعب والإكليروس الأنطاكيين. وظل البطريك الأنطاكي في عرف صاحب النبذة يُنتخب انتخاباً من أبناء كنيسة أنطاكية منذ القرون الأولى حتى بداية القرن الثامن عشر حينما أصبح انتخابه بيد المجمع القسطنطيني نظراً لانتشار الكتلكة. ويتمتع البطريك الأنطاكي في رأي صاحب هذه النبذة بحق دعوة المجمع لتوطيد النظام في الكنيسة أو لإصلاح شئونها، وهو مسئول في جميع أعماله وفي إدارة الأوقاف أمام المجمع الأنطاكي. وللبطريك الحق في تأديب الرعايا الأرثوذكسيين بالسجن أو الإقصاء، ولكنه لا يجرؤ على ممارسة هذا الحق لخوفه من التحاق أبنائه بالكنايس التي اتحدت مع رومة أو من تدخل قناصل الدول. وله أن ينظر في الدعاوى الحقوقية بين أبناء رعيته برضا الطرفين، وللسلطات التركية أن تبطل هذه الأحكام عند اللزوم، وليس للباشاوات ومحاكمهم أن ينظروا في الدعاوى التي تُقام على البطريك، فالحق في ذلك يعود إلى الباب العالي. وللمجمع الأنطاكي حق النظر في كل مخالفة كنسية يرتكبها البطريك، وهو مسئول عن طاعة الأرثوذكسيين وخضوعهم للسلطات التركية، وقد نُحِجَ حريته أو تُنهي حياته إذا لجأ رعاياه إلى العنف والتمرد على هذه السلطات. وفي السنة ١٨٢٦ قاسى البطريك مثودىوس مرارة السجن لمناسبة الثورة اليونانية، وسُمح له بالخروج من السجن يوم عيد الفصح فقط ثم أُعيد إلى الحبس. وفي السنة ١٨٤٥ تعهّد مثودىوس أمام باشا دمشق بإخلاء رعاياه في حاصبيا إلى السكينة وعدم التعدي على الدروز، فلان الأرثوذكسيون لأمر البطريك وأطاعوه، ولكن الدروز ذبحوا مائتين وخمسين أرثوذكسياً وأهانوا النساء والأولاد. وللبطريك وكيل في القسطنطينية كالباشاوات، ولكن التماساته من الباب العالي تتم على يد البطريك القسطنطيني.

ومقر البطريك في دمشق ليس واسعاً، ولكنه ليس ضيقاً وهو قديم غير مرتب. ويقيم الأرشمندريت وكيل البطريك والكاتبان في غرف حقيرة ضيقة على السطح، وليس

^١ State of the Patriarchate of Antioch, Neale, J. M., op. cit., Appendix III, 213-229

للمسيحيين الأرثوذكسيين في دمشق سوى كنيسة واحدة هي كنيسة البطريركية. وقد خصصت إحدى حناياها لاسم القديس نقولاووس وجُدِّدت بالمال الذي جمعه مطران بعلبك في موسكو.

وكنيسة أنطاكية فقيرة ويعود فقرها إلى أسباب أربعة؛ أولها: أن البطريرك سيرافيم الذي دان بالكتلكة نقل إلى لبنان مالها المنقول، وأن أقرباء البطريرك كيرلس نهبوا البطريركية عند وفاة هذا البطريرك في السنة ١٧٢٠. والثاني: أن انقسامات هذه الكنيسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أثقلت كاهل البطريرك والأهلين بالديون. والثالث: أن النزاع بين الروم والروم الكاثوليك الذي دام قرنًا كاملًا أدى إلى خسائر جمة. والرابع: أن الحروب والفتن التي ميَّزت النصف الأول من هذا القرن في سورية أفقرت المسيحيين جدًّا.

الأبرشيات

وأبرشيات أنطاكية كانت ست عشرة في القرن الماضي، أما الآن فإنها عشر فقط، فقد ألحقت أبرشية أكيس أو أخالتكيس بالكنيسة، وأبرشيات هيليوبوليس وآمد وبصرى وتدمر وأضروم قد انمحقت تمامًا. ولقب أسقف هيليوبوليس أمسى شرفيًّا يحمله الأسقف الموجود في موسكو. واللقب أسقف بالميراس يطلق على رئيس دير القديس اسبريدون، وأسقف صور وصيدا وحده يحمل لقب متروبوليت، أما الباقيون فإنهم رؤساء أساقفة. والأسقف الأنطاكي ينور النفوس بكلام الله ويقدها بالأسرار ويضبطها بالقانون. وهو يشارك شعبه الفقر والذل والاضطهاد، ويزورهم جميعًا فقراء وأغنياء مرة في السنة ليعيش من التقدم، وبابه مفتوح دائمًا للإرشاد والقضاء والحماية والضيافة. والبطاركة وبعض الأساقفة يونانيون منذ بداية القرن الماضي، وقد خدموا الكنيسة خدمات جليلة، فإنهم حفظوا استقلالها عن رومة وقضوا على الانقسام وضبطوا الأديرة وحموها من عسف المشايخ وذويهم، وقد أوقفوا انحياز الأساقفة العرب إلى رومة وأسمعوا المتحدين مع رومة صوت الكنيسة كلها وصوت الأمة اليونانية.

الأديار

والأديار البطريركية خمسة؛ دير القديس جاورجيوس ودير سيدة البلمند ودير النبي إلياس ودير سيدة صيدنايا ودير القديسة تقلا. ودير القديس جاورجيوس في أبرشية عرقة

ولا نعرف مؤسسه ولا نعلم شيئاً عن تاريخ تأسيسه، وقد رممه البطريك أثناسيوس في السنة ١٧٠٠ ووسعه البطريك مثوديوس في السنتين ١٨٣٧ و١٨٣٨. ورهبانه سوريون وعددهم ثلاثون وليس لهم هيغومينس يدبر شئونهم، ولكن البطريك يعين من الرهبان من يقوم بهذه الوظيفة. وأوقاف الدير واسعة تشمل الزيتون والتوت والكرمة ويقوم على حرثها والاعتناء بها شركاء يتقاضون ربع دخلها. وسكان المنطقة على اختلاف ملهم يكرمون الدير ويزورونه تبرّكاً واحتراماً، وأشدهم تعلقاً به النصيرية؛ فإنهم يندرون أولادهم عند الولادة للقديس جاورجيوس شفيح الدير ويستفكونهم عن الزواج بهدايا يقدمونها للدير. ويخرج الرهبان مرة في السنة لِلْمَّ العطايا فيقدم النصيريون على العطاء حيثما كانوا. وأكرم ملوك الكرج هذا الدير فقدّموا له الأواني والحلل المقدسة، وسمّحوا لرهبانه بجمع التبرعات في بلاد الكرج مرة في كل ثلاث سنوات.

ثم يذكر كاتب هذه النبذة دير البلمند وعناية البطريك مثوديوس به وجد أثناسيوس الأب الراهب وسعيه لتجديد الدير وإنشاء مدرسة إكليريكية فيه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في فصل سابق. وينتقل صاحب النبذة إلى الشوير فيصف بإيجاز ديرها — دير النبي إلياس — فيقول: إنه صغير ذو كنيسة صغيرة أنيقة. ثم يذكر عناية هيغومينة الأب مكاريوس اليوناني وسعيه لتوسيع الدير بإنشاء غرف جديدة في طبقة العليا سنة ١٨٤٢-١٨٤٣، وبجعل عدد رهبانه ثمانية وعدد الخدم ثمانية أيضاً.

ويصف صاحبنا دير سيدة صيدنايا فيقول إن عدد غرفه ثمانون وإن عدد راهباته ثمانٍ وثلاثون. ثم يشيد بفضلهن وانقطاعهن وترفعهن عن أكل اللحوم واكتفائهن بالخبز والبرغل والزيت، وخضوعهن لراهبة ينتقيها البطريك لتدبير شئونهن، وقيام أمينين على إدارة الدير أحدهما كاهن من كهنة الدير والآخر علماني من دمشق أو صيدنايا. وبعد ذكر الأيقونة العجائبية والكنيسة يخلص إلى القول: «إن الدير جنيّة أزهار مكرّسة لفائقة الطهارة ومستشفّى لشفاء النفوس الخاطئة، وينبوع نعمة ومبعث نور للعداري». ودير مارِ تقلا معلولا «عش النسر» مهمول ليس فيه سوى هيغومينس وشماس ومبتدئين.

ثم ينتقل واضح هذه النبذة إلى أديار الأبرشيات فيذكر بإيجاز ديرَي القديس دومينيوس والنبي إلياس في أبرشية عرقة، وديورة مار يعقوب وسيدة الناطور وسيدة كفتين ومارِ متر ومارِ جرجس في أبرشية طرابلس، وأديار سيدة حماطورة وكفتون والنورية ومارِ جرجس الجرف ومارِ ميخائيل بقعاتا ومارِ جرجس سوق الغرب في أبرشية بيروت.

الكهنة

والكهنة خدام الرعية يُذكروننا بعهد الرسل، فإنهم ينتقون من الشعب انتقاء مواطنين متعلمين محترمين مزوجين متقدمين في السن ضابطين أمورهم البيئية. والكاهن السوري لا يعمل على رعيته فإنه مستقل في أموره المادية له بيته ورزقه وأبناء يقومون بحاجاته عند الكبر. وهو أول خدام الشعب يعمل وفق رغائبه ويضحي لأجل خلاصه عملاً بأوامر السيد، وهو لا يستكبر ولا يتجاوز حده خشية استبداله بغيره، ويختلف الشعب في أمر انتقاء الكاهن فينقسم على نفسه وعندئذٍ يتدخل الأسقف بلباقة ليعيد السلام والوئام. وليس لكنيسة أنطاكية طبقة من الوعاظ المتجولين، ففي القسطنطينية وإزمير وأورشليم وغيرها وعاظ متجولون يرشدون حيثما تدعو الحاجة بإذن الأسقف وامتنالاً لأمره. والكنائس الشرقية فرقت منذ القدم بين الكهنة المعلمين المرشدين والكهنة خدام الرعية؛ إذ ليس على هؤلاء إلا أن يتحلوا بالإيمان والصلاح، أما أولئك فيجب أن تكون لهم موهبة الفصاحة.

ولا بدّ من الاعتراف برزانة الكاهن الأنطاكي وتواضعه وترفعه عن الغرض ومحافظةه على القانون الكنسي واجتهاده في تعليم أولاد رعيته.

وبين الذين يعملون في حقل الرب ويقدمون المثال الصالح وكيل البطريرك الأرشمندريت أغاثانغلوس Agathangelos، فهو يوناني وديع في الأناضول يجيد التركية والعربية ويحسن تصريف الأعمال. ومنهم أثناسيوس هيغومينس دير البلمند، فهو وقور موهوب نشيط يجيد الوعظ ويحسن الإدارة. ومكاريوس هيغومينس دير النبي إلياس يوناني يحظى بعطف الأمير حيدر الحاكم في لبنان، وقد افتقد الأمير في محنته يوم نفي بأمر السلطات المصرية فأوى زوجة الأمير وأولاده. وهو غيور يستعطف الأمير لحماية الأرثوذكسيين من الظلم؛ ولذا تعلق هؤلاء به وزاد احترامهم له. وأشعيا هيغومينس دير حماطور يوناني أيضاً يجيد اللغة العربية ويفهم تقاليد الرعية وعاداتها، وهو فصيح اللسان سليم الاستنتاج. والأب يوسف (مهنا) خادم رعية دمشق أبو عائلة كبيرة تقي صبور متواضع، وقد لبي دعوة البطريرك فحث الأهلين على إرسال أولادهم إلى مدرسة الطائفة، وتولى تعليم الأسفار فيها واللغة العربية والمنطق. وقد أدى اهتمامه بالمدرسة إلى الانقطاع عن خدمة الرعية، فانقطع عنه وارد البطرشيل، وهبّ أولاده لمعونه المادية ليتمكن من تكريس وقته للمدرسة. والأب اسبيريدون خادم الرعية في طرابلس أحد تلامذة الأب يوسف، وهو طرابلسي رزين يدرس قواعد اللغة العربية في مدرسة طرابلس. والأب

المعرّف المرشد في أبرشية بيروت تقي ورع يعمل في المطبعة لإعداد المخطوطات وطبع الكتب الكنسية.

المدارس والتعليم

وقلما يخلف أبناء الكهنة آباءهم في الخدمة؛ ومن هنا خلو الكنيسة الأنطاكية من كهنة في مقتبل العمر. ورغب البطريرك مثنود يوس في جمع اثني عشر شاباً من مختلف الأبرشيات لإعدادهم للخدمة الروحية، ثم عدل لضيق المكان وقلة المورد. وليس للطائفة مدارس للعامة، فانتقاء الكهنة يتم بالانتخاب. وليس هنالك خدمة معينون (قندلفت) ولا كتّبة؛ وبالتالي فإن الضرورة تقضي بالجمع في مدارس الطائفة بين تعليم العامة والتعليم الكنسي. وجميع الطلبة يتعلمون الموسيقى الكنسية والتعليم المسيحي والتاريخ المقدس ليفهموا دينهم ويحسنوا التعبد في الكنيسة.

ويقترح صاحب النبذة إنشاء معهد للوعظ والتبشير يضم عدداً من الرهبان الصغار الذين زهدوا في العالم وكرّسوا حياتهم لله والكنيسة والعلم، فيعدهم ملحقاً للأرض ونوراً للعالم ويؤهلهم للوعظ ورئاسة الكهنوت، ثم يقول إن هذا كان رائد مدرسة البلمند، ويضيف أن للطائفة مدارس ثلاث في دمشق وبيروت وطرابلس، ويؤكد صاحبنا أن مثنود يوس البطريرك أنشأ مدرسة دمشق، وأن المال اللازم لإنشائها جاء من الإحسانات التي جمعت في روسية في السنتين ١٧٣٦ و ١٨٣٩ ومن تبرعات روسية أفرادية جمعها لهذه الغاية بطريرك أورشليم. أما التعليم في هذه المدرسة فإنه كان ابتدائياً وثانوياً وشمل الثانوي اللغات العربية والتركية واليونانية وشيئاً عن البيان والمنطق تلقاه بعض الطلبة على يد الأب يوسف مهنا.

ونشأت مدرسة بيروت في المطرانية وبتبرعات أبناء الطائفة ومساعدات أديار الأبرشية، ثم وسّعت في السنة ١٨٤١ بالمال الذي جاءها من الشعب الروسي لهذه الغاية، وبالمعونة التي قدمتها خزانة القبر المقدس. وبرنامج التعليم فيها هو برنامج مدرسة دمشق يضاف إليه اعتناء خصوصي باللغتين اليونانية والإيطالية وبالحساب والجغرافية. وبلغ عدد الطلبة في هذه المدرسة في السنة ١٨٤٣ المائتين.

وقامت مدرسة طرابلس في المطرانية أيضاً في بيت يخص القبر المقدس وبتبرعات المطران وصندوق الكنيسة، وشمل التعليم فيها الدورة الابتدائية وصفاً ثانوياً واحداً. وعلم معلّم علماني سبعة طلاب العلوم الابتدائية في بيت بالقرب من كنيسة القديس جاورجيوس في المينا وذلك على حساب الأهالي.

ومطبعة بيروت قديمة العهد تعطلت بعد أن قصف الروس بيروت، ثم عادت إلى العمل في السنة ١٨٤٢ بعد أن استوردت أمهات الحروف من فرنسة، وهي تطبع ألوف النسخ من المزامير وخدمة القديس.

الشعب والكنائس

والشعب الأرثوذكسي الأنطاكي متدين متزن معتدل نشيط، وحماة الإيمان فيه الأمهات والكهنة والتقاليد والعادات. وعلى الرغم من كثرة الضرائب وتنوع البلص وشدة الفقر فإن الشعب يؤدي بوجه طليق النورية للأساقفة والتبرعات للأديار والمدارس والكنائس. وتسمح السلطات العثمانية بترميم الكنائس وإعادة بنائها، ولكنها تطلب شهادة المسلمين بصحة ما يطلبه النصارى من حيث المكان الذي يقام فيه البناء وحجم هذا البناء. وإذا رغب الشعب في إنشاء كنيسة جديدة فإنهم يكرسون بيتاً من البيوت لهذه الغاية ويتعبدون فيه مدة من الزمن، ثم يسعون للحصول على شهادة من المسلمين تثبت قيام كنيسة في محل البيت المهدوم.

ولا تخلو مدينة أو قرية من كنيسة، وكنائس المدن أنيقة أما كنائس القرى فإنها فقيرة. وعدد الكنائس التي هدمتها الزلازل أو نهبتها أيدي الألبانيين ورعاع القوم في الحوادث الأخيرة في لبنان يربو على السبعين. ولا بدّ من ترميم هذه الكنائس وتأثيرها، والواجب يقضي بالتعاون مع إخواننا المسيحيين في سورية. وفرنسة والنمسة تمدان المواردية والمتحدين مع رومة بمبالغ كبيرة من المال، فهل ينسى الشعب الروسي السوريين المتحدين معه بالإيمان، وموسكو قلب روسية قد رحبت بالاستجداء الذي قام به متروبوليت هيليوبوليس؟

ويذكر صاحب هذه النبذة عدد الأرثوذكسيين في أبرشيات أنطاكية في السنة ١٨٥٠ فيجعلهم ١٤٠٠ في أبرشية أدنة، و٤٠٠٠ في أبرشية اللاذقية و٤١٦٠ في أبرشية حماة و٣٢٠٠ في أبرشية حمص و١٢٠٨٠ في أبرشية عرقة و٧٨٠٠ في أبرشية طرابلس، و٢٠٠٠ في أبرشية بيروت و٥٦٠٠ في أبرشية صور وصيدا و٢٨٠٠ في أبرشية سلفكية وهيليوبوليس و٤٨٠٠ في أنطاكية ودمشق وحوران و٥٠٠ في حلب، بحيث يصبح مجموعهم ٦٦٣٤٠ نسمة. ويذكر لهذه المناسبة أن عدد الروم الكاثوليكين كان آنئذٍ ٣٦٧٣٥، وعدد الموارنة ١٢٠٦٧٧.

أبرثيوس البطريك الأنطاكي (١٨٥٠-١٨٨٥)

وكان أثناسيوس الخامس البطريك الأورشليمي قد رقد بالرب في السنة ١٨٤٤ بعد رئاسة دامت سبعة عشر عامًا، وكان قد أقام في قيد حياته أبرثيوس مطران الطور ووكيله في القسطنطينية خليفة له في الكرسي الأورشليمي، فعُرف أبرثيوس بالذيادوخوس. وكان هذا الأمر — أي ولاية العهد — قد جرى بعض مرات في الكرسي الأورشليمي وانتهى بولاية عهد أبرثيوس، وحرص أبرثيوس في أثناء ولاية عهده على استقلال الكرسي الأورشليمي فصّدَّ تدخّلَ البطريك المسكوني في أمور أورشليم مرارًا. فلما قضى أثناسيوس في السنة ١٨٤٤ سعى البطريك المسكوني بأبرثيوس لدى السلطات العثمانية وأفسد الحالة، فأشار إلى تجوال أبرثيوس في روسية لجمع الحسنات واتهمه بالتحيز للروس وخدمة مصالحهم، فاعترض الباب العالي على ترشيح أبرثيوس فانتخب المجمع الأورشليمي كيرلس متروبوليت الله بطريركًا على أورشليم، فعرف بكيرلس الثاني (١٨٤٥-١٨٧٢). وعقب رقاد البطريك مثوديوس البطريك الأنطاكي انتدب الشعب الأنطاكي أبرثيوس متروبوليت بيروت بطريركًا لأنطاكية، والتمسوا بواسطة البطريكية القسطنطينية قبول ذلك الانتخاب لدى المراجع الإيجابية، ولكن أبرثيوس الذيادوخوس مطران الطور بذل الوسائل لتحويله هذه المنصة كما يستفاد من تحرير زخريا مطران معلولا إلى زخريا مطران عكار الصادر عن دير مار تقلا في أول تشرين الأول سنة ١٨٥٠. وفازت المساعي فنُصب أبرثيوس الذيادوخوس بطريركًا على أنطاكية في القسطنطينية، واستلم عصا الرعاية في كنيسة بطريركيته في التاسع من تشرين الأول سنة ١٨٥٠. ولم يشأ أبرثيوس بيروت مناصبته العداوة خوفًا من أن تجد الأيدي الأجنبية الغربية يدًا للفساد.^٢

أبرشيات أنطاكية

وجاء في السينتغماطيون Syntagmatيون الصادر عن البطريكية المسكونية سنة ١٨٥٥ أن المطارنة الخاضعين لكيريوس أبرثيوس الفائق الغبطة والفائق القداسة بطريك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق كانوا كما يلي: (١) متروبوليت حلب وأكسرخوس

^٢ Williams, G., Appendices to Neale's Patriarchate of Antioch, 190, 189, n. 1

سورية الأولى الفائق الشرف. (٢) متروبوليت أبيضانية وأكسرخوس سورية الثانية الفائق الشرف. (٣) متروبوليت اللاذقية وأكسرخوس الثيودورياسة الفائق الشرف. (٤) متروبوليت سلفكية أو معلولا وأكسرخوس سورية الفائق الشرف. (٥) متروبوليت آمد أو أيديسة وأكسرخوس ما بين النهرين الفائق الشرف. (٦) متروبوليت صور وصيدا وأكسرخوس فينيقية الساحلية الفائق الشرف. (٧) متروبوليت طرابلس وأكسرخوس فينيقية اللبنانية الفائق الشرف. (٨) متروبوليت بيروت وأكسرخوس فينيقية الساحلية الفائق الشرف. (٩) متروبوليت أدنة التي تدعى باياس وأكسرخوس قيلقية الأولى والثانية الفائق الشرف. (١٠) هيلوبوليس التي تدعى بعلبك وقد تضاءلت. (١١) بالميراس وقد اختفت. (١٢) أركاذية التي تدعى عرقة وعكار. (١٣) متروبوليت ثيودوسيوبوليس التي تدعى أرضروم وأكسرخوس أرمنية الكبرى الفائق الشرف. (١٤) متروبوليت أكيكوس الفائق الشرف.^٢

الخط الهمايوني ونظم الكنيسة (١٨٥٦)

وأحب نابوليون الثالث أن يستميل الإكليروس الكاثوليكي في فرنسة لتدعيم سلطته فيها، فداهن وتملق وأظهر اهتماماً كبيراً وغيره شديدة على مصالح الكنيسة اللاتينية في الشرق، فأثار قضية الأماكن المقدسة في أورشليم وتوابعها. فهب الروس للدفاع عن حقوق الروم الموروثة في هذه الأماكن نفسها. ولم ترض بريطانيا عن مطامع الروس في شرق المتوسط والبلقان، فاخترت لنفسها سياسة «المحافظة على سلامة الدولة العثمانية». وكانت حرب في القرم وكانت معاهدة في باريس سنة ١٨٥٦، وأوجبت هذه المعاهدة عدم التدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية، وعدم الانفراد في حل ما ينشأ من مشاكل بين الدولة المسيحية وبين السلطان. ورأى السلطان أن يُطمئن الدول المسيحية وشعوبها عن مصير رعاياه المسيحيين، فأصدر خطأً همايونياً أعلن فيه المساواة بين المسلمين والمسيحيين في السلطنة وألحقه بنص معاهدة باريز،^٤ فدخلت النصرانية في دور قانوني جديد في علاقاتها بالإسلام والمسلمين.

^٢ Mansi, Vol. 40, Col. 497-498.

^٤ Testa, I., Recueil des Traités de la Porte Ottomane avec les Puissances Etrangères, V. 132-137.

وكان البطريرك القسطنطيني بعد أن ينتخبه مطارنة كرسية ووجهاء شعبه ينال براءة سلطانية تؤيد حقوق الملة، وتمنع مداخلات الحكام والموظفين في المسائل الروحية والمالية وفي الاختلافات الواقعة بين الرؤساء الروحيين والشعب. وكان لدى البطريرك المنوه به مجلس مختلط مؤلف من إكليروس أبرشية القسطنطينية وبعض العلمانيين كوكيل البطريرك لدى الباب العالي وترجمان البطريركية وغيرهما. وكان هذا المجلس يهتم في جميع الشئون الكنيسة وغيرها مما يتعلق بملة الروم. وفي زمن البطريرك صموئيل في السنة ١٧٦٨ تألف مجمع من اثني عشر مطراناً من متقدمي مطارنة الكرسي القسطنطيني، وأُنيط به أمر العناية بالمسائل التي تتعلق بعموم الأبرشيات للكرسي القسطنطيني. وأما المجلس المختلط فتُركت له العناية والاهتمام بشئون القسطنطينية وحدها.

وبعد نشر الخط الهمايوني سنة ١٨٥٦ ألغي هذان المجلسان وتغيّرت طريقة الإدارة والنظام تغيراً كلياً، ففصلت سلطة الرؤساء الروحيين في إقامة محاكم لديهم، وتقرر تأليف محاكم نظامية مختلطة يحكم فيها بالسواء لجميع رعايا السلطان من أي مذهب أو ملة كانوا. وصدرت الإدارة السنية بأن يتألف قوميسيون عمومي من إكليروس وعلمايين لكل ملة يُنظر في شئونها بحسب الامتيازات الممنوحة قديماً للرؤساء الروحيين، ويحدد بموجب هذه الامتيازات حقوق الإكليروس وواجباتهم وفقاً للسنن الدينية ومقتضيات العصر، ويرتب كيفية انتخاب البطارقة والمطارنة ميبناً كل ذلك في لوائح تُعرض على الحكومة العثمانية في مدة محدودة لتصديقها.

وإجابة لمنطوق هذا الخط الهمايوني اجتمع في السنة ١٨٥٧ قوميسيون عمومي للملة الأرثوذكسية مؤلف من إكليروس وعلمايين من آباء وأبناء كنيسة القسطنطينية. وترتبت أمور الملة في هذا القوميسيون طبقاً للمبادئ الأساسية التي وُضعت في الخط الهمايوني. وبعد مجادلات شديدة ومذكرات طويلة أذاع هذا القوميسيون نظاماً للبطريركية القسطنطينية سنة ١٨٦٠ وأقرته الحكومة العثمانية وأدرجته في دستور الدولة كجزء من نظامها.^٥ وبعد مدة روجع في قوميسيون جديد وتنقّحت بعض المواد.

^٥ الدستور ترجمه من اللغة التركية نوفل نعمة الله نوفل بمراجعة وتدقيق خليل الخوري مدير مطبوعات ولاية سوريا (بيروت ١٣٠١)، ج ٢، ص ٨١٣-٨٤٨.

وتحدد في هذا النظام الجديد أن يصير انتخاب البطريرك القسطنطيني من جمعية مؤلفة من أعضاء المجمع ومن وجهاء الملة وكبار الموظفين لدى الحكومة، من أبناء الطائفة ومن وكلاء أرباب الصنائع والجرف ونواب أحياء القسطنطينية وممثلي الأبرشيات التابعة للكرسي القسطنطيني. وأعطى الحق لكل من مطارنة الأبرشيات أن يقدم في مدة أربعين يومًا إلى الهيئة المنتخبة اسم مرشح من مطارنة الكرسي القسطنطيني الذين يكونون قد خدموا في إحدى الأبرشيات القسطنطينية مدة لا تقل عن سبع سنوات، وكان على المطران أن يرسل ورقة الترشيح ضمن ظرف مختوم. وتقرر أيضًا طريقة لاشتراك الشعب في الترشيح، وتعين أن تقدم لائحة بأسماء المرشحين إلى الباب العالي الذي له أن يستثني من هذه اللائحة أسماء الأشخاص الذين لا يرى فيهم اللياقة بالنظر إلى أمور الملكية، ثم يرجع اللائحة إلى البطريركية في ظرف أربع وعشرين ساعة من إرسالها مستبقياً من الأسماء المدرجة فيها ما لا يقل عن الثلاثة. ومن هذه الأسماء الباقية في اللائحة بعد إرجاعها من الباب العالي ينتخب جميع أعضاء مجلس الانتخاب الإكليريكيين والعلمانيين ثلاثة بالأكثرية. وبُعِيدَ ذلك يجتمع أعضاء الهيئة المنتخبة الإكليريكيون فقط وينتخبون بعد الصلاة واستلهم الروح القدس في الكنيسة الكاتدرائية واحدًا من هؤلاء الثلاثة بطريركًا مسكونيًا، ثم يبلغ الباب العالي فتصدر إدارة سلطانية بقبوله.

وتألف بموجب هذا النظام الجديد مجمع من اثني عشر عضوًا يكون بمعية البطريرك ليشارك معه بالذاكرة في الشؤون الكنسية المحضة والحكم فيها وفي كل ما يتعلق بإدارة الكرسي. واشترك في عضوية هذا المجمع بالتناوب جميع مطارنة الكرسي القسطنطيني بنوع أن كل سنة يتجدد نصف أعضائه فيخدمون فيه سنتين.

وأقيم أيضًا مجلس مختلط مؤلف بمعرفة البطريرك من أربعة من أعضاء المجمع المقدس أقدمهم ينوب عن قداسته في رئاسة هذا المجلس ومن ثمانية أعضاء من وجهاء الله. وتخصص له النظر في المسائل المتفرعة عن الزيجات والطلاق والإرث ومالية الأديار البطريركية وسائر الأملاك والأوقاف في العاصمة وما يُحال إليه من شئون الملة الزمنية من الأبرشيات.

وفرض أن يشترك جميع أعضاء المجمع في العمل والإدارة وفي التوقيع مع البطريرك على جميع المذكرات والكتابات والأوراق المتعلقة بإدارة الكرسي. وفرض أن يلبث البطريرك في الكرسي مدى الحياة إلا إذا ظهرت منه حركة مخالفة للقوانين والنظامات، فيطلب المجلس المختلط فصلًا بأكثرية ثلثي المجمع والمجلس. وعندما تعرض مسائل مهمة يجمع البطريرك جمعية عمومية من هيئة أعضاء المجمع والمجلس للمذاكرة وتتوير ما يلزم.

وتحددت شروط ترشيح الأساقفة وانتخابهم، وكان أهمها السيرة الحسنة والخبرة في الإدارة، وإجادة اللغات اليونانية والتركية والسلافية، وإكمال العلوم الكنسية بعرف أساتذة كلية خالكي،^٦ وتقلدوا مناصبهم ببراءات سلطانية فزاد نفوذهم عند الولاة، وتوجب أن يكون لدى كل أسقف مجلس روعي من كهنة وقوميسيون زماني من المتقدمين والشيوخ يستشيرهم الأساقفة في الظروف المهمة. وينظرون في أمور المسيحيين ويشتركون مع الأساقفة في إدارة الشؤون المالية كما تسوغه القوانين المقدسة والنظامات العالية. وسنت كنيسة أورشليم قانوناً مماثلاً في السنة ١٨٧٣ فأقرته الحكومة العثمانية وأصبح ساري المفعول. أما كنيسة أنطاكية فإنها شرعت في وضع قانون لها في السنة ١٨٩٠، ولكنها لم تنجزه قبل السنة ١٨٩٨، وسيجيء الكلام عنه في حينه. وظل البطريرك الأنطاكي ومعظم الأساقفة ينالون براءات سلطانية تشبه براءات إخوتهم القسطنطينيين، وظلوا يعرضون أمورهم الهامة على الباب العالي بواسطة بطاركة القسطنطينية. وجاء في كتاب «الأرج الزاكي» لأمين ظاهر خير الله أن أيروثيوس استخف بالمجمع الأنطاكي المقدس وأشاح سمعاً عن نصائحه، ولكنه عندما عجز عن القيام بالأعمال في أواخر أيامه سمح بالقوميسيون الزمني فتدرجت الطائفة في مراقبي النجاح، وكثر في دمشق رجالها وازدهرت مدارسها.^٧

عودة إلى الأرثوذكسية (١٨٥٧-١٩٥٩)

وفي أوائل السنة ١٨٥٧ دعا إكليمنضدس بطريرك الروم الكاثوليك إلى الحساب الغربي، فقبل البعض بذلك وامتنع البعض الآخر. وكان على رأس الممتنعين أساقفة بيروت وزحلة وبعبلبك وصيدا والخوري يوحنا حبيب والخوري غبريال جبارة. واشتد الخلاف فعقد الأساقفة مجمعاً في عين الذوق فوق زحلة. وأمَّ الأساتنة الكاهنان يوحنا حبيب وغبريل جبارة، فوصلها في أيار السنة ١٨٥٩ واتصلا بمجمع البطاركة المنعقد فيها آنئذٍ وفافوا باسم أنصارهما في سورية ومصر، وعادا إلى حضن الكنيسة بقرار من مجمع البطاركة

^٦ «الدستور»، ترجمة نوفل نوفل، ج ٢، ص ٨١٨-٨٢٢.

^٧ «الأرج الزاكي في تهاني غبطة البطريرك الأنطاكي»، (بعيدا، ١٨٩٩)، ص ٤٢-٤٣.

سجّله باللغة العربية غفرائيل كاتب البطريرك أيروثيوس الذي أصبح فيما بعد متروبوليت بيروت.^٨

الحركة أو الطوشة (١٨٦٠)

وفي السنة ١٨٣٢ انتشر على المسيحيين رأيهم والتبس عليهم وجه الصواب فأرأوا في انتصار المصريين على الأتراك العثمانيين فوزًا لهم وانطلاقًا وتحريرًا، فنزعوا ملابس التحرز وأزالوا كلفة الاحتشام، فخرج بعض السفلة من نصارى دمشق «وزوّقوا جملاً وركّبوا عليه رجلاً مسلماً من أهالي حارة الخراب يُسمى حمزة الذكرة، وأعطوه مسودتي عرق، وأحضروا المشاعل وزوّقوها بالأزهار والفاكهة وعملوها على كسم الصلبان، ومشوا من طالع القبة في صفوف وأخذوا يغنون: «إبراهيم باشا يا منصور الله يلعن المقهور!» وكانوا كلما مشوا بعض خطوات يقفون، فيمسك حمزة المسودة بيده ويلوح بها ويصرخ: المسيح قام. فغضب المسلمون وتعدّوا».^٩

وخرج المصريون وعادوا إلى مصر (١٨٤١)، وجاء العثمانيون يرتبون الأموال الأميرية على لبنان كما كانت في عهد الشهابي الكبير، فقبل الدروز بها، أما الموارنة فإنهم عارضوا «وعملوا جمعيات متعددة حضرها الوجوه والمطارنة وحرروا عروضاً للدولة. ومن جملة ما حرروه أن مال الجزية يتوجّب دفعه على من يحتاج حماية الدولة، وأما هم لا يحتاجون إليها لا، بل إنهم يحمون جوارهم، وقدموه للوالي لكي يقدمه للدولة، فنصحهم أن يسترجعوه وراجعهم بذلك مرارًا فما زاده إلا غرورًا واستكبارًا فالتزم الوالي لتقديمه، وجأهروا بانتمائهم لدولة أجنبية فتغير باطن الدولة نحو النصارى».^{١٠}

وجاء الخط الهمايوني في السنة ١٨٥٦ يساوي النصارى بالمسلمين أمام القانون ويُبطل مفعول الشرع في أمور وأمور، وشرعت السلطات العثمانية بتطبيقه، فتساقط البعض في الغرور وأوغلوا وتجاوزوا الحد في الغواية. وقضت مصالح نابوليون الثالث الشخصية بالظهور بمظهر المدافع عن حقوق الكنيسة الكاثوليكية في الشرق. ولم يرضَ

^٨ «الأرج الزاكي»، لأمين ضاهر خير الله، ص ١٢١، و«مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين»، ص ١٢٨-١٣٠.

^٩ مذكرات تاريخية لأحد كتاب الحكومة الدمشقيين غني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا، ص ٦٧-٦٨.

^{١٠} «منتخبات من «الجواب على اقتراح الأقباب»، للدكتور ميخائيل مشاققة (بيروت ١٩٥٦)، ص ١٥٥.

الموارنة عن نظام القائمقاميتين ورأوا فيه إجحافاً بحقوق الطائفة في القائمقامية الدرزية وأحبوا العودة إلى حكومة لبنانية موحدة. واختلفوا في عودة الشهابيين إلى الحكم، فاقترح قنصل فرنسة في بيروت جعل الرئيس الروحي؛ أي البطريرك رئيساً زمنياً على غرار دولة الفاتيكان، فلاقى اقتراحه ترحيباً في نفس المطران طوبيا عون، وراح هذا يدعو إلى «كسر الجرة» في دير القمر على حد قول جرجس بك صفا. واتصل قنصل فرنسة بخطر بك العماد للغرض نفسه كما شهد بذلك الخوري إبراهيم كيوان أمام رشيد بك نخلة. ثم انكسرت الجرة في بيت مري كتف عين سعادة مقر المطران طوبيا عون. وحرص والي دمشق الدروز وسلحهم كما يشهد بذلك الدكتور ميخائيل مشاقفة، وتودد «وود» القنصل الإنكليزي إلى الدروز وشجعهم على التدخل في شئون النصارى في حاصبيا وحماية الأقلية منهم ضد رأي الأغلبية، كما سبق وأثبتنا، فكان ما كان من أمر الحركة في لبنان والطوشة في دمشق وبعض المدن الأخرى.

واتصل القس جورج وليامس الإنكليزي بالبطريرك أيرونيوس في أوائل آب السنة ١٨٦٥ فحلّ ضيفاً عليه في دير مار إلياس الشوير، وأطلع القس البطريرك على ما كان يقوم به القس يوحنا نيل من تفتيش عن المصادر لتاريخ كنيسة أنطاكية، ورجاه أن يسمح له بالاطلاع على محفوظات الكرسي الأنطاكي فقال البطريرك إنه لم يبقَ من هذه شيء بعد إحراق البطريركية في دمشق.^{١١}

وطالب أيروثيوس الحكومة العثمانية بالتعويض عما حلّ بالبطريركية والكنيسة المريمية من تخريب وتدمير في أثناء الطوشة، وقام إلى الآستانة بنفسه مرتين لهذه الغاية، فنال مبلغاً من المال أنفقه في ترميم المقر البطريركي وإعادة بناء الكنيسة المريمية كما تنطق بذلك الكتابة المنقوشة على جدار هذه الكنيسة.

التوراة والإنجيل (١٨٤٨-١٨٦٥)

ورغب المرسلون البروتستانتيون في نشر الكتاب المقدس على العرب أجمعين، فألفوا في السنة ١٨٤٧ لجنة لهذه الغاية برئاسة الدكتور عالي سميث وعضوية الدكتورين وليم طومس وكرنيليوس فاندريك. فاتصلت اللجنة بالمراجع العليا في الولايات المتحدة وحثتهم

^{١١} Neale, J. M., op., cit., XV

على الموافقة، راجية اجتذاب العرب المسلمين إلى مطالعة التوراة والإنجيل. وفي الحادي عشر من شباط سنة ١٨٤٨ فاوضت هذه اللجنة جمعية انتشار الكتاب المقدس الأميركي في أمر ترجمته إلى اللغة العربية، وقررت نقل المعلم بطرس البستاني من عية إلى بيروت ليكون تحت تصرف لجنة الترجمة، واستعانت بمواهب الشيخ نصيف اليازجي للغاية نفسها. فكان المعلم بطرس ينقل النص من العبرية أو اليونانية إلى العربية مستعيناً بالسريانية، ثم يحيل ما يعرّب إلى الشيخ نصيف لينقيه من كل صبغة أعجمية. وكان الدكتور عالي سميث يعيد النظر بالمقابلة بين النص العربي والأصل العبري أو اليوناني. وكانوا عند الانتهاء من هذه المراحل الثلاث يدفعون بما عزّبوا إلى المطبعة لصف الأحرف وإعداد ثلاثين نسخة توزع على الثقة في سورية ومصر وألمانيا، فتعاد إلى اللجنة منقحة حاملة عدداً من الملاحظات. وأشهر الثقة الألمان الذين اشتركوا في هذا العمل الأساتذة؛ فليشر Fletischer في ليبزيغ ورويديغر Rodiger في هالي وفلويغل Flugel في درزدن وبرناور Behrnaver في فيينة. ورأى البعض أن يأتي التعريب في أسلوب فصيح قرآني، ولكن معظم البروتستانت الوطنيين آثروا عبارة بسيطة صحيحة. وتم تعريب الإنجيل في التاسع من آذار سنة ١٨٦٠، والتوراة في العاشر من آذار سنة ١٨٦٥، وأشرف الشيخ يوسف الأسير إشرافاً نهائياً على اللغة والأسلوب.^{١٢}

وظهر الكتاب بثوبٍ قشيب ووزّع توزيعاً وأقبل المسيحيون على اقتنائه وقراءته، وتصفحه الآباء الكاثوليكيون فهاهم حذف بعض الأسفار وادعاء المرسلين أن ما حذفوا ليس من الكتاب الكريم، وأنهم ألفوا في موضوع الحذف كتباً طبعوها ووزعوها بين الناس. ولس الآباء الكاثوليكيون اختلافاً في الترجمة في بعض آيات الإنجيل والرسائل، فاعتبروا هذا الاختلاف تحريفاً لموافقة مذهب البروتستانت. فأوعز رئيس الرسالة اليسوعية إلى بعض رهبانه أن يكتب شيئاً في الرد على البروتستانت، فألف في ذلك كتابين عنوان الأول منهما: «كشف المغالطات السفسطية ضد بعض الأسفار الإلهية»، وهو يتضمن الأدلة على أن نسخة كتاب الله الكاثوليكية والأسفار القانونية الثانية صحيحة النص صادقة الرواية لم يدخل عليها دَخل ولا فساد، وعنوان الثاني: «كشف التلاعب والتحريف في مس بعض آيات الكتاب الشريف»، وفيه بيان الآيات التي «لعبت بها يد البروتستانت وحرفتها عن مواضعها» لموافقة مذهبهم.

^{١٢} Jessup. H., Fifty Three Years in Syria, I, 66-78.

وفي غضون ذلك ورد استحسان المجمع المقدس في رومة لَمَّا رُفِعَ إليه أمر ترجمة كتاب الله إلى اللغة العربية لمقاومة البروتستانت برعاية بطريرك اللاتين في أورشليم. فترجم الآباء الكتاب عن العبرانية واليونانية، وجمعوا إلى النص الأصلي النسخ القديمة التي في يد الكنيسة الكاثوليكية لمقابلته، وهي الترجمة اللاتينية والسريانية واليونانية المعروفة بالسبعينية. «غير أنه كان إذا عرض إشكال في بعض الآيات التي تتعلق بالإيمان أو الآداب يكون الاعتماد على ما في النسخة اللاتينية» التي اتخذها الآباء دستوراً يرجع إليه على الإطلاق؛ لأنها هي المعول عليها في الكنيسة الكاثوليكية وقد ثبتت في المجمع التريدينيني، فظهر الكتاب الشريف في السنوات ١٨٧٦-١٨٧٨ على غاية ما يُرام من الرونق وحسن الوقع.^{١٣} وساعد الآباء في تصحيح العبارة وتثقيفها الشيخ إبراهيم اليازجي؛ فجاءت مهذبة اللفظ محكمة النسخ متينة الحبك.^{١٤}

وكنيستنا الأرثوذكسية تميز الأسفار بعضها عن بعض فتدعو بعضها كتباً قانونية والباقي منها تدعوه كتباً غير داخلية في القانون أو كتباً كنسية أو كتب التلاوة. واللفظ اليوناني قانون Canon يدل على معانٍ كثيرة؛ منها المسطرة والجدول والقاعدة واللائحة، والمراد بكلمة قانون في كلامنا هذا هو الجدول أو مجموعة الكتب المقدسة التي تعتبرها الكنيسة موحى بها من الله وتتخذها قانوناً للحقيقة. والكتب القانونية هي التي نظمتها الكنيسة في قانون الأسفار المقدسة بحسب تعليم الرسل الإلهيين والآباء الطاهرين والمجامع المقدسة. وتعتبر الكنيسة هذه الكتب القانونية قانوناً للحقيقة لا يتغير كما قال القديس أنثاسيوس الكبير في رسالته في الأعياد:

إننا نقبل الكتب التي دخلت في القانون ونعتبرها إلهية؛ لأنها مصدر الخلاص، فليرو العطشان ظمأه بالكلمات التي فيها، وهي وحدها تركزز بتعليم حسن العبادة، ولا يزيدين أحد عليها شيئاً ولا يحذفن منها شيئاً.

والقانون الذي نعتبره جدولاً لأسفار العهد القديم يتضمن الأسفار الآتية: (١) كتاب التكوين. (٢) كتاب الخروج. (٣) كتاب اللاويين. (٤) كتاب العدد. (٥) تثنية الاشتراع. (٦) كتاب يشوع بن نون. (٧) كتاب القضاة وسفر راعوت كَذِيلٍ له. (٨) كتاب الملوك

^{١٣} «العهد العتيق»، المجلد الأول، مقدمة المترجمين، ص ٥-٨.

^{١٤} «آداب اللغة العربية في القرن التاسع عشر»، للأب لويس شيخو، ج ٢، ص ٥.

الأول والثاني كقسمين لكتاب واحد. (٩) كتابا الملوك الثالث والرابع. (١٠) كتاب الأيام الأول والثاني. (١١) كتاب عزرا الأول والثاني، وهذا دعاه اليونان كتاب نحميا. (١٢) كتاب إستير. (١٣) أيوب. (١٤) المزامير. (١٥) أمثال سليمان. (١٦) الجامعة له. (١٧) نشيد الإنشاد له أيضًا. (١٨) أشعيا النبي. (١٩) أرميا. (٢٠) حزقيال. (٢١) دانيال. (٢٢) الأنبياء الاثني عشر الصغار.

والقانون الذي نعتبره جدولاً لأسفار العهد الجديد يتضمن البشائر الأربع لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا، والرسائل الأربع عشرة لبولس، ورسالتين لبطرس وثلاثاً ليوحنا وواحدة ليعقوب وواحدة ليهوذا وكتابي أعمال الرسل والرؤيا.^{١٥}

وأما الكتب التي لم تدخل في القانون فعلى شهادة باسيليوس الكبير هي الأسفار التي فرض الآباء قراءتها على المسيحيين، ولا سيما على من أقبل إلى الديانة المسيحية حديثاً؛ ولذلك دُعيت أيضًا كتب التلاوة. وبما أنها كانت تتلى في الكنائس لتعليم الموعوظين والمؤمنين سميت كتباً كنسية. وقد قال فيها يوحنا الدمشقي في شرحه للإيمان الأرثوذكسي أنها تُدعى مفيدة ومعزية، ولكنها لم تُحصَ مع الكتب الأولى. وكنيستنا لا تزال حتى الآن تضمها إلى الأسفار القانونية في مجموعة واحدة جرياً على ما تلقته من المسيحيين القدماء الذين كانوا يضمون إليها كتباً مفيدة كرسائل إقليمس ورسالة هرماس، وكانوا يتلون من فصولها في الصلوات والاجتماعات. ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن الكتب القانونية جاءت بِوَحْيٍ من الله، وأما المتلوة فإنها مفيدة وجديرة بكل إكرام، وقد قبلتها كنيستنا لتهديب الأخلاق بآدابها النقية التي تنطبق على كلام الله والناموس الإلهي. والكتب التي لم تنتظم في قانون الكتاب المقدس محصورة في العهد العتيق، وهي: كتاب طوبيت وكتاب يهوديت وحكمة سليمان وحكمة يشوع بن سيراخ، وسفرا عزرا الثاني والثالث وأسفار المكابيين الثلاثة، ويضاف إلى منزلة هذه الكتب نُبذُ تتبع الكتب القانونية عادة؛ وهي صلاة منسى كذَّيل لكتاب الأيام الثاني، ونبذ من سفر إستير وتسبحة الفتية الثلاثة تُضم إلى الفصل الثالث من نبوة دانيال وتاريخ سوسنة العفيفة في الفصل الثالث عشر من تلك النبوة، وقصة بعل والتنين في الفصل الرابع عشر من تلك النبوة أيضًا.

^{١٥} تجد أيها القارئ غذاءً للنفس علاوة على الدليل التاريخي في مطالعة رسالة القديس باسيليوس الكبير في الأعياد وكتابة السينوبسيس: «هاك عدد وأسماء كتب العهد الجديد القانونية التي هي قاعدة إيماننا وعموده ومرساه، وقد كتبها رسل المسيح المختص ونشروها بعدما خاطبوه وتعلموا منه.»

وكتب التلاوة شيء وكتب الأبوكريفة شيء آخر، فهذه معزوة اختلاقاً إلى الرسل أو إلى تلامذتهم ولم تُحصَ في قانون الكتاب المقدس ولا كانت بمثابة كتب التلاوة، بل إن الكنيسة أعلنت أنها في عداد الكتب المزورة ونبذتها وحرمت مطالعتها.^{١٦}

وليس لدينا من النصوص المعاصرة ما يُفصل لنا موقف البطريرك أيروثيوس من النزاع الذي نشب بين المرسلين البروتستانتين والمرسلين اللاتينيين حول الكتاب المقدس في النصف الثاني من القرن الماضي، ولكننا لا نشك في أنه وقف موقفاً أرثوذكسياً.

وما رواه هنري جَسَب عن الأب غفرائيل جبارة من تقدير للترجمة البروتستانتية، وإعجاب بنشاط الدكتورين عالي سميث وكرنيليوس فانديك لا يعني في حد ذاته أن الأب غفرائيل جبارة وافق على ما جاء من اختلاف في ترجمة سفر الأعمال والرسائل بين النصوص الأرثوذكسية والكاثوليكية من الجهة الواحدة، وبين النصوص البروتستانتية من الجهة الأخرى،^{١٧} بل يجب ألا ننسى أن الأب مكاريوس الرملي هبَّ لطبع كتب التلاوة لدى ظهور الترجمة البروتستانتية، واجتهد في المقدمة أن يبرهن أن هذه الكتب هي مما يجب إلحاقه بالكتاب المقدس.

وكان مثل هذا قد جرى في أواسط القرن التاسع عشر في الأوساط الأرثوذكسية اليونانية، فإنه عندما حاول بعض المرسلين البروتستانتين أن ينشروا ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية الحديثة بدون أن يضموا إليها كتب التلاوة قام الكاهن قسطنطين أيكونوموس كنيسة القسطنطينية وألَّف كتاباً كبيراً لتفنيد مزاعم البروتستانت وطبعه سنة ١٨٤٩.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في السنة ١٨٦٧ التأم مؤتمر لامبث Lambeth الأول، فوجه الدكتور أرشيبولد كامبل رئيس أساقفة كانتربري نداءً إلى البطريرك المسكوني غريغوريوس السادس أظهر فيه رغبته في اتحاد الكنيستين الإنكليكانية والأرثوذكسية، فأجابه غريغوريوس جواباً لطيفاً، ولكنه لم يُخفِ الصعوبات التي اعترضت السبيل.

James, M. R., The Apocryphal New Testament, Being The Apocryphal Gospels, Acts, ^{١٦} Epistles, and Apocalypses, Oxford, 1953.

Jessup, H. op. cit., I, 78 ^{١٧}

أبروثيوس والقضية البلغارية (١٨٥٨-١٨٧٢)

وصدر الخط الهمايوني (١٨٥٦) وأمر الباب العالي بتنفيذه، واجتمع الإكليروس القسطنطيني والوجوه والأعيان للنظر في تطبيقه، فاجتهد مطارنة اليونان أن يكون أعضاء القوميسيون من اليونان فقط، وبالكد دخل فيه أربعة أعضاء من البلغار. والشعب البلغاري الخاضع للبطريركية المسكونية آنئذٍ ضاهى عدد اليونان أو زاد، ولما اجتمع القوميسيون وشرع في وضع النظام الجديد للملة الأرثوذكسية لم يعبأ بالتشكيكات التي عرضها نواب الأبرشيات البلغارية وحدد أن يصير انتداب المطارنة من البطريرك القسطنطيني ومجمعه ورتب انتخاب البطريرك على طريقة توافق شعور اليونانيين فقط. ولما كان من واجبات هذا القوميسيون أن ينظر في كيفية تسديد الديون البطريركية البالغة آنئذٍ ثمانية ملايين غرش حدد أن يشترك في تسديدها جميع الأرثوذكسيين الخاضعين للبطريرك القسطنطيني، فرفض نواب الولايات البلغارية أن يوافقوا على هذه القرارات وانسحبوا من القوميسيون واعترضوا على كيفية تأليفه، واهتمت الحكومة العثمانية لمطالب البلغاريين ولم توافق على النظام الجديد للملة الأرثوذكسية إلا بعد أن أضافت المادة الثامنة عشرة، وهذا نصها:

تصرف الدقة الكاملة وتبذل الملاحظات اللازمة من طرف مجمع المطارنة على التشكيكات المعروضة على البطريركخانة بالتتابع من طرف طائفة البلغار، بسبب الصلوات والمواعظ التي تُتلى في الكنائس، وبعد أن يجري التدقيق والتحقيق على هذه التشكيكات وبأية درجة هي يحصل السعي وتبذل الغيرة على أسباب ووسائل ما يلزم لتسدية الكيفية لأجل راحة المرقومين وتسكين خواطرهم.^{١٨}

وكان للبلغار في الآستانة كنيسة في بلطة يقيمون فيها فروضهم الدينية باللغة البلغارية، وكانوا قد أقاموا كنيسةً أخرى في السنة ١٨٥١ في الفنار، وكان في السنة ١٨٦٠ مُتَرَسِّسًا على كنيسة بلطة الأسقف أيلاريون، وفي قداس الفصح لم يذكر أيلاريون البطريرك ولم يقيم الدعاء له، بل ذكر كل أسقفية أرثوذكسية. ودُعي إلى المجمع بحضور البطاركة الإسكندري والأنطاكي والأورشليمي، فأجاب أن تصرفه يتفق ورغائب الشعب البلغاري.

^{١٨} «الدستور» تعريب نوفل نوفل، ج ٢، ص ٨٣١.

ثم دُعي ثانية إلى المجمع فلم يلبِ الطلب ولم يتأخر عن رسم كهنة وشمامسة بدون إذن البطريرك. ووافق البطريرك المسكوني كيرلس السابع (١٨٥٥-١٨٦٠) على انتقاء الأساقفة بدون تفريق بين يوناني وبلغاري، فلم يرَضَ البلغاريون بهذا الحل، وقاموا بتظاهرات في القسطنطينية وفي بعض المدن البلغارية، فاضطرب الباب العالي وتوجَّس خيفة، فقدَّم كيرلس البطريرك استعفاءه،^{١٩} ولم يعترف أيلاريون بالقائم مقام البطريركي، وبعد مدة اتحد معه أفكسندزيوس مطران دراخ وبائيسيوس مطران فيليبوبولي، وأعلنوا استقلال الكنيسة البلغارية ورئاسة أيلاريون.^{٢٠} ثم انضم إلى هؤلاء المطارنة أربعة مطارنة آخرين، وبدأ هؤلاء يتجولون بين صفوف الشعب البلغاري يحرضونه على نبذ الطاعة للبطريرك المسكوني. وكان وجهاء الشعب البلغاري في أثناء هذه الأمور قد عينوا لهم نواباً في الآستانة وفوضوهم النظر في هذه المسألة، فأخذوا يتداولون في إيجاد وسيلة لحسم الخلاف وقرروا ما يجب إجراؤه ليتم الاتفاق عليه، وحصروه في ثمانية بنود، وقدم للبطريركية المسكونية بواسطة الحكومة العثمانية. فجمع صفرونيوس البطريرك المسكوني (١٨٦٣-١٨٦٦) مجلساً عمومياً وأوضح أمامه سير الحوادث ومطالب البلغار، فرفض المجلس هذه المطالب، فأصرَّ البلغار، فاقترح البطريرك الجديد غريغوريوس السادس (١٨٦٧-١٨٧١) إقامة إكسرخسية بلغارية تشمل جميع الأبرشيات الواقعة بين جبال البلقان ونهر الدانوب، فلم يلقَ هذا الاقتراح قبولاً في الأوساط البلغارية ولم يرَضَ عنه البطاركة السابقون، وبينما كان البطريرك يؤمِّل أن توافق الحكومة العثمانية على اقتراحه وردت إليه تذكرة من وزير الخارجية في الثالث من تشرين الثاني سنة ١٨٦٨ مصحوبة بلاثنتين لأجل حسم الخلاف، وطلبت منه أن يقبل واحدة منهما أو أن يرى في طريقة أخرى تنطبق على رغائب الفريقين، فأجاب البطريرك في منتصف كانون الأول أن الطريقة المثلى لحسم الخلاف هي عقد مجمع مسكوني؛ لأن سلطته على بلغارية مستمدة في أساسها من قرارات المجمع المسكونية. وحرر البطريرك في الوقت نفسه إلى جميع الكنائس الأرثوذكسية المستقلة عارضاً أفكاره بشأن عقد مجمع مسكوني للنظر في القضية البلغارية، على أن الباب العالي لم يظهر ارتياحه إلى عقد هذا المجمع ولم يرخص

^{١٩} Young, G., Corps de Droit Ottoman, II, 58.

^{٢٠} Avril, A., La Serbie Chrétienne, 56, 59.

به، بل باشر حسم الخلاف وأصدر في ١١ آذار سنة ١٨٧٠ فرماناً سلطانياً اعترف فيه باستقلال كنيسة البلغار.^{٢١}

مجمع القسطنطينية (١٨٧١)

ولما صدر الفرمان السلطاني اضطر البطريرك المسكوني أن يلح بشأن عقد المجمع المسكوني، فرفضت الحكومة العثمانية طلبه، ولم تستحسن كنائس روسية ورومانية والصرب عقد المجمع، وحرضت البطريرك المسكوني على معاملة الشعب البلغاري بالرفق والتساهل والمحبة المسيحية، فاضطر البطريرك أن يستعفي، فانتخب المجمع خليفة له أنثيميوس السادس (١٨٧١-١٨٧٣)، فاحتج أنثيميوس على تأسيس الأكسرخوسية، فلم يلتفت البلغار إلى احتجاجه، فدعا للبطريرك المسكوني البطاركة في أواخر آب السنة ١٨٧٢ للنظر في المسألة القائمة، فلبى الدعوة صفرونيوس البطريرك الإسكندري وأيروثيوس البطريرك الأنطاكي وصفرونيوس رئيس أساقفة قبرص، واشترك في أعمال هذا المجمع ثلاثة من البطاركة القسطنطينيين المتنازلين وخمسة وعشرون من مطارنة الكرسي القسطنطيني، وفي السادس عشر من أيلول سنة ١٨٧١ أصدروا الحكم على السيد أنثيميوس أكسرخوس البلغار ومن تبعه أو تشرطن منه من الأساقفة والكهنة والشمامسة والشعب، واعتبرهم مشاقين وقطعوهم من الشركة مع الكنيسة الأرثوذكسية؛ لأنهم أحبوا العرق وفرقوا بين الأجناس البشرية وأثاروا الفتنة القومية.^{٢٢}

اجتماع بيروت (١٨٧٢)

وأعلنت البطريركية المسكونية حكم مجمع القسطنطينية إلى الكنائس الأرثوذكسية المستقلة التي لم تشارك في المجمع، فأظهرت هذه الكنائس عدم استحسانها، وكان كيرلس الثاني البطريرك الأورشليمي في الآستانة، ولكنه لم يشترك في أعمال المجمع ولم يقبل بحدوده، فاجتمع رهبان أخوية القبر وحكموا عليه بالعزل، وانتخبوا بروكوببوس متروبوليت غزة

^{٢١} Yonng, G., op. cit., II, 61.

^{٢٢} Jehag. F. van Steen, Sujets Ottomans Non-Musulmans, 157-158.

بطريركاً محله، فهاج الشعب الأرثوذكسي في فلسطين، وامتنع معظم رؤساء الكنائس المستقلة عن إرسال الرسائل السلامية.

وأظهر الشعب الأنطاكي كدره أيضاً، واجتمع المطارنة في بيروت في السنة ١٨٧٢ وأقاموا الحجة على بطريركهم لخروجه على الطريقة التي حددها له في رسالة بعثوا بها إليه يحرضونه فيها أن يكون رسول سلام بين اليونان والبلغار، وأن يجتهد في إقناع كنيسة القسطنطينية أن تسلك بالتساهل وطول الأناة وتتخذ التدابير السلمية المقتضية، حيث لا خطر في المذهب، وأن الانشقاق المقوت الناتج عن غيرة، لكن ليس بمعرفة حسب قول رسول الأمم الإلهي هو مذموم ومستوجب لعنة جميع الأجيال المسيحية السالفة، وأخيراً ألحوا عليه أن يسحب توقيعه من أعمال هذا المجمع.^{٢٣}

الجمعية الروسية الأرثوذكسية (١٨٨٢)

واضطر الأرشمندريت بورفير يوس أوسبنسكي أن يغادر فلسطين عند نشوب حرب القرم (١٨٥٣) ولم يعد إليها، ووضعت الحرب أوزارها (١٨٥٦) فعاد المؤمنون الروس إلى الاهتمام بشئون الأراضي المقدسة والحجاج، فأوفدوا في السنة ١٨٥٨ قوميسيوناً روسياً برئاسة كيرلس أسقف ميليتوبوليس، فتبنى القوميسيون برنامج بورفير يوس أوسبنسكي، وجاء الغراندوق قسطنطين في السنة ١٨٥٩ فوضع حجر الزاوية لكنيسة الثالث الأقدس «المسكوبية».

وفي ربيع السنة ١٨٨١ أمّ أورشليم الأمراء: سرجيوس وبولس وقسطنطين، حاجّين مصلين، فاستقبلهم البطريرك الأورشليمي أيروثيوس وكافة الإكليروس وحيّاهم الشعب بالهتاف «أورا»، فزاروا القبر المقدس وجثوا مصلين لنفوس الراقدين من آبائهم. ثم حيّاهم البطريرك باسم أم الكنائس وشكر الله والدمع يتساقط على خديه لاهتمام الشعب الروسي بالكنيسة المقدسة، وتعددت صلوات الأمراء عند المهد والقبر وبلّلت دموعهم الأرض، وأنشئوا تذكاراً لوالدهم في بستان الجثمانية هيكلاً لا تنقطع الصلاة فيه، ولدى عودتهم إلى روسية انتظم أصدقاء فلسطين فيها جمعية إمبراطورية أرثوذكسية برئاسة الأمين سرجيوس وعطف القيصر. واحتفل بتأسيس هذه الجمعية في الحادي والعشرين من أيار

^{٢٣} Williams, C., Neale J. M., op. cit., 190

سنة ١٨٨٢ في بطرسبرج في قصر الأمير الحاج نقولا الأكبر وبحضور الأميرة الزائرة الأولى ألكسندرة. وافتتح الاكتتاب لهذه الجمعية بلاتون متروبوليت كيف فقدّم ألف ريال، واتخذت الجمعية الناصرة مركزاً لأعمالها فعُنيّت بالتعليم الابتدائي والتطبيب المجاني.

أبروثيوس مخلص وفيّ

وقضى أبروثيوس خمسة وثلاثين عاماً في رعاية كنيسة الله في أنطاكية وسائر المشرق متحلياً بنقاوة الإيمان واستقامة الرأي وإعلاء منار الدين، مترفعاً عن كل ما يمت إلى العنصرية بصلة غير مفرّق بين يوناني وعربي. وكان ثاقب النظر عالي الهمة يحسن انتقاء الرجال لخدمة الكنيسة، فسام عدداً من كبار الرجال الذين خدموا كنيسة أنطاكية أفضل الخدمات. وليس من العلم أو العدل بشيء أن نقول مع بعض من كتب في جو الثورة على البطريرك اسبريدون أن البطارقة اليونانيين المتأخرين «لم يعملوا إلا على انحطاط الأرثوذكسية لا على تقويمها، فقد أهملوا تعليم الشعب مبادئ الإيمان الأرثوذكسي، ولم يكثرثوا لتهديب الأحداث ولم يعتنوا في إعداد وعاظ، ولم يصرفوا أقل عناية من أجل الأديار، بل قد أهملوا كل ما به خير الكرسي، وعند وفاتهم كانوا يتركون لأقاربهم أو للمشيدات الخيرية في أوطانهم كل ما كانوا يجمعونه من الأموال الوافرة من دخل الكرسي دون أن يترك البعض منهم شيئاً يستحق الذكر لمصلحة الكرسي، أو لعرض الأرثوذكسية فيه أو لعمل الخير في هذه البلاد.» نقول: ليس من العدل بشيء أن نطلق الكلام بهذا الشكل ونتناسى جهاد مثوديوس في سبيل الأرثوذكسية الحقّة، وسعيه لإعلاء شأن الكنيسة في جميع الأبرشيات الخاضعة له، وقد سبق لنا الكلام في أعماله ومبراته، ولم يكن أبروثيوس أقلّ منه فضلاً، وقد ذكرنا شيئاً من مآثره، ولنا فيما يأتي عن بعض المطارنة في عهده ما يثبت اهتمامه برعاية الكنيسة رعاية صالحة، ومساهمته في يقظة أرثوذكسية محلية مباركة انبعثت ثمارها بعد وفاته.

ملاطيوس اللاذقية

هو ميخائيل بن موسى الدوماني الدمشقي، ولد في دمشق في الثامن من تشرين الثاني سنة ١٨٣٧، ونشأ في دمشق والتحق بالمدرسة البطريركية فأخذ منها مبادئ اللغات العربية واليونانية والتركية والإيطالية. ومال بكل عواطفه إلى التوشّح بالأسكيم فانتقل إلى المدرسة

الإكليزيكية البطريركية التي كانت آنئذٍ بإدارة الخوري يوسف منها، فاستنفذ علومها. وقدم النذر في السنة ١٨٥٧، ونال من البطريرك أيروثيوس التفاتاً وعناية. فلما شُخص البطريرك إلى الآستانة في ١٨ أيلول سنة ١٨٥٨ كان ملاتيوس من خواص حاشيته، وهناك حلَّ في مقام جليل لدى البطارقة الأربعة الملتئمين وقتئذٍ للنظر في تنظيم الكنائس على ضوء الخط الهامبوني وحل المشكلة البلغارية وغير ذلك، فسامه البطريرك الأورشليمي كيرلس شماساً بإدارة أيروثيوس البطريرك الأنطاكي وذلك في أحد العنصرة في ٢٢ أيار سنة ١٨٦٠. وعاد ملاتيوس مع معلمه سنة ١٨٦١ إلى بيروت، وقدَّر أيروثيوس أتعاب ملاتيوس ومواهبه فرقاه في درجات الكهنوت، فلما ترمَّلت أبرشية اللاذقية سنة ١٨٧٥ رشَّحه لرعايتها، وألقى الله في رُوع المطارنة فانتخبوه وسيِّم مطراناً على اللاذقية في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٦٥.

واستلم ملاتيوس مهام الأبرشية في أوائل السنة ١٨٦٦ فجمع أوقاف الكنائس إلى قلم واحد وأسس مدرسة للذكور وخصص واردات الأوقاف للمدرسة، واعتنى بترميم الكنائس في اللاذقية وفي توابعها، فجدد سبع كنائس في الأبرشية. وفي السنة ١٨٦٩ منحه السلطان الوسام المجيدي والملك جورج وسام المخلص الذهبي، ولمزيد اهتمامه بنشر العلوم الدينية أرسل على نفقته الأرشمندريت جراسيموس مسرة والأسّاذ باسيل جبارة إلى مدرسة خالكي اللاهوتية فنالا شهادتها.^{٢٤}

ميصائيل صور وصيدا

هو ابن الخوري صموئيل استبريان أيكونوموس كرسي اللاذقية من عائلة شريفة عريقة بالكهنوت تتوارثه أباً عن جد، وكانت ولادته في أول تشرين الثاني سنة ١٨٢٨ في نفس مدينة اللاذقية، وتربَّى منذ الصغر على الآداب الأرثوذكسية، ونشأ على مبادئ الديانة القويمة يرضعها في بيت أبويه، ولما شب أرسله والده إلى دمشق حيث تلقى العلوم اللاهوتية على الخوري يوسف منها وغيره وباقي العلوم المدنية واللغتين التركية واليونانية وآداب اللغة العربية. وبعد أن أكمل دروسه أنفذه البطريرك أيروثيوس إلى دير البلمند ليدرس الرهبان العلوم اللاهوتية واللغتين التركية واليونانية. وذهب البطريرك إلى الآستانة

^{٢٤} «البطارقة الأنطاكيون»، لغطاس قندلفت، مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٤٢٤.

للنظر في قضية البلغار مع أخيه القسطنطيني، ولدى وصوله إليها أنفذ له أمرًا يطلبه ليكون في معيته مديرًا للقلم العربي. وبإيعاز من البطريرك رسمه صفرونيوس مطران طرابلس شماسًا إنجيليًا في أيار السنة ١٨٥٨. وعقب ذلك لبّى دعوة البطريرك وسافر حالاً إلى الآستانة، وبقي بمعيته سنتين في الآستانة، فأتقن دروسه فيها وعاد مع البطريرك إلى دمشق. وكان البطريرك يعتمد على درايته وحسن مداركه في قضاء الأمور المهمة. وفي السنة ١٨٦٢ أرسله إلى صور لأجل بناء كنيستها، فبقي في صور إلى أن أكمل بناء الكنيسة، وأرسله البطريرك إلى جهات مختلفة لفضّ المشاكل، فكان يتميز بالاستقامة وحسن السياسة. وفي أواخر السنة ١٨٦٥ سافر البطريرك إلى الآستانة فترك ميصائيل وكيلاً عنه في الكرسي البطريركي. وطال غياب البطريرك سنتين تقريباً فحل ميصائيل مشكلة كنيسة القديس يوحنا الدمشقي واسترجعها من يد الكاثوليك، وكان ذلك في أيام ولاية رشدي باشا الملقّب بشرواني زارده. وعاد البطريرك إلى دمشق في حوالي السنة ١٨٦٧ فأنفذ ميصائيل إلى مصر لقضاء بعض الأمور الطائفية، ثم توفّي جراسيموس (طراد) متروبوليت صور وصيدا، فانتخب المجمع بناء على ترشيح البطريرك أيروثيوس الأب ميصائيل مطراناً على صور وصيدا، وتمّت سيامته في المريمية في دمشق بحضور مثوديوس زحلة وصفرونيوس طرابلس وسيراقيم.

واتخذ ميصائيل حاصبيا مركزاً لسكناه فذبّ فيها عن الطائفة صامداً في وجه المرسلين البروتستانت، وكان كثير التجول في أنحاء الأبرشية، راذاً هجمات الطوائف الغربية، مصلحاً شئون الرعية، باذلاً بسخاء من وقته وماله.

غفرائيل بيروت

ولد في دمشق في الخامس من شباط سنة ١٨٢٥ من أبوين أرثوذكسين تقيين هما نعمة الله شاتيل وتقلا مخلع، وكانت والدته ابنة بروتوبسلي الكرسي الأنطاكي يوسف مخلع، وكان عمّاها مطرانين؛ أحدهما: أنناسيوس متروبوليت بيروت، والآخر: جراسميوس متروبوليت سلفكياس. وتلقّى «جورجي» علومه الابتدائية في المدرسة البطريركية فأكملها في التاسعة من عمره، وبعدها أخذ في نساخة الكتب. وفي العاشرة دخل المدرسة البطريركية التي أنشأها البطريرك مثوديوس وعيّن لها معلماً كاتبه يني بابا دوبولوس، فدرس جورجى فيها مبادئ اليونانية، ثم تجرّد لاقتباس صناعة نسج الحرير. وفي الرابعة عشرة أخذه والده لحل شغله في دمشق ليدرّبه بنفسه على أعماله وليتوكأ على همته في أشغاله

التجارية. وبعد نصف سنة تُوفي الوالد فأخذ جورجي على عاتقه القيام بحاجات بيت أبيه وتربية أشقائه القاصرين. ثم شب أخوه فضل الله فاعتمد عليه في دمشق وشخص إلى القدس الشريف تبركًا واستدراارًا للفائدة التجارية، وذهب منها إلى إزمير فالأستانة لمهام تجارية.

وتُوفي البطريرك مثنديوس وجورجي شاتيلًا في الأستانة، فحضر حفلة تنصيب أيروثيوس. ولما رأى وداعة البطريرك الجديد وتقواه ألقى الله في رُوعه أن يكرّس حياته لخدمته تعالى، فرغب إلى البطريرك الجديد بواسطة ديمتري شحاده أن يجعله راهبًا ليكون بمعيته. وكان البطريرك أيروثيوس في حاجة إلى رجل يعرف العربية واليونانية ليكون كاتبًا ومساعدًا له في أشغاله، فضم غفرائيل إلى معيته وألبسه ثوب الرهبنة في أمطوش القبر المقدس في الأستانة في التاسع من آذار سنة ١٨٥١ وسماه غفرائيل بدلًا من جورجي. وعاد أيروثيوس إلى دمشق وعاد شماسه معه ونفث الله في صدر غفرائيل أن يسعى لدى أيروثيوس بإنشاء مدرسة يتثقف بها فتيان وطيون في العلوم الروحية تهيؤًا للانتظام في سلك الإكليروس، فتكلل مسعاه بالنجاح وتألّف فريق من اثني عشر تلميذًا لهذه الغاية. واستقدم البطريرك معلمين للغة اليونانية أحدهما من إزمير والآخر من أثينا. وعين لمساعدة الخوري يوسف مهنا المعلم يوسف عربيلي والمعلم يوسف الدوماني. وفي أيلول السنة ١٨٥٨ قام البطريرك إلى الأستانة فرافقه غفرائيل ونال عطف البطاركة الأربعة لما فُطر عليه من الأمانة والتقوى والغيرة. وفي أيار السنة ١٨٦٠ احتفل بخدمة القداس في أمطوش القبر المقدس في الأستانة البطريركان الأنطاكي والأورشليمي، فسام أيروثيوس غفرائيل قسًا، وسام البطريرك الأورشليمي ملاتيوس (الدوماني) شماسًا. وفي عيد الميلاد من السنة نفسها رقى أيروثيوس الأب غفرائيل إلى رتبة أرشمندريت وعيّنه رئيسًا للأمطوش الأنطاكي في موسكو.

وقام غفرائيل من الأستانة إلى موسكو في الخامس من آب سنة ١٨٦١، وأقام هناك تسع سنوات، فجدد كنيسة الأمطوش وقام بمهامه بأمانة ونشاط وغيرة، فأحبه متروبوليت موسكو فيلاريثوس وشمله القيصر إسكندر الثاني بعطفه. واغتنم غفرائيل فرصة وجوده في روسية فأرسل كثيرًا من الأيقونات التي يزدان بها أيقونسطاس كاتدرائية دمشق وجدرانها، وأرسل أيضًا كثيرًا من الأواني.

وفي السابع والعشرين من أيلول سنة ١٨٦٩ اجتمع مطارنة الكرسي الأنطاكي في دير سيدة البلمند لانتخاب مطران لكرسي بيروت، فأجمع المطارنة على انتخاب غفرائيل،

فأجاب شاكرًا مستعفيًا. ثم تكرر الطلب من البطريرك والشعب فدافع دون القبول نحوًا من سنة ثم أحنى عنقه. وقام من موسكو إلى بيروت فوصلها في الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٨٧٠. وأمّ دمشق فسامه معلمه البطريرك أيروثيوس بمشاركة مثنديوس سلفكياس وميصائيل صور وصيدا وسيرافيم أيرينوبوليس. وتوسم الشعب خيرًا، وسكنت عواصف الاضطراب والانقسام التي استغرقت خمس سنوات كانت فيها الأبرشيات مترملة. وأول عمل قام به غفرائيل أنه دفع من ماله الخاص نحوًا من خمسة وسبعين ألف غرش كانت ديونًا على أديرة الأبرشية لا تكفي إيرادات الأديرة لدفع فائدتها، وأخذ يهتم في إصلاح أرزاق الأديرة وبنائاتها وإيجاد الرهبان فيها منفقًا من ماله الخاص حيثما يرى موارد الأديرة غير كافية.

وكان في أثناء إقامته في روسية قد ابتاع من ماله الخاص كثيرًا من الأواني الكنسية والملابس الكهنوتية الجديدة فوزّعها على كنائس الأبرشية. وتحقيقًا لرغائبه في تعليم الإكليروس أخذ على عهده مدرسة الطائفة الكبرى في بيروت، وأنفق عليها من ماله نحوًا من ألف ليرة عثمانية ذهبًا علاوة على إيراداتها، ودعا إليها تلامذة من أبرشيته لينظمهم فيما بعد في ملك الإكليروس، فنبت من هؤلاء غريغوريوس حداد الذي أصبح فيما بعد مطرانًا على طرابلس وبتريركا أنطاكيًا. ومنهم أيضًا مكاريوس صوايا، ثم أخرجت تلك المدرسة من يد غفرائيل، فأنشأ في السنة ١٨٨٣ مدرسة إكليريكية على حسابه الخاص واتخذ لها مقرًا في قلايته نفسها، وأنشأ أو جدّد ثلاثين كنيسة وسام سبعة وسبعين كاهنًا مُنفقًا على أكثرهم مدة تعلمهم في قلايته. ومهد السبيل لإنشاء الجمعيات الخيرية، فأسس في السنة ١٨٧٧ جمعية التعليم المسيحي لتتلو في أيام الأحاد على شبان الملة وأولادها فصولًا من الكتاب المقدس وتألّف الآباء ومواعظ وخطبًا دينية. وفي السنة التالية (١٨٧٨) نظم جمعية القديس جاورجيوس للعناية بالمرضى وتدريب المرضات، وأنشأ مستشفى القديس جاورجيوس. وفي السنة ١٨٨٠ أسس جمعية زهرة الإحسان لتعليم البنات وتدريب المرضات. وقامت في السنة ١٨٨٢ جمعية القديس بولس لمساعدة كنائس الأبرشية والاعتناء بالكهنة.

نيقوديموس عكار

هو نقولا بن قسطنطين زوغرا فوبولوس، وُلد في الآستانة سنة ١٨٣٩ وكان وحيدًا لوالديه ومحبوبًا منهما، وبعد ولادته ببضعة شهور توفيت والدته ثم والده فعاد يتيماً، فأخذه

إليهما عماه نقولا وباسيلي، فعاش عندهما نحوًا من سنتين. وفي السنة ١٨٥٤ سافر مع أحد أقربائه إلى القدس قاصدًا الانتظام في سلك الرهبنة، فمثل لدى البطريرك كيرلس فأعجبته نجابته ولوائح ذكائه ونشاطه، فدفعه إلى مطران الأردن ليكون مبتدئًا عنده، فأدخله هذا المطران في المدرسة الطائفية هناك، ولما أتم دروسه لبس الأسكيم. وفي السنة ١٨٦٦ غادر القدس ذاهبًا إلى وطنه مدينة القسطنطينية، فمر في ثغر بيروت ودفع إلى البطريرك الأنطاكي أيروثيوس تحارير كان قد سلمه إياها رهبان القدس يطلبون بها إلى البطريرك الأنطاكي أن يبقيه لديه ليتدرج في مراتب الكهنوت لما كانوا قد توسموا به من النشاط والاقتدار، فأمسكه البطريرك الأنطاكي لديه ولم يأذن له بالذهاب. وفي تلك السنة سيم خريسندوس (اليوناني) مطرانًا على عكار، فأرسل البطريرك نيقوذيموس ليكون شماسًا عنده. وفي السنة ١٨٦٧ سام خريسندوس الراهب نيقوذيموس شماسًا. وفي السنة ١٨٧٠ سامه كاهنًا وأرسله رئيسًا على دير القديس صوماتيوس في قضاء الحصن، فأقام هناك ست سنوات. وفي السنة ١٨٧٦ سيم أرشمندريًا ورئيسًا على دير مار إلياس الريح في قضاء صافيتا ووكيلًا عن المطران في جميع أشغال الأبرشية، وبقي هناك ثماني سنوات. وفي سنة ١٨٨٤ تُوّي خريسندوس فعهد أيروثيوس بالوكالة على الأبرشية إلى نيقوذيموس. ويلاحظ هنا أن بعض رجال الإكليروس اليوناني الذين تسلموا كراسي الأبرشيات الأنطاكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانوا مثال التقوى والصلاح، وأنهم خدموا الكنيسة الأنطاكية خدمة مسيحية كاملة؛ فالسيد بنيامين متروبوليت غفرائيل وسلفه كان من التقوى والغيرة والفضيلة على جانب عظيم، والسيد أيوانيكوس متروبوليت طرابلس كان متوشحًا بالعفاف متجملًا بأفضل الصفات المسيحية، وأجمعت الألسن على غيرة الأرشمندريت أغانجلوس يمين مثوديوس البطريرك، وعلى طهارته ورأفته وتكريس حياته لخير الكنيسة. وأجاد بعضهم اللغة العربية؛ فأنثيموس متروبوليت صيدا وضع قاموس مفردات بين اليونانية والعربية، ونيكفوروس متروبوليت حماة خطَّ المزامير بالعربية بيده، وباخوميوس متروبوليت صيدنايا استنسخ الإنجيل بالعربية.

أيروثيوس والعلوم الإكليريكية العالية

وترفع أيروثيوس عن النعرة الجنسية، فأوفد إلى مدرسة خالكي ومدارس روسية من الإكليريكيين الوطنيين من عاد إلى كنيسة أنطاكية ودافع عنها ورفع شأنها، فإنه علم

في السنة ١٨٧٠ بنجاح أسعد عطا الله في مدرسة سوق الغرب الأرثوذكسية التي كان يديرها المعلم يوسف عربي، وتثبت البطريرك من نبالة أسعد ودماثة أخلاقه فضمه إلى بطانته متوسماً به أن يكون من متقدمي خدمة الأسرار الإلهية، وشحه بالأسكيم وأخذه إلى دمشق وألحقه بالمدرسة البطريركية. وفي السنة ١٨٧١ سامه متوحداً وأطلق عليه اسم المجاهد العظيم عن الإيمان القويم أنثاسيوس. وفي السنة ١٨٧٢ رسمه شماساً إنجيلياً وصحبه معه إلى الآستانة، ثم أذن له في ١٨٧٩ أن يلتحق بمدرسة خالكي. وفي السنة ١٨٨٣ سامه أرشمندريتاً ورأسه على دير مار إلياس الشوير، فأقام فيه ثلاث سنوات متفانياً في الخدمة، وجمع لديه فريقاً من التلامذة أعدهم للرهبة ودرّسهم بنفسه اللغتين اليونانية والعربية والموسيقى والحساب والجغرافية؛ منهم الخوري موسى مرهج الشويري.

جراسيموس يارد (١٨٤٠-١٨٩٩)

وزار أيروثيوس البطريرك راشيا في السنة ١٨٥١ فتقدم منه الولد الأرثوذكسي جورجي أسبر يارد والتمس إلحاقه بمدرسة دمشق البطريركية فوعده بذلك، ولما عاد البطريرك إلى دمشق طلب جورجي إليه وأدخله إلى المدرسة، فدرس العربية واليونانية على الخوري يوسف مهنا. وفي السنة ١٨٥٨ انتدب معلماً لمدرسة حماة الأرثوذكسية فأظهر من براعة التعليم والتهديب ما خلّد له الذكر الحسن في تلك المدينة. ثم رأى البطريرك أن يزيد علم هذا الشاب النابغة فألبسه الأسكيم ودعاه جراسيموس وألحقه بخالكي سنة ١٨٦٠ ثم بامطوش موسكو سنة ١٨٦١. وفي السنة ١٨٦٢ التحق جراسيموس بمدرسة موسكو الإكليريكية فأتم دروسه القانونية فيها سنة ١٨٦٨، ومن ثم دخل كلية بطرس برج العليا فحاز قصب السبق على أقرانه وأكمل العلوم اللاهوتية والفلسفية وأتقن لغات أوروبية جديدة. وفي السنة ١٨٧٢ نال الشهادة الرسمية من الصنف الأعلى وسمي أستاذاً لمدرسة بسكوف، ثم اختير رئيساً لمدرسة ريغا في فنلاند، ثم أستاذاً لتاريخ الكنيسة الشرقية في مدرسة بطرسبرج، فبحث وصنف في مواضيع متعددة، وخص فوطيوس العظيم بشطر وافر من وقته فوضع كتاباً في هذا الموضوع لا يزال مرجعاً من أفضل المراجع

حتى يومنا هذا.^{٢٥} وكان يلقي المواعظ والخطب في الكنائس الروسية الكبرى والمحافل والأندية، فيحتشد ألوف مؤلفة لاستماع عظاته النفيسة وخطبه البليغة. وسنة ١٨٨٣ انتقاه نيقوذيموس البطريرك الأورشليمي واعظاً للكرسي الأورشليمي. وسنة ١٨٨٥ جاء بمعية هذا البطريرك إلى بيروت فارتقى منبر الكنيسة الكاتدرائية وفسّر خبر جريح اللصوص فأدهش الجمهور.

البطريرك جراسيموس (١٨٨٥-١٨٩١)

وأقام السيد أيروثيوس على المنصة البطريركية الأنطاكية خمسة وثلاثين عاماً، ثم دعاه الله إلى شيخوخة متناهية فخلاً مكانه في السنة ١٨٨٥. واجتمع الأساقفة للنظر فيمن يخلفه، وأراد بعض الوطنيين منهم أن يشركو الشعب في الانتخاب فنادبهم غفرائيل متروبوليت بيروت، فاحتكموا للناموس، وعند مطالعته لم يجدوا قانوناً يخول الشعب حقوق التدخل، فقال أغابايوس (صليبا) إنه وارد لأحد الشراح رأياً خصوصياً لا قانونياً كنسياً، وأحضر الحاشية المشار إليها؛ وعندئذٍ قرر المجمع أن يرشح من يريد كالسابق ثم يظهر اسم المرشحين لعقلاء الشعب (الأراخنة) ليظهروا ما لديهم حتى إذا لم يكن للشعب ما يقال يظل للمجمع ملء الحرية. ومن تلك السنة؛ أي سنة ١٨٨٥ سرت هذه العادة في الكنيسة الأنطاكية.^{٢٦}

وخشيت المقامات اليونانية الإكليريكية أمر ترشيح إكليريكي وطني فنقلوا إلى السلطات العثمانية أن الوطنيين يميلون إلى الروس، وتدخل يواكيم الرابع البطريرك المسكوني ونيقوذيموس البطريرك الأورشليمي في أمر الانتخاب فأيدت السلطات العثمانية ترشيح جراسيموس متروبوليت سكيثوبوليس (بيسان)، فتم انتخابه في ٢٩ أيار سنة ١٨٨٥، وصدرت البراءة السلطانية به بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق،^{٢٧} ويرى بافبيدس المؤرخ اليوناني أن الدعاة الروسيين كانوا منذ منتصف القرن التاسع عشر قد

^{٢٥} Gerazim Yared, Otzuivui Sovremennikov o sv, Fotiye Patr. konst., Khristyanskoe Cht-
enie, 1872-1873; Dvornik. F., The Photian Schism, 382, 430.

^{٢٦} حاشية أمين ضاهر خير الله على متن الصفحة ٥١ من كتابه «الأرج الزاكي»، والشيخ الجليل الذي لم يسمه إجلالاً هو في ترجيحنا غفرائيل متروبوليت بيروت.

^{٢٧} «الأرج الزاكي» أيضاً، ص ٤٥.

بدءوا يثيرون نكرة عنصرية علمانية في أبرشيات الكرسي الأنطاكي^{٢٨} ما فتئت أن ذرّت
قرنها في انتخاب جراسيموس ثم في إسقاط اسبيريدون:

باسم الإله المثلث الأقانيم غير المنقسم، قد التأمنا نحن مطارنة الكرسي الرسولي
الأنطاكي المقدس في كنيسة دمشق الكاتدرائية التي على اسم نياح سيدتنا والدة
الإله الدائمة البتولية مريم. وبناءً على ما تقرر في الجلسات الأولى من عمل
الانتخاب شرعنا في الانتداب قانونياً وفي وسطنا أيقونة ربنا وإلهنا ومخلصنا
يسوع المسيح الطاهرة؛ لإيجاد وانتخاب شخص فيه الأهلية واللياقة لضبط
زمام الكرسي الرسولي البطريركي الأنطاكي المقدس، والقيام بمهامه روحياً
وزمنياً، فوضعنا أولاً اسم قدس أخينا جراسيموس مطران بيسان الكلي الطهر
من مطارنة الكرسي الرسولي البطريركي الأورشليمي المقدس، وثانياً قدس
أخينا يوحنا مطران قيسارية الجزيل الوقار من مطارنة الكرسي الرسولي
القسطنطيني المقدس، وثالثاً اسم قدس أخينا فيلوتاوس مطران إزمير الجزيل
طهره من مطارنة الكرسي القسطنطيني أيضاً، الذين أدرجت أسماؤهم في هذا
السجل البطريركي الشريف؛ لبيان دائم وإيضاح ثابت. وبعد التضرع والابتهاال
إلى إلهنا العظيم واستمداد روحه القدوس وإعطائنا انتدابنا السري القانون وقع
الانتخاب بصوت عمومي على قدس جراسيموس مطران بيسان الكلي الطهر،
فقدمنا لله الضابط الكل الشكر القلبي، وبإدرا بتقديم التلغراف الإشعاري
لسيادة المنتخب الموما إليه مَمْضِياً من جميعنا. وقد صار هذا الاجتماع يوم
الأربعاء الواقع في ٢٩ شهر أيار سنة ١٨٨٥ مسيحية في دمشق الشام المحمية.
التواقيع: ملاتيوس مطران اللاذقية، سيرا فيم مطران أيرينوبوليس ونائب
بائيسيوس مطران أرضروم، ميصائيل مطران صور وصيدا، غفرائيل مطران
بيروت ولبنان ونائب صفرونيوس مطران طرابلس، أغابايوس مطران أدايسيس،
جرمانوس مطران ترسييس واطنة، خريسانتوس مطران عكار، مثوديوس
مطران زحلة ونائب جرمانوس مطران حماة.^{٢٩}

^{٢٨} Bapheidès, Ecc. Ist., III, 273.

^{٢٩} عن السجل البطريركي بالتاريخ بذيله.

وأبصر جراسيموس النور في استروس في شبه جزيرة المورة في الثامن عشر من آب سنة ١٨٣٩، ونشأ نحيف الجسم حاد الذكاء رقيق المعاشرة لطيفاً لبقاً، وتحلى بالعلوم الإكليريكية العالية وأجاد اليونانية والتركية وتكلم العربية، وأحبه مطارنة الكرسي الأنطاكي وتعاونوا معه، وأحب هو كنيسة أنطاكية وتمنى لها النجاح والرقى. وتعاون مع الشعب فنظم مجلساً معلماً بطريركياً وسام عدداً من المطارنة الأكفاء وأحب الأرشمندريت أثناسيوس عطا الله ورغب إليه أن يقيم لديه ليكون يده اليمنى وأذنه المستمعة أصوات الرعية، وعينه الباصرة حاجات الشعب، وأبقاه عنده خمسة أشهر. غير أن لاجاة الشعب في حمص وتوابعها وتعلقهم بأثناسيوس جعل البطريرك يرشحه لكرسي حمص. وسامه مطراناً عليها في ٢٥ آذار سنة ١٨٨٦، وفي هذه السنة نفسها رقد بالرب السيد جرمانوس (زيوت) متروبوليت حماة، فرفع المؤمنون الحمويون عريضة إلى البطريرك يلتمسون بها الأرشمندريت غريغوريوس جبارة راعياً لهم، وكان جراسيموس يتجول في تفقد شئون الأبرشيات فلما وصل إلى طرابلس اجتمع لديه عدد من المطارنة للذاكرة، فجرى ترشيح غريغوريوس وأخذت أصوات الحاضرين والغائبين كالسيد نيقوذيموس مطران ديار بكر، فأصابت الدعوة الإلهية غريغوريوس فشخص البطريرك إلى اللاذقية وسامه مطراناً على حماة وتوابعها في شباط السنة ١٨٨٧. وفي السنة ١٨٨٩ توفي بيسوع خريسندوس (صليبا) متروبوليت عكار ومتوديوس (صليبا) متروبوليت سلفكياس. وكان نيقوذيموس محبوباً جداً من الشعب في عكار، وكان قد قضى خمس سنين يقاسي أمر العذاب في كرسي ديار بكر فانتخبه المجمع مطراناً على عكار، وانتخب المجمع جراسيموس (يارد) واعظ الكرسي الأورشليمي مطراناً على سلفكياس، فسامه البطريرك بالاشتراك مع أغابوس (صليبا) متروبوليت أدايسيس وسيرافيم متروبوليت أيرينوبوليس، وذلك في الكنيسة المريمية. وفي يوم عيد البشارة سنة ١٨٨٩، وكان الشقاق قد ثار في طرابلس في آخر أيام راعيها صفرونيوس (نجار)، فلما مضى مستقبلاً وجه البقاء ثارت عواصف المخاصمات، فانتقى البطريرك جراسيموس الشمس غريغوريوس حداد قائداً لسفينة طرابلس في أيام محنتها، فأحسن الانتقاء للمرة الخامسة. وكان غريغوريوس لا يزال في بيروت فسامه غفرائيل قساً ونال نعمة رئاسة الكهنوت في العاشر من أيار سنة ١٨٩٠ من يد البطريرك جراسيموس بمشاركة السيدين سيرافيم ونيقوذيموس، وهل يقال فيمن ينتدب هؤلاء الرجال الكبار إلى الكراسي الشاغرة إنه غير مكترث للمسئولية الملقاة على عاتقه؟! وهل يقال إنه أثر اليونانيين على الوطنيين بعد هذا الانتقاء؟

الأنوار في الأسرار

ومن مآثر هذا البطريرك اليوناني أنه اعترف بعلم الشماس جراسيموس مسرة وفضله، فشجعه على أداء رسالته ومنحه لقب «واعظ الكرسي الأنطاكي». وكان ملاتيوس متروبوليت اللاذقية قد استنشق في جرجي ابن اسبريدون مسرة في اللاذقية نسيم أمل فدعاه لتكريس النفس في خدمة الله، فلبى وترك بيت أبيه في صيف السنة ١٨٧٣ وتوشح بالأسكيم باسم جراسيموس يوم عيد الميلاد من السنة نفسها. ثم توسم ملاتيوس في هذا الراهب مستقبلاً جيداً فأرسله في صيف السنة ١٨٧٥ إلى القسطنطينية ليلتحق بمدرسة خالكي منيظاً بالعناية فيه الشيخ ديمتري شحاده نزيل القسطنطينية آنئذٍ، وعاد جراسيموس إلى اللاذقية في صيف السنة ١٨٧٩ فسامه معلمه شماساً إنجيلياً يوم عيد الرب، ثم دتريفوناً لكرسي اللاذقية، وعاد الشماس جراسيموس إلى خالكي وأتم دروسه فيها ونال شهادتها في السنة ١٨٨٢ ممضية من رئيس المدرسة ومصدقة من البطريرك المسكوني يواكيم الثالث، وهي أول دبلومة نالها سوري من تلك المدرسة، ثم عاد إلى اللاذقية وأقام في خدمة كنيستها سنتين فدعاه أيروثيوس السعيد الذكر ليستلم إدارة القلم اليوناني في البطريركية، وجاء البطريرك جراسيموس فسماه في أحد العنصرة سنة ١٨٨٦ في حفلة حافلة في الكاتدرائية الميرمية واعظ الكرسي الأنطاكي.^{٢٠}

ولما كانت الكتب الدينية الغربية عن روح الكنيسة الأرثوذكسية قد تكاثرت في البلاد العثمانية واللغة العربية وكانت أيادي العلماء تتداولها ويقرؤها الفقهاء والبسطاء، ولما كانت الكتب الأرثوذكسية الموضحة صحيح التعليم والمفندة ما بعد عن الرأي القويم قليلة العدد؛ حيث وجدت لانحصار ما وجد منها خطأ ببعض أفراد أو لا وجود لها مطلقاً في أكثر الأنحاء والبلاد. ولما كانت الخدمة في نشر الحقائق الدينية القويمة فرضاً واجباً ومعاوضة أبناء الكنيسة الأرثوذكسية ديناً لازماً؛^{٢١} هب هذا المعلم في اللاهوت لخدمة كنيسة أنطاكية بالتأليف والتعريب لنشر تعليم الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية، فنشر أولاً رسالة أفجانيوس البلغاري المعروفة بالبينات الجليلة، وأتبعها بكتاب جليل عنوانه «الأنوار في الأسرار» وطبعه بالمطبعة اللبنانية في بيروت سنة ١٨٨٧.

^{٢٠} «روض المسرة»، لإبراهيم الأسود، ص ٨-١٠.

^{٢١} مقدمة «الأنوار في الأسرار»، لجراسيموس مسرة، ص ٤-٥.

وقال جراسيموس مسرة في تقديم هذا الكتاب: إنه لما كانت أسرار الكنيسة السبعة موضوع اختلافات متعددة بين الكنيسة المقدسة الجامعة وبين سواها من الكنائس، رأى أن يجعل مقدمة خدمته الدينية كتابًا في الأسرار السبعة، يبحث فيها إجمالاً وفي كل منها أفراداً نشأتها وتاريخها وما أحدث فيها وابتدع، فطالع وقابل ما كتبه في ذلك أشهر المؤلفين الكنائسيين من شرقيين وغربيين أرثوذكسيين وغير أرثوذكسيين، وعد منهم ما عدا القدماء أرميا بطريرك القسطنطينية وغفرائيل مطران فيلادلفية وسمعان التسالونيكي ويوحنا الدمشقي ومكاريوس مطران موسكو، واعتراف الرأي القويم ورسالة البطارقة والتعليم المسيحي وكتب الخدمة، فجاء كتابًا مستوفي الشروط وافيًا بالمقصود.

وفي السنة ١٨٨٨ دعاه بطريرك الإسكندرية لخدمة الكنيسة السورية في الإسكندرية فسامه البطريرك الأنطاكي قسًا، ثم أرشمندريتًا في ٢١ تشرين الثاني من هذه السنة. وفي آذار السنة ١٨٨٩ جعله البطريرك صفرونيوس الإسكندري معلمًا للاعتراف في كنيسة القديس مرقس، وفي حزيران السنة التالية انتخبه المجمع الأنطاكي مطرانًا لحلب، ولكنه لم يلبّ الدعوة «لاعتبارت صحية».

استقالة البطريرك جراسيموس (١٨٩١)

واستقال نيقوذيموس البطريرك الأورشليمي في السنة ١٨٩٠ وارتحل إلى القسطنطينية وأقام بها، فلبث الكرسي شاغراً مدةً إلى أن اجتمع السينودس بعد انقضاء الأعياد الميلادية، وبينما كان الناس في حذر من أمر المنتخب شاع الخبر وتناقلته الجرائد أن لجراسيموس البطريرك الأنطاكي حظوة في السنودس الأورشليمي. وفي منتصف آذار السنة ١٨٩١ وردت برقية على جراسيموس من سينودس أورشليم تبيّنه بانتخابه بطريركًا على أم الكنائس، فأمر البطريرك باجتماع قوميسيون الملة، وانتدب بعض الأعيان أيضًا. وحضر الاجتماع أغابوس متروبوليت أدايسيس وسيرافيم متروبوليت أيرينوبوليس وجمهور الكهنة، فأبلغهم البطريرك خبر انتخابه، وطلب إليهم المذاكرة فيما يرونه موافقًا لمصلحة الكرسي أولاً ولمصلحة الكرسي الأورشليمي ثانيًا. فأجمع الحضور على عدم الموافقة واستعطفوا البطريرك إلى رفض الانتخاب. وفي الغد أبرق البطريرك إلى المجمع الأورشليمي يشكر ويقول إن قبوله موقوف على رضا الكنيسة الأنطاكية وموافقة الحكومة. وفي اليوم التالي عاد القوميسيون إلى الاجتماع وقرر الإبراق إلى المطارنة بعدم

الموافقة وبوجوب الالتماس إلى من يلزم بهذا المعنى. وشفع القوميسيون هذه البرقية برسالة عمومية أفصح بها وأوضح:

غب المصافحة الأخوية واستمداد الدعاء نعرض. قد ورد تلغراف منا لسندوس الروحي بأورشليم المقدسة لغبطة بطيركنا الكلي القداسة يعلن انتخاب غبطته بطيركًا للكرسي الأورشليمي المقدس. وبما أن انتقال غبطته من الكرسي الأنطاكي في الأيام الحاضرة والقيام بانتخاب خلف لغبطته موجب لأتعب كلية تذهب براحة الكرسي الأنطاكي عمومًا والشعب الأرثوذكسي في دمشق خصوصًا، وبما أن غبطته حين بلغه تقديم أسماء المرشحين للبطريركية الأورشليمية ووجود اسم غبطته بين أسماء المرشحين حرّر لمقام الصدارة العظمى يبين لزوم وجوده في الكرسي الأنطاكي، ويستدعي الالتفات لما ينشأ عن انتقاله. وبعد ورود تلغراف الانتخاب لغبطته من السينودس الأورشليمي المقدس حرّر أن قبوله موقوف على رضا وقبول الحكومة السنية والكرسي الأنطاكي المقدس، وبما أن تصرف غبطة بطيركنا المشار إليه بصورة موافقة للرضا العالي قد أوجب التفات ورضا الحكومة السنية حتى الآن ونحن في راحة نرغب بقاءها، تقرر في اجتماع عُقد بتاريخه تقديم عريضة للحكومة السنية نبين فيها ما ذكر ونطلب إبقاء غبطته على الكرسي الأنطاكي ومخابرة سيادتكم بهذا الشأن. وعليه بادرنا لتقديم تحريرنا هذا نبين فيه رغبتنا في بقاء غبطة بطيركنا قيامًا بواجب الاحترام المفروض، ومحافظة على الراحة ومنعًا للآتعب التي يُخشى وقوعها على فرض اضطراب الكرسي الأنطاكي المقدس للقيام بأعباء انتخاب خلف. فنرجو من سيادتكم أن توافقوا المركز في حاساته هذه وإجراء المخابرات اللازمة بسرعة حذرًا من فوات الوقت. في ٢ مارت (شرقي) سنة ١٨٩١، أخوكم بالمسيح سيرايم مطران أيرينوبوليس، أغابوس مطران أداسيس، الأرشمندريت أثناسيوس أبو شعر الخوري، عبد الله القصعة الخوري، ميخائيل كركر أولادكم يوسف طنوس، عبده عجمي، جرجي رومية، مخايل صيدح، جبرائيل أسبر أمين أبو شعر، جبرائيل شامية، سمعان لاذقاني، نعمان أبو شعر، جبران لويس، ميخائيل كليلة.

ورفع القوميسيون عريضة موقعة من المطارنة والأراخنة إلى والي سورية يظهرون بها امتنانهم من البطريرك جراسيموس، وأنهم في راحة يرغبون استمرارها، وأن انتقال

البطريك للكرسي الأورشليمي مقيد باتفاق الكنيستين لا بإحادهما فقط، وعليه يلتزمون من دولته مخابرة من يلزم في توقيف الانتخاب. وحمل هذه العريضة إلى الوالي المطرانان سيرايم وأغابايوس وبعض الوجهاء، فرحب بهم الوالي وأعرب عن استحسانه وقال: إن دمشق بأسرها تأسف لفراق رجل لطيف محب مثل غبطته. وأسرع فرفع العريضة إلى الصدارة العظمى. وبعد يومين جاء والي سورية إلى البطيركية وبلغ البطريك والوجهاء أن الصدارة ترى ذهاب البطريك مناسباً وموافقاً نظراً لأهمية المركز وثقة الدولة بالبطريك، وأنه يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة في انتخاب خلف بكل راحة.

وبعد انصراف الوالي عجل البطريك في استقدام المطارنة، وعين السابع عشر من آذار حساباً شرقياً موعداً للمذاكرة في شئون الطائفة وما يتوّل إلى صالح الكنيسة وخيرها. وتقاعد المطارنة إلا أحدهم؛ السيد نيقوذيموس متروبوليت عكار، فاستعد البطريك للسفر وأنفذ خبراً إلى الوفد المقدسي يستقدمه إلى دمشق، فجاء هذا الوفد وفيه بتريكوس مطران عكة والأرشمندريت فوطيوس الصغير.

وفي الثامن والعشرين من آذار حساباً شرقياً استدعى البطريك المطارنة والكهنة وأعضاء القوميسيون وتلا على مسامعهم استعفاءه من الكرسي الأنطاكي، وأمر أن يدرج في سجل البطيركية، فأدرجوه ووقع عليه بخط يده، وأهم ما جاء فيه ما يلي:

إن ارتباطنا عظيم من الكنيستين، ففي الأولى ولدنا وتربينا وكبرنا، وفيها قصصنا شعر رأسنا وخدمتها تركنا العالم، وأقسمنا بأننا سنكون منصبين إليها حتى آخر نسمة من حياتنا، وفي الثانية نخدم بأمانة وكنا نؤمل أن كل حياتنا ستصرف لأجلها. تلك أمانة تستدعينا وهذه تملك عقلنا وقلوبنا وفؤادنا، فما العمل؟ أنخالف الرحمة الإلهية؟ حاشا وكلا! «إن كنا نعيش بالروح فللروح نخضع.» وكيف نناقض نعمة الله طالما الرسول يصرخ: «لا أناقض نعمة الله!» وهكذا بحسب قوانا الضعيفة، وبحسب إرادة ذاك الذي قوته بالضعف تكمل نؤمل في أننا نساعد على خدمة ليست مختصة بهذه الكنيسة فقط أو بتلك، بل شاملة كل جسد الكنيسة التي نحن أعضاؤها متحدين بجسم واحد تحت رأس واحد إلهنا ومخلصنا وربنا يسوع المسيح. وبانفصالنا عنكم نرجوكم ونعظكم قائلين: احترسوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم فيها الروح القدس أساقفة وارعوها بخوف الله وبمحبة الرعية، واهربوا بكل اجتهاد من كل مستجد يزعج سلام الكنيسة والنظام السائد فيها بدون أن تنسوا اللعنة

التي وضعها الرسول بولس معلم هذه الكنيسة ضد من يخترع أمورًا مستجدة ويدخل غير ما تسلمتموه واحفظوا الوديعة سالمة.

وفي السابع من نيسان احتفل البطريرك بقداس حبري، وبارك الشعب في ختامه واستودعه الله، ثم ركب وبطانته والوفد الأورشليمي العربات قاصدين بيروت، وساروا تَوًّا إلى شتورة حيث قضوا الليل، فلقاهم فيها جراسيموس (يارد) متروبوليت زحلة وتوابعها، ففند البطريرك قوله في الاستعفاء، وأكد له أن لا مجمع ولا كنيسة يمكنها إرغامه على قبول الانتقال من كرسي إلى آخر طالما هو مستوٍ على الكرسي الرسولي الأنطاكي، وأن حجة غبطته في وجوب الرضوخ إلى إرادة الباب العالي واهية. وتابع البطريرك السير فوصل بيروت مساء الإثنين. ويوم الأربعاء العاشر من نيسان ركب الباخرة الخديوية إلى يافا، وقام على وداعه أهالي بيروت أحسن قيام فشيعوه حتى البحر مستمطرين بركاته وداعين له بالسلامة.

تسرع الأب هنري موسه

وفي السابع عشر من نيسان سنة ١٨٩١ أدرجت صحيفة النيولوغس اليونانية رسالة صدرت عن بيروت وتضمنت خبر استعفاء البطريرك. ومما جاء في هذه الرسالة أن شعائر الشعب الأنطاكي تحركت، وأنهم بكوا لما علموا أن بطريركهم استعفى، وأن البطريرك توجع قلبه وتمزق، ولكنه قضى ست سنوات «في أرض قحلة غير مضيئة الغريب»، فأنبرى للرد على هذا الكلام الأخير سليمان الجهنيني فأثبت في كتابه «الخلاصة الوافية» وفي الصفحة ١٩ ما دخل على البطريرك جراسيموس مدة وجوده في الكرسي (١٨٨٥-١٨٩١)، فجعله نقلًا عن السجل البطريركي ١١٤٩٣ ليرة عثمانية، وقال: إن الكرسي الأنطاكي فقير بالنسبة إلى الكرسي الأورشليمي.

وتولى الأب هنري موسه الأبيض تدريس التاريخ الكنسي في مدرسة القديسة حنة في أورشليم وأعد كتابًا في موضوعه أسماه «تاريخ النصرانية»، ولا سيما في الشرق، وأتى في الجزء الثالث على تاريخ الكرسي الأنطاكي في القرن التاسع عشر فجعل همَّ البطارقة الأرثوذكسيين جمع المال ونقله إلى ذويهم، وقال عن جراسيموس الطيب الذكر: «إنه جزَّ الرعية ونبها فخطف من دمشق أحد عشر ألف ليرة عثمانية.»^{٣٢} والواقع أن هذا المبلغ

^{٣٢} Musset, H., Hist. du Christ. Spécialement en Orient, III, 152-153

يمثل دخل الكرسي في ست سنوات ولا يشمل النفقات، وكان يجدر بهذا الأب الفاضل رحمه الله أن يذكر أن مثل هذا التسرع لا يقرب وحدة الكنيسة، وأن العلاج الوحيد لجمع الصفوف هو المحبة تلك التي «تتأنى وترفق ولا تظن السوء»!

دَخل الكرسي البطريركي (١٨٨٥-١٨٩١)

وقد يفيد أن نفصل الكلام في هذا الموضوع، فقد بلغ مجموع دَخل الأوقاف في بسارية في هذه السنوات الست ١٦١٣ ليرة عثمانية، وريع الأديرة البطريركية ١٦٥٨ ليرة ومن مطارنة الكرسي ١٧١ ومن دمشق والميدان ٣٦٩، ومن الجولة الرعائية ٨٣٨ ومن القداسات ٤٥١ ومن كوبونات عثمانية ٦٢، ومن براءات ووسامات ١٣٦، ومن راتب دولة اليونان ٢٢٣٩، ومن حسنات للمدرسة الإكليريكية ٢٢٧، ومن حسنات من روسية ١٨٦، ومن أخوية القبر المقدس ١٨٠٣، ومن بيوع متفرقة ٤٤٧، ومن أنطاكية ١٩٥، ومن حسنات لكنيسة كفر مشكي (سنة ١٨٨٦) ٦١، ومن حوالات ٣٥٥، ومن حسنة من الغراندوقات الروس ٥٤، ومن مطران سلفكية ٢٥، ومن دير موسكو ١٣، ومن وقفية في روسية ٣٨، ومن ديون جرى استقراضها ١٧٢، ومن فضلة رصيد ٨٧٣.

الفصل السابع

اسبيريديون وملاتيوس

سيرافيم القائم مقام البطريركي

ولدى خروج البطريرك جراسيموس من دمشق دعا المطارنة الثلاثة سيرافيم وأغابوس ونيقوديموس وجوه الطائفة وكهنتها إلى اجتماع يبحثون فيه أمر تعيين قائم مقام بطريركي، فرغب البعض السلوك في ذلك بموجب القوانين الكنسية؛ أي بتفويض مطارنة أبرشيات الكرسي في تسمية من يشاءون، فعارضهم في ذلك فريق أصر على تسمية السيد سيرافيم؛ لأنه أكبر المطارنة سنًا، ولأنه سبق أن قام بالوكالة بعد وفاة الطيب الذكر البطريرك أيروثيوس، وكتب سيرافيم بذلك إلى أساقفة الكرسي لاستجلاب موافقتهم فأجاب بعضهم موافقًا ولزم آخرون الصمت، ثم قدمت عريضة بذلك إلى الوالي فرفعت لحلها وصدق عليها.

تشاغل الأفكار في انتخاب الخلف

واتجهت بعض الخواطر إلى انتخاب البطريرك الجديد من أساقفة المجمع الأنطاكي، وإن تعذر ذلك لاختلاف يقع بين الأساقفة يلجأ إلى انتخاب يواكيم الرابع البطريرك القسطنطيني المستقيل أو أحد أساقفة الكرسي القسطنطيني. وقال آخرون بانتخاب البطريرك بين أساقفة الكرسي الأورشليمي، وكان قد ساعد على هذا القول البطريرك جراسيموس نفسه. وأضاف هؤلاء أن الكرسي الأنطاكي فقير، وأن حاجاته متنوعة متعددة، وأن الأولى تفضيل رهبان القبر المقدس، وفيهم جماعة قد ادخروا الأموال، «فإن أتينا بأحدهم كفانا مئونة الفقر والحاجة»، وخصوا بالذكر أنتيموس مطران بيت لحم وبتركيوس مطران عكة واسبيريديونس مطران طابور.

الجرائد اليونانية

وبينما كان الشعب الأنطاكي ينتظر التثام الأساقفة كانت الجرائد اليونانية تدعو لانتخاب يوناني للكرسي الأنطاكي. وبين هذه الجرائد جريدة النيولوغس وجريدة بالينيكيسيا في أثينا وجريدة ميثارثيميسيس في الإسكندرية، وجاء في هذه الجريدة الأخيرة في عددها الصادر في الرابع من حزيران سنة ١٨٩٢ أن الأنطاكيين يرغبون في أن يروا مطراناً وطنياً يرأسهم، ولكن هذه الرغبة لا تتفق ومصلحة الكرسي الأنطاكي والكنيسة جمعاء والملة اليونانية؛ وذلك للأسباب التالية: (١) لأنه لا يوجد وطني لاهوتي والكنيسة الأنطاكية في حاجة إلى فصاحة يوحنا الذهبي الفم وقوة فوطيوس لتقاوم بهما الدعايات التي تحيط بها. (٢) لأنه يتعذر على الوطني أن يسطو على من يعرف أصله وفصله. (٣) لأن رئيس هذا الحزب أو ذاك له أصدقاء يقاومونه. (٤) لأنه يتعذر على بطريرك وطني التوفيق بين مصالح رعيته ورغبات الباب العالي.

ملاطيوس اليافاوي

وجاء بيروت تاجر يوناني اسمه ملاطيوس يدعو لاسبيريديون متروبوليت طابور، واتصل بقنصل اليونان المسيو ماريناكي وبخليل الخوري «مأمور بوليتيكة ولاية سورية وترجمانها». وتفاوض هؤلاء الثلاثة في الأمر وأشاروا بقيام أحدهم — ملاطيوس — إلى دمشق وباتصاله بوكيل قنصل اليونان فيها وببعض وجهاء الروم، ففعل ملاطيوس واتصل وسرّت إشاعة في دمشق أن اسبيريديون مستعد لشراء عقار في دمشق بمبلغ عشرة آلاف ليرة ولحبسه على الكرسي الأنطاكي وقفاً مؤبداً.

الأرثوذكسيون جميعهم واحد

وخرج عاصم باشا والي سورية يتفقد أنحاء الولاية، فجاء المعلقة مركز قضاء البقاع. ووفد عليه جراسيموس (يارد) العالم مسلماً مهنئاً، فرحب به الوالي وأخذ في الحديث إلى أن أتيا على ذكر الانتخاب البطريركي، فقال الوالي: أظن أن الانتخاب سيجري في وقت قريب؟ فأجابه جراسيموس: نعم، سيجتمع المطارنة في دمشق لهذه الغاية. فقال الوالي: أظن لا يخلو الانتخاب من بعض الصعوبات؟ فأجاب المطران: لا بدّ من الصعوبات، ولكنها سنُذلل بتوجيهات الدولة. فقال الوالي: تسهل إذا بقي القديم على قدمه، وقد

جرت العادة أن ينتخب غريب لهذه الوظيفة، ولا يجب الخروج عن هذه الخطة! فأجاب جراسيموس جوابه التاريخي: «لا يوجد بين الأرثوذكسين غريب وقريب؛ لأن الكل واحد، وهم جميعاً متساووا الحقوق، ولا شك في أنه يجب أن يكون المنتخب ذا خبرة في الأمور عارفاً مشرب البلاد ولغة الأهالي متعلقاً أشد التعلق بالأريكة العثمانية، يفرح لفرح الأهالي ويبكي لبكاهم.»

وبينما كان عاصم باشا في المعلقة جاءه خليل أفندي الخوري قادماً من بيروت ليعرض على مسامعه أشياء وأشياء كان قد اتفق عليها مع قنصل اليونان ورسول اسبيريديون.

ملاتيوس و خليل

ورحل خليل على عجل وأقبل على دمشق قبل وصول المطارنة بيوم واحد، ولم يلبث أن وافاه إلى فندق فيكتورية ملاتيوس رسول اسبيريديون وأقاما في دار واحدة يجتمعان في كل أونة، وحمل ملاتيوس تعهداً خطياً من اسبيريديون إلى جبرائيل أفندي اسبر بالعربية أنه إذا تمت المسألة يُدفع المبلغ، وأُرفق سفتجة بعشرة آلاف ليرة من محل فروتيكر في القدس لأمر اسبيريديون فلم تحطّ قبلاً، فكتب ملاتيوس إلى القدس فجاءت سفتجة بالإفرنسية من محل فروتيكر مفادها أن اسبيريديون أودع المحل المرقوم عشرة آلاف ليرة فرنساوية تحت أمره. وأمر جبرائيل أفندي اسبر وإلياس أفندي قدسي حتى إذا صار انتخابه للبطريركية تدفع بواسطة البنك العثماني في بيروت يوم تثبيت الانتخاب، وتستخدم في اقتناء عقارات بمعرفة لجنة مخصوصة تحت رئاسة الواهب مؤلفه من كبار الإكليروس والعامّة لنفع الكرسي.

الدعاية لاسبيريديون

وطفق الوجوه يخابرون من اجتمع بدمشق من المطارنة ويستطلعون أفكارهم، وأجهدوا النفس في الدعاية لاسبيريديون لكثرة ماله وما يترتب على ذلك من النفع للكرسي، ثم هددوا فقالوا: إن الحكومة اليونانية قد تقطع الإعانة السنوية البالغة عشرة آلاف فرنك التي خصصتها إلى السيد جراسيموس، بل قد لا تمكننا من استغلال المال الذي حبسه أيروثيوس في بنك أثينا ودخله لا يقل عن الخمسمائة ليرة، وقد نحرّم إذا استوى على

الكرسي الأنطاكي غير اسبيريون من خدمات وكيل البطريرك الأورشليمي في الآستانة وقد نمنع من مساعدة البطريرك المسكوني.

المجمع الأنطاكي

وبعد أن اكتمل عدد المطارنة المجتمعين في دمشق عقدوا مجمعاً ابتداءً من الثاني والعشرين من حزيران سنة ١٨٩١ وذلك برئاسة المطران سيراقيم. وهاك بيان أعمال الجلسة الأولى نقلًا عن السجل البطريركي:

إنه في يوم السبت الواقع في ٢٢ حزيران سنة ١٨٩١ التأمّت تحت رئاسة القائمقام البطريركي نيافة مطران أيرينوبوليس كيريوس سيراقيم هيئة المجمع الأنطاكي المقدس، مؤلفة من السادة ملاتيوس مطران اللاذقية وميصائل مطران صور وصيدا وغفرائيل مطران بيروت ولبنان، وأغاباوس مطران أدايس وجرمانوس مطران ترسيس ونيقوذيموس مطران عكار وأثناسيوس مطران حمص وجراسيموس مطران زحلة وغريغوريوس مطران طرابلس. وبعد الصلاة الاعتيادية قال سيادة القائمقام: إن أول مسألة يظن بوجوب الابتداء بها مسألة انتخاب المرشحين. وقال: إن للكرسي الأنطاكي الحق في أن ينتخب من يشاء ومن أية كنيسة كانت. فأجابه مطران اللاذقية: نعم، إن كرسينا حر ويوجد فيه مطارنة بهم كل اللياقة ليكونوا مرشحين؛ ولذلك أظن أنه يمكننا الافتكار بانتخاب بطريرك من إكليروس الكرسي، وسيادة مطران صور وصيدا وافق على ذلك قائلاً: يجب ألا يكون المنتخب من خارج الدائرة. وسيادة مطران بيروت وسيادة مطران أدايس وافقا على ذلك، أما سيادة مطران ترسيس فقال: إنه يجب أن ندقق في هل مجمعنا هذا قانوني، وهل يمكنه أن ينتخب بطريركاً للكنيسة بدون أدنى مانع؟ فطلب سيادة مطران طرابلس الإيضاح عن ذلك، وبعد المذاكرة تقرر أن المجمع قانوني وله ملء الحق أن يباشر العمل.

ثم بحثت المسائل الآتية: من هم المرشحون؟ ممن المرشحون؟ وكيف يرشحون؟ وجرت مذاكرة كثيرة بهذه المواد الثلاثة انتهت إلى القرارات الآتية: أولاً: أن شعب دمشق وأنطاكية التابعة للكرسي الأنطاكي رأساً وشعب حلب

وديار بكر الأبرشيتين المترملتين لهم الحق أن يُرشحوا كلٌّ على حدة مثل واحد من الأساقفة. ثانيًا: أن يكون عدد المرشحين من واحد إلى ثلاثة من كل من له حق الترشيح. ثالثًا: بخصوص مسألة مَنْ يرشح، تقرر أنه لما كانت الظروف التي جعلت الكنيسة الأنطاكية أن تنتخب سابقًا بطاركة من خارج كرسيها، قد زالت ومضت، وعدا ذلك يوجد اليوم بين أبناء الكنيسة أشخاص فيهم كل اللياقة الكنائسية والخبرة الإدارية ليكونوا بطاركة بنعمة من قال «إن قوته بالضعف تكمل»؛ لذلك لا نرى ضرورة ولا حاجة لتوجيه الأنظار إلى خارج دائرة الكرسي الأنطاكي. وقد وافق على ذلك السادة المطارنة؛ ملاتيوس وميصائل وغفرائيل وأغابايوس وأثناسيوس وجراسيموس وغريغوريوس. أما سيادة المطارنة سيرا فيم وجرمانوس ونيقوذيموس فقد قالوا عن هذا القرار إنه يجب أن يحفظ الحق بحرية الترشيح من أبناء الكرسي الأنطاكي ومن غيره أيضًا، وعلى هذا وافق أيضًا المطران ميصائل.

وفي الخامس والعشرين من حزيران سنة ١٨٩١ اجتمع أعيان دمشق وكهننتها خمسة وأربعين وترأس اجتماعهم سيرا فيم، وحضر الاجتماع معاونه أغابايوس، وتغيب عن الحضور ستة من وجوه الطائفة أولئك الذين كانوا يعملون لاسبيريون، فرشح المجتمعون مطارنة بيروت واللاذقية وحماة.

وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه عاد عاصم باشا إلى دمشق فذهب المطارنة للسلام فاقتبلهم بالرعاية والإكرام، وأظهر ارتياحه إلى وجود الراحة والوفاق في انتخاب بطريرك جديد يتحلّى بالصفات المطلوبة، وأن يكون ذلك حسب العادة السابقة. وقال أيضًا إنه يود بقاء الاتفاق بين كنيسة الآستانة ودمشق، وأن انتخاب البطريرك على وجهين؛ روحي وسياسي. أما الوجه الروحي فلا دخل له فيه، وأما السياسي فله فيه نظر. وانصرف المطارنة شاكرين، وفي اليوم التالي الثامن والعشرين عقدوا جلسة مجمعية ثانية، هذا ضبطها:

إنه في يوم الجمعة الواقع في ٢٨ حزيران سنة ١٨٩١ التّأمت هيئة المجمع المقدس بحضور السادات المطارنة المذكورين في الجلسة الأولى. وبعد الصلاة وقراءة أعمال الجلسة الماضية والتوقيع عليها طرح سيادة القائمقام تلغرافين من أنطاكية أحدهما باسمه بتاريخ ٢٣ حزيران بإمضاء كهنة أنطاكية،

ونصه: «سيادتكم وكيلاً من قبلنا بالانتخاب»، والآخر بتاريخ ٢٦ حزيران بإمضاء طائفة الروم الأرثوذكس بأنطاكية ونصه: «نوكل الشماس بولس عقل (أبي عضل) نفوضه بترشيح من يكون أهلاً للبطركية»، وجرّت المذاكرة بشأن هذا الاختلاف، وتقرر أنه لما كان توكيل اثنين عن بلدة واحدة غير ممكن اقتضى أن تجري مخابرة الكهنة والعلمانية في أنطاكية هكذا: «عينوا إكليريكياً واحداً للترشيح من قبل عموم الكهنة والشعب» ثم تقرر تعيين سيادة مطران اللاذقية ومطران أدايسيس ومطران زحلة ومطران طرابلس ليؤلفوا قانوناً يجري عليه غبطة البطريرك المستقبل في إدارة الكرسي والأديرة والأوقاف.

ثم طرحت المسألة الآتية: «هل تقبل وكالة أحد المطارنة لأجل الترشيح للبطريركية إذا تعين من قبل مطران آخر غائب أو من أبرشية خالية من راعٍ، بما أنه في أعمال الجلسة السابقة من الدور الثاني بتاريخ ١٣ كانون الأول سنة ١٨٨٩ ذكر ما يأتي بخصوص العادة الجارية عندنا وقت انتخاب مطران ما؛ أي إن المطارنة الذين لا يحضرون بأنفسهم وقت الانتخاب عوضاً عن أن يرسلوا ورقة انتخابهم إلى البطريركية يוכלون بعض المطارنة الموجودين هنا الذين يكون لهم وقتئذٍ صوتان أو ثلاثة ... تقرر باتفاق الأصوات أنه وقت إجراء انتخاب ما يجوز إعطاء الصوت فقط للمطارنة الذين يحضرون شخصياً وللذين يرسلون أوراق انتخابهم، وأما إعطاء الصوت بالنيابة عن أحد فلا يكون مقبولاً في المستقبل.» فتقرر أنه بما أن ذلك القرار لم يتبلغ لباقي المطارنة وللأبرشيات الخالية، والقرار المذكور يصرح عن انتخاب أسقف الأبرشية لا عن انتخاب البطريرك؛ لذلك يجوز للوكيل أن يقدم صوتين عنه وعن موكله؛ بشرط أن يكون الصوتان بالأسماء ذاتها.

الوالي والترشيح

وفي التاسع والعشرين من حزيران يوم عيد هامتي الرسل بعث عاصم باشا ترجمانه خليل أفندي الخوري يبلغ المطارنة ورود برقية من الصدارة، توجب الإسراع في تنظيم دفتر بأسماء من يجدون أهلاً للانتخاب، وإلى تقديمه إلى الباب العالي عملاً بنص القانون الساري المفعول لانتخاب بطريرك في الآستانة. وفي أول تموز جاء الوالي نفسه فقال بالعربية: عهدت إلى خليل أفندي أن يبلغكم الأمر الصادر من الصدارة العظمى، وبالإسراع

في الترشيح وتقديم دفتر بمن تشاءون بحرية، وبعد أن يرجع إليكم الدفتر تنتخبون ثلاثة ذوات من الذوات المصدق عليهم وتصدقون إلى الكنيسة، وفيها تقترعون على واحد منهم سرًا، قال هذا وأشار إلى النظام العمومي المختص بانتخاب بطريرك القسطنطينية ثم انصرف.

الترشيح

وفي الثاني من تموز سنة ١٨٩١ عقد المجمع جلسته الثالثة للترشيح، فبلغ عدد من اشترك في الترشيح ستة عشر وهم شعب أنطاكية، وقد ناب عنه الشماس بولس أبي عضل وشعب دمشق ومطارنة بيروت واللاذقية وحمص وطرابلس وزحلة وترسييس وعكار وصور وصيدا، وسيرافيم أيرينوبوليس وأغابوس أدايسيس وناب عن مطران حماة مطران اللاذقية، واستتاب مطران أرضروم سيرافيم، وناب نيقوذيموس عن أبرشية ديار بكر، وبلغ عدد الذوات المرشحين عشرة أحد ذاتًا.

ورفع المطارنة هذه النتيجة إلى ولاية سورية مع دفتر الذوات الذين انتخبوا ووجدت فيهم الأهلية لتبوء الكرسي البطريركي:

إننا نحن العاجزين مطارنة الأبرشيات المنضوية للكرسي البطريركي الأنطاكي، بنعمة الله تعالى وبالظل الظليل الشاهاني، قد اجتمعنا في مركز الكرسي هذا دمشق لانتخاب خلف لغبطة البطريرك جراسيموس المستقيل، وباتفاق أصوات من لهم حق الترشيح قد جرى الترشيح، فأصاب أحد عشر ذاتًا أسماءهم مدونة بذيله، مع بيان ما اكتسبه كل واحد من الأصوات بناء أن ننتخب واحدًا من الذوات الموما إليهم بطريركًا للكرسي الأنطاكي بحسب قوانين كنيستنا الأرثوذكسية، فنلتهم من دولتكم مخابرة الباب العالي بذلك وإيضاح الكيفية لمعالیه والتكرم باستحصال الجواب، وبكل حال الأمر لمن له الأمر أفندم.

عدد الأصوات	أسماء الذوات المرشحين	
٩	ملاتيسوس متروبوليت اللاذقية	تسعة
٨	جراسيموس متروبوليت زحلة	ثمانية

كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الثالث)

عدد الأصوات	أسماء الذوات المرشحين	
٧	غفرائيل متروبوليت بيروت	سبعة
٦	اسبيريديون متروبوليت ثابو	ستة
٥	فيلوثيوس متروبوليت إزمير	خمس
٣	أغابوس متروبوليت أداسيس	ثلاثة
٣	جرمانوس متروبوليت ترسيس	ثلاثة
٣	نيقوذيموس متروبوليت عكار	ثلاثة
٢	ميصائيل متروبوليت صور وصيدا	اثنين
١	أثناسيوس متروبوليت حمص	واحد
١	غريغوريوس متروبوليت حماة	واحد

فقط أحد عشر ذاتاً، الداعي سيرا فيم قائم مقام البطيريركية الأنطاكية، الداعي ملاتيوس مطران اللاذقية، الداعي ميصائيل مطران صور وصيدا، الداعي غفرائيل مطران بيروت ولبنان، الداعي أغابوس مطران أداسيس، الداعي جرمانوس مطران ترسيس وأطنة، الداعي أثناسيوس مطران حمص وتوابعها، الداعي جراسيموس مطران زحلة وبعليك ومعلولا، الداعي غريغوريوس مطران طرابلس.

الاحتجاج على ترشيح اسبيريديون

واختلفت الأوساط الأرثوذكسية الأنطاكية في لياقة اسبيريديون مطران طابور وتشعبت آراؤهم، فقدم بعضهم العرائض إلى المجمع الأنطاكي ملتمسين منع السجس والاضطراب في الكنيسة بعدم انتخاب اسبيريديون؛ «لأنه غير متصف بالصفات التي تنطبق على رغائب الشعب ولاستخدامه السيمنية»، مؤكدين رفضه رفضاً تاماً ورفض المطران الذي يصوت له. ورفعت البرقيات إلى الصدارة العظمى، فجاء في إحداها:

بينما هؤلاء العبيد قائمون على فريضة الدعاء بزيادة شوكة مولانا الخليفة الأعظم بلغ مسامعنا تشبث المجمع الأنطاكي الأرثوذكسي بالشام بانتخاب

مطران طابور ومطران إزمير مرشحين للبطيريركية، فبتنا في يأس حيث الذاتين المرقومين لا يصلحان لتدبير أمورنا الروحية. فنسترحم استرحام الأذلاء من العواطف الشاهانية أن تنظر بالإشفاق إلى عبوديتنا لمنع قبول المرشحين المذكورين.

وشاع عن اسبيريديون أنه أضاع السنين التي قضاها في المدرسة في كسل وبطالة؛ لأن الله لم يؤثّه ذكاءً، فسيم شماساً ولبث مدة طويلة في هذه الخدمة ثم شرطن قسّاً، وتوفي عمه فترك له ثلاثين ألف ليرة، فاستولى عليها وأصبح من ذوي الحل والعقد في دير القدس، وسيم مطراناً على جبل طابور فرمم الأبنية وزين المعبد فاستجلب الحجاج الروس واستتبطن لنفسه ينبوع ثروة من عطائهم، ثم انتدب وكيلاً على دير بيت لحم، فساعدته الحظ أن جمع من المال مبلغاً كبيراً.

جواب الباب العالي

ولما كان يوم السبت الواقع في ٢٧ تموز سنة ١٨٩١ قام خليل الخوري إلى الدار البطيريركية وسلم المطارنة المجتمعين فيها تذكرة من والي الولاية، جاء فيها أن الصدارة العظمى أمرت باستثناء الأفندية مطران زحلة جراسيموس يارد ومطران بيروت وجبل لبنان غفرائيل ومطران أداسيس أغابايوس ومطران حمص أثناسيوس، ووضع السبعة المطارنة الباقين للانتخاب وفقاً للأصول وتنظيم المضبطة اللازمة بالذات الذي سيتعين للبطيريركية لإجراء مأموريته.

حرب العرائض

وتعارضت أهواء المطارنة فأصر الوطنيون منهم على انتخاب مطران أنطاكي للكرسي البطيريركي، ورأى اليونانيون منهم غير هذا فانتقضت عقدة المطارنة واضطرب حبلهم، وألف الوطنيون أكثرية، فحاول اليونانيون إضعاف هذه الأكثرية، فحرموا أغابايوس حق التصويت مدعين أن لا أبرشية له، واعترضوا على صوت أبرشية بيروت ولبنان بداعي المرض الذي ألمّ بغفرائيل، واجتذب دعاة اسبيريديون مطران صور وصيدا، وماتل اليونانيون وامتنعوا عن الاجتماع منتظرين أمراً من الآستانة يؤيد موقفهم من أغابايوس وغفرائيل.

وأسقط الوطنيون سيرا فيم من رتبة القائمقامية محتجين على تحيزه ومماطلته في تطبيق القانون وذلك في اليوم الثاني من آب، وكتبوا بهذا المعنى إلى الوالي، وأضافوا أن لقبه «مطران أيرينوبوليس» لقب شرفي، فأيرينوبوليس هي سلمية، وسلمية بلدة إسماعيلية لا نصارى فيها! ثم نُقل إلى الوطنيّين أن سيرا فيم وجرمانوس ونيقوديموس ذهبوا إلى بيت رافائيل شامية حيث اجتمعوا بجبرائيل اسبر وجبرائيل شامية وميخائيل صيدح وجبران لويس وسليم شاهين وموسى الصباغ، وتشاوروا فأعدوا مضبطة انتخاب وكتبوا في المضبطة أنه لدى اجتماع أعضاء مجمع الكرسي الأنطاكي وإجراء الانتخاب القانوني أصابت الأكثرية سيادة المطران اسبيريدونس، فنودي به بطريقاً مع التماس التصديق على انتخابه من الباب العالي. ونُقل أيضاً أن جرمانوس ونيقوديموس وقع هذه المضبطة، أما سيرا فيم فتمنّع فابتدره رافائيل شامية بكلام شديد قادر فوقع على المضبطة، وأن ميصائيل وقع بدوره، ونقل إلى المطارنة الوطنيّين أن هذه الوثيقة رُفعت إلى المقامات الحكومية مشفوعة بعريضة من الشعب تؤيد هذا الانتخاب وترجو تصديقه قطعاً لدابر الفساد. وادعى أنصار اسبيريدون أن مرشحهم فاز بخمسة أصوات من ثمانية، أما الخمسة فهم: ميصائيل وسيرا فيم وجرمانوس ونيقوديموس وبائيسوس، وأما الثلاثة المعارضون فهم: أثناسيوس وجراسيموس وغريغوريوس حماة. وأسقط الاسبيريدونيون صوت مطران بيروت لمرضه، وصوت مطران طرابلس لإعطائه الورقة كما علمناه، وصوت مطران اللاذقية لكونه مرشحاً لا صوت له وصوت أغابوس؛ لأنه لا أبرشية له.

فاحتج المطارنة الوطنيون بعريضة قدموها إلى والي سورية في السابع من آب سنة ١٨٩١ وببرقيتين رفعوها إلى الصدارة ونظارة المذاهب والأديان، وهاك بعض ما جاء في برقية الصدارة:

إن المغدورية والإجحاف بحقوقنا الدينية والمالية وحجز الحرية المنوحة لنا بشأن انتخاب بطريرك الكرسي الأنطاكي بحسب قواعد ديننا وعوائدنا المرعية الإجراء، وأسر إرادتنا بأشياء مستجدة من قبل دولتو عاصم باشا والي سورية وصلت إلى درجة اضطهاد عنيف.

أولاً: منع بواسطة القائمقام البطريركي جلسة المجمع يوم الخميس غرة الجاري المعينة لأجل الانتخاب. ثانياً: لم يسمح بالجلسة الانتخابية في ثاني آب. ثالثاً: اقتبل من القائمقام البطريركي ومطراني ترسييس وعكار اليوناني الجنس تُهماً وأراجيف بحق بعض المطارنة، وبلغنا أنه عرضها للمراجع العالية

بدون أن يفحص أو يسأل أحدًا منا عنها. رابعًا: عارض حرية الانتخاب بمنع أحدنا أغابيوس من حق الاقتراع. خامسًا: لم يأخذ استرحاماتنا بعين الاعتبار، وأظهر ميلًا نحو مطران ترسييس الذي صدر الأمر السامي بعزله سنة ١٣٠٥ الذي صرح في أحد اجتماعاتنا بعدم أمنيته بالدولة العلية، وأعلن أن مسيحي الشرق إذا تركوا من حماية الدولة اليونانية يعدمون حقوقهم، الأمر الذي تبَّع لمسامح دولته. سادسًا: أبطل عاداتنا الدينية في أنه قسم المجمع شطرين، وطلب إلى القسم الأقل عددًا أن يقدم له مضبطة انتخاب بدون اشتراك القسم الأكثر، وصرح لنا نحن القسم الأكبر بأنه يقبل مضبطة أخرى بمنتخب آخر، فأجبنا دولته في الحال بأن هذا منافٍ لقواعد ديننا، وإنما كان ذلك منه بقصد تمهيد السبيل لإيصال اسبيريديون أفندي مطران طابور إلى البطريركية بطريق الرشوة والسيمونيا. سابعًا: لم يكتفِ دولته بغض النظر عن تعديات القائمقام البطريركي، بل تعصَّب له ودافع عنه بالشدَّة والتهديد وتصويب جميع ما أجراه. ثامنًا: اقتبل مضبطة لفقت في بيت أحد الأفندية تحكي عن انتخاب اسبيريديون أفندي، الأمر الذي لم يجرِ قط؛ لأنه للآن ما عقدنا جمعية التفريق، ولا صار اختيار ثلاثة أسماء.

فبناء على جميع ذلك نسترحم تخويلنا الحرية الدينية بانتخاب بطريرك لكرسينا بمقتضى قوانين كنيسة الروم الشرقية وعوائدنا القديمة المرعية الإجراء، وإعطاءنا الأمنية على أنفسنا مدة وجودنا ضمن ولاية سورية من الظلم؛ لنتمكن من إتمام عملنا بوجه السرعة وبحسب قوانين كنيستنا ورضا عظمة مولانا الخليفة الأعظم.^١

ولجأ الاسبيريديونيون إلى استباق الحوادث فأذاعوا خبر فوز مرشحهم وتناقلته الصحف اليونانية كجريدة أمالثا اليونانية التي كانت تصدر في إزمير، فإنها نشرت في الثالث عشر من آب خبر انتخاب اسبيريديون ولحة من تاريخ حياته. ويلاحظ هنا أن جُلَّ ما قالته هذه الصحيفة الموالية لاسبيريديون أنه في الخامسة والخمسين من عمره، وأنه ليس من المتعلمين بحسب الأصول، ولكنه من الحائزين على خبرة كافية في الأمور الكنسية.

^١ «الخلاصة الوافية في انتخاب بطريرك أنطاكية»، لسليمان الجهنبي، ص ١١٠-١١٧.

وأشارت هذه الصحيفة إلى أن اسبيريدون كان يحمل إلى الكرسي مبلغ عشرة آلاف ليرة من ماله الخاص عربوناً له ليقوم باحتياجات كنيسة أنطاكية الكثيرة المتعددة الأنواع. واحتج الوطنيون لدى السلطات المحلية والمركزية بلهجة قوية،^٢ فاضطر الباب العالي أن يبطل مفعول المضبطة الانتخابية التي انفرد بها مؤيدو اسبيريدون، وصدرت جريدة أمالثيا نفسها في الحادي والعشرين من آب تكذب نبأ انتخاب اسبيريدون، وجاء في جريدة المونيتور أورنيثال الصادرة في الآستانة بالإفريقية والإنكليزية أن الباب العالي بعد مخابرات طويلة مع ولايتي سورية وبيروت أصدر الأمر بإلغاء الانتخاب لعدم انطباقه على القانون، وأن الصدر الأعظم كامل باشا أبلغ السلطات المحلية أن لا فرق عند الدولة إذا كان البطريرك من أبناء البلاد أو غريباً عنها، وأن رغبتها منصرفة إلى أن يجري الانتخاب بحسب النظام، وأن يكون المنتخب من ذوي الأهلية والاستحقاق وحائزاً على ثقة الحكومة.

روسية والانتخاب

وادعى الاسبيريدونيون أن سليم أفندي طراد نزيل دمشق آتئذ جاء رسولاً من قبل قنصلية روسية في بيروت ليحرك المطارنة والشعب ويغريهم على انتخاب بطريرك وطني، فاضطر قنصل روسية في دمشق أن يصرح «وينادي على أعلا السطوح أنه صدر له الأمر من حكومته بتجنيب كل مداخلة في الانتخاب؛ إذ ليس لروسية أربُّ في المسألة البطريركية ولا غاية لها لتسعى في طلبها، فسيان عنده من ينتخب»، ولزم القنصل العزلة وبذل النصح إلى المطارنة أن يتفقوا وينتخبوا واحداً أيّاً كان.^٣

تدخل الباب العالي

وأعلن الباب العالي رأيه في النزاع القائم بين الوطنيين والاسبيريدونيين حول حق بعض المطارنة في التصويت، فجاء في صالح الاسبيريدونيين، وادعى الباب العالي المحافظة على الحرية الدينية والقوانين المذهبية، فاستفتى بطريركية القسطنطينية في حق أغابوس وسيرافيم في التصويت، فأجابت هذه البطريركية أن المطران التيتولاريوس هو ذاك الذي

^٢ المرجع نفسه، ص ١٢٠-١٤٢.

^٣ المرجع نفسه أيضاً، ص ١٤٩.

لا أبرشية له ولا شعب يدبر شئونه، وأن هذا النوع من المطارنة لا حق له في الاشتراك بانتخاب البطارقة عملاً بالقوانين الكنسية. ولم يقف الباب العالي عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك في تأييد الاسبريودونيين، فحرم متروبوليت بيروت من حق التصويت بداعي العجز الصحي العقلي!

وفي الثامن والعشرين من أيلول سنة ١٨٩١ ذهب ترجمات الولاية خليل أفندي الخوري إلى الدار البطريركية وجمع المطارنة ودفع إليهم بكتابة رسمية، هذا تعريبها:

إلى قائم مقام بطريركية أنطاكية، رتبتمو أفندي: إنه قبلاً تقدم للباب العالي الأوراق التي أعطيت من قبل المطارنة الذين اجتمعوا في دمشق بناء على تحويل مأمورية رتبتمو جراسيموس أفندي إلى بطريركية القدس الشريف؛ لانتخاب ذات سواء لبطريركية أنطاكية التي أضحت محلولة، وهذه الأوراق هي التي أعطيت للولاية من الطرفين حاوية بعض اختلاف آراء وقع بينهم.

وبما أنه قد صدر الأمر والإشعار من مقام الصدارة السامي بتلغراف مؤرخ في ٢٦ أيلول سنة ١٣٠٧ بأنه لما كان من مقتضى القرار العالي المنيف استثناء غفرانيل أفندي مطران بيروت وأغاببوس أفندي من إعطاء الرأي، يجب أن يجتمع باقي المطارنة ويقدموا بسرعة المضبطة اللازمة بخصوص الذات الذي ينتخبونه لبطريركية أنطاكية المذكورة ضمن دائرة الأصول. بناء عليه ابندر لترقيم هذه التذكرة المخصوصة كي بعد استثناء الموما إليهما غفرانيل أفندي وأغاببوس أفندي من إعطاء الرأي بموجب القرار العالي يجتمع باقي الأساقفة، ويجروا سريعاً أصول الانتخاب ويسرعوا إلى إعطاء المضبطة اللازمة لجانب الولاية، لأجل تقديمها لمركز الدولة، أفندم. في ٧ ربيع الأول سنة ١٣٠٩ و ٢٨ أيلول سنة ١٣٠٧ والي سورية.

ولما تليت هذه الكتابة على مسمع من المطارنة استغربها بعضهم، وعجبوا من استثناء مطران بيروت بعد أن قدموا الشهادات الطبية اللازمة بسلامة علقه.^٤ فقال ملاتيس متروبوليت اللاذقية: نسألك يا سعادة خليل أفندي عن السبب الذي استثنى

^٤ حضرات الأجلّاء الأفاضل رئيس وأعضاء الجمعية الخيرية الأرثوذكسية: جواباً على تحريركم رقم تاريخه نفيديكم أن ما كان حصل إلى سيادة السيد الجليل غفرانيل مطران بيروت ولبنان هو مجرد احتقان دماغي

لأجله غفرائيل؟ فأجابه: أنا لست مأمورًا أن أعطيك إيضاحات، فهذه أوامر الباب العالي عليكم الامتثال لها، ومن أراد أن يعترض عليها فليتقدم بذلك، وأضاف: وأنا مأمور أن أخبركم أنه لا يجوز لأحد أن يعترض بكتابة شيء ما على مضبطة الانتخاب ولا يقبل منك ذلك. وانصرف فأتّم رغبة الوالي في أن يسطو على المطارنة، فلا يعترض أحدهم ولا يتأخروا عن إتمام الانتخاب مخافة أن يرشقوا بالتمرد والعصيان على أوامر السلطان. ثم وفدت عليهم الرسالة التالية من القائم مقام البطريركي:

بعد المصافحة الأخوية: بهذا النهار صدر أمر عالي من الولاية الجلييلة مبني على تلغراف وارد من جانب الصدارة العظمى بقرار عالي مؤرخ في ٢٨ أيلول سنة ١٣٠٧، مضمونه السامي استثناء إخوتنا بالرب المطران غفرائيل مطران بيروت والمطران أغابويوس من إعطاء الرأي بالانتخاب المزمعين نجره بتعيين خلف للبطريركية الأنطاكية، وأن يصير اجتماعنا لإتمام الانتخاب وتقديم المضبطة بالذي يجوز أكثرية الآراء للبطريركية الأنطاكية بالسرعة يصير تقديمها لجانب الباب العالي لتصدر عليها الإرادة السنية حسب الأصول. وهذا الأمر صارت قراءته علناً على إخوتكم بمعرفة المأمور المعين لتسليمه، وهو سعادتو خليل أفندي الخوري ترجمان ولاية سورية الجلييلة هذا النهار.

وحيث المضمون المسارعة بالانتخاب؛ فعليه قد عيناً الساعة الثانية صباحاً من نهار الاثنين القادم الواقع في ٣٠ الجاري للاجتماع في قاعة البطريركية لأجل الانتخاب القانوني للبطريركية، وضمن الكنيسة المقدسة حسب الأصول الكنائسية واستمداد الروح الكلي قدسه، فنؤمل من أخوتكم توقيع إمضاءاتكم على هذا بالقبول؛ حيث إنه بالوقت المعين تجدونا بانتظاركم ضمن قاعة البطريركية المعدة للاجتماع، ونعمته تعالى لتكن معنا وفيما بيننا دائماً. في ٢٨ أيلول سنة ١٨٩١، أخوكم بالمسيح سيرا فيم مطران أيرينوبوليس قائم مقام البطريركية الأنطاكية بالشام.

بسيط اشتدت أعراضه ليلة الأربعاء في ٢٣ تموز سنة ٩١، والحمد لله بواسطة المداكمة لم يحدث عن ذلك لا فالج ولا خلل في الوظائف العقلية، وقد أخذت صحة سيادته بالتحسن يوماً فيوماً، سوى أنه بحالة ضعف قليل يؤمل زواله عن قريب، وهو الآن متمتع بصحة الجسم والعقل. كاتبه الدكتور حبيب طوبجي في ٢ آب ١٨٩١.

وتبَّلع المطارنة نص هذه المذكرة وأشاروا بوجود عقد جمعية التفريق قبل الانتخاب ووجوب التحرير للمرشحين من الكرسي؛ فيلوثيوس مطران نيقوميذية واسبيريديون مطران طابور، ليصرحا رسمياً بقبول الترشيح.

اسبيريديون بطريك أنطاكية

وأبرق المطران سيرا فيم إلى المطران اسبيريديون والمطران فيلوثيوس يطلب موافقتهم على الترشيح، فامتنع فيلوثيوس عن القبول، وأبرق اسبيريديون أنه إذا شئت العناية الإلهية انتخابه فيخضع شاكرًا. وجاء جبرائيل أفندي اسبر وأطلع المطارنة على التعهد الذي بيده بالعشرة آلاف ليرة، فطلب المطارنة تعهدًا جديدًا بأن القيمة المذكورة تحبس على أعمال البر والتعليم، فأبرق جبرائيل بذلك، فأجاب أخو اسبيريديون: وما الفائدة من تكرار التأمينات وعندكم وثيقة كافية وافية؟ وصرح جرمانوس مطران ترسيس ونيقوديموس مطران عكار بانسحابهما من الترشيح، فلم يبق سوى ثلاثة من السبعة المرشحين؛ وهم ملاتيوس مطران اللاذقية، وغريغوريوس مطران حماة، واسبيريديون مطران طابور.

وفي الثاني من تشرين الأول سنة ١٨٩١ عقد المطارنة مجمعا حافلا، وبعد إجراء رسوم التفريق؛ أي بعد تسطير أسماء المرشحين الثلاثة دخل المطارنة الكنيسة وأجروا فيها اقتراعاً سريعاً، فأصاب الأكتري اسبيريديون مطران طابور، وهي أكثرية مؤلفة من مطارنة أيرينوبوليس وأرزروم وترسيس وعكار وصور وصيدا وزحلة وحماة، وأصاب السيد ملاتيوس صوتان، وأصاب مطران حماة صوت واحد، ونودي باسبيريديون بطريكاً على أنطاكية في الكنيسة الكاثدرائية. ودُوِّنت أعمال الانتخاب في السجل البطريركي بنص مماثل كل المماثلة لنص انتخاب جراسيموس البطريرك السابق، وقد سبق إثبات هذا النص فليراجع في محله، ووقع المطارنة إشعاراً بالانتخاب رفعوه إلى السلطة العثمانية.

قانون الانتخاب البطريركي (١٨٩١)

وكان هذا المجمع الأنطاكي قد انتدب في جلسته الثانية في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٨٩١ كلاً من مطران اللاذقية ومطران أدا سييس ومطران زحلة؛ ليعملوا في وضع قانون للانتخاب البطريركي وسن نظام لتدبير الأوقاف والأديرة، ولكن لما تمَّ الانتخاب

البطريركي أسرع المطارنة إلى الانهزام من دمشق هرباً من الهواء الأصفر، وبقي السيد سيرا فيم وحده في دمشق يدير مهام البطريركية. ثم تشاغل المطارنة عن مشروع القانون بالمنازعات الشخصية وبيع بعض المآرب الخصوصية حالت دون اتلافهم.

بيروت تحتج

واحتج غفرائيل متروبوليت بيروت على إغفال اسمه من لائحة المطارنة المنتخبين، فأبرق في الرابع من تشرين الأول سنة ١٨٩١ إلى المابين وإلى نظارة العدلية يقول: إن حرمانه حق الاشتراك في الانتخاب جلب اليأس لنفسه ولأبناء أبرشيته؛ لأنه بلا سبب، وأنه يسترحم العدل وعدم الإجحاف. ووقع الوجهاء عريضة بمثل ما تقدم ورفعوها إلى والي ولاية بيروت عزيز باشا.

وأما دار المطرانية في يوم الأحد في الثالث عشر من تشرين الأول الكهنه والوجوه والأعيان واتخذوا القرارات التالية؛ أولاً: أن الملة الأرثوذكسية في بيروت ولبنان لا فرق عندها بين يوناني ووطني؛ لأنه ليس في كنيسة المسيح يوناني ولا عربي، بل الجميع أخوة بالمسيح، وإنما يهمها أن ينتخب البطريرك انتخاباً قانونياً، وأن يكون المنتخب معروفاً بحسن الصفات والغيرة الرسولية. ثانياً: تأسف الملة لصدور تبليغات كاذبة ودسائس مختلفة بني عليها حرمان مطران الأبرشية من حق الاشتراك في انتخاب البطريرك. ثالثاً: أن الملة تقيم الحجة على الانتخاب؛ لأنه كان غير قانوني، ولأن المنتخب تذرع بوسائل لا يجيزها الدين القويم للوصول إلى الرئاسة. رابعاً: إبلاغ والي والمطران هذه القرارات.^٥ وفي السابع من تشرين الثاني عاد الكهنه والوجوه والأعيان إلى الاجتماع، «فقرروا بصوت واحد عدم الاعتراف بالسيد اسبريدون بطريركاً عليهم وعدم استقباله والاحتفاء به، وتشكيل لجنة تفوض إجراء ما يلزم دفاعاً عن حق الطائفة وكرامتها.»^٦

إسقاط اسبريدون في دمشق

وتسرع سيرا فيم وجرمانوس فأقاما في الثالث من تشرين الثاني قداساً حبرياً في كاتدرائية دمشق ورفعوا اسم اسبريدون بطريركاً، فنادى الشعب: «فليسقط!» وعلت الضجة ودخل

^٥ «الخلاصة الوافية» المشار إليها، ص ١٨٧-١٩٤.

^٦ المرجع نفسه، ص ١٩٧-٢٠١.

قسم من الشعب إلى الهيكل لإخراج سيرافيم منه، فسقط على الأرض وجلاً، وكان جرمانوس مستوياً على الكرسي في الخوروس فلم يَفْهَ بشيء ولم يبدِ حركة، وأقبلت الضابطة فأحاطوا بالكنيسة، وسكنت الضوضاء وانتهت خدمة القداس فواكب رجال الضابطة المطرانين حتى دار البطريركية.

قدوم البطريرك المنتخب

وأرسل اسبيريديون يستقدم الوفد الدمشقي إليه، وكان قد ضجر من الانتظار، فترأس الوفد المطارنة جرمانوس ونيقوذيموس وجراسيموس، واشترك فيه من الشعب الدمشقي كلٌّ من جبرائيل اسبر ونعمان أبي شعر وموسى الصباغ وسليم شاهين ونقولا شاهين، وسار الوفد عبر الأردن ودخل أورشليم ليلة عيد الميلاد، وجاء بيروت وال جديد؛ إسماعيل كمال بك، فكتب إليه اسبيريديون مهنئاً وطلب إلى خليل أفندي الخوري أن ينقل إلى الوالي الجديد عزم البطريرك على القيام إلى مقره بحرًا ووجوب مروره في بيروت، وأنه يصعب عليه جدًا ألا يصادف فيها احتفالاً كنسيًا، فاتصل كمال بك بالمطران غفرائيل. واتفق الاثنان على أن يكتب البطريرك إلى غفرائيل مُنبئًا بيوم وصوله، فيرد عليه المطران بأنه يستقبله حال وصوله إلى كرسيه. ولكن البطريرك المنتخب أبى أن يعمل بالمحبة المفروضة، فأبرق إلى غفرائيل محدّدًا تاريخ وصوله موجبًا استقباله كنسيًا؛ لأنه سيخرج من الباخرة تَوًّا إلى الكنيسة، فسكت غفرائيل عن الجواب وأطلع الوالي على نص البرقية، فأشار عليه هذا أن يخرج وحده إلى استقبال البطريرك ليقيم الدليل على طاعته للدولة، وأن يمتنع عن إقامة الاحتفال الكنسي.

وبلغ البطريرك المنتخب بيروت في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٨٩٢ فلقبه مكتوبجي الولاية مندوبًا عن الوالي وأركبه العربّة وسار محفوفًا بالضابطة إلى السراي. أما غفرائيل فإنه لم يدرك اسبيريديون إلا بعد أن ركب العربّة فنتبعه إلى دار الحكومة وصافحه في قاعاتها الكبرى، وألقى اسبيريديون خطابًا باليونانية داعيًا بحفظ الذات السلطانية شاكرًا للوالي. ثم تلاه غفرائيل فقال إنه يستقبل امتثالًا للأوامر السلطانية، ويمتنع عن الاحتفال الروحي احتجاجًا على ما جرى في أثناء الانتخاب، وقضى اسبيريديون عشرة أيام في بيروت على ضيافة حبيب طراد، وأعد له بعض الوجوه مآدب مخصوصة، ولكن الكنائس ظلت مقفولة في وجهه، فعمد إلى الرحيل إلى دمشق.

ووصل اسبيريديون إلى دمشق في غاية كانون الثاني فاستقبله في الهامة بعض الموظفين الرسميين وكوكبة من الفرسان وتراجمة القناصل، فجاءوا به إلى دار الحكومة

فدار البطريركية، فدخل الكنيسة تَوًّا وتُليت الصلاة وأُجريت الرسوم الدينية لِتبوُّء الكرسي وتسليم العصا. وكان الشعب الدمشقي قد لجأ إلى كنيسة مار يوحنا مذ أصرَّ المطارنة على رفع اسم اسبريدون في الكنيسة الكاتدرائية، فلما استقر البطريرك في مركزه أمر بإقفال كنيسة مار يوحنا، فأخذ الشعب يجتمع للصلاة في مقبرة القديس جاورجيوس.

الرسائل السلامية

وفي الرابع من شباط سنة ١٨٩٢ وجَّه البطريرك رسائله السلامية إلى رؤساء الكهنة يفيد ارتقاءه الكرسي الرسولي، ويؤكد استعداده لرفع شأن الكنيسة وحفظ عقائدها، ويطلب ذكر اسمه في خدمة الأسرار، فأجاب المطارنة على الرسائل السلامية وخضعوا للبطريرك الجديد إلا غفرانيل بيروت وملاتيوس اللاذقية وأثناسيوس حمص وغريغوريوس طرابلس. وشكا البطريرك أمره إلى الحكومة العثمانية فتدخل الولاة والمتصرفون وضغطوا على هؤلاء السادة فقبلوا وذكروا اسم البطريرك في خدمة الأسرار، ولكن النفور تمكَّن من نفوس الشعب وكمن فيها.

سَخف واستبداد

واختلط على اسبريدون رأيه والتبس عليه وجه الصواب وانقاد إلى طفلايوس.^٧ فسام الأرشمندريت بنيامين الراهب اليوناني مطراناً على ديار بكر قبل اعتراف المطارنة الأربعة بغبطته. ثم شرطن في السابع عشر من أيار سنة ١٨٩٢ نكتاريوس اليوناني مطراناً على حلب قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر، وفصل الإسكندرونة عن أبرشية ترسييس

^٧ يوناني وُلِدَ في جزيرة كالمنوس ودرس العلوم الشرعية والقوانين في مدارس اليونان، وأجاد اليونانية والإفرنسية والتركية، وتعاطى المحاماة في الآستانة فعرف «بالزلافة والعرطسة والعبقرة والفسفسة»، وتدخل في السياسة ففر إلى بلاد اليونان. ثم برز في الإسكندرية ودخل في خدمة بطريركها فطُرد لشدة مكره وخداعه، فعاد إلى الآستانة ودخل في خدمة الحكومة العثمانية فطُرد منها أيضاً. ولما تبوَّأ البطريرك نيقوديموس الكرسي الأورشليمي عثر بطفلايوس في الآستانة فاتخذة كاتباً لليونانية والإفرنسية وجاء به إلى القدس، فما عتَم أن استولى على أفكار البطريرك واستبد به، فهاج رهبان القبر واستصرخوا متصرف القدس للتخلص منه، فحتم المتصرف طرد طفلايوس، فعاد إلى الآستانة حيث أقام بضع سنين. فلما رقي اسبريدون الكرسي الأنطاكي نصحت الحكومة اليونانية باتخاذ طفلايوس مدبراً ومشيراً.

وألحقها بأبرشية حلب، وضم أنطاكية إلى حلب قبل استرشاد المطارنة أصحاب الرأي واستنصاحهم. وطفق طفلاريوس يأمر وينهي ويحكم ويفصل ويربط ويقطع ويحرم ويحلل وليس من يسأل. ولم يرَضَ طفلاريوس عن قيام قوميسيون زمني أو روجي فامتعض وجهاء الطائفة في دمشق حتى الذين سعوا لاسبيريدون في البطيريركية، فتألفت لجنة شعبية لحلّ المشادة التي كانت لا تزال قائمة بين البطيريك وبين الشعب الذين لم يرضوا عن انتخابه، وتقدمت هذه اللجنة من البطيريك بمواد أربع: (١) إنشاء مدرسة إكلييريكية على نفقة البطيريك. (٢) توسيع نطاق المدرسة البطيريركية. (٣) إعادة الجمعيات الخيرية التي أُقفلت. (٤) الاعتراف بحقوق القوميسيون البطيريركي الزمني في النظر في مصالح الملة. فرفض البطيريك وأبى القبول وخرج إلى دير صيدنايا!

دمشق تستصرخ

واشتد ضيق العيش على الكهنة خَدَمَ الشعب في دمشق لامتناع المؤمنين عن طاعة البطيريك وابتعادهم عن الكنائس، فتقدموا إلى البطيريك يلتمسون منه إما النظر في استرضاء الشعب؛ ليعود إلى ممارسة واجباته الدينية، وإما أن يعين لهم راتبًا يقتاتون به، فقابلهم طفلاريوس بالبطيريك وأغلظ لهم الكلام وعاملهم بالجفاء، فخرجوا مغتاظين ولحقوا بالشعب وامتنعوا عن خدمة القداس، وحرروا عريضة بواقع الحال وبعثوا بها إلى رؤساء أساقفة الكرسي الأنطاكي. وهاك نصها:

أيها السادة أساقفة الكرسي الأنطاكي الجليل طهرهم: عَهْدُنَا بكم رعاة فاضلين أنكرتم ذاتكم لرعاية الخراف وحفظها من التبديد والاختطاف، لا تهربون ممن يتهدها، ويهمكم شأنها كل الأهمية؛ لكونها خاصة السيد الراعي الصالح الذي تَعْرِفُ صوته كما تعرف صوتكم. فتلتجئ إليكم بلساننا الضعيف مستمدة الحماية والرعاية مستغيثة بحوزتكم؛ إذ قد لعبت بها أيدي الاختطاف والتبديد. وقد عملنا غاية جهدنا في حفظها ومنع تشتتها وربطها بعرى الاتحاد فلم نتمكن من شيء؛ لأنها ترى أمامها راعيًا تجعلها الشكوك أن لا تعرف صوته ولا تستعبد، بل تهرب منه؛ فتشتت شملها وحُرمت منذ أمد طويل الغذاء الروحاني غذاء الكنيسة المقدسة. أطفالها يشبون بدون الاصطباغ بجرن المعمودية المقدسة الخلاصية، شبانها بعيدون عن ممارسة الأسرار الإلهية والتأملات الشريفة التي

بها تتحد مع رأس الخلاص وتنمو أعضاء للكنيسة التي أسسها المخلص، والرجال يضطهدون تصادمهم عواصف الأغراض الدنيوية، وتداهمهم أمطار الوشايات والدسائس لدى الدولة العلية التي إخلاص الطائفة لديها أشهر من نار على علم، يقاومهم أصحاب المبادئ المنافية لروح الإنجيل الشريف، وكثيراً ما يكون دفن موتاهم بدون الصلاة الأخيرة المفروضة.

الكهنة ألزمتهم الأمور هذه أن يمنعوا ذواتهم عن الخدمة فأصبحت الكنائس مسلوقة زينتها وبهجتها، أعني الطقوس الإلهية، فضلاً عن أن روح المحبة المسيحية أساس كل الفضائل، والكمال قد اضمحل من قلوب الشعب الأرثوذكسي في مركز الكرسي، وسادت بينهم بغضاء والانشقاقات والأحزاب، والتجأ عدد كبير منهم إلى كنائس غريبة. ومع أن لهفتهم وتعلقهم بالكنيسة الأرثوذكسية أقوى من كل مصادم، ولم تتمكن من أن تفصل جدودهم وآباءهم عنها كل القرون السالفة بطولها وشقاء أحوالها وصعوبة ظروفها، فإن الظروف والأحوال الحاضرة جعلتهم أن يفصلوا أولادهم عن مدارس الطائفة، فأدخلوهم إلى مدارس يرضعون فيها سم التعاليم المعوجة، وكل ذلك على أثر الانتخاب الذي حصل في العام الماضي للسدة البطريركية وانتداب السيد اسبيريدونس إليها بطريقة لم يقنع الشعب أنها عارية عن استعمال وسائل محرمة في الكتاب الطاهر وفي قوانين الكنيسة الشريفة.

وقد زاد الطين بلة واتسع الخرق؛ إذ إن فئة من الذين ساعدوا السيد اسبيريدون لتبوء السدة البطريركية أملاً بالفائدة للكنيسة الأنطاكية المحاطة بأعداء كثيرين، وظناً أنه صاحب دراية وقدرة وأهلية لسياسة الشعب وإدارة مهامه وتدبير شئونه، هؤلاء قد لاحظوا أن كل آمالهم قد خابت وظنونهم لم تصدق وما توسموا بهذا لا أصل له. وأعظم شاهد يؤيد لديهم ذلك اتخاذ عملاً أجانِب غرباء المكان واللسان ليسوسوا عوضاً عنه أمور الشعب مستأجرين لا يبالون بالخراف. ومع عدم لياقتهم بكونهم غير إكليريكيين فليس في أفئدتهم ولا ذرة من روح الإنجيل والمبادئ المسيحية ليساعدوا من يستخدمهم على احتقار القوانين الشريفة بانتداب أساقفة على خلاف ما تحدده النظمات الكنائسية. ويصنعون هكذا بمغايير عديدة شكوكاً كثيرة أمام الشعب البسيط، ويعملون غاية ما في وسعهم على انشقاق الشعب ورمي الإحن بين أفرادهم، وسيبذلون

الجهد في تذليل كبارِه واحتقار صغاره لا يسألون عن أولئك الذين شرودوا، كما أنهم يزامون الأمور ليعجلوا على شرود من لم يشرّد حتى الآن. فنهرع إليكم والحالة هذه سائلين غيرتكم أن تلتفتوا إلى هذا القطيع وتعملوا ما يستدعيه صوت ذلك الراعي الإلهي، الذي حسب قول النبي أرميا (١٣: ٢٠) سوف يقول لكل من الرعاة: أين هو القطيع الذي أعطيته؟ أين الغنم التي هي مجدك؟

نعم إن لكل منكم رعية خصوصية، وإنما الرعية التي تنتسب إلى مقر الكرسي الأنطاكي تحسب من رعيّتكم، كما أن أمر تعيين راعيها منوط إلى صوتكم المتفق، وكل منكم عليه أن يهتم بأمرها كما يهتم برعيته الخاصة، كيف لا وهذه المهمة تقتضيها الغيرة الإنجيلية والحمية الرسولية صارخة إليكم أن تناضلوا ضمن الطريقة القانونية؛ لأجل رفع هذه الحالة والالتجاء إلى كل ما به إصلاحها مع الشرف والخير لكنيسة مدينة الله أنطاكية. فإن صوتكم المتفق أو المتغلب بالأكثرية يقوم مقام مجمع أنطاكية المقدس، وحكمه بمسائل كهذه يوجب امتثال من تعيينه لا يقوم إلا بصوتكم، فاتفقوا كلكم أو أغلبكم على ما به الصالح والشرف والخير، ودراية كل منكم وخبرته أوفر من أن تطرح لديها الوسائط الواجب استعمالها إما بالطلب من السيد اسبيريون أن ينتبه هو ذاته لإصلاح ذات البين، وإما بالتجاء إلى دائرة كنسية أوسع حسب القوانين المقدسة، وإما أخيراً وأولاً بقرع أبواب الحكومة العادلة التي أيدها الله إذا شرحت لها الأمور لا شك في أنها سوف تأخذ بناصر الحق الذي يعلو ولا يُعلَى عليه. في دمشق تحريراً في ١٧ حزيران سنة ١٨٩٢ توافق خمسة من الآباء الكهنة وخمسة من الوجوه.^٨

المدارس الروسية (١٨٩٥)

ولجأ بعض الأساقفة إلى المقامات الروسية الرسمية والإكليريكية متذمرين، وأفلت روفائيل أسقف بروكلين من يد اليونان وكان لا يزال آنئذٍ الأرشمندريت روفائيل هواويني،

^٨ «الخلاصة الوافية»، ص ٢٤٧-٢٤٩.

وزار روسية واتصل بخيتروفو مؤسس الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وتحدث إليه في موضوع العمل في فلسطين، فشكا خيتروفو من خمول الإكليروس اليونان وإعراضه ومصارمته، فاقترح الأرشمندريت إيفاد أحد نظار مدارس الجمعية لزيارة مطارنة الكرسي الأنطاكي، فقاطعه خيتروفو قائلاً إنه يخشى أن يكون هؤلاء مثل زملائهم في فلسطين يحبون المال ويصرفونه على أنفسهم، فأطرى الأرشمندريت بأخلاق أثناسيوس متروبوليت حمص واهتمامه بالعلم والتعليم، فأخذ خيتروفو برأي الأرشمندريت وأوفد إسكندر قوزما رئيس سمينار الناصرة لزيارة مطارنة الكرسي الأنطاكي، فطاف إسكندر قوزما في أبرشيات أنطاكية وتحدث إلى المطارنة ورفع تقريراً حبذ فيه العمل في سورية ولبنان، فبادرت الجمعية الإمبراطورية للعمل في حمص في السنة ١٨٩٤. وفي السنة التالية أخذت على عاتقها مدرسة البنات في دمشق والشويفات ومدرسة الصبيان في عالية وراشيا الوادي وفتحت ست عشرة مدرسة أخرى معظمها في قرى لبنان. وعُني خيتروفو بنقل الكتب المدرسية إلى اللغة العربية وعهد بذلك إلى إسكندر قوزما وميخائيل عطايا وإسكندر ياكوبوفيتش وديمترى بوغوانوف وبولس نيقولايفسكي، وحثَّ آخرين على التصنيف فاشتهر بين هؤلاء خليل بيدس.

موقفنا من رومة (١٨٩٥)

واغتنم حَبر رومة لاوون الثالث عشر (١٨٧٨-١٩٠٣) فرصة يوبيله الأسقفي، فوجّه في العشرين من حزيران سنة ١٨٩٤ رسالة إلى أمراء المسكونة تدعى Praeclara gratulationis دعا بها كنيستنا الأرثوذكسية الجامعة الرسولية إلى الاتحاد بالكرسي الروماني، ناهباً إلى أن هذا الاتحاد ممكن بمجرد الاعتراف به أنه الحبر الأعظم والرئيس الروحي والمدني الأسمى لجميع الكنائس، والنائب الوحيد على الأرض للمسيح والموزع لكل نعمة وموهبة.

فرد على هذه الرسالة البطريرك المسكوني أفثيمىوس السابع (١٨٩٥-١٨٩٧) برسالة بطريركية مجمعية تجوز تسميتها على الطريقة الرومانية الرسالة «كل نفس أرثوذكسية تقية»؛ لأنها بدأت بهذه العبارة، وذلك في آب السنة ١٨٩٥. وقد نقلها إلى العربية أنتنّ غطاس قندلفت وعاد فأذن بطبعها ثانية سيادة كيريوس إيليا متروبوليت بيروت

وتوابعها الجزيل البر والتقوى.^٩ وهاك خلاصتها: «كل نفس أرثوذكسية تقية لها غيرة حقيقية مخلص على مجد الله تحزن حزناً عميقاً وتتوجع وتوجعاً عظيماً حين ترى أن الشيطان باغض الخيرات، الذي قتل الإنسان من البدء، لا يزال بدافع حسده من خلاص البشر يزرع في كل وقت أصنافاً من الزؤان في حقل الرب ليغربل الحنطة ويبيدها. ففي الأزمنة الأخيرة فصل الشرير عن كنيسة المسيح الأرثوذكسية أمماً برمتها في بلاد الغرب؛ إذ نفخ في بعض أساقفة رومة أفكار كبرياء ولدت بدءاً جديدة متنوعة خارجة عن القانون ومخالفة للإنجيل.

ومن ذلك أن بابا رومة الحالي لاوون الثالث عشر الجزيل الغبطة اغتنم فرصة يوبيله الأسقي، ووجه في شهر حزيران من السنة الخلاصية الماضية منشوراً إلى أمراء المسكونة وشعوبها، دعا به كنيستنا أيضاً كنيسة المسيح الأرثوذكسية الجامعة الرسولية إلى الاتحاد بالكرسي الباباوي، ذاهباً إلى أن هذا الاتحاد ممكن بمجرد الاعتراف به أنه الحبر الأعظم والرئيس الروحي والمدني الأسمى لعمود الكنائس والنائب الوحيد على الأرض للمسيح والموزع لكل نعمة وموهبة.

ولا ريب في أن على كل قلب مسيحي أن يمتلئ شوقاً إلى اتحاد الكنائس؛ ولذا تصلي الكنيسة كل يوم إلى الرب من أجل جمع المشتتين ورجوع الضالين إلى طريق الحقيقة المستقيم الذي وحده يؤدي إلى حياة الكل ابن الله الوحيد وكلمته ربنا يسوع المسيح، وكنيستنا كنيسة المسيح الأرثوذكسية على استعداد دائم لأن تقبل كل ما من شأنه الاتحاد إذا كان أسقف رومة يرفض رفضاً باتاً سلسلة التعاليم الجديدة التي أدخلت في كنيسته وكانت سبب الانفصال المحزن بين الكنائس في الشرق والغرب.

وتود كنيسة المسيح المقدسة الجامعة الرسولية الأرثوذكسية وداً مقدساً لو أن الكنائس المنشقة تتحد معها على أساس دستور الإيمان الواحد؛ لأنه بدون الاتحاد في الإيمان على هذه الصورة يستحيل اتحاد الكنائس المرغوب.

ولإتمام الرغبة التقوية في اتحاد الكنائس يقتضي تعيين مبدأ واحد يُرجع إليه، ولا مبدأ سليماً وقاعدة عامة إلا تعليم الإنجيل الشريف والمجامع السبعة المسكونية المقدسة.

^٩ رسالة بطريركية ومجمعية جواباً على رسالة البابا لاوون الثالث عشر في اتحاد الكنائس، وقف على طبعها ثلاثة حضرة الأب الأرشمندريت أغناطيوس هزيم (بيروت ١٩٥٨).

ولا نعني الخلافات السطحية والفروق الطقسية، بل نعني الاختلافات الجوهرية المتعلقة بعقائد الإيمان المسلّمة من الله وبنظام إدارة الكنائس القانوني المؤسس من الله أيضًا. إن الطريقة المقرّبة إلى الاتحاد هي رجوع الكنيسة الغربية إلى النظام القديم عقيدة وإدارة؛ لأن الإيمان لا يمكن أن يتغير مع الزمان ولا مع الظروف، بل يبقى دائمًا هو نفسه.

وكانت الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية كنيسة المجمع المسكونية السبعة تؤمن وتعتقد وفقًا للأقوال الإنجيلية بأن الروح القدس ينبثق من الأب، ولكن الغرب بدأ منذ القرن التاسع ينشر الرأي بأن الروح القدس ينبثق من الابن أيضًا، فإذا كانت كنيسة رومة تبقى مصرّة ولا ترجع إلى اعتقاد المجمع المسكونية تكون قد ألفت نفسها تحت المسؤولية التامة أمام كنيسة المسيح الواحدة المقدسة الرسولية التي لا تزال تتمسك بالتعاليم الأبوية تمسكًا شديد، وتحفظ وديعة الإيمان المسلّمة إليها غير متغيرة في شيء خاضعة للوصية الرسولية القائلة: «احفظ الوديعة الحسنة بالروح القدس الساكن فيها، مُعرضًا عن الكلام الباطل الدنس ومناقضات العلم الكاذب الاسم الذي انتحله قوم فزاغوا عن الإيمان».^{١٠}

وكنيسة المجمع المسكونية السبعة أقامت سر المعمودية منذ القديم بثلاث غطسات في الماء، ولم يزل التعميد بثلاث غطسات محفوظًا في الغرب إلى القرن الثالث عشر عينه، وأحواض المعمودية التي لا تزال قائمة إلى الآن في أقدم هياكل إيطالية شهود تنادي عن الحقيقة بكل صراحة. أما نحن الأرثوذكسيين فنباتنا أمانة على التعليم الرسولي «قد وقفنا مجاهدين عن المتاع العام؛ أعني الكنز الأبوي، كنز الإيمان الصحيح».

والكنيسة الواحدة المقدسة الرسولية لبثت ألف سنة ونيّف تتم سر الشكر الإلهي في الشرق والغرب بخبز مخمّر على مثال مخلصنا كما يشهد محبو الحقيقة من علماء اللاهوت الباباويين أنفسهم.

وكنيسة المجمع المسكونية السبعة كانت تعتقد أن القرايين تقدس ببركة الكاهن بعد صلاة استدعاء الروح القدس، إلا أن الكنيسة الباباوية ابتدعت بعد ذلك بدعة جديدة واستبدلت بقولها: إن تقديس القرايين المكرمة يتم بمجرد لفظ الأقوال الربانية: «خذوا كلوا هذا هو جسيدي واشربوا منه كلكم هذا هو دمي!»

^{١٠} الرسالة الثانية إلى تيموثاوس ١: ١٣-١٤ والأولى إلى تيموثاوس ٦: ٢٠.
باسيليوس الكبير في رسالته الـ ٢٤٣ إلى الأساقفة الإيطاليين والإفرنسيين.

وكنيسة المجامع المسكونية السبعة تبعت وصية الرب القائلة: «اشربوا منه كلكم»، فناولت الجميع «كلكم» من الكأس المقدسة، أما الكنيسة الباباوية فإنها حرمت الشعب من الكأس خلافاً لوصية الرب ولعرف الكنيسة القديمة العام.

وكنيسة المجامع المسكونية السبعة اتبعت تعليم الكتاب المقدس والتسليم الرسولي، فصلّت وطلبت رحمة الله للعفو عن الراقدين بالرب وراحتهم، ولكن الكنيسة الباباوية قالت منذ القرن الثاني عشر بالنار المطهرة، وزيادة فضائل القديسين وتوزيعها على المحتاجين معتقدة أيضاً بأن الصديقين يحصلون على تمام المكافأة قبل القيامة العامة والدينونة.

والكنيسة الواحدة المقدسة الرسولية كنيسة المجامع المسكونية السبعة تعتقد بأن التجسد المتعالي عن الطبيعة تجسد كلمة الله الابن الوحيد من الروح القدس ومريم البتول هو وحده كان نقيّاً وبلا دنس، إلا أن الكنيسة الباباوية ابتعدت من مدة لا تزيد عن الأربعين سنة واعتقدت اعتقاداً جديداً بالحبل بلا دنس بوالدة الإله مريم الدائمة بتوليبتها، وهذه العقيدة لم تعرفها الكنيسة القديمة.

وإذا راجعنا ما قاله أبناء الكنيسة ومجامعها في القرون التسعة الأولى نجد أن أسقف رومة لم يُعتبر ولا مرة رئيساً أعلى ورأساً معصوماً في الكنيسة، وأن كل أسقف إنما هو رأس كنيسة محلية خاضع لأوامر وأحكام مجامع الكنيسة الجامعة بما أنها هي وحدها سليمة من الغلط، ولا يستثنى من هذا القانون أسقف رومة مطلقاً كما يوضح التاريخ الكنائسي، وأن رئيس الكنيسة الأبدي ورأسها السرمدى إنما هو يسوع المسيح ربنا؛ لأنه هو رأس جسم الكنيسة، وهو قال لتلاميذه ورسله: «وها أنا معكم كل الأيام وإلى منتهى الدهر».

وبطرس الرسول يتحدث في مجمع أورشليم الرسولي بلسان شخص مساوٍ للحاضرين وهم مساوون له، حتى إن بولس وبخه مرة توبيخاً مرّاً، كما يتّضح من الرسالة إلى الغلاطيين: ١١ الآية: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة سأبني كنيسة» ١٢ تشير إلى الاعتراف القويم الذي اعترف به بطرس بالرب «أنه هو المسيح ابن الله الحي» ١٣ وعلى

١١ «ولكن لما قدم كيفاً إلى أنطاكية قاومته وجهاً لوجه؛ لأنه كان ملوماً.» ٢: ١١.

١٢ بشارة متى ١٦: ١٨.

١٣ بشارة متى ١٦: ١٦.

هذا الاعتراف والإيمان أسس الرسل جميعهم وخلفاؤهم التعليم الإنجيلي الخلاصي، وهكذا شرح بولس الرسول هذه الآية الإلهية شرحاً صريحاً، حيث نطق بروح الوحي وقال: «بحسب نعمة الله المعطاة لي كبناء حكيم وضعت أساساً وآخر يبني عليه ... إذ لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الموضوع الذي هو يسوع المسيح.»^{١٤}

كُرم الآباء أسقف رومة؛ لأنه أسقف أول مدينة في المملكة فمنحوه شرف التقدم في الجلسات، واعتبروه أول أسقف في الرتبة فقط؛ أعني أولاً بين متساوين، وهذا التقدم منحوه فيما بعد لأسقف القسطنطينية حين صارت هذه المدينة عاصمة المملكة، كما يشهد القانون الثامن والعشرون من قوانين المجمع المسكوني الرابع، ولم يرد أي تلميح لا في قانون من القوانين ولا في كتاب أب من الآباء أن أسقف رومة هو وحده رئيس الكنيسة عموماً وقاضٍ معصوم عن الغلط.

وكل كنيسة ذات رئاسة كانت في عصر المجامع المسكونية السبعة مستقلة عن غيرها ضابطة سياستها بيدها، وعندما كانت تقوم قضايا مهمة تحتاج إلى تصديق الكنيسة كلها كانت تستأنف إلى مجمع مسكوني؛ لأن المجمع المسكوني هو وحده كان ولم يزل المحكمة العليا للكنيسة الجامعة كلها، وإن كان بعض أساقفة رومة اعتراهم أحياناً حب المجد فقاموا يطلبون حقوقاً تزيد عن ملء كيلهم مدعين برئاسة مطلقة، فهؤلاء وبخوا أو زجروا كما كان يليق.

وعلاقة الشرق مع الغرب علاقة مستقلة تتضح من أقوال باسيليوس الكبير في رسالته إلى أفسابيوس أسقف سميساط حيث يقول: «وَحَقًّا إن من طبيعة الأخلاق الصلغة أنها متى وجدت من يلاطفها ازدادت تشامخاً، فإنه إذا تعطف الرب علينا فإلى أي شيء أكثر من تعطفه نحن محتاجون؟ ولكن إذا استمر غضب الله فماذا تكون مساعدة حاجب كبرياء الغربيين؟! فإنهم والحق يقال ليسوا على شيء من العلم، ولا يطيقون أن يتعلموا، ولكونهم مليئين بالوساوس الكاذبة يفعلون الآن ما كانوا يفعلونه قبلاً بمركلوس.» هذا والأوامر الأيسودورية كاذبة مزورة.

وقد وسَّعت كنيسة رومة الهوة بين الفريقين بإعلانها رسمياً في أواخر القرن التاسع عشر أن أسقف رومة معصوم من الغلط، فأدهشت العالم المسيحي! إن كنيسة المسيح لا تعرف أحداً وُجد على الأرض معصوماً من الغلط غير ابن الله وكلمته، وبطرس الرسول

^{١٤} رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيين ٣: ١٠-١١.

نفسه الذي يظن البابا أنه خليفته أنكر الرب ثلاث مرات ووبخه بولس الرسول مرتين بأنه لا يسعى مستقيماً إلى حقيقة الإنجيل. والبابا ليباريوس وقّع اعترافاً آريوسياً في القرن الرابع. والبابا زوسيموس في القرن الخامس استحسن اعترافاً هرطوقياً متنكراً للخطيئة الجدية. والبابا فيجليوس حكم عليه المجمع الخامس في القرن السادس بسبب سوء عقيدته. والبابا أونوريوس سقط في هرطقة المشيئة الواحدة فحكم عليه المجمع السادس واعترف خلفاؤه بهذا الحكم.

أيها الشعوب المحبة للمسيح شعوب البلاد الغربية الأماجد نفرح بكم؛ إذ نرى فيكم غيرة المسيح بانقيادكم للحقيقة التي تعرفونها أنه بدون الإيمان بالمسيح لا يمكن إرضاء الله، ولكن الإيمان بالمسيح يجب أن يكون مستقيماً موافقاً للكتاب والتقليد. وكنيسة الله الجامعة الحافظة في أحضانها هذا الإيمان الخلاصي بصفته الحقيقية؛ أي كوديعة إلهية لا تمس إيماناً واحداً صحيحاً وسليماً من كل غش كما سُلّم إليها منذ القديم وكما شرحه الآباء المتوشحون بالله أن هذه الكنيسة هي واحدة على الدوام وليست كثرة ولا تتنوع مع امتداد الزمن؛ لأن الحقائق الإنجيلية لا تقبل تغييراً ولا تطوراً في الزمن كالفلسفات المتنوعة؛ «لأن المسيح يسوع هو أمس واليوم وإلى كل الدهور».

ولنحذر الرسل الكذبة الذين يأتون بشكل الحملان ويحاولون أن يصطادوا البسطاء فينا بأوعاد متنوعة غشاشة، ويحسبون كل شيء حلالاً ويتسامحون به في سبيل الاتحاد بالاعتراف بأن بابا رومة رئيس أعلى ومعصوم وله سلطان مطلق على الكنيسة كلها، نائب وحيد للمسيح على الأرض وينبوع لكل نعمة.

وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع هو يجعلنا كاملين راسخين مؤيدين مؤسسين، وليمنح جميع الذين هم خارج الحظيرة الواحدة المقدسة الجامعة الأرثوذكسية أن يستنبروا بنور نعمته ومعرفة الحق له المجد والعزة إلى أبد الآبدين، آمين.»

خشونة وفضاظة

وقسا قلب اسبيريديون وولّى الاستعطاف أذناً صماء. وفتئ طفلاريوس يثير الشغب باذلاً قصارى همته في إذلال الشعب واسبيريديون ضعيف الإرادة لا يحيد عما يوحيه إليه المشيرون؛ «حتى غدا الذين يتمادى في الإرجاف والانتقاص من رجال الفضل، والسعي في تحقيق بعض المطارنة وإذلال الرعية، وكانت الرعية تقيم الأود بالحزم وتارة تنيل

الراحة مظهرة ما تسر من النوايا النقية، فتعكف على تنشيط لجانها الخيرية ومدارسها المجانية.» ولكن هذه الفرص كانت تغتتم في ابتداع مشاكل جديدة ومتاعب عديدة. ومما يروى والرواية صحيحة أن أحد السادة المطارنة خوَّف البطريرك عاقبة الإقدام على إحدى الفريّات التي تغضب الشعب، وحَبَّب إليه عيش الدَّعة والموادعة، وأنذره بأن سخط الشعب من سخط الله، فأبى وأوعد بما لا خير فيه.^{١٥}

المناداة بالسقوط

ولما رأى الشعب عدول اسبيريدون عن جادة الاستقامة قام عليه قومة رجل واحد في يوم عيد الرسولين بطرس وبولس في التاسع والعشرين من حزيران سنة ١٨٩٧ ونادى بسقوطه، فذهب الوالي حسن باشا بنفسه إلى دار البطريركية وسمع دعوى الشعب فأعرض عن تطلبات السيد اسبيريدون.

وتولى ناظم باشا ولاية سورية والمسألة البطريركية في معظم اشتدادها فسلك فيها مسلك الاستقامة، ورفع إلى الباب العالي شكاوي الشعب الأنطاكي، فصدرت الإرادة السنية السلطانية بوجوب اجتماع المطارنة للنظر في المعضلة والتداول في حلها، فأقبلوا من أبرشياتهم ملاتيوس اللاذقية وميصائيل صور وصيدا وجرمانوس ترسييس ونيقوديموس عكار وأثناسيوس حمص وغريغوريوس حماة وجراسيموس سلفكياس وغريغوريوس طرابلس وبنيامين ديار بكر ونكتاريوس حلب. ولم يستطع غفرائيل بيروت الحضور فاستناب مطران طرابلس، وبذل اسبيريدون جهده للبقاء على السدة البطريركية، لكن بالقسوة والجفاء لا بالحب والولاء، وتحقق لدى السلطات الزمنية المحلية أن هذه الحال غير ممكنة ونصح بعض المخلصين من المطارنة لغبطته أن يستعفي، فقدم استعفائه في الحادي والثلاثين من كانون الثاني سنة ١٨٩٨.

وقام بعد حين الأرشمندريت كاراباتاكي فصنف لمناسبة يوبيل اسبيريدون الأسقفى كتابًا استغرق مائة وعشرين صفحة بحجم كبير عنوانه: «البطريرك اسبيريدون والمسألة البطريركية الأنطاكية»، ضمَّن سيرة حياة اسبيريدون في صفحات قليلة، وأفاض في الكلام بشأن انتخابه إلى الكرسي الأنطاكي، فعزا سقوطه إلى ما ارتكبه من أخطاء وإلى تدخل

^{١٥} «الأرج الزاكي»، ص ٥٢.

الروس وإثارة النعرة القومية. وجاء بفيذس فافترض افتراضاً أن اسبيريديون قوَّى العنصر الوطني في أثناء بطيريكته وخدم مآرب الروس وارتركب ما ارتكب، فكان ما كان من أمر تسقيطه.^{١٦}

جرمانوس القائمقام البطيركي (١٨٩٨)

وقبل المجمع الأنطاكي المقدس استعفاء اسبيريديون في جلسة السادس من شباط سنة ١٨٩٨ وانتخب جرمانوس متروبوليت ترسيس قائمقاماً بطيررگا، وأبلغ السلطات المحلية بذلك فرفعته إلى الباب العالي، فورد التصديق عليه في الثالث والعشرين من الشهر نفسه. ولما رأى جرمانوس أن المطارنة خولوه هذه المرتبة السامية، وأن الشعب مسرور به طمع بالكرسي البطيركي، ونفخ نكتاريوس متروبوليت حلب في أنف جرمانوس شيئاً من الغرور، فأصغى جرمانوس إليه وعوّل على البقاء في الكرسي مهما كلفه الأمر. وكان نكتاريوس مُوطناً نفسه على بلوغ الذروة البطيركية متوكئاً على عكاز جرمانوس، ولكن رحمة الله تداركت الكنيسة فكشفت برقع الغرور وتمحلات نكاريوس ومقاوماته غير المشروعة التي استمر عليها مع ما توجه من المجمع من النصائح والإنذارات خطأً وشفاهاً.^{١٧}

ثم صوّتت الحكومة العثمانية مراعاة الأكثرية في قرار المجمع، ولم تعتبر الاكتفاء بالمرشحين من ضمن مطارنة الكرسي الأنطاكي ذنباً، فأقبل جميع مطارنة ونواب الأمة على إجراء الترشيح للمركز البطيركي في السادس من أيار سنة ١٨٩٨، فأصاب كل مطارنة الكرسي الأحد عشر خطأً من الترشيح، واستثنى منهم بنيامين ديار بكر ونكتاريوس حلب؛ لأنهما لم يكملتا سبع سنوات في أبرشيتهما عملاً بالقانون البطيركي القسطنطيني الذي كان ساري المفعول آنئذٍ في القسطنطينية وأنطاكية.

ولم يرق هذا الأمر لنكتاريوس فصوّر المسألة بصورة التعصب الجنسي، وأثار خواطر جرمانوس وبنيامين لمشايعته، وشكا أمره على هذا الأساس إلى البطيركين المسكوني والأورشليمي، والواقع أن المجمع الأنطاكي شمل مطارنة من العرب واليونان،

^{١٦} Bapheidès, op. cit., III, 275.

^{١٧} «الأرج الزاكي»، ص ٥٤-٥٥.

فأين التعصب الجنسي في الترشيح؟ وإذا كان هنالك شيء من ذلك فالمسئولية فيه تقع على نكتاريوس وبنيامين وجرمانوس اليونانيين الذين تشبثوا بإدخال مرشحين من خارج الكرسي الأنطاكي وليس في خارجه أحد من الإكليروس العربي! وبولس الرسول قال: «ولبستم الإنسان الجديد فثمة ليس بعد يوناني ولا يهودي لا ختان ولا قلف، لا أعجمي ولا أسكوتي لا عبد ولا حر، بل المسيح هو كل شيء وفي كل شيء».^{١٨}

ملاطيوس القائمقام البطريكي (١٨٩٨-١٨٩٩)

وتدارك المدد العلوي المجمع الأنطاكي ففصل جرمانوس عن القائمقامية بعد أن أُنذره مراراً، وانتخب في الثاني عشر من أيار سنة ١٨٩٨ ملاطيوس اللاذقية للقائمقامية، وكثرت التدخلات وتنوعت فلم تصدر الإرادة السنية بالثبوت قبل الثالث والعشرين من شباط سنة ١٨٩٩.

البطريك ملاطيوس الثاني (١٨٩٩-١٩٠٦)

وقبلت السلطات العثمانية دفتر الترشيح بلا استثناء بنيامين ونكتاريوس، ودعا القائمقام الجديد المجمع المقدس إلى العمل، فتمنع المطارنة المخالفون عن الاشتراك وكتبوا أنهم لا يعرفون السيد ملاطيوس قائمقاماً رسمياً، فالتأمت هيئة المجمع ثانية وأُعيد استدعاء المطارنة الثلاثة فأبوا، فاستدعتهم الهيئة للمرة الثالث فأبوا وأضافوا أن فصل جرمانوس وتثبيت ملاطيوس هو بغير محله، فحينئذ قرر المجمع قانونية الجلسات السابقة منذ السادس من أيار، وعمل المجمع بدونهم، وأرسل دفتر الترشيح إلى الآستانة. وبعد أن قُبل فيه وأخذ في المعاملات عليه عرض من المداخلات ما أعاق إرجاعه حتى الثالث من تشرين الأول سنة ١٨٩٩، فاستدعى القائمقام المطارنة المخالفين فلم يشاءوا، ولما كان العمل الانتخابي تاماً منذ الخامس عشر من نيسان سنة ١٨٩٩ ولم يعرض عليه ما يفسده تقدمت المضبطة القانونية بتثبيت ذلك العمل. وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٩٩ صدرت الإرادة السلطانية بقبول الانتخاب وتصديق مأمورية ملاطيوس الثاني بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق.^{١٩}

^{١٨} رسالة القديس بولس إلى الكولسيين ٣: ١٠-١١.

^{١٩} «الأرج الزاكي»، ص ٥٦ والمحبة تاريخ ٢٤ نيسان سنة ١٨٩٩.

وامتلأت القلوب سرورًا وحمل البرق البشرى إلى الشعب الأنطاكي في أقاصي الأرض، ونشرت الجرائد في مصر والشام هذه البشرى بعبارات ملؤها التهئة:

رجاء دافعتنا الأيام فيه فوجدت منا قلوبًا أشد على الدهر من الدهر، وأثبت على الصبر من الصبر، ونفوسًا أصلب من الحديد تميد لها الجبال ولا تميد، وعزائم تفري الصوارم وترغم كل مراغم حتى ساعف الإقبال وسعد المأل، وصدحت البشرى بالأمانى فرددتها القلوب ترديدًا وكررتها شداء ونشيدًا، فتمت النعمة العظمى والمنحة الكبرى. ألا وإن العناية الإلهية قد انتدبت إلى السدة البطيركية الأنطاكية، مثال الكمال الأكمل وعلم العلم الأمثل نبراس الطهارة وعنوان البرارة حنانيا مصره مقامًا وأفوذيسوس عصره مقامًا، الحبر الجليل الغيور والراعي النبيل الوقور كيريوس كيريوس ملاتيوس الجزيل الطوبى والفائق القداسة بطيريك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق مطران اللاذقية سابقًا.^{٢٠}

تنصيب البطيريك

وما لاح نور صباح الأحد في الحادي والثلاثين من تشرين الأول سنة ١٨٩٩ حتى غصت الكاتدرائية المريمية داخلًا وخارجًا ودار البطيركية بجماهير المؤمنين الأرثوذكسين وغيرهم. وفي الساعة التاسعة حضر قناصل الدول وفي مقدمتهم ألكسيس بيلاييف قنصل روسية العام في دمشق والبرنس شوخوفسكي كونشليرها، فخرج الجميع من دار البطيركية يتقدمهم خفراء القناصل ويواكبهم عدد كبير من الجند وقصدوا الكنيسة، ولدى وصولهم إلى بابها قدم خسرو باشا وخلوصي باشا من قبل المشير، ويوسف طنوس و خليل الخوري من قبل الوالي.

فاتشح غبطته بالميتة والبطرشيلى والأمفوريون، ودخل إلى الهيكل وأمامه الشموع والمرتلون يرتلون «بواجب الاستيهال»، والشمامسة يبخرون حتى وصل إلى الباب الملوكي، فانتصب أمام المائدة المقدسة والسادة المطارنة على جانبيها، وحينئذ ابتدأت صلاة التنصيب، فتلا أحد السادة التريصاغيون، ثم رتل طروبارية أحد حلول الروح القدس:

^{٢٠} «بشرى المحبة» من قلم أمين ضاهر خير الله، «الأرج الزاكي»، ص ٥٧-٦٠، راجع أيضًا: مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٣٣٢-٣٣٣.

«مبارك أنت أيها المسيح إلهنا!» والقنداق: «لما انحدر العلي مبلبلًا للألسن»، ثم ابتداءً غبطته بطلبات وختمها بالحل، وبعدئذٍ وقف في الباب الملوكي متجهًا إلى الشعب فمثل أمامه الأرشمندريت بولس أبو عضل كاتب المجمع المقدس ففاه بالإعلام العظيم الميغا منيما، وهذا نصه:

إن المجمع الأنطاكي المقدس ومصف الإكليروس الموقر وجماعة الشعب الأرثوذكسي المبارك قد انتخبوا غبطتكم باتفاق الرأي بطريركًا على مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق بإلهام الله وتعطفات المتبوع الأعظم. وهم يدعونكم بواسطة الابن الحقيق إلى هذا الكرسي البطريركي المقدس المؤسس من هامتي الرسل بطرس وبولس الإلهيين. فارتقوا إذن إليه أيها السيد الكلي الغبطة وزينوه عمرًا مديدًا كما زينه أسلافكم الرسل الأطهار وأغناطيوس المتوشح بالله وأفسثا ثيوس الكبير وملاتيوس الشريف، وسائر الذين تقلدوا زمام هذا الكرسي المقدس بخوف الله.^{٢١}

ثم تقدم متروبوليت بيرو ولبنان أول الأساقفة سيامة وسلّم البطريرك عصا الرعاية البطريركية، وقال: «الله معك يا مبارك الرب، تشجع وتقوّ بالرب، وكن أمينًا في الخدمة التي اختارها لك الله إلهك، وارعَ بخوف الله وأمانة ونشاط الرعاية المفتداة بالدم الكريم في مراعي الخلاص، وأوردها ينابيع الحياة الإلهية حافظًا الإيمان ساهرًا في الصلاة محبًا لله ولشعبه المختار معلمًا الجميع وصايا الرب وحقوقه صائرًا مثالًا في كل عدل، وخذ بيمينك هذه العصا القويمة لتكون لك نحو الجهال والمتمردين للتأديب والتربية، ونحو العقلاء والخاضعين للرعاية والعناية.»

فقبض البطريرك على عكاز الرعاية وخرج من الباب الملوكي يتبعه لفيف الأساقفة ورقي سدة الرسولين وأخذ الصليب وبارك الشعب، وقال: «إن جلالة المنصب بالنسبة إلى حقارتنا تزيدنا شعورًا بضعفنا واحتياجنا إلى نعمة القدير الذي منه كل رئاسة وسلطة، فنستعين بنعمة القائل: «إن قوتي في الضعف تكمل»، وننقدم لإتمام رغبة إخواننا بالرب الكلي الطهر وأبنائنا الأحباء بالروح القدس بارتقائنا إلى هذا الكرسي الرسولي المقدس،

^{٢١} الأرشمندريت بولس أبو عضل إلى إدارة المحبة ١٨٩٩، ص ٧٠٧، و«التحفة الفنية في وصف حفلة السيامة البطريركية» (جمعية القديس يوحنا الدمشقي).

معاهدين الله الضابط الكل على أن نبذل جهد القدرة للقيام بأمانة ونشاط بواجبات المنصب الذي عهد إلينا ثابتين ومحافظين على الناموس الإلهي والترتيبات الشريفة ونفوس الرعية وحقوق الملة حتى النهاية، شاكرين لإخوتنا الكلي طهرهم انتخابهم لنا على ما بنا من الضعة، ولبنينا الأعزاء ثقتهم بنا على ما بنا من الضعف مستمدين العون الإلهي والمساعدة الأخوية والطاعة البنوية للبلوغ إلى غاية رضا الإله الذي يدين جميع الخليقة، فنظهر جميعاً أهلاً للدعوة التي دعيناها ولميراث ملكوت السماوات بنعمة المسيح إلهنا الذي له المجد والعزة والإكرام والسجود مع أبيه وروحه القدوس إلى أبد الدهر آمين». ثم لفظ أثناسيوس متروبوليت حمص وتوابعها خطاباً أهم ما جاء فيه قوله: «لنشكر الله الكريم؛ إذ أجزل العطايا وكلل الجهاد بالظفر، فاهنئي أيتها الكنيسة وسراً يا مصف رؤساء كهنة الكرسي الأنطاكي بقطف أثمار أتعابك الياينة! وابتهج أيها الشعب المجاهد في سبيل النجاح والتقدم، واعتصم دوماً بحبال الألفة والاتحاد والتكاتف.» واختتمت حفلة التنصيب وبُدئ بالقداس الإلهي، فخدم البطريرك الأسرار المقدسة يعاونه مطارنة بيروت وعكار وحمص وطرابلس وأداسيس، وفي ختام القداس رقي غريغوريوس متروبوليت طرابلس المنبر وقال ما خلاصته: افرحوا بالرب أيها السيد الكلي الغبطة والأخوة الجزيلو الطهر والذوات الأجلاء والأبناء الأعزاء. تعلمون أن المراحم الإلهية بعد أن أنارت العقل البشري بالإعلان الإلهي ورسمت له الكهنوت وشرفت بعض البشر برئاسته ما كان من عدو البشر إلا نهض فنصب الفخاخ في سبيل الرؤساء والمرءوسين، وحرّك عواصف المجد الفارغ في رءوس بعض الأمم فاحتملت الكنيسة من شواذهم مصائب ونوائب في كل جيل. ولم ننحُ نحن سكان هذه البلاد من تجارب عدو الخير؛ لأننا لا نزال في العالم إلا أن الذي لا يدع المؤمنين باسمه يتجربون فوق ما يطيقون، بل يجعل مع المحنة المخرج قد استيقظ فضرب أعداءه، ولم يختار سبط أفرام، بل اختار سبط يهوذا، ورضي الآن ما كان رضىه سابقاً لداود؛ إذ أخذه ليرعى يعقوب عبده وإسرائيل ميراثه، وهكذا ارتضى الآن أن يرحمنا؛ لأنه نظر إلى مسكنتنا وحزننا، إذ أكلنا الرماد مثل الخبز وشربنا الدموع بالكيل، فبماذا نكافئ الرب على كل ما أعطانا؟ لو أن الرب يؤثر المحرقات لكنا الآن نعطي، لكن الذبيحة لله روح منسحق، والقلب المتخشع المتواضع ما يرزله الله.

وهذا القلب وهذا الروح قد وجدناهما اليوم في السيد الجليل والراعي النبيل، فخر طغمتنا الرهبانية وقودة ملتنا الأرثوذكسية، فإنه خبر مجرب في الرئاسة والسياسة مشهور بالدماثة بعيد عن الشكاسة ذو اطلاع على واجبات الراعي ويعلم أن تعليم الرعية ينبوع

حياتها، وأن دوام الألفة عنوان ثباتها، وأن كل بنيه إخوة وهو لهم أب بالرب، يسهر على نفوسهم من الذئاب الخاطفة حذرًا على إيمانهم من سيول الطغيان الجارفة.^{٢٢}

المجمع والبطاركة (١٨٩٩)

وكان أعضاء المجمع الأنطاكي قد أعدوا رسالة باللغة اليونانية وبعثوا بها في أول أيار سنة ١٨٩٩ إلى «الكلي القداسة والغبطة كيريوس كيريوس قسطنطين البطريك المسكوني وإلى كيريوس كيريوس صفرونيوس البطريك الإسكندري، وإلى كيريوس كيريوس زاميانوس البطريك الأورشليمي، الفائق الاحترام.» فذكر بها السادة البطاركة بأمور أهمها ما يأتي: إذا كنا ثابتين في المحبة فلنا ملء الأمل بقداستكم الوادة الله وبمجمعكم الشريف ألا تمسوا حرية الكنيسة الأنطاكية الرسولية المقدسة التي هي أقدم الكنائس بعد كنيسة أورشليم الحرية التي جاد بها المسيح نفسه على المؤمنين باسمه، وأن لا تززعوا أساس السلام ولا تجرحوا محيا المحبة الجميل، ولننس ما مضى إن أقلقتم أفكار الحكومة بتقديم استدعاءات واعتراضات رسمية ضد الكنيسة الأنطاكية واجتهدتم بإحباط أعمال مجمعها المقدس القانونية، ناسبين إليه مخالفة لتعامل قديم لا تعلق له بالأصول الدينية، والقوانين المسكونية الشريفة تأمر بصراحة وجلاء بأن مجمع كل أبرشية له وحده الحق المطلق في أن ينتخب بملء حريته مرشحين من حيث يشاء، ثم إننا نذكر لفطنة قداستكم بمحبة واحترام أن التاريخ الكنسي يروي أن كثيرين من الكرسي الأنطاكي تبوءوا كرسي القسطنطينية وكرسي أورشليم، فلماذا لا تعتبر كل من هاتين الكنيستين ذلك تعاملًا قديمًا ولا ترشح في انتخاباتها من الكرسي الأنطاكي، بل تحصر الانتخاب ضمن دائرتها الروحانية فقط؟ إن احتضانكم لمخالفة المطرانين (نكتاريوس وبنيامين) وسعيكم لمساعدتهما بإبطال انتخاب المرشحين الذي تم، وإلزام المجمع بانتخاب مرشحين من مطارنة الكرسي القسطنطيني أو الأورشليمي يوسعان مجالًا للظنون.

أو لم يكفٍ لدمار الأرثوذكسية في أبرشيات أنطاكية أن أسلافنا — رحمهم الله — صدقوا ما كانت تذيعه الجرائد عن استعداد وفضائل البعض، وانتخبوا منهم بطاركة كانوا لعدم معرفتهم لغة الرعية واحتياجاتها يتصرفون معها بلا اكتراث أو لأسباب أخرى

^{٢٢} «الأرج الزاكي»، ص ٦٩-٨٢.

كانوا يسلكون غير المسلك الجدير بهم، فسببوا نفور آلاف كثيرة من الأرثوذكسيين تؤلف منهم اليوم طوائف كثيرة لم يكن لها قبل وجود في أبرشيات أنطاكية؟ وهذا الطوائف تحارب الأرثوذكسية بواسطة البروبوغندات الغنية والرهبنات الكثيرة حرباً عواناً بالمدارس والكتب والجرائد وغيرها.

إن الظروف الحالية تقضي أكثر من ذي قبل على الرؤساء الروحيين الأرثوذكسيين في كل مكان بأن يحافظوا على وحدانية الروح برباط السلام، ويبدلوا كل ما عزَّ وهان في هذا السبيل ويسعوا جميعهم لرفع شأن الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية الأرثوذكسية ولإعادتها إلى مجدها الأول.^{٢٣}

فلما كان ما كان من أمر الانتخاب والتنصيب وجَّه البطريرك الجديد ملاتيسوس الثاني الرسائل السلامية القانونية إلى متقدمي جميع الكنائس الأرثوذكسية المستقلة؛ أي إلى البطريرك المسكوني والقائمقام البطريركي في الإسكندرية وبطريرك أورشليم ورئيس أساقفة قبرص ورؤساء الجامع المقدسة في روسية واليونان ورومانية والصرب والجبل الأسود وإلى بطريرك النمسة، فأعلن لهؤلاء الرؤساء تبوُّه السدة الأنطاكية بانتداب المجمع والشعب وموافقة السلطان بعد انحلال المسند البطريركي سنتين، وطلب منهم جميعاً الأدعية الأخوية والمعاوضة التي تقتضيها المحبة المسيحية وروح السلام، فردَّ جميع الرؤساء التحية بمثلها واعترفوا ببطريركية ملاتيسوس الثاني ما عدا البطاركة الثلاثة وغيرهم من اليونانيين.^{٢٤}

^{٢٣} السجل البطريركي: أول أيار سنة ١٨٩٩ رقم ٣٧١، اطلب أيضاً: مجلة «المنار» سنة ١٨٩٨، ص ٣٦١-٣٦٦.

^{٢٤} مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ١٤١.

الفصل الثامن

ملاطيوس الثاني

مدرسة البلمند (١٨٩٩-١٩٠٠)

وجعل البطريرك ملاطيوس والمجمع باكورة أعمالهم العودة إلى مدرسة إكليريكية لتثقيف عقول المرشحين لخدمة الكنيسة وتهذيبهم في علوم الدين والدنيا.^١ فأقروا افتتاحها في مطلع السنة ١٩٠٠ في دير البلمند واختاروا غريغوريوس الراهب الورع متروبوليت طرابلس وكيلاً لها، وغطاس قندلفت خريج مدارس اليونان الإكليريكية مديراً وأستاذاً للعلوم اللاهوتية فيها. وأسرع غريغوريوس إلى بيروت لإيجاد سائر الأساتذة، فخصَّ جرجس همام الشويري بشطر وافر من جهده ودعاه لتعليم الرياضيات واللغة العربية. وكان الهمام قد عاد من جامعة أدنبرج مبرزاً في الرياضيات العالية وفي الأسلوب الحديث في التعليم، ولا سيما في طريقته المستحدثة في تعليم اللغة العربية.

وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ أعلن غريغوريوس وكيل المدرسة الإكليريكية الجديدة شروط الدخول ولائحة الدروس، فجاءت الشروط هكذا: (١) لا يُقبل تلميذ في صف دروس السنة الأولى قبل بلوغه الخامسة والعشرين من عمره. (٢) يُسمح بدخول التلميذ في أي صف من الصفوف الثلاثة الأولى بحسب استعداده الذي يظهر باختباره عند الدخول، وأما في صف السنة الرابعة فبعد مطالعة دروس الصف الذي قبله. (٣) عند الدخول يختبر التلميذ في القراءة الفصحى العربية وفي مبادئ الصرف والنحو والجغرافية والحساب والتاريخ الشريف وفي مبادئ اليونانية إن أمكن. (٤) لا يُنقل تلميذ من دروس سنة إلا بعد أن يطالعها في السنة القانونية ويختبر فيها في آخر

^١ «المحبة»، ١٨٩٩، ص ٧٣٧-٧٣٨.

السنة ويظهر أهلاً للانتقال إلى دروس سنة أعلى. (٥) يُشترط على التلميذ قبل دخوله أن يظهر لمدير المدرسة شهادة معمودية وشهادة تبين حسن سلوكه قبل دخوله، ويقدم لغبطة البطريرك الأنطاكي صكَّ تعهد بأنه عند حلول الوقت المناسب يدخل في الطغمة الإكليريكية ويكون تحت أمر غبطته، ويخضع لنظام المدرسة ويبقى فيها إلى نهاية دروسه. ويقدم كفيلاً معتمداً يكفله بأنه إذا خالف التعهد يدفع عنه عشرين ليرة عثمانية مقابلة لمصاريف تعليمه وملبوسه وسكنه ومأكوله وسائر لوازمه عن كل سنة مدرسية ولو أقام منها في المدرسة وقتاً قليلاً. (٦) إن المدرسة تقدم للتلاميذ المتعهدين بالدخول في الطغمة الإكليريكية كل لوازمهم من كتب وملبوس وغير ذلك، فضلاً عن مصروف التعليم والمأكل والسكن، ولا تكلفهم بارة الفرد من أجل هذا كله. (٧) دروس المدرسة إلزامية لجميع التلاميذ. (٨) لا يرخص لأحد من التلاميذ بالخروج من دائرة المدرسة إلا لأسباب ضرورية وبمعرفة المدير. (٩) من يخالف نظام المدرسة إلى حد يستدعي فصله عنها فلا يُعفى من القيام بإيفاء المبلغ الذي عليه كما لو خالف تعهده بالدخول في الطغمة الإكليريكية.

وجاء في لائحة الدروس عدد الساعات في كل سنة فكانت اثنتين وثلاثين في كل أسبوع في السنوات الثلاث الأولى، وثلاثين في الرابعة والخامسة وأربعة وعشرين في السادسة. أما اللغات فإنها العربية واليونانية والعثمانية والروسية. وأما العلوم فإنها الحساب والجبر والهندسة والطبيعات وعلم الهيئة والتاريخ الشريف، وتاريخ الكنيسة والكتاب المقدس ومؤلفات الآباء الأطهار واللاهوت والفلسفة وتفسير القداوس والصلوات والخطابة والوعظ والحقوق الكنسية والموسيقى الكنسية.^٢

وجوب تعليم الإكليرس

وحملت مجلة «المنار» الأرثوذكسية في عددها الصادر في الخامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ مقالاً شائعاً لمدير هذه المدرسة غطاس قندلفت في تعليم المرشحين للخدمة الإكليريكية الشريفة، جاء فيه أن هذه الخدمة لا تقوم بإتمام بعض الرسوم والأعمال والفروض الخارجية؛ لأن رائدها هو قيادة البشر إلى الكمال بنعمة الله في

^٢ «المدرسة الإكليريكية البطريركية»، لغريغوريوس متروبوليت طرابلس.

الفضيلة والتقوى وإنارتهم لمعرفة الله بالإيمان به إيماناً قويمًا ولنيل خير مرضاته. وأهم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الإكليركي هي الاستعداد الطبيعي لهذه الخدمة ومعرفة مقتضياتها وما تفرضه من الواجبات وحسن السيرة والسريرة وطيب الأثر والذكر، فالخدمة الإكليريكية هي أشرف الخدم تؤهل صاحبها ليكون آلة للنعمة الإلهية وللكراسة الإنجيلية ونورًا يضيء بالفضائل وينير العقول بالمبادئ ومِلحًا يصلح كل ما أفسدته الأيام، وراعياً يقود الخراف إلى مروج الخلاص ويبعد عنهم الذئاب الخاطفة، وللحصول على ذلك يجب عليه أن يحمل عصا الرعاية الروحية التي هي عصا الخطابة والإقناع ويرفع ترس الإيمان والفضائل ويستل سيف الحق ذا الحدين ليقطع به جميع ضلالات المناقضين. والحرب اليوم عوان، وهي أشد قوة من مصادمات العصور القديمة، فمحاربو الديانة المسيحية اليوم يقاومون الكتاب المقدس نفسه والتقليد الشريف بكل ما يسرته لهم مطالعات التاريخ والفلسفة. فهم ينبذون التقليد وينكرون سلطان الكتاب المقدس وصحته وصدق نسبته إلى مؤلفيه، ولا يعترفون بسلامته من التحريف، وكثيرون ينبذون المبادئ الأولى في الدين المسيحي فلا يقبلون بوجود إله روحي قائم بذاته، ولا يميزون بين المادة والروح.^٣

افتتاح المدرسة الإكليريكية

وفي التاسع من كانون الثاني سنة ١٩٠٠ احتفل في دير البلمند بقداس إلهي، وبعد نهايته تم تدشين المدرسة الجديدة على يد الأرشمندريت أيوانيكوس رئيس الدير الجديد وسائر آباء الدير وحضور جمع غفير من القرى المجاورة، فتقدم الشكر للإله العلي الذي ألهم لتأسيس هذا المشروع المقدس، ثم قدمت الأدعية للسلطان وللبطريرك وللمتروبوليت الوكيل، ووقف في الختام غطاس قندلفت مدير المدرسة وأستاذ اللاهوت فيها فألقى خطاباً في فضل العلوم وفائدتها.

ملاحظات بطريركية

وفي أواخر السنة ١٨٩٩ حملت الجرائد والمجلات الأرثوذكسية منشورًا بطريركيًا رعائياً شعاره: «وكونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل.» وتضمن هذا المنشور

^٣ مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ١٦٤-١٦٨؛ و«المحبة»، ١٨٩٩، ص ٧٦٥-٧٦٦.

ملاحظات بطريركية «هدفت إلى الحرص على آداب الملة وتوفير أسباب سعادتها وراحتها وتحسين ظروفها الصحية العامة». وتناولت الخطبة والعرس والمعمودية والمعايدات وزيارة المرضى ومواد متفرقة أخرى. وقال طيب الله ثراه: «إذا قللنا فئة ما يُقدم عربوناً في الخطبة لا نقصد امتهان مقام الخطيب أو الخطيبة، بل بالأحرى تيسير الأمور وتسهيل الطرق لتكثر هذه العلائق التي ينتج عنها ازدياد الملة ونموها ونضارتها وزهاؤها، وهكذا القول في الزواج فإننا نحترم شرف هذا السر، ونعلم أنه مكرم ومضجعه بغير دنس. والله إنما خلق المرأة لتعين الرجل، ولو رأى استغناؤه عنها لما أوجدها؛ ولذلك لا يجوز وضع العوائق والصعوبات في سُبُل الزواج. والأعياد اجتماعات حبية تجلب البركة والخير على المحتفلين بها لا اللعنة والضيق اللذين ينجمان عن البذل والتبذير. والشفقة والحنو فضيلتان في الإنسان، ولكن عيادة المرضى في غرفهم تجلب العدوى في بعض الأحيان، والموت عند المسيحيين جسر ينقل الذين في الأرض إلى السماء، فلا يجوز الاجتماع حول الميت والندب والصراخ.»^٤

البراءة السلطانية

وثبتت الحكومة العثمانية انتخاب ملاتيوس الثاني وأصدرت بذلك براءة سلطانية وأرسلتها إلى والي سورية، فأعلم والي البطريرك بوصولها، فقام البطريرك في السادس والعشرين من نيسان سنة ١٩٠٠ يصحبه مطارنة عكار واللاذقية وديار بكر لزيارة والي «دولتو ناظم باشا» والتشرف باستلام البراءة. فاستقبل والي البطريرك «بما فُطر عليه من اللطف والإيناس». وأكد البطريرك إخلاصه لحكومة المتبوع الأعظم «وبسط أكف الضراعة والابتهاال إلى الإله المتعال أن يحرس ويصون بوقايته جلالة السلطان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان.»^٥

جولة رعائية (١٩٠٠)

وبدأ البطريرك جولاته الرعائية بزيارة أبرشية بيروت ولبنان، فخفّت ركابه تفقد شئون ديريه في ضواحي الشوير في أواخر أيار السنة ١٩٠٠. فأرسل ناظم باشا ياوره وخمسة

^٤ مجلة «المنار»، ١٨٩٩، ص ٢٤١-٢٤٦.

^٥ «المنار»، ١٩٠٠، ص ٥٠٦.

فرسان إلى المقر البطريكي واستتاب في وداع البطريك كلاً من خليل الخوري ويوسف طنوس، وأخذ سلام غبطته في محطة القطار فرقة من الضابطة، وصحب البطريك نيقوذيموس مطران عكار وأرسانايوس مطران اللاذقية والأرشمندريت بولس أبو عضل وكاتب البطريك حبيب كومين، فسار بهم القطار حتى صوفر فحل البطريك وحاشيته ضيوفاً على جبران سرسق. وفي صباح اليوم التالي نهض البطريك إلى حمانا فقدم الشكر في كنيسة الملة وزار كنيسة الموارنة. وما إن جاوز خراج حمانا حتى لقيه وفد كبير من جميع طوائف أرصون يتقدمهم الكهنة والأعيان. ولدى وصوله إلى أرصون قدم الشكر في كنيسة الطائفة وزار كنيسة الموارنة واستراح في منزل الخوري جرجس مجاعص، ثم زار سلمان بك شقير بكباشي الضابطة اللبنانية، واستتلى المسير بموكبه فخرجت بعبداً لاستقباله عند السفيلة، فزار مدرستها حيث ألقى القصائد والخطب في اللغات العربية واليونانية والإفرنسية والإنكليزية.

ولم يتجاوز موكبه بعبداً حتى أقبل عليه وفد من المحيثة يتقدمهم مدير القاطع الشيخ يوسف حاتم، فقدم الشكر في كنيسة المحيثة وسار إلى دير مار إلياس البطريكي في ضواحي الشوير، فضاقت الطرق بوفود الشوير وبتغرين وعين السنديانة وغيرها، وأمامهم الإنجيل الطاهر ومدير الشوير حبيب أبو فاضل والكهنة بحلهم الكنسية وتلامذة مدرسة الشوير الأرثوذكسية. وسار الجميع حتى الدير فكان الآباء كهنة الدير ورهبانه وآباء الرهبانية الحلبية المارونية، فذهب الجميع إلى الكنيسة حيث أسدى البطريك لله شكراً خالصاً. وألقى الأرشمندريت بولس أبو عضل كلمة أثنى فيها على العواطف البنوية ودعا للذات الشاهانية وسأل للجميع البركة. وفي يوم الأحد خدم البطريك الأسرار الإلهية وشاركه مطران عكار ومطران اللاذقية. وعقيب القداس اجتمع وجهاء الشوير وبقيّة القرى المجاورة في بهو الاستقبال، فألقى بعض تلامذة مدرسة الشوير الأرثوذكسية بحضور رئيسها الخوري يوحنا مجاعص القصائد ابتهاجاً بقدم راعي الرعاة. وفي ظهر النهار نفسه قدم وفد الرهبانية الحناوية الشويرية الكاثوليكية والمطران نعمة الله سلوان الماروني، وعند الغروب وصل قنصل روسية المسيو ليشن وحاشيته. ويوم الجمعة في الثاني من حزيران زار الدير البطريكي قائمقام المتن الشيخ رشيد الخازن مهنتاً باسم نعوم باشا متصرف لبنان، ثم جاء وفد بسكنتا يتقدمهم الكهنة وملحم أغا نكد وراجي أبو حيدر، فانبرى صبري أندريا أحد أساتذة المدرسة الروسية في بسكنتا، فأبان عظم السرور الذي حاق «جميع السوريين الأرثوذكسيين» بارتقاء رئيس رعاتهم، وزار غبطته الشوير،

فاستقبلته الجماهير على اختلاف المذاهب يتقدمهم الصليب الكريم والإنجيل الطاهر والكهنة بملابسهم الحبرية، فسار غبطته تَوًّا إلى كنيسة السيدة الأرثوذكسية ثم زار كنيسة مار بطرس للروم الكاثوليك.

وأعلن البطريرك رغبته في زيارة الرعية في بيروت في الثاني والعشرين من حزيران، فأَمَّ الدير البطريركي وفد بيروت من قبل مطران الأبرشية ومجلس الملة فيها والجمعيات الخيرية الست الخيرية ودفن الموتى والتعليم المسيحي ومساعدة المرضى والقديس بولس واتحاد البر. وفي صباح الثاني والعشرين برح البطريرك الدير متجهاً نحو بيروت، فاستقبله في عين عار قائمقام المتن وفارسان من الضابطة اللبنانية وساروا بمعيته حتى أنطلياس، وكان ينتظر البطريرك هناك غفرائيل متروبوليت بيروت، وإسكندر بك التويني ممثل المتصرف، وجم غفير من السراة والوجهاء، وخطب الخطباء فألقى إبراهيم بك الأسود صاحب جريدة لبنان قصيدة قال في مطلعها:

لمثلك لاق مدح المادحين وشكرك واجب دِيناً ودينا
كأننا والقوافي زاهرات نفوق بها نظام الأولينا

ولدى وصول البطريرك إلى جسر نهر بيروت حد الولاية رحب به ميشال أفندي أده ترجمان الولاية باسم الوالي رشيد بك وقنصل روسية وأنطون أفندي سالم ترجمان قنصل اليونان، ووفد ماروني من قبل جمعية طوبيا البار وأخويه مار مارون وأخوة الفقراء. وارتقى البطريرك عربة الوالي وأمامه ياور الولاية وكوكبة من الفرسان، وسار والجماهير وراءه حتى بلغ الحديقة الحميدية (ساحة البرج) فبارك الجماهير وترجّل وذهب تَوًّا إلى الكاتدرائية يتقدمه الصليب الكريم والإنجيل الشريف والكهنة والشمامسة وتلامذة مدرسة الثلاثة الأقمار. ودخل الكنيسة فقدم الشكر لله العالي، ثم رقي السدة الرعائية وقال: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الأب وشركة الروح القدس لتكن مع جميعكم، ما أبهج هذا اليوم السعيد الذي يَسَّرَ لنا فيه العناية الإلهية البلوغ إلى هذه المدينة الزاهرة والوقوف في هذه الكنيسة المقدسة ومشاهدة نيافة أختنا الوقور السيد غفرائيل راعيكم الجزيل الطهر، وجميعكم على أحسن حال من الصحة والرفاه سيمتكم التمسك بالإيمان المسيحي القويم، وعلمكم التفاني في خدمة بعضكم بالمحبة تحت ظل حكومة متبوعنا الأعظم! فاسهروا واثبتوا في الإيمان. كونوا رجالاً وتقووا ولتصر كل أمروكم في محبة. اسلكوا بحسب الدعوة التي دعيتم بها بكل تواضع ووداعة وطول

أناة محتملين بعضكم بعضًا في المحبة، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام. لا تنسوا فعل الخير والشركة؛ لأنه بذائح مثل هذه يُسرُّ الله، اخضعوا للرئاسات والسلطين.»

وجاء قنصلا روسية واليونان مهنئين والسيدة مريم تشيركاسوف «رئيسة المدارس الروسية في بيروت» ولجنة مجلس الملة والوفد الماروني ومطران الروم الكاثوليك ملاطيوس فكاك، وزار البطريك سراي الحكومة فجرى له استقبال شائق لائق وقابله الوالي باللطف والاحترام.

مدرسة جامعة في بيروت

وبحث البطريك في أثناء وجوده في بيروت حاجات الطائفة مع مطرانها وأعيانها، فلمس لمس اليد خوف الطائفة من نشاط المرسلين الكاثوليكين والبروتستانتين في حق الدعاية الدينية، وكان هذا الخوف قد تزايد فظهر أثره في الصحف والمجلات الأرثوذكسية، فقالت «المحبة» في عددها الصادر في أثناء إقامة البطريك في بيروت: «إن المدارس التي جعلت غايتها اقتناص الأولاد من أحضان والديهم وإغراءهم على خيانة مذهبهم وتعليمهم التعصب وبُغض كل ما هو خارج عن دينهم فحقها أن تهدم هدمًا وتحرق حرقًا وتباد عن وجه الأرض؛ لأنها إنما وجدت لتفرق لا لتجمع، وتهدم لا لتبني، وتؤخر لا لترقي.» نقول: لمس البطريك هذا الخوف المتزايد فعين لجنة بيروتية للنظر في إنشاء مدرسة جامعة برئاسة الأرشمندريت بولس أبي عضل، وعقدت هذه اللجنة جلسات متتالية، «فأقرت كل ما فيه نيل الرجاء، وشرعت في إخراج هذا المشروع من حيز الفكر إلى حيز العمل متدعة بالحزم والحكمة.»^٦

البطريك في اللاذقية

وفي الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٠٠ سار البطريك إلى سراي الحكومة في بيروت لزيارة الوالي وإعلامه بعزمه على السفر إلى اللاذقية، فاستقبل وشيع بالإجلال والإكرام. ثم زار البطريك قنصلي روسية واليونان للغاية نفسها. وفي السادس والعشرين

^٦ مجلة «المنار»: ١٣ تموز سنة ١٩٠٠، ص ٦٨٥، اطلب أيضًا ص ٦٦٩.

ركب غبطته متن الباخرة النمساوية فجرى له عند المرفأ وداع رسمي، وركب زورقاً خاصاً وحيته الباخرة برفع الأعلام وأبحرت تُقَلُّ الحَبَرَ الأنطاكي وحاشيته إلى اللاذقية. وبلغت الباخرة طرابلس فوفد إليها متروبوليتها غريغوريوس وعدد من الأعيان والوجهاء مُسلمين مودعين. ثم جرت الباخرة قاصدة اللاذقية فَرَسَتْ أمامهم في السابع والعشرين من تموز، وأحدقت بها الزوارق تُقَلُّ وجهاء الروم يتقدمها توفيق أفندي صوايا ترجمان المتصرف وبعض رجال الحكومة. ولدى وصول البطريك إلى الرصيف استقبله قناصل الدول ووفد ماروني، ثم سار الموكب يتقدمهم فصيلة من الجند وكوكبة من الفرسان والبطريك والمتروبوليت يباركان الملاقين على الشمال وعلى اليمين حتى مداخل المدرسة، فاستقبله الكهنة بملابسهم الكهنوتية وبالصليب والإنجيل ومشوا أمامه مرتلين حتى كنيسة القديس نقولاوس الكاتدرائية، فصلى ودعا للسلطان وقدم للشعب خلفه أرسانيوس المتروبوليت الجديد وحضَّهم على طاعته ومحبته، وفي الغد زار غبطته ونيافة المتروبوليت شمس الدين باشا متصرف اللاذقية وشريف بك قائمقام العسكرية فردا لهما الزيارة في اليوم نفسه في المطرانخانة. وفي نهار الأحد الواقع في ٣٠ تموز احتفل البطريك بالقداس الإلهي يشاركه أرسانيوس المتروبوليت الجديد. وفي ختام القداس قرأ الأرشمندريت بولس أبو عضل البراءة الكنائسية المؤدنة بانتخاب أرسانيوس وسيامته مطراناً على أبرشية اللاذقية وما يليها.

مجلس للملة في اللاذقية

وفي مساء الإثنين في الحادي والثلاثين من تموز سنة ١٩٠٠ حضر إلى المطرانخانة وجهاء الطائفة وأعيانها لأجل النظر في شئون الملة. ولما تكامل عددهم صُلِّيَ البطريك مستمداً المعونة والهداية، ثم شكر المتروبوليت تلبية الدعوة، وقال: إن الغرض من الاجتماع هو تأليف مجلس ملي ينظر في شئون الطائفة ويحامي عن حقوقها في كل الأبرشية المحفوظة من الله. وبعدها أُلِّمَ بأهمية المجلس وفائده وأشار إلى كيفية الانتخاب القانوني ورُزِعَت الأوراق على الجميع لينتخب كل منهم ثمانية أعضاء من أهل اللياقة والاستحقاق والغيرة والحمية. ثم جُمِعَت الأوراق وأُحصيت الأصوات بكل ضبط وتدقيق، فأصاب الأكرثية ميخائيل سعادة وأنطونيوس سعادة وكومين ويوسف صالح وإبراهيم نصري، وباسيلي كومين وإبراهيم عفيف ويوسف فهد وحبيب مرقس. وفي يوم الثلاثاء في أول آب ورَّع المتروبوليت على الأعضاء رقاعاً يعلمهم بها بصورة رسمية تعيينهم أعضاء مجلس الملة،

ويدعوهم مساء الخميس في الثالث من آب لعقد جلسة ينظم فيها هذا المجلس وتسُنُّ قوانينه.

وألف أرسانيوس والبطريرك لا يزال في اللانقية محكمةً روحية يرى فيها مع الكهنة «جميع القضايا الدينية»، وبحث أمر الفقراء والمرضى في مجلس الملة، فانتقى بموافقة الأعضاء أربع عشرة سيدة وكتب إليهن ودعاهن إلى بيت المسيو نقولا فيتالي قنصل إنكلترة، فبين غاية الجمعية التي سمّاها باكورة الإحسان، وحثَّهنَّ على كساء المعوزات من بنات السترة ومساعدة الفقيرات وزيارة المريضات وإصلاح بعض العادات عملاً بالمنشور البطريركي الرعائي.

مجلس للملة في طرابلس

وفي السابع والعشرين من آب سنة ١٩٠٠ دعا غريغوريوس متروبوليت طرابلس عموم الشعب الأرثوذكسي إلى دار المطرانية لأجل انتخاب أعضاء المجلس الملي، فلبى الدعوة فريق من أبناء الملة وجرى الانتخاب على محوره القانوني فنال أكثرية الأصوات قيصر بك نوفل والأفندية جرجس نقاش وحنا الغريب وسامي صراف وإدوار كاتسيفليس وعبد الله نحاس، وأسعد صوايا وسامي خلاط وإبراهيم صدقة وأنسطاسي زريق وأسعد عرقية.

ما لقيصر لقيصر

ورأى البطريرك الأنطاكي أن الواجب يقضي بالاحتفال بالعيد الفضي السلطاني، فأرسل إلى مطارنة الكرسي منشورًا رعائيًا أوجب فيه بذل الجهد المستطاع في إعداد الزينة ابتهاجًا بالعيد الفضي السلطاني والاجتماع في الكنائس للدعاء ببقاء ولي النعم مؤيدًا بالنصر. فنفذ الأمر البطريركي في جميع الأبرشيات، وأبرق المطارنة كلٌّ بمفرده وباسم رعيته إلى الأعتاب السلطانية، ولنا في تقرير دونه باسيل جبارة وضمنه أخبار هذا الاحتفال في حماة ما ينبئنا عما جرى في الكنائس من هذا القبيل، فهو يقول إنه أقيم في يوم العيد في حماة قدّاس حربي حضره أعيان المسيحيين والشعب، وإنه قبيل ختام القداس حضر وكيل المتصرف، فرتلت أولاً المجدلة الكبرى، ثم قرئت رسالة بولس الرسول الآمرة بإقامة صلوات وابتهالات من أجل الملوك والحكام والإنجيل الذي صرح فيه السيد بوجود إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وبعده تلا نيافة المطران غريغوريوس متروبوليت

حماة طلبات حارة من أجل حفظ جلالة السلطان وتأييده بالنصر، فأمن عليها الشعب أجمع، وفي الليل أُقيمت الأفراح عمومًا حتى كنتَ تحسب أن في كل بيت عرسًا.^٧ وجرى مثل هذا في حلب برئاسة متروبوليت ديار بكر سلفسترس (زرعوني).

حيث دُعي المؤمنون مسيحيين أولاً

وفي الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٠٠ أبرق البطريك الأنطاكي إلى رئاسة مجلس الملة في الإسكندرونة ينبئ بوصوله إليها بحرًا في الرابع من أيلول. فاجتمعت الملة في بيت وكيل البطريك حنا أفندي ظندي صايغ، وانجلى قرار هذه الهيئة عن تأليف لجنة خصوصية للاستقبال. ثم أبرقت هذه اللجنة إلى حلب وأنطاكية وعروض بقدم البطريك فأخذت الوفود تتوارد من جميع الجهات. وفي صباح الرابع من أيلول أطلّت الباخرة النمساوية رافعة العلم العثماني، فهُرع لاستقبال غبطته أعضاء مجلس الملة والوجهاء وممثلو الطوائف المسيحية. وأرسل قومندان الدارعة العثمانية الراسية في مياه الإسكندرونة زورقًا خصوصيًا لينقل البطريك إلى البر، ولما ضاق ظهر الباخرة بالوفود نزل البطريك والحاشية والوجوه والأعيان إلى البر فاستقبله الكهنة الأرثوذكسيون والأرمن بالحلل الكنسية والصليب والإنجيل، وأخذت سلامة فرقة عسكرية كاملة، فبارك الجماهير وذهب تَوًّا إلى الكنيسة فصلّى وشكر وبارك، ثم صعد الكرسي وعلى جانبيه قائمقام البلدة علي نسيب بك وقائد الموقع وقنصل فرنسة، فلفظ الأرشمندریت بولس أبو عضل خطابًا اختتمه بالدعاء للسلطان، وتكلم الأب بابا يوركي باليونانية مرحبًا. ثم انتقل البطريك إلى الكنيسة الأرمنية «فدخل هيكلها وصلّى وبارك»، ثم قال: إن أعظم سروره في الحياة أن يرى الشعب المسيحي متحدًا برباطة الحب مؤتلفًا اثتلافًا سلميًا تحت ظل المتبوع الأعظم، ووقف كاهن الأرمن وتكلم بالتركية شاكرًا. وفي اليوم التالي زار البطريك القائمقام والقومندان وقنصل فرنسة فاستقبل بالحفاوة التامة، وأنعم غبطته على نجل حنا أفندي صايغ وكيهله في الإسكندرونة بثلاث مادوليونات من الذهب الخالص مرصعة بالحجارة الكريمة تمثّل قيامة الفادي وعليها رسم البطريك ملاتيوس الثاني.^٨

^٧ «المنار»: ٧ أيلول سنة ١٩٠٠، ص ٨١١-٨١٢.

^٨ تشريف غبطة البطريك الأنطاكي لجرجي حنا ديب، «المنار»، ١٩٠٠، ص ٤٢-٤٤.

وتكاملت وفود الأنطاكيين فركب البطريك عربة خصوصية وواكبته كوكبة من الفرسان، وخرج في طريقه إلى حيث دُعي المؤمنون مسيحيين أولاً. ولما بلغ موكبه منتصف الطريق أتى للترحيب بغبطته كاهن بيلان الأرمني ووجوه طائفته فيها، فدخل كنيسة الأرمن وصلّى وبارك وحضّ الشعب على أداء فريضة العبودية للمليك الأعظم. وسار من بيلان قاصداً أنطاكية، فلما بلغ نهر البطريركين وجد في استقباله كثيرين من أهالي أنطاكية بينهم مهران أفندي نجل قنصل ألمانية، فاستراح وتناول الغداء، ثم استأنف السير إلى أن بلغ قسطل الدنك على بُعد نصف ساعة عن أنطاكية، فوجد فيها كبار الموظفين والرجال العسكريين وحيّته فرقة كاملة من الجيش، وجلس عن يساره قائمقام أنطاكية. وسار باحتفال عظيم فدخل مدينة الله أنطاكية العظمى وذهب تَوّاً إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس، وقدم الشكر لله ثم استناب الأرشمندريت بولس أبا عضل ليدعو ويشكر. وزار في اليوم التالي السراي والثكنة.

كتاب التيبكيون

وبينما كان البطريك يتفقد شئون الرعية في أبرشيات الكرسي الأنطاكي كان تلميذه البار الأرشمندريت جراسيموس مسرة يشغل ليل نهار ليفاجئ معلمه بهدية تقر لها عينه، فإنه اعتمد الطبعة القسطنطينية الأخيرة من كتاب التيبكيون المصدّقة من مجموعها المستعملة في كنيسة العظمى، وأضاف إليها فوائد من تيبكيون القديس سابا وكتب الخدمة وسبكها بعبارة عربية خالصة، وطبعها على نفقته وحبسها وفقاً توزّع على جميع كنائس الكرسي الأنطاكي وأبرشياته وأديرته في المدن والقرى؛ تذكّاراً لارتقاء معلمه راعي الرعاة كيرىوس كيرىوس ملاطيوس الثاني على السدة البطريكية الأنطاكية. وجاء تيبكيون جراسيموس العربي في لمحة وأربعة أقسام وملحق، واللحمة حوت ترتيب فرض المساء والسحرية وخدمة القديس الإلهي في أيام الأحاد والأعياد على مدار السنة في جميع ظروف وقوعها. والقسم الأول حوى ترتيب الفرض مساءً وصباحاً وخدمة القديس الإلهي في بحر الأسبوع، وفي يوم الأحد، وصلاة المساء الصغرى وترتيب السهرانة مع صلاة المساء الكبرى. والقسم الثاني تضمّن تيبكيون الميناون؛ أي أعياد الشهور الاثني عشر كالأعياد السيديّة وأعياد القديسين الممتازين، والقسم الثالث حوى تيبكيون التريودي الذي تضمن ترتيب الخدم من أحد الفريسي والعشار إلى يوم السبت العظيم المقدس، كخدمة الصوم الأربعيني مع ما فيها من الصلوات المسائية والسحرية

وصلاة النوم الكبرى وخدمة المديح، وقداش البروجيازميننا وخدمة سبت الآلام المقدسة. والقسم الرابع تضمن خدمة أعياد البنديكستاري من أحد الفصح المجيد إلى أحد جميع القديسين. والملحق شمل ترتيب حفلات كنائسية كتكريس الكنيسة والغسل الإلهي الشريف الذي يقام يوم الخميس العظيم، ولا سيما كيفية الاحتفال به في مدينة الله أورشليم المقدسة وشرطونية رؤساء الكهنة وخدمة جنائز الراقدين. وذيل جراسيموس هذا الكتاب بتفسير مختصر للكلمات اليونانية الواردة فيه.

التعاليم السنية

وبر بالبطريك تلميذ آخر وهو غريغوريوس (جبارة) متروبوليت حماة، فأكمل في أواخر السنة ١٩٠٠ كتاباً دافع به عن العقيدة الأرثوذكسية وأسماه «التعاليم السنية». ورفعها إلى معلمه ملاتيوس الثاني البطريك الأنطاكي، فلمس المعلم فؤاد الكتاب الجديد فدفعه إلى الطبع ورسم بأن يوزع مجاناً على كهنة الكرسي والجمعيات الخيرية. وأورد غريغوريوس في هذا الكتاب مقدمة في ماهية السر عند الكنيسة ثم استهلّ الأبحاث أولاً في سر الثالوث الأقدس، وهنا أثبت ما جاء في الكتاب المقدس من الآيات الباهرة الناطقة بهذا السر السامي على العقول البشرية، وبحث في انبثاق الروح الكلي قدسه من الله الأب، فقال: إن الاعتقاد بأن الروح القدس ينبثق من الأب والابن مخالف للتعليم الإلهي؛ لأن «الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الأب هو نفسه قد أخبر»^٩ ولأن هذا الابن الوحيد أخبر أن «أن الروح القدس من الأب ينبثق»^{١٠} ولأن الواجب يقضي بالاعتناع بما علمه الرب، والاعتقاد به بدون زيادة «والابن» حذرًا من المذكور في الرؤيا: «من زاد شيئاً على هذه يزيد الله عليه الضربات، ومن أسقط يسقط الله نصيبه من الحياة»^{١١} ثم يجيب غريغوريوس على الاعتراض بقول بولس: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم»^{١٢} وبالقول: «كل ما للأب فهو لي»، وغير ذلك من الاعتراضات.

^٩ إنجيل يوحنا ١: ١٨.

^{١٠} إنجيل يوحنا ١٥: ٢٦.

^{١١} رؤيا يوحنا ٢٢: ١٨.

^{١٢} الرسالة إلى أهل غلاطية ٤: ٦.

ثم تكلم غريغوريوس في الأسرار إجمالاً فتفصيلاً، ولما أكمل البحث في هذه الأسرار الجليلة انتقل إلى الكلام في رسم علامة الصليب الكريم وفي الآيات الكريمة التي تؤيد القول أن العذراء هي والدة الإله. ثم أتى على تحقيق الشفاعة ووجوب استمداد صلوات القديسين. ثم ذكر الشواهد الكتابية على إكرام الأيقونات المقدسة، وبحث بحثاً جليلاً في أن الخلاص يلزم لنيله إيمان مستقيم وأعمال صالحة، وقَفَّى بنبذة نفيسة في أن الصوم مأمور به من الله. واختتم هذه الحقائق بالكلام عن اعتقاد كنيسة المقدسة الأرثوذكسية، وكونها ما حادت ولن تحيد عما تسلمته من الرسل الأطهار والآباء القديسين، محافظة على وديعة الإيمان النقي في كل العصور حتى انقضاء الدهر.

رفيق المسافر

ونشط في هذه الفترة عينها عبده يَنِّي بابا دوبولوس فعَرَّب عن اليونانية كتاب «رفيق المسافر» الذي أُعِدَّ بسعي المعلم فوتيرا وبإجازة المجمع القسطنطيني المقدس. ومما قاله معرِّبه: إن الواجبات الدينية والفروض الكنائسية هي من أخص الالتزامات الأولية على كل مسيحي قويم الرأي. وأضاف المعرِّب أنه لما كانت هذه الفروض صعبة التناول لتفرقها في كتب شتى؛ أي في كتب الإنجيل الشريف والرسائل والسواعي وخدمة القداس والتريودي والبندكستاري والميناون والمعزي وغيرها، وكان جمعها لا يتسنى لكل فرد لندرة وجودها أو لغلاء أثمانها، فقضت الضرورة بنقل هذا الكتاب من اليونانية إلى العربية.

شفاعة القديسين

وظهر في حمص في السنة ١٨٩٦ بحث شائق متين في إثبات شفاعة القديسين. ومن أجمل ما جاء في هذا البحث الأرثوذكسي المُغفَل الذي نشرته جمعية الغاية الجليلة الأرثوذكسية القول بوحدة المؤمنين بيسوع، وبأنه لا شدة ولا ضيق ولا اضطهاد ولا جوع ولا عري ولا خطر ولا سيف، بل ولا الموت نفسه يمكن أن يفصلنا، وإن انفصال المؤمنين عنا بحسب الجسد لا يمنع اتحادهم معنا بالروح، فالكنيسة موجودة على الأرض وفي السماء، وهي منظورة وغير منظورة، فالأولى تحوي جميع الأرثوذكسيين العائشين على الأرض والثانية تضم نفوس الذين قضوا آجالهم في الإيمان المستقيم والقداسة. ويؤيد وجود الكنيسة

على الأرض وفي السماء واتحاد الفريقين قول بولس: «قد اقتربتم من صهيون ومن مدينة الله الحي أورشليم السماوية وجماعة ربوات الملائكة وموسم كنيسة الأبركار المكتوبين في السماوات، ومن الله ديان الجميع، ومن أرواح الصديقين الكاملين ومن يسوع وسيط العهد الجديد.» وهذا يدل دلالة واضحة على وجود الكنيسة في السماء وفي الأرض. وبما أن رأس الكنيستين السماوية والأرضية واحد وجب الاتحاد بينهما لئلا يكون للرأس الواحد جسمان.

وبناء على هذه الوحدة فالكنيسة المجاهدة على الأرض تستدعي في صلواتها قديسي الكنيسة السماوية الظاهرة لأجل معاضدتها؛ لأن صلاة البار تقتدر كثيرًا في فعلها. وهكذا فإن كنيستنا منذ نشأتها حتى الآن تطلب في صلواتها شفاعة القديسين الذين جاهدوا على الأرض لأجل المسيح؛ لأنهم بحسب درجاتهم أقرب لله منا، ومتى اقترنت صلواتنا مع صلواتهم تتقدم إلى عرش النعمة كبخور ذكي فينعم الله علينا بما نلتسمه منه؛ لأنه يستجيب للأبرار.

جمعيات التعليم المسيحي

وأدى نشاط المبشرين الكاثوليكين والبروتستانتين في حقل التعليم وإقدامهم على اجتذاب الأحداث إلى كنائسهم إلى نشاط مماثل في الأوساط الأرثوذكسية، وسعي حثيث لبث التعاليم المسيحية الأرثوذكسية في المدارس المليية وخارجها. وسبقت أبرشية بيروت غيرها من الأبرشيات في هذا المضمار، فنشأت فيها منذ السنة ١٨٧٧ جمعية التعليم المسيحي وتلتها في السنة ١٨٨٢ جمعية القديس بولس، وسرتِ العدوى إلى سائر الأبرشيات فلم تخلُ أبرشية من جمعية تُعنى بنشر التعاليم المسيحية الأرثوذكسية، وظلت بيروت في طليعة الأبرشيات في هذا الحقل من العمل بهمة أيقونوموسها الخوري إلياس مجاعص ونشاط ابنها الغيور فضل الله أبي حلقة. وبدأت هذه الجمعية بجمع شبان الملة وأولادها في أيام الآحاد والأعياد لتتلو عليهم فصولًا من الكتاب المقدس وتألّف الآباء ومواعظ وخطبًا تتناسب مع ظروف ذلك العصر. وكانت توزع على الأولاد صور بعض القديسين تنشيطاً وترغيباً، ثم دفعت عبده يني بابا دوبولوس إلى وضع كتاب في التعليم المسيحي يتفق وسن الأحداث في الأبرشية.

وفي مطلع السنة ١٨٩٩ أصدر أحد أعضاء هذه الجمعية فضل الله أبو حلقة مجلة المحبة مرة في كل أسبوع وجعلها دينية علمية أدبية إخبارية، وضمن عددها الأول نبذة

تاريخية في انتشار الديانة المسيحية في بلاد اليابان منقولة عن لسان الياباني دانيال كونيسي، ومقالة تاريخية أخرى عن بيت لحم حيث ولد المسيح، وذلك بعبارات أنيقة رشيقة ترتاح لمطالعتها النفوس. ووعدت «المحبة» يوم صدورها أن تقترح على أرباب الأعلام موضوعاً تجول فيه أفكارهم وتعين لذلك جائزة لمن يحوز قصب السبق في هذا المضمار. وفي أوائل السنة ١٩٠٠ عيّنت جائزة قدرها عشر ليرات إفرنسية، وهو مبلغ كبير في ذلك العصر، لمن يقدم لها تقريراً مسهباً عن الكرسي الأنطاكي يشتمل على سلسلة البطارقة الأنطاكيين بوجه الإيجاز، وعلى أقسام الأبرشيات قديماً وحديثاً وأسماء المدن والقرى والمزارع، وعدد سكانها الأرثوذكسيين وعدد الكنائس وأسمائها في كل مدينة وقرية، وعدد الكهنة وعدد الكنائس والمعلمين والمعلمات والتلاميذ وحاجة الملة في كل أبرشية وسبيل سدّد الخلل فيها.

جمعية القديس بولس البيروتية

وفي صيف السنة ١٨٨١ اصطف أحد الغيورين الأرثوذكسيين في قرية برمانا من قضاء المتن، ولدى سماعه القداس الإلهي في كنيسة لها لم يكد يفهم ما كان يتلوها كاهنها لقلّة بضاعته وكبر شيخوخته. وبعد انتهاء القداس اجتمع هذا الغيور ببعض وجوه القرية وقال إنه لا يناسب أن يستمر كاهنكم في الخدمة لعجزه، ولا سيما والملة كثيرة العدد هنا. فأجابوه: يا ليت هذا الكاهن مختص بخدمة كنيسةنا فقط، فإنه يخدم كنائس أخرى في القرى المجاورة لخلوها من الكهنة! فحثهم على انتخاب كاهن أو اثنين، ولدى عودته إلى بيروت جمع بعض الإخوة من ذوي الغيرة والمحبة وبين لهم حالة الملة في لبنان، وأنه يجب النظر إليها بتأليف جمعية تُعنى بقرى الأبرشية، فبدأ هؤلاء يواصلون الاجتماع ويقرءون الكتب ويقيمون الصلوات حتى السنة ١٨٨٣ عندما قابلوا غفرانيل متروبوليت الأبرشية وعرضوا عليه مشروعهم، فسّر الراعي الجليل وحضّ على مواصلة الاجتماع والصلوات، وأطلق عليهم جمعية القديس بولس الرسول، ثم سنّ لهم قانوناً وباركهم.

وفي أول أيار السنة ١٨٨٣ التّأمت جمعية القديس بولس جمعية قانونية برئاسة غفرانيل ونيابة الشّمّاس غريغوريوس حداد (المطران فالبطريرك)، وعضوية الخوري جراسيموس فواز رئيس دير القديس يوحنا دوما والخوري جرجس قطيط والخوري جرجس جنحو، والإخوة إبراهيم حايك وإبراهيم سعد وإلياس يوسف سعد وحنا ثابت

وفرج الله رزق الله، وفضول صباغة وفضول العم ولطف الله الزهار ولطف الله منسي ومصري حايك ومصري سماط وجبران بشور وجرجس قرداحي ونقولا كفوري.

واتصل رئيس الجمعية بالمجمع الروسي المقدس فتبرّع هذا المجمع بألف روبل وبكثير من الأيقونات والأواني الكنسية، وبذل أعضاء الجمعية من أموالهم الخاصة وجمعوا من غيرهم، وأخذوا يطوفون في جهات لبنان من قرية إلى قرية ومن مزرعة إلى مزرعة يساعدون الكنائس ويؤسسون المدارس، واندفعوا إلى خارج أبرشية بيروت ولبنان فعملوا في راشيا وكفر مشكي وظهر الأحمر وعكار وغيرها، وسعوا في نشر نفائس الكتب الدينية على نفقتهم فطبعوا البوق الإنجيلي والأورولوجيون الكبير والتعليم المسيحي، وما أشبه من الكتب الجليلة.

الغاية الجليلة في حمص

وهبَّ مثال الغيرة والتقوى الطيب الذكر أنثاسيوس متروبوليت حمص وتوابعها لرعاية أبرشيته، فرأى كلمة الله حية فعالة أمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل، فتدرّع بالأعمال الصالحة التي بها أكمل الإيمان، فأنشأ المدارس بالتعاون مع الجمعية الإمبراطورية الروسية، ووجد في خليل بيدس خير مدير لهذه المدارس ونظم الجمعيات واللجان للعمل. ففي السنة ١٨٩٦ أَلَّف أنثاسيوس جمعية الغاية الجليلة لنشر الفضيلة، فعينت هذه الجمعية مطالعة الكتب المقدسة وتفسيرها وتأسيس مكتبة وطنية عمومية يستفيد من مطالعتها سواد الملة.

وانتظمت في السنة ١٨٩٨ جمعية بوق النجاح في نور العفاف والإصلاح، فجمعت كتيبة نشيطة من سيدات حمص وكرائمها، فكانت تلتئم كل أسبوع في يوم الأحد لتلاوة الأقوال الروحية والأناشيد الدينية، فيتذاكرن في كلمة الخلاص وينصرفن لتشجيع الأعمال اليدوية واقتلاع العادات الضارة لتخفيض نفقات ربات البيوت.

أخوية التقوى في إزمير

ولم تنحصر هذه النهضة المباركة في كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى وحدها، فخطر التبشير الغربي هدد أخواتها في أوروبة وآسية وإفريقية كما هدها في جميع أبرشياتها، وكان من نتائج هذا التهديد في إزمير أن انتظمت في السنة ١٨٩٣ لجنة روحية أعضاؤها من العامة وأكثرهم صناع وفعلة، واتخذت هذه اللجنة لنفسها الاسم أوسيبيا وجعلت

غايته إنهاء الحياة الروحية والبشارة بالإنجيل، وتزعم أعمالها كركور فافيداس، وتكاثر الأعضاء العاملون حتى أصبحوا في السنة ١٢٠٠ سبعمائة بينهم ثلاثون مبشراً من العامة. وبارك متروبوليت إزمير هذا المشروع وأيده في ذلك بطريرك الإسكندرية وغيره من الرؤساء الروحيين اليونانيين في كل مكان.

شغور الكراسي (١٨٩٩-١٩٠٢)

وشغر كرسي اللاذقية مذ تسنم ملاقيوس الثاني عرش الرسولين، وحرد جرمانوس متروبوليت حلب وبنيامين متروبوليت ديار بكر منذ انتخاب البطريرك، وتوفي متروبوليت أرضروم. وفي الرابع عشر من أيلول سنة ١٨٩٩ رقد بالرب جراسيموس متروبوليت سلفكياس (معلولا وبعلبك وزحلة). وفي السابع من كانون الثاني سنة ١٩٠١ فاضت نفس غفرائيل متروبوليت بيروت ولبنان. وفي الرابع من تشرين الأول من السنة نفسها انصرف نيقوديموس متروبوليت عكار إلى جوار ربه.

انتقاء المطارنة

وكان المجمع الأنطاكي المقدس قد اتخذ قراراً في ربيع السنة ١٨٩٨ بوضع نظام على غرار نظام بطريركية القسطنطينية، وكانت الحكومة العثمانية قد أذنت له بذلك (١٤ آذار ١٨٩٨)، فألف لجنة برئاسة ملاقيوس اللاذقية وعضوية أثناسيوس حمص وغيغوريوس حماة وغيغوريوس طرابلس وجراسيموس سلفكياس، واشترك بعض العلمانيين المتضلعين في نواميس الكنيسة ونظاماتها. وكانت هذه اللجنة قد أنجزت منذ صيف السنة ١٨٩٩ نظام انتخاب البطارقة والمطارنة ونظام تأليف المجمع الأنطاكي المقدس «الدائم» ووصلت إلى نظام المجلس الزمني.

وفي السنة ١٩٠١ دبج غطّاس قندلفت أحد أعضاء هذه اللجنة المشتركين سلسلة مقالات في انتخاب الأساقفة وشرطونيتهم ونشرها تباعاً في مجلة «المنار» الأرثوذكسية في بيروت، فأعلن أن اللجنة المشار إليها أقرت مواداً ثلاثاً في الصفات اللازمة لمن ينتخب للأسقفية. ونشر نص هذه المواد فجاءت معربة عن سياسة البطريرك الجديد في انتقاء المطارنة ومجمعه المقدس.

وجاء في المادة الأولى أنه يجب على كل منتخب أن يكون عثمانياً عن أب وبلا لوم تجاه الدولة والملة، وأن يكون قد أحرز شهادة بحسن حاله من المحلات التي أقام فيها،

وأن يكون قد أنتم الثلاثين من عمره، تام الأعضاء من الذوات المعروفين عند الكنيسة ملماً بلسان الأبرشية التي يعين لها. وجاء في المادة الثانية أن «رتبة الأسقفية تعطى لمن يثبت أنه تعلم العلوم الكنائسية الأرثوذكسية في المدارس الأرثوذكسية ونال شهادتها». ونصت المادة الثالثة على كيفية الترشيح والانتخاب، فأشركت الأبرشية في «ترشيح ثلاثة من الذوات الذين أحرزوا الصفات المحررة في المواد السابقة». وأوجب على البطريرك أن يبلغ المطارنة أسماء هؤلاء في ظرف أسبوع واحد، وأن يدعوهم إلى الانتخاب بعد أسبوعين.^{١٣} وأنهى غطاس قندلفت مقالاته سائلاً الله أن يأخذ بيد البطريرك والمطارنة ويمكنهم «سريعاً» من إقامة الرعاية اللازمين إلى الأبرشيات المترملة «جرياً على ما تفرضه القوانين الكنسية التي لا تسمح أن تلبث الأبرشيات مترملة مدة طويلة. وعملاً بما يقتضيه صالح الرعاية وتعزيز شأن الأرثوذكسية دفعاً لمطامع من لا يرغبون في صالحها الحقيقي ويشمتون بضعفها وانحطاطها ويقفون لها بالمرصاد، ولا يهتمهم نجاح كنيسة تاريخية قديمة مهمة في جسم الأرثوذكسية». ^{١٤}

وعمل البطريرك بتوصيات المجمع وبمؤازرته، فسام أرسانيوس (حداد) شماس غفرائيل متروبوليت بيروت مطراناً على اللاذقية في الثاني من كانون الثاني سنة ١٩٠٠. وفي الخامس والعشرين من آذار السنة نفسها سام سلفسترس (زرعوني) مطراناً على ديار بكر، وكان سلفسترس قد لبس الأسكيم في دير البلمند، ثم التحق بملاطيوس في اللاذقية فغريغوريوس في طرابلس شماساً إنجيلياً، ثم رسم قساً وأرسل إلى ترسييس لخدمة أبنائها فأقام فيها تسع سنوات.^{١٥} وفي أول كانون الثاني سنة ١٩٠٢ سام قسطنديوس (طرزي) مطراناً على أضرورم، وكان قد لبس الأسكيم في دير مار تقلا معلولا سنة ١٨٥٩ ودرس اللاهوت وسائر العلوم الدينية في مدرسة الريزاريون في أثينا، وزار أوروبا وأميركة وخدم في الكرسيين الأورشليمي والإسكندري. وخص ملاطيوس الثاني حلب بعنايته فسام أبيفانيوس (السمرا) متروبوليتاً على حلب والإسكندرونة وتوابعها في الثاني من شباط سنة ١٩٠٢. ولد في دمشق سنة ١٨٦٧ ودرس في المدرسة البطريركية في دمشق، ثم التحق بأثناسيوس متروبوليت حمص، فأخذ عنه التقوى

^{١٣} «انتخاب الأساقفة»، لغطاس قندلفت، مجلة «المنار»، ١٩٠١، ص ٣٧٨.

^{١٤} المرجع نفسه، ص ٣٧٨-٣٧٩.

^{١٥} مجلة «المنار»، ٣٠ آذار سنة ١٩٠٠، ص ٤٤٥-٤٤٧.

والورع والعلم والموسيقى، فلبس الأسكيم سنة ١٨٨٤ ثم تبع معلمه إلى حمص ودخل في خدمة غريغوريوس متروبوليت طرابلس وتولى رئاسة دير البلمند ودير مار جرجس الحميرا. وتفوّق في الوعظ والكتابة والترتيبات الكنائسية، ثم انتخب المجمع المقدس الأرشمندريت ألكسندروس (طحان) رئيس الأمطوش الأنطاكي في موسكو مطراناً لأبرشية ترسييس، فسامه البطريك في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٩٠٣. وكان ألكسندروس قد تميز بعلمه ففاز بالشهادة اللاهوتية الأولى من مدرسة خالكي وأجاد الموسيقى الكنسية واللغات العربية واليونانية والتركية والإفرنسية والروسية، وتحلى بالورع والتقوى فغبط الأرثوذكسيون إخوانهم في أبرشية ترسييس وتمنوا مثل حالهم الحسنة.^{١٦} «وحق للكرسي الأنطاكي أن ينتزع عنه أثواب الحداد ويبرز بملابس العيد ويقابل بأصوات الشكر آلاء العناية وانعطافها عليه، وبابتسامة البشر مستقبلة الوضاح ونهضته المالية. وانقضى زمن الترمّل والتراخي وجاء وقت الجد والعمل. مضى الخريف بيبسه وعريه وبدت طلّائع ربيعهِ الجميل وأخذت أغصانه تكتسي بالأوراق، واكتحلت عين الناظر بمشهد جميل؛ إذ رأى الكراسي الفارغة تُمَلأ الواحد بعد الآخر برجال الهدى والفضل، وشعوبها المتفرقة تنضم تحت راية الجامعة والتعاقد وأطلالها الخالية تبدو بمظهر الشباب والعمران. ولا يسع الناظر إلى هذا كله أن يسكت عن إسداء الشكر لراعي الرعاة وأعضاء مجعته المقدس الذين أبدوا من الاهتمام بانتخاب أساقفة للأبرشيات المترملة بحق بهم الظن أنهم الرعاة المختارون للسهر على الخراف وقيادتها إلى مراعي الخلاص.»^{١٧}

أبرشية بيروت ولبنان (١٩٠١-١٩٠٢)

وشعر غفرائيل بانحراف في صحته في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٠٠، ووافق ذلك يوم عيد مولد السلطان فخرج للكنيسة لإقامة الدعاء للسلطان، ثم عاد إلى القلاية فلبس أوسمته ونزل إلى دار الحكومة للقيام بواجب التهنئة باسم الروم، ورجع نحو الظهر ولزم الفراش متأثلاً، وكانت نزلة صدرية تتأقلت مع مرور الأيام فمضى

^{١٦} مجلة «المحبة»، ٦ نيسان ١٩٠٢، ص ٢٠٩، و«المحبة» أيضاً، ٢٧ أيلول ١٩٠٣، ص ٤٩٥، وفيها وصف حفلة الوداع في موسكو. و«المحبة» كذلك، ٦ كانون الأول ١٩٠٣، ص ٦٤٣-٦٥٣، وفيها وصف سيامته.

^{١٧} الانتخابات الأسقفية في الكرسي الأنطاكي لإدارة مجلة «المحبة»، ٩ شباط سنة ١٩٠٢، ص ٧٥-٧٦.

مستقبلاً وجه البقاء في السابع من كانون الثاني سنة ١٩٠١. فطير منعاه إلى البطريك وكان لا يزال في أنطاكية في جولته الرعائية وإلى المطارنة. فكتب البطريك في العاشر من كانون الثاني معزيًا محرصًا كهنة الأبرشية على القيام بواجباتهم الروحية غير متقاعدين لتأييد الوفاق والمحبة راجيًا من أولاده الوجهاء أعضاء القوميسيون أن يواظبوا بلا فتور لرؤية مصالح الطائفة والنظر في دعاوى. وفي الثالث عشر من الشهر نفسه حرر إلى الأحباء بالرب الأفندية يوسف سرسق وعموم أعضاء قوميسيون المطرانخانة في بيروت ذاكراً مآثر غفرائيل، موافقاً على برقيتهم التي أعلموه بها عن اتفاقهم على تسمية الخوري اسبر الباشا وكيلًا روحياً ويوسف أفندي سرسق وكيلًا زمنيًا.^{١٨}

وكانت أبرشية بيروت ولبنان آنئذٍ أكبر أبرشيات كنيسة أنطاكية، فإحصاءات الجمعية الإمبراطورية الفلسطينية لقبيل السنة ١٩٠٠ تجعل عدد «العائلات» الأرثوذكسية في كنيسة أنطاكية كما يلي:^{١٩}

٢٩٠٠	أنطاكية ودمشق
١٨٠٠	صور وصيدا
٢٥٠٠	سلفكياس (زحلة بعلبك)
٢٥٠٠	حمص
٢٨٠٠	حماة
٨٠٠	حلب
١٠٠٠	ديار بكر
١٢٠٠	أرضروم
٢٠٥٠	ترسيس وأدنة
٥٠٠٠	اللاذقية
١٠٠٠٠	عكار
١٦٠٠٠	طرابلس
٢٠٠٠٠	بيروت ولبنان

^{١٨} «المحبة»، ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩٠١، ص ٣٣-٣٦.

^{١٩} Echos d'Orient, 1900, 146-147; Vailhé, S., Antioche, Dict. Theol. Cath., I, Col. 1415-1416.

وكان غفرائيل يلاقي من المتاعب والمشقات في سياسة أبرشيته هذه الواسعة الكبيرة ما ينوء بحمله كل رئيس، فإن دورته الرعائية في لبنان كانت تستغرق أكثر من نصف السنة، ومع ذلك لم يكن يستطيع النظر في كل الشئون التي تعرض عليه، ولا الاهتمام بكل ما تدعو إليه الحاجة من الإصلاح والاعتناء بشئون الكهنة والكنائس. وكانت جمعية القديس بولس في بيروت قد لمست هذه المتاعب قبل وفاة غفرائيل ببضع سنوات، فبحث أمر قسمة الأبرشية إلى أبرشيتين في إحدى جلساتها العمومية، وقام نجيب طراد فألقى خطاباً في هذا الموضوع على مسمع غفرائيل، فأبان حالة الطائفة في لبنان وما كانت عليه من الانحطاط، وأيد كلامه بالتقارير الوافية، وذكر المصاعب التي كان غفرائيل يلاقيها في إصلاح الخلل، وما كان يحول دونه من كبر الأبرشية وتعدد حاجاتها وكثرة مطالبها، فلاقى رأيه استحساناً واستصواباً من جميع الحاضرين.^{٢٠}

فلما انتقل غفرائيل إلى دار القرار تفاوض اللبنانيون في شأن فصلهم الروحي، فأقرّ عليه رأيهم ورفعوا إلى البطريرك والمجمع المقدس العريضة التالية:

نحن أبناءكم الروحيين القاطنين في جبل لبنان نرفع إلى المجمع الأنطاكي المكاني المقدس بشخص قداستكم الوافر الشرف هذه العريضة البنوية التي نقدمها بمزيد الاحترام متضمنة طاعتنا وتمسكنا بالحقائق الأرثوذكسية المقدسة وعرضنا ما يأتي:

إن الفادي رسول الخلاص العظيم عندما أرسل تلاميذه الرسل بعد قيامته للكراسة في المسكونة كلها اقترحوا على أماكن رسالتهم كما يخبرنا بذلك سفر أعمال الرسل، فوقعت سورية التي نحن جزء منها نصيباً لسلفكم القديس بطرس الرسول، فأتى من أورشليم ماراً بالمدن حتى انتهى إلى بيروت فأقام القديس كوارتس أسقفاً عليها، ثم مضى إلى جبيل وأقام عليها أسقفاً؛ القديس يوحنا الملقب مرقس، ثم مضى إلى البترون فأقام القديس سيلا أسقفاً عليها. وهكذا تدرج إلى الكراسي الأخرى كما شرحت ذلك كتب آبائنا القديسين وعلمائنا الأعلام، ولا سيما سلفكم الطيب الذكر البطريرك مكاريوس الحلبي.

^{٢٠} «بولس مطران جبيل والبترون»، لإدارة مجلة «المحبة»، ١٢ نيسان ١٩٠٣، ص ١٨٢-١٨٣.

وعليه؛ فإن لبنان وطننا العزيز كان فيه أسقفيتان من وضع القديس بطرس، وعلى هذا التقسيم الرسولي ظلت الكنيسة تنمو متدرجة في صدر الديانة المسيحية. ثم لما هدى الله القديس قسطنطين المعظم ازداد عدد الكراسي ونما كثيرًا، فكان للبنان في أيام ازدهار الإيمان كراسي كثيرة زاهرة بالرؤساء الروحيين الأتقياء والشعب الوافر الطاعة والمستقيم الإيمان، لكن الله شاء بسماع إلهي أن تجرب كنيسته وصادمها بعض المحن فقلَّ عدد المسيحيين في لبنان كما قلَّ في سواه؛ ولذلك ضُمَّ إلى أبرشية بيروت.

والآن بنعمة الفادي ختن الكنيسة وعروسها الطاهر قد نَمَتْ أبناء البيعة المقدسة في ظلِّ ظليل دولتنا الأبدية القرار بجبل لبنان نموًّا غزيرًا، وأصبحوا بحمده تعالى رعية متسعة نحو خمسين ألف، وهو عدد يربو على عدد أبرشيتين سوى أبرشية بيروت في عهد المثلث الرحمات المطران غفرائيل الطيب الذكر.

ولما كانت تقاليد الكنيسة تؤدِّن للشعب العديد أن يتولى رعايته راعٍ خاص وكانت أبرشية لبنان مستقلة أصلًا عن بيروت؛ كان من المعدلة والرحمة أن تستجيبيوا ملتصقًا بأبنائكم الروحيين؛ أبناء البيعة الأرثوذكسية في لبنان، وتمنحهم بنعمة الله الانفصال روحيًّا عن أبرشية بيروت؛ لأنه يتعذر على الراعي أن يطوف في كل الأبرشية إن كانت بيروت ولبنان أبرشية واحدة كما ثبته الواقع في حياة المثلث الرحمات رعاتنا السالفين، حتى كان يمر بضع سنوات ولا تشاهد كنائسنا مطراننا الرسمي؛ وذلك لاتساع دائرة الأبرشية. فمن الواجب أن نطلب الانفصال ليمكن راعي لبنان الخاص أن يتفقد قطيعه بأسره.

ولما كان رعاة لبنان الأولون لا ينقصون منزلة ورئاسة عن رعاة بيروت ولا عن سواها جئنا نلتصق من جنابكم الرسولي أن تقيموا لنا راعيًا من ذات درجة أحبار الأبرشيات الأخرى، ونحن مستعدون للقيام بكل احتياجاته عن رضا وطيبة نفس.

ونؤكد لغبطتكم وللسادة المطارنة الأجلَّاء أن انفصالنا لا نقصد به إلا الحصول على نجاح مستمر ونمو متواصل، وإننا كنا ولا نزال نحب إخواننا أبناء أبرشية بيروت حسبما أوصانا الرسول أننا نعرف أنفسنا أننا أولاد الله؛ لأننا نحب بعضنا بعضًا.

فنسترحم من سدّتكم الرسولية باسم أبناؤكم أرثوذكسي أبرشية لبنان أن يلتئم مجمعكم المكاني المقدس ويستدعي إليه كهنتنا ونواب شعبنا لعرض حقوقهم العادلة ليجري الفصل قانونياً ويقرر تحت رئاستكم استجابة ملتمسنا كنائسياً. وفي الختام نسأل العزة الإلهية دوام رئاستكم السعيدة أيها السيد الجزيل الطوبى.

فصل لبنان عن بيروت (١٩٠١)

وعرض ملاطيوس البطريرك هذه العريضة وغيرها على المجمع الأنطاكي المقدس وجرت المفاوضة بشأنها. وبعد المذاكرة قرر المجمع باتفاق الأصوات في جلسته المنعقدة يوم السبت في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٠١ إجابة سؤل اللبنانيين وفصل الأنحاء اللبنانية التابعة قبلاً روحياً مطرانية بيروت وجعلها أبرشية لوحدها منفصلة روحياً عن بيروت. وأصدر البطريرك المنشور الآتي إلى اللبنانيين:

نومرو ١٦٣٧

أيها الأبناء الأحباء بالرب قدس الكهنة الورعين والأفندية والمشايخ والاختيارية وعموم المسيحيين الأرثوذكسيين في أنحاء جبل لبنان المباركين، نعمة لكم ورحمة وسلام من لدن الله الأب أبينا والرب يسوع المسيح فادينا والروح القدس المعزي الصالح ينبوع كل تعزية وعطية صالحة. وبعد؛ فإننا نهذبكم دوماً طالبين إليه تعالى من أجل حفظكم وصيانتكم ونجاحكم روحياً وزمناً ونموكم في كل أعمال الصلاح لأجل اعتلاء شئونكم وزيادة معموريّتكم وبنيانكم في الرب.

وبناء على المعروضات المتقدمة إلينا من لفيفكم قد افتكركنا ملياً مع هيئة السينودوس المقدس المجتمع لدينا الآن، وفي الجلسة السينودسية المنعقدة اليوم قد تقرر فصل الأنحاء اللبنانية التابعة قبلاً روحياً لمطرانية بيروت، ولأجل هذه الغاية قد أنفذنا الآن من قبلنا أخوينا السيدين كير أثناسيوس مطران حمص وما يليها وكير أرسانيوس مطران اللاذقية وما يليها القوشرين. وهما يذكران للفيّفكم المحبوب كل ذلك شفاهاً أيضاً.

وبما أن العمل المشار إليه إنما هو لأجل ازدياد معمورية لبنان روحياً وهناء أحوال رعيته المحروسة وفلاحها في الرب، لا شك أنكم تقبلونه بملء

الارتياح والرضا والشكر لعنايتنا الرعائية واهتمامات سينودس كنيستنا الأنطاكية المقدسة، وتبادروا معًا طالبين إلى إلهنا الفادي الوحيد ختن كنيستنا الأرثوذكسية المقدسة وراعي رعاتها الإلهي أن يلهمكم لتسمية ثلاث مرشحين لموقع الانتخاب من رجال إكليروس كرسينا البطريركي المقدس، المعروفين بالفضيلة والتقوى والآداب المسيحية وسعة المعارف الروحية والاطلاع؛ لتقدموهم إلينا بأقرب ما يمكن لأجل إجراء الانتخاب القانوني وتعيين من تختاره نعمة الروح الكلي قدسه مطراناً لأبرشيته هذه المحروسة. ونحن من الآن نبسط أكفَّ التوسلات الحية تعالى سبحانه أن يوفقكم إلى كل خير والصلاح ويصون حياتكم الثمينة، ويزيدكم نجاحاً وفلاحاً، وينميكم كبراً وصغاراً بالعفاف وحسن العبادة وخوف الله، ويبارككم جميعاً بيمينه القدوسة وينقذكم من كل شر وضرر بشفاعته سيدتنا والدة الإله مريم البتول النقية وجميع القديسين.

نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس لتكن مع جميعكم أيها الأحباء للدوام.

عن الشام في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٠١

الداعي لجميعكم بالرب

ملاطيوس

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

الترشيح والانتخاب

وعلى أثر ورود هذا المنشور البطريركي اجتمع اللبنانيون من كل القرى وأقاموا وكلاء عنهم لإجراء الترشيح القانوني. وبعد المذاكرة قرر هؤلاء باتفاق الأصوات رفع عريضة للبطريرك يفوضون بها غبطته والمجمع المقدس بانتخاب ذات يليق بالمنصب، فالتأم المجمع في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ وقرر باتفاق الأصوات انتخاب الأرشمندريت بولس أبي عضل مطراناً للأبرشية الجديدة أبرشية جبيل والبترون وما يليهما. وفي الثالث من شباط سنة ١٩٠٢ تمت السيامة في الكاتدرائية المريمية في دمشق.

بولس متروبوليت جبيل والبترون (١٨٦٥-١٩٠٢)

وُلِدَ في دمشق في السنة ١٨٦٥ من أبوين أرثوذكسين حبيب وأفذوكية فسمياه عزيزًا، ودخل المدرسة البطريركية فأخذ اليونانية والموسيقى الكنسية عن أثناسيوس متروبوليت حمص فيما بعد، ودرس العربية والرياضيات على ضاهر خير الله الشويري والتركية على جبران لويس، ومنحته المدرسة جائزة الامتياز في العلوم واللغات. وفي آب السنة ١٨٨١ أرسله أيروثيوس البطريرك إلى القسطنطينية ليتم دروسه فيها، فالتحق بمدرسة الفنار سنة واحدة ثم انتظم في سلك طلبة كلية خالكي اللاهوتية. وأقام في هذه الكلية سبع سنوات وأنهى دروسه في السنة ١٨٨٩ نائلًا شهادة الحداقة في اللاهوت مجيدًا العربية واليونانية والتركية والإفرنسية، وسيم شماسًا إنجيليًا في كنيسة خالكي وسمي بولس. وعاد بولس إلى الوطن فانضم إلى معية البطريرك جراسيموس وأحيلت إليه رئاسة القلم، واستمر في المعية البطريركية في عهد اسبيريدون. وسنة ١٨٩٤ سامه هذا البطريرك قَسًا وأرشمندريتًا، وتولَّى بولس بالإضافة إلى أعماله القلمية رئاسة المدرسة البطريركية في السنتين ١٨٩٤، ١٨٩٥. وانتظم في المحكمة الروحية البطريركية فسطر أحكامها ونفذ مطالبها، وفاز بثقة المطارنة أعضاء المجمع المقدس فأصبح كاتم أسرار هذا المجمع، وأخلص للملاطيوس القائمقام البطريركي فالبطريرك فأحبه وعطف عليه.

منشور بولس الرعائي (٣٠ آذار ١٩٠٢)

وأصدر بولس متروبوليت جبيل والبترون وتوابعهما منشورًا رعائيًا في الثلاثين من آذار سنة ١٩٠٢ أعلن به انتخابه وسيامته، وحض المؤمنين على الورع والتقوى والطاعة للسلطات الزمنية والدعاء للسلطان، وهو من أفضل ما قرأنا لأي أسقف في أية لغة:

المجد لله دائمًا، بولس برحمة الله تعالى مطران جبيل والبترون وما يليهما: النعمة الإلهية والبركة السماوية فلتشملا نفوس وأجساد أبنائنا الروحيين المحبوبين بالرب الكهنة الورعين والمشايخ المحترمين والذوات المعتبرين، وأرباب الحرف والفلاحين الأكرمين وسائر المسيحيين الحسني العبادة الأرثوذكسين القاطنين في أنحاء أبرشية جبيل والبترون وما يليهما المحفوظة من الله، ليبارك الرب الإله عليهم وعلى حريمهم وأولادهم وفي منازلهم وجميع أعمال أيديهم بآتم البركات السماوية، ويدفع عنهم شر كل محنة وبلية بشفاعات سيدتنا

والدة الإله البتول النقية والرسول المشرفين الكلي مديحهم وسائر القديسين المختارين، آمين.

أما بعد؛ فإننا نعلم محبتكم أنه بعد انتقال المثلث الرحمات السيد غفرانيل مطران بيروت ولبنان إلى الأخدار السماوية وخلق الأبرشية من راعٍ قانوني لها، ينظر في شئونها ويدبر أمورها، رفع بنو الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة في جهات لبنان التابعة قبلاً لهذه الأبرشية عرائض عديدة إلى غبطة إمام أحبارنا كيريوس كيريوس ملاتيوس بطريرك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق الكلي الطوبى والفائق الاحترام، مسترحمين فيها أن يقرر مجتمعياً إعادة مجد كنيسة الله فيما بينهم بجعلهم أبرشية مستقلة كما كان في سابق الزمان؛ وذلك لأسباب هامة سطورها في عرائضهم المذكورة، وبناء على ذلك عندما استدعى غبطته مصاف رؤساء كهنة الكرسي الأنطاكي الرسولي المقدس إلى دمشق مقره البطريركي. ففي الجلسة الجمعية التي انعقدت يوم السبت الواقع في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٠١ تحت رئاسته طرحت العرائض المذكورة لنظر المجمع المقدس، وبعد قراءتها والتمعن بما حوته من الأسباب الموجبة لتقديمها والمذاكرة فيها ملياً أعطى القرار باتفاق الآراء: «بفصل الأنحاء اللبنانية التابعة قبلاً روحياً مطرانية بيروت وجعلها أبرشية لوحدها منفصلة روحياً عن بيروت.» كما قد أوضح غبطته ذلك في المنشور البطريركي الصادر في ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٠١ تحت نمرو ١٦٣٧. وإنه بعد إجراء المعاملة القانونية لانتخاب رئيس لهذه الأبرشية عقد المجمع جلسة أخرى يوم الخميس الواقع في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ لإتمام الانتخاب، فغب إقامة الصلاة المفروضة واستدعاء نعمة الروح الكلي قدسه وإعطاء الأصوات القانونية وقع الانتخاب بالاتفاق على حقارتنا. ويوم الأحد الواقع في ٣ شباط سنة ١٩٠٢ احتفل غبطته والسادة المطارنة الأجلء بخدمة القداس الإلهي وتمموا سيامتنا رئيس كهنة.

وتقلدنا والحالة هذه رعاية أبرشية جبيل والبترون وما يليهما المشتمة على ما كان تابعاً قبلاً لأبرشية بيروت ولبنان العامرة من المسيحيين الأرثوذكسيين القاطنين في أقضية الشوف والمتن وكسروان والبترون والكورة بصفة مطران عليها؛ لنقوم بإيفاء مقتضياتها الروحية وبمهام الخدم الكنائسية التي مآلها

نجاح أبنائها الروحيين من كهنة وعلمانيين في الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة لمجد اسمه القدوس وخلص النفوس.

وبناء عليه رأينا من الواجب أن نوجه الآن خطابنا هذا نحو محبتكم إيضاحاً لكل ما ذكر أعلاه، وبياناً لما لنا وعلينا نحوكم من الحقوق والواجبات التي تتميمها يتكفل بالوصول إلى الغاية الحميدة التي لأجلها أسس رئيس إيماننا العظيم ربنا يسوع المسيح كنيسته المقدسة وأقام فيها الرعاة والمعلمين. ونوضح بادئ ذي بدء لمحبتكم أننا إذ قد اتخذنا على عاتقنا حمل هذه الرئاسة الثقيل نصرف كل ما في وسعنا لإتمام واجباتها الشريفة نحوكم؛ أولاً: بالسهر على ثباتكم في الإيمان الأرثوذكسي بالإرشادات والتعاليم المبنية على «الكتب المقدسة القادرة أن تحكمكم للخلص بالإيمان الذي هو في يسوع المسيح». وثانياً: بالاهتمام في تدبير شئونكم الروحية والنظر في مصالحكم بعين الحق والعدل واتخاذ كل الوسائل التي تنول إلى توطيد المحبة والألفة والسلام فيما بينكم وفيما بين جميع الناس؛ لتكونوا راتعين في بحبوحة السعادة وتتنعموا بثمارها اللذيذة، واتكالنا في ذلك كله على نعمة الرب القائل: «إن قوتي في الضعف تكمل»، القادر أن يصنع كل شيء بحيث يفوق جداً ما نسأله أو نتصوره على حسب القوة التي تعمل فينا، له المجد في الكنيسة في المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور، آمين.

أما واجباتكم أيها الأبناء الأعزاء فتقوم بالطاعة لكلام الله والانقياد لنصائحنا وإرشاداتنا الرعائية، «حتى إذا تمسكتكم بصورة الكلام الصحيح الذي تسمعون منه في الإيمان والمحبة التي في يسوع المسيح»، «وحفظتم الوديعة الصالحة بالروح القدس الحال فيكم»؛ تستحقون السعادة الحقيقية التي عني بها السيد بقوله: «إنما الطوبى للذين يسمعون كلمة الله ويحفظونها». «فروضوا أنفسكم على التقوى؛ لأن التقوى تنفع في كل شيء ولها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة». إذن الواجبات عليكم بصفة كونكم مسيحيين حقيقيين هي أن تتمموا فروض الإيمان القويم، أن تطالعوا الكتاب المقدس بالتمعن اللائق به، أن تسمعوا الصلوات في الكنائس بلا انقطاع بكل السكينة والاحترام، ولا سيما في أيام الآحاد والأعياد، أن تحافظوا على الصيامات الشريفة التي رتبها أبائنا القديسون، أن تعملوا أعمالاً تليق بالتوبة، وتشاركوا بالأسرار الخلاصية الطاهرة بكل الوقار، وبالإجمال أن «تغنوا نفوسكم بكل عمل صالح»

مستمرين على الإيمان متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل الذي سمعتموه وكرّز به في كل الخليقة التي تحت السماء، و«غير ناسين فعل الإحسان والمؤاسة؛ لأنه بذبائح مثل هذه يرضي الله.» والله قادر أن يزيدكم كل نعمة حتى تكون لكم كل كفاية كل حين وفي كل شيء فتزدادوا في كل عمل صالح.

وبنوع خاص نوصيكم أيها الكهنة الورعون: احترسوا لأنفسكم ولجماعة الرعية، كونوا قدوة لبنികم الروحيين بالتعقل بالاحتشام بضيافة الغرباء بالحلم بالقناعة، مدبرين بيوتكم حسنًا مجتهدين بتربية أولادكم في الخضوع بكل وقار، اتعبوا في كرامة الرب، وإن عيّرتم ليكن رجاؤكم وطيدًا بالله الحي الذي هو مخلص الناس أجمعين ولا سيما المؤمنين. كونوا مثالًا للمؤمنين في الكلام في التصرف في المحبة في الإيمان في الطهارة. لاحظوا أنفسكم والتعليم واستمروا على ذلك فإنكم إذا فعلتم هذا تخلصون أنفسكم والذين يسمعونكم أيضًا. صلوا من أجل سلامة العالم ومن أجلنا ذاكرين اسمنا في خدمة القديس الإلهي وفي سائر الفروض الكنسية تبعًا للقوانين الشريفة.

أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم، بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره، لا تتطلبوا لمعان المعارف الباطلة الخارجي الذي للتظاهر، بل اسعوا لتغذية نفوس بنيكم بالحقائق الراهنة التي تبهج العقل بنورها الوضّاح، وتنعش القلب بمعرفة الله المستخرجة من فحص نواميس مخلوقاته والتأمل بها؛ «لأن قدرة الله الأزلية وألوهته تُرى منذ خلق العالم مدركة بالمبروءات»، و«احذروا أن يسلبكم أحد بالفلسفة والغرور الباطل حسب سنة الناس على مقتضى أركان العالم لا على مقتضى المسيح.» واذكروا ما قاله الحكيم ابن سيراخ: «إن كان لك بنون فأحسن تربيتهم، وإنه ولد واحد يتقي الرب خير من ألفٍ منافقين، والموت بلا ولد خير من الأولاد المنافقين.»

وأنتم أيها المعتنون بالكنائس والموكلون على المدارس والأوقاف، لا تنسوا «أن بيت الرب هو بيت صلاة»، وأن المدارس هي رياض النفوس، وأن الأوقاف مال دائم لثبات كليهما تخصصه تقوى المتقدمين لخير مستقبل المتأخرين، واذكروا دومًا أنكم إذ قد أوثمنتم على ترتيبها وحسن إدارتها وجب عليكم أن تواظبوا على الاهتمام بتنظيم شئونها، والسعي وراء نجاحها لتسير في الطريق المؤدية إلى الغاية الشريفة التي وجدت لأجلها.

وبوجه الإجمال نقول لجميعكم إنكم بالمحافظة على كنوز تعاليم الإيمان الشريفة التي أخذتموها عن آبائكم وبفحصها بالتمعن ونشر حقائقها في الكنائس والمدارس والبيوت تضعون أساساً أميناً متيناً للنجاح الديني والأدبي، تبنون عليه أبنية الفضائل بحجارة كريمة مرصوفة بالتقوى والوداعة والصبر، فتسكنون فيها فَرَحِينَ بالروح وتتمتعون بنعيمها شاكرين كنز الصالحات ورازق الخيرات. هذا فضلاً عن السعادة التي تحصلون عليها بصدق المعاملة والمسالمة مع الجميع بظل ظليل حامي المعارف وسابغ العوارف ولي عرش آل عثمان وفريده، عقد ملوك الزمان مولانا وولي نعمتنا بلا امتنان جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان.^{٢١}

جراسيموس متروبوليت بيروت (١٩٠٢)

وانحلت الأزمة فكتب ملاطيوس إلى المجلس الملي في بيروت وعموم الأرثوذكسين يستحثهم على إجراء ترشيح راعٍ لأبرشيته المترملة، فأوفدت الطائفة جماعة من أعيانها ليرفعوا إلى البطريرك خضوع الملة واحترامها، ويفوضوا لحكمته أمر انتخاب راعٍ يليق بالمنصب الجليل، وزودت الطائفة الوفد بعريضة مبنية على هذا القرار.

وذهب الوفد إلى مركز الكرسي الأنطاكي ومثلوا بحضرة البطريرك ورفعوا إليه عريضة الشعب البيروتي، فتلقاهم البطريرك بالحنان الأبوي والصدر الرحيب. ثم دعا المجمع الأنطاكي إلى جلسة انتخابية، فالتأم المجمع في الثامن والعشرين من آذار سنة ١٩٠٢ وانتخب بالإجماع الأرشمندريت جراسيموس مسرة رئيس الكنيسة السورية الأرثوذكسية في الإسكندرية أسقفًا وراعياً لأبرشية بيروت المحروسة من الله، وفي مساء ذلك اليوم أبرق غبطته إلى سيادة المنتخب يعلن وقوع الانتخاب عليه ويأمره بسرعة الحضور. وبزغت شمس التاسع والعشرين من آذار تحمل إلى بيروت البشري بانحلال الأزمة وتحقيق الأمل، فصدرت مجلة المحبة لسان جمعية التعليم المسيحي الأرثوذكسية في بيروت في الثلاثين من الشهر نفسه تهنيء الملة والأبرشية بما قيس الله لها من زوال المحن بعد طول الصبر، فمنَّ عليها بالرجل الذي جعلته موضوع ثقته، واعتبرته الشخص الوحيد الذي يستطيع أن ينهض بها إلى ذروة النجاح ويفتح لها أبواب التقدم والفلاح.

^{٢١} مجلة «المحبة»، ٦ نيسان سنة ١٩٠٢، ص ٢٠٠-٢٠٣.

«وسيادته رجل عرَّك الدهر وجرَّب الأيام وبلاها في حالتَي بؤسها ونعيمها، ودرس أخلاق الأمم وعرف أحوال الناس ووعى في صدره جميع ما يعوز من في مركزه من معارف النظر والاختبار، وهو أغنى من أن يحتاج إلى إفادة أو تنبيه وأدرى بما تطالبه به واجبات الأمانة والشرف والدين.»^{٢٢}

وأبرق جراسيموس بالقبول والخضوع وقام من الإسكندرية إلى بيروت ومنها إلى دمشق محاطاً بوجوه الطائفة، ولدى وصولهم إلى دمشق استقبلهم في محطتها وفد بطريركي برئاسة الأرشمندريت أفرام الدبس المنتخب آنئذٍ لأبرشية عكار، وسار الوفدان إلى الدار البطريركية، فلثم جراسيموس يد البطريرك وصافح السادة المطارنة وأظهر خضوعه واستعداده لخدمة الكنيسة الأنطاكية المقدسة، فأجابه غريغوريوس متروبوليت طرابلس بخطبة بليغة أعرب فيها عن سرور المجمع المقدس بقدومه.

وفي يوم الخميس في السادس عشر من أيار سنة ١٩٠٢ احتفل البطريرك والمطارنة بسيامة جراسيموس مطراناً على بيروت، فلفظ خطبة بليغة بعد تسلم عصا الرعاية استهلها بالاعتراف بفضل البطريرك عليه: «لقد لاق بك أيها السيد الجليل الغبطة، لقد لاق بك أن تكون أنت القائم بهذا العمل الجليل المقدس، لقد لاق بك دون سواك، أن تكون أنت المتمم كما كنت أنت البادئ. لقد لاق بهذه اليمين المباركة أن ترتبني في مصاف الرؤساء في خدمة الكهنوت كما رتبنتني من بادئ الأمر فيها وأدخلتني إليها، وليس الفخر لي بهذا كله، بل إنما الفخر والشرف لك أنت الأب والمربي والمعلم والمهذب والمؤسس والبانى.»

ومن أفضل ما جاء في خطابه الكاتدرائي في بيروت أن أهم ما يطلب منه تربية رجال يخدمون الدين، وتربية رجال يخدمون الأدب، وأن هذا الأمر لا يتم إلا بالمدارس، «وإذا سمعتم مني كلمة المدارس فلا تظنوا أنني أعني بها المدارس الابتدائية والعادية، بل أعني المدارس العالية المدارس التي تُرقي العقل بالعلوم العقلية وبالفنون الأصولية وتوجد في الملة حياة واستعداداً لسد كل احتياج عند اللزوم، فالكاهن المتنور المستعد والمدرسة الطائفية المجهزة بكل لوازم العلوم هما العنصران اللذان يحفظان مركز الطائفة ويرقيانها إلى أوج النجاح، وعليه؛ فإنني أرى أن المشروع في أعمالي وخدمتي يجب أن يبدأ من هذه النقطة.»^{٢٣}

^{٢٢} مجلة «المحبة»، ٣٠ آذار سنة ١٩٠٢، ص ١٨٩.

^{٢٣} مجلة «المحبة»، ٢٥ أيار سنة ١٩٠٢ العدد ١٦٨ بكامله.

وتعددت الوفود المهنة وتنوّعت وكثرت الخطب وتفاوتت، وجاء الوفد الماروني فألقى نجيب حبيقة الشويري خطبة رائعة ضمنها دعوة إلى التضامن والاتحاد فقال: «وهذا العيد لم تنحصر بهجته في طائفتك المحبوبة، بل كان فيه حظ لسائر الطوائف ولا سيما طائفتنا التي يمثل وفدها الآن بين يديك مولاي ليجدد لسيادتك ولأبرشيتك أخلص التهاني. فقد شاركنا إخواننا الأرثوذكس في حبك وإجلالك، مثلهم رأينا فيك حَبْرًا كريماً كبيراً. مثلهم علقنا عليك آمالاً خطيرة، فنحن أيها السيد النبيل في عصر نقول فيه ما قاله ملك الفرنسيين لحفيده الصاعد إلى عرش إسبانية «لم يعد بيننا جبال بيرينه». نحن في عصر به غدت كل طائفة تنظر في أخبار سائر الطوائف آباء لها كما ترى في أبناء الطوائف إخوانها، نحن في عصر يدعوننا إلى الاتحاد والإخاء في ظل الراية العثمانية الرفيعة، ونرى صالحنا وصلاحتنا في الوفاق والوئام بين رؤسائنا كما بين أفرادنا.»^{٢٤}

مجلس بيروت المليّ (١٩٠٢)

وفي الثاني من حزيران السنة ١٩٠٢؛ أي بعد وصول جراسيموس إلى كرسيه بخمسة عشر يوماً، جرى انتخاب جديد لمجلس الملة، وقضى البند الثالث من قانون هذا المجلس المصدق من جانب البطريركية بأن ينظر في جميع مهام الطائفة واحتياجاتها الأدبية والمادية، ومراقبة أعمال الجمعيات وانتخاب وكلاء الكنائس وفحص حسابات الأوقاف والنظر في جميع المسائل التي تتحول إلى المطرانخانة من قبل الحكومة بما يتعلق بأمور الطائفة، مع تقرير كيفية توزيع البدلات العسكرية وضبط تحصيلها والمفاوضة والرأي في شأن الانتخابات العمومية كأعضاء المجالس والمحاكم وما أشبه. وبالجمله فإن خصائص هذا المجلس قضت بالبحث والنظر في كل ما يقع للطائفة من الأمور والمشاكل، والمحافظة على حقوقها ضمن دائرة الناموس الكنائسي والنظامات الشرعية، وكان يشترط في الأعضاء بموجب البند التاسع أن يكون سن كل منهم فوق الثلاثين، وأن يكون مقيماً في بيروت ومن معتبري الطائفة، حائزاً على الحقوق المدنية ذا أهلية تامة ومتمتعاً بالثقة العامة ومعروفاً بالمبادئ الصحيحة، ونص هذا البند أيضاً على أن يكون المطران رئيس المجلس الدائم.

^{٢٤} «المحبة»، ١ حزيران ١٩٠٢، ص ٣١٥.

واجتمع من المنتخبين في دار المطرانخانة ١٠٥ ذات من الذوات وهم ثلاثة أرباع المدعوين فقرأ المطران أسماءهم. ولما كان عددهم كافياً لإجراء الانتخاب على ما صرح به القانون طلب المطران أن يكتب كل منهم قائمة باثني عشر منتخباً. ثم جُمعت هذه القوائم وتُليت علناً فنال الأكثرية: بطرس داغر، جرجي بسترس، جرجي دباس، سليم شحادة، قسطنطين الخوري، لطف الله ملكي، نجيب سرسق، نجيب نعمة، طراد نخلة التويني، نصيف الرئيس، نقولا منسي ووديع فياض.

مجلس حمص الملي (١٩٠٢)

وانتهت المدة المعينة لمجلس حمص الملي وعاد أثناسيوس إليها بعد غياب طويل، «فوزعت رقاع الانتخاب وأعيدت ففُضت في السابع عشر من حزيران»، فأصابته أكثرية الأصوات: سليمان الخوري، عيسى فركوح، أنطون طرابلسي، باسيل نصور، نقولا حموي، حبيب إسكندر، عبد المسيح زرق، الدكتور كامل لوقا، نصر الله عطا الله، أنطونيوس سركيس، نقولا عريضة ورزق الله رزق.^{٢٥}

باسيليوس متروبوليت عكار (١٩٠٣)

هو أمين بن يوسف الدبس البيروتي، وُلد في ترسييس سنة ١٨٦٨ ونشأ فيها. وفي السنة ١٨٨١ توفيت أمه ثم أبوه في السنة ١٨٨٢، فانتقل أمين بإخوته الصغار إلى بيروت حيث ربّي في حجر عمه جبران الدبس. وحاول أمين الانخراط في سلك الرهبنة فمانع ذووه، فظل في بيروت يتعاطى الأشغال ويتردد على غريغوريوس الذي أصبح فيما بعد مطراناً على طرابلس. وسافر أمين إلى القطر المصري فأقام فيه رديحاً من الزمن ثم عاد إلى بيروت سنة ١٨٩٢ وكل قواه منصرفة إلى الزهد والحياة الرهبانية، وكان إخوته قد بلغوا رشدهم فتشدد عزمه وغادر بيروت قاصداً غريغوريوس في طرابلس، فوجده منهمكاً بتهيئة مدرسة كفتين، فدخل أمين الدير في الثاني من آب سنة ١٨٩٣. وفي السنة ١٨٩٤ أدخله غريغوريوس بمعيته في طرابلس، وفي أول نيسان سنة ١٨٩٥ سامه راهباً باسم أفرام ثم أنوغنوساً فشماساً. وفي صيف السنة ١٨٩٧ انتدبه غريغوريوس وكيلاً لرئاسة دير سيدة ناطور. وفي السنة التالية سافر أفرام إلى دمشق وزار سيدة صيدنايا،

^{٢٥} مراسل «المحبة»، ٢٣ حزيران ١٩٠٢، ص ٣٨٣-٣٨٤.

فسامه أنثاسيوس متروبوليت حمص قَسًا وعَيْنَه مرسلاً أنطاكيًا في أميريكة الشمالية بناءً على طلب الأرشمندريت روفائيل هواويني. ووصل أفراد نيويورك في صيف السنة ١٨٩٨، ثم انتقل إلى كندا لخدمة الأرثوذكسين السوريين المنتشرين فيها، فعمل بغيره ونشاط وأسّس في السنة ١٨٩٩ أول كنيسة أرثوذكسية في كندا في مدينة مونتريال، وعلم تيخون مطران ألأسكا الروسي بجهود أفراد قَسَرَّ منها وأجاز له تعليق الصليب والخرج وقت الخدمة الإلهية.

وبقي أفرام في كندا مواظبًا على واجباته بكل صلاح ونشاط، مواصلاً الوعظ والإرشاد والاعتناء بشئون أبنائه الروحية حتى السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٠٠؛ إذ اضطرته دواعٍ صحية إلى العودة إلى الوطن، فوصل بيروت في خريف هذه السنة ثم التحق بمعلمه غريغوريوس في طرابلس. وبعد وفاة نيقوذيموس متروبوليت عكار عينه البطريك وكيلًا بطريكيًا على عكار بطرس بركة مؤرخ في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٠١، فقام بواجبات الوظيفة خير قيام. وفي السابع من نيسان سنة ١٩٠٢ رَقَّاه البطريك فجعله أرشمندريًا، وبعد ذلك بخمسة عشر يومًا في الثاني والعشرين من نيسان انتخبه المجمع المقدس مطرانًا على أبرشية عكار. وقضت الظروف بتأخير سيامته بضعة أشهر حتى يوم الأحد الواقع في ٢ شباط سنة ١٩٠٣؛ إذ صدرت أوامر البطريك بسيامته مطرانًا على عكار في مدينة حمص وعلى أيدي مطارنة حمص وحماة وطرابلس فدعي باسيليوس.

مجلس ملي في دمشق

وفي حزيران السنة ١٩٠٣ تألّفت هيئة المجلس الملي في دمشق من: أسبر لقيس، إسكندر طرزي، بطرس قندلفت جبران، أسبر جبران شامية، جبران عبد النور، جبران لويس، جبران ملوك، سمعان لادقاني، ميخائيل صيدح ونولا شاغوري.

استفانوس متروبوليت حلب

وقضى أبيفانيوس متروبوليت حلب في شرح الشباب غير متجاوز السادسة والثلاثين، وقد أدركته المنيّة في دير صيدنايا في الثالث من آذار سنة ١٩٠٣ حيث أقام مُسْتَشْفِيًا من مرض ألمّ به واضطره أن يجتنب كل عمل وحركة، فانتخب المجمع خلفًا له الأرشمندريت

استفانوس، فسماه البطريك ومطرانا حماة وأداسيس متروبوليتاً على حلب في السادس من آب سنة ١٩٠٣.^{٢٦}

وهو خليل بن يوسف مقبعة الدمشقي. وُلِدَ في دمشق سنة ١٨٥٣ ونشأ وترعرع فيها، ثم دخل مدرستها البطريركية، وكان منذ حداثة زاهداً راغباً في الحياة الرهبانية فالتمس في السنة ١٨٨٥ من البطريك جراسيموس السماح له بلبس الأسكيم، فأرسله إلى دير مار إلياس الشوير حيث قدم النذر واتشح بالأسكيم على يد رئيس هذا الدير الأرشمندريت أثناسيوس عطا الله فسمي استفانوس. ولما شرطن أثناسيوس مطراناً على حمص في بيروت استدعى استفانوس ورسمه شماساً إنجيلياً في كنيسة بيروت الكاتدرائية وألحقه بمعيته، فأقام في حمص سنة ثم برحها إلى حماة لأسباب صحية. وفي السنة ١٨٩٤ انتقل إلى بيروت ليتولى نظارة مدرستها الإكليريكية ويدرس الموسيقى الكنسية، وبقي في معية مطران بيروت متفقدًا شئون الأبرشية الواسعة حتى تسنم عرش الرسولين ملاتيوس الثاني. فلما جال جولته الرعائية وتحقق ما تحلى به استفانوس من النشاط والغيرة وحسن السيرة والسريرة عينه رئيساً قانونياً على دير البلمند في السابع من نيسان سنة ١٩٠١، فتسلم مهامه وأحسن إدارة الدير، وظل فيه حتى انتخابه لمطرانة حلب.^{٢٧}

يواكيم الثالث البطريك المسكوني

وتبوأ يواكيم الثالث السدة القسطنطينية في الرابع والعشرين من أيار سنة ١٩٠١، وكان من خيرة السادات الأعلام، وقد اشتهر فضله بين الأنام منذ أن رقي هذه السدة نفسها للمرة الأولى في السنة ١٨٧٨ خلفاً لسلفه السعيد الذكر يواكيم الثاني، فإنه أدار شئون الكنيسة العظمى آنئذٍ بحصافة عقل وحسن سياسة. ولما عاد المجمع القسطنطيني المقدس ودعاه للكرسي مرة ثانية وقع انتخابه موقعاً حسناً في جميع الأوساط الرسمية والمالية ووردت عليه رسائل التهاني بالألوف، وتوسم المؤمنون الأرثوذكسيون في جميع أقطار المسكونة في قداسته رجل المنصب الخطير وعلقوا على رئاسته خير الآمال.

^{٢٦} مجلة «المحبة»، ١٦ آب ١٩٠٣، ص ٤٢٩-٤٣٢.

^{٢٧} «المحبة» أيضاً ٢٣ آب ١٩٠٣، ص ٤٤٤-٤٤٦.

يواكيم والكنيسة الأرثوذكسية الجامعة

وكان قداسته شديد الغيرة على حسن العلاقة بين أعضاء الكنيسة الجامعة وعلى توثيق روابطها، فوجّه في أوائل السنة ١٩٠٣ رسالة عمومية إلى رؤساء الكنائس الأرثوذكسية المستقلة تتضمن السؤال عن رأي كل منهم في المسائل التالية: (١) في الوسائل الآتلة إلى توثيق وحدة كنائس الله المقدسة الأرثوذكسية المستقلة، وتوسيع دائرة العلائق بينها. (٢) في علاقة الكنائس الأرثوذكسية مع فرعي الديانة المسيحية العظمين اللاتين والبروتستانت، ولا سيما مع الكاثوليك القدماء والكنيسة الإنكليكانية، والكاثوليكيون القدماء جماعة من المؤمنين انفصلوا عن رومة سنة ١٨٧٠ لمناسبة القول بعصمة البابا، واجتهدوا في أن يكونوا على الحالة التي كانت فيها الكنيسة قبل انشقاقها إلى فرعين يوناني ولاتيني، واحترموا الكنيسة الأرثوذكسية. (٣) في التاريخين اليولياني والغريغورياني. وأجابت الكنائس الأرثوذكسية عن هذه الأسئلة الثلاثة ونشرت خلاصة أجوبتها جريدة الأليتيا الصادرة عن القسطنطينية، وإلى القارئ ملخص هذه الأجوبة:

توثيق عرى الاتحاد بين الكنائس الأرثوذكسية

وأيدت كنيسة أورشليم توثيق العرى بين الكنائس الأرثوذكسية وأوجبت ما يلي: (١) الإخلاص في الأميال والأعمال لكي تحفظ وديعة الإيمان الشريفة المشتركة سالمة من كل شائبة. (٢) صيانة الإنجيل والكنائس من مفسدات المادة والسياسة. (٣) تغذية روح المحبة المتبادل والاحترام المتبادل واجتناب مداخلة الكنائس في أمور غيرها. (٤) الاشتراك الأخوي في الخدمة الشريفة وتبادل الأخبار المسرة والمكدره وتعاضد الكل وتكاتفهم لسد كل احتياج روحي أو أدبي أو مادي. (٥) عقد مجمع سنوي مؤلف من وكلاء الكنائس المستقلة في مراكز هذه الكنائس بالتناوب للتداول وتبادل الرأي. (٦) السعي الحثيث لتربية نشء صالح يتولى خدمة كل كنيسة ورعايتها.

وجاء الرد الروسي يؤيد عقد المجمع السنوية الدوارة، ولكنه لم يرَ ذلك عملياً نظراً لوقوع مراكز الكنائس في ممالك ودول متعددة مختلفة، أما ما يمكن تأييده بالفعل لتوثيق العرى فإنه: (١) تبادل الرسائل بصورة متواصلة. (٢) تبادل الأخبار المسرة والمكدره. (٣) طلب النصيح والإرشاد. (٤) وجوب التشاور في مسائل الإيمان والمبادئ الأساسية في النظم والقوانين. (٥) وجوب اعتبار الارتباط عربون الحقيقة والحياة الأبدية.

ولم يطرق الردان اليوناني والروماني هذا الموضوع. أما كنيسة الصرب فإنها ارتأت أن المحبة المتبادلة بين الكنائس الأرثوذكسية المستقلة يجب أن تظهر في تبادل الرسائل في كل ما يتعلق في الحياة الكنائسية، وقالت بوجود اجتماع وكلاء جميع الكنائس الأرثوذكسية مدة بعد مدة، وأوجبت نقل المؤلفات القيمة التي تظهر بلغات سائر الكنائس للدفاع عن الإيمان المقدس، وجاء جواب كنيسة الجبل الأسود مماثلاً لجواب الكنيسة الروسية.

اتحاد الكنائس المسيحية

ورأت كنيسة أورشليم أنه لا يجوز التفكير في التقرب من البروتستانت واللاتين ما دام هؤلاء يغرون البسطاء من الأرثوذكسيين لإبعادهم عن كنيستهم، وما دامت أعمال التبشير هذه تجعل تبادل الاحترام والمحبة من الأمور التي يتعذر منالها، وقالت كنيسة اليونان قول كنيسة أورشليم، وأضافت أنه يجب الاقتصار على المحبة المخلصة نحو جميع الكنائس، وأن ما هو غير مستطاع عند الناس فإنه يصبح مستطاعاً في المستقبل بنعمة الله، وأكدت كنيسة روسية رغبتها في «اتحاد الكل»، ولكنها رأت هذا الاتحاد غير ممكن مع البروتستانت واللاتين؛ لأنهم يسعون لتقويض أركان الأرثوذكسية. أما كنيسة رومانية فإنها لم تسمح بحذف أو إلغاء شيء من العقيدة والتقاليد الأرثوذكسية، وأضافت أنه إذا رغب اللاتين والبروتستانت في الاتحاد فليس عليهم إلا أن يقبلوا التعاليم الأرثوذكسية كما هي، ولم تبتد كنيسة الصرب رأياً بهذا الشأن.

الكاثوليك القدماء

ولم تر جميع الكنائس الأرثوذكسية ما يمنع التقرب من الكاثوليك القدماء والتودد إليهم، وفرقت الكنيسة الروسية بين المتصدرين من هؤلاء في الأزمة الأولى وبين رجالهم المتأخرين، وأوجبت شرح التعاليم الأرثوذكسية وتأكيد الاعتقاد الثابت بأن الكنيسة الأرثوذكسية وحدها حفظت وديعة المسيح بدون فساد، ومن ثم فهي أيضاً الكنيسة المسكونية.

الإنكليكان

ورحبت كنيسة أورشليم بالتفاهم والتعاون مع الإنكليكان، ولكنها أوجبت انتظام لجنة من كبار علماء اللاهوت الأرثوذكسين تجتمع في القسطنطينية بقرب «الأول بين الكرسي الأرثوذكسية»، وتتناكر فيما يجب تحديده ثم تعلن بواسطة البطريرك المسكوني ما يمكن أن يتخذ أساسًا للاتحاد المنشود. واشترطت كنيسة روسية قبل كل شيء وجوب إقصاء المبادئ الكلوينية ونشر الرغبة في الاتحاد في الأوساط الإنكليكانية نفسها.

مسألة تصحيح التاريخ

وهنا أشارت كنيسة الصرب إلى وقوع الخطأ الرياضي العالي في الحسابين الغريغورياني واليوناني، وأنه من المناسب تأليف لجنة من العلماء الأعلام لرفع هذه الخطأ وتقديم حساب جديد يكون أشد دقة من الحسابين. ورأت كنيسة رومانية أن تصحيح الحساب أنتزح يولد العثرات في سبيل المؤمنين. وأشارت كنيسة اليونان إلى هذه العثرات وارتأت حسابًا جديدًا أصح وأضبط من الحسابين المذكورين. أما كنيسة روسية فإنها أوجبت المحافظة على التاريخ اليولياني في الفصحيات وفي الأعياد الكنائسية، وأجازت استعمال الحساب الغريغوري في غير ذلك.

يواكيم وكنيسة أنطاكية

واستبشر الأنطاكيون خيرًا برجوع يواكيم إلى الكرسي المسكوني وعلقوا عليه الأمل في الاعتراف بملاتيوس الثاني البطريرك الأنطاكي لما عهدوه في قداسته من سعة الصدر وأصالة الرأي وفرط المحبة والغيرة على الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة. ولكن البطريركية المسكونية أثبتت إلا أن تميل أذنهما إلى ادعاء الأساقفة الأنطاكيين المنفصلين، فأوقفت الجواب عن رسالة الجلوس التي بعث بها ملاتيوس عند ارتقائه حسب التقاليد المألوفة، ولم تستطلع رأي الكنيسة الأنطاكية في المسائل التي بحثها مع رؤساء سائر الكنائس الأرثوذكسية المستقلة.^{٢٨}

^{٢٨} «الكنيسة الأرثوذكسية والاتحاد للإدارة»، «المحبة»، ٢٠ كانون الأول ١٩٠٣، ص ٦٨٩. و«مذكرات الكنائس الأرثوذكسية» في مجلة «المنار»، ٣١ تموز ١٩٠٤، ص ١٦١-١٦٥.

الدعاية لاتحاد الكنائس

وحمس العلامة نقولا إمبارزي الأستاذ في مدرسة فاكيون في أثينا فأصدر كتاباً يتضمن تواريخ الكنائس المسيحية، ودساتير إيمانها واعترافاتها الرسمية من يونانية ولاتينية ولوثيرية وكلوينية وإنكليكانية وأرمنية وقبطية وحبشية ويعقوبية ونسطورية، وأسباب انشقاق هذه الكنائس. ثم قابل بين عقائد هذه الكنائس في عدة مطالب مهمة كاعتبار قدر الكتاب المقدس وقيمة التقليد الشريف وتوحيد جوهر الله وتثليث أقانيمه وانبثاق الروح القدس وتكريم الأيقونات وأسرار الكنيسة السبعة المقدسة. وأورد ما قاله بعض كبار رجال اللاهوت في الكنيسة الأرثوذكسية كنيل الإنكليزي وستروس الألمان ودولنغر الشهير وهرقز أسقف الكاثوليك القدماء، وميشو أحد جهابذة هؤلاء ورأي يواكيم الثالث في اتحاد الكنائس. وأسرع الخوري يوحنا حزيون فنقل هذا المؤلف إلى العربية ونشره بين قرائها في النصف الأول من السنة ١٩٠٤ وأسماه «كنز النفائس».

وكان بعض رجال الكنيسة الإنكليكانية قد نشطوا للعمل في سبيل التفاهم بين الكنائس فأسسوا في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر جمعية الكنائس الشرقية، ثم جمعية انتشار ضم الكنائس فجمعية انتشار وحدة الكنائس. ثم أصدر الأب أنكتابولس الأرثوذكسي في الآونة التي نحن في صدها مجلة اتحاد الكنائس باللغتين اليونانية والإنكليزية؛ وذلك لإظهار الشعائر المتبادلة بين الكنائس الرسولية الثلاث الأرثوذكسية والرومانية والإنكليكانية، وتوطيد دعائم الصداقة والتعارف بينها والتعرف على الفضائل الراسخة في وحدة الإيمان والرجاء والمحبة. ومما قاله هذا الكاهن في أعداد جريدته الأولى ما تعريبه:

يزعم البعض أن أسباب الخلاف الذي يفصل الكنائس ناتج عن اختلاف التعاليم والطقوس لا عن سوء تفاهم واستخفاف وأثرة لا تجوز إلا على الجاهل، فوجدت من الضروري أن نتقرب من بعضنا لمعرفة ما بين تعاليمنا من الاختلاف والاتفاق وإدراك كنه الحقائق المسلّم بها، ضاربين صفحاً عن كل ما هو فاسد، ومتخذين المحبة التي أوصى بها الرسول أساساً لأعمالنا وترساً يقينا لصد هجمات الأعداء. وبمثل هذه الاستعدادات نوثق عرى الصداقة ونذك أسس الموانع القائمة حتى نرى الغيرة تقودنا من غير انتباه إلى الانضمام والبحث في العوامل التي تنول إلى الاتحاد.

وبدون هذا النور الداخلي وتبادل الآراء للتعارف يستحيل إخماد نار الخصام والتعصب، ومن الواجب أن نبين للجمهور كل ما يحتمل الجدل والريب. ولهذه الغاية نناشد أئمة اللاهوت أن يمدونا بأرائهم في كل ما يمكن شرحه بحسب الأقوال الإنجيلية. وبعد تبين كل ذلك يجب على أعضاء الكنائس أن يسعوا وراء هذه الغاية سعيًا فعليًا. وهذا السعي لا يقتصر على الرؤساء، بل يشمل الجميع، فإذا كان الإكليروس لا يساعد والعوام لا يساعدون الإكليروس فتحبط كل المساعي وتسقط كل القوة، فالتكاتف بالأعمال أمر ضروري للكل.

أسقف على السوريين في أميركية (١٩٠٤)

وكان البطريرك الأنطاكي أيروثيوس قد سام في السنة ١٨٧٤ روفائيل هواويني أناغنوسطاً في كنيسة الكاتدرائية، فعاد وسامه برضا والديه راسفوراً (راهباً لابس جبة) في السنة ١٨٧٩. وكتب في ذلك الوقت خريستوفوروس جبارة عن القسطنطينية يقول: إن قداسة البطريرك المسكوني يواكيم الثالث أمره أن يحرر لغبطة البطريرك الأنطاكي لإرسال تلميذ أنطاكي إلى مدرسة خالكي؛ ليكون تحت عناية قداسته الخصوصية. فأوفد البطريرك أيروثيوس الراسفور روفائيل إلى القسطنطينية في أوائل تموز السنة ١٨٧٩، ودخل روفائيل مدرسة خالكي على حساب يواكيم الثالث. وعند نهاية السنة الأولى سُرَّ قداسته من نجاح روفائيل في اليونانية. وفي السنة السابعة لوجود هذا الطالب الأنطاكي في خالكي سامه متروبوليت سالونيك شماساً إنجيلياً. وفي السنة ١٨٨٦ اجتاز روفائيل الامتحانات النهائية وفاز بالديبلومة من الدرجة الأولى. وعاد روفائيل إلى دمشق والتحق بمعية البطريرك السعيد الذكر جراسيموس وجال معه جولة رعائية واسعة. وفي أثناء وجود البطريرك في بيروت طلب روفائيل أن يرسل إلى إحدى أكاديميات روسية اللاهوتية لمتابعة الدروس فيها، فكتب جراسيموس إلى المجمع الروسي المقدس فجاء الجواب في السنة ١٨٨٨ بالقبول، فقام روفائيل في أيلول هذه السنة إلى كيف والتحق بمدرستها. ثم عزل البطريرك الأنطاكي خريستوفوروس جبارة من رئاسة الأمطوش الأنطاكي في موسكو واضطر أن يفوض روفائيل بإدارته، فسامه أفلاطون متروبوليت كيف قسًا وتوجه إلى موسكو في صيف السنة ١٨٨٩.

ومما يجدر ذكره أن روفائيل سعى في أثناء إقامته في موسكو لاستقدام تلامذة أنطاكيين وأورشليميين إلى مدارس روسية الروحية وإعدادهم لخدمة الكنيستين، فوافق

المجمع الروسي وأمّ روسية ثمانية من دمشق، هم: إسكندر شامية ومترى حرستاني ونعمان صيفي وكامل أبو عضل وقسطنطين نجار وجرجي دير عطاني. وستة من حمص، وهم: أنطون بلان وليان الحلبي وعيسى عاقل وأسبر مبيض وشكر الله عطا الله وداود صباغ. وأربعة من بيروت، وهم: نخلة هواويني وإلياس قدسي وإلياس أبو الروس وحنا رزوق. واثنان من طرابلس، وهما: أنطون خشاب وعيسى زريق. وواحد من حاصبيا؛ نصيف أبو جعدة. وأربعة من أورشليم؛ وهم: بندلي جوزي ويعقوب حنانيا وصالح سنونو وإسكندر حكيم. فأدخلهم روفائيل في مدارس موسكو وخاركوف وأوديسة وروستوف وكالومنا.

ثم كان ما كان من أمر البطريرك اسبيريدون الأنطاكي فأيد روفائيل موقف الوطنيين فعزله اسبيريدون من رئاسة أمطوش موسكو، فترك روفائيل موسكو وذهب إلى قازان للتدريس فيها والمطالعة والتصنيف (١٨٩٣)، فنشر كراريسه في تاريخ الكنيسة المسيحية وتاريخ الكنيسة الباباوية وتاريخ الأمطوش الأنطاكي في موسكو.

ولم تمض سنتان على إقامة الأرشمندريت روفائيل في قازان حتى ورد عليه في ربيع السنة ١٨٩٥ تحرير من «الجمعية الخيرية السورية الأرثوذكسية في نيويورك»، تطلبه فيه راعياً في نيويورك وسائر أميركة الشمالية، فاستشار مطران قازان، فأشار عليه أن يسافر إلى بطرسبرج ليستشير نقولاوس مطران ألاسكا وسائر أميركة الشمالية، ففعل فحاز على القبول وعلى مساعدة مالية شهرية من المجمع الروسي المقدس علاوة عما عينته له الجمعية في نيويورك، ووصل إلى مدينة نيويورك في خريف السنة ١٨٩٥ واستأجر محلاً مناسباً لكنيسة في شارع واشنطن حيث السواد الأعظم من المهاجرين السوريين الأنطاكيين. ثم شرع في جمع المال لشراء قطعة من الأرض للدفن وقطعة ثانية لبناء كنيسة، وثابر في ذلك وضحّى من ماله الخاص فجاءته المساعدة من السوريين في أميركة ومن روسية ومن الطائفة في سورية ولبنان. واستلف شيئاً من المال فأنشأ المدفن. واشترى في السنة ١٩٠٢ كنيسة مبنية برسم البيع في شارع الباسيفيك في بروكلين نيويورك.

واستقدم الكهنة والشمامسة وبين هؤلاء أفرام الدبس، كما سبق وأشرنا، وأعد كتاب «التغذية الحقيقية في الصلوات الإلهية». وفي السنة ١٩٠٠ أطل عليه الخوري يوحنا مجاعص من الشوير لجمع الإحسان لمدرسته فساعدته واستحصل له رخصة بذلك من المطران تيخون. وفي السنة ١٩٠١ جاءه الأرشمندريت ملاتيوس كروم فعينه راعياً في كندا بدلاً من الأب أفرام الدبس.

ولس المجمع الروسي المقدس نشاط روفائيل ونجاحه، وأخذ السادة الأعضاء بعين الاعتبار عدد السوريين المهاجرين الأرثوذكسيين ومكانتهم، فوافقوا على اقتراح تخبون مطران ألاسكا وانتخبوا روفائيل أسقفًا على السوريين الأرثوذكسيين في أميركة في السنة ١٩٠٤، وطلبوا موافقة البطريرك الأنطاكي. فكانت سيامة روفائيل أول خطوة لتأسيس أبرشيات أنطاكية في الأمريكيتين.

جرمانوس متروبوليت سلفكياس (١٩٠٤)

وكانت أبرشية سلفكياس (معلولا وبعلبك وزحلة) لا تزال مترملة بعد وفاة عالم الكرسي الأنطاكي الطيب الذكر جراسيموس (يارد)، فسعى البطريرك والمطارنة لإيجاد خلف يقوم بأعباء الخدمة الروحية في بقاع العزيز، فوجدوا ضالّتهم في أميركة الجنوبية ما بين الأرجنتين والبرازيل في شخص الأب جرمانوس شحادة. وكان جرمانوس قد تحلّى بالرصانة والتعقل والتواضع وحسن التبرير وشدة الغيرة على كنائس الأرجنتين والبرازيل والتفاني في سبيل أبنائها. وكان تقي النفس وديع القلب بعيدًا عن التعصب محبًا للخير، فاستبشر الزحليون به وعلقوا على رئاسته خير الآمال. وفي الثاني عشر من أيلول سنة ١٩٠٤ احتفل البطريرك الأنطاكي لإقامة القداس في الكاتدرائية المريمية يعاونه مطارنة حماة وأداسيس وترسيس. وفي أثناء الخدمة جرت حفلة السيامة بوضع يد غبطته والسادة المطارنة حسب الترتيب المعروف، وبعد انتهائها وقف المطران الجديد وألقى خطبة شكر بها للبطريرك والمطارنة والشعب ثقتهم بشخصه، وطلب إليهم أن يشتركوا بالتوسل إلى الله تعالى من أجله ليعطيه الحكمة والفهم والمقدرة؛ لتكون خدمته لائقة لدى الله عز وجل ومفيدة للتبريك.

جولة رعائية بطريركية (١٩٠٥)

وبذل البطريرك طوقه في السنوات الخمس الأولى في تنظيم الكنيسة وحل مشاكلها، فركب فيها كل صعب وذلول. وفي مطلع السنة ١٩٠٥ وضح الطريق واستبان البطريرك ما ينبغي سلوكه، فاطمأنت نفسه وعول على إكمال جولته الرعائية التي كانت قد انقطعت بوفاة غفرائيل في مطلع السنة ١٩٠١.

وفي السابع عشر من أيار سنة ١٩٠٥ بارح الحبر الأنطاكي دمشق قاصدًا حمص، فأرسل الوالي إلى المقر البطريركي ياوره ويوزباشيًا وعددًا من الفرسان، واستتاب في

الوداع نقولا أفندي العضامي ترجمان الولاية. وخرج أعضاء القوميسيون الزمني واللجان الخيرية وعدد كبير من وجهاء الطائفة وقنصل روسية في دمشق، فحيّت غبطته في المحطة فرقة من الضابطة. ثم ركب البطريك القطار يصحبه جرمانوس متروبوليت سلفكياس وكيله في البطريكية وحبیب کومین کاتم أسرارہ وحاشية إكليريكية. وخفّ لاستقبال البطريك حتى محطة القصير كل من أثناسيوس راعي أبرشية حمص وألكسندروس متروبوليت ترسيس ويوليوس بطرس مطران السريان، ووفد من وجهاء الطائفة في حمص ولدى وصوله إلى محطة حمص حيّته كوكبة من الخيالة، فسار ووجهته كنيسة الأربعين والطريق على طولہ مع النوافذ والسطوح ضائقة بالحمصيين على اختلاف الملل والنحل، واستقبله عند مداخل الكاتدرائية مصف الإكليروس بالحلل والصلبان والمباخر والشموع وقرع الأجراس، وكانت هذه حديثة العهد في حمص، فدخل الكنيسة وبارك وصلى، ثم دفع خطاباً ليد متروبوليت سلفكياس ليتلوہ بالنيابة، فألقاه بصوته الجلي، وفيه الثناء على راعي الأبرشية والحض على الطاعة والإخلاص للدولة. ثم سار إلى دار المطرانية، فكان في طليعة المستقبلين أغابوس معلوف متروبوليت بعلبك على الروم الكاثوليك، وجاء في التاسع عشر غريغوريوس متروبوليت حماة ووجهائها مرحبين داعين البطريك لزيارتهم.

وفي السابع والعشرين من أيار قام البطريك إلى حماة فحفّت الطائفة بأسرها لاستقباله في محطة القطار، وأنفذ مُتصرّف لواء حماة وفداً لاستقبال البطريك والترحيب به وكوكبة من الفرسان لتحيته ومواكبته إلى الكنيسة ومنها إلى محل إقامته في دار ميخائيل عبد الله. ووصل البطريك إلى الكنيسة وصلى وبارك وشكر ودعا، ثم ألقى متروبوليت حماة خطاباً فرد متروبوليت ترسيس باسم البطريك، وزار البطريك المتصرف وقائد الجند فرداً الزيارة حالاً، ثم تفقد المدارس فلمس تقدمها ونجاحها، وعاد إلى حمص.

اجتماع الإخوة جميعاً

وفي الثاني من حزيران خرج البطريك من حمص إلى طرابلس فاستقبله في العبدية مطران طرابلس ومطران عكار، وقصر نحاس ممثل متصرف طرابلس وجورج كاتسفليس قنصل روسية، ووفد من كهنة الموارنة وعدد كبير من أرباب المناصب ووجهاء القوم. وتابع السير إلى طرابلس تواكبه كوكبة من الفرسان، فدخل الكاتدرائية وصلى وبارك

ودعا للسلطان، ثم قام منها إلى كنيسة الموارنة فاستقبله كهنة الموارنة بالتراتيل عند مدخل الكنيسة، فدخل وصلى وشكر وبارك، فخطب أحد الكهنة الموارنة شاكرًا لغبطته محبته الأبوية، فأجابه غريغوريوس متروبوليت طرابلس بخطاب ارتجالي افتتحه بقوله: «ما أحلى أن يجتمع الإخوة جميعاً!» ثم زار غبطته المتصرف وكيل قومندان الموقع، وفي اليوم التالي أطل وفد البطريرك الماروني ووجهاء زغرنا وأعيانها، فاستقبلهم البطريرك بكل احتفاء.

البطريرك في البلمند

وزار البطريرك ميناء طرابلس ثم تفقّد شئون المدارس الروسية في طرابلس وقام إلى مدرسته الإكليريكية في البلمند. وجرّت امتحانات الصف المنتهي في اللاهوت العقائدي والفلسفة والأدب المسيحي ومؤلفات الآباء، وتفسير الكتاب المقدس وقواعده والمدخل إليه والخطابة الكنائسية وتاريخ الكنيسة والنوموقانون، وأشرف البطريرك على معظم هذه الامتحانات، وكان أحياناً يرافقه غريغوريوس طرابلس وباسيليوس عكار وألكسندروس ترسييس.

وجاء موعد منح الشهادات في يوم الأحد في العاشر من تموز، فأقام البطريرك قدّاساً حبرياً شاركه فيه ألكسندروس متروبوليت ترسييس، وعند النهاية خرج البطريرك إلى الردهة البطريركية واصطف حوله الشماسة المنتهون؛ ثيودوسيوس أبو رجيلي وإيصائيا عبود وفوطيوس صعب وفوطيوس خباز، وأغناطيوس خوري وباسيليوس شاهين ويوسف أبو طبر، والمبتدئان إسكندر يارد وجرجي دبو. فتقدمهم البطريرك في نشيد بعض الصلوات بصوته الرخيم، ثم أوماً إلى مدير المدرسة غطاس قندلفت قتلا تقريراً عن سير المدرسة في السنة المنصرمة، ووجّه النصائح للمنتهين وذكّرهم بالمبادئ الشريفة وحضّهم على الاستمسك بها بكل حرص وبتها في غيرهم بكل غيرة. وعقبه الشماس فوطيوس صعب (بيروت) فلفظ خطاباً وداعياً بالنيابة عن رفاقه، ثم قدمت الشهادات لغبطته فوزعها. وتكلم ألكسندروس متروبوليت ترسييس فأبان ما كان يخامر فؤاد البطريرك وفؤاده لمشاهدة الفعلة النشيطين الذين يخرجون للعمل في حقل الكنيسة وزودهم ببعض النصائح.

خطاب الدكتور حبيب مالك

ورفعت جولة البطريرك الرعائية صوت الإنجيل وألّفت القلوب بالمحبة وأظهرت قدر الكنيسة واحترام السلطات الزمنية لها، وأحيت في قلوب المسيحيين العزة والغيرة. ولعل أفضل ما عبر عن شعور الأرثوذكسيين خطاب الدكتور حبيب مالك الذي فاه به في دير البلمند لمناسبة زيارة البطريرك:

وسلام يا دمشق الفيحاء، وعلى هوائك النقي وجوّ الصافي ومائك الزلال ألوف من التحية والإكرام؛ لأنه قد خرج منك مدبرٌ يرفع شعب إسرائيل. وكيف لا نفرح ونُسّر ونحن نرى في افتقاد أبنائكم في أنحاء الكرسي أعظم موجب وأكبر داعٍ لذلك، وكيف لا نفرح ونحن نرى في شخصكم الطوباي حنوّ الوالد وانعطاف الأخ ومؤانسة الشريك وهمّة البطل وسير الحاكم المقدام؟ ولنا على هذا عدة أدلة أكتفي بواحد منها؛ هو تشييد مدرسة أساسها التهذيب وجدرانها العلم وسقفها الدين ومفاتيح أبوابها بيد رجل الفضل والفضيلة سيادة راعينا النبي (غريغوريوس) قمر كنيستنا. ولا بدّ لي يا ذا الغبطة من التطفل مُذَكِّراً بتشديد مدرستين إحداهما في دير مار جرجس الحصن والثانية في دير مار إلياس الشوير وبذلك تحصل المساواة.

ولنا وطيد الأمل مما سمعناه ومما تحقق لدينا أن حالتنا في أيام غبطتكم ستكون أرقى من أمس إنّ دينياً وإنّ أدبياً، والأرض عطشانة والبزور حاضرة وأسباب الخصب متوفرة والأعين محدقة بنا من كل جانب وما علينا سوى الإرادة. وإنّي أقرأ على جبين غبطتكم آيات مؤداها:

مفتقدين أبناءكم لكي تُحيوا في قلوبهم بزور المحبة والألفة ولكي تروا فيهم أبناءً للنور فيمجدون الآب السماوي، ولكي تحيوا في قلوبهم حاسيات الشرف والشهامة والغيرة، ولكي تزيدوهم تمسكاً بالعرش العثماني.^{٢٩}

^{٢٩} «المحبة»، ٦ آب سنة ١٩٠٥، ص ٤٩٠-٤٩٢.

دير مار جرجس الحميرا

وعاد البطريرك من دير البلمند إلى طرابلس فتل كلخ فدير مار جرجس الحميرا، فجرى له استقبال عظيم. وصباح الأربعاء الموافق لعيد الصليب أقام قداسًا حافلًا حضره الجم الغفير من جميع الجهات المجاورة، ثم نظر في شئون الدير فأنشأ سوقًا فيه شمل مائة وخمسين دكانًا فأنفق أكثر من ألفي ليرة عثمانية.

دير مار إلياس الشوير

وفي هذه السنة عينها وافق البطريرك على مد طريق عربات تصل ديريه في الشوير بالطريق العام. وكان رئيس هذا الدير الأرشمندريت جراسيموس الدمشقي قد بنى تسعة بيوت للشركاء في أبي ميزان، وحارة في القنابة وحارتين في راميا وحارة في الزغرين وحفر أربعة ينابيع في أبي ميزان والقنابة وغرس ١٢٠٠٠ نضبة توت وأنشأ مدرسة في الدير لتعليم أبناء الطائفة من القرى المجاورة.

عيد تحرير الكرسي الأنطاكي

وفي الحادي والثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩٠٥ احتفل الأب أغناطيوس رئيس الأمطوش الأنطاكي في موسكو بقداس لمناسبة مرور سبع سنوات على وصول ملاطيوس الثاني إلى الكرسي الأنطاكي، «ولذكرى تحرير هذا الكرسي وتعيين من هو جدير به من أبناء الوطن»، وخرج المؤمنون من الكنيسة لدار الأمطوش يقدمون التهاني لرئيسه، ونشرت الجرائد الروسية خبر العيد الأنطاكي مشاركة الأنطاكيين بسرورهم.^{٣٠}

^{٣٠} «الأمطوش الأنطاكي في موسكو»، لفوزي إبراهيم الخوري أحد طلبة كلية اللغات الشرقية بموسكو، «المحبة»، ١٧ كانون الأول ١٩٠٥، ص ٨١٤-٨١٥.

الفصل التاسع

غريغوريوس الرابع

وفاة ملاتئوس الثاني

وفي مساء الأربعاء الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٠٦ شعر ملاتئوس الثاني بتوعك بسيط فأفاد حاشيته بذلك وأخذ بعض الأدوية، ثم استدعى أحد الأطباء فأسعفه ببعض العلاجات. وفي صباح الخميس تساءل أفراد الحاشية عن صحته فقليل: إنه لم يزل راقداً، وكان الوقت ضحى فاستغربوا هذا الرقاد وتقدموا إليه فلم يَفُهِ ببنت شفة، وكانت علامات التنفس شديدة، فاستدعوا الأطباء، فقرروا أنه مصاب بسكتة دماغية شديدة الوطأة عظيمة الخطر. وعقد المجلس البطريركي المختلط جلسة فوق العادة برئاسة أثناسيوس (أبي شعر) متروبوليت أداسيس فقرّر وجوب إعلام الوالي والسادة المطارنة القرييين من دمشق، وأرسل الوالي طبيبين ثم جاء بنفسه وشاهد البطريرك بحالة الخطر الشديد.

وبعد ساعة فاضت روحه بين يدي الأطباء ونودي بوفاته، فعقد قوميسیون الطائفة المختلط جلسة ثانية وقرر إخبار جميع أساقفة الكرسي الأنطاكي والنائب البطريركي في مدينة أنطاكية. وأسرع الشمامسة فغسلوه بالزيت والخمر وألبسوه بدلة رئاسة الكهنوت ونقلوه إلى صحن الكنيسة الكاتدرائية ووضعوه ضمن عرش مكل بالزهور والرياحين، وأحاط به الكهنة والشمامسة يقرءون الأناجيل ويرنمون الزبور، وبقي هذا الترتيب متواصلاً ليلاً نهاراً إلى حين دفنه.

وقبيل ظهر الجمعة في السابع والعشرين من كانون الثاني حمل البرق رسالة من مطراني حمص وحماة تفيد وصولهما إلى دمشق في المساء، فعقد القوميسیون المختلط جلسة ثالثة وقرر الاحتفال بمآتم البطريرك يوم السبت في الثامن والعشرين وابتداء من الساعة العاشرة قبل الظهر.

وتوافد القوم على الدار البطريركية للتعزية وفي مقدمتهم كثير من الرؤساء الروحيين، وأظهر الوفد الماروني من شعائر الحب والإخاء ما أوجب الشكر والثناء، فقد قال هذا الوفد: «حضرنا بالنيابة عن كل الطائفة المارونية لا لتعزيتكم، بل لمشاركتكم بالحزن، فنحن بالمصاب سواء؛ لأن كل ما يَسُرُّ الطائفة الأرثوذكسية يَسُرُّ الطائفة المارونية، وكل ما يسوءها يسوءنا، وهذه شعائر الموارنة في جميع الأقطار.»

وعند الساعة العاشرة من قبل ظهر السبت غصَّت الكنيسة الكاتدرائية بالقوم على اختلاف الطبقات، وكانت لجنة القوميسيون المختلط تستقبل الوفود، فأقبل الوالي والمشير وقناصل الدول والرؤساء الروحيون وممثلو الجمعيات والوجوه والأعيان. وقام بصلاة الجناز كلٌّ من أثناسيوس متروبوليت حمص وغريغوريوس متروبوليت حماة، وبولس متروبوليت لبنان وجراسيموس متروبوليت بيروت وجermanوس متروبوليت زحلة، وعدد من الكهنة والشماسة. وتولى التأبين متروبوليت بيروت. ثم حُمِلَ الفقيد على أكف المطارنة وسير به إلى دار الكنيسة وأودع اللحد بصحن الدار.

وصباح الأحد احتفل السادة المطارنة ومصف الإكليروس بقداس وجناز عن نفس الفقيد، وارتقى المنبر متروبوليت لبنان وتولى التأبين ثانية. وبعد الظهر قام وفد من المطارنة فرد الزيارة لكل من بطريرك الروم الكاثوليك وبقية الرؤساء الروحيين. وفي المساء عقد المطارنة مع أعضاء قوميسيون الملة جلسة عهدوا فيها وكالة أشغال البطريركية لأثناسيوس متروبوليت حمص.^١ وفي أوائل آذار صدرت إرادة سنية سلطانية بتصديق قائممقامية أثناسيوس، وبلغت من نظارة العدلية إلى والي الولاية.^٢

صدى الوفاة في القسطنطينية والإسكندرية

وحرّر بعض أعيان الطائفة الأرثوذكسية في أبرشية ترسيس وأدنة عرائض إلى المجمع الأنطاكي المقدس، وطالبوا بإجراء الانتخاب البطريركي الجديد على القاعدة القديمة لإعادة السلام إلى أحضان الكنيسة، وأرسلوا نسخاً عن عرائضهم إلى بطاركة القسطنطينية والإسكندرية وأورشليم، فكتب البطريرك الإسكندري إلى زميله القسطنطيني يأسف

^١ «المحبة»، ٤ شباط سنة ... ص ٦٥-٧٨.

^٢ المحبة: ١١ آذار سنة ١٩٠٦، ص ١٥٤.

لخروج الكرسي الأنطاكي عن جادة الصواب، ويقترح إعادة النظر في المشكلة الأنطاكية وتمهيد السبيل لإعادة المطارنة المبعدين إلى كراسيهم وإشراكهم في انتخاب البطريرك الأنطاكي الجديد. ولكن السينودس القسطنطيني المقدس أثر عدم التدخل؛ خشية تفاقم الشقاق واتساعه.

الترشيح

وفي العشرين من نيسان سنة ١٩٠٦ التأم المجمع الأنطاكي المقدس لجلسة الترشيح القانوني، فجرى الترشيح بكل هدوء وسكينة وحاز كل السادة المطارنة أصواتًا. ولكن أثناسيوس متروبوليت حمص فاز بالأكثرية، ونال غريغوريوس متروبوليت طرابلس أربعة أصوات، والباقون أقل من ذلك. ونظم ضبط الترشيح ونُقل إلى والي سورية ليعرضه على المراجع الإيجابية. وقبلت هذه المراجع قائمة الترشيح بكاملها، فاعتبرت كل مطران من مطارنة الكرسي الأنطاكي أهلاً للمنصب البطريركي.

غريغوريوس بطريرك أنطاكية

وفي الخامس من حزيران سنة ١٩٠٦ عقدت جلسة التفريق برئاسة القائمقام البطريركي كيريس أثناسيوس متروبوليت حمص، وعضوية كل من السادة غريغوريوس مطران حماة وغريغوريوس مطران طرابلس وأرسانيوس مطران اللاذقية وبولس مطران جبيل والبترون، وجراسيموس مطران بيروت وباسيليوس مطران عكار واسطفانوس مطران حلب وألكسندروس مطران ترسيس، وجرمانوس مطران زحلة والخوري يوسف أليان، والذوات جبرائيل ملوك وجبران لويس وسمعان اللاذقاني وبطرس قندلفت وإسكندر ترزي وداود أبو شعر وأسعد أبو شعر، وأمين يوسف ملوك ونقولا شباط. وقدم مطران طرابلس صك وكالة له من مطران ديار بكر وما بين النهرين مؤرخًا في ١٢ نيسان سنة ١٩٠٦، وصك وكالة له أيضًا من مطران صور وصيدا مؤرخًا في ٢٣ أيار سنة ١٩٠٦، فكتب أعضاء هذا المجلس — مجلس الانتخاب — أوراقهم السرية، ولدى فتحها تبين أن غريغوريوس متروبوليت طرابلس فاز بالإجماع:

قرر المجمع الأنطاكي المقدس بانتخاب السيد غريغوريوس حداد مطران طرابلس بطريركًا لأنطاكية وسائر المشرق، الجلسة الثامنة: باسم الإله المثلث

الأقانيم غير المنقسم قد التأمنا نحن مطارنة الكرسي الرسولي الأنطاكي المقدس في كنيسة دمشق الكاتدرائية المحمية، التي على اسم نياح سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم. وبناءً على ما تقرّر في الجلسات السابقة شرعنا في الانتداب قانونياً، وفي وسطنا أيقونة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الطاهرة، لإيجاد شخص فيه الأهلية واللياقة وانتخابه لضبط زمام الكرسي الرسولي البطريركي الأنطاكي المقدس والقيام بمهامه روحياً وزمنياً، فوضعنا أولاً اسم أخينا السيد غريغوريوس مطران حماة، ثانياً اسم أخينا السيد غريغوريوس مطران طرابلس، وثالثاً اسم أخينا السيد جراسيموس مطران بيروت، الموقرين الذين أدرجت أسماءهم في هذا السجل البطريركي الشريف لبيان دائم وإيضاح ثابت. وبعد التضرع والابتهال إلى إلهنا العظيم واستمداد نعمة روحه القدوس وإعطائنا انتدابنا السري القانوني وقع الانتخاب على أخينا السيد غريغوريوس مطران طرابلس الوقور، باتفاق الأصوات، وهو أعطى صوته إلى السيد جراسيموس مطران بيروت الوقور، فقدمنا للإله الضابط الكل الشكر القلبي على ذلك. تحريراً في اليوم الخامس من شهر حزيران المبارك سنة ألف وتسعمائة وست للميلاد ١٩٠٦ في دمشق.

وكان أنثاسيوس متروبوليت حمص قد أعلن عدم رغبته في الدخول في مصفّ المنتخبين بفتح الخاء. وأخذ متروبوليت لبنان نصّ القرار وتلاه على مسمع الجمهور خارج الكنيسة، فعلت أصواتهم بالاستحسان. ثم انتصب أنثاسيوس متروبوليت حمص مناظر غريغوريوس فهناً مناظره بانتخابه بطريركاً وهناً نفسه والسادة المطارنة وعموم الطائفة بالسيد الجليل، «سائلاً الله — جل جلاله — أن يراعاه بعين عنايته ويوفّقه لأن يرعى الطائفة، وأن يمنحه حكمة التدبير.» وعندئذٍ ألقى البطريرك المنتخب كلمة استهلها بالقول: «إن راعياً لغنم أبيه وصغيراً في إخوته أتى قديماً إلى منصب عالٍ في شعبه، أنا الراعي الفقير الذي شرفته النعمة الإلهية واختصته ثقة إخوته به ودالة أبنائه عليه، فرفعته إلى المقام السامي في هيئة الكرسي الأنطاكي، فيحمد الله على نعمته ويشكر إخوته السادة الأجلاء، ويدعو لأبنائه بالرب ضارعاً إلى الله تعالى الذي منه كل قوة ومعونة ليؤهله معهم لحسن القيام بالواجب لنيل جميل المكافأة من الديان العادل.»

وهو غنطوس بن جرجس بن غنطوس الحداد، ولد في غرة تموز سنة ١٨٥٩ في قرية عبية وترعرع فيها. وضعه والداه في مدرسة عبية الأميركية فورده من معين العلم

زلاًلاً وبرز على أقرانه ومال من صبوته إلى الزهد والتأمل، فأيد الله نيته ودفعه إلى يد غفرائيل متروبوليت بيروت ولبنان في العاشر من أيار سنة ١٨٧٢، فتنقّف عليه في كل بر وفضيلة وحظي من جانب رضاه بما لم يحظَ به أحد قبله، فألحقه بمدرسته الإكليريكية. وفي الرابع والعشرين من كانون الأول سنة ١٨٧٥ اتخذّه كاتباً له فانبثقت أشعة نشاطه وبان سمو آرائه. وفي التاسع عشر من شهر كانون الأول سنة ١٨٧٧ ألّبسّه معلمه الأسكيم الرهباني في دير سيدة النورية، ثم سامه شماساً في التاسع والعشرين من آب سنة ١٨٧٩، وأناط به مهام عديدة؛ منها: إنشاء جريدة الهدية، ومنها أيضاً نيابة رئاسة جمعية القديس بولس، ومنها وقوفه على طبع كتاب «البوق الإنجيلي».

ولما استأثرت رحمة الله بصفرونيوس (النجار) متروبوليت طرابلس انتدب غريغوريوس ليكون خلفاً له، فسامه غفرائيل قساً في السادس من أيار سنة ١٨٩٠. ثم نال نعمة رئاسة الكهنوت من يد البطريك جراسيموس بمشاركة سيراقيم متروبوليت أدايسس ونيقودميوس متروبوليت عكار، وذلك في العاشر من أيار من السنة نفسها، فاشتهر بنشاطه واستقامته وعفافه وزهده ودمائه أخلاقه، وكان ضليعاً في اللغة العربية من صرف ونحو وبيان وعروض وفي الرياضيات والمنطق وفي العلوم الشرعية من فقهٍ وميراث، وكان له ذهن لا يعرض عليه نسيان وقريحة سيالة كالسحاب وتصورات من أبدع ما يعرض للمخيلة، وشعر منسجم الحواشي مبتكر المعاني، وكان له اطلاع في اللغة اليونانية وبعض الإلمام باللغتين التركية والروسية.^٢

حفلة التنصيب

وتبلغ غريغوريوس صدور الإرادة السنية بالتصديق على انتخابه بطريركاً لأنطاكية وسائر المشرق في السادس من آب سنة ١٩٠٦، فتقرر الاحتفال بتنصيبه يوم الأحد في الثالث عشر من الشهر نفسه.

وفي السابعة والنصف صباحاً قُرعت الأجراس فتوارد المدعوون إلى دار البطريركية، وفي طليعتهم ممثلو الحكومة وقناصل الدول والوجهاء والأعيان ووفود الأبرشيات.

^٢ «الأرج الزاكي»، لأمين ضاهر خير الله، ص ١٤٣-١٤٥، و«المنار»، ١٩٠١، ص ٧٤٨-٧٤٩، و«المحبة»،

١٠ حزيران ١٩٠٦، ص ٣٧٢-٣٧٣.

وخرج البطريرك بموكبه إلى الكنيسة الكاتدرائية المريمية لابسًا بدلته العادية؛ الجبة والصليب والشمسة والقلنسوة باللاطية، فمشى أمامه القسوسة ثم حملة الشموع والمراوح والصليب المقدس، ثم المرتلون يرتلون الأرمس التاسع للشعانيين: «الله الرب ظهر لنا!» ثم مشى الكهنة والأرشمندريتون ببدايتهم الكهنوتية، ثم الأساقفة ثم رؤساء الأساقفة ثم المطارنة؛ غريغوريوس حماة وأثناسيوس أدايس وأرسانيوس اللاذقية وبولس جبيل والبترون وجراسيموس بيروت وباسيليوس عكار، وألكسندروس ترسيس وجرمانوس سلفكياس، ثم الشمامسة يحملون الذيكاريات والتريكاريات والمباخر، ثم حامل الشمعدان البطريركي، ثم البطريرك المنتخب ووراءه أصحاب المقامات الرسمية. ولدى وصول البطريرك المنتخب إلى مدخل الكاتدرائية الغربي ولوجه النركس بدأ المرتلون بترتيل: «بواجب الاستيهال»، وتقدم الشمامسة فألبسوا البطريرك المنتخب المنتية، فدخل الكنيسة يبخره اثنان من الشمامسة، ودخل الهيكل مع جميع هيئات الإكليروس وسجد وقبّل المائدة المقدسة. ثم تنحّى فتقدم غريغوريوس متروبوليت حماة أقدم المطارنة شرطونية لابسًا البطرشيل والأمفوريون إلى أمام المائدة المقدسة وبخّرها، فقال الشماس: بارك يا سيد! فرتلّ متروبوليت حماة: «تبارك الله!» وعندئذ لبس البطريرك المنتخب البطرشيل والأمفوريون وبخّر حول المائدة المقدسة وأتمّ الصلاة كأول المطارنة. وبعد الحل تقدم الشمامسة ونزعوا عنه البطرشيل والأمفورون، وبعد ذلك خرج الموكب المؤلف من رؤساء الكهنة والكهنة والشمامسة ووقفوا في الخورص صفين. ووقف البطريرك المنتخب في الباب الملوكي متّجّها نحو الشعب، فانتصب كاتب المجمع المقدس الشّمس باسيليوس الصيداوي في بهرة الخورص وتلا بصوت جهوري «الإعلام العظيم»:

إن المجمع الأنطاكي المقدس ومصف الإكليروس الموقر وجماعة الشعب الأرثوذكسي المبارك قد انتخبوا غبطتكم باتفاق الرأي بطريركًا على مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق بإلهام الله، وهم يدعونكم بواسطة الابن الحقيّر إلى هذا الكرسي الأنطاكي البطريركي المقدس المؤسس من هامتي الرسل بطرس وبولس الإلهيين، فارتقوا إذن إليه أيها السيد الكلي الغبطة وزينوه عمرًا مديدًا كما زينه أسلافكم الرسل الأطهار وأغناطيوس المتوشح بالله وأفستاثيوس الكبير وملاتيوس الشريف، وسائر الذين تقلدوا زمام هذا الكرسي المقدس بخوف الله.

وبعد هذا تقدم غريغوريوس متروبوليت حماة الأول سيامة بين المطارنة وسلم البطريك عصا الرعاية قائلاً: «الله معك يا مبارك الرب، تشجع وتقوّ بالرب، وكن أميناً في الخدمة التي اختارك لها الله إلهك، وارعَ بخوف الله وأمانة ونشاط الرعية المفتدة بالدم الكريم في مراعي الخلاص، وأوردها ينابيع الحياة الإلهية حافظاً الإيمان وساهراً في الصلاة مُحبّاً لله ولشعبه المختار ومُعَلِّماً الجميع وصايا الرب وحقوقه صائراً مثلاً في كل عدل، وخذ بيمينك هذه العصا القويمة لتكون لك نحو الجهاد والمتمردين للتأديب ونحو العقلاء والراضخين للرعاية والعناية.»

وقدّم غريغوريوس الأول بين المطارنة العصا وقبّل يمين البطريك غريغوريوس، فتناولها البطريك ونزل من الباب الملوكي يتقدمه الشماسة بالذيكاريات والتركاريات، وذهب فصعد إلى السدة البطريكية ولفظ خطاباً مستمداً العون الإلهي للقيام بمهام منصبه السامي:

إن خطارة المنصب بالنسبة إلى حقارتنا تزيدنا شعوراً بضعفنا واحتياجنا إلى نعمة القدير، وننتقدم لإتمام رغبة إخوتنا بالرب الكلي طهرهم وأبنائنا الأحباء بالروح القدس بارتقائنا إلى هذا الكرسي الرسولي المقدس معاهدين أن نبذل جهد القدرة للقيام بأمانة ونشاط بواجبات المنصب الذي عهد إلينا، ثابتين ومحافظين على الناموس الإلهي والترتيبات الشريفة ونفوس الرعية وحقوق الله حتى النهاية، شاكرين لإخوتنا الكلي طهرهم انتخابهم لنا على ما بنا من الضّعة وبنينا الأعزّاء ثقتهم بنا على ما بنا من الضعف، مستمدين جميعنا العون الإلهي والمساعدة الأخوية والطاعة البنوية للبلوغ إلى غاية رضا الذي يدين كل الخليقة، فنظهر جميعنا أهلاً للدعوة التي دعتنا لميراث ملكوت السماوات.

ثم وقف جراسيموس متروبوليت بيروت في الكرسي المقابل للكرسي البطريكي وأجاب غبطته على خطابه بخطاب ناب فيه عن هيئات الإكليروس والشعب بتهنئة غبطته، فوصف سرور البيعة الأنطاكية براعي رعاتها، وأظهر ما علقته عليه من الآمال وما انتظرتة من حكمته وحزمه.

فرتلّ المرتلون البولخرونيون البطريكي وبارك البطريك الشعب بالصليب الكريم. ثم احتفل غبطته ولفيف الإكليروس بخدمة القداس الإلهي، وقبل تلاوة الرسائل؛ أي

بعد ترتيل: «يا رب خلّص المؤمنين واستجب لنا» ارتقى غبطته الكاتدرا الرسولية في صدر الهيكل، فهتف متقدم المطارنة «إكسيوس» أي مستحق. ورتّل هذه الكلمة المطارنة والإكليروس داخل الهيكل ثلاثاً والمرتلون في الخورصين ثلاثاً ثلاثاً، ثم أعلن الأرشدياكون الفيمي البطيركية:

غريغوريوس الأب الأقدس الطوباوي والجزيل الاحترام بطيريك مدينة الله أنطاكية العظمى وسورية والعربية وكيلكية والبلاد الكرجية وما بين النهرين وسائر المشرق، أبو الآباء وراعي الرعاة ورئيس الرؤساء ثالث عشر الرسل القديسين الأظهر أبونا ورئيس رعائنا لتكن سنوه عيدة.

فرتها المطارنة والإكليروس القائمون في الخدمة المقدسة من الهيكل أولاً ثم أعادها المرتلون في الخورصين كل خورص لوحده، وبعد نهاية القداس خرج البطيريك بموكبه إلى دار البطيركية.^٤

ولما استقر بالمجمع المقام نهض قنصل فرنسة في دمشق وتكلم باسمه وباسم زملائه قناصل الدول مهنتاً، وتمنى للبطيريك وللطائفة الأرثوذكسية التوفيق والهناء، فشكر البطيريك ما لقيه من المجاملة واللفظ. ثم نهض إسكندر الطرزي فتكلم بالتركية، فالدكتور داود أبو شعر شعراً ونثراً فجرجي عطية متفتناً بوصف سرور الملة، فالدكتور خليل الحايك باسم أبرشية طرابلس فسلمية شامية بالنيابة عن لجنة حب الرحمة فسلمية عازي. وفي النهاية وقف البطيريك نفسه فاستهلّ باستمداد العون الإلهي وأعرب عن ثقته بمستقبل سعيد لما توسمه من مضافة وجهاء الطائفة وأعيانها ومساعدتهم إياه مادياً وأدبياً.^٥

^٤ كتاب «خدمة رؤساء الكهنة»، لجراسيموس متروبوليت بيروت: «وهو الذي روعي يوم تنصيب غبطة البطيريك الحالي السيد غريغوريوس الرابع الجزيل القداسة»، ص ٩٥-٩٦.

^٥ «المحبة»، ١٩ آب ١٩٠٦، ص ٥٣٢-٥٣٨، وبعد الصفحة ٥٤٤ «صورة أهم الخطب والقصائد التي تليت في حفلة تسليم العكاز لغبطة العلامة المفضل كيريوس كيريوس غريغوريوس الرابع بطيريكاً على مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق الكلي الطوبى والجزيل الطهر»، وبينها خطاب جراسيموس متروبوليت بيروت وخطاب بولس متروبوليت جبيل والبترون.

رسائل الجلوس

وفي الرابع عشر من آب سنة ١٩٠٦؛ أي بعد حفلة التنصيب بيوم واحد وجّه البطريرك الجديد رسائل الجلوس إلى البطارقة ورؤساء الكنائس المستقلة:

بعد الديباجة: نبدي أننا نتبع ترتيباً شريعاً وعريقاً في القدم يوجب على رؤساء الكنائس المقدسة المستقلة الروحيين أن يُعلموا بعضهم بعضاً بالحوادث المهمة التي تحدث حيناً فحيناً في كنائسهم، وأن يرسلوا الرسائل السلامية بياناً مخصوصاً لارتقائهم على منصة الرئاسة في تلك الكنيسة، فننتقدم برغبة فوادية لنُعلم كلي قداستكم أنه بعد انتقال سلفنا السعيد الذكر ملاتيوس إلى الرب في أواخر شهر كانون الثاني للسنة الحالية اجتمعت الهيئة الانتخابية، وهي مؤلفة من مطارنة الكرسي الأنطاكي الرسولي المقدس الجليل طهرهم ومن الذوات نواب الشعب المحفوظ من الله، فأتمت كل المعاملات التمهيدية للانتخاب بحسب الأصول المرعية في اجتماعاتها القانونية تحت رئاسة القائمقام البطريركي السيد أثناسيوس مطران حمص الكلي الاحترام. وفي اليوم الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٠٦ اجتمع المجمع الأنطاكي المقدس المؤلف من جميع مطارنة الكرسي الرسولي في كنيسة نياح سيدتنا والدة الإله الكاتدرائية في دمشق تحت رئاسة القائمقام البطريركي المشار إليه. وبتمام الحرية وإبراشاد نعمة الروح الكلي قدسه مبدأ كل عمل مقدس وجه أنظاره إلى ضعفنا بانتخاب حقارتنا باتفاق تام وبرأي واحد بطريركاً لمدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق.

وبعد أن صدق جلاله متبوعنا الأعظم صاحب الشوكة والاقطار سلطاننا الأقخم على انتخابنا القانوني الذي جرى بالصورة المبينة، وأعلن رضاه الملوكاني العالي بإرادته السنوية الصادرة في ٥ آب سنة ١٩٠٦، تم يوم أمس الأحد الواقع ثالث عشر شهر آب الجاري ارتقاؤنا على حسب الأصول المرتبة ترتيباً إلى الكرسي الرسولي البطريركي الأنطاكي المقدس في الكنيسة الكاتدرائية المشار إليها في مدينة دمشق.

ولما كان من أقدس اهتماماتنا أن نحافظ على رباط الاتحاد والمحبة في المسيح غير منقطع تبادر بتحريرنا هذا الأخوي، الذي به نعرف كلي قداستكم الوقورة والمشتهاة ما تقدم، ونصافحكم بشوق روحي ومقدس ونقبلكم القبلية الفوادية بالمسيح.

على أننا باستلامنا سكان السفينة المؤسسة من الله سفينة أنطاكية المقدسة نلتهب بغيرة حارة ورغبة واحدة فقط في كيف يمكننا بمعونة الله أن ندبر السفينة المحفوظة تدبيراً نافعاً ومرضياً لله، ونقودها بسلام لإتمام إرادة الرب الصالحة والكاملة، وأن نتبع خطوات راعي الرعاة العظيم لنأتي بشعب الرب الخاص المسلم بعهدتنا إلى مراعي نعمة الإنجيل وينابيع الخلاص كما يريد الله، غير أنه سيكون من أقدس وأحلى واجباتنا هذا الواجب؛ أي أن نجتهد في أن نحافظ على الربط المقدسة مع قداستكم الوقورة ربط المحبة والسلام، ونقدم صلوات وتضرعات من أجل أن تكون خدمتكم وخدمتنا مثمرة في كرم الرب لمجد اسمه الفائق التمجيد. ومن ثمَّ نرغب من تقوى قداستكم الشيء ذاته؛ أي أن نتمتع بمثل ما ذكر وننال منكم الرسائل المتتابعة تعزيزاً وتقوية لربط المحبة الأخوية بيننا التي هي كمال الناموس وأسمى وصايا المسيح مخلصنا وفادينا، ولتوثيق عرى السلام المعطاة الطوبى لصانعيه من قم مخلصنا. فعلى هذا نصافح هامتكم الموقرة، ونطلب من الله مانح النعم أن تكون سنوكم كثيرة وخلصية تتمتعون فيها بصحتي النفس والجسد، ونعمته تعالى فلتكن معنا وفيما بيننا على الدوام، آمين. مستمد دعاكم أخوكم بالمسيح المستعد لخدمتكم بالرب غريغوريوس بطريك أنطاكية وسائر المشرق. حرَّر في رابع عشر شهر آب سنة ١٩٠٦ في مدينة دمشق.^٦

وسبقت كنيسة موسكو أخواتها الأرثوذكسيات في المحبة، فأقام الأسقف أنسطاسيوس وكيل متروبوليت موسكو قداساً حبرياً في كنيسة أمطوش الكرسي الأنطاكي في يوم تنصيب غريغوريوس في الثالث عشر من آب سنة ١٩٠٦. ودعا دعاء حاراً للبطريك الجديد وألقى كلمة باسم الكنيسة الروسية هنأ بها البطريك الأنطاكي غريغوريوس «عمود الكنيسة غير المتزعزع».^٧ وأسرعت جميع الكنائس المستقلة للرد على رسالة الجلوس بالمحبة الأخوية.

وأنعم السلطان العثماني بالوسام المجيدي الأول على غريغوريوس؛ «جزاء إخلاصه وصدق خدمته»، فكان هذا الإنعام خير رد على اعتراض مطارنة اليونان الأنطاكيين

^٦ مجلة «النعمة»، ١٥ تشرين الأول ١٩٠٩، ص ٢٥٧-٢٦٠.

^٧ «المحبة»، ١٦ أيلول ١٩٠٦، ص ٦٠٤.

الأربعة البعيدين عن كراسيهم الذين اعتبروا مستقيليين. وكان رائد يواكيم البطريك المسكوني مذ تسنّم السدة القسطنطينية توثيق عرى المحبة والوفاق بين الكنائس الأرثوذكسية، فرد على رسالة الجلوس الأنطاكية في الرابع عشر من آب سنة ١٩٠٩ بأحلى منها:

أيها الأخ المحبوب بالمسيح جداً الكلي الغبطة والقداسة بطريك مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق، ومساهم حقارتنا في خدمة الأسرار الإلهية المشوق إليه كثيراً، كيربوس غريغوريوس، بعد مصافحة غبطتكم الجليّة أخوياً بالرب يحلو لدينا جداً أن نخاطبكم بما يأتي:

إن ربوع البطريركيات الشريف المؤلف من كنائس الله الشرقية المقدسة كان دائماً بنعمة الله وبملاء التقوى قاطعاً كلمة الحق باستقامة، ومرتبطة بعرى المحبة الأخوية والاتفاق والمعاوضة ارتباطاً لا ينفصم كما كان متحداً بالرأي، فتوطدت بذلك وحدته وأصبح معسكراً قوياً يؤيده التكاثر على المصالح المشتركة العائدة لخلاص وصيانة ذويه والقريبين منه، فضلاً عما يتأتى عنها من الإرشاد والمساعدة للبعيد. وبما أن هذا الربوع يكرّز برب واحد وإله واحد ومعمودية واحدة، فكانت أيضاً رغائبه مشتركة وكذلك مقاصده المقدسة والشريفة التي بها يرشد إلى الخلاص، ويعمل على البنين وبكل غيرة حافظ على ثوب الوحدة والاتفاق في الرأي الذي نسجته يد علوية وعملت على صيانتها من كل خرق. فالمجد لله الكلي الصلاح ورئيس السلام، فإنه بمسرتة المقدسة وبنعمته تمكّن رباط المحبة القوي من أن يبعد النفرة التي دخلت حيث لم يكن لها محل، وأعاد ثانية القريبين والأنسباء إلى قرابتهم ونسبتهم السابقة التي ولدتها الفطرة والدعوة المشتركة، كما شهد بذلك التاريخ القديم والتقليد على ممر الدهور، فكان ذلك كله لتعزيتنا المشتركة وخلصنا وفرحنا، فعسى أن لا تعود البتة النفرة والانقسام للذين لا محل لهما وقد تولد لنا عنهما حزن عظيم جداً.

فعليه ونحن بملاء الفرح على إعادة العلائق الحبيبة نتقدم بالحبور والشوق بناء على قرار مجمعي، ونبادر لمجاوبتكم الجواب اللازم على التحرير الأخوي الذي من مدة أرسلته إلينا غبطتكم الجليّة، وبه بحسب العادة الجليّة والحسنة أخبرتنا عن انتدابها وارتقائها السعيد إلى كرسي مدينة الله،

ونصافحكم مصافحة أخوية بابتهاج القلب ونهنئكم من صميم الفؤاد على انتخابكم، وبنوع خصوصي نظره فرحنا؛ إذ نرى في شخص غبطتكم الوقور رئيس كهنة هذيذة بالإلهيات دومًا يحافظ على عقائد حسن العبادة بكل دقة، ويسوس الرعية بغيرة وحكمة، وقد اضطرمت في فواده الغيرة على رعاية الرعية التقية المؤمن عليها وقيادتها إلى ما يرضيه تعالى. كنا نرى فيكم أيضًا أخًا كلي الكرامة يحتسب من أقداس، وأحلى اهتماماته الغيرة في سبيل المحافظة على الربط الحبية الشريفة بيننا التي منها تتأتى الفوائد والبنيان والخلاص لكل منا على حدة ولجميعنا سوية.

وإذ نلتبس أخويًا العون العلوي لغبطتكم والتأييد في رغائبكم ومقاصدكم المخلصة والمرضية لله، نؤكد لكم أننا لا نفتر عن رفع أكف الضراعة بحرارة لدى مؤسس الكنيسة ومديرها السماوي من أجلكم، ومن أجل رعيتمكم التقية، وبكل شوق وبعين الاعتبار نقبل دائمًا كل ما تكاتبنا به أخوتكم وتعلنه لنا. وبكل نشاط نقدم لكم مساعدتنا الأخوية في كل ما تحتاجون إليه وتطلبونه منا في سبيل الخير.

وعليه نكرر مصافحتنا القلبية لغبطتكم الجليلة بقبلة أخوية، ونقدم تحياتنا الأخوية من أجل جميع رؤساء كهنة الكرسي الكلي طهرهم، الذين أخذنا رسالتهم المشتركة من مدة، أيضًا بعين الاعتبار والإكرام ولا نزال بملء المحبة الأخوية. أخوكم المشتاق والمحب لكم بالمسيح يواكيم بطريرك القسطنطينية.

القسطنطينية في ١٤ آب سنة ١٩٠٩

وفي الخامس والعشرين من أيلول من هذه السنة نفسها كتب دميانوس بطريرك أروشليم شاكرًا المخلص الذي رفع سياج التباعد، وأعاد ربط المحبة والسلام موافيًا من صهيون المقدسة مصافحًا في المسيح مبتهجًا لانتداب غريغوريوس، مصليًا أمام القبر الأقدس والجلجلة الرهيبة، متوسلاً عضد البطريرك الأنطاكي وتقويته.^٨

^٨ «المخابرات الرسمية بين البطريركية الأنطاكية والبطريركيات الأخرى الأرثوذكسية»، «النعمة»، ١٩٩، ص ٢٥٦-٢٦٤.

وانتهز فوطيوس بابا وبطيريك الإسكندرية حلول عيد الميلاد فتَوَّجَ رَدَّه على رسالة الجلوس الأنطاكية بالعبارة: «السلام بالمسيح الإله المولود اليوم»، فحلَّ الصمت الطويل وتقدم بالأسطر الأخوية فور خروجه من الهيكل الشريف ليتمتع بالبهجة والفرح المشتهى من زمن مديد، ويشترك معيدًا مع بطيريك أنطاكية والكنيسة الأنطاكية المقدسة لخلاص الجنس.^٩

وكتب ثيوكليتوس متروبوليت أثينا ورئيس مجمع كنيسة اليونان المقدس في الوقت نفسه ماثلاً أمام غبطة البطيريك الأنطاكي بالروح بنفس وقلب واحد مبتهجين مصافحاً بقبلة قديسة وأخوية بالرب، مبتهلاً من أجل حسن ثبات ومحبة الكنيسة الرسولية الشقيقة كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى التي قبل غيرها تشرفت بقلب المسيحية العزيز.^{١٠}

زخريا يمين البطيريك

ولس غريغوريوس مواهب شماسه زخريا زخريا في الإدارة والسياسة، وتثبت من إخلاصه وتعلقه بشخصه، فجعل باكورة أعماله البطيركية ترقية هذا الشماس المخلص الأمين إلى درجة القسوسية. فأقام في الخامس عشر من آب سنة ١٩٠٦؛ أي بعد تنصيبه بيومين، قدّاساً حبرياً لمناسبة عيد انتقال السيدة والدة الإله عاونه فيه كلُّ من أرسانيوس متروبوليت اللاذقية وجراسيموس متروبوليت بيروت، وفي أثنائته سام زخريا قسّاً. وبعد نهاية القدّاس ألقى زخريا في الدار البطيركية كلمة وجيزة استهلّها بقول الحكيم: «تفاح من ذهب في إناء مفضض الكلمة المقولة في حينها». وأردف قائلاً: وتعداد ما لغبطتكم عليّ من الأيادي البيضاء هو الكلمة المقولة في حينها، فيمينكم رفعتني من الحضيض في أوائل نيسان سنة ١٨٨٢، ويمينكم التي وضعتموها في ١٤ أيلول سنة ١٩٠٠ على هامتي في ديركم العامر دير سيدة البلمند جعلتني أخطو خطوتي الأولى في سلك الرهبنة، ويمينكم هي التي رفعتني إلى أولى درجات سلك الكهنوت وذلك في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٩٠١. ويمينكم تجعلني اليوم باكورة عملها المقدس فترفعني إلى الدرجة الثانية، فتنازلوا لقبول هذه الكلمة المقولة في حينها.^{١١}

^٩ مجلة «النعمة»، ١٥ كانون الثاني ١٩١٠، ص ٤٥٩-٤٦٢.

^{١٠} مجلة «النعمة» أيضاً، ٢٩ كانون الثاني ١٩١٠، ص ٤٩١-٤٩٤.

^{١١} مجلة «المحبة»، ١٩ آب ١٩٠٦.

شغور الكراسي

وفقدت أبرشية صور وصيدا راعيها ميصائيل في السابع من تموز سنة ١٩٠٦ في حاصبيا إثر أمراض نزلت على جسمه اللطيف فأنهكته، وكانت هذه الأسقام مصحوبة بصنوف الآلام والأوجاع، فكان يقابلها برحابة صدر وثبات جنان ملقياً اتكاله على رحمة المولى.

وفي الحادي عشر من شباط سنة ١٩٠٧ أفضى إلى ربه سلفسترس (زرعوني) متروبوليت ديار بكر وقد رماه التيفوئيد فأقصده. وتوفي وهو فرح لا ينطق بغير الكلمات: اقبل يا رب أتعابي كفارةً عن خطاياي الكثيرة! وكان قد سلك مسلك الراعي الصالح فبذل نفسه عن الخراف ورضي بما لم يرضَ به غيره، فإن أبرشيته كانت تمتاز بفقرها فلا تؤدي إلى راعيها أكثر من عشر ليرات ذهبية في السنة، وكان سلفسترس ينفق هذا الإيراد في سبيل الخير، ويزيد عليه مما يتناوله من البطريك الأنطاكي للقيام بنفقاته الخصوصية. وفي السنة ١٩٠٢ قام بجولة رعائية فأنفق خمساً وثلاثين ليرة مقابل عائدات تناولها من أبنائه الروحيين بلغت شوالاً من حَبِّ الفصوليا وكيساً من الكشك. وعلى الرغم من هذا كله فإنه أنشأ مدرستين، وباشر عمار كنيسة القديس جاورجيوس، وحافظ على ترتيب الكهنة، ونظم الكنيسة والناموس، وعاش عيشة القناعة والزهد والصبر محيياً لآياليه بالعبادة.^{١٢}

وكانت أبرشيته أرضروم لا تزال مترملة منذ وفاة قسطنديوس، كما سبق وأشرنا، وكان على غريغوريوس أيضاً أن ينظر في أمور روم حوران وأبرشية بصرى التي لم ترَ راعياً منذ استعفاء يوايكيوس (الحايك) المنتخب مطراناً عليها في السنة ١٩٠٠.

رائد غريغوريوس وخطته

واتخذ البطريك الأنطاكي الجديد شعاراً له الآية السادسة والعشرين من سفر الأخبار (لاويين) من الفصل العشرين: «وكونا لي قديسين؛ لأني قدوس أنا الرب وقد فرزتكم من

^{١٢} «مجلس ملة الروم في ديار بكر»، «المحبة»، ٢٧ أيار ١٩٠٦، ص ٣٥٠-٣٥٢، و ٢١ تشرين الأول، ص ٦٨١-٦٨٣.

الأمم لتكونوا لي.» وكان يردد مرارًا الآية الخامسة والعشرين من الإصحاح العاشر من بشاره متى: «وحسب التلميذ أن يكون كمعلمه.»

وقال — طيب الله ثراه: إن القداسة تقتضي إماتة أعضائنا التي على الأرض؛ لنكون نحن أحياء في الجسد كمن لا أجسام لهم، فنخدم بكل أمانة ذاك الذي لا جسم له وهو محبة وقد أظهر محبته لنا «ببذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية»، وأن نتشرف كأبناء النور بكل الصلاح والعدل والحق؛ «ليرى الناس أعمالنا الصالحة، ويمجدوا أبانا الذي في السماوات»، وأن تكون العدالة قائمة في أعمالنا والرحمة والرفقة لا تبرحان من أمام عيوننا، لنقطع ما يلزم قطعه من أسباب الفساد، وننعمش ما يلزم إنعاشه من وسائل الإرضاء لله حبًا بالله، وأن نتخذ الطرائق المناسبة لنشر حقائق إيماننا بين أبنائنا اعترافًا بنعمة الله العظمى علينا.

ولما كان الإكليروس من الشعب وللشعب وكان الاثنان يؤلفان الجسم الذي رأسه يسوع المسيح الحي على الدوام كان اختيار الإكليروس من أفاضل الشعب أمرًا ضروريًا، وهذا الأمر يتطلب من المتقدمين والوجهاء حسن تربية أبنائهم على ما يلائم هذه الدعوة الشريفة والمنزلة العلية. ولما كان الكهنوت عندنا لا يورث وبابه مفتوح لكل ذي ميل؛ كان لنا أن ننتظر من أبنائنا ذوي الكفاءة واللياقة الإقبال عليه والسعي في سبيله لنيل ما يترتب عليه من رضا الله تعالى وخلاص النفوس وطيب الأحداث وتخليد الذكر.

وقال رحمه الله: وليعلم الشعب المبارك والإكليروس الموقر أن حياتنا الدينية بهذه الأيام الأخيرة هي بنت سنين لا تزيد عن العشرة فيها عرفت الرعية صوت راعيها وفهمت لغته، فنحن نسير في سبيل الواجب للملة كابن عشر سنين فلا نقصر عن إبراز الخطوات بين صفوف المواطنين السائرين في طريق الحياة على نغم نشيد السلام، ويشهد لنا بذلك قلة مشاكلنا مع مواطنينا سواء كانوا من المسيحيين أو من الملل الأخرى، كما تشهد أيضًا رغبتنا المستمرة في اقتلاع أشواك الخلاف، وفي غرس أصول المودة والائتلاف.

ونبذل الجهد في ترقية الشئون العلمية والأدبية بالمساعدة التي تمر من كفنا سراعًا إلى القائمين على المحرث الإلهي لتنعمش الأرواح وتنهض الهمم وتقوى العزائم. والأمل وطيد بأن يتسنى لنا ولملتنا المحبوبة من وسائل الفلاح ما يرسم الرسوم البديعة في حياة الملة بألوان زاهية وسلامة ذوق فائقة.

وهو ذا المطابع الأرثوذكسية التي كانت قد ابتدأت في خدمة شئون الملة منذ قرنين ونيف قد توفّقنا لإعادتها في دار البطريركية، كما توفّق السيد الأخ مطران حمص الكلي

الوقار في إنشاء مطبعة وجريدة في حمص من خير الشعب ولأجل خدمته. وقد أقدمنا على طلب امتياز لمجلة الكنيسة الأنطاكية، فصدرت الأوامر السامية بتمكيننا من إصدارها، وقد سميناهما «النعمة» لنشر حقائق الإيمان وبث روح المحبة وإحياء ميت الرجاء. وتلك المدارس الداخلية التي أنشئت في دير سيدة البلمند في أوائل القرن التاسع عشر، وما أنشئ على أثرها من مثل مدرسة سوق الغرب ودير سيدة كفتين على عهديهما الأول والثاني، والمدرسة الإكليريكية في بيروت والمدرسة الإكليريكية المتجددة في دير سيدة البلمند شاهد عدل على سعي الرؤساء ومحبة الملة لبث روح العلم والفضيلة بين أبنائها، وقد أخذ سيادة الأخ مطران بيروت الكلي الوقار يجدُّ في سبيل إنشاء مدرسة عالية للملّة حاملة اسم السلام، كما أن سيادة الأخ مطران حمص ينشئ عن قريب مدرسة داخلية في مقر كرسيه المقدس لسد جانب من حاجة الملة. وكل من السادة الأطهار يهتم في دائرته بشئون المدارس وبعضهم بالمياتم والمستشفيات وغيرها من المعالم الخيرية بمعاودة رجال من الشعب.

وهذا الهلال الظاهر يبشّر بأن نجاح الأمة سيكون يومًا ما بدرًا كاملاً، والمسعى المبذولة من جميع الرؤساء إنما هي لأجل حياة الشعب ولتسبيح رأس خلاصنا، فمن اللازم أن يستقبلها الشعب مهلاً ويعينها بسخاء.

ومن واجبات الرئيس أن يكون لئناً، فمن حيث نودي لبّي، وكيفما طُلب انعطف، بدون أن يكون له ميل أو صبغة أو شكل مخصوص أو حزب معروف، بل هو للملة جمعاء يمشي مع فقيرها ويحاضر مع غنيها، يدخل في جميع أعمالها، ويخرج منها بلا غرض يصمه ولا تعصب يلوّثه. ولئن اقتضت المصلحة احتجاجه فهو المحتجب الظاهر والبعيد القريب الذي يلبي الدعوة ويشترك في البلوى ويحسن ترجمة الأفكار والتعبير عن الأحوال، ولا يزال هو البصر الذي يستضيء به الجسم والدليل الذي يؤمن معه البلوغ إلى المراد.^{١٣}

مدرسة السلام

وفي منتصف حزيران السنة ١٩٠٦ حظي جراسيموس متروبوليت بيروت بفرمان سلطاني خوَّله حق إنشاء مدرسة ملية أرثوذكسية، فترنّمت أجراس كنائس بيروت

^{١٣} المنشور البطريركي «خطاب للإخوة السادة والكهنة وللرهبنة وللشعب»، ٥ حزيران ١٩٠٩.

الأرثوذكسية مُبشّرة بحلول هذه النعمة، وخفَّ جراسيموس إلى سراي الحكومة فأدى مراسيم الشكر ودعا بتأييد العرش العثماني،^{١٤} ثم استدعى إليه في دار القلاية كهنة الطائفة ومجلسها وجمعياتها ووكلاء كنائسها، وطلب إليهم النظر فيما تقتضيه شئون المدرسة، وما يجب إجراؤه للقيام بها وجعلها من المدارس الكبرى، ثم أطلعهم على الخريطة التي أعدها، وحضهم على التعاون معه، وطلب انتخاب لجنة لهذه الغاية، فجرى ذلك علناً. وتم انتخاب خمسة وعشرين وجيهاً من وجهاء الطائفة للعتاية بالمدرسة والنظر في شئونها، وكان بين هؤلاء: يوسف سرسق وبطرس داغر ويعقوب كرم ونجيب طراد وثيودوري جبيلي وجرجي عرمان وسعيد صباغة وإلياس مجدلاني ونخلة حبيب.^{١٥}

وقالت «المحبة» لمناسبة تأليف هذه اللجنة إن المدرسة ستكون عثمانية أرثوذكسية تُغني عن كثير من المدارس الأجنبية، وتُمكن الطالب من الخروج منها مكتفياً بما تلقاه فيها، معتمداً بعد ذلك على دروسه ومطالعاته الخصوصية، ولا بدّ أن تنمو فتتحول إلى جامعة كبرى علمية وطنية يليق بكل سوري، بل بكل عثماني أن يلجأ إليها.^{١٦}

كلية حمص الأرثوذكسية (١٩١٠)

وعُني أنناسيوس متروبوليت حمص بإنشاء مدرسة أرثوذكسية عالية، فاستدعى في السنة ١٩٠٧ العالم المربي الأرثوذكسي جرجس همام الشويري واستشاره في أمور التعليم والبناء، ثم بدأ بجمع المال، فأقبل الحمصيون بما عُرفوا به من غيرة وسخاء. وفي خريف السنة ١٩١٠ فتحت مدرسة حمص العالية أبوابها لقبول الطلاب، وتولى نيابة الرئاسة فيها الخوري عيسى أسعد وأشرف على إدارتها وتعليم الرياضيات العالية فيها جرجس همام الشويري. وكانت كنيسة موسكو قد أهدت كنيسة حمص جرساً كبيراً، فاعترضت بعض الأوساط الحمصية على استعماله فعُلّق بإرادة سلطانية سنية.

^{١٤} «المحبة»، ١٩٠٦، ص ٤١٠.

^{١٥} «المحبة»، ١٨ تشرين الثاني ١٩٠٦، ص ٧٤٤.

^{١٦} «المحبة»، ٢٥ تشرين الثاني ١٩٠٦، ص ٧٦٠-٧٦١، و ٩ أيار ١٩٠٧، ص ٢٩١-٢٩٦.

أبرشية ترسييس

ووصل ألكسندروس متروبوليت ترسييس إلى مركز أبرشيته في الخامس من تشرين الثاني سنة ١٩٠٥، وأظهر كثيرًا من التعقل والمرونة. ولكن اليونانيين من أبناء الأبرشية وقفوا إلى جانب جرمانوس متروبوليت الأبرشية السابق الذي اعترض على انتخاب ملاتيوس بطريركًا على أنطاكية، وتوفي ملاتيوس في مطلع السنة ١٩٠٦، فعاد ألكسندروس إلى دمشق وبقي فيها، ورقى السدة البطريركية غريغوريوس وشغر كرسي طرابلس، فانتخب المجمع الأنطاكي المقدس ألكسندروس مطرانًا على طرابلس في الحادي والثلاثين من كانون الثاني سنة ١٩٠٨:

بما أن كرسي أبرشية طرابلس المحروسة من الله قد فرغت بانتخاب سيادة راعيها الجليل السيد غريغوريوس الجزيل الشرف والاحترام، وارتقاء غبطته سدة بطريركية مدينة الله أنطاكية العظمى وسائر المشرق بتاريخ ١٣ آب ١٩٠٦، وبقيت هذه الأبرشية بدون راعٍ، فقد اجتمعنا نحن مطارنة الكرسي البطريركي الأنطاكي الموقعين بذيله في مدينة دمشق بأمر وإجازة غبطته في الكنيسة البطريركية الكاتدرائية التي على اسم نياح سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم، وأعطينا أصواتنا القانونية لإيجاد شخص لائق ومستحق وانتخابه ليتقلد زمام أبرشية طرابلس ويرعى رعيته من الأسماء الثلاثة التي أعطاه لنا غبطته المرشحين من كهنة وشعب عموم الأبرشية الموما إليها، وهم: السيد ألكسندروس مطران كيليكيا سابقًا، والسيد رفائيل أسقف بروكلن الكلي طهرهما، وقدس الأرشمندريت زخريا راجي الجزيل بره. ولدى فتح بطاقات الانتخاب التي قدّمها كلٌّ منّا بيده بعد إقامة الصلاة المفروضة واستمداد نعمة الروح الكلي قدسه وقع الانتخاب باتفاق الأصوات على السيد ألكسندروس طحان مطران كيليكيا سابقًا الجزيل طهره، فسميناه مطرانًا قانونيًا على أبرشية طرابلس المحفوظة من الله. وإيضاحًا لذلك كله سطر هذا العمل المجمعي في هذا السجل البطريركي موقعًا عليه بإمضواتنا وأختامنا بالأصالة والوكالة. تحريرًا في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ألف وتسعمائة وثمانٍ ١٩٠٨.

وعادت العلائق إلى مجراها الطبيعي بين الكرسي الأنطاكي وبين الكرسي البطريركية الشقيقة، فأبرق الخوري إبراهيم متقدم الكهنة في كنيسة أدنة للبطريرك الأنطاكي مهنتاً. وأعرض التهاني أيضاً وكيل البطريرك الأنطاكي في أبرشية ترسيس، فأصدر غريغوريوس في خريف السنة ١٩٠٩ منشوراً راعياً لأبناء أبرشية ترسيس وأدنة وسائر بلاد كيليكياس باليونانية والعربية جواباً للتهاني وإظهاراً للسرور بما كان من خواتم السلام، وإشارة إلى أنه سيرسل راعياً للأبرشية يقودها إلى مراعي الخلاص:

لستم غرباء عن أورشليم لنوضح لكم مجريات الحوادث، لا بل أنتم شهود بعضها، وقد علمتم بما وقع من بعض إخوتنا المطارنة من عدم تسليمهم بالانتخاب البطريركي ومجافاتهم لرئيسهم زاعمين عدم صلاحية الرئيس إن لم يكن من جنس معلوم دون سواه، كأن نعمة المخلص لا تستطيع أن تدخل قلوب أمثالنا، إلا أن كنيسة المسيح العظمى التي يرأسها بطريرك تكلمه شيخوخة سعيدة مترواً في الأعمال عارف بالقوانين، ويدبرها مجمع مقدس ضمّ شتات المعارف في صدور أعضائه، وجمع حكمة الحكماء في رءوس رجاله قد أفعمت المحبة المسيحية قلوب هؤلاء الأفاضل كما أفعمت قلوب إخوانهم الأحباء غبطة بطريرك المدينة المقدسة ومجمعه المقدس، فأطرحوا بالمحبة الخوف وتجاوزوا العقبات وبيّنوا أنهم موقنون بسيادة المخلص على الجميع وسفكه دمه الكريم لأجلهم، فإنما الكل في المسكونة عبيد له وأعضاء لجسده المقدس مرتبطون بهذا الرأس الحي على الدوام.^{١٧}

وأرسل الوكيل البطريركي في ترسيس الخوري نقولا خشي بياناً بعدد بيوت الملة مجموعة ومفصلة في أبرشية ترسيس، وعدد الكهنة والمدارس والكنائس، فبلغ عدد العيال الأرثوذكسية ١٦٥٠ بينها ٣٤٥ عائلة يونانية و٩٣٠ تركية و٣٧٥ سورية. وبلغ عدد الكهنة في هذه الأبرشية ١١ وعدد المدارس ٥ وعدد الكنائس ١٣.^{١٨}

^{١٧} مجلة «النعمة»، ٣٠ أيلول ١٩٠٩، ص ٢٢٥-٢٣٠.

^{١٨} «النعمة» أيضاً، ١٩٠٩، ص ٢٥٦.

زخريا متروبوليت بصرى

وكانت أبرشية بصرى حوران لا تزال خالية من راعٍ قانوني منذ استعفاء راعيها المنتخب يوانيكْيوس (حاك) في السنة ١٩٠٠، فانتقى المجمع المقدس الأرشمندريت زخريا راجي زخريا مطراناً على هذه الأبرشية في الثالث والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٨:

إنه بناءً على خلو أبرشية بصرى حوران وتوابعها من راعٍ قانوني بسبب استعفاء الأرشمندريتي يوانيكْيوس الحاك الجليل بره المنتخب مطراناً عليها بتاريخ ٢١ آذار سنة ١٩٠٠، فقد اجتمعنا نحن مطارنة الكرسي البطريركي الأنطاكي الموقعين بذيله في مدينة دمشق، بأمر وبإجازة غبطة السيد الجليل والراعي النبيل كيريوس كيريوس غريغوريوس بطريرك أنطاكية وسائر المشرق الجليل الطوبى والاحترام في الكنيسة البطريركية الكاتدرائية التي على اسم نياح سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم. وأعطينا أصواتنا القانونية لإيجاد وانتخاب شخص من الثلاثة الأشخاص المرشحين؛ وهم: قدس الأرشمندريتي كير زخريا راجي، و قدس الأرشمندريتي كير أغناطيوس أبو الروس، و قدس القس أثناسيوس مطر الكلي برُّهم، وبعد إقامة الصلاة المفروضة واستمداد نعمة الروح الكلي قدسه فتحنا بطاقات الانتخاب التي أرسلها لغبطته سائر السادة المطارنة الغائبين في أبرشياتهم وقع الانتخاب بأكثرية الآراء على قدس الأرشمندريتي زخريا راجي الكلي برُّه، فسمي مطراناً قانونياً على أبرشية بصرى حوران وتوابعها المحفوظة من الله، وإيضاحاً لذلك كله سطر هذا العمل المجمع في هذا السجل البطريركي موقعاً عليه بإمضاواتنا وأختامنا بالأصالة والنيابة.

قاضي الشرع وطلاق النصارى

وكان محمد طاهر أفندي نائب قضاء جسر شغور قد نظر في دعوى طلاق قائمة بين جرجس أندراوس من أهالي جسر شغور وبين زوجته ذبية بنت فارس نقولا فرح من أهالي أريحا، فحكم بالطلاق وأصدر إعلاناً شرعياً بذلك مؤرخاً في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ مهجوراً بختمه مسجلاً لديه تحت نومرو الضبط ٤٢، صحيفة ١٤٤ ونمرو السجل صحيفة ٧٩، وتقاضى خرج إعلام قدره ١٢٠ غرشاً صاعاً.

واستغرب متروبوليت حلب هذا التدخل فأعلم البطريرك به، فاحتج البطريرك بعريضة قدمها إلى ناظر العدلية، وبَيَّن فيها مخالفة النائب الشرعي لنص البراءة السلطانية التي بيد البطريرك ونصوص البراءات السابقة، فإنها جميعها تمنع التعرض لعقد النكاح أو فسخه بين شخصين من ملة الروم الأرثوذكس إلا لذوي الاختصاص. فورد في الرابع والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٠٩ جواب ناظر العدلية موجِّباً إشعار مأموري الإجراء بعدم تنفيذ قرار هذا القاضي.^{١٩}

الدستور العثماني والكنيسة

وشاع في صيف السنة ١٩٠٩ أنه لمناسبة إعلان الدستور وإنشاء حكومة ديموقراطية شعبية ستلغى حقوق الكنيسة وامتيازاتها التاريخية. وانتشر بريد هذا الخبر في الأنحاء الأرثوذكسية واضطربت به الألسن، فاجتمع المجمع القسطنطيني المقدس والمجلس الملي الدائم المختلط برئاسة البطريرك المسكوني وتشاوروا في الأمر، وارتأوا الاتصال المباشر بالصدر الأعظم والتحدث إليه في الموضوع. وفي العشرين من أيلول زار البطريرك المسكوني الصدر الأعظم فاستقبل باللطف والترحاب. وتذاكر الكبيران في الامتيازات فلم يظهر تباين جوهري في الرأي، فالصدر أظهر بجلاء أن امتيازات الكنيسة والملة تبقى كما كانت منذ فتح القسطنطينية، وأن حكومته لا تفكر في تعديلها، ولا سيما ما يتعلق منها بمحاكمة المطارنة والكهنة ومسائل الزواج والطلاق والوصيات والمدارس وأملاك الأديرة والكنائس وجميع المنشآت الخيرية. وأكد البطريرك أنه لن يتغاضى عن اللقب «ملت باشي» الذي منحه إياه محمد الفاتح، وأنه يجب أن يبقى له الحق بتمثيل الملة لدى الحكومة الدستورية. فأجاب الصدر أنه على البطريرك أن يُعلمه بأقل إنقاص من كرامة الدين والكنيسة والإكليروس، وأنه إذا وقع أي تعدٍّ على أي مسيحي فعلى البطريرك والمطارنة أن يعلنوا ذلك للحكومة كتابة أو شفاهاً.^{٢٠}

^{١٩} مجلة «النعمة»، ١ تشرين الثاني ١٩٠٩، ص ٣٢٠ و ٣٤٨-٣٥١.

^{٢٠} «النعمة» أيضاً، ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٩، ص ٣٣٦-٣٣٨.

تجنيد النصارى (١٩٠٩)

وصدر في السابع من آب سنة ١٩٠٩ تعديل لقانون أخذ العسكر في الدولة العثمانية فجاء في مادتين لا ثلاثة لهما، فأوجب المادة الأولى إلغاء البدلات العسكرية التي كانت تؤخذ من العناصر غير المسلمة اعتباراً من تاريخ صدور التعديل، وقضت المادة الثانية بتمثل الهيئات الروحية المحلية في مجالس «سحب القرعة»، كما أوجب إعفاء «كل منصوب ومعزول من بطاركة وكاتوغيكوس وحاخام باشي ومتربوليت وأسقف وأرشمندريت ووارتابيت وباش حاخام ورؤساء الأديرة ورؤساء الرهبانات» من الخدمة العسكرية. واستثنى هذا التعديل أيضاً الخوارنة والشماسة، والذين يعيشون في الأديرة من رهبان وكهنة وطلبة المدارس المذهبية وتلامذة المكاتب العالية، ومعلمًا واحدًا لكل مكتب ابتدائي رسمي في القرى والمعلم الأول والثاني والثالث في المدارس الابتدائية المنتظمة في المدن.^{٢١} وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٠٩ استدعى والي ولاية سورية رؤساء الملل غير المسلمة لسماع تلاوة فرمان السلطاني المؤذن بتجنيد أبناء مللهم للمرة الأولى، فقصد الرؤساء دار الحكومة فقبلوا بالعطف، ثم نزل والي والنائب والمفتي والرؤساء الموما إليهم وبكباشي طابور الميدان وغيرهم من رجال الولاية إلى ساحة السراي، فسلم والي بكل إجلال فرمان العالي لمكتبجي الولاية فقبله وتلاه. ثم خطب والي مبيناً أهمية الموضوع ومهنئاً الملل غير المسلمة بحصولها على المساواة بالجندية العثمانية، ثم لفظ المفتي الدعاء المعتاد.

ثم قرأ بطريركنا خطاباً في موضوع التجنيد وتلاه بطريرك الروم الكاثوليك بخطاب آخر، وختم كلاهما بالأدعية المتوجبة. ثم توجه الجميع إلى دائرة البلدية وابتدءوا بإجراء المعاينة الثانية. ومن أفضل ما جاء في خطاب غريغوريوس قوله: «الحمد لله الذي جمعنا في الإنسانية والوطنية ووحدنا في الجامعة العثمانية.» وقوله: «لقد قبلنا بفرمان مولانا على الرأس والعين، وإن خلا من مخاطبتنا نحن الرؤساء الروحيين فإنه يدعو أبناءنا إلى أحضاننا وهذا يرضي الطرفين، وبات لكل يتجارون ولا يتناظرون في خدمة الوطن وينهضون بشأنه وإن لم تنهضوا فمن؟»^{٢٢}

^{٢١} الدستور، قانون أخذ العسكر، تعديله في ٢٠ رجب ١٣٢٧ و ٢٥ تموز ١٣٢٥.

^{٢٢} مجلة «النعمة»، ١٦ تشرين الثاني ١٩٠٩، ص ٣٤٠-٣٤٢.

وقدّم البطريرك المسكوني تقريراً مسهباً للصدارة العظمى في موضوع تجنيد المسيحيين فاقترح ما يلي: (١) منع تغيير المذهب في أثناء التجنيد وطوال مدة ابتعاد الشباب عن أحضان الوالدين. (٢) تعيين كهنة أتقياء للجنود المسيحيين يعنون بإرشادهم إلى الفضيلة والتقوى، ويقومون بإتمام احتياجاتهم الدينية. (٣) تخصيص محل ملائم للصلاة في أوقات معينة أسوة بالجنود المسلمين. (٤) السماح للجنود المسيحيين بممارسة جميع فروضهم المذهبية. (٥) تأليف فرق مسيحية صغيرة. (٦) إدخال الشباب المسيحيين إلى المدارس العسكرية ليتضلّعوا بفنونها، وليصبحوا أهلاً للترقى في رتبها.^{٢٣}

وفي صيف السنة ١٩١٠ تواردت الجنود من الآستانة وإزمير لتعزيز الحملة على جبل الدروز بقيادة سامي باشا، وكان بينهم عدد وافر من أبناء الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة بعضهم من المشاة وبعضهم من المدافعين، فترددوا في كل أحد على الكنيسة في دمشق. وفي منتصف آب ورد أمر تلغرافي من نظارة الحربية إلى مركز الفيلق الخامس في دمشق يوجب السماح للجنود الأرثوذكسيين بالقيام بالواجبات الدينية لمناسبة عيد انتقال السيدة، وكانت صلاة العيد قد انقضت فأقيم قداس خصوصي يوم ثالث العيد باللغة اليونانية، وتقبل الكاهن اعترافاتهم وتقدموا أزواجاً إلى مناوله الأسرار الطاهرة، ثم تناولوا طعام الغداء على مائدة البطريرك.

المجمع الأنطاكي المقدس (١٩١٠)

وفي الثاني والعشرين من حزيران سنة ١٩١٠ وفي الساعة التاسعة قبل الظهر أمّ الكاتدرائية المريمية كلّ من البطريرك والمطارنة أثناسيوس وغريغوريوس (حماة) وأرسانيوس وبولس وجراسيموس وباسيليوس واسطفانوس وألكسندروس وجرمانوس وملاتيوس (أميذس - ديار بكر) وزخريا وإيليا (صور وصيدا).

فبدأ غبطته

تبارك الله، والمجد لك يا إلهنا، وأيتها الملك السماوي، والأرشدياكون (ميخائيل شحادة) قدوس الله وما يتلوها، والإعلان من غبطته ثم طروبارية العنصرة التي أعادها خورص

^{٢٣} مجلة «النعمة»، ١٥ تشرين الأول ١٩٠٩، ص ٢٨١-٢٨٢.

اليمين بعد الذوكصا وقنداق العنصرة بعد الكانين من خورص الشمال. ثم قال غبطته: ارحمنا يا الله ثلاث طلبات والرابعة؛ لكي يرسل الرب الإله نعمة روحه القدوس على هيئة المجمع المقدس لتنيرها وترشدها وتهدي إلى ما يرضي الرب؛ لأنها ملتجئة إلى عظم غنى رحمته. ثم الإعلان: لأنك إله رحيم، والختم الصغير المختص بالعنصرة، وبصلوات آبائنا القديسين. ثم حضر البطريرك إلى أمام الإنجيل الطاهر الموضوع على قراية في الوسط فسجد وقبَّله ثم سجد ثانية ورجع إلى محله فوقف، فتقدم السادة كل بدوره فعل مثل ذلك ووقف في محله حتى انتهى الكل، وتدرعوا بإشارة الصليب وجلسوا. وافتتح البطريرك الجلسة مرحبًا، وأشار إلى أنها المرة الأولى في تلك الآونة التي فيها اجتمع اثنا عشر مطرانًا والبطريرك في دمشق. ثم قال بعد البسملة: كما يضم الأخ إخوته الغائبين كذلك أضمكم إلى قلب يتحرك بحبكم يا رؤساء كهنة العلي ومطارنة الكرسي الأنطاكي المقدس. تبارك الله الذي جمعنا في هذه المرة الثانية إلى هذا المجمع الأنطاكي المقدس وجميعنا بالصحة والعافية؛ لكي نمجد بصوت متفق الروح القدس الذي نعمته اليوم جمعتنا وقدرته تقوينا للعمل المرضي لله في شعبه المبارك. ثم ذكر ما كان في غيابهم من غبطته من الأشغال واحدة فواحدة، وأنه سيقدم لهم أوراق كل مسألة على حدة، ولفت النظر إلى ترتيب برنامج للتعليم على قواعد المذهب الأرثوذكسي، وإلى ترجمة كتابي «أصول المحاكمات الكنائسية وتطبيقها»، وإلى مسألة الوصية والأحكام الكنائسية، وأن تكون مرعية، وإلى التعامل القديم الذي جرت عليه الكنائس في مصالح أبنائها، وإلى مسألة الأراضي التي تطلب محلوليتها لمجرد كون المقيدة على اسمه لم يترك وارثًا، مع أن مجرد القيد لا يجعل تلك الأملاك والأراضي مشتراة بمال المقيدة باسمه، بل هو أمر مشهور ومقرر لدى العموم، وفي المراكز الرسمية أن تلك الأموال أموال الوقف وقد تقيدت تلك الأراضي باسم الوقف أو باسم المتولي، كمتولٍ للوقف. ثم أرادت النظارة فأجرت قيدها على اسم المتولي، ويقال الآن إنه ليس له وارث، وأشار البطريرك أيضًا إلى ما كان في أيام الدستور من المشاغل الجديدة، وإلى ما نجم من المشاكل عن عدم فهم معنى الحرية، وخصص بيان ما كان يجري في حلب وزحلة وأضروروم وصور وصيدا، وتكلم أيضًا عن تأسيس المطبعة البطريركية ومجلتها «النعمة» وعن المباشرة بطبع الكتب الدينية اللازمة وعن حالة مدرسة البلمند الإكليريكية.

وتوالت الجلسات فكان من نتائجها رفع تقرير مجمعي إلى نظارة العدلية والمذاهب بشأن الوصية، وبشأن الامتيازات التي تمتعت بها ملة الروم، وأن هذه الملة واحدة لا تتجزأ، ونظر المجمع في شكوى الطائفة في حلب ودقق في الإجراءات التي اتخذها اسطفانوس مطران حلب، فثبتت نزاهته واستقامته. ولكن المجمع لمس في الوقت نفسه نفور الشعب من اسطفانوس وعدم استعداده للتعاون معه، وأعرب اسطفانوس عن استعداده للتضحية في سبيل المصلحة العامة، فاستعفى وقبل المجمع استعفاه، وشكر المجمع لقداسة البطريرك المسكوني اهتمامه في قضية أرضروم وإرساله الشماس جرفاسيوس إكسرخوسًا. وكان اليونان من أبناء الملة في أبرشية ترسييس قد تقدموا إلى البطريرك المسكوني بطلب راجين تدخله مع المجمع الأنطاكي لتعيين أسقف يجيد اللغة اليونانية، فتقرر إرسال إيليا متروبوليت صور وصيدا إلى كيليكياس لدرس الحالة ورفع تقرير عنها.

واقترح متروبوليت طرابلس نقل مدرسة البلمند إلى دمشق لتكون تحت أنظار البطريرك، فاقترح متروبوليت بيروت نقلها إلى دير مار إلياس بيروت وجعلها تحت رعاية متروبوليت بيروت ومتروبوليت جبيل والبترون، وأن تبقى كما كانت مدرسة إكلييريكية بطريركية.

الخطبة والزواج

واعتبر المجمع المقدس الخطبة اتفاقًا بركة كنائسية بين ذكر وأنثى مسيحيين حُرَّين كفئَّين يلتزمان به بالاقتران الناموسي المقدس. وبَيَّن قدم عهدا وشرفها وسن لها قوانين معينة، ثم نظر المجمع في مشاكل الزواج التي نشأت عن الهجرة عبر البحار فاشترع ما يلي:

(١) إذا كان الرجل والامراة مقترنين عن اتفاق بينهما فقط ولم يكن بينهما مانع كنائسي وحضرا إلى بلادنا وهما متفقان ينصح لهما لأخذ بركة الإكليل المقدس وتعطى لهما بحسب الرسوم. وإن كانا غير متفقين فينصح لهما أن يتفقا ويقتبلا بركة الإكليل، فإن رفضا بعد النصيحة اقتبال بركة الإكليل سواء كان في الحالة الأولى أو الثانية فالكنيسة لا تعتبر قرانها شرعياً ولا أولادهما شرعيين، وترفض كل دعوى زوجية وكل دعوى ومعاملة إرثية لهما.

(٢) إذا كان الرجل والامراة مرتبطين مدنيًا فقط ولا مانع كنائسي بينهما سواء كانا متفقين أو مختلفين فينصح لهما بقبول بركة الإكليل، فإذا لم يقبلا لا تأذن الكنيسة إذ ذاك لهما أو لأحدهما بزواج آخر.

(٣) إذا كان الرجل والامراة مرتبطين مدنيًا ونائلين بركة الإكليل من كاهن غير أرثوذكسي ولا مانع كنائسي بينهما فالكنيسة تجري معهما بحسب القوانين الكنيسة المرعية في هذا الباب.

وبحث المجمع أثر الهجرة في الصلة بين الزوج والزوجة فأوجب ما يلي: إذا سافر الرجل تاركًا امرأة لها منه أولادًا أو بدون أولاد ولم يعد ينفق عليها، فإذا تقدمت الشكوى للبرئيس الروحي أن يخبر الرجل رأسًا أو بواسطة الرئاسة الروحية هناك أو غيرها لجلب نفقة للامراة، أو أن تعطى الامراة إعلام نفقة تنفذ بواسطة الحكومة المحلية هناك، وإلا فتعمل واسطة لتسفيرها إلى حيث يقيم رجلها. أما إذا تركها وحدها أو مع أولادها وتزوج غيرها، فبعد تقديم الشكوى للرئاسة الروحية يحكم بصحة عقد الزواج الصائر هنا، ويعرف عنه إما للرئاسة الروحية أو للحكومة المحلية هناك لأجل إبعاد الامراة الأجنبية عنه وتحصيل النفقة منه لزوجه الشرعية، أما الزوجة فإذا سافرت برضا رَجُلها أو بدون رضاه وامتنعت عن الحضور وأثبتت عليها الخيانة الزوجية تنفسخ إذ ذاك عنه.^{٢٤}

البطريك وهوران (١٩١١)

وكانت أبرشية بصرى وتوابعها لا تزال مترملة منذ أن استقال أغاببوس (صليبا) من وكراته عليها، فخصها غريغوريوس بعنايته وسام زخريا مطرانًا عليها ومده بالمال للعمل فيها، وشملت أبرشية بصرى وتوابعها حين تسلم رعايتها زخريا جميع متصرفية حوران بأقضيتها الخمسة: السمية والسويدا وبصرى وأذرع وعجلون، وبلغ عدد الدروز فيها ١٦٥٠٠ والمسلمين ٥٣٠٠ والأرثوذكسيين ٣٥٠٠ والروم الكاثوليك ٢١٤ والبروتستانت ١٦١.^{٢٥}

^{٢٤} المنشور البطريكي: «إننا نوضح لبنوتكم»، ٢٧ آب سنة ١٩١٠.

^{٢٥} «أسقفية حوران الأرثوذكسية»، لعيسى إسكندر المعلوف، «النعمة»، ١ شباط ١٩١٢، ص ٧٢١-٧٣٥، و«إحصاء المطران زخريا»، وهو لا يزال مخطوطًا لدى السيد نقولا زخريا.

وفي تموز السنة ١٩١١ نهض البطريرك غريغوريوس بنفسه إلى حوران في جولة رعائية يصحبه كل من البرنس بوريس شاخوفسكي قنصل روسية في دمشق وترجمانه يوسف السبع، والمؤرخ الكنسي الشهير باولو كاروليزي والمؤرخ اللبناني عيسى إسكندر المعلوف وأرشدياكون الكرسي الأنطاكي ميخائيل شحادة. ووصل البطريرك وصحبه إلى محطة أذرع فركبوا الخيل وقاموا إلى القرية يتقدمهم مطران حوران والكهنة والجنود وجموع غفيرة من فرسان ومشاة. وسار البطريرك تَوًّا إلى دير القديس جاورجيوس وصَلَّى وبارك. وفي صباح الأحد أقام قداسًا حافلًا في الدير ودشن المائدة المقدسة التي جددت بعنايته وعناية القنصل والمطران. وخطب في الكنيسة فأشار إلى قدمها وكيف تقلَّبت بها الأيام «وأخنت عليها الليالي حتى أنقذها الإله بعناية القيصر الذي نظر إلى من أقصى الشمال بعين النسر.» ودعا للإمبراطور وللمحسنين، ثم استقدم إليه يوسف السبع، فشكر له سعيه بتجديد الدين وإعلاء شأن الدير وألبسه الوسام الذي منحه إياه الدولة اليونانية ومنحه لقب لوغوثيتي الكرسي الأنطاكي بصلاة وترتيب خاصين، وزار البطريرك قرية الدنيبة فشمسكين فغباغب ثم عاد إلى دمشق.^{٢٦}

إصلاح ومصالحة

ثم عاد البطريرك إلى الطواف فزار عرنة ومجدل شمس والقرى المجاورة، فأصلح بين الأحزاب وأعاد إلى حظيرة الكنيسة الذين تركوها لمناسبة تلك التحزبات، وتكاثرت عليه الوفود من مرجعيون وحاصبيا وراشيا فانتهل إلى مرجعيون، فتألف وفد من أبنائها وقصدوا مطرانهم السيد إيليا الذي كان قابلاً في زحلة فعادوا به إلى أبرشيته. وعرج البطريرك على ميمس فشاهد فيها من آثار الغيرة المسيحية ما أقر عينه وأثلج صدره، فأبناؤها النازحون إلى البرازيل كانوا قد ألفوا جمعية وشيدوا في ميمس كنيسة متينة جميلة وبنوا مدرسة كبيرة، ثم حدث ما ثنى الجمعية عن خطتها، فأشفق البطريرك أن تذهب هذه المكرمة بفواعل الإهمال، فتبرع بمبلغ من المال، وأنفذ إلى الجمعية في سان بولو كتاباً يحرك فيه غيرتها إلى الاستمرار على العمل المتلاحق برُّه المتواصل أجره.^{٢٧}

^{٢٦} «حفلة في أذرع»، «النعمة»، تموز ١٩١١، ص ١٦٢-١٦٩.

^{٢٧} «قرية ميمس»، «النعمة»، أيلول ١٩١١، ص ٣٣٥-٣٣٧.

راشيا (١٩١١)

وقام غريغوريوس من ميمس إلى الكفير فلم يجتز المسافة إلا في ساعتين ونصف، وهي لا ينبغي لها فوق النصف الساعة؛ وذلك لكثرة المستقبلين من المسيحيين والدروز. ثم بارح الكفير إلى قرى عين عطا وشبعة وعين حرشة، وفي أثناء هذا الطواف أنشأ عدة مدارس وساعد الجمعيات الخيرية وبث شعور النهضة في قلوب أبنائه الطائعين.

وعصاري الإثنين في السابع من تشرين الثاني قدم إلى راشيا، فكان في طليعة الملاقين قائم مقام القضاء وشرزمة من الجند فالرؤساء الروحيون بملابسهم الكهنوتية وأعلام الكنيسة. ولما بلغ ظاهر البلدة ورأى علم الصليب المقدس ترجل عن جواده وسار بين الجمع حتى بلغ كنيسة السيدة حيث أدى الفروض الدينية ثم شكر المولى وبارك، وزار دار الحكومة والمدارس الروسية وحض التلامذة على الاجتهاد ونشط المعلمين على الخدمة.

البطريك في زحلة

وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني غادر البطريك قرية عين عرب ووجهته زحلة، وكان ينتظره عند جسر دير زيتون موكب حافل من الزحليين، فترجل وارتاح ثم ركب عربة معدة له واستأنف السير يتبعه نحو أربعين عربة ويتقدمه جمهور غفير من الفرسان والشبان يقومون على ظهور الجياد بألعاب تدهش الأنظار. وكان ينتظره في محطة سعد نايل قائم مقام زحلة وهيئة حكومة القضاء وجرمانوس مطران زحلة، فاستقبل الجميع بوجه وضاح ونظر بعين أب حنون يرى أبنائه بعد طول البعد. ثم جلس جرمانوس إلى جانبه وسار ياوران لبنانيان أمام عربته وثالث وراءها ومن اليمين واليسار فارسان قد أشهر كل منهما سيفه بيمناه. وجرت وراء موكب غبطته عربة القائم مقام فعربة زخريا متروبوليت حوران فبقية العربات. وعندما بلغت الجموع مدينة زحلة استبشرت وازدادت حماساً وهتافاً وغطى الحشد الطرقات والباحات والسطوح، ودخل البطريك كنيسة القديس نيقولاووس فصلى وبارك ودعا. ثم استقبل الوفود في دار المطرانية وفي طليعتهم القائم مقام وهيئة الحكومة والبلدية والمطران كيرلس مغبغب والمطران بولس مراد ونائب البطريك الماروني والقس مفيد عبد الكريم. وأولم

متروبوليت الأبرشية وليمه دعا إليها وجهاء القوم فاختمتها غبطته بكلمة عبّر بها عن موقف الطائفة من سائر الطوائف، فجاءت رائعة فتانة:

إنني أحب أبناء وطني من جميع المذاهب على السواء، ولا فرق بينهم عندي، ألسْتُ وإياهم أبناء أب واحد وأم واحدة؟! أولسنا جميعًا صنعة خالق واحد؟! أولسنا نسكن أرضًا واحدة، ونستنير بضوء شمس واحدة، ونستظل بسماء واحدة، وترف فوقنا راية واحدة هي راية الوطن العزيز؟! أولسنا نحن والمسلمون توحدنا جامعة الانتساب إلى أرض واحدة ووطن واحد؟! أولسنا معًا نعبد إلهاً واحداً غير متجزئ.

لقد انتعش قلبي حينما نشقت نسيم لبنان، وانشرح خاطري عندما رأيت اللبنانيين الذين أنا واحد منهم، وقد افتخرت بلبنانيّتي في تلغراف بعثت به إلى دولة المتصرف أشكره فيه على أوامره بشأني لسعادة القائمقام.^{٢٨}

بيروت

وأوفدت بيروت نخبة من وجهائها برئاسة متروبوليتها جراسيموس إلى زحلة لتحية البطريرك ودعوته لزيارة الثغر، فباركهم ورحب بهم. وكان هناك بانتظارهم أساقفة زحلة والمعلقة وحكام القضاة، فتبوّلت الخطب وشرب الجميع نخب الوفد البيروتي، وبارك البطريرك مودعيه في الحادي والعشرين من كانون الأول وركب القطار الخصوصي الذي أنفذه يوسف سرسق ليقبل غبطته إلى بيروت. وبارك البطريرك في جديتا والمريجات وبحمدون وعالمة وعاريا. وفي بعيدا أخذت سلام غبطته فرقة من الجند اللبناني واستقبله في محطتها كبار مأموري الحكومة، ولما بلغ القطار محطة الحدث استقبله تلامذة المدرسة الروسية بأناشيد رقيقة وأنغام فاتنة.

واحتشد في محطة بيروت جمهور من المرحبين لا يحصره العد جمعهم إليها علمهم بأقدار الرجال، ومشت عربات جمعيات الملة الأرثوذكسية فعربات السريان الكاثوليك، فالأرمن الكاثوليك فالموارنة فالروم الكاثوليك، فمجلس الملة الأرثوذكسية، فكوكبة من الفرسان فعربة نظمي بك قومندان الجندرمة في بيروت ومدير البوليس فعربة غبطة

^{٢٨} مجلة «النعمة»، تشرين الثاني ١٩١١، ص ٥١٤-٥١٨.

البطريك فعربات السادة المطارنة، وتلتها سلسلة من العربات بلغت نحو المائتين والخمسين.

وقصد البطريك الكنيسة الكاتدرائية فصلى وبارك ودعا. ورَّحَّب جراسيموس بغيظته ودعا للسلطان بالنصر وشكر المتصرف والوالي وقنصلي روسية واليونان، فرد البطريك بخطاب بليغ حكيم.

واحتفل البطريك بعيد الميلاد في الكاتدرائية، وفي اليوم التالي في كنيسة القديس نيقولاوس، فتقاطر المؤمنون من جميع أنحاء بيروت لحضور الصلاة، واستمر غبطته ساعة كاملة يوزع الخبز المقدس على الحضور. وردَّ البطريك الزيارة للوالي فأخذت سلامه ثلة من الجند، وزار المتصرف وقومندان الموقع وبطريك السريان الكاثوليك والقاصد الرسولي، وآسى المرضى العسكريين في المستشفى العسكري (قصر العدلية) وأهداهم خزانة نفيسة الصنع، وخصَّ الجامعة الأميركية (الكلية السورية الإنجيلية) بزيارة بعد ظهر الثلاثاء في ٦ كانون الثاني ١٩١٢. وما كاد موكبه الموقر يدخل في باب المنتدى الكبير حتى نهض الجميع إجلالاً واحتراماً وقابلوه بالتصفيق الحاد المتواصل. وبعد أن رَقِيَ وحاشيته المنبر وجلسوا على الكراسي رَحَّب الدكتور هوارد بلس الرئيس بالبطريك والمطارنة والآباء، ثم انتدب الأستاذ جبر ضومط أن ينوب عنه وعن العمدة بالإفصاح بما يقتضيه الواجب، فقال أستاذنا رحمة الله عليه مما قاله:

لقد أمرني حضرة الرئيس أن أقول: إن غبطتكم فوق كل نعوت التعظيم والتبجيل؛ لأن أقل ما يقال في مرتبتكم السامية إنكم في كنيسة الله الأنطاكية السامية أبو الآباء وراعي الرعاة، وملايين أبناء الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة يفتخرون أنهم من أبنائكم ويدعون الله كما تدعوه الآن أن يطيل لنا في أيامكم ويملي الوطن العثماني بكم، آمين ثم آمين.

وعلى أثر ذلك وقف الرئيس بلس وطلب إلى البطريك أن يخاطب الطلبة، فتبوأ البطريك الأنطاكي المنبر. وكم اعتز هذا المنبر بمن تبوأ من الخطباء والعلماء ورجال الفضل على اختلاف أجناسهم ومراتبهم، ولكنه في هذه المرة بلغ أَوْجَ اعتزازه بأن تبوأه أسقف المدينة التي دُعي فيها المؤمنون مسيحيين أولاً خليفة الرسولين بطرس وبولس ووريث الشهيد أغناطيوس المتوشح بالله وأفستاثيوس العظيم وملاطيوس الشريف.

وارتجل أسقف مدينة الله أنطاكية العظمى خطبة غزّاء كان لها أجمل وقع في النفوس. وكان كاتب هذه الأسطر الحقيّر بين المؤمنين أحد طلاب كلية الآداب في الجامعة، فأُسعده الحظ بسماع ما فاه به هذا الأب الأقدس:

قصدت زيارتكم في هذا المعهد العلمي العظيم، وكنت أشاهد في طريقي ما كتبه أحد رجال الفضل على جدران الشوارع: «إلى العلم إلى العلم»، فقلت: ما أجمل الذهاب إلى بيت العلم! وقفت الآن لأفرح معكم بهذا المعهد الذي تتجلى فيه مواهبكم، وفيه يظهر نكاؤكم الفطري، والعلم ينبوع، وكما أن ينبوع لا يميز بين الأيدي الممدودة إليه، بل يتدفق عليها جميعًا، هكذا العلم لا يميز بين طالبيه، بل يجري على كل طالب يمد إليه يدًا مفتوحة. والعلم نور والنور من بركات الخالق يشق على الجميع على السواء، ولكن لا يراه إلا الذي يفتح عينيه ويعودهما على استقبال النور.

بين الحدث وبعدها

وقصد البطريك مركز أبرشية جبيل والبترون فقام إلى قرية الحدث ودخل الكاتدرائية اللبنانية وصلى وبارك. وزار متصرف لبنان آنئذ يوسف باشا فحيته مفرزة من الجند وخفّ لاستقباله عند باب سراي بعبداء كبار الموظفين. وجالس الباشا، ثم دعا البطريك المتصرف إلى الغداء في قلاية الحدث، فاشترك في تناول الغداء مع المتصرف الأمير فايق شهاب ونسيب بك جنبلاط وحليم بك محاسبجي المتصرفية والأمير ألي ملحم بك خوري وسعد الله بك الحويك نائب رئاسة مجلس الإدارة، وجرّس بك صفا رئيس دائرة الجزا وسليم أفندي باز وكيل المدعي العام وإلياس أفندي الشويري وجرّس أفندي تامر عضوا الروم في مجلس الإدارة وغيرهم. وقال المتصرف: «إنني لأول مرة قابلت بها غبطتكم بدمشق شعرت بعاطفة مخصوصة نحوكم، ورأيت بنفسي شغفًا بمبادئكم. ثم إنني أشاهدكم الآن بمسقط رأسكم لبنان بين فريق من مواطنكم يقدرونكم معي حق قدركم فتمكّنت بي تلك العاطفة بما تجلّى من صفاتكم الطيبة. وبناء عليه فإنني أشرب على ذكركم متمنيًا لكم إقبالًا مستمرًا ولبنينكم سعادة كاملة بكم.»

وتناول غبطته الكأس وشرب نخب المتصرف وأطلق لقريحته العنان فاستهل بالبيت:

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن شحوا عليّ كرام

وأخذ يتدفق كالسيل واصفًا لبنان وأهله وصفًا بديعًا، وتطرق إلى وصف حكامه فخصّ دولة المتصرف بالذكر، مبيّنًا الثمرات التي جناها اللبانيون من عدله في عهده.

منشور المحبة (١٩١٢)

وأطلّ الصوم الكبير فأصدر البطريرك عن مركز مطرانية بيروت في الثالث من آذار سنة ١٩١٢ منشورًا رعائيًا يذكر بسر الفدا، ويحض على المحبة المسيحية ووجوب الصوم؛ استعدادًا للاشتراك في جسد الرب ودمه:

برحمة الله تعالى غريغوريوس بطريرك أنطاكية وسائر المشرق: بملء المحبة الأخوية نعتنق بالروح الإخوة الأحباء السادة مطارين كرسيينا الأنطاكي المقدس، ونهدي البركة الرسولية والأدعية القوادية إلى أبنائنا الأحباء مصف الإكليروس الموقر الجزيل البر والورع، والذوات الأفاضل والعلماء الأمثال والشيوخ المكرمين والتجار والصناع والفلاحين ولفيف الشعب الأرثوذكسي التابع لكرسيينا البطريركي الرسولي، المقيم في موطنه والمتغرب في الجهات الأخرى، سائلين للجميع حياة نقية سعيدة بمخافة الله ومزينة بعمل الصالحات واكتساح حلل الصحة والسلامة، فتفيض قلوبهم بالسرور وتنطق ألسنتهم بالحبور بألحان التسابيح والتمجيد، مبينين بجودة تصرفاتهم الدالة على خصوبة الثمر الروحي في حقول حياتهم المباركة انقيادهم بقوى النفوس والجسد إلى إتمام الوصية الصادرة من فم الرسول بولس الإلهي لهنائهم وكرامتهم: «اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحة لله رائحة مرضية». ١. ف ٥: ٢.

المحبة أيها الإخوة الأعزاء والأبناء المحبوبون هي الرباط الذي يربط السماء والأرض منذ البدء، فقد «خلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه نكرًا وأنثى، خلقهم وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسלטوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان

يدب على الأرض.» فما أعظم هذه المحبة التي جعلت الإنسان سيدًا للمبروءات المنظورة!

هذه المحبة العظيمة التي فاقت كل حد قد بدت بعدئذٍ بمظهر أعظم جدًّا كان لها مظهر الخلق رمزًا؛ وذلك أن الإنسان حينما سقط في هوة الخطيئة بالمعصية فاضت النعمة الفائقة كل عقل على قياس تلك الزلة الفائقة كل حد؛ لأنه «حيث كثرت الخطيئة هناك طفحت النعمة.» فجاء أولاً الوعد الإلهي أن نسل المرأة يسحق رأس الحية، ومفاد هذا الوعد الشريف أنه سيولد بالجسد ابن الله الوحيد الذي بمحبته للبشر على الأرض ظهر وبين الناس تصرف لكي يعيد الجبلية البشرية إلى طهارتها الأولى ويسقط عنها حكومة الموت. وقد تم هذا الوعد العظيم بولادة المخلص ربنا يسوع المسيح من العذراء الطاهرة مريم ابنة يواكيم المتحدر من سلالة داود، فهذه المحبة هي التي أوصانا الرسول بولس أن نتخذها لنا مسلكًا لا نحيد عنه بقوله: «اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحة لله رائحة مرضية.»

إن ما يوصينا الرسول به طي كلمة المحبة الوجيزة هو ما تضيق الصحف عن استيعابه لاحتوائه كل طهارة في قول وعمل ونية، فهو يستغرق في مضمونه كل تقوى وعفة ونزاهة وسيرة نقية، فنزرع بالبركات لنحصد بالبركات في هذا الدهر الخاص ونرث الملكوت السماوي الذي أعده لمختاريه. فماذا يا ترى نستطيع أن نخرجه من هذا الكنز المملوء بالنفائس التي لا غنى عنها وهو فوق ما يتسع الوقت لبيانه، إننا نكتفي بالقليل القريب التناول، ولا نقول الممتاز بثمنه؛ لأن محتويات هذا الكنز كلها لا تقدر.

المحبة التي وجه الرسول إليها مسلكنا هي التي ذكرها في رسائله مرارًا عديدة كقوله: «المحبة تبني»؛ أي إنها تنشر كلمة الخلاص في العالم وتزيد المؤمنين نموًّا في الصلاح، فإن التصرف بوداعة الحكمة الذي أمرنا نحن المسيحيين أن نجعله قاعدة لأعمالنا الزمنية يولينا كرامة في عيون شركائنا في الوطنية والتابعة واللسان والمصالح المعاشية، فيبنتي اعتبارنا على أساس راسخ ويزيدنا رسوخًا في إيماننا القويم، ونموًّا في العمل المرضي لله الذي به نحيا ونتحرك ونوجد.

وكقوله أيضًا: «المحبة تتأني وترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح، ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحدد، ولا تظن السوء، ولا

تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء. أي إن المحبة تستدعيننا إلى الروية فيما يعرض لنا من الأفكار والأقوال والأعمال فلا نسارع إلى أفكار السوء «فإن فكر الحماقة خطيئة، ولا إلى الأقوال الملوثة فإن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين؛ لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان»، ولا إلى أعمال السوء؛ لأنه تعالى «يجازي كل أحد نظير أعماله». فهذا هو التآني الذي توجبه علينا المحبة وتجعله موصولاً «بالكمال في كل فكر»، فتبرز أقوالنا خالية من كل شائبة كما أوصانا الرسول بطرس قائلاً: «إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله». وتقع أعمالنا على مقتضى الطهارة حسب تعليم الرسول بولس بقوله: «وكل ما علمتم بقول أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين الله والآب به». فبالسير على مقتضى ذلك كله تتوثق الثقة بينكم أنتم بعضاً لبعض وبينكم وبين الآخرين الذين تربطكم معهم الروابط العديدة، فلا يكون أثر للمباحكات الكلامية والمباحثات الغيبية التي يحصل عنها الحسد الذي هو نخر للعظام. وبانتفاء تلك الأسباب يرى كل واحد نفسه وضيقاً فيقول مع النبي داود: «أنا دودة ولست إنساناً عار للبشر ورذالة للشعب». فلا يتفاخر بأبائه أو بجاهه ولا يفتخ بغباه ولا بعمله، ولا يقبح رغبة في التميز والانفراد بالسؤدد أو بصفاء الحياة، ولا يطلب ما لنفسه، بل يعمل بحسب الوصية القائلة: «لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه، بل كل واحد إلى ما هو للآخرين أيضاً». وباتخاذ هذا المنهاج سبيلاً لحياته يقدم نفسه في كل شيء قدوة للأعمال الحسنة متتقياً من الفجور والشهوات العالمية، وعائشاً بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر. وهكذا يظهر التصاقه بالمحبة التي هي رباط الكمال وانصرافه بقوى نفسه وجسده إلى إتمام الوصية القائلة: «اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائجة مرضية».

إن البشرى بالنعمة تستوجب الفرح، وأما نيل النعمة التي آتت بها البشرى فيطفح بها الفرح كله. فأية بشرى أعظم من أن المسيح أحبنا حتى أخذ صورة عبد صائراً في شبه الناس! وإن وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت؛ موت الصليب. وأي نعمة تُنال أعظم من أنه «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية».

فاقتبل فادينا لأجلنا قرباناً وتمّت بصلبه تقدمة الذبيحة لله، فصعد إلى السماء وأجلس بشرتنا في الميا من العلوية؛ لأنه «بدون سفك دم لا تحصل مغفرة»، فكثرت لنا النعمة والسلام بمقتضى علم الله الآب السابق في تقديس الروح ورش دم يسوع المسيح، فلنفرح إذن أكمل فرح؛ لأن البشرى السارة بالخلص قد حصلت، وها نحن نعيد تذكّارها قائلين مع الرسول: «اسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح وبذل نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة مرضية!»

ونحن نعلم أن السيد المسيح أعطى القربان للمؤمنين حياة جديدة للنفس والجسد قائلاً: «هذا هو الخبز الذي نزل من السماء، من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد.» فمن هذا يتضح أن من لم يتقدم إلى تناول جسد الرب الإله ودمه الثمينين فلا يأخذ القربان، ولا تكون له حياة في ذاته.

وقد حرم نفسه بنفسه من الاشتراك بالذبيحة لله التي هي رائحة مرضية، فليس هو بالحقيقة معيذاً، ولا منضمّاً بالروح إلى بنيان الكنيسة، وهذا ما لا نريده لأحد منكم، لذلك نوصي من تأخر إلى هذه الساعة التي هي الحادية عشرة أن يسارع إلى اغتنام النعمة الفائقة كل حد بعظمة محبة الله المبذولة لكل من يؤمن لترتفع عنه الديونة الرهيبة، فليتقدم إلى الاشتراك بالقربان الحقيقي؛ لأنه هو ذا وقت مقبول وأوان خلاص. وحينئذ يكون استقبال الفصح حقيقياً حينئذ يكون الهتاف حياً بالترنيمة الإلهية: «المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت وهب الحياة للذين في القبور.» حينئذ يكون هذا الهتاف بالفرح العظيم صاعداً من أعماق الضمائر دلالة على اذخار النفوس الغبطة الصادقة، ويكون «ذبيحة تسبيح أي ثمر شفاه معترفة باسمه» تعالى، فيعطي للمتدربين بحسبها ثمر بر للسلام مع الجميع في القداسة التي بدونها لن يرى أحد الله.

أعاد الله عليكم هذا العيد السعيد والفصح المقدس المجيد أعواماً كثيرة العدد وافرة الرغد بأثواب الصحة والعافية وحلل الكرامة الضافية، وأنتم تحت راية الدولة العلية الأبدية القرار في حرز حريز من الخطوب والأضرار والأكدار، وألسنتكم كقلوبكم تدعو لها بدوام التأييد والسلطة والاقترار وخفوق الأعلام في أعالي ذروات المجد والانتصار، وبأن تطول حياة جلالة المتبوع الأعظم والخابان الأفخم السلطان ابن السلطان؛ السلطان محمد رشاد خان والأمجاد تخدم أعلامه الخافقة والسعادات تفيض على ممالكه

الواسعة، وسيرتكم الرضية الهنية مثال لحسن الطاعة والإخلاص في التبعية. أخوكم بالمسيح والداعي لبنوتكم بطريك أنطاكية وسائر المشرق غريغوريوس في ٣ آذار سنة ١٩١٢ في بيروت.

طرابلس

وفي الثالث عشر من آذار سنة ١٩١٢ أعلن غريغوريوس عزمه على مبارحة بيروت إلى طرابلس، فتقاطر المدعوون وفيهم والي بيروت ومتصرف لبنان والرؤساء الروحيون ورجال الحكومة والوجوه والأعيان، وركب المركب الروسي البرنسييس أوجيني فرغ ربّانه العلم العثماني إكرامًا للبطريك، وأقلع المركب فوصل طرابلس صباح اليوم التالي، وخفّ لاستقباله على ظهر الباخرة متصرف طرابلس ومتروبوليتها ألكسندروس ومتروبوليت عكار باسيليوس ومطران الروم الكاثوليك يوسف الدوماني، وركب الجميع إلى البر. ولدى وصولهم إلى الشاطئ صفقت الجموع وهتفت بحياة البطريك، ثم ركب البطريك والمتصرف عربة واحدة، وسار الجميع في قطار من العربات حتى بلغوا باحة السراي، فاستقبله هناك الكهنة بالحلل الكهنوتية والصليب، فبارك الشعب وسار في طريق رفعت فيها أقواس النصر وزينت بالأزهار والأعلام العثمانية إلى أن بلغ الكاتدرائية، فصلّى وبارك ودعا، وألقى خطبته:

هو الأب الذي يتنقل بين أبنائه يودعه ابن ويستقبله آخر، وسعيد هذا الوطن بهذه الألفة وهذا الاتحاد، وسعيدة طرابلس بمتصرف أظهر أنه ليس حاكمًا ولا سيّدًا، بل ابنًا للوطن وأخًا محبًا وعضوًا من هذا اللواء يفرح لفرحه ويُسّرُ لسروه.

انضمام مطران السيران في حمص (١٩١٢)

وبينما كانت بيروت تفرح بأبي الآباء وراعي الرعاة ثالث عشر الرسل الأظهر كانت حمص تبتهج بقبول كيوريوس بطرس أسقف صدد ورعيته في حضان الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة. ففي الرابع من آذار سنة ١٩١٢ اجتمع الشعب الأرثوذكسي في حمص بأسره في كنيسة الأربعين الكاتدرائية، وبعد ترتيل باصابنوي تحول أثناسيوس متروبوليت حمص عن الكاتدرا إلى الباب الملوكي، فلبس البطرشيل والأمفوريون ومشى إلى باب الكنيسة

الغربي لقبول بطرس أسقف صدد على اليعاقبة مصحوبًا بكاهنين. فاتسم بطرس بالصليب المقدس وبات ينتظر دنو المتروبوليت، وكان مصف المرتلين يترنم بطروبارية الأربعين.

ولما انتهت الطروبارية سأل أثناسيوس بطرس قائلاً: هل تريد أن تتحد مع الكنيسة الأرثوذكسية رافضاً غير الصحيح من معتقدات المذهب اليعقوبي؟ فأجاب بطرس بَوَرَع: نعم إنني أريد ذلك. فباركه أثناسيوس قائلاً: باسم الآب والابن الروح القدس الإله الواحد، آمين. ثم وضع يده على رأس بطرس وقرأ الأفسشين التالي:

أيها الرب إله الحق انظر إلى عبدك الأسقف الآتي ليلتجئ إلى كنيستك المقدسة الأرثوذكسية ويكون محفوظاً تحت كنفها، رُدّه من تيهه الأول إلى الإيمان الحقيقي بك، امنحه نعمة ليسير في سبيل وصاياك، لتكن ألاحظك ناظرة إليه برحمتك على الدوام وأذنك منصتتين لسماع صوت تضرعه. وهكذا فليصر معدوداً من رعيتك المختارة؛ لأن كل قوات السموات تسبحك وتمجدك أيها الآب والابن والروح القدس إلى دهر الداهرين، آمين.

وكان الشماس في ذلك الحين يقدم طلبية «من الرب نطلب» ومصف المرنمين يؤمّن على طلباته قائلاً: يا رب ارحم! وبعد الأفسشين ونجاز الطلبة وجه أثناسيوس إلى بطرس الكلام التالي: أترفض تعليم أوطيخة وثيودوروس وديوسقورس وسائر المعتقدين اعتقادهم؟ فأجاب بطرس: نعم إنني أرفض ذلك. فسأل أثناسيوس: أترفض التعليم الفاسد الذي يقال فيه إن يسوع المسيح ربنا ليس فيه إلا طبيعة واحدة فقط؟ فأجاب بطرس: نعم إنني أرفض ذلك. فسأل أثناسيوس: هل تريد إذن أن تتحد بالكنيسة الشرقية المقدسة الأرثوذكسية الجامعة؟ وهل تتعهد أن تكون لها من أهل الطاعة؟ فأجاب بطرس: أريد وأتعهد بذلك من صميم قلبي. فسأل أثناسيوس: هل تؤمن بالإله الواحد المجد في ثالث؟ وكيف تؤمن؟ وهل تسجد له؟ فأجاب بطرس: «أؤمن بإله واحد مجد في ثالث الآب والابن والروح القدس وأسجد له.» ثم عمل مطانية ساجداً إلى الحضيض وقرأ دستور الإيمان هكذا:

دستور إيمان الأسقف بطرس: باسم الآب والابن والروح القدس، أنا الحقير بطرس برحمة الله أسقف صدد وتوابعها أرجو الكنيسة المقدسة الجامعة الأرثوذكسية محبة الله أن تقبلني في حظيرتها كأحد أولادها المؤمنين.

نحن (أي هو والشعب المنقاد لصوته) نقبل بتعليمها الجامع ونعد الكنيسة الأرثوذكسية بالطاعة القانونية، وأننا نترك نشوزنا السابق ونقصي كل هرطقة ولا سيما هرطقة أوطيخة؛ لأنه كان يعلم تعليمًا كاذبًا بقوله: «إن المسيح إلهنا له طبيعة واحدة.» وأما نحن فنؤمن ونعترف ونقر هكذا: إن ربنا المولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت والمولود في آخر الأزمان من البتول القديسة مريم بحسب الناسوت هو واحد بعينه بطبيعتين ووجه واحد وأقنوم واحد، مسيح واحد وابن واحد ورب واحد وإله وإنسان واحد، وأيضًا نقول:

إننا نؤمن ونعترف ونقر أنه مساوٍ للآب في الجوهر بحسب اللاهوت، وهو نفسه مساوٍ لنا في الجوهر بحسب الناسوت، وهو واحد من الثالوث الأقدس الإله الكلمة الذي اتخذ من البتول القديسة مريم طبيعة بشرية، أعني نفسًا ناطقة عاقلة وجسدًا وصفات بشرية وفعلًا بشريًا ومشية بشرية، ولما جعل متحدًا الإله الكلمة في أقنومه الطبيعة البشرية الكاملة مع الطبيعة الإلهية الكاملة صار إنسانًا ولم يزل إلهًا؛ إذ لم يبطل خواص الطبيعتين بالاتحاد ولم يضعف، بل كل واحدة من الطبيعتين حفظت خواصها؛ ولهذا فإن في المسيح يسوع ربنا طبيعتين صفتين فعلين ومشيتين مستقرتين فيه بغير امتزاج ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال؛ ولهذا فالأقوال عن المسيح ربنا المكتوبة في الإنجيل ورسائل الرسل لا يجعل اللاهوتيون بينها تمييزًا، فإن الكنيسة تعلن بحق أن المسيح هو الإله الكامل نفسه، والإنسان الكامل نفسه حافظًا خواص كل من الطبيعتين سالمة، ونحن نؤمن ونعترف أن إلهنا يسوع المسيح الكائن إلهًا بالطبع والصائر إنسانًا بحسب الطبيعة هو الابن الوحيد المثني في الطبيعة وليس بالأقنوم.

وأما عن السيدة مريم القديسة الدائمة البتولية فنحن نعترف أنها والدة الإله؛ لأنها ولدت بالحقيقة المسيح إلهنا.

ونقبل أيضًا بتلك المجامع المسكونية المقدسة التي لم تكن قبلاً مفروضة عندنا، وأسمائها هذه: المجمع الرابع الخلقيدوني المنعقد على عهد ماركيانوس الذي رفض تعليم أوطيخة ومن قال قوله بطبيعة واحدة في المسيح ربنا بعد

الاتحاد، المجمع الخامس وهو ذاته المجمع القسطنطيني الثاني المنعقد على عهد يوستنيانوس، والذي أفرز ثيودوروس وتعليمه، المجمع السادس وهو ذاته المجمع القسطنطيني الثالث المنعقد على عهد قسطنطين (الرابع) الذي علم أن في المسيح إلهنا طبيعتين وفعلين ومشيتتين، إلا أن هاتين المشيتتين غير مخالفة إحداهما الأخرى، بل إن مشيئته الناسوتية لم تكن تخالف مشيئته الإلهية، بل بالأحرى كانت متفقة معها وخاضعة لها، المجمع السابع وهو ذاته المجمع النيقاوي الثاني المنعقد على عهد قسطنطين وإيريني الذي علم باستقامة السجود للأيقونات؛ أي للصور المقدسة سجوداً إكرامياً، وأفرز أولئك الذين كانوا يجدفون على الكنيسة المقدسة بقولهم عنها إنها تسجد للأيقونات على مثال الوثنيين الذين يعبدون أصنامهم. ولكننا نحن أبناء الكنيسة نسجد لها لا سجود عبادة كما يجب على المخلوق أن يسجد لخالقه، بل سجود إكرام فقط كما نسجد لصليب المسيح وللإنجيل، ونقبل أيضاً قوانين المجمع السبعة المسكونية وقوانين المجمع المكانية ناظرين إليها نظرنا إلى مثال حسن الترتيب في كنائس الله المقدسة.

ونتعهد بأن نشترك فقط مع أولئك الذين تشترك معهم الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة، وكل الذين تعتبرهم خارجين عن الاشتراك نعتبرهم نحن أيضاً خارجين عن هذا الاشتراك. ونحن قد شرحنا في رسالتنا جلاً ما هو محرر هنا، أما الآن فأني أشهد بهذا بشفتي أيضاً أمام هذا المذبح المقدس وأمامكم، ونؤمن أن رئيس الرعاة العظيم ربنا يسوع المسيح يبارك عملنا هذا، له المجد مع الأب والروح القدس إلى دهر الداهرين، آمين.

وبعد تلاوة هذا الصك دفعه بطرس ممضياً بخط يده إلى أثناسيوس ليُحفظ في الأوراق الكنائسية إلى ما شاء الله. فأخذ أثناسيوس الصك وقال: «تبارك الله الذي ينير كل إنسان وارد إلى العالم!» ثم وجه الأسئلة التالية إلى بطرس: هل تعتبر كل المجمع المسكونية السبعة؟ وهل تقبل بالعقائد والقوانين التي حددتها هذه المجمع؟ فأجاب بطرس: نعم أعتبرها وأعتقد بها. فسأل أثناسيوس: هل تعد أنك تكرم الأيقونات المقدسة المقبولة في الكنيسة الأرثوذكسية بحسب اعتقاد هذه الكنيسة معيذاً الإكرام المقدم لها إلى الصورة الأصلية المرسومة فيها؟ فأجاب بطرس: إنني أعد أن أكرمها كما توصي بذلك الكنيسة الأرثوذكسية. فسأل أثناسيوس: هل تقبل بالقوانين الرسولية وسائر القوانين

التي تحددت في الجامع السبعة المسكونية والتسعة المكانية وباقي التقاليد والترتيبات التي في الكنيسة الأرثوذكسية؟ فأجاب بطرس: نعم إنني أقبل بها. حينئذ أعطى المتروبوليت أثناسيوس الأسقف بطرس طرف الأمفوريون وقال له بصوت مهيب: ادخل إلى الكنيسة الأرثوذكسية وارفض كل ما ترفضه، وأكرم الآب الضابط الكل وابنه يسوع المسيح والروح القدس ثالوثاً متساوياً في الجوهر وغير منقسم. ثم سارا معاً إلى الباب الملوكي وصوت المرتلين مرتفع بالمزمور السادس والستين: «ليترأف الله علينا!» ولما بلغا الباب الملوكي وقفا إزاء طاولة عليها الإنجيل المقدس والصليب الكريم، فجثا الأسقف أمام الطاولة وقبل الإنجيل والصليب وحنى ركبتيه وتلا: ترسل روحك فيخلقون وتجدد وجه الأرض، خلّص يا رب عبدك المتكل عليك، كن له يا رب عمود قوة تجاه العدو، يا رب استمع صلاتي وليأت إليك صراخي. ثم قال الشماس: «من الرب نطلب»، ومصف المرتلين: «يا رب ارحم!» وكان بطرس قد اعترف عند كاهن قانوني فقرأ أثناسيوس هذه الصلاة:

أيها السيد الإله الضابط الكل الواضع للخطاة طرائق التوبة الهادي الضالين إلى الصراط المستقيم كي لا يهلك أحد منهم، بل ليكون للجميع أن يقبلوا للخلاص، نشكرك لأنك أثرت عبدك الأسقف بطرس بنور معرفة حقك وجعلته أهلاً للالتجاء إلى كنيستك المقدسة الأرثوذكسية الجامعة، فأعطه أن يتحد بها بإخلاص وثابت عزم، أحصه مع رعيته المختارة، اجعله إناءً طاهرًا ومسكنًا لروح القدس حتى إذا كان مستنيرًا به ومسترشدًا يحفظ بدون زيغ وصاياك الخلاصية، ويكون هكذا مستحقًا لقبول خيراتك السماوية؛ لأنك أنت إله الرحمة والرأفة والمحبة للبشر والمريد لكل الناس أن يخلصوا، ولك نرسل المجد أيها الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين.

ثم قال أثناسيوس: قف حسنًا قف بخوف وأيد أمام إنجيل المخلص وصليبه الكريم الميثاق المعطى منك. فنهض بطرس وقال: إنني أتعهد متكلًا على الله بالمحافظة الثابتة على الإيمان الجامع المستقيم الرأي الذي أعتقد به الآن برضاي كاملاً وبدون زيغ حتى آخر نسمة من حياتي، وبإتمام وصاياه برغبة وفرح، وأن أصون قلبي ما استطعت من كل دنس، وتأبيدًا لتعهدي هذا هو ذا أقبل أقوال مخلصي وصليبه. ثم قبل الإنجيل والصليب. فقال أثناسيوس: تبارك الله الذي يريد الناس كلهم أن يخلصوا وإلى معرفة

الحق يقبلوا، هو مبارك إلى الدهور. فجاوب مصف المرتلين: آمين. ثم خطب بطرس قائلاً: احن ركبتك أمام الرب الإله الذي اعترفت به وستأخذ مغفرة خطاياك، فحنى بطرس ركبتيه ورأسه، وقرأ أثناسيوس عليه ما يأتي:

الرب يسوع المسيح إلهنا الذي سلم الرسل مفاتيح ملكوت السماوات وأعطاهم لهم ولخلفائهم بعدهم سلطان ربط الخطايا للناس وحلها، فليغفر لك أيها الأخ الأسقف بطرس بواسطتي أنا رئيس الكهنة الغير المستحق وليحك من عقال اليمين ومن كل خطاياك، وأنا بالسلطة المعطاة لي منه تعالى أجعلك متحدًا بالكنيسة الأرثوذكسية وأتي بك إلى مناولة الأسرار الإلهية الكنائسية، وأباركك باسم الآب والابن والروح القدس، آمين.

ثم بدأ المرتلون «بتون ذيسبوتين» وأخذ السيدان معاً كيرونًا ودخلا إلى الهيكل، فرش أثناسيوس بطرس بالماء المقدس من الصينية المتضمنة ذخائر الأربعين أصحاب المقام، وبعدئذ تصافحا ولبسا حلل رئاسة الكهنوت وخدموا الأسرار الإلهية معاً، وكان بطرس يعاون أثناسيوس في بعض الإعلانات. وبعد الاستحالة أشهر الأسقف اعترافه برئاسة البطريرك غريغوريوس الرابع.

وبعد المناولة هنا أثناسيوس بطرس بخطاب ملؤه الحب والتنشيط، فأجاب بطرس بخطاب طويل أهم ما جاء فيه قوله إن أسباب التباعد بين الكنائس الشرقية لم تكن إيمانية، وإن الوقت حان لاتحاد هذه الفرق تحت لواء الأرثوذكسية، وإنه ما فتئ منذ أن لمس التقوى الحقيقية في نفوس الحجاج الروس يفكر في العودة إلى أحضان الكنيسة الأم، وإن هذا الميل ظل ينمو فيه حتى أسعده الحظ بمعرفة أثناسيوس الذي أضاف إلى استقامة الرأي العمل الصالح.^{٢٩}

روفائيل مطران حلب (١٩١٢)

وشجر كرسي حلب بعد استقالة استفانوس كما سبق وأشرنا، فرشح الحلبيون الأرشمندريت أنطونيوس مبيض من حمص والأرشمندريت باسيلIOS صيداوي من

^{٢٩} مجلة «النعمة»، آذار ١٩١٢، ص ٨٥١-٨٥٩.

دمشق والقس روفائيل نمر من زحلة، وقدموا بذلك مضبطة إلى البطريرك، فكتب راعي الرعاة في السابع عشر من تموز سنة ١٩١٢ إلى المطارنة أن ينتخبوا أحد الثلاثة ليسميه مطراناً، وأمهلهم في ذلك خمسة عشر يوماً.

وفي السابع والعشرين من أيلول اجتمع في نادي البطريرك في دير سيدة البلمند، وكان غبطته لا يزال مقيماً في هذا الدير مديراً شئون مدرسته الإكليريكية أرسانيوس متروبوليت اللاذقية وألكسندروس متروبوليت طرابلس. وانحدر الحبران بأمر غبطته إلى كنيسة السيدة، ونزل الشماس صفرونيوس (بشارة) حاملاً السجل البطريركي، وبعد الصلاة وضع الحبران بطاقات الانتخاب على المائدة المقدسة ثم نقلها إلى طاولة في منتصف الخورص، وفتحت البطاقات المختومة فأحرز روفائيل ثمانية أصوات، فسطر ذلك في السجل ووقع السيدان المشرفان، وأطلع البطريرك فأعلن انتخاب روفائيل. وفي السادس من تشرين الأول صار الانتداب الأسقفي وتم بحسب الرسوم المتبعة في كنيسة السيدة الكبرى في دير البلمند بواسطة السيدين أرسانيوس اللاذقية وجرمانوس سلفكياس، وتسجل اعتراف المنتخب في السجل البطريركي تحت إمضائه بحضور سيادتهما وشهادتهما عليه، وتمت سيامة روفائيل يوم الأحد في السابع من تشرين الأول برئاسة البطريرك واشترك السادة أرسانيوس اللاذقية وألكسندروس طرابلس وجرمانوس سلفكياس وحضور ممثلي أبرشية حلب.^{٣٠}

الدستور وامتيازات النصارى

وعلى أثر إعلان الدستور العثماني أثارت صحافة الأستانة وغيرها قضية امتيازات النصارى موجبة إلغاءها عملاً بمبدأ المساواة بين جميع العثمانيين، فهب النواب المسيحيون يسعون للمحافظة على هذه الامتيازات مؤكدين أن الانقلاب السياسي لا يستدعي إلغاءها، وأن مصلحة المملكة تقضي بالمحافظة عليها. وأهم ما جاء في جرائد الأستانة في هذا الموضوع ما نشرته جريدة النيوغولوس اليونانية بقلم صاحبها ورئيس تحريرها ستافروس فوتيراس شيخ الصحفيين في العاصمة، وكان غطاس قندلفت مدير

^{٣٠} مجلة «النعمة» تشرين الأول ١٩١٢، ص ٤١٦-٤١٨، طلب البراكسيس البطريركي في هذا الموضوع في «النعمة» أيضاً ١٩١٢، ص ٥٩٦-٦٠٢.

مدرسة البلمند ينقل هذه المقالات إلى العربية وينشرها في جريدة الحوادث الطرابلسية، فلما تمت نَشَرُها على حدة بعنوان: «امتيازات الجماعات المسيحية في المملكة العثمانية»، فجاءت سَفَرًا ممتعًا فيه الخبر الشافي عن هذه الامتيازات وكيفية نشوئها، وسدَّت فراغًا في الخزانة المسيحية العربية.

رد على الماديين

ونقل الشماس فوطيوس الخوري في هذه الآونة نفسها من اليونانية إلى العربية كتاب بطرس أرمني في الرد على الدهريين فأسماه: «شموس الحقائق في إثبات الروح والخالق»، «وأثبت فيه بالعلوم العقلية والطبيعية أن في الإنسان روحًا أو نفسًا ناطقة تدبر الجسد وتستنبط العلوم، وأن للعالم صانعًا أزليًا ضابط الكل وواضع الشرائع الطبيعية وإله الأرواح والأجسام ومدير البرايا ومعتن بكل أفرادها وأجزائها». وكان الدافع لنقل هذا الكتاب إلى العربية إرشاد من ضل السبيل بمغالطة المتفلسفين وتَحَرُّصِ المارقين عن ظلمات الريب إلى صبح اليقين.^{٣١}

الأدلة الغراء

وكان ضاهر خير الله الشويري اللبناني يستظهر على أصدقائه البروتستانتين الشويريين، وبعضهم من أساتذة جامعة بيروت الأميركية فيستعين بدليل العقل والنقل ليرد على آرائهم في العقيدة المسيحية، فأخرج في السنة ١٩١٢ كتابه «الأدلة الغراء على سمو شأن مريم العذراء»، فنَبَهَ إلى ما وقع في ترجمة الكتاب المقدس البروتستانتية من التحريف في مواضع متعددة، وطارده موسهيم وأظهر تحامله، ودافع عن الطقوس مظهرًا «تلاعب الدكتور هرافي بورتر في الروايات»، واستشهد بأقوال السيد نفسه ليدحض زعم البروتستانت أن السيد له المجد يستاء من إكرام القديسين، ورد على الدعوى بأن الخلاص إنما هو بالإيمان فقط دون الأعمال، وأجاد في الكلام عن التقليد، وأنه كان معروفًا في الكنيسة منذ نشأتها، وأنه ضروري لتفسير النصوص الإلهية.

^{٣١} طبع في طرابلس في المطبعة الوطنية لصاحبها لطف الله خلاط سنة ١٩١٢.

البطريك والسلطان (١٩١٣)

ورغب آل رومانوف في الاحتفال بمرور ثلاثمائة عام على اعتلائهم عرش روسية، فكتبوا إلى البطريك يستقدمونه إلى روسية ليرأس الحفلات الدينية لهذه المناسبة، فلبى الدعوة وأصدر في الثامن من شباط سنة ١٩١٣ منشورًا بطريركيًا أفاد به أن واجبات التبعية للدولة العلية أهابت به ليبادر إلى المثول أمام الذات الشاهانية ليظهر شفاهًا تعلقه وتعلق المطارنة والشعب بأهداب الطاعة، وأنه كان وكانوا وما زالوا جميعًا منتمين إلى الدولة العثمانية بملء الافتخار لا تزيدهم الأيام إلا أمانة في الانقياد وإخلاصًا في المعاملات وغيره في الشدائد، وأنه حظي في الخامس من شباط ١٩١٣ بالمأذونية العالية مجيزة له إتمام هذه الأمنية، وأنه عزم أن يبرح مقره البطريكى في السادس من شباط قاصدًا بيروت ومنها إلى دار السعادة.^{٣٢}

ولما كانت مهام البطريكية عديدة ومتنوعة عهد بها بطرس بطريكى إلى أرسانيوس متروبوليت اللاذقية بالوكالة عنه في مدة غيابه، وحدد البطريك هذه المهام في هذا الطرس نفسه، فجاءت هكذا:

أولاً: تشتمل على جميع المراجعات بين البطريكية والحكومية بالشئون الخصوصية التي للبطريكية كانتخاب أعضاء مجلس الإدارة وأحوال التجنيد والنظر في الاعتداءات على الأوقاف. أما ما هو من خصائص القوميسيون الزمني فمعاملاته تتم من هيئته القانونية التي يتولى نيابة الرئاسة فيها ولدنا كير ميخائيل شحادة الجزيل بره بروتوسينجلوس كرسيينا البطريكى المقدس في غيابكم ويحضر الجلسة التي تترأسونها. والشئون المستعجلة التي يخبركم بها القوميسيون للبحث بشأنها مع الحكومة تجرونها باتفاق الرأي مع تلك الهيئة الموقرة وما تلزم مطالعتنا فيه ترفعونه إليه، والمحكمة الروحية مستقلة في معاملاتها ونائب رئاستها ولدنا أول الكهنة فيليمون بشارة الجزيل الورع. وما يعرض من شئونها لسيادتكم تحولونه إليها، وأحكامها القانونية تجاز من طرف سيادتكم. وما يلزم إطلاعنا عليه ترفعونه إلينا أيضًا.

^{٣٢} مجلة «النعمة»، ١٩١٣، ص ٦٧٣-٦٧٦.

ثانيًا: تنظرون في أمر الزيجات وترجعون فيما يلتبس أمره إلى الحكمة الروحية لمسئولية أعضائها أبنائنا كهنة الشعب بشأنها.

ثالثًا: الشئون التي ترجع بها الأبرشيات المنضوية إلى كرسينا المقدس إلى منصتنا الرسولية تشملها وكالتكم أيضًا، وما كان منها محتمل التأجيل تراجعونا بشأنه، وما كان الإسراع به واجبًا تتصرفون به بملء الحكمة وترفعون إلينا عن كل شيء بيانًا بما توقع لنكون على بصيرة بالشئون ونكتب إليكم بما نستحسنه.

هذا ما نكلف أخوتكم أن تعتمدوه في شئون الوكالة عنا بمدة غيابنا نكتب لكم عنه رسميًا. وقد ولجنا سيادة الأخ المطران زخريا مطران حوران الجليل بوكالة المدرسة الإكليريكية البلمندية العامرة وبالسيطرة على الأديرة البطريركية الشريفة يتفقدوها وينظر في شئونها وحساباتها ويخبرنا بشأنها رأسًا، وسيادة الأخ المطران استفانوس الجليل يبقى له اسم النائب ويساعدكم في الشغل الذي ترونه. وكذلك لديكم ولدنا البروتوسينجيلوس كير ميخائيل شحادة للنيابة عنكم في ترؤس جلسات القوميسيون في غيابكم ووجوده معكم في الجلسات بحضوركم، ولل اعتماد عليه في أشغال القرى الراجع أمرها لمقرنا البطريركي.

وولدنا الشماس كير فكتور أبو عسلي الجزيل بره يعتمد وكيلاً للخروج ولأشغال مصلحة الجند ونحوها من المراجعات في باب الحكومة السنوية وللخدمة في الكنيسة شماسًا، وولدنا الشماس أندراوس معيقل الجزيل بره للخدمة في المطبعة البطريركية، وليكون مرتلاً في الكنيسة الكاتدرائية، وولدنا وكاتم سرنا أمين أفندي ظاهر خير الله لإدارة وإنشاء مجلة البطريركية الرسمية مجلة النعمة ولحسابها وكل شئونها.

فكونوا كما نعهد بكم في الحكمة والتقوى والروية والهمة والنشاط والاستقامة مثالاً للشركاء في الخدمة وقدوة للرعية، والمولى — سبحانه وتعالى — يأخذ بيدكم ويأجركم بأجمل مكافأة ويرينا وجهكم بخير وعافية، ونعمته الغزيرة فلتكن معنا وفيما بيننا، أخوكم في المسيح بطريرك أنطاكية وسائر المشرق غريغوريوس.^{٣٣}

وفي فجر السبت تاسع شهر شباط سنة ١٩١٣ قام البطريرك والحاشية البطريركية إلى بيروت ومنها إلى ظهر الباخرة توفيقية، فشيعه الرجال الرسميون والوجهاء

^{٣٣} مجلة «المنار»، ١٩١٣، ص ٦٧٧-٦٧٩.

والإكليروس، وانضم إليه في بيروت ألكسندروس متروبوليت طرابلس ورست السفينة في مياه إزمير فأقبلت من البر سفينة صغيرة تقل وفدًا حكوميًّا رسميًا ووفدًا مليًّا أرثوذكسيًّا، فدعا الوفدان البطريرك لزيارة إزمير، فلبى الدعوة وزار الوالي ثم كنيسة إزمير الكاتدرائية، فاستقبله عند مدخل الكنيسة خريسوستوموس متروبوليت إزمير وكهنته وشعبه، فدخل الكنيسة وصلى وبارك ثم عاد إلى الباخرة.

ثم رست التوفيقية في مرفأ الآستانة فرحب به باسم الحكومة طلعت بك مأمور التشريفات ومهمندار^{٣٤} البطريرك الأنطاكي، وحقي بك مميز قلم نظارة العدلية وكمال بك قزح وكيل البطريرك الأنطاكي في «دار السعادة» ووفد سفارة روسية ووكيل البطريرك الأورشليمي، فسارت العربات إلى بيرا بالاس حيث حلَّ البطريرك ضيفًا على الحكومة السنية، وبعد الاستراحة سار البطريرك إلى وزارة العدلية والمذاهب فالصدارة العظمى حيث قابل الصدر الأعظم محمود شوكت باشا، وسار من هناك إلى دار البطريركية المسكونية فلقى المطارنة والإكليروس بالحل الحبراوية وساروا أمامه إلى الكنيسة الكاتدرائية، فعانق فيها قداسة بطريرك المسكونة جرمانوس الخامس وصلى وبارك وعاد إلى بيرا بالاس. وفي السادس عشر من شباط حظي البطريرك بمقابلة السلطان محمد رشاد وبمعيته ألكسندروس متروبوليت طرابلس والحاجة سوسان شقيقة غبطته وكمال بك قزح الوكيل البطريركي، «ففاضت الإحسانات الشاهانية من القريحة السلطانية» بالسام العثماني المرصع للبطريرك وبالمجيدي الثاني لمتروبوليت طرابلس، وبوسام الشفقة الثاني للحاجة سوسان وبالعثماني الثالث لوكيل البطريرك.^{٣٥}

البطريرك الأنطاكي في جرائد روسية

ونشرت جرائد روسية خبر قدوم البطريرك الأنطاكي ونقلت برنامج استقباله، وذكرت سيرته الحسنة وورعه وتقواه وفصاحته وجهاده وصموده في وجه التيارات الكاثوليكية والبروتستانتية والماسونية، وأكّدت وجوب استقباله في مقر المجمع الروسي المقدس في بطرسبرج بقرع الأجراس والصليب والهيئات الإكليريكية بحلها وبرئاسة أسقف.^{٣٦}

^{٣٤} المرافق في أثناء الزيارة.

^{٣٥} «الوسام المرصع العثماني»، لكمال قزح، «النعمة»، ١٩١٣، ص ٧١٩-٧٢١.

^{٣٦} نقلًا عن ترجمة ما جاء في العدد ١٣٢٧١ من جريدة نوفويه فريميا الصادر في ٢٠ شباط سنة ١٩١٣.

البطريك في روسية (١٩١٣)

وجاء في رسالة للبطريك غريغوريوس وجَّهها إلى البروتوسينجيلوس ميخائيل شحادة في الثالث والعشرين من شباط سنة ١٩١٣ أنه وصل إلى مدينة بطرسبرج «على أجنحة الحب التي لا تتعب»، وأنه لاقاه جمع غفير من عِلية القوم في طليعتهم متروبوليت بطرسبرج ووكيل القيصر في المجمع المقدس، وأنه بعد صلاة الشكر في كنيسة دير إسكندر نفسكي توجَّه إلى كنيسة قبور القياصرة فقبل الصليب من يده القيصر ووالدته، وأنه بدأ بالتبريك واشترك معه متروبوليت العاصمة و متروبوليت الصرب و متروبوليت كيف. وأضاف البطريك أنه سمع القداس الإلهي في اليوم التالي في كنيسة سيدة كازان الفخيمة، وأنه خرج بعد الظهر لإقامة الدعاء لابسًا حلة رئاسة الكهنوت والتاج والعكاز تقدمه القيصر، فاستقبله القيصر والقيصرتان وولي العهد، فافتتح الصلاة وقرأ الإنجيل باللغة العربية.

ثم قابل البطريك القيصر والقيصريين وولي العهد في القصر الشتوي، «فنطق بمسامح جلالته كلمات لندورة العيد»، وقدم الأيقونة المحفوظة من الجيل الخامس لتكون البركة للبيت القيصري، فقبلها القيصر وأجاب شاكرًا، ثم خدم القداس الإلهي في الكاتدرائية وتناول طعام العشاء في القصر الإمبراطوري، «فنال من الفرح ما يرجوه الأرثوذكسي» وربط فؤاده باللفظ سفير الدولة العثمانية دولتو طرخان باشا.^{٣٧}

نكرم بأقنومك سلطان الكنيسة الأعلى

وخاطب أنطونيوس رئيس أساقفة فولين البطريك الأنطاكي باسم كنيسة روسية فقال: لقد مضى زمن ينيف عن مائتي سنة منذ فقدت كنيستنا راعيها الأعلى، ونحو ٢٥٠ سنة منذ انقطع حماة الأرثوذكسية المسكونية عن زيارتنا، وها نحن الآن ننظر إليك بتخشع وسرور فنرى فيك بهجات الكنيسة المسيحية بأجملها؛ لأنك بأقنومك الرسولي تتأس أعلى قممها. إننا نكرم بأقنومك سلطان الكنيسة الأعلى بجذل روحي ممتاز، وإن يكن كرسيك خاليًا من غناه السابق ومن المجد الخارجي فإنه مملوء من ذلك المجد الذي لا يبلى؛ مجد لهجك بكلمة الخلاص وجهادك عن إيماننا الإلهي بقلب طاهر وعزيمة ماضية وتعرف

^{٣٧} مجلة «النعمة»، ١٩١٣، ص ٨٠٣-٨٠٤.

حكيم. ونحن لا نكرم رئاسة الكهنوت لاتحادها بالغنى والأبهة، وإنما نكرمها لجهادها بإنكار الذات؛ ولهذا نستجلي في شخصك لمعان بطرس رئيس كنيسة أنطاكية الأول، ولمعان القديس الشهير أغناطيوس حامل الإله ومعلمي المسكونة ملاطيوس وأفستاثيوس وغيرهم من منتخبي الله الكثيري العدد الذين زينوا الكنيسة بصفاتهم المتسامية، والشعب الروسي الذي يحترم الجهاد الرسولي الذي تسلسل منذ عهد التلاميذ الأولين إلى الآن في كاتدرائيتك المقدسة يرى فيك حامل هذا المجد الكنائسي؛ مجد اتفاق الأرض مع السماء اتفاق الكنيسة مع المسيح. وهو يرفع صوته إلى الله بالتسابيح؛ لأنه أصبح أهلاً أن يشاهد أقنومك الكلي الطوبى. ثم ركع أنطونيوس جاثياً وقال: «وها هو ساجد أمام قدميك يرحب بك وهو جاثٍ ابتهاجاً بدخولك إلى دير العاصمة الشمالية المقدس». ^{٣٨}

مقابلة القيصر

وقابل القيصر ضيفه البطريرك مقابلة الفسالة البيزنطيين لبطاركة القسطنطينية، فلبس البطريرك المنذية والقيصر بزته الرسمية، ولدى دخول البطريرك نزل القيصر عن عرشه وانحنى أمامه فباركه البطريرك وقبّله في كتفه. وأما القيصر فقَبَّلَ رأس البطريرك أولاً ثم يده اليمنى، وبقي الاثنان واقفين. وبعد أن هنا القيصر البطريرك بسلامة الوصول وسمع جوابه أجلسه على مقعد إلى جانب العرش، ثم صعد إلى عرشه وقال: «سمعت منذ زمان عن عزمك على المجيء إليّ وتمنيت كثيراً أن أراك، وإني لعارف برك وتقواك؛ فأرجو منك أن تتوسل إلى الله العلي وتصلي لأجلي». فقال البطريرك: «إنني رجل خاطئ يا مولاي، ولكن فليعطك الرب مثل قلبك وحسب إيمانك ويتم كل آمالك ويؤيد عرشك إلى الأبد». فلما سمع القيصر هذا الجواب المتضمن كلام داود في مزاميره سرّ وتخشّع ونزل عن عرشه وقبّل يمين البطريرك مرة ثانية.

اليوبيل

واحتفل في السادس من آذار سنة ١٩١٣ باليوبيل الملكي في كاتدرائية سيدة قازان، فارتدى البطريرك الحلة الأسقفية الذهبية التي أهداها إليه القيصر، وجلس البطريرك

^{٣٨} «النعمة»، ٨٨٨-٨٨٩.

على منصة وإلى يمينه القيصر وأسرته، وإلى يساره جمهور الإكليروس، فبدأ بصلاة الدعاء باليونانية، ولكنه قرأ الإنجيل بالعربية.

الكنيسة الروسية والمنحازة

وانتهز البطريرك فرصة وجوده في روسية لإزالة سوء التفاهم بين الفرقة الروسية المسماة المنحازة وبين الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، ولا سيما وأن الاختلاف بينهما كان في الترتيبات لا في العقائد، فالبركة مثلًا تُعطى عند الكنيسة المنحازة بأصبعين فقط إشارة إلى أن المسيح إله كامل وإنسان كامل.

ألكسي أسقف تخيفين

وكان المجمع الروسي المقدس قد أقر ترقية الأرشمندريت ألكسي إلى رتبة الأسقفية فطلب إلى البطريرك الأنطاكي أن يتولى السيامة، ففعل وسام ألكسي أسقفًا على تخيفين. وفي السنة ١٩١٧ انهار في روسية عالم قديم ليحل مكانه عهد جديد، وكان الأسقف ألكسي قد أصبح أسقفًا على أمبورغ، فجعل مساعدًا للقائم مقام البطريركي في موسكو المتروبوليت سرجيوس ثم وكيل مطرانية نوفوغورود ثم متروبوليتًا على لينينغراد في السنة ١٩٣٣، فخدمها اثني عشر عامًا بنشاط رعائي نادر. وحين حاصر النازيون لينينغراد في أثناء الحرب العالمية الثانية حلت بها المصائب والنكبات، فكان السيد ألكسي أبًا رحوماً وبطلاً صنديداً مجازفاً بحياته في سبيل الشعب، وتوفي البطريرك سرجيوس في السنة ١٩٤٥، فانتخب المجمع الروسي المقدس السيد ألكسي متروبوليت لنينغراد خلفاً له.

ولا يزال هذا الخبر الجليل الذي يرعى ملايين المؤمنين في روسية ويقودهم في طريق الخلاص يحن إلى كنيسة أنطاكية ويعتبر نفسه أخواً لأساقفتها. وكنيسة أنطاكية تغبط بدورها شقيقتها الكبرى كنيسة موسكو على ما يتحلى به حبرها العظيم من حرارة في الإيمان واستقامة في الرأي وسعة في الاطلاع وحكمة في الإدارة. وقد طفحت مدة رئاسته بالجهود الإدارية المثمرة والأخوة الحقة والمسامحي الصادقة في سبيل السلام العالمي، أمد الله بعمره سنداً للكنيسة في روسية وفي سائر أنحاء المسكونة.

الأوسمة

ومنح القيصر الإمبراطور نقولا الثاني البطريك الأنطاكي النوط الذهبي المضروب لتذكّار اليوبيل. وأهداه أيضًا وسام القديس إسكندر نيفسكي من الرتبة الأولى، وهو من أعظم الأوسمة الروسية، وقدم له صليباً مرصعاً بالألماس لكي يعلق على مقدمة اللاطية فوق الجبين. ومنح ألكسندروس متروبوليت طرابلس نوط اليوبيل الفضي ووسام القديسة حنة من الرتبة الأولى، وشمل عطفه سائر أفراد الحاشية البطريركية وغيرهم من وجهاء الطائفة في دمشق.^{٣٩}

العودة

وودع البطريك صاحبي الجلالة القيصر نقولا الثاني والقيصرة ألكسندرة في السادس عشر من نيسان وبرح بطرسبرج إلى دير اللافرا، فأعجب بنشاط رهبانه ثم زار أنطونيوس في جيتومر وانتقل منها إلى بيسكوف وتساووروس منتهيًا إلى نوفوغورود وبقي ألكسندروس متروبوليت طرابلس في بطرسبرج لشئون خصوصية.

دير مار إلياس الشوير

ولدى عودة البطريك إلى كرسيه استقدم بضعة عشر راهباً روسياً ووكّل إليهم إدارة دير مار إلياس الشوير البطريركي، فأعجب نصارى المنطقة بورع هؤلاء الرهبان وزهدهم ووداعتهم ومحبتهم المسيحية الطاهرة ونشاطهم، ولكنهم عادوا فتركوا لبنان في السنة ١٩١٥ بسبب الحرب العالمية الأولى.

غريغوريوس والحرب (١٩١٤-١٩١٨)

وقُتل ولي عهد النمسة وقرينته في سراجيفوا في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩١٤، وبعد شهر أعلنت النمسة الحرب على صربية فجرت وراءها حرباً عالمية. وما طلع هلال تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى أعلنت تركيا انضمامها إلى الدول المركزية.

^{٣٩} مجلة «النعمة»، ١٩١٣، ص ٨٩٠-٨٩١.

وطغى العنصر التركي في عاصمة الدولة العثمانية، واستأثر الثلاثة الكبار بالسلطة ومضوا يسعون بما لديهم من وسائل لصهر العناصر غير التركية ببوتقة تركية جديدة، فطاردوا طلاب اللامركزية من أبناء العرب، ولم يروا في المسيحيين مادة سهلة الاندماج فذبّحو الأرمن وجوعوا اللبنانيين. وطالت الحرب وقلّت المواد الغذائية في ألمانيا والنمسة فحصر الأتراك هذه المواد في كل مكان، ولا سيما في سهول سورية وصدروها إلى أوروبا الوسطى. وجاء الجراد في ربيع السنة ١٩١٥ فأكل الأخضر واليابس، فقلت المواد الغذائية في سورية ولبنان وارتفعت أسعارها، وأصدر جمال باشا أمراً مشدداً بوجوب إبعاد المؤن والغلال والحاصلات والعربات والحيوانات وسائر مسببات النقل من الساحل إلى الداخلية خشية نزول العدو في الشواطئ، فأصبح الساحل بلا قوت! وطبع الثلاثة الكبار الملايين من «الورق التركي» وسعّروا ليرتهم الورقية بمائة وثمانية غروش وأكرهوا الناس على قبولها، فابتدأت المضاربة بالورق، وسقط سعره فارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، وتفشّت الأمراض في صفوف العساكر وأشدها هولاً حمى التيفوس وانتشرت بين الأهليين. ثم جاء الجدري والهواء الأصفر فماتت العساكر بالعشرات وتركت جثثها في الأعراس والوديان، وهجر اللبنانيون تلالهم إلى البقاع والداخلية بالألوف فماتوا فيها.

وقرع اللبنانيون باب البطريركية في دمشق فرقت لهم كبد البطريرك ولان لهم فؤاده وحنّت عليهم أضلاعه، وكان رجب الصدر بسيط الكف سخي النفس يخفّ للمعروف ويهتز للعطاء، فتسخّى وتنّدّى وابتذل ماله بالإنفاق، ولم يفرق في عطائه بين مسلم أو درزي أو نصراني، فنقد ماله فاستدان، وما فتئ يأخذ ديناً ويُفِيح عطاءً حتى بلغ ما اقترضه من المال لهذه الغاية النبيلة عشرين ألف ذهبية أو أكثر!

ولم يرَ جمال باشا وأعوانه أكرم من غريغوريوس أخلاقاً ولا أنبل فطرة ولا أطيّب عنصراً ولا أخلص جوهراً، فاحترموه وسهلوا أموره، وبادلهم الإخلاص والاحترام، ولكنه لم يبذل لهم قياده، ولم يكن لهم مطواعاً لا يخالف لهم أمراً ولا نهياً. فإنه لما طغى حسن حسني رئيس شعبة أخذ العسكر في بيروت وتجبرّ وقاومه في ذلك جراسيموس متروبوليتها، وطلب الوالي عزمي بك عزل جراسيموس؛ أبى البطريرك وامتنع ونبذ الأمر وراء ظهره!

فصل الأول (١٩٢٠)

وقُضي الأمر في طول كرم في التاسع عشر من أيلول سنة ١٩١٨، فأخلى الأتراك والألمان فلسطين الشمالية واعتزموا الدفاع عن دمشق وما يليها في جبهة تمتد من سمخ حتى شاطئ طبرية الجنوبية الشرقي فالحولة، ثم فوجئوا باحتلال سمخ في الرابع والعشرين من أيلول فأجلوا عن طبرية وعقدوا النية على الصمود وراء خط دفاعي يمتد من عين صوفر حتى الزبداني، ماراً بقب إلیاس وشتورا وتعنایل وعنجر، وفوضوا مصطفى كامل باشا بذلك. ولكن طائرات الإنكليز حلّقت فوق رياق في التاسع والعشرين من أيلول سنة ١٩١٨، فأمطرت قنابلها على مستودعات الذخائر فلم تُبقِ منها ولم تذر. وتباطأ الإنكليز في احتلال دمشق وما يليها من الشمال ليفسحوا المجال لفيصل وركبه. ودخلت دمشق في حوزتهم في الثاني من تشرين الأول، فأوعزوا بالإبراق إلى بلدية بيروت لرفع «علم الشريف» فوق السرايا، مؤمّلين بذلك كله مجابهة الإفرنسيين بالأمر الواقع أو محاولين الخروج من مأزق كانوا قد نسجوا خيوطه بأيديهم عندما تصنعوا للعرب في المودة وتملقوا الإفرنسيين قاطعين وعوداً للطرفين متعارضة متعاكسة أو غامضة تحتل أكثر من تفسير واحد.

وقامت حكومة إفرنسية في الساحل وحكومة عربية في الداخل، وذهب الخلاف بينهما كل مذهب، وتعارضت أهواء السكان وتشعبت آراؤهم، ولا سيما وأن ولسن كان قد أعلن حق الشعوب في تقرير مصيرها ونبذ الاستعمار وطرقه وأساليبه، واستبدل سياسة الغرب الاستعمار بالانتداب وقالوا بحق تقرير المصير، واقتراح ولسن إرسال لجنة تقف على رغائب السوريين واللبنانيين، فجاءت لجنة كنغ-كراين الأميركية في صيف السنة ١٩١٩ وجابت البلاد طويلاً وعرضاً، فأجمع السوريون على الاستقلال ولم يرضوا عن انتداب فرنسة، وجهر البطريرك بتأييد السوريين فيما ذهبوا إليه ووافقه في ذلك معظم أبناء طائفته، فدخل في عراك مع الإفرنسيين دام طويلاً! ثم دعا فيصل الوجهاء والأعيان إلى مؤتمر في دمشق في ربيع السنة ١٩٢٠، فنادوا باستقلال سورية بحدودها الطبيعية وبإيعاها فيصلاً ملكاً عليها، فكان البطريرك في طليعة المبايعين. ثم جاءت معركة ميسلون في الثاني والعشرين من تمّوز سنة ١٩٢٠ واضطر فيصل أن يبرح دمشق، فلم يعبأ البطريرك بما انطوى عليه نصر ميسلون، وكان كريم العهد ثابت العقد فحفظ لفيصل عهده وأبرّ بيمينه فخرج لوداعه في أخرج الأوقات، ولعله انفرد بهذا الوداع فتميز به.

المجمع المقدس وأميريكة (١٩٢١-١٩٢٣)

وكان ما كان من أمر الثورة في روسية، فرأى المجمع الأنطاكي المقدس أن يقيم في الأمريكيتين الشمالية والجنوبية رئيسين روحيين يرعيان نفوس المهاجرين الأرثوذكسيين في تلك الأصقاع النائية، فانتخب في أول تشرين الأول من سنة ١٩٢١ ميخائيل شحادة أسقفًا على ريو دي جنيرو وسائر البرازيل، وانتخب في السابع من كانون الأول سنة ١٩٢٣ فيكتور يعقوب مطرانًا على أبرشية نيويورك.

ثيودوسيوس متروبوليت صيدا وصور (١٩٢٣)

وسافر إيليا (ديب) متروبوليت صور وصيدا إلى أميريكة الجنوبية في السنة ١٩١١ واستقر في تشيلي، فاجتمع المجمع الأنطاكي المقدس في دير مار إلياس الشوير وعالج شغور الكرسي في صور وصيدا، ونظر في أمر المرشحين الثلاثة: الأرشمندريت ثيودوسيوس أبو رجيلي والأرشمندريت بنيامين حداد والأرشمندريت يوسف أبي طبر، فانتخب الأرشمندريت ثيودوسيوس (أبو رجيلي) مطرانًا على هذه الأبرشية، وصارت سيامته من يد البطريرك غريغوريوس في كنيسة الدير المذكور في الثلاثين من كانون الأول سنة ١٩٢٣.

أبصر ثيودوسيوس النور في مدينة بيروت في السنة ١٨٨٩ من والدَيْن كريمين تقيين: سليم أبو رجيلي ولبيبة بدران، وتلقى علومه الابتدائية في مدرستي الثلاثة الأقمار والفرير. وحين بلغ سن اليافع شعر بميل شديد إلى الحياة الرهبانية، فانتقل إلى دمشق وعاش في الدار البطريركية في كنف المثلث الرحمات البطريرك ملاتيوس الثاني وتابع دروسه في الآسية، وأنس البطريرك من تلميذه ميلاً إلى الزهد والترهب فأرسله إلى مدرسة دير البلمند، «فكان فيها رصيناً هادئاً وقوراً لا يمشی بسرعة، ولا يتكلم بصوت مرتفع، ولا يشارك الطلبة في اللعب، ولا يتسلّى بالمزاح، وكان على نحول جسمه وشحوب وجهه ينام على فراش من القش بعد أن أزاح بيده فراشه القطني الناعم، فنال احترام الطلبة والأساتذة».^{٤٠}

^{٤٠} كيربوس ألكسندروس، متروبوليت حمص، جريدة «حمص»، ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥٨.

وأنهى دروسه في السنة ١٩٥٠ فسامه غريغوريوس الرابع شماسًا إنجيليًا. وفي السنة ١٩٠٨ أرسله البطريرك إلى ديار بكر لمساعدة متروبوليتها سلفستروس (درعوني)، فسافر إليها بدون تذمر على الرغم من بعدها وشظف العيش فيها. وبعد وفاة راعيها بقي وكيلاً عليها حتى انتخاب ملاتيوس (قطيني) سنة ١٩١٢ خلفاً لسلفستروس. وعاد إلى دمشق يجيد التركية التي أتقنها وهو في ديار بكر، فأرسله البطريرك غريغوريوس إلى مدرسة الجنس في القسطنطينية، فنال شهادتها ثم انتقل إلى كلية خالكي اللاهوتية، ففضى في هذه أربع سنوات أجاد في أثنائها اليونانية والعلوم اللاهوتية. وفي السنة ١٩١٥ سيم قسًا فأرشمندريتًا، ثم عاد إلى دمشق واضعًا مواهبه النادرة ومقدرته في اللغات العربية واليونانية والتركية وإلمامه بالإنكليزية والسريانية تحت تصرف البطريرك غريغوريوس بصفة كاتم سر خصوصي لغبطته وممثلًا لدى السلطات.

ورعى السيد ثيودوسيوس أبرشية صور وصيدا بأمانة وظهر وإخلاص خمسًا وعشرين سنة. وفي السنة ١٩٤٨ خضع لقرار المجمع المقدس الذي اتُخذ بالإجماع وقَبِل بعد رجاء وإلحاح شديدين نقله إلى أبرشية طرابلس، فكان فيها مثالًا للراعي الصالح الأمين المنقطع إلى عبادة ربه وخدمة الرعية.

وفي السابع عشر من حزيران سنة ١٩٥٨ انتقل المثلث الرحمات السعيد الذكر البطريرك ألكسندروس الثالث إلى دار البقاء فخلا مكانه، فانتخب صاحب الترجمة قائمقامًا بطريركيًا. وفي الرابع عشر من تشرين الثاني من السنة نفسها انتخب بالإجماع خليفة للرولين بطرس وبولس وبطيريكًا على أنطاكية باسم ثيودوسيوس السادس أمدًا الله بعمره ونفعنا بعلمه ونزاهته وترفعه وبركة دعائه.

نيفون متروبوليت بعلبك وزحلة (١٩٢٥)

وانتقى البطريرك والمجمع المقدس خلفًا لجرمانوس متروبوليت سلفكياس الأرشمندريت نيفون (سابا وكيل مطرانية حماة) وذلك في التاسع من آذار سنة ١٩٢٥. وسيم نيفون مطرانًا على يد البطريرك ويدي باسيلبيوس متروبوليت عكار وروفاثيل متروبوليت حلب. ودخل السيد نيفون زحلة مركز أبرشيته يوم سيامته في الثالث والعشرين من شهر آذار. وهو ابن الإكسرخوس حنا سابا وحنة زماريا، أبصر النور في السويدية (سلفكية أنطاكية) في ١٧ آذار سنة ١٨٩٠، ونذره والده لخدمة الكنيسة فارتدى الثوب الإكليريكي الابتدائي من أرسانيوس متروبوليت اللاذقية في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٩٠٥، ثم التحق

بمدرسة البلمند الإكليريكية وتخرج على أساتذتها غطاس قندلفت والأرشمندريتين إلياس أسطفان وغفرائيل كردوس. وفي السنة ١٩٠٩ سيم شماسًا إنجيليًا في اللاذقية، وأصبح في السنة ١٩١٤ أرشدياكون هذه الأبرشية. ونفى الأتراك أهله مع بعض سكان السويدية، وأمر هو أن يكون بعيدًا عن البحر عشرين كيلومترًا، فكان بمعية باسيلوس متروبوليت عكار في حلبا. ثم جاء الإنكليز في السنة ١٩١٨ فأبعدوه إلى حلب مع قسطنطين يني والخوري عيسى أسعد وعمر الأتاسي. ثم عاد فعينه البطريك وكيلاً لمطرانية حماة بسبب شيخوخة مطرانها، وترك في هذه الأبرشية مآثر قيّمة يذكرها الحمويون مع الشكر وخصوصًا زمن ثورة جبل العلويين ومهاجرة اليونان من الأناضول.

أغناطيوس متروبوليت حماة (١٩٢٥)

وفي السادس والعشرين من شباط سنة ١٩٢٥ انتقل إلى الأخدار السماوية غريغوريوس (جبارة) متروبوليت حماة، فانتدب البطريك غريغوريوس الرابع الأرشمندريت أغناطيوس (حريكة) وكيلاً بطريركيًا للأبرشية المترمة. ولم يمض بضعة أشهر على تولي هذه المهمة حتى أجمعت كلمة أبناء الأبرشية على اختيار الوكيل البطريركي مطراناً عليهم، فتم انتخابه في السادس من تموز من السنة نفسها، وجرت سيامته مطراناً على حماة في الثالث عشر من الشهر نفسه.

وُلد صاحب الترجمة في ٦ آب سنة ١٨٩٤ من أبويه عبد الله حنا حريكة وزوجته فوتين إبراهيم جريج في قرية بترومين الكورة لبنان الشمالي، وتناول علومه الابتدائية في القرية أولاً ثم في المدرسة الروسية في أسكلة طرابلس بعهد مديرها خريستوفوروس عاقل. وفي سنة ١٩٠٦ أدخله المثلث الرحمات البطريك غريغوريوس إلى مدرسة البلمند. وفي سنة ١٩٠٩ حينما عادت العلاقات ودّيّة بين البطريركية المسكونية بعهد البطريك يواكيم الثالث وبين البطريركية الأنطاكية كان صاحب الترجمة بين التلاميذ الثلاثة الذين أرسلهم البطريك غريغوريوس إلى مدرسة خالكي اللاهوتية في الآستانة. وفي صيف سنة ١٩١٤ سيم شماسًا إنجيليًا في دير سيدة البلمند وعاد إلى مدرسته، وبينما هو في البحر أعلنت الحرب العالمية الأولى وأغلقت مضائق الدردنيل، فحاول مع رفاقه أن يصلوا إلى إسطنبول بواسطة دده أغاج المينا البلغاري ثم بواسطة إزمير فلم يفلحوا، وهكذا بقي نحو ثلاثة أشهر يتجول بين أثينا وسلانيك وجبل أثوس انتظارًا لنهاية الحرب ولما تبين له أنها ستطول عاد إلى لبنان وبقي بضعة أشهر في دير البلمند إلى أن دعاه سنة ١٩١٥

مطران حلب رفائيل ليتولى مديرية المدارس المليية هناك وليكون نائباً أسقفياً، فلبى بأمر غبطة البطريك وظل في حلب حتى نهاية سنة ١٩١٧. وفي سنة ١٩١٨ انتقلت البطريكية الأورشليمية بأمر القائد التركي جمال باشا من القدس إلى دمشق لاقتراب جيوش الحلفاء إليها فدعا البطريك غريغوريوس صاحب الترجمة، وكان قد رقي إلى رتبة أرشمندريت، ليكون مضيفاً ومرافقاً للبطريك الأورشليمي داميانوس وأعضاء مجمعه. وفي أواخر تلك السنة انتدبه البطريك غريغوريوس ليكون مفتشاً على دير مار جرجس الحميراء بعهد رئيسه الأرشمندريت أيضاً عبود، واستطاع أثناء مهمته هذه أن أنقذ أملاك الدير وكانت قد حجزتها الحكومة التركية بحجة أنها أملاك محلولة.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عين رئيساً لدير سيدة البلمند، فأعاد المدرسة التي كانت قد تعطلت أثناء الحرب، وبقي في هذه المهمة ثلاث سنوات إلى أن عينه البطريك غريغوريوس وكيلاً بطريكياً لأبرشية كيليكيا (مرسين) سنة ١٩٢١، فلم يسعه الذهاب إليها بسبب الحوادث بين الترك والإفرنسيين، وبقي في الإسكندرونة مع صديقه الأرشمندريت حنانيا كساب وأسسها هناك أول مطبعة وأول جريدة باسم الخليج في هذا اللواء. وفي سنة ١٩٢٤ دعاه البطريك غريغوريوس إلى دمشق وولاه الوكالة البطريكية.

أبيفانيوس متروبوليت حمص (١٩٢٥)

وشعر أيضاً كرسي حمص بوفاة السعيد الذكر أثناسيوس (عطا الله)، فانتخب المجمع الأنطاكي المقدسة في الثامن والعشرين من آب سنة ١٩٢٥ أبيفانيوس (زائد) متروبوليتاً على حمص وتوابعها، وتأخرت شرطونيته بسبب ثورة جبل الدروز إلى صباح الخميس في أول كانون الثاني سنة ١٩٢٦ فتمت في كاتدرائية دمشق برئاسة البطريك غريغوريوس. هو خليل بن موسى يوسف الزائد ووردة الخوري سليمان من دير عطية سوريا. وُلد فيها في ٤ آب سنة ١٨٩٠، تلقى دروسه الأولى في المدرسة الروسية. وفي صيف سنة ١٩٠٤ بينما هو مع والده في الكنيسة المريمية في دمشق لفت إليه نظر المثلث الرحمة البطريك ملاتئوس، فقال له: ألا تذهب يا بني إلى المدرسة الإكليريكية في دير البلمند فتتعلم وتصير مطراناً! فلبى الدعوة. وبعد شهر وجّه غبطته إلى الدير المذكور فتلقى دروسه اللاهوتية هناك وكان من الناجحين الأولين. وفي سنة ١٩٠٩ وجهه المثلث الرحمة البطريك غريغوريوس إلى موسكو. وبعد سنة ونصف أحرز شهادة التصوير

الكنسي في دير القديس سرجيوس قرب موسكو وعاد إلى سوريا فسيم شماسًا إنجيليًا في ٢٤ أيلول سنة ١٩١١. وعاد إلى موسكو ليعمل في الأمطوش الأنطاكي هناك ويدرس الفنون الجميلة في أكاديمية موسكو. وفي سنة ١٩١٤ عاد إلى سوريا ثم تعذر عليه الرجوع إلى موسكو لإحراز شهادته بسبب نشوب الحرب الكبرى. وفي سنة ١٩١٨ رُقاه البطريك غريغوريوس إلى رتبة رئيس شمامسة وتعين مدرسًا للأدب العربية في المدرسة التجهيزية الأرثوذكسية في دمشق ومديرًا لمدارس الطائفة في الميدان، وكان وقتئذ يعمل في صفوف الوطنيين والأدباء ويحرر مع نخبة منهم «مجلة الرابطة الأدبية»، وفي أثناء ذلك انتخبه المجمع العلمي العربي في دمشق عضوًا في لجنته الفنية.

إيليا أسقف معاون لمتروبوليت بيروت (١٩٢٦)

وأصبحت بيروت بعد دخول الإفرنسيين إلى سورية ولبنان مركز سلطة الانتداب، فاكتظت بالسكان وتنوعت مهام متروبوليتها الطيب الذكر جراسيموس (مسرة)، وكان قد تقدم في السن وانتابه المرض، فرأى من الواجب أن يرقى نائبه الأرشمندريت إيليا (الصليبي) إلى رتبة الأسقفية. وتفوق الأرشمندريت إيليا بصوت رخم وترتيل وقور وباستمساك شديد بالتقاليد الأرثوذكسية والمحافظة عليها، وبالدراسة والحكمة في تدبير الأمور وبشخصية بارزة توجب الاحترام، فوافق المجمع الأنطاكي المقدس على اقتراح راعي أبرشية بيروت وسيم إيليا أسقفًا معاونًا لراعي أبرشية بيروت في الخامس من نيسان سنة ١٩٢٦.^{٤١}

ولد إيليا من أبوين تقيين أرثوذكسين في سوق الغرب في أول حزيران حسابًا شرقيًا في السنة ١٨٨١، والتحق في السنة ١٨٩٣ بمدرسة بيروت الإكليريكية، فرعاه راعيها غفرائيل برعايته وألبسه الأسكيم في السنة ١٨٩٤. ثم سامه جراسيموس شماسًا إنجيليًا في السنة ١٩٠٧. وفي السنة ١٩٠٩ أصبح أرشدياكونًا لكروسي بيروت، وسافر في السنة ١٩١٣ إلى إسطنبول بمعية رئيسه جراسيموس فقابل معه السلطان محمد رشاد ونال جراسيموس العثماني الأول وإيليا المجيدي الثالث، فكان ذلك بدء سلسلة من الاعترافات بخدمات سيادته من الحكومات المحلية والأجنبية وشُحَّت صدره فضاق لها على اتساعه ورحابته.

^{٤١} مجلة «النور»، ١٩٦٠.

وفي الخامس من نيسان السنة ١٩٢٦ سيم أسقفًا معاونًا لمتروبوليت بيروت كما سبق وأشرنا. وبعد وفاة البطريرك غريغوريوس في أواخر السنة ١٩٢٨ رقي في الخامس عشر من آذار سنة ١٩٢٩ إلى رتبة أساقفة. وفي التاسع والعشرين من أيلول سنة ١٩٣٦ انتُخب متروبوليتًا لأبرشية بيروت وخلفًا لمعلمه جراسيموس وتمت سيامته في دمشق على يد الطبيب الذكر البطريرك ألكسندروس.

غريغوريوس والانتداب الفرنسي (١٩٢٠-١٩٢٨)

وحمل الإفرنسيون انتدابين إلى سورية ولبنان انتدابًا دوليًا باسم عصبة الأمم الجالسة في جنيف، وانتدابًا كاثوليكيًا تاريخيًا باسم فرنسة ابنة الكنيسة البكر، فسفراء فرنسة وقناصلها كانوا طوال العصور الحديثة حماة الإكليريكيين الكاثوليكين الأجانب المقيمين في الأراضي العثمانية أو المتجولين في أرجائها، وذلك بنصوص رسمية متبادلة بين حكومات فرنسة والفاتيكان وبالامتيازات الخصوصية التي اعترفت بها الحكومة العثمانية لممثلي فرنسة في ولاياتها الآسيوية والأفريقية. ويلاحظ هنا أن حماية الإكليريكيين الكاثوليكين الأجانب المقيمين في ولاية الدولة العثمانية الأوروبية كانت منوطة بممثلي إمبراطور النمسة والمجر، وأعاد الفاتيكان النظر في العهود السابقة بينه وبين حكومات فرنسة على ضوء الظروف السياسية الجديدة التي نشأت عن تقلص ظل الأتراك وإعلان الانتداب وإلغاء الامتيازات الأجنبية، فوقع في الرابع من كانون الأول سنة ١٩٢٦ معاهدة جديدة (كونورداتوم) مع الحكومة الإفرنسية، جد بموجبها إكرام الجمهورية الإفرنسية وممثليها في قداديس رسمية معينة تقام في كنائس كاثوليكية معينة في الأراضي الآسيوية التي انسلخت عن جسم الدولة العثمانية.^{٤٢}

وبدا من غريغوريوس في عهد فيصل ما أنكرته عليه سلطات الانتداب، فاستوحشت من ناحيته وخيل إليها منه الغدر، فأظلم الجو بين الطرفين وتباعدا. وركب الآباء اليوسعيون الأمر وكلهم يقظة وشدة، فاستغلوا ظرف الانتداب ودفعوا بمن انتمنوا من حملة شهاداتهم إلى أهم المراكز وأدقها، وحذا حذوهم العازاريون والإخوة الإفرنسيون، فكثر عدد الموظفين المسيحيين الغربيين في دوائر الانتداب والحكومات المحلية وقلّ عدد

^{٤٢} Oriente Moderno, VII, 61-63.

الأرثوذكسيين، واستتب الأمر للإفرنسيين في البلاد. وعلى الرغم من هذا كله البطريرك فان أبرق يؤيد انتدابهم، ولكنهم ظلوا يرون فيه رجلاً بغيضاً. ولم يجمع البطريرك «ذو الخلال» بين محاسن التصديق وحكمة التدبير (المالي) فتراكم الدّين وضاق طوق وجهاء الطائفة في دمشق، وجرأت السلطات الإفرنسية بعض العناصر على البطريرك فشغبوا وشاغبوا، فابتعد البطريرك عن الشر والفتنة وقام إلى لبنان وأقام فيه، ثم أظلم بصره فاضطر أن يبقى في لبنان للمعالجة.

وفاته

وبينما كان يوشك أن يختم المجمع السادس الأخير في سوق الغرب أعمال استأثرت بالبطريرك رحمة الله وهو يقوم بواجباته الرئيسية دون تضجر أو ملل، وعلى الرغم من انحراف صحته وضعف بصره. ويروى أنه قال وهو يُحتَضَر: «لقد صبرت حتى النهاية!» وكانت وفاته في الثاني عشر من كانون الأول سنة ١٩٢٨، فنقل جثمانه الطاهر بموكب نادر المثال إلى بيروت حيث عرض للتبرك، ثم نُقل إلى دمشق ودفن في مدافن البطارقة أمام الكاتدرائية المريمية.

الفصل العاشر

النظم والقوانين

لجنة السنة ١٨٩٠

وكان ما كان من أمر الخط الهمايوني الذي دخل في صلب معاهدة باريس سنة ١٨٥٦، وقد سبقت الإشارة إليه فلتراجع في محلها. ثم وضع قوميسیون الروم نظاماً خاصاً لبطيركية القسطنطينية، واعترفت الحكومة العثمانية به وأدخلته في دستور قوانينها،^١ وطبقت مبادئه العامة على سائر البطريركيات والكنائس المستقلة القائمة ضمن حدودها. واستعفى جراسيموس البطريرك وحلَّ محله اسبريدون، فرغب أعضاء المجمع الأنطاكي المقدس والشعب عموماً في وضع نظام للكرسي يمنع المداخلات غير القانونية في انتخاب البطريرك ويرتّب شئونه على طريقة موافقة للقوانين الكنسية الشريفة ولتقتضيات العصر، وتقرر وضع هذا النظام في المجمع المنعقد سنة ١٨٩٠ لمناسبة انتخاب اسبريدون، وتعينت لذلك لجنة من المطارنة. وأخذت هذه اللجنة تتداول بشأنه، ولكن الظروف لم تساعد على إخراجها فظلت كنيسة أنطاكية خاضعة لأسس النظام القسطنطيني.

لجنة السنة ١٨٩٨

وفي أوائل شباط سنة ١٨٩٨ رفع الشعب الأنطاكي عريضتين إحداهما إلى المجمع الأنطاكي المقدس والأخرى إلى الباب العالي التمس بموجبها أن يؤذن للكرسي الأنطاكي بوضع نظام على غرار النظام القسطنطيني، فاستجاب الباب العالي هذا الطلب وأمر

^١ «الدستور»، لنوفل نوفل، ج٢، ص٨١٣-٨٤٨.

والي سورية أن يساعد على إتمامه. وفي الرابع عشر من آذار سنة ١٨٩٨ أعلن الوالي موافقة الباب العالي، فقرر المجمع الأنطاكي في السادس عشر من الشهر نفسه أن يصير الاهتمام بوضع النظام المرغوب، وانتدب لذلك لجنة مؤلفة من أربعة مطارنة برئاسة البطريرك ملاتيوس واشترك بعض أصحاب الخبرة من الشعب، وكان المطارنة المنتدبون لهذا العمل أثناسيوس حمص وغيغوريوس حماة وغيغوريوس طرابلس وجراسيموس سلفكياس، وكان في طليعة الأعضاء العلمانيين غطاس قندلفت. واجتمعت هذه اللجنة في جلسات متتالية وأنجزت عملها في السنة ١٩٠١، وصدّق المجمع الأنطاكي المقدس هذا القانون دون أن يعرضه على الحكومة.

وبعد وفاة ملاتيوس اجتمع المجلس التشريعي برئاسة أثناسيوس متروبوليت حمص وعدّل هذا القانون؛ فحذف من مادته الأخيرة العبارة التي توجب عرض القانون على الحكومة للحصول على موافقتها، وعليه جرى انتخاب غريغوريوس في ٥ حزيران سنة ١٩٠٦.

قانون السنة ١٩٠٦

وجاء هذا القانون في فصول عشرة وفي أربع وستين مادة. وهاك نصه بالضبط:

الفصل الأول:

المادة الأولى: مركز البطريركية الأرثوذكسية الأنطاكية الرسمي مدينة دمشق، وهو محل إقامة البطريرك، وأسقف أو اثنين فخرين منهما الوكيل البطريركي وسائر المعية البطريركية، وفيه يجتمع المجمع البطريركي والمحكمة الروحية والمجلس المختلط والقومسيون الزمني.

المادة الثانية: في صفات الذوات المرشحين للبطريركية: أن الشخص المرشح لتبوء الكرسي البطريركي يجب أن يكون من مصفّ مطارنة الكرسي الأنطاكي الموجودين في رعاية إحدى أبرشياته والقائمين بها حق القيام.

المادة الثالثة: يجب أن يكون المرشح للبطريركية سالماً من الشوائب في الآداب والأخلاق متضلّعاً في العلوم والمعارف الدينية والأدبية ومتفقهاً في بقية الفنون ما أمكن، ومبرهنًا في سلوكه السابق أنه من الذين يحافظون أشد المحافظة على

العقائد الدينية والتعاليم الشريفة. وبما أنه أحد رؤساء الكنيسة الأرثوذكسية وأب روعي لجميع الأرثوذكسيين التابعين للكرسي البطريركي الأنطاكي، وهو رابطة اتحاد جميع المطارنة المنضوين إلى كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية مع سائر الكنائس المستقلة الأرثوذكسية؛ يجب أيضاً أن يكون كفؤاً لأن يحامي ويناضل بحرارة عن الإيمان في القول والفعل في كل مكان وزمان وحال حسبما تقتضيه الواجبات الدينية المفروضة على صاحب هذه الرتبة.

المادة الرابعة: ولما كان البطريرك من كبار الرؤساء الروحيين في الكنيسة الأرثوذكسية في المملكة العثمانية وجب أن يكون عثمانياً أباً عن جد، مستكملاً للأوصاف المبينة في المادة السابقة، وحائزاً على ثقة الدولة العلية، وذا اطلاع على الأصول والقوانين، ومتصفاً بصفات تليق بمقامه، إلى غير ذلك مما يستجلب ثقة واعتبار الشعب؛ ليقوم بإجراء ما تؤكد البراءة الشريفة والامتيازات المحسن بها من السلاطين العظام وبجميع شئون الملة الروحية والإدارية.

الفصل الثاني: في بيان هيئة المجلس العمومي الذي يتشكل لأجل انتخاب البطريرك.

المادة الخامسة: إن مجلس الانتخاب العمومي للترشيح والتفريق مؤلف من إكليروس وعوام.

المادة السادسة: الإكليروس الذين يلزم وجودهم في مجلس الانتخاب العمومي هم جميع مطارنة الأبرشيات العاملين والنائب البطريركي في أنطاكية أو في أبرشية مترملة أو وكلاؤهم، ونائب إكليروس دمشق والوكيل البطريركي والكاهن المنتخب بحسب المادة الحادية عشرة الآتية.

المادة السابعة: العوام الذي يلزم وجودهم في مجلس الانتخاب العموم هم عشرة نوات؛ ثمانية وكلاء عن شعب دمشق وواحد عن محلة الميدان وواحد أيضاً عن شعب أنطاكية.

المادة الثامنة: الوكيل عن الشعب يجب أن يكون عمره أكثر من ثلاثين سنة من أبناء الكرسي الأنطاكي ومن تبعة الدولة العلية، وحائزاً الاعتبار في محله، ومعروفاً بحسن السلوك والدراية والإخلاص للكنيسة المقدسة وللدولة العلية.

الفصل الثالث: في بيان صورة انتخاب البطريرك.

المادة التاسعة: عندما يقل الحل في مسند البطريركية الأنطاكية يخبر الوكيل البطريركي جميع مطارنة الكرسي ذوي الأبرشيات والنائب البطريركي في أنطاكية بذلك تلغرافياً، وكل منهم يجاوب في خلال عشرة أيام مُعيّناً اسم الشخص الذي ينتخبه قائماً من مطارنة الكرسي أصحاب الأبرشيات، وهكذا الكهنة في دمشق يجتمعون وينتخبون ذاتاً، والقومسيون الزماني أيضاً يجتمع وينتخب ذاتاً، وفي اليوم الحادي عشر يجتمع المطارنة الذين يوجدون في المركز تحت رئاسة الوكيل البطريركي وتفتح أوراق الانتخاب بأجمعها بحضور الهيئة في الجلسة ذاتها، ومن يحرز الأكثرية في الانتخاب يعتبر قائماً، فإذا تساوت الأصوات بحق ذاتين أو أكثر تُجري الهيئة المذكورة الاقتراع بين المتساويين، ومن أصابته القرعة يعتبر قائماً، وحينئذ تنظم الهيئة مضبطة ترفع بواسطة الولاية الجليلة إلى الباب العالي لصدور الإرادة السنية بالتصديق على القائمة.

المادة العاشرة: بعد صدور الإرادة السنية بالتصديق يحضر حالاً القائم مقام تلغرافياً إلى المطارنة التابعين لبطريركية أنطاكية يدعواهم للحضور بالذات إلى دمشق مركز البطريركية في خلال أربعين يوماً من تاريخ الدعوة لإجراء مقتضيات الانتخاب، وإن تعذر عليه الحضور بالذات لعذر مشروع له أن يوكل من يشاء من مطارنة الكرسي بموجب وكالة قانونية لينوب عنه بإجراء المعاملات الانتخابية على ما سيتم في المعاملات المذكورة، ويحرر القائم مقام أيضاً في الوقت عينه إلى النائب البطريركي في أنطاكية، وإلى من يكون وكيلاً بطريركياً في أبرشية مترملة ليحضر بالذات أو ليرسلوا وكالة عنهم لأحد الإكليركيين؛ لكي يوجدوا بدمشق في اليوم المعين لأجل إجراء معاملات الترشيح والتفريق، وللمطران الذي تفوض وكالة أو أكثر أصوات بعدد الوكالات التي تكون فوضت إليه قانونياً، سواء أكان في الترشيح أو التفريق أو في الانتخاب الأخير.

المادة الحادية عشرة: في اليوم الثلاثين من التصديق على القائمة يستدعي القائم مقام الكهنة والقومسيون الزماني في دمشق لتسمية مائة شخص من معتبري الملة والوجهاء والتجار وأرباب الحرف في دمشق، وتطبع بأسمائهم لائحة ثم

يدعوهم القائمقام هم والكهنة ليجتمعوا في اليوم الخامس والثلاثين تحت رئاسته، وينتخبوا تسعة أشخاص لينوبوا عن الشعب في معاملات الترشيح والتفريق على الإطلاق. ويكون أحد هؤلاء التسعة شخص من الكهنة والثمانية من العوام. ويجب أن يتم انتخاب هؤلاء الوكلاء في الجلسة عينها، وتحرر مضبطة انتخابهم ويوقع عليها الحاضرون والقائمقام البطريركي. وهكذا يحرر القائمقام إلى كهنة محلة الميدان أن يجمعوا وجهاء الملة في محلتهم وينتخبوا شخصاً منهم بموجب مضبطة بيده منهم؛ ليكون وكيلاً عن شعب تلك المحلة في معاملات الترشيح والتفريق. وفي اليوم الأربعين يدعو القائمقام مجلس الانتخاب العمومي؛ أي المطارنة الذين حضروا إلى دمشق عن أصحاب الأبرشيات والوكيل البطريركي في دمشق والوكلاء العشرة المذكورين ووكيلي أنطاكية والوكيل عن أبرشية مترملة، للاجتماع في البطريكية في اليوم الحادي والأربعين، ومتى تم اجتماع ثلثي المدعويين تفتح الجلسة برئاسته حسب الرسوم، ويصير التحقيق عن هوية المدعويين والمصادقة عليها، ويقيد كل عضو اسمه في جدول الحضور بخط يده بحسب الأصالة والوكالة، وتغلق كل الأبواب، ويعطى كل واحد ورقة ليحرر فيها سرّياً اسم من يشاء ويراه حائزاً على الصفات المطلوبة لمسند البطريكية من مطارنة الكرسي الأنطاكي فقط أصحاب الأبرشيات، بحسب المواد المقررة لذلك، ويقوم كل عضو فيضع ورقته في الصينية الموضوعة في منتصف المنتدى، ثم يتقدم كاتب المجمع فيضع أوراق الترشيح أمام الهيئة، ويفتحها اثنان من أعضاء هذا المجلس ينتخبان بالصوت الحي ويعلنان الأسماء المكتوبة فيها، وأي من ظهر اسمه في هذه الأوراق بقطع النظر عن كثرة الأصوات أو قلتها يحسب من المرشحين للانتخاب، فتحرر قائمة بأسماء هؤلاء المرشحين ومضبطة بالعمل يوقع عليها القائمقام وجميع أعضاء مجلس الانتخاب، ويجري تسجيل ذلك كله في السجل البطريركي.

المادة الثانية عشرة: القائمة والمضبطة المذكورتان أنفاً تقدمان حالاً إلى الولاية لترفعاً بواسطتها إلى الباب العالي، حتى إذا وجد بالفرض أشخاص من الذوات المحرة أسماؤهم في هذه القائمة لا ترى فيهم الأهلية بالنظر إلى الأمور الملكية يتعرف عنهم من جانب الباب العالي إلى البطريكية بواسطة الولاية الجليلة، ليصير استثنائهم ويجري الانتخاب على الباقي.

المادة الثالثة عشرة: حالما يتبلغ القائمقام من الولاية الجليلة بتحريرات رسمية جواب الباب العالي المشار إليه يدعو مجلس الانتخاب العمومي إلى حالته الأولى إلى جلسة رسمية في البطريركية في يوم معين، وعند اجتماع الهيئة قانونياً تتلى تحريرات الولاية الجليلة المشار إليها. ويحرر القائمقام وكل عضو في المجلس المذكور من الإكليروس والعوام بما له من حق الرأي في ورقة سرية أسماء ثلاثة من المطارنة الذين لم يصّر استثناءؤهم من قبل الباب العالي، ثم تجمع الأوراق وتضبط في جدول الأسماء المدونة فيها كما جرى في الجلسة السابقة، وتراجع بالتدقيق ويوقع على الجدول العضوان المعينان وكاتب المجمع المقدس، ويخصص بالبيان أسماء المطارنة الثلاثة الذين حازوا الأكثرية، وإذا وجد حين ضبط الأسماء تساوي في الأصوات يزيد به عدد رابحي الأكثرية عن الثلاثة، فيؤخذ العدد اللازم على قاعدة القرعة بين المتساويين، ثم يقيد العمل في السجل البطريركي ويوقع عليه جميع أفراد الهيئة.

المادة الرابعة عشرة: بعد إجراء مقتضيات المادة السابقة تصعد هيئة المجمع المقدس المؤلفة من المطارنة أصحاب الأبرشيات العاملين إلى الكنيسة الكاتدرائية المقدسة، يتبعهم كاتب المجمع ومعه سجل الانتخابات وتذكرة بأسماء الثلاثة الذين ربحوا أخيراً الأكثرية وتقفل الأبواب، وبعد إجراء الصلاة حسب طقسها المعين يتقدم كل من أعضاء المجمع أصالة أو وكالة عن مطران أبرشية غائب ويضع في صينية على المائدة المقدسة بطاقة مكتوباً فيها اسم من ينتخبه من المرشحين الثلاثة. وبعد ذلك يؤتى بالصينية إلى الخورس، وهناك يضبط عدد الأوراق، ثم يفتحها أحد المطارنة ويطلع عليها الآخرين، وكاتب المجمع يضبط جدولاً بالأصوات، فمن ربح أكثر من نصف أصوات المنتخبين يكون هو البطريرك. وإذا لم يحرز أحد هؤلاء المرشحين تلك الأكثرية يعاد الانتخاب في الوقت ذاته إلى أن يربح أحدهم الأكثرية المذكورة. ولا يبرح أحد من هيئة المجمع الكنيسة المقدسة حتى يتم الانتخاب ويسجل عمله حالاً في سجل الانتخابات المذكورة ويوقع عليه كل من المطارنة بالأصالة والوكالة ويختمه بختمه. وعلى الأقلية أن توقع على العمل في السجل المذكور بدون أقل ملاحظة. ثم تقام صلاة الشكر وتفتح أبواب الكنيسة ويتلو كاتب المجمع العمل الانتخابي على مسمع الجمهور، ثم تجمع هيئة مجلس الانتخاب العمومي في قاعة البطريركية وتنظم مضبطة بالعمل يوقع عليها ويختمها كل أعضاء الهيئة، وترفع بواسطة الولاية الجليلة إلى المرجع الإيجابي الأعلى لاستصدار الإرادة السنية السلطانية بمعرفة المنتخب بطريركاً.

المادة الخامسة عشرة: بعد أن تبلغ الولاية الجلية البطريركية العامرة رسمياً صدور الإرادة السنية المشار إليها في المادة السابقة يتقرر بأمر المنتخب للبطريركية إجراء الاحتفال بارتقائه إلى الكرسي البطريركي الأنطاكي حسب الرسوم المفروضة في يوم معين. وأقدم المطارنة شرطونية بين الموجودين يسلمه عصا البطريركية، ومن ثم يباشر البطريرك أعماله مبتدئاً بإرسال المنشور البطريركي الرسمي.

الفصل الرابع: في حقوق وواجبات البطريرك.

المادة السادسة عشرة: البطريرك له التقدم على المطارنة وسائر الإكليروس والرهبان التابعين لكرسي بطريركيته، وهو الرئيس لمجمع الكرسي الأنطاكي المقدس، وله الرئاسة العليا على جميع مجالس الملة الزمنية والروحية والولاية على الأديرة المتعلقة بالبطريركية، وعلى الكنائس والمدارس والأماكن الخيرية والأوقاف والجمعيات المنسوبة إليها، وله حق التمتع بسائر الحقوق الممنوحة من الدولة العلية الأبدية القرار بموجب البراءة الشريفة والامتيازات المذهبية.

المادة السابعة عشرة: على البطريرك أن يحافظ مع المجمع المقدس على التعاليم الأرثوذكسية ويراعي قوام السنن والاشتراكات المجمعية المسكونية والمكانية، وإيفاء الفروض والطقوس والتراتب الكنائسية والحقوق المالية المرعية الإجراء منذ القديم، وحسن إدارة الكنائس والمدارس والأديرة البطريركية، وأن يعتني ويحافظ على المدرسة البطريركية الإكليريكية المنشأة في دير البلمند لتعليم الإكليروس وتهذيبه، وأن يهتم مع المجلس المختلط والقومسيون الزمني في رؤية الأمور والمصالح الجارية بين الحكومة السنية والملة وسواها، وأن يجري الأحكام بموجب القوانين الدينية والأصول المرعية، وأن ينفذ القرارات التي تصدر من مجمع الكرسي الأنطاكي المقدس والمجمع البطريركي وسائر المجالس المالية الروحية والزمنية على أصولها.

المادة الثامنة عشرة: يعين البطريرك شخصاً لائقاً من الإكليروس البطريركي يقيد في دفتر مخصوص الأواني والأمتعة الكنسية والأشياء الثمينة التي في الكاتدرائية وسائر موجوداتها، ويحافظ عليها في خزائن الكنيسة وفي دائرته، ويعين أيضاً محافظاً إكليريكياً مقتدرًا لمكتبة البطريركية التي هي ضمن دائرته.

المادة التاسعة عشرة: لما كان البطريرك هو الرئيس والمتقدم بين إكليروس كرسية وجب بالطبع أن يكون مثلاً صالحاً متحدًا مع المطارنة لما فيه خير الكرسي، محافظاً على حسن سلوك جميع الإكليروس، وعلى اتباع القوانين وتنفيذها بالطرق المرعية.

المادة العشرون: على البطريرك عندما يرغب التوجه إلى أبرشية ما أن ينبئ مطرانها وسائر المطارنة عن محل قصده واسم وكيله في دمشق.

الفصل الخامس: في الصفات اللازمة لمن ينتخب للأسقفية وفي كيفية انتخاب الأساقفة.

المادة الحادية والعشرون: كل ذات ينتخب للأسقفية يجب أولاً أن يكون من تبعة الدولة العلية أباً عن جد وبلا لوم تجاه الدولة والملة. ثانياً: أن يكون أتم السنة الثلاثين من عمره على الأقل وفقاً لقوانين الكنيسة وتام الأعضاء. ثالثاً: أن يكون من الذوات المعروفين في الكنيسة، بمعنى أن تكون سبقت له خدمات صادقة في البطريركية أو في الأديرة أو في معية أحد المطارنة بصفة إكليريكي لا أقل من ثلاث سنوات ليتمكن من إحراز المعلومات الكافية في الأمور الكنائسية، ويتضمن على حسن إدارة الأسقفية. رابعاً: أن يكون قد تلقن العلوم الكنائسية في المدارس الأرثوذكسية ونال شهادتها، وكان من أصحاب الأخلاق الحسنة والآداب والنزاهة.

المادة الثانية والعشرون: عندما يقع الحل في مسند المطرانية بإحدى الأبرشيات يُعين البطريرك وكيلاً عنه فيها من يراه موافقاً ويفيد عنه الحكومة المحلية؛ لأجل معرفته بالصفة المذكورة، وعقيب ذلك يبلغ البطريرك تلك الأبرشية بواسطة الوكيل لكي ترشح ثلاثة ممن أحرزوا الصفات المحررة في المواد السابقة في مدة لا تزيد عن الأربعين يوماً من تاريخ البلاغ، ويرفعون تلك الأسماء بمضبطة قانونية إلى البطريرك والبطريرك يبلغ ذلك إلى جميع مطارنة الأبرشيات العاملين في الكرسي بظرف أسبوع. وكل واحد من المطارنة عليه أن يحضر بنفسه، وإما أن يرسل بطاقة انتخابه واحداً من الثلاثة المرشحين ضمن مغلف مختوم ضمن تحرير مبين فيه اسم من يرغب توكيله ليقع عنه في سجل الانتخابات، ومتى وردت الأجوبة يسلمها البطريرك إلى المطارنة المجتمعين لديه فيأخذون المغلفات المذكورة مصحوبين بكاتب المجمع وسجل الانتخابات إلى الكنيسة، حيث تقام الصلاة المعتادة

ويقدّم الحاضرون أصواتهم، ثم تُفصّل المغلفات ويؤخذ جدول بالأسماء، فالرابع الأكثرية هو المنتخب، وإن تساوت الأصوات يُؤخذ واحد على طريق القرعة ويوضع ذلك في عمل الانتخاب في السجل المذكور، ويوقع عليه المطارنة الموجودون بالأصالة والوكالة، وبعد ذلك يعودون إلى نادي البطريرك ويقدمون له السجل معلنين اسم المنتخب، والبطريرك حينئذٍ يخبر المنتخب، وبعد أن يرد منه خبر قبوله يعلن ذلك للأبرشية ويعين اليوم الذي تجري فيه سيامته.

المادة الثالثة والعشرون: إذا تأخرت الأبرشية عن تقديم مرشحها ضمن المدة المعينة في المادة السابقة فيحق للبطريرك أن يرشح ثلاثة من الإكليروس الذين يرى فيهم اللباقة ويجري بحقهم مفاد المادة المذكورة.

المادة الرابعة والعشرون: حين اقتضاء إقامة أسقف فخري يرسل البطريرك أسماء ثلاثة من الإكليروس الرهباني الأنطاكي الذين يرى فيهم اللياقة لرئاسة الكهنوت إلى مطارنة الأبرشيات العاملين، ويطلب منهم انتخاب أحد الثلاثة للأبرشية القديمة التي سيسميها فينتخبون، وتجري سائر المعاملات على ما ورد في المادة الثانية والعشرين. ويحق للأسقف أن يرشح عند وقوع الحل في مسند إحدى الأبرشيات.

الفصل السادس: في مجمع الكرسي الأنطاكي ووظائفه.

المادة الخامسة والعشرون: يتألف مجمع الكرسي الأنطاكي (السينودوس) من جميع مطارنة الكرسي ذوي الأبرشيات، ويجتمع أحياناً في كل ثلاث سنوات مدة واحدة في المحل الذي يختاره البطريرك تحت رئاسته في أوائل شهر أيار، وفي غير هذا الوقت أيضاً إذا دعت الحاجة، أما التأمه فبطلب البطريرك ومن يتعذر عن الحضور لعذر مشروع يُقّم أحد المطارنة وكيلاً رسمياً عنه.

المادة السادسة والعشرون: لمجمع الكرسي الأنطاكي المقدس أن يطّلع على الخلاصة التي يجب أن تقدّم له من المجمع البطريركي معلنة الشؤون التي جرت في السنوات الثلاث السابقة، وأن ينظر في مسائل التعليم والوعظ ونشر الكتب اللازمة لفائدة الملة الدينية والأدبية، وأن يرى ويحل كل المشكلات التي تحال إليه بصفة كونه المرجع الأعلى توفيقاً للقوانين الكنائسية ما عدا الدعاوى التي حكم فيها استئنافاً في المجمع البطريركي أو في المجلس المحتفظ.

المادة السابعة والعشرون: إذا طلب ثلثا أعضاء مجمع الكرسي الأنطاكي عقد جلسة فوق العادة موضحين الموجب لذلك فعلى البطريرك أن يلبي طلبهم ويعقد تلك الجلسة.

المادة الثامنة والعشرون: إذا وقعت حوادث هامة في الكرسي في غير وقت اجتماع مجمع الكرسي المقدس تقتضي نظر المجمع فيها ولم يستدع البطريرك المطارنة للاجتماع لأجل ما ذكر وفقاً للمادة الخامسة والعشرين، فللمطارنة أن يقدموا إليه بطلب الاجتماع موضحين السبب، وعليه أن يلبي طلبهم ويستدعيهم إذا كان الطالبون ثلثي أعضاء المجلس.

المادة التاسعة والعشرون: يعين البطريرك كاتباً إكليريكياً لهذا المجمع واجباته كواجبات كاتب المجمع البطريركي الوارد ذكرها في المادة السادسة والأربعين.

الفصل السابع: في حقوق وواجبات المطارنة.

المادة الثلاثون: للمطارنة في أبرشياتهم الحقوق التي تخولهم إياها القوانين الكنائسية والبراءة الشريفة والامتيازات المذهبية. ولهم بصفة الرئاسة حق السيطرة في دوائهم على الجمعيات الخيرية والهيئات العمومية المالية وتدريبها والرعية على الأعمال القانونية والثبات والنمو.

المادة الحادية والثلاثون: على كل مطران في أبرشيته أن يعتني بتعليم أبناء ملته العلوم الدينية والأدبية في المدارس الأرثوذكسية، ويجب على من يتقدم إلى الكهنوت علمانياً كان أو راهباً أن يكون متخرجاً في إحدى تلك المدارس، ومن تظهر فيه النجاسة وحسن الاستعداد يسعى بإدخاله في المدارس اللاهوتية الأرثوذكسية لتحصيل علوم اللاهوت العالية.

المادة الثانية والثلاثون: على المطارنة الاعتناء بالأعمال الخيرية وعضد القائمين بشئونهم ونفقاتها والاهتمام بالمنشآت الخيرية اللازمة كالملاجئ للأيتام والعجزة والمرضى ونحو ذلك.

المادة الثالثة والثلاثون: على كل من المطارنة أن يقيم في أبرشيته وفقاً للقوانين الكنائسية، وأن يطوف متفقداً أحوال رعيته بالذات أو بواسطة من يعتمد عليهم عند وجود عذر مشروع.

المادة الرابعة والثلاثون: يجب على المطارنة أن يوقروا البطريرك بما أنه المتقدم بينهم ورئيس ملتهم، وأن يحترموا بعضهم بعضاً ويراعوا بعضهم حقوق بعض.

المادة الخامسة والثلاثون: إذا صدر من أحد المطارنة أمر مخالف للقوانين الكنائسية أو المدنية فيجري التحقيق عنه والحكم فيه من قبل مجمع الكرسي الأنطاكي المقدس تحت رئاسة البطريرك على مقتضى القوانين الكنائسية والامتيازات المذهبية.

المادة السادسة والثلاثون: إذا رغب أحد المطارنة في الذهاب إلى أبرشية ما فعليه أن ينبئ البطريرك ومطران تلك الأبرشية عن ذلك.

المادة السابعة والثلاثون: إن جميع الأحكام المالية الروحية التي تصدر في كل أبرشية يقتضي أن تكون نتيجة فحص وتدقيق وقرار المحكمة ذات الاختصاص في تلك الأبرشية بحسب الاقتضاء ضمن دائرة القانون المخصوص المعمول به في دائرة البطريركية الأنطاكية.

المادة الثامنة والثلاثون: إذا استعفى أحد المطارنة من أبرشيته أو الأساقفة من خدمته وقبل استعفاؤه فله أن يقيم في دير نذره أو حيثما يعين له البطريرك والمجمع، وعلى البطريرك أن يتدارك ما يلزم له من النفقة.

الفصل الثامن: في المجمع البطريركي.

المادة التاسعة والثلاثون: إن المجمع البطريركي يتألف من خمسة أعضاء؛ اثنان منهم من مطارنة الأبرشيات، واثنان أسقفان فخريان، وأرشمندريت أو كاهن تحت رئاسة أحدهم المتقدم شرطونية من ذوي الأبرشيات التابعة للكرسي، ويصير تعيينهم من قبل البطريرك بتذكرة مخصوصة. ويلبث هذا المجمع ثلاثة أشهر في كل سنة ابتداؤها في أول شهر أيار، ويمكن تمديد هذه المدة إلى ستة أشهر بحسب الاقتضاء، ولا يصرف النظر عن طلب لعضوية المجمع من المطارنة أصحاب الأبرشيات في دورة إلا بسبب عجز سن الشيخوخة أو مرض، على أن يدعى من يكون بعده من المطارنة بحسب الترتيب الآتي:

الدور الأول: عكار وديار بكر.

الدور الثاني: حماة وحلب.

الدور الثالث: طرابلس واللاذقية.

الدور الرابع: بيروت وزحلة.

الدور الخامس: حمص ومرسين.

الدور السادس: جبيل وصور وصيدا.

الدور السابع: أرضروم وحوران.

المادة الأربعون: وظيفة هذا المجمع النظر والحكم في جميع المسائل الروحية والاعتناء بتنظيم حالة الأديرة البطريركية ورؤية حساباتها والتدقيق فيها، وترقية شئونها والنظر في مسائل التعليم والوعظ ونشر الكتب اللازمة لفائدة الملة الدينية والأدبية وترقية شئون الملة، والحكم في المشاكل المالية والدعاوي الروحية الإفرادية نظير الزيجات وسواها بصورة استئنافية بحسب أحكام القوانين الكنائسية، وفي الأمور التي تقرر في مجمع الكرسي الأنطاكي، ويُحال إليه من قبل البطريرك إجراؤها والمناظرة عليها. وفي نهاية كل سنة ينظم مضبطة بخلاصة الأعمال التي أجراها والأحكام التي أعطاها في تلك المدة لكي تحفظ عند كاتب المجمع لتسلم إلى مجمع الكرسي الأنطاكي مع بقية الأوراق الجمعية الواجب تسليمها له عند التئامه، وقرارات هذا المجمع تعطى بالاتفاق أو بالأكثرية.

المادة الحادية والأربعون: يلتئم المجمع مرتين في الأسبوع، وإذا مسّت الحاجة للبطريرك أو للرئيس أن يعقد جلسات أخرى فوق العادة، وجميع القرارات التي تصدر يقتضي أن يوقع ويختم عليها كل من الأعضاء بالذات. وأما الصور التي تعطى عنها عند الإيجاب فيصدق الكاتب على مطابقتها للأصل وتختتم بختم المجمع.

المادة الثانية والأربعون: يجب التوقيع على كل القرارات الجمعية من الرئيس وسائر الأعضاء، ولا يسوغ لأحد منهم الامتناع عن التوقيع بداعي مخالفة القرار لرأيه، بل يجب أن يوقع عليه. وله أن يبين تحت توقيعه أسباب مخالفته، ولا يحق للرئيس أن يوقف سير الجلسة القانوني أو يمنع إعطاء القرار فيها. وأحكام هذه المادة تشمل جميع جلسات الهيئات القانونية المتعلقة بالكرسي.

المادة الثالثة والأربعون: لا يجوز للبطريرك الانفراد بعمل من الأعمال المختصة بالمجمع البطريركي، وإذا اقتضت الحال لاجتماع هذا المجمع بعد انقضاء المدة

المعينة لاجتماعه للبطيريك أن يستدعي من يشاء من المطارنة لتشكيل الهيئة القانونية لذلك الخصوص.

المادة الرابعة والأربعون: يعطى من صندوق البطيريركية كل من المطرانين صاحبي الأبرشيات اللذين يطلبان لعضوية المجمع البطيريركي والمجلس المختلط مبلغ عشر ليرات شهرياً بمثابة مصاريف له، ويخصص لكل منهما محل لإقامته في دار البطيريركية على نفقتها، وأما من يطلب فوق العادة فتعطى له المصاريف السفرية فقط.

المادة الخامسة والأربعون: إن أحكام المواد السالفة تعتبر مرعية الإجراء أيضاً حين خلو المسند البطيريركي ووجود قائم مقام بطيريركي.

المادة السادسة والأربعون: يعين البطيريك كاتباً للمجمع من طغمة الإكليروس، وعلى هذا الكاتب أن يضبط معاملات وقرارات المجمع، ويقدم لجانب الرئاسة جميع الأوراق والمعروضات المحالة من البطيريك ويحفظ جميع الأوراق المختصة بمعاملات المجمع وأحكامه، وأن يدوّن أعمال الجلسة وقراراتها في السجلات المخصصة، ويوقع عليها. وهو مسئول عن صحتها وسلامتها. ويجب أن يكون أميناً وكتوماً للسري.

المادة السابعة والأربعون: للمجمع البطيريركي ختم مخصوص منقوش عليه العبارة الآتية: «المجمع البطيريركي الأرثوذكسي بالشام سنة ١٩٠٦»، تختم به كل الأوراق والإعلامات التي تصدر منه ويحفظ عند الرئيس.

الفصل التاسع: في المجلس المختلط.

المادة الثامنة والأربعون: المجلس المختلط يتألف من أربعة أعضاء ورئيس بتذكرة مخصصة من البطيريك؛ اثنان من أعضاء المجمع البطيريركي واثنان من ذوي المعلومات والدراية والاختبار من الشعب بدمشق كلاهما من تبعة الدولة العلية حائزان الاعتبار والثقة وسن كل منهما لا يقل عن ثلاثين سنة ورئيس هذا المجلس يكون رئيس المجمع البطيريركي.

المادة التاسعة والأربعون: إن انتخاب العضوين العلمانيين يجري بالصوت السري من قبل المحكمة الروحية والقوميسيون الزمني تحت رئاسة الوكيل البطيريركي

بحسب الأصول، وعند جمع الأصوات يؤخذ للعضوية الاثنان المكتسبان الأكثرية ويحفظ جدول الانتخاب لحين الاقتضاء. أما مدة عضويتها فسنة واحدة ويجوز تجديد انتخابهما.

المادة الخمسون: عند الاقتضاء في غياب المجمع البطريركي يكلف البطريرك من المطارنة من يلزم لإكمال هيئة هذا المجلس.

المادة الحادية والخمسون: يقتضي على كل عضو علماني أن يحضر المجلس أيام جلساته، وأن يُعلم الرئاسة عن غيابه إذا عرض عذر مشروع لكي تستدعي بدلاً منه المكتسب الأكثرية في جدول الانتخاب، بحيث تكون الجلسات دائماً مكتملة الأعضاء.

المادة الثانية والخمسون: للمجلس المختلط حجرة خصوصية في البطريركية وخزانة للأوراق والدفاتر والكتب المتعلقة، وجميعها باستلام الكاتب وعلى عهده.

المادة الثالثة والخمسون: يعين البطريرك للمجلس كاتباً براتب مناسب يُعطى من واردات المجلس، ووظيفته كتابة أعمال المجلس والمحافظة على أوراقه وتنظيم الدفاتر اللازمة، ويكون مسئولاً عن كل ذلك، وليس له رأي في قرارات المجلس.

المادة الرابعة والخمسون: جميع القرارات التي تصدر من المجلس المختلط يجب أن يوقع عليها كل أفراد الهيئة وتسجل بعد ذلك في سجل خصوصي، وبعد أن يوقع عليها في السجل أيضاً تصدر بصورة إعلان بتوقيع الرئيس والكاتب وبختم المجلس موضحاً عليه استيفاء الرسوم.

المادة الخامسة والخمسون: للمجلس المختلط ختم خصوصي منقوش عليه العبارة الآتية: «المجلس المختلط لبطريركية الروم الأرثوذكس بالشام سنة ١٩٠٦»، تختم به كل الأوراق والإعلامات التي تصدر منه ويحفظ عند الرئيس.

المادة السادسة والخمسون: المجلس المختلط يرى استثنائاً كل الدعاوى التي حكم بها بداية في المحاكم البدائية الكائنة في مركز البطريركية وفي أبرشيات الكرسي الأنطاكي واستؤنفت وأحيلت إليه من جانب المقام البطريركي.

المادة السابعة والخمسون: تراعى في معاملات المجمع البطريركي والمجلس المختلط أحكام قانون أصول المحاكمات المخصوص وسائر القوانين المعمول بها في دائرة الكرسي الأنطاكي، أما الرسوم الواجب استيفاؤها من أرباب الدعاوى فتكون بمقدار نصف الرسوم المقدرة من قبل دولتنا العلية في نظامها المخصوص.

الفصل العاشر: في تركات البطارقة والمطارنة وسائر الإكليروس والرهبان.

المادة الثامنة والخمسون: إن ما يخلفه البطريرك من أمتعة كنائسية وكتب وأثاث وعقار ونقود وأوراق مالية يترك كله للكرسي وفقاً عليه والكرسي يلتزم حينئذٍ بدفع النفقات اللازمة بحسب الرسوم الكنائسية وبإلغاء دينه وبتنفيذ وصيته المطابقة للقوانين الكنائسية.

المادة التاسعة والخمسون: إن ما يخلفه المطران ذو المنصب من أمتعة كنائسية وكتب وأثاث وعقار يلحق بأوقاف أبرشيته، وما يبقى من الأموال النقدية أو الأوراق المالية فيبعد أن تؤخذ منها نفقات جنازته والحسنة اللازمة عن نفسه بحسب رسوم كنيسة المقدسة، ومقدار الدين الذي ثبت بذمته يقسم الباقي بمعرفة البطريرك أو وكيله مع أعضاء المحكمة الروحية ومجلس الملة في أبرشيته إلى ثلاثة أقسام؛ الثلث إلى البطريرك والثلث إلى الورثة من أقربائه والثلث الثالث يُشترى به أملاك يعود نفعها على أعمال الخيرية في وطنه.

المادة الستون: فور وقوع وفاة البطريرك يصير الختم على متروكاته من قبل المجمع البطريركي إذا كان ملتصقاً، والوكيل البطريركي وقومسيون الملة وعلى متروكات المطارنة في الأبرشيات من قبل المحكمة الروحية ومجلس الملة في مركز الأبرشية. وعند عدم وجود مجلس فمن قبل وجهاء الشعب. أما متروكات المطارنة الفخريين فيختم عليها من قبل البطريرك إن كان ذلك في المركز البطريركي أو من قبل الرئاسات الروحية المحلية حيثما وجدوا. وأما متروكات رؤساء الرهبان ورئيسات الراهبات فيختم من قبل رهبنة الدير ريثما يعرف الرئيس الروحي المتولي على ذلك الدير. وأما على متروكات الرهبان والراهبات المنتمين إلى الأديرة فمن قبل رؤسائهم ومتقدمي الرهبنة بالاشتراك أو ممن يوكلون من قبل رؤسائهم الروحيين إن توفوا بعيدين عن أديرتهم. وأما الرهبان الموجودون في خدمة البطريرك أو في خدمة المطارنة أو المقيمون في دوائرهم الروحية فيختم على متروكاتهم من قبل البطريرك أو المطارنة أو وكلائهم.

المادة الحادية والستون: جميع متروكات رهبان الأديرة ورؤسائها على اختلاف درجاتهم والراهبات ورئيساتهن تعود للأديرة المنتمين هم إليها ما لم تكن لهم

وصية قانونية، فتراعى حينئذ شروطها. وهذا أيضًا يشمل الرهبان والراهبات الذين يتوفون وهم داخل الدير والذين يموتون بعيدين عنه حالة كونهم منتقلين إليه. وأما الرهبان على اختلاف درجاتهم فالذين يتوفون وهم في خدمة البطريك أو خدمة المطارنة أو في دوائر أبرشياتهم فكل ما يخلفونه تؤخذ منه نفقة جنازهم والحسنة اللازمة عن نفوسهم وتوفى ديونهم، ويقسم الباقي منه إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: لمن يوجدون في خدمته بطريركًا كان أو مطرانًا، والثاني: للورثة من أقربائهم، والثالث: يُشترى به أملك يعود ريعها على المحلات الخيرية في أوطانهم، وإن وجدت لهم وصية قانونية فيعمل بها.

المادة الثانية والستون: بعد تسمية القائمقام البطريك ينتخب المطارنة الموجودون في دمشق اثنين منهم، وينتخب القومسيون اثنين من أعضائه ويباشر الأربعة تحت رئاسة القائمقام البطريك تحرير تركة البطريك المتوفى ورؤية حسابات البطريكية من واردات ومصاريف عن مدة بطريكيته، وحينئذ تفض الأختام بحضور الذوات الذين ختموها وتباشر هذه اللجنة عملها، ويجري بعد ذلك تنفيذ المعاملات المتعلقة بالتركة بحسب مفاد المادة الثامنة والخمسين بمعرفة الهيئة ذاتها. أما المحررات والأوراق فتحفظ مختومة لتسلم إلى البطريك الجديد. وأما باقي التركات فيصير تحريرها ورؤية حساباتها وتنفيذ معاملاتها بحسب مفاد المادتين التاسعة والخمسين والستين بمعرفة من ختموا عليها ومعرفة الرئاسة الروحية.

المادة الثالثة والستون: تحرير تركات العوام وتصفيتها وتوزيعها على الورثة الشرعيين ونصب الأوصياء على القصر والمعتهين، وحفظ نصيب هؤلاء ونصيب الغائبين غيبة منقطعة ومحاسبة الأوصياء وتنفيذ وصيات المؤمنين يجري العمل بشأنها وفقًا للأصول المتبعة ولمقتضى البراءة الشريفة والامتيازات المذهبية بمعرفة البطريك والمطارنة في دائرة كل منهم.

الخاتمة: المادة الرابعة والستون: يجري العمل بموجب أحكام هذا القانون من كل من يناط به، وإذا دعت الحاجة في المستقبل لتعديل أو إضافة مادة ما عليه فيجري ذلك برأي مجمع الكرسي البطريكي الأنطاكي المقدس.

انتهى في ٣١ أيار شرقي من سنة ١٩٠٦ في قاعة البطريكية. فصَدِّقَ على هذه
النسخة من قبلنا نحن الموضوعة إمضاواتنا وأختامنا أدناه في ٢١ آب شرقي سنة ١٩٠٦
في قاعة البطريكية العامرة.

بطريك أنطاكية وسائر المشرق
غريغوريوس

مطران حماة وتوابعها
غريغوريوس

مطران اللاذقية وما يليها
أرسانيوس

مطران جبيل والبترون وما يليها
بولس

مطران بيروت وتوابعها
جراسيموس

مطران عكار وما يليها
باسيليوس

مطران كيليكية
ألكسندروس

مطران صيدنايا ومعلولا وزحلة وتوابعه
جرمانوس

الفهارس

سلسلة البطاركة

١٩٢٨-١٤٥٣

- (١٣٩) دوروثيوس الثالث ١٤٩٧-١٥٢٣.
- (١٤٠) ميخائيل الخامس ١٥٢٣-١٥٤١.
- (١٤١) دورثيوس الرابع ١٥٤١-١٥٤٣.
- (١٤٢) يواكيم الرابع ١٥٤٣-١٥٧٦.
- (١٤٣) ميخائيل السادس ١٥٧٧-١٥٨١.
- (١٤٤) يواكيم الخامس ١٥٨١-١٥٩٢.
- (١٤٥) يواكيم السادس ١٥٩٣-١٦٠٤.
- (١٤٦) دوروثيوس الخامس ١٦٠٤-١٦١١.
- (١٤٧) أثناسيوس الثالث ١٦١١-١٦١٩.
- (١٤٨) أغناطيوس الثالث ١٦١٩-١٦٣٤.
- (١٤٩) أفثيميوس الثالث ١٦٣٥-١٦٣٦.
- (١٥٠) أفثيميوس الرابع ١٦٣٦-١٦٤٨.
- (١٥١) مكاريوس الثالث ١٦٤٨-١٦٧٢.
- (١٥٢) نيوفيطوس الأول ١٦٧٤-١٦٨٤.
- (١٥٣) أثناسيوس الرابع ١٦٨٦-١٦٩٤.
- (١٥٤) كيرلس الثالث ١٦٩٤-١٧٢٠.
- (١٥٥) أثناسيوس الرابع ١٧٢٠-١٧٢٤.

- (١٥٦) سلفسترس الأول ١٧٢٤-١٧٦٦.
- (١٥٧) فيليمون الأول ١٧٦٦-١٧٦٧.
- (١٥٨) دانيال الأول ١٧٦٧-١٧٩١.
- (١٥٩) أفتمبيوس الأول ١٧٩٢-١٨١٣.
- (١٦٠) سيرافيم الأول ١٨١٣-١٨٢٣.
- (١٦١) مثنوديوس الأول ١٨٧٣-١٨٥٩.
- (١٦٢) أيروثيوس الأول ١٨٥٠-١٨٨٥.
- (١٦٣) جراسيموس الأول ١٨٨٥-١٨٩١.
- (١٦٤) اسبيريدون الأول ١٨٩٢-١٨٩٨.
- (١٦٥) ملاتيوس الثاني ١٨٩٩-١٩٠٦.
- (١٦٦) غريغوريوس الرابع ١٩٠٦-١٩٢٨.

